

أوربا

في العصور الحديثة



الفجر

دكتور جلال يحيى

١٩٨١

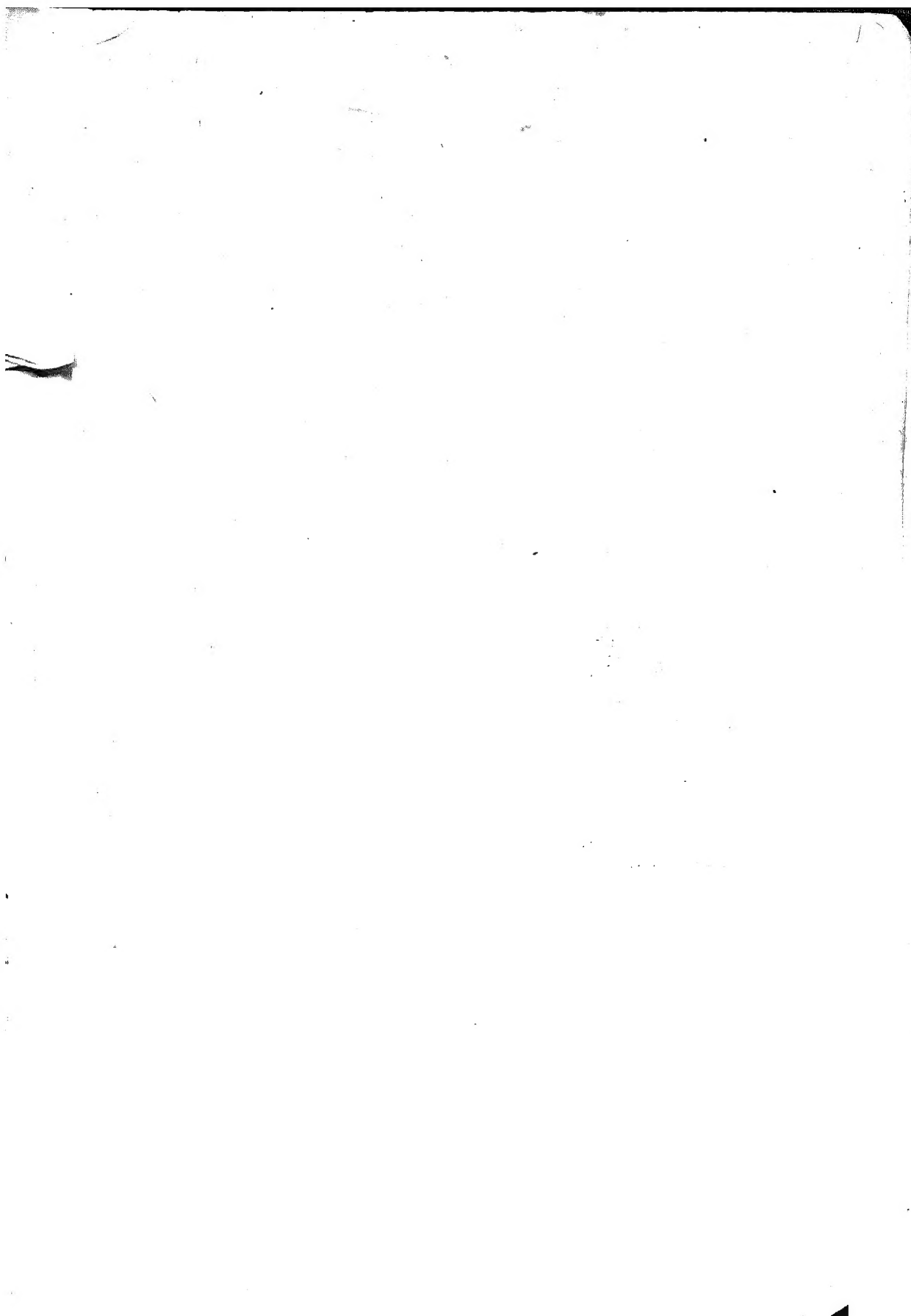


الهيئة المصرية العامة للكتاب
مركز الإسكندرية

اهداءات ٢٠٠٢

ا.د/ أسامة محمود غنيم

الاسكندرية



أوربا

في المصوّر الحديثة



الفجر



دكتور جلال يحيى

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

١٩٨١

٧٥٠٢٧



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فروع الإسكندرية

مقدمة

تعود أساتذة التاريخ الحديث أن يبدؤوا شرح تاريخ هذه الفترة مع تاريخ القرن السادس عشر ؛ وكانوا قد تعودوا ، قبل ذلك ، أن يقصروا تاريخ عصر النهضة الأوروبية على « حركة الإنسانيات » ؛ عازفين عن شرح التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت قد سبقتها ، ومهدت لها ؛ وكانت أساساً طبيعياً ومنطقياً لكل تغيير لاحق .

وإذا ما حاول الباحث أن يستكشف العوامل الاجتماعية والاقتصادية، العميقة ، التي أدت إلى تحول حياة العالم من العصور الوسطى إلى التاريخ الحديث ، فإنه سيجد نفسه بالضرورة يرجع إلى الوراء ، زمنياً ، باحثاً عن الأصول الفعالة ؛ فيعمل في القرن الخامس عشر ، ويصل حتى إلى القرن الرابع عشر ؛ حيث يجد المعطيات الأولى الدالة على التغير ، أو التحول ؛ والتي تصلح أساساً صلباً لشرح تيارات التاريخ الحديث . وكان هذا هو منحنى السير الذي انتهجته ، باحثاً عن الأسس الاقتصادية ، وتطور وسائل وعلاقات الإنتاج ، والنقل ، كأساس لتغيير شكل المجتمع ، وعلاقاته الطبقيّة ، وحتى يمكننا أن نصل بعد ذلك إلى شرح تطور البنيان الفوقي السياسي ، والنشاط الثقافي والفني للإنسان هنا وهناك .

ولقد وجدت أن فترة « فجر التاريخ الحديث » تمثل مرحلة هامة من تاريخ البشرية في تطورها من حياة العصور الوسطى ، إلى الحياة في التاريخ الحديث ، وأن أسس هذه الفترة ترجع إلى القرن الرابع عشر ، وحتى إلى السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر ؛ وأنه من الضروري ربط عناصر هذه الفترة ببعضها ، وفي شكل تحليلي وبنياني ، حتى يتمكن الدارس من مواصلة فهم الخطوط الأساسية للتاريخ عبر عصوره المختلفة .

وهذا الجزء من الكتاب ، أو هذا المجلد ، هو المجلد الأول من مجموعة تشتمل على ثلاث مجلدات ، عن « الفجر » ، وعن الفترة التي تصل « حتى الحرب العالمية الأولى » ؛ ثم عن « الفترة المعاصرة » .

ولقد مهدت لهذا الجزء من الكتاب ، والخاص « بالفجر » ، بتمهيد عن مميزات العصور الوسطى ، لاظهار مدى التغيرات التي ستحدث فيما بعد . وقسمت الكتاب إلى أبواب عن تفكك عالم العصور الوسطى في الغرب وعن التغيرات العميقة التي وقعت في أوروبا ؛ وعن زحف العثمانيين على جنوب شرق أوروبا ، وفتحهم القسطنطينية ؛ وعن ظهور النهضة الأوروبية وإزدهارها ، وعن الكشف الجغرافية ؛ وعن الصراع في الحوض الغربي للبحر المتوسط ؛ ثم التوسع العثماني في الشرق الأدنى ؛ وأفردت باباً للإصلاح الديني ، وسختمتها بباب عن التغيرات قرب أوروبا ، ووقف النمو الاسباني . الأمر الذي يوصلنا إلى مطلع القرن السابع عشر .

وأرجو أن يكون هذا الكتاب نافع للدارس والباحث والطالب ، وأن يسد نقصاً في المكتبة العربية ؛ وعلى الله قصد السبيل .

الاسكندرية في ٤ أكتوبر ١٩٨٠

دكتور
جلال يحيى

تمهيد

مميزات العصور الوسطى

لا شك في أن التاريخ حركة مستمرة ، وفي أن عصوره لا تبدأ في سنة معينة ، ولا تنتهى في سنة محددة . ولا شك كذلك في أن هذه العصور التاريخية هي تقسيم إعتبارى بحث ، تم الاتفاق عليها لتسهيل دراسة الدارسين لفترة معينة ، لها عياناتها الرئيسية ، والتي قد تختلف عن مميزات الفترة الأخرى . كما أن الانسان هو أهم عامل في التاريخ ، وهو لا يتغير فجأة ، إذ أن تغيره مرتبط بالتطور الاجتماعى ، والذي يستند بدوره إلى عوامل مادية ومعنوية ، بطيئة في حركتها ، وفي تفاعلها ، وفي تأثيرها على المجتمع والانسان ؛ فأسباب الأحداث التاريخية تكون موجودة قبل الأحداث بزمان ، ولا تظهر نتائجها إلا بعد الأحداث بزمان آخر .

وقد إعتقد البعض أن العصور الوسطى تبدأ بجولس الامبراطور دقلديانوس على عرش الامبراطورية الرومانية سنة ٢٨٤ ؛ وكان ملكا من النوع الشرقى القديم ، مستبدًا مطلقًا ، ويضفى على شخصيته مظاهر الألوهية والتقدس ؛ وإضطهد الديانة المسيحية والمسيحيين أكبر إضطهاد ، وهدم الكنائس ، وأحرق الأناجيل ، ونفى المسيحيين ، وعمل على إستئصالهم من الامبراطورية الرومانية ، وظهرت هذه النزعة بشكل واضح في مصر ، حتى إعتبر عهده أكبر عهد للاضطهاد في التاريخ المصرى ، وأخذ أقباط مصر سنة توليه السلطة بداية للتاريخ القبطى ، أو تاريخ « الشهداء » . وإعتبر بعض المؤرخين هذه السنة بداية للعصور الوسطى .

ونظر آخرون إلى سنة ٣٢٣ على أنها بداية صالحة للعصور الوسطى ، وهي السنة الأولى التي تولى فيها قسطنطين الكبير حكم الدولة الرومانية . ويمثل حكم قسطنطين تطوراً كبيراً في تاريخ الانسانية . فقد تم الاعتراف فيه بالدين المسيحي ديناً للدولة ، بعد أن كان ديناً للأقلية المضطهدة ؛ ونقل عاصمة الدولة الرومانية من روما إلى القسطنطينية ، التي أنشأها على شاطئ البوسفور في الشرق ، وكان ذلك نصريقاً بين القسمين الشرق والغرب في الإمبراطورية ، وتمهيداً لظهور الدولة البيزنطية فيما بعد . وكان تركه روما يعني تحولها إلى مرتع خصب لسلطان البابوية ، الذي سينمو في العصور الوسطى ، وبشكل يمهّد لكي تصبح روما قاعدة للكنيسة والبابوية ، وتعمل فيها ، وتتوسع منها . الكنيسة والبابوية ؛ والسلطة التي مارسها في حياة الانسان هامة في تاريخ الانسانية ، وبشكل يسمح للبعض باعتبار سنة ٣٢٣ بداية ممكنة للعصور الوسطى .

وهناك من إعتبر تدعيم الدين المسيحي هو بداية العصور الوسطى ، فاعتبروا سنة إعتلاء يوليان الكافر عرش الامبراطورية (سنة ٣٦٢) بداية للعصور الوسطى ، إذ أنه أنكر المسيحية ، وحاول أن يعيد الديانات الوثنية القديمة . وفشل في ذلك ، وبشكل يدل على التغير الذي حدث للانسانية ، نتيجة لثبات الاسس التي قامت عليها المسيحية . وإعتبر غيرهم أن سنة ٣٧٦ التي إعتنق فيها الفوط الغربيون الدين المسيحي ، حداً فاصلاً بين التاريخ القديم والوسيط . ونظر غيرهم إلى سنة ٣٧٩ التي عمل فيها الامبراطور ثيودوسيوس على أنها الحد الفاصل ، خاصة وأنه عمل على تدعيم الدين المسيحي ، وتعميمه بقوة القانون بين الناس .

وهناك من يعتبر أن سنة ٢٩٥ هي بداية العصور الوسطى ، وهي السنة التي قسم فيها الامبراطور ثيودوسيوس الدولة رسمياً إلى شطرين منفصلين : الشرق وعاصمته القسطنطينية ، والغربي وعاصمته روما ، بين لابنيهِ . وأخيراً فإن هناك من ينظر إلى سنة ٤١٠ على أنها هي البداية المعاصرة للعصور الوسطى ، وذلك

نتيجة لقيام القوط الغربيين ، بقيادة ملكهم آلاريك ، بدخول إيطاليا ، واحتلال روما نفسها. وإنهت هجمة روما القديمة، وإن كانت قد احتفظت بشبح الإمبراطورية حتى سنة ٤٧٦ ، حين أرسل صولجان الإمبراطورية الغربية منها ، للجلوس على عرش الإمبراطورية الشرقية ، وكانت النهاية الرسمية للإمبراطورية الغربية .

وهكذا بدأت العصور الوسطى ، بنهاية دولة الرومان في مدينة روما ، مع تدعيم الدين المسيحي في أوروبا ، ونمو الكنيسة وسلطانها في روما ومنها ويمكن اعتبار أواخر القرن الخامس الميلادي بداية لها .

هذه هي وجهة نظر المؤرخين بشكل عام ، ولكن علينا ألا ننسى أن منطقة الشرق الأدنى شهدت ظهور الاسلام بعد ذلك ؛ وكان الاسلام ثورة دينية وأخلاقية وسياسية ، وثورة تشريعية واقتصادية في نفس الوقت ؛ وانتشر في مدى أربعين عاماً من حدود الصين إلى بحر الظلمات ؛ وأثر في سكان كل المنطقة ، وأثر في غرب أوروبا نفسها . وكان ظهور الاسلام بداية التاريخ الاسلامي ، أو تاريخ العصور الوسطى الاسلامية . وإذا كانت بعض المناطق ، مثل مصر ، قد حددت تاريخها على أنه مصر الرومانية . أو البيزنطية ، قبل دخولها الاسلام ، فإن مناطق أخرى كثيرة ترجع تاريخها قبل الاسلام ، إلى التاريخ القديم ، وتسلمه إلى الباحثين والدارسين في هذه العصور .



وكان مؤرخو المدرسة القديمة يعتقدون أن العصور الوسطى كانت فترة من تاريخ الانسانية يحجبها الظلام ، وتنحط فيها المدنية ، وبالتالي يصبح تاريخها لا هو بالقديم ولا هو بالحديث ، تاريخاً غير ذي قيمة ، أو له قيمة محدودة . في الاتجاهات الحضارية والانسانية ؛ وفي تطور التقدم العالمي . فالدولة الرومانية إنهارت وإنهار معها ما كانت تحويه من المدنية والعمران ، وقامت على أنقاضها

دول متبررة متأخرة ، وظل العالم في تلك الحال إلى أن بزغت شمس النهضة في فجر التاريخ الحديث .

ويذكر المؤرخ جيبون عن فترة الانتقال بين العصر القديم والعصر الوسيط إن هذا الجو كان مليئاً بالتدهور والانحيار الذي تغلبت فيه البربرية والدين على النظام والحضارة .

والواقع أن العصور الوسطى لم تكن دامية في ظلالها ، ولم تخل من مدنية لها شخصيتها وإنتاجاتها وطبيعتها الخاصة ، وإن كانت لا تعتبر في مرتبة المدنية الرومانية ، أو مرتبة المدنية في العصور الحديثة ؛ وذلك لاختلاف الأسس التي قامت عليها ، فمدنية العصور الوسطى كانت نتيجة للظروف والعوامل ، وتطور ظروف الإنسان التي تسير موكب تطور التاريخ البشرى .

ولاشك في أن القضاء على الدولة الرومانية ، وتأسيس الدول الجديدة ، وما إليها من تاريخ الحضارة كانت دوراً هاماً من أدوار الانتقال والتطور في تاريخ الإنسان . إلا أنه من الواجب ألا نبالغ ، بأي حال من الأحوال ، في أن تلك الدول التي قامت على أنقاض الدولة القديمة كانت خالية من كل نظام ومن كل مدنية وحضارة ، وأن صفة الهمجية غلبت عليها ، وقضت على ما كان قائماً في الدولة الرومانية ، عندما نزل بها هؤلاء . من مدنية وحكومة وحضارة .

والواقع أن تلك الدول كانت لها مدنياتها ونظامها ، الذين قد لا يقارنان بمدنية روما وحضارتها ، ولكنها كانت مدنياتها ونظام حضارى من نوع معين . ولا شك في أن كثيراً من معالم الحياة في العالم الوسيط قد استند إلى ما كان موجوداً لدى القبائل الجرمانية والمتبررة من نظام ، مع ما كان قائماً في روما ؛ وتكون مزيج من النظام الروماني والبربرى وتكيف بالشكل الملائم للعصر ، والملائم لروح الدين ، الذي كان يسود العصور الوسطى ، والذي كان يسيطر على كل ما في الحياة العامة والخاصة من نشاط .

وكان النشاط الانساني في العصور الوسطى يعتمد على فكرتين هما : العقيدة والحرب . وظهر أثر ذلك في كثير من نواحي التفكير والنشاط في العصور الوسطى حتى أصبح ذلك المازج بين هاتين الفكرتين هما أساس النظام الاجتماعي . والحركات الكبرى التي ظهرت في هذه العصور .

فالفروسية كانت مثلاً للزج بين الحرب والدين . والحروب الصليبية كانت تعبر عن اتجاه العصر الوسيط من حيث أنها كانت حرباً ، وكانت دفاعاً دينياً عن عقيدة معينة . وظهرت جماعات الرهبان المحاربة مثل الاسبتارية ، وكانوا عبادة عن محاربين ، وممرضين ، ورجال دين ، وكذلك الداوية ، وهم جماعات من الرهبان الذين كانت صناعتهم الحرب والدين في نفس الوقت ، ومنهم رهبان وفرسان يحاربون في الأراضي المقدسة .

وكذلك إرتبطت أنظمة العصور الوسطى بفكرة أن العالم المسيحي الغربي يكون وحدة كبرى : يحكمها الإمبراطور من الناحية الزمنية ، والبابا ويختص بالناحية الروحية . وللعالم الوسيط كنيسة واحدة تشمله ، أو تدخل ضمنها ، وطائفة ، جميع الأمم في غرب أوروبا على اختلاف جنسياتها ؛ ولهم لغة واحدة رسمية ، هي اللغة اللاتينية ، التي تجمع بين هذه الأمم في صعيد واحد ، ويمكن التفاهم بين الجميع عن طريقها . ونظام هذه الوحدة ، وطبقاتها واحدة ، وتشمل أوروبا من أولها إلى آخرها .

* * * * *

(١) وتميزت العصور الوسطى بوجود الكنيسة والبابوية . وبعد أن كان لشرك الدين المسيحي يتم سراً ، إعتنق المسيحية الكثيرون من حكام روما ، وانتشرت المسيحية بسرعة بين الرقيين الذين آملوا في التحرر من الرق ، وبين كل من كان يأمل في التخلص من الوثنية القديمة . وعمد بعض الأباطرة ، وكانوا يتمتعون بعبادة الإمبراطور ، إلى محاربة المسيحية التي كانت تدعو إلى عبادة الله . وإلى

هدم الطبقات ، ونحزير العبيد . وإذا كان دقلديانوس قد روى أرض مصر بدماء
شهداء المسيحية ، فإن نيرون قد أحرق روما ، وغيرها ، للتخلص من المسيحية .
وصمدت المسيحية أمام التعذيب والقتل ، وأسست كنائسها في دهايز تحت
الأرض أولا ، ثم فوق الأرض بعد ذلك . وأدى إنشاء الكنيسة إلى قيام البابوية
من جانب وظهور الرهبنة من جانب آخر . وكان إنشاء الكنيسة من أهم الأحداث
التاريخية في العصور الوسطى ، إذ أنه كان يعمل على توجيه حركات هذا العصر ،
ويتضمن وجود راع ، يرأس المؤمنين ويرعاهم ، وعلى رأس كل أسقفية ، في
الشرق والغرب .

ولم يكن الراعى الدينى فى روما ، فى بادىء الأمر ، سوى أسقف من الأساقفة ،
م شىء ، ويحضر مجامع الأساقفة بصفته أسقف فحسب ؛ ولم تكن
روما تمتاز بأى شىء عن الكنائس الأخرى التى تأسست فى بقية الأقطار .
ولكن التقاليد التى إقترنت بإسم روما الخالدة ، منذ التاريخ القديم ، وجهت
هؤلاء الأساقفة إلى وضع أنفسهم فى مصاف الرئاسة من الكنائس الأخرى ؛ وإلى
وضع الكنيسة الرومانية فى مركز الكنيسة المركزية بالنسبة للكنائس الأخرى .
وساعدت عوامل كثيرة على تدعيم مركز كنيسة روما بالنسبة لغيرها من الكنائس
فى غرب أوروبا . فكان هناك ارتباطها بالعاصمة القديمة لإمبراطورية الرومان ،
وبزوال تلك الإمبراطورية وشخص الإمبراطور منها ، وإنتقال الأباطرة إلى
الشرق ، أصبحوا ينظرون إلى أسقف روما كزعيم طبيعى لسكانها ، وكأنه قد
حل محل الإمبراطور فى هذا النطاق . وكان أسقف روما هو البطريرك الأول
والأوحد فى غرب أوروبا ؛ كما كان هناك بطارقة فى الشرق ، فى القسطنطينية
وأنطاكية والاسكندرية ؛ وإبنى على ذلك ، أنه أصبح له ما يشبه رئاسة الكنيسة
الغربية . ولا يمكننا أن ننسى الدور الذى قام به أساقفة روما فى عهدهم الأول ،
من رعاية للمسيحية ، وتخفيفهم آلام المسيحيين ، وقت هجوم البرابرة على روما ،

وما صعب ذلك من سلب ونهب ومجاعات . وعمل أساقفة روما في تلك الفترة على إحلال النظام محل الفوضى في المدينة ، وكانوا هم الرؤوس المفكرة ، وأبدوا الحكم في الإشراف على الأمن ؛ فزاد نفوذ الأسقف عن حوله ، وأصبح ، ولو شكلياً على الأقل ، في مركز الإمبراطور القديم . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك كتابة الرهبان الرومانيون للكتب والرسائل في ذلك الوقت وتقديسهم لمقام أسقفية روما ؛ وكان هذا نوعاً من الدعاية البابوية لإزاء الأسقفيات الأخرى . وأخيراً فهناك شخصية بعض البابوات ، مثل ليو الأكبر ، وجريجورى الكبير ، التى ساعدت على أن تصبح البابوية قوة لا يستهان بها في تاريخ الانسانية . وفي عهد جريجورى الكبير ظهر أسس البابوية ظهوراً واضحاً .

وكان جريجورى الكبير (٥٩٠ - ٦٠٤) راهباً وعالماً ، وزع أمواله على الفقراء وعاش حياة التقشف وعمل على شراء أسرى المسيحيين وعنتهم . وكان رجلاً سياسياً ماهراً ، ذا إرادة قوية وأطماع واسعة ، وكفاية إدارية وحكومية هائلة . وعمل على التبشير بالمسيحية وبالمذهب الكاثوليكي ، وتم في عهده تحويل القوط الغربيين إلى الكاثوليكية . وأرسل بعثة ، برئاسة أوغسطين الأول ، إلى الملك الأنجلوسكسونى فاعتنق هو وشعبه المسيحية على المذهب الرومانى سنة ٥٩٧ . ووضع جريجورى الكبير نظاماً يمكن أسقف روما من أن يستدعى الأساقفة الآخرين في غرب أوربا ، وكذلك كهنتهم ، أيأ كانت رهبنتهم ، أو درجاتهم ، لمحاكمتهم ، متى حادوا عن الصواب . وأعطاه هذا الموقف الأولوية على الكهنة . ورفض جريجورى الكبير ، بعد ذلك ، الخضوع لسلطان القسطنطينية الدينى والسياسى ، الذى كان يتركز في يد الإمبراطور الرمانى ، وفي يد البطريق الموجودان على ضفاف البوسفور . وأخذ يوطد دعائم الكنيسة الرومانية على أساس استقلالها ؛ فخضع له الغرب كله في أمور الدين ، كما خضعت له روما نفسها دينياً وسياسياً ؛ فأصبحت روما مقاطعة له ؛ ووضع بذلك الأسس التى

بنى عليها البابوات من بعد إستقلالهم التام في أمور الدين ، وملسهم في أمور الدنيا ؛ الأمر الذي ترتب عليه نشأة الصراع بين البابوات والاباطرة ؛ طوال فترة العصور الوسطى .

وتحت عملية إنفصال كنيسة روما عن كنيسة القسطنطينية على مراحل متتالية ، بدأت بمعارضة كنيسة روما لنفوذ كنيسة القسطنطينية ؛ ثم في إنتقاد وجود بعض العقائد الشرقية ، ومطالبة المجامع السكينية بإبعادها ؛ وبعد ذلك إهمال القرار الخاص بإلغاء إقامة الأيقونات في الكنائس ، والذي صدر في عهد الإمبراطور البيزنطي ، ليو الأيسوري سنة ٧٢٦ . وكان إستخدام الأيقونات من التقاليد الثابتة والمعروفة في الكنيسة الغربية ، فتطور الخلاف إلى شقاق ، ثم إنفصال بين الكنيستين . وإستندت كنيسة روما إلى ولاء الأهلالي لها ، وإنتهاز الفرص ، للتدخل السياسي في مشكلاتهم ، كما حدث وقت إرسال الوزير بين القصير بعثته إلى البابا زكريا الثالث سنة ٧٥١ ، لاستفتائه في أمر التاج الميروفنجي ، وإنتقاله إلى الاسرة الكارولنجية ؛ ورد البابا ردأ دبلوماسياً إيجابياً ، بأن من في يده القوة والحكم ، يفتقل إليه التاج . وساعد ذلك على نشأة أسرة حاكمة جديدة وقوية ، تدين بالولاء لبابوية روما ، وتساندها . في الوقت الذي ظهر فيه إستقلال البابوية في روما ، وتدعمت سلطتها في غرب أوربا .

* * * * *

ولقد إرتبطت بوجود الكنيسة والبابوية ، عامل هام هو ظهور الرهينة وجودها . ولقد إرتبطت الرهينة في أول أمرها بالإضطهاد الذي أصاب المسيحيين الأوائل على أيدي الرومان ، وهروب المسيحيين إلى الصحارى والقفار والمغارات للتعبد ؛ وحدث نفس الشيء في أوربا أمام غزوات البرابرة ، ونزوح عدد من المسيحيين إلى الجبال والكهوف للتعبد .

وقامت الرهينة على أساس التوحد ، أي الحياة الفردية في القفار . وكان من

لرؤم ظروف الحياة ومتاعبها ، التفكير في نظام يجمع شملهم ، ويحافظ على معيشة التبتل والطهارة بين صفوفهم ؛ فبدأت الحركة الديرية ، وبخاصة في مصر في القرن الرابع على أيدي آباء الكنيسة المصرية مثل باخوميوس وشنودة وأبومقار؛ ثم انتقلت إلى بلاد اليونان ، أما في بقية أنحاء أوروبا ، فقد ظلت هذه الحركة ضعيفة خلال الخمسة قرون الأولى ؛ وإلى أن وضع بعض رجال الدين كنائسهم تحت تصرف الرهبان ، وربطوا الرهبنة بالكنيسة ؛ فبدأ الرهبان في الاشتراك في الصلوات الكنسية الرسمية ، وفي إتخاذ صفة الكهنوت .

كانت الرهبنة تقوم على التبتل والتأمل في الله ، وتعذيب الجسم ، وتقنيته من الأدرا ن ، والتفاني في تعذيب النفس ، استعداداً لما وراء هذه الحياة في ملكوت السموات . وكان لكل راهب حياته الخاصة دون علاقة بإخوانه . وفي أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس قام القديس بندكت بتأسيس دير المشهور في منطقة مونت كاسينو ، ووضع له نظامه الذي يجمع ما بين الناحيتين الدينية والانسانية : فكان يفرض على الراهب التزامات روحية . هي التبتل ، والطهارة ، ونكران الذات ، والتخلي على الثروة الدنيوية والمال ، والجنوح إلى معيشة الفقر ؛ هذا علاوة على الطاعة الواجبة لرئيس الدير . ولكن بندكت نظر إلى الرهبان بصفتهم الإنسانية ، لهم حاجاتهم ولبدنهم عليهم حق ؛ فأوصاهم بالاعتدال في التقشف وبعدم الإفراط في تعذيب النفس كما حتم عليهم الإقلاع عن الحياة الانفرادية ، والتمسك بالجماعة ، فالحياة البندكتية حياة إجتماعية في المأكل والمشرب والصلوات وكذلك في العمل اليدوي والعمل الذهني ، فهو يخصص فريقاً من الرهبان لفلاحة الأرض والعمل في الحقول ، كما يخصص آخرين لرعاية المواشي ، والبعض للقيام بما تتطلبه حياتهم اليومية من ملابس ومأكل ومشرب ؛ كل واحد من بينهم حسب رغباته واستعداده وميله الطبيعي ؛ بحيث يصبح كل كل دير وحدة كاملة جامعة لسكل ما يهم الإنسان من شؤون الحياة وحاجاتها

الضرورة . ويصبح الدير وحدة مستقلة ، تستطيع الانفراد بذاتها عن بقية العالم الخارجى .

وكان للحياة الفكرية نصيباً فى هذا النظام ؛ فنشأت فى كل دير مكتبة أو نواة لمكتبة ، ومكاناً للرهبان الذين يهتمون بالكتابة والنسخ ، ووضعت فيه الأدوات اللازمة للتحرير ، وقراءة الكتب والأبحاث . وقامت الأديرة البندكتية بتأدية رسالة علمية وحضارية فى العصور الوسطى ، واحتفظت بكثير من أمهات الكتب القديمة ؛ وفى الوقت الذى تعرضت فيه الحياة للتدهور ، والكتب للزوال ، أخذ النساخ والمؤلفون يواصلون فى هذه المكاتب أبحاثهم وتآليفهم ونسخ الكتب اللاهوتية والأدبية والقانونية القديمة ؛ وساعد ذلك على وجود مجموعة من الرهبان تكون هذه صناعتهم ، فى وقت تفتشت فيه الأمية ، وضعف فيه الاهتمام بالعلم .

ولم يترك الناس خارج الأديرة إلى ما وصلت إليه تلك المراكز العلمية ؛ فوجهوا أبناءهم إلى الذهاب إلى تلك الأديرة لتعلم القراءة والكتابة والحساب على أيدي الرهبان ؛ فنشأت المدارس ملحقة بهذه الأديرة ، وعملت هذه المدارس على تشييف الأطفال الذين كانوا يرغبون فى خدمة الكنيسة فى صفوف الكهنوت ، أو فى الأعمال الحربية ، عندما يكبرون . وظهرت للناس مزايا هذا النظام ؛ ولكتظت الأديرة بالرهبان ، ولم تنتشر الأديرة فى كل مكان ؛ فقتضى على حياة التوحيد ، وحل محلها نظام إنسانى إجتماعى ، ظهر فيه الضعف ، ثم ظهر فيه الفساد . وكان لإزدياد الثروة فى تلك الأديرة قسط كبير فى الوصول إلى هذه النتيجة ؛ فلم يكن الرهبان يعملون لأنفسهم ، بل كانوا يعملون فى الزراعة ورعى الأغنام ؛ فنجده بعد ذلك تحسن الأرض ، وإزدياد عدد الماشية الموجودة لديهم ، حتى أصبح لكل دير ثروة ضخمة ، وتكاثرت فى خزائنهم الأموال ، وكانت الثروة من مساوئ الحياة ، وتناقض مع مبدأ الفقر الذى إعتمقه الرهبان الأول ، وأدى إلى حياة ناعمة باذخة يتخللها عنصر الفساد .

وفي أثناء القرن العاشر ، قام دير كلوني بمحاولة لإصلاح النظام الديرى ؛ وذلك بإقامة روابط الديرية المختلفة ، والإستقلال عن السلطات الدينية والديوية المختلفة ، والاتصال المباشر بالبابا . وإهتم رهبان كلوني من جديد بالعلوم والزراعة ، ونشطت الروح المعنوية لديهم ، وأصبحوا يكونون نواة للإصلاح الدينى العام فى أوروبا . ونتج عن ذلك توسع الدعوة للكنيسة والبابوية ، فى وقت كانت البابوية فيه قد أصابها الضعف ، وأصبحت لعبة فى يد الامبراطور ؛ وأدى ذلك إلى رفع سلطان البابوية بهذه الدعوة التى أخذت شكلا دوليا ، وانتشرت فى فرنسا وألمانيا وإسبانيا وحتى إنجلترا بعد النورمانديين لها سنة ١٠٦٦ م .

ولقد زاد إقبال الناس على حركة الرهبنة ، ولم تعد الديرية تكفى لهذه الأعداد الضخمة ؛ وكانت مسألة زيادة ثروة الديرية نتيجة لاشتغال الرهبان بالزراعة ورعاية الماشية مثارا للانتقاد والتنديد ، والمناداة بضرورة الرجوع إلى قواعد الفقر والتخلى عن الثروة بين الرهبان . فأدى ذلك إلى نشأة جماعات جديدة من الرهبان فى جلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وحرمت إحدى هذه الجماعات من الرهبان على أعضائها ملكية الأرض والدواب ، هاعدا النحل ، وعاشوا على التسول ، وتميز الإخوان الكرتوفيون بالنزعة إلى التوحد ، كل منهم يعيش فى صومعته أغلب الوقت ، بالرغم من وجودهم فى دير واحد . وقام الإخوان الستراشيون بتطبيق أنظمة القديس بندكت ، مع والإيعال فى التقشف والزهد ؛ وإنقطعوا عن العالم ، وعاشوا فى الجهات المقفرة البعيدة ؛ وإختصوا برعاية الأبنام وتعمير البرارى . أما الإخوان الفرنسيسكان فكان هدفهم يتمثل فى عدم الانفراد عن العالم ، بل السعى فى مناكبه الأرض ؛ داعين مبشرين معلمين ، أملا فى تخليص أرواح الناس ، وتنقية نفوسهم من المقاصد ؛ وذلك مع الإكتفاء من الدنيا بقوتهم اليومي ، والتسليك بمبدأ التسول للحصول على زادهم .

أو العمل يقدر يكفى لكسب معاشهم اليومي . أما الإخوان الدومنيكان فكانت مهمتهم تشييه مهمة الإخوان الفرانسييسكان إلى حد كبير ؛ إلا أنهم أضافوا إليها ، بالنص ، مهمة كبيرة ؛ هي التفريغ الوعظ والإرشاد ؛ وكان ذلك بسبب إنتشار تيار الهرطقة الجارف ، أثناء القرن الثالث عشر ، حتى أنهم خافوا على المسيحية منه . وزاد إنتشار حركة الرهبة مع بداية الحروب الصليبية وإستمرارها ، وتأثير ذلك على الأمم والممالك والأهالي وحياتهم ؛ فتأسست جماعات جديدة من الرهبان للعناية بالجرحي ، وتهتم بالتبشير بين رعايا الإمارات اللاتينية من المسلمين في الأراضى المقدسة . وإضططر الرهبان في هذه الجماعات إلى تعلم الدفاع عن النفس وهم يعيشون في مناطق حرب ؛ فتحولوا إلى جماعات رهبان محاربين ، يجمعون بين حياة التبتل وصناعة الحرب ؛ حتى أصبحت مهمتهم الأساسية القتال في الأراضى المقدسة . وكان من أهم هذه الفرق الإسبتارية التى تأسست في القرن الحادى عشر ، وجماعة الفرسان الداوية ، التى نشأت في القرن التالى . ونجحت هذه التجربة في الشرق العربى ، وكانت أساساً للنشأة جماعات الرهبان المحاربة ، المعروفة باسم الجماعات التيوتونية ؛ والتى إنضم إليها جماعات السييف ، لنشر المسيحية بين الوثنيين في بروسيا الشرقية وحدود ألمانيا الشرقية .

ومن ذلك نرى أن الرهبة عملت على تقوية الكنيسة وتبليغها ، ونشر المسيحية فيما وراء حدود الدول الكاثوليكية ؛ وإحتفظت بنور العلم خلال العصور الوسطى ؛ وقامت بدور هام في التعليم وفى تنشيط الحركة الفكرية ؛ وكذلك في تقوية الحروب الصليبية ؛ تحت شعار العقيدة المسيحية .

* * * * *

كذلك تميزت العصور الوسطى بوجود امبراطورية في غرب أوروبا ترعى

شئون البشر ، في الوقت الذى ترعى فيه البابوية نفوسهم .

وكان تاريخ العصور الوسطى مضطرباً مليئاً بالفلاقل والغزوات ، وهجرات

القبائل والشعوب ، مع غزوات البرابرة ، وتدخلهم في أنحاء الدولة الرومانية ، وتأسيسهم لدويلاتهم المختلفة على أنقاضها ؛ مثل القوط الذين توغلوا واندمجوا في الشعوب التي نزلوا بينها ، ثم زالت سلطنتهم من الوجود ؛ ومثل اللومبارديين الذين عاشوا حيناً وزالت دولتهم على غرار القوط ؛ وتركوا لإسمهم على سهول إيطاليا حتى اليوم . وكان الفرنجة من أبقى الشعوب الجرمانية المتبررة التي نزلت في الدولة الرومانية ، والتي لم تستع حدودها حتى شملت دولتهم غالة ، ومساحات كبيرة من ألمانيا ، التي كانت موطنهم الأصلي . ولقد حكمت الأسرة الميروفنجية الفرنجة حيناً من الزمن ، بعد فترة من العمل على نشر الدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي ؛ وكذلك العمل على تشجيع المصاهرة بين العناصر الجرمانية وبين العناصر الرومانية اللاتينية : وبعد نشأة هذه الأسرة رسمياً في عام ٥٠٨ ، نتيجة لإنعام الإمبراطور البيزنطي الذي كان يمثل الإمبراطورية القديمة على كلوفيس بلقب حاكم غالة الرومانية ؛ ورغم وجود تميز بين القسمين الشرقي والغربي في هذه الدولة ، الشرقي يغطي عليه الطابع الجرمانى ؛ والغربي يغطي عليه الطابع الرومانى ؛ ظلت هذه الدولة موجودة رغم تخصيص إدارة لكل منها ، وعلى رأس كل منهما وزير ؛ يلقب برئيس القصر . وكان ذلك تمهيداً لقيام التنافس بين كل من هذين الوزيرين ، في وقت ضعف الملوك ؛ الأمر الذي سمح لأحدهما ، وهو بين ، بالاستيلاء على وزارة المنطقتين ، الشرقية والغربية ، وتمكن ابنه ، شارل مارتل ، من أن يبلى بلاد حسناً في موقعة بواتييه سنة ٧٣٢ ، التي تعتبر من المواقف الفاصلة في التاريخ ، إذ أنها أوقفت موجة التوسع العربي الاسلامي الذي أتى من شبه جزيرة إيبيريا ، على غرب أوروبا ، وكاد أن يصل ، لمسافة تقل عن ثلاثمائة كيلومتر من باريس . وكان بين التصير ، من أهم تلافئه ، وهو الذي قرر ، في أواسط القرن الثامن ، أن يستولى نهائياً على التاج الميروفنجي ؛ وأرسل بعثته المشهورة إلى البابا زكريا ، لكي يستفتيه فيما إذا كان الإصوب أن يظل الفرنجي على

وأُس من لائحون له ولا قوة ، أو أن يظل على رأس من بيده الحكم في الدولة . وكان البابا حكيماً ، ورأى قوة شخصية بين ، الذي يحسن الانتفاع بنفوذه وقوته ، وعدم جدوى عدم الاعتراف له بالتاج عملياً ، خاصة وأن إتخاذ البابوية لقرار عملي في غرب أوروبا ، كان يدعم نفوذها ، كحكم في هذه المناطق ؛ وعلى ذلك أجاب البابا بين ، بأن الاعتراف الثاني هو العدل والصواب ؛ وهو أن لمن بيده القوة الحق في أن يحصل على التاج ؛ فيقل بين التاج من آخر الملوك الميروفنجين في سنة ٨٥١ إلى نفسه ، وتأسست دولة بين ، التي دعت باسم الدولة الكارولنجية ؛ والتي آل تاجها إلى شارلي العظيم أو شارلمان ، أعظم ملوك هذه الأسرة .

وإلى هنا ينتهي العصر الذي يمكن تمييز وجهته في بعض الكتب التاريخية بأنه العصر المظلم في العصور الوسطى : ويبدأ الاستقرار في أوروبا ؛ ويبدأ المراج بين التراث الروماني القديم والتراث الجرمانى الذي صاحب القبائل الغازية المتبربرة من أوطانها الأصلية إلى كيان الدولة الرومانية . وتنبعث في هذا العصر أيضاً ، ومن جديد ، فكرة الامبراطورية القديمة ؛ ولكنها امبراطورية مقدسة ، نظراً لسيادة الروح المسيحية الكاثوليكية ، وإكتمالها بين الشعوب الغربية في أوروبا . وهذه الفكرة تحققت في عهد شارلمان ، وظلت قائمة خلال العصور الوسطى ، وترتبت عليها نتائج هامة بالنسبة لتاريخ غرب أوروبا ؛ إذ تواجدت في أوروبا قوتان متكافئتان ، هما الامبراطورية لحكم الابدان ، والبابوية لحكم الأرواح . وأصبح بالتالى من لزميات الأشياء أن يقع بينهما صراع ، حول من يتفوق من بينهما على الآخر ، مما أدى إلى ذلك الصراع الذى إمتد قروناً طويلة بين البابوية والامبراطورية .

وكان شارلمان قوياً شجاعاً ذكياً ، وعمل على بسط نفوذه على غرب أوروبا كلها ؛ ونجح في ذلك بشكل لم يسبقه فيه أحد . وأفاد من فرصة استبعاد البابا

أربان به في سنة ٧٧٣ ضد ملك اللومباردين ، الذي كان قد إعتدى على بعض أهلاكه ، ونحفا بجيوشه على إيطاليا ، وهزم اللومباردين ، وعزل ملكهم وأرضى البابا . وانتهاز البابا فرصة زيارة شرملمان له في روما ، وأحتفى به ؛ وكانت روما لا تزال خاضعة نظرياً ، مع جنوب إيطاليا ، للدولة البيزنطية ، وأعلن البابا تحرير روما من سيطرة البيزنطيين ، وخضوعها لشرلمان ، من الناحية الزمنية . ونتج عن ذلك تحقيق انفصال الكنيسة الغربية عن الشرقية بصفة نهائية ، وانحصر حكم الامبراطورية الرومانية الشرقية في الجزء الجنوبي من إيطاليا وعلى صقلية ؛ وتحررت روما نهائياً من سلطان الامبراطور البيزنطي ؛ ومن تهديد الكنيسة الشرقية في القسطنطينية .

وقام شرملمان بحروب عديدة ضد العناصر الجرمانية المتبربرة ، الواقعة خارج حدود مملكته ، إما شرقاً أو جنوباً . وكانت هذه الشعوب لا تزال وثنية في غالبيتها ، فاتخذت حروب شرملمان ضدما طابعا صليبيها ، يعنى إخضاع هذه الشعوب من الناحية السياسية ، والتبشير بالديانة المسيحية بينها ، والقضاء على عناصر الوثنية من معتقداتها . وتكررت حملات شرملمان على سكسونيا ، التي أجبر أهلها على اعتناق المسيحية ، وأخذ بالثقافة الجرمانية الكارولنجية ؛ ثم على بافاريا وكذلك ضد العناصر التي كانت تسكن سهول المجر . واستمرت هذه الحروب حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن (٧٩٦) ، وكان يرمى من ذلك إلى أن يجعل العالم المسيحي في ضرب أوروبا وحدة ثابتة الدعائم ، تحت سلطه الامبراطورية ؛ وأعطى لحروبه ، في أغلب الأحيان ، شكلا دينيا من حيث التبشير بالمسيحية الرومانية الكاثوليكية بين القبائل المتبربرة .

وفي نهاية سنة ٨٠٠ دعى البابا ليو الثالث شرملمان إلى روما ، لكي يقضى بينه وبين مناسيه في السلطة الزمنية ، في العاصمة الدينية . ورحب شرملمان بذلك ، وذهب إلى روما ، ونصر البابا على جميع أعدائه . وجاء عيد الميلاد ، وهو في

روما . وفي ليلة العيد من سنة ٨٠٠ ، كان شرلمان يصلى في كنيسة القديس بطرس ؛ وأراد البابا ليو الثالث أن يظهر له مدى اعترافه بالجميل ؛ فألبس شرلمان تاج الامبراطورية في ذلك الحفل العظيم . فأنست الامبراطورية الرومانية المقدسة في غرب أوروبا ، وأصبح شرلمان بعد ذلك خليفة القيصرية الأفنديين ؛ وكان اتوجه يمثل عملية الامتزاج الطبيعي ، البطيء والمستمر ، بين العناصر الجرمانية المتبربرة الأصل والعناصر الرومانية القديمة ؛ وكذلك المزج بين الثقافتين الجرمانية واللاتينية . وبين المدينتين الجرمانية المتواضعة وبين ما تيسر من المدينة الرومانية اللاتينية ؛ وللباس هذه المدينة الجديدة التي نشأت عن هذا المزج ، ثوب الديانة المسيحية ، على المذهب الكاثوليكي الروماني .

وتوفي شرلمان في سنة ٨١٤ ، وبعد حكم طويل ، بعثت فيه فكرة الامبراطورية من جديد ، وعلى أساس ديني مسيحي ؛ وبدأت فيه نواة الدول الحديثة في الظهور ، ولو إسمياً ، داخل نطاق النظام الامبراطوري الشامل ؛ ففي عهده نسمع عن ألمانيا وإيطاليا وبرجنديا واللورين وفرنسا ونافار ، من بين الأقسام الإدارية التي أخذت في الظهور . أما الكنيسة والبابوية فينتعشان ؛ وتستقل البابوية نهائياً وتفصل بصفة قاطعة عن الكنيسة الشرقية . وفي عهده نشأت بذور الاقطاع ، وأنضدت في النمو ، وهو ذلك النظام الذي أصبح فيما بعد أساساً للحياة الاجتماعية والسياسية في أوروبا خلال العصور الوسطى . وازداد نفوذ الرهبان من البندكتيين ، الذين شجعهم وندروهم واعتمد عليهم في نشر الثقافة المسيحية بين القبائل المتبربرة التي غزا أراضيها . وبدأت حضارة العصور الوسطى المسيحية البهجة في الوجود .

وبعد هذه الشخصية القوية تفككت الامبراطورية نتيجة إضعاف خلفائه ، ونتيجة للتقليد الجرمانى ، بتقسيم الملك بين أولاد الملك بعد وفاته . وتقسيم إبنه لويس الصالح ملكه ، في سنة ٨١٧ ، بين أولاده الثلاثة . وإن كانت وفاة العدل

في هذه القسمة قد أدت إلى حروب فيما بينهم ، واستمرت حتى معاهدة فردان سنة ٨٤٣ ، وهي التي قسمت امبراطورية شرلمان إلى عدة أقسام : الغربي منها يشمل فرنسا على وجه التقريب ، والشرقي ألمانيا ، والثالث عبارة عن ممر طويل بين ألمانيا وفرنسا ، ويشتمل على لومبارديا في إيطاليا ، فهو ممر يمتد من بحر الشمال إلى البحر المتوسط ، ومالك هذا القسم هو الذي يحمل لقب الإمبراطور نتيجة لوقوع روما في حوزته . وبعد اندثار أسرة الإمبراطور ، أفيلك هذا القسم الأوسط ، نشبت المنافسة على أملاكه من جانب الأسرتين الأخيرة ، في ألمانيا وفي فرنسا . واستمرت هذه الحروب إلى أن قامت أسرة كاييت في فرنسا (١٨٨٠ - ١١٣٧) ، والأسرة السكسونية في ألمانيا (٩١٩ - ١٠٦٥) ، فانبعثت فكرة الامبراطورية من جديد ، ولكن في وقت كان قد إشتد فيه ساعد البابوية ، بحيث أدى الأمر إلى الإخلال بالتوازن بين هاتين السلطتين العالميتين ، وإلى دخول أوروبا في دور جديد من أدوار تاريخها ، يتمثل في الصراع بين الامبراطورية والبابوية .

لقد أصبحت كل من البابوية والامبراطورية نظاماً عاماً لكل أوروبا .

• • • • •

(٢) ومن مميزات العصور الوسطى بقاء الامبراطورية الرومانية الشرقية ، أو الدولة البيزنطية ، وعاصمتها القسطنطينية ، لمدة عشر قرون ، أى طوال العصور الوسطى ، بعد زوال الدولة الرومانية الغربية من روما . وكانت أسباب هذه الحياة الطويلة ترجع إلى أن القسطنطينية ، مركز هذه الدولة ، كانت حصينة ، وتمكنت من أن تصمد لهجمات المتبريرين المتتالية ، كما أن أباطرتها أثبتوا كفاءتهم في الحكم ، ومقدرتهم على توجيه هؤلاء المتبريرين إلى جانب آخر غير أملاكهم ، حتى وإن كان ذلك نحو الامبراطورية الرومانية الغربية في إيطاليا . ولم يقصر أباطرة القسطنطينية الخدمة في جيوشهم على المرتزقة من الجرمان ، كما كان حادثاً

إلى حد كبير في الدولة الغربية ؛ بل عملوا على تنويع تلك الفرق ، من الجرمان وغير الجرمان ، وأدخلوا ضمنها العناصر الآسوية كذلك ؛ وأصبح من العسير على هذه الفرق أن تتحد وتتقف في وجه الأباطرة ؛ بل أصبح من السهل على الأباطرة أن يفرقوا بين هذه الفرق المختلفة . وساعد على الاحتفاظ بقوة امبراطوريتهم عمل الأباطرة والحكومة على تجنب أكثر المساواة السياسية والمملذات التي كان الشعب الروماني يفرق فيها في روما ؛ وكذلك العمل على الاحتفاظ بالروح المغنوية ، مما كان له أثر بالغ في تقوية دولتهم . كل هذه الأسباب أدت إلى تدعيم سلطان تلك الامبراطورية ، وبقائها لمدة عشرة قرون .

ولكن علينا أن نلاحظ أن الامبراطورية الرومانية وفكرتها القديمة التي كانت تدور حول جمع المدنية والعالم المتعدين تحت حكم روما في صعيد واحد ، هذه الفكرة لم تحققها الدولة البيزنطية . هناها القديم إلا في عهد الامبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) ؛ ويمكن القول بأن شمع الامبراطورية الرومانية القديمة إنما بعث في عهد ذلك الامبراطور ، وظلت الامبراطورية قائمة بعده ، ولكن في حدود متواضعة عما كانت عليه الامبراطورية القديمة .

ولقد ترك لنا عصر جستنيان آثاراً خالدة تتمثل أولاً في كنيسة أيا صوفيا ، وهي الكنيسة التي قام بتصميمها المهندس أنسيميوس ، وجاءت آية من آيات الفن المعماري من حيث جمالها وحسن تنسيقها ، وما إحتوته من التسيخساء المألوف ؛ وتتمثل ثانياً في مجموعة القوانين الرومانية الخالدة والتي عهد بالقيام بها إلى رجال أخصائيين ، وبإشراف الامبراطور شخصياً ؛ فجمعت الأحكام التي ظهرت منذ عهد الامبراطور أدريان (١١٧ - ١٣٨) ، ولخصت آراء المشرعين والشراح ، من آلاف الكتب والمخطوطات القديمة ؛ وبذلك أصبح القانون الروماني الذي اشتهر بدقته وعظمته ، في مأمن من الضياع .

وكان وجود الدولة البيزنطية ، ومركزها القسطنطينية ، كدولة مبيحية ،

مظهر من مظاهر العصور الوسطى .

* * * * *

(ح) وتميزت العصور الوسطى كذلك بنشوب صراع بين الامبراطورية والبابوية في الفترة التي تلت انقسام امبراطورية شارل العظيم بين أحفاده ، وما ساد الإمبراطورية تارة ، والبابوية تارة أخرى ، من ضعف ، عمل الواحد أو الأخرى منها على توجيه مراكز القوى للسيطرة على أوروبا الغربية .

وتبدأ أول عناصر هذا الصراع يوصول الأسرة السكسونية إلى الحكم ، وتطلعهم إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وكان أول ملك هذه الأسرة هو هنري الأول ، الصياد ، الذي وضع أسس سياسة هذه الأسرة ، داخليا وخارجيا ، والى سار عليها خلفائه . ولقد واجه هنري الأول صعوبات داخلية تتمثل أولا في أمراء الدوقيات الكبرى ، في بافاريا ولوثرنجيا وفرنكوبيا ، الذين عملوا على زيادة استقلالهم الداخلي ، ونظرهم إليه على أنهم قد انتخبوه ملكا ، وليس من حقهم أن يستبد بهم ، وهذا مبدأ هام بالنسبة للملكية في ألمانيا ، ولقد عمل على أن يحل مشاكلهم تارة بالحكمة ، وتارة بالقوة : وتمثل ثانيا في خضوع حدود دولته لهجمات قبائل الوند والدانمركيين والبولنديين والصقالية . ولقد عمل هنري على تقوية جيشه ، وأضاف إليه فرقا من الفرسان المدربين ، وقام بسلسلة من الهجمات أنزل بها الهزائم على أعدائه ؛ كما أنه أقام مجموعة من الممسكرات والحصون الدائمة ، تعرف بأقاليم الحدود أو الماركات ، امتدت من بحر البلطيق شمالا إلى البحر الأدرياتيقي جنوبا ، وأمن بها حدود ممتلكاته . وسمح ذلك لخلفائه بالمعيشة في ظل أمن مستتب ، حتى ثمار ذلك إبنه أوتو الأول ، وسمح له ذلك بالبدء في الخطوة التالية ، بعد تأمين الحدود ، وهي القضاء على المعارضة الداخلية في دولته ، وذلك عن طريق إخضاع أنفاس الدوقيات الكبرى بكل الوسائل الممكنة : إما عن طريق الإلغاء بحد السيف ، أو

عن طريق انتزاعها من أصحابها ومنحها لحلفائه وذوى قرباه ، أو بإحلال الكنيسة محل النبلاء ، كما حدث في وادي الراين . وسمح له ذلك بامكانية التدخل في إيطاليا ، لإحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولقد تدخل أولاً لنصرة أدليد واثرة عرش برجنديا السفلى وسهول أبارديا ضد برونجار ، ثم تزوج منها وضم ممتلكاتها الواسعة إلى ملكه . ثم تدخل ثانية نتيجة لاستنجد البابوية به ضد نفس الأمير ، فلبى الدعوة ودخل روما ظافراً سنة ٩٦٣ ، وتوجه البابا يوحنا الثاني عشر لإمبراطوراً على الدولة الرومانية المقدسة ، كما كان قد حدث من قبل مع شارل العظيم .

وكانت البابوية قد أصابها الضعف في أثناء القرن العاشر ، وأوائل القرن الحادى عشر ، فأصبح انتخاب البابا عبارة عن مسألة تعيين لا انتخاب ، تتم بمعرفة الكرادلة وأصبحت مسألة تعيين ، وفي أسرة معينة ؛ كما أصبحت رتب الكهنوت تباع وتشترى من الأمراء الإقطاعيين ، ودور الأخذ بمشورة البابوية في روما ؛ مما جعل كبار رجال الكنيسة مجرد رجال إقطاعيين . وكذلك انتشرت بين رجال الكنيسة الحركة السيمونية ، نسبة إلى سيمون المجوسى ، الذى أراد أن يشتري رحمه الله بما عنده من ثروة ؛ كما انتشرت حركة الزواج بين الكهنة ، على غير ما هو مألوف في التقاليد الكاثوليكية ؛ وإنجطت حركة الرهبنة ، وعلا ضجيج الأمالى مطالبين بإصلاح حال الكنيسة . وأهتم الإمبراطور هنرى الثالث ، أو هنرى الأسود ، (١٠٣٩ - ١٠٥٩) بالامر ، وتدخل في إنتخابات البابوية ، ووقف ضد سلطة الأرستقراطية الرومانية التقليدية ، ورجع إليه الفضل في إنتخاب فيو التاسع لمنصب البابوية سنة ١٠٤٨ . وكان هذا البابا من أكبر آباء الإصلاح الكنسى ، وقضى فترة بابويته في الانتقال من أبرشية لأخرى ، ومن أسقفية لأسقفية ، ومن مقاطعة لأخرى ؛ وعقد المجالس الدينية ودعا فيها إلى إصلاح الكنيسة واستئصال العيوب ، حتى سُمى البابا الرحالة ، وجاء بعده إلى

مُنصب البابوية راهب تسكاني . كان قد عمل سكرتيراً خاصاً له ، وربما كان يؤثر عليه من قبل ، هو جريجورى السابع ، الذى تولى البابوية من سنة ١٠٧٣ إلى سنة ١٠٨٨ ؛ وهو الذى تمكن من أن يحقق إستقلال البابوية التام ، ويعيد إليها سلطاتها الدينية . وكذلك السياسية . ولكنه بدأ فى الصراع مع الامبراطورية . ولقد قام جريجورى السابع بذلك فى وقت كان الجالس فيه على عرش ألمانيا ، هنرى الرابع ، طفلاً صغيراً . وحقق البابا ذلك بمساعدة أتباعه من نبلاء إيطاليا ، مثل ماتيلدا ، أميرة توسكانيا ، وزوجها ، جودفري الأجدب . ولكن سرعان ما وصل هنرى الرابع إلى سن الرشد ، وأراد أن يستعيد سلطاته فى إيطاليا ، وحتى داخل ممتلكات البابوية . وحدث ذلك بسبب التقليد العلماني ، أى تقليد رجال الدين مناصبهم وإقطاعاتهم فى السلم الإقطاعي . وكان الملوك ورؤساء الإقطاع قد انتهزوا فرصة ضعف الكنيسة ، وتصرفوا فى المناصب الدينية وإقطاعيات رجال الدين فى مناطقهم دون الرجوع للبابوية ، ووزعوها بين أصدقائهم وأعوانهم . ومع إشتداد قوة البابوية ، قرر البابا جريجورى السابع إعادة الأوضاع إلى نصابها الطبيعي ، فتقوم الكنيسة باختيار من تشاء من رجالها لشغل هذه المناصب ، وما على الحكام إلا أن يسلموهم أقطاعاتهم . وأصدر البابا مرسوماً بابوياً فى سنة ١٠٧٥ يحرم به على السلطات المحلية تماماً أمر التدخل فى تنصيب رجال الدين . ولكن هنرى الرابع لم يعبأ بهذا المرسوم ، واستمر فى منح الأسقفيات والمناصب الدينية ، بما يتبعها من إقطاعات ، لأعوانه ، دون الاعتناء بالمرسوم البابوي . وكتب إليه البابا يحذره بأنه سيصدر ضده قرار حرمان ؛ ولكن هنرى الرابع جمع مجلساً دينياً من الأساقفة الألمان واللوبارديين ، وقرر هذا المجلس ، فى سنة ١٠٧٦ ، قراراً نظيراً ، هو خلع جريجورى السابع من كرسي البابوية . وكان رد الفعل الطبيعي على ذلك هو إصدار البابا قراراً بحرمان الملك وجميع من اشتركوا معه فى المجلس من الأساقفة ، ودعوة رعية

هنرى الرابع لإعلان العصيان ضده . وأخذ البابا فى تقوية مركزه ، سياسياً وعسكرياً ، فى إيطاليا . ومن ناحية أخرى انصرف كثير من النبلاء والأدواق عن الملك ، وقام السكسون بالثورة ضده ، فضعف شأنه ، واجتمع مجلس جديد من نبلاء وأساقفة ألمانيا ، وقرروا ضرورة حصول هنرى على عفو شامل . من البابا فى فترة اثنتى عشر شهراً ، وإلا ضاع حقه فى الملك . واضطر هنرى الرابع إلى أن يذهب لمقابلة البابا ، واصطحب معه زوجته ، وابنه الصغير البالغ من العمر ثلاث سنوات ؛ وبعد مفاوضات ، وبعد أن ظل هنرى الثالث على باب القصر حافى القدمين عارى الرأس وسط نواج الشتاء لمدة ثلاثة أيام ، سمح له بالدخول ، والدموع فى عينيه ؛ فقبل أقدام البابا وأعلن التوبة وطلب العفوان . وكان هذا هو منتهى الإذلال له ؛ وأكبر اقتصار للبابوية على الإمبراطورية ، إذ أصبح من حق البابا عزل الملوك وأمراء الإقطاع والتدخل فى شئون الدول .

وفى عهد هنرى الخامس والبابا كاليكستوس الثانى تمكن الطرفان من عمل إتفاقية Concordat فى سنة ١١٢٢ لحل فى مشكلة التقليد العلمانى ، وذلك على أساس تخلى الامبراطور عن التدخل فى الناحية الدينية والبحثة من تنصيب الأساقفة وانتخابهم ، نظير عدم تدخل البابا فى إقطاعات الأساقفة . التى هى حق من حقوق الإمبراطور ؛ وعلى ذلك يصبح انتخاب رجال الدين أمراً طبيعياً فى يد الكنيسة ، ومتى انتخب الرئيس الدينى وأعترفت به الكنيسة يقوم الإمبراطور أو رجال الإقطاع بمنحه ذاك الإقطاع الذى يتعلق بمنصبه .

ولقد زاد وضوح الصراع بين الإمبراطورية والبابوية من جديد حين وصل فرديريك الاول إلى لبس تاج الامبراطورية ، وكان عنيفاً شديداً ؛ وأعتبر أنه من الواجب على من يحكم إيطاليا زمنياً أن يرجع إليه ، كإمبراطور ؛ وقاد حملات عديدة إلى إيطاليا ، وتمكن فى حملته الرابعة من أن يدخل روما نفسها سنة ١١٦٧ ؛ ولكنه انهزم فى الحرب الخامسة سنة ١١٧٦ ، وعقد معاهدة البندقية .

في السنة التالية . ولم يحاول البابا اسكندر الثالث أن يقوم بإذلاله ، كما كان جريجورى السابع قد فعل من قبل ؛ بل استخدم السياسة لكي يقضى على روح الحق . وتم الاتفاق بين الطرفين على ضرورة تطبيق مبادئ إتفاقية سنة ١١٢٢ في مسألة التقليد العلماني ، وعلى إعطاء نوع من الحرية لبعض المدن اللومباردية الشمالية ، الأمر الذي ساعد على شعور هذه المدن بحريتها ، ونشاطها من الناحية التجارية ؛ وكذلك على اعتراف الإمبراطورية بملكية البابوية لبعض أجزاء إيطاليا ، من الناحيتين الدينية والدنيوية .

ووصل هذا الصراع إلى أوجها في عهد البابا انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) الذي كان طموحاً قوياً شديد المراس ؛ وكان يرى أن روما هي مقر حكومته ، وعاصمة العالم الحقيقية ، وأن الأباطرة والملوك وأمراء الإقطاع لم يكونوا سوى عمالاله ، يسوسون الدولة محلياً ، ويدينون له بالطاعة . وكان وريث فردريك بربروسا لا يزال صبياً ، وهو فردريك ملك صقلية ، والذي سيعرف باسم فردريك الثاني فيما بعد ، وكانت ألمانيا منقسمة على نفسها وفي أسوأ حال . ورغم أن فردريك كان تحت وصاية البابا ، إلا أن انوسنت وافق على منح تاج الإمبراطورية للأمير أوتو الألماني ، نظير تخليه له عن إيطاليا تنازلاً تاماً في سنة ١٢٠٩ . ولكن سرعان ما قام أوتو بالاطالبة بأملاك الإمبراطورية في إيطاليا ، فعزله انوسنت الثالث ، وعين فردريك الثاني بدلاً عنه . وتطور الموقف إلى نشوب حرب عامة في غرب أوروبا ، وإنحاز فيها يوحنا ، ملك إنجلترا ، إلى جانب أوتو ، في الوقت الذي وقف فيه فيليب أغسطس ، ملك فرنسا ، إلى جانب البابا . وإنتهت هذه الحرب في موقعة بوقين سنة ١٢١٤ ، التي انهزم فيها أوتو ، وضاعت فيها جيوش إنجلترا ؛ واضطر يوحنا إلى التسليم لانوسنت حتى ينجو من انتقام الثورات في إنجلترا ، وهي التي أدت إلى إصدار « العهد الأعظم » في سنة ١٢١٥ ؛ وسلم إنجلترا له ، ثم عاد واستلمها منه إقطاعاً بابوياً ، يدفع عنه رسوماً للبابا .

وكان هذا هو أكبر انتصار للبابوية في تاريخها، إذ أن الإمبراطورية أصبحت تحت رحمتها، وأصبحت إنجلترا إقطاعاً بابوياً، وأذن فيليب أغسطس للبابا في مسألة شخصية، وهي إستعادة زوجته المطلقة رغماً عنه، وشارك ملوك نافار وأراجون يوحنا ملك إنجلترا، بإعترافهم بتفوق الكنيسة، وسلموا بمالكمهم لإيوانسنت الثالث، ثم عادوا واستلوا منها إقطاعاً بابوياً، ووضع ملوك أرمينيا والمجر أنفسهم تحت حماية البابوية بدون قيد ولا شرط. ولكن الكنيسة كانت قد خرجت بذلك عن الحدود الدينية، وبشكل أثار أذهان الناس، وأدخل في نفوسهم الشك نحو قدسية الكنيسة والبابوية، وأثر ذلك في موقفهم حيالها، حين تصطدم من جديد مع الملوك والأمراء الإقطاعيين.

وكان من الخطأ أن تتعسف البابوية مع الإمبراطورية، وتتدخل في الشؤون الزمنية، بدلا من إقتصارها على الشؤون الروحية. وتطور الأمر في عهد فيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥ — ١٣١٤) وبونيفاس الثامن إلى أن يوم خليفة فيليب أغسطس بإذلال خليفة انوسنت الثالث، ويذية الهوان، ولا ينصرف الفرنسيون عن ملكهم، ولا يتقدم أحد للدفاع عن البابا. وانتهى ذلك بنقل الكرسي البابوي من روما إلى مدينة أفينيون، داخل الحدود الفرنسية، وبقي البابوات هناك سبعين عاماً من سنة ١٣٠٩ إلى سنة ١٣٧٨، وهي الفترة المعروفة بإسم الأسر البابلي. وظهر نتيجة لذلك ضعف البابوية، وحركة الانقسام الكبرى في الكنيسة العربية، مع إنتخاب بابا في روما أو في سويسرا أو أسبانيا، في الوقت الذي وجد فيه البابوات في أفينيون؛ وكذلك قيام حركة المجالس الدينية للإصلاح من شأن الكنيسة والبابوية والعودة بها إلى مجدها القديم. ولقد عادت البابوية إلى روما من جديد، ولكن كثيراً من الناس انفضوا من حولها، وقام بعض أحرار المفكرين بمهاجمتها علانية، مثل ويكليف Wycliff الذي تزعم هذه الحركة في إنجلترا في القرن الرابع عشر، ويوحنا هيس في بوهيميا في القرن

الخامس عشر . واتجهت أذهان الناس نحو الانشقاق على البابوية ، وبشكل أنه حين قامت ثورة لوثر في ألمانيا ، وثورة كلفن في سويسرا ، ولم يعد أحدهما أتباعاً لمتعاليمه ؛ فبدأت الحركة البروتستنتية الانفصالية في العالم ، ومحدث التصدع والانشقاق في بناء الكنيسة . وهذا فصل جديد يساير تاريخ عصر النهضة ، وفجر التاريخ الحديث .

* * * * *

(٥) وتميزت العصور الوسطى بنشوب الحروب الصليبية فيها . وهي من الحركات التي تعبر أصدق تعبير عن روح العالم الغربي في العصور الوسطى ؛ إذا أنها كانت تعبر عن الدين ، الذي كان من أهم مميزات العالم الوسيط ، وكذلك عن الحرب ، التي كانت من مستلزمات النظام الافطاعي ونظام الفروسية ، كما كانت الحروب الصليبية عالمية ، بمعنى أنها كانت تجمع كل الأمم المسيحية الغربية ضد جامعة الدول الاسلامية الشرقية . ونجد من ناحية ثالثة أنه كان لهذه الحروب هدفاً محدداً يتمثل في الاستيلاء على بيت المقدس ، وتحرير الاراضى المقدسة وإعادةتها إلى المسيحيين ، وتأسيس مملكة لاتينية كبرى فيها . وأخيراً فإنها كانت تمثل فصلاً خاصاً من فصول الصراع بين الشرق والغرب . والذي ظهر في التاريخ القديم في شكل الصراع بين الاغريق والفرس ؛ وإمتد في العصور اوسطى في شكل الحروب الصليبية ، ثم أخذ شكل الاستعمار في العصور الحديثة .

١٠٩٥

وكانت الحروب الصليبية قد بدأت في سنة ١٠٩٥ بإعلانها على لسان البابا أوربان الثاني ، في كايرونت في جنود فرنسا ، وانتهت بمخرج الصليبيين من الاراضى المقدسة نهائياً ومن آخر معاقلهم ، وهي عكا ، هناك ، في سنة ١٢٩٢ . وإن كان بعض المؤرخين يرون أن حروب البيزنطيين ضد السلاجقة قبل سنة ١٠٩٦ كانت حروباً صليبية ، ويرون أن هناك حروباً صليبية أخرى وقعت بعد سنة ١٢٩٢ ، مثل صليبية نيسكو بوليس ، وذهب البعض إلى أن استيلاء

العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ هـ حرب صليبية ؛ وكذلك معركة ليبانتو سنة ١٥٧١ ، اعتبرها البنادقة على أنها حرب صليبية . ولكن هذه الحروب لم تكن تجمع كل الدول المسيحية ، ولا موجهة ضد كل الدول الاسلامية ؛ كما أن هدفها لم يكن هو الاستيلاء على بيت المقدس .

وكانت أسباب قيام الحروب الصليبية كثيرة ، ومتعددة ، فكان المسيحيون في أوروبا يشعرون بتجدد الخطر الاسلامي بعد انتصار المسلمين في موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦ ، التي إستولوا بعدها على طليطلة في الأندلس ؛ وحدث ذلك بعد عشر سنوات من انتصار السلاجقة على البيزنطيين في موقعة مانازجرد سنة ١٠٧٦ ، وبإحداق خطرهم بالقسطنطينية ، فاستنجد الامبراطور البيزنطي اليكسيوس بالبابا أربان الثاني ، وصادف ذلك هوى في نفس البابا ، وفرصة لمد نفوذه في الشرق ، بعد أن وطد هذا النفوذ في الغرب ، وفرصة لتزعم كل العالم المسيحي في حرب صليبية . وكانت الشعوب المسيحية في غرب أوروبا قد تحفرت للقيام بهذه الحروب نتيجة للدعاية التي كانت تصلهم مع الحجاج ؛ وكانوا يقاسون في ذلك الكثير من المصاعب ، بعد أن خضعت الشام لحكم السلاجقة ، الذين كانوا حديثي العهد بالاسلام ، والذين كانوا أقل تسامحاً ، عن سبقهم في حكم هذه الأقاليم ، مع الحجاج المسيحيين . ولاشك في أن هذه الاخبار كانوا قد بالغوا فيها لحشد النفوس للقيام بهذه الحروب ، وبدعوى تخلص المسيحية والمسيحيين في الأراضي المقدسة . وكانت هناك أسباباً أخرى ساعدت على إتساع الحركة ، وتجنيد الجيوش لها في أوروبا من أقصاها إلى أقصاها ؛ فكان كثير من النبلاء الذين لم يوفقوا إلى ميراث إقطاعي يحملون بالحروب الصليبية التي قد تساهلهم بتأسيس إمارات أخرى في الشرق ؛ ووجد رقيق الأرض في هذه الحركة منفذاً طبعياً ، ومعترف به من الكنيسة والحكومات ، لتحرير أنفسهم من العبودية الإقطاعية . ولأنسى أن كثيراً من الناس كان يرغب في الحصول على غفران ذنوبه ، وعلى الشهادة ؛

وكان غيرهم يحب المغامرة ويحلم بزيارة الأماكن البعيدة . هذا خلاف أسباب أخرى ، مادية وتجارية ، زاد ظهورها في الحروب الصليبية فيما بعد . وقام المئات من الوعاظ بالتبشير بالحروب الصليبية في قرى أوروبا ومدنها ، وتجمع مئات الآلاف من الأهل ، مستعدين للسفر إلى الشرق . ويمكننا أن نقسم الحروب الصليبية بعد إعلانها على لسان البابا أربان الثاني ، إلى ثلاثة أطوار : يتمثل الطور الأول منها في انتصار المسيحيين على المسلمين الذين كانوا متقسمين فيما بينهم بين فاطميين وعباسيين وشيعية ؛ ويتمثل الطور الثاني في التوازن بين المسلمين والمسيحيين في الأراضي المقدسة ، بعد أن لم المسلمون شملهم ؛ ويتمثل الطور الثالث في انتصارات المسلمين الحاسمة على الصليبيين في الأراضي المقدسة ، وطردهم منها نهائيا .

وفي الطور الأول من أطوار الحروب الصليبية ، تمكنت الحملة الصليبية الأولى ، بعد وصولها إلى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، من تعبر البوسفور ، وتوغل في الأناضول ؛ وارتجت إلى سوريا ، واحتلت مدينة الرها ، ثم أنطاكية سنة ١٠٩٧ ؛ وتوجت انتصاراتها بالإستيلاء على بيت المقدس في شهر يوليو سنة ١٠٩٩ . وتأسست المملكة الصليبية اللاتينية في الشرق ، على النظام الإقطاعي الأوربي ؛ وانتخب جردفري البرجندي ، دوق اللورين السفلى ، ملكا عليها ؛ وقسم هذه الدولة إلى إقطاعات وزعها على أصدقائه الذين كانوا معه في الحرب . وكان هذا أقصى ما وصل إليه الصليبيون .

أما الطور الثاني فقد شهد استيلاء عماد الدين زنكي على حلب سنة ١١٢٧ ، وتخليص الرها من الصليبيين سنة ١١٤٤ ؛ واستمر نور الدين يواصل سياسة أبيه من بعده في تضيق الخناق على الصليبيين حتى اضطروهم إلى الاستنجد بأوروبا ؛ فحضرت الحملة الصليبية الثانية وكان مصير هذه الحملة هو الفشل والعجز عن إغاثة مملكة أورشليم اللاتينية ، وانتهت برجعان كفة المسلمين ؛ واستيلائهم على دمشق .

وتبين الطور الثالث بتوحيد كلمة المسلمين ، تحت قياده صلاح الدين الأيوبي ،
الذي انتصر على الصليبيين في موقعة حطين سنة ١١٨٧ ، ثم تخليصه بيت المقدس
من أيديهم بعد ذلك بأربعة أشهر . وأرسلت أوروبا الحملة الصليبية ، بقيادة
الإمبراطور فردريك الأول ، ولكنه غرق في أحد الأنهار في أرمينيا ، وتشقت
شمل جيشه . ثم جاء فيليب أغسطس بجرأ إلى الأراضي المقدسة ، ولكنه اضطر ،
بعد فترة إلى العودة إلى بلاده . وطل ريتشارد قلب الأسد بجوار عكا ، مظهراً
الشجاعة والفروسية ، ولكن دون أن يصل إلى نتيجة عملية ، أمام صلاح الدين .
وانتهى الأمر بقصد صلح الرملة سنة ١١٩٢ ، وأُعترف فيه الصليبيون بملكية المسلمين
لبيت المقدس ، وتعهد فيه المسلمون بمعاملة الحجاج بالتسامح ، مع الموافقة على عقد
هدنة لمدة ثلاث سنوات ، وترك الساحل فيما بين يافا وصور في أيدي الصليبيين .
وهدأت الأحوال لفترة من الزمن ، ثم تجددت الحروب الصليبية في اتجاه
آخر يدل على أن هذه الحروب قد فقدت معناها الديني ، كما فقدت هدفها المتمثل
في الاستيلاء على بيت المقدس . وقد تمثل ذلك في الحرب الصليبية الرابعة ، التي
عمدت البندقية ، التي كانت تعيش من الحروب الصليبية ، إلى تحويلها عن وجهتها
الأصلية ، وإلى توجيهها إلى القسطنطينية ، وإلى الاستيلاء عليها من الأباطرة
البيزنطيين ، حتى يسيطروا بذلك على المراكز التجارية التي كانت في أيدي جيرانهم
المسيحيين الضعفاء ، بعد أن فشلوا في السيطرة على المراكز التجارية الموجودة
في أيدي الممالك . وتم ذلك رغم احتجاجات البابا ، وتمكنت هذه الحملة من
تأسيس إمبراطورية لاتينية ظلت ، منذ سنة ١٢٠٤ ، وحتى سنة ١٢٦١ ، حين
استعادها أباطرتها الأصلية ، تمنح البندقية امتيازات تجارية واسعة النطاق .
وخل ذلك على تدخل المصالح في الحروب الصليبية ، وعلى تلغيب ظهورها
واضحاً عن المظهر الديني .

وزاد وضوح هذه الظاهرة بعد ، وبخاصة في حملة بطرس لوسينيان ،

ملك قبرص اللاتيني سنة ١٣٠٥ ، على الاسكندرية ، حيث قام باحتلال المدينة لمدة أسبوع ، نهب ما كان فيها من ثروته ، ثم عاد بجيشه إلى قبرص ؛ وكذلك في حملة يوحنا الطيب ، دوق بربون ، على مدينة المهدية بتونس سنة ١٣٩٠ ، تلك الحملة التي كانت تستهدفها جنوا لتحقيق أغراضها التجارية ومصالحها في شمال إفريقيا ، كوسيلة للضغط على الأمراء التونسيين لعقد اتفاقات تجارية .



وكما كانت العقيدة أساسا للحياة في العصور الوسطى ، بنى النظام الاقتصادي والاجتماعي والحربي للعصور الوسطى على أساس الاقطاع ، الذي ميز حياة العصور الوسطى عن حياة العبودية السابقة ، في العصور القديمة ، وميزها كذلك عن عصر الرأسمالية الذي نما وازدهر ، وميز حياة العالم في التاريخ الحديث . ونظام الاقطاع يتصل اتصالا مباشرا بالأرض ، فلكل رجل إقطاع ، على قدر نبله ، وانتظمت على هذا الأساس ، حياة الناس وجماعاتها في العصور الوسطى . وأصبح لكل طبقة من طبقات المجتمع ، خواصها ومميزاتها ومكانتها ، فيما يمكن أن نسميه بالسلم الاجتماعي . تبعا لما تتمتع به هذه الطبقة من ميزات في الاقطاع . وكان هناك النبلاء والفرسان والرقيق . وكان هذا النظام وليد ظروف الانتقال من عصر الدولة الرومانية ، إلى عصر الحكومات الملكية ، التي بدأت في الظهور في أواخر العصور الوسطى .



ولم تكن العصور الوسطى خالية من التجديد ، ومن التطور ، والتقدم الفكري والاجتماعي . ورغم ذلك فقد نظر إليها بعض الباحثين على أنها عصور ظلام وتأخر ، ولعل ذلك يرجع إلى ذلك التأثير الذي أحدثه عصر الإنشاق في عقول الناس ، وكان من القوه بدرجه حجبت عن أعينهم ما اشتملت عليه الفترة السابقة ؛ ولاشك في أن جهل الناس بحقيقة العصور الوسطى جعلهم يحكمون

عليها حكم من يحمل الشيء ، عليه . ولا شك في أنه لا يمكن دراسة التاريخ الحديث دون معرفة التاريخ الوسيط ، إذ أن تاريخ البشرية يمثل سلسلة متتابعة الحلقات ، ليس حلقة منها قيمة دون الحلقات السابقة ، واللاحقة ، ودون معرفة حقيقية وقيمة كل حلقة في هذه السلسلة ، الانسانية .

وليس هنا مجال للدفاع عن العصور الوسطى ، التي بدأت مع سقوط امبراطورية روما في أيدي البرابرة في منتصف القرن الخامس ، واستمرت حتى منتصف القرن الخامس عشر ، تقريبا ، وماتت عن هذه القرون من تغيب في حياة المجتمع ، وتطور ، نتيجة للظروف المادية ، والمعنوية . ولا شك في أنه قد واجهت الأوربيين صعوبات كثيرة ، حين بدأوا يعملون على إثراء خلفه البرابرة ، من الفوضى والارتباك في المجتمع الأوربي . لقد أنهار كل شيء مادي ، ولم يكن لهم سوى سلاح الإيمان والعقيدة ، يتسلحون به ، ويتشبهون به ، لكي ينقذهم ، ويحدد خط مسيرتهم ، بعد أن اعتنقوا المسيحية ؛ إنها نار العقيدة ونورها قبل أي شيء إنها الدين ، والنخلاص والجنة . إنها شعارات العصور الوسطى في عالم قد إنهار ، فتمسكوا بدينهم ، وحاربوا من أجله ، فكانت حضارة العصور الوسطى . ولقد تمكن الأوربيون من الخروج من هذه المعركة ، واتجهوا بحياتهم إلى بضع قرون مستقرة ، ونجحوا في تحقيق فترة لا بأس بها من الأمن والسلام ، ومهدوا بتطورهم لظهور العصر الحديث .

وكانت العصور الوسطى تمثل حلقة من حلقات التطور بين العصور القديمة ، والعصور الحديثة ؛ وكانت في داخلها تشتمل على تطور مستمر ، حتى وإن كان يحدث ببطء .

ويمكننا أن ننظر إلى محاولات جستنيان لتوحيد أوروبا ، في الشرق والغرب ، وإن كان قد فشل فيها ؛ وكذلك محاولات شارلمان جمع شمل أوروبا تحت حكمه على أنها الأساس لنشأة الدول الأوروبية الحديثة ، في العصور الحديثة ؛ وأنه

كانت توجد، خلف هذه الحياة المضطربة ، عملية تكوين أوروبا الحديثة تسير في مسيرها الطبيعي ، من وراء الستار ، وإن كانت مقوماتها لم تكن قد اكتملت بعد ، وبالشكل الذي رغبوا في إعطائه لعملياتهم . وظهرت آثار هذا التطور والتبلور في أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وبشكل لم يكن رجال العصور الوسطى قد ألفوه من قبل ؛ ويتمثل ذلك في نمو النظم الملكية في إنجلترا وفي فرنسا ، الأمر الذي ساعد على إيجاد مجتمع منظم ، يتمتع بحياة مستقرة نسبيا ، وتأخذ قوة الأمراء ، ونبيلاء الاقطاع في الضعف في هذه الدول ، وتحل محلها سلطة الملوك والأقوياء .

وشهدت العصور الوسطى مولد **للدسقور الانجليزي** ، الذي جاء نتيجة للتطور ، ولكفاح طبقات الأمة في إنجلترا ، ضد الملكية هناك ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، بصفة خاصة . وعمل ذلك على تقييد سلطة الملك بأشراك غيره في الحكم معه .

كما شهدت العصور الوسطى نشطا تجاريا كبيرا ، وجاء نتيجة للحروب الصليبية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وكانت من نتائجها نقل السلع والخبرات التي اكتسبت مدن جنوب أوروبا عامه ، مع المدن والموانئ الإيطالية خاصة ، وبالأشترار مع الموانئ العربية في مصر وسوريا ، الكثير من الثروات . وأصبحت كل من الاسكندرية والبندقية من أهم المراكز التجارية في العالم ، لوقوعها على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، الأمر الذي أثر على تطور الأحداث بعد ذلك . وحدث تغيير كبير من الناحية العقائدية في أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وبعد أن كان الناس يهتدون في العصور الوسطى في الخرافات ، وكان مثلها الأعلى واحداً ، وكانت الحروب الصليبية تمثل قوة واضحة ضد المسلمين في الشرق ، تغيرت الأحوال ، وتغيرت نظرة الناس إلى الدين وإلى الكنيسة بالتدرج ، وأصبح الناس أكثر فهما وأكثر حرية ما تعودوا عليه من تقاليد وعادات .

ولم تعد فكرة الرهبنة هي المثل الأعلى ، بل أصبح الناس يحدون اهتماما بشواحي أخرى تثير اهتمامهم ، خارج نطاق الكنيسة ، وفي الحياة العملية ذاتها ، رغم اشتغالها على بعض الآثام ، وبعض الشرور ؛ ومع ذلك فإنها أصبحت تجتذب الناس ، ودون إرغام كبشر .

وظهر في أثناء القرن الثاني عشر ، كذلك نشاط في الحياة العلمية والفكرية ؛ وشكل يختلف عما ساد في العصور الوسطى . وبعد أن كان الاهتمام بالعلوم محصوراً بين الكنائس والأديرة ؛ وبعد عمل الكنيسة ، ولقرون ، على الاحتفاظ بالتراث العلمي والفكري والانساني ؛ تبدلت الأمور وتطورت ، نتيجة للزج بين حضارات وثقافات البحر المتوسط ، ونتيجة لتأثير الفكر اليوناني في أوروبا ، بفضل ما نقله العرب إليهم ؛ فأعطى عصر الترجمة ، ترجمت العرب في الرياضيات والهندسة والطب ؛ وأخذ الناس يدرسون هذه العلوم كفرع مستقلة للمعرفة . وبعد أن كان من الضروري لأبناء العصور الوسطى التسليح بالهيكلة من أجل الفهم ، أصبحوا لا يعتقدون في شيء قبل فهمه . وبدأت العقول تتحرر ، وتنتجه صوب النقد . وطبقوا ذلك على الدين نفسه ، وهاجموا تصرفات رجال الكنيسة ، وبعض عقائدها ، الأمر الذي سيؤدي إلى ظهور حركة الإصلاح الديني فيما بعد . كما تميزت أواخر العصور الوسطى بظهور الجامعات ، التي ارتبطت بانتشار العلم ؛ وظهرت منذ القرن الثالث عشر ، مثل الجامعات الإيطالية ، وجامعة باريس وبدأت فكرة الجامعة باجتماع الطلاب حول أساتذتهم ، لتلقى العلم الديني أو الفلسفي ، وتنقلوا معهم من مكان لآخر . ولم تكن هناك أماكن أو بنايات خاصة بهم ، فكانوا يلتقون حيث يطيب لهم الاستقرار . ثم وجدت هذه الجامعات من الطلاب والاساتذة أن من مصالحهم أن يوثقوا الروابط بينهم ، فنشأت الجامعات ، في مقام خاصة بها ؛ وأخذ الماوك والباورات يصدرن القرارات بإنشائها ، ويمدونها بالأموال ويقدمون لها التسهيلات . ونشأت هذه الطريقة

كليات لدراسة العلوم الإلهية ، والفنون ، ولدراسة العلوم القانونية ، وإن كان الطابع الديني هو الطابع المتغلب على هذه الدراسات ، في أول الأمر .
وأخيراً ، وليس آخراً فلا يمكننا أن ننسى للعصور الوسطى أنها أعطتنا الفن القوطي ، الذي يمثل أحد تقاجات عبقرية هذا العصر ، والتي لا تزال الكثير من أبنيته قائمة ، حتى الآن في أوروبا ، تشهد بالعظمة والفن والدقة .

* * * * *

وكما حاولنا أن نحدد وقت بدء العصور الوسطى . نحاول أن نحدد وقت نهايتها . ومرة أخرى نقرر أنه من الصعب وضع حد فاصل لأي عصر من عصور التاريخ . فالعصور الوسطى متداخلة في العصر الحديث ، والآراء والفكر متداخلة مع بعضها ، فامتد الكثير من آراء العصور الوسطى وعاش في العصور الحديثة ، كما أن الكثير من آراء العصور الحديثة كانت سائدة في العصور الوسطى .
وعلى كل حال فيمكننا أن نعتبر أن التاريخ الحديث قد أخذ شكله الواضح لمبتداء من القرن السادس عشر ، وبطريقة تجعلنا ننظر إلى العهد السابق لذلك على أنه فترة انتقال بين العصور الوسطى ، والتاريخ الحديث . ويرجع ذلك إلى حدوث تطورات في القرن السادس عشر جعلت الفرق فيه واضحة عنه في العصور الوسطى ، حتى وإن كانت هذه التطورات قد بدأت مع نهاية العصور الوسطى ، واستمرت ونمت حتى وصلت إلى شكلها النهائي في القرن السادس عشر . وهذا ما يدفعنا إلى أن نربط بين العوامل ، ومن العصور الوسطى ، إلى التاريخ الحديث ، وفي موضوع واحد ومتصل ، إقتصاديا ، وإجتماعيا ، ومعنويا ، وسياسيا ، وفنيا ، في شكل « فجر التاريخ الحديث » .

* * * * *

ولقد ظهر التاريخ الحديث بمميزات خاصة به ، استمرت ، وتطورت ونمت ، وفي شكل سلسلة متصلة الحلقات منذ العصور الوسطى ، وعبر التاريخ

الحديث ، لكي تصل بتاريخ الانسانية إلى تاريخها المعاصر .

ولقد بدأ ذلك بتفكك عالم العصور الوسطى في الغرب ، وفي أسس ذلك العالم الذي قام أساساً على نظام الإقطاع . ومع تطور وسائل وعلاقات الإنتاج ، ونمو البورجوازية مع النظام الرأسمالي في المدن ، وما تبع ذلك من تحسن وسائل الانتاج ، وبشكل أثر على شكل المجتمع على طريقة تفكير الاهالي .

وحدث في نفس الوقت أن قامت العناصر الاسلامية عامة ، والعثمانية منها خاصة بالزحف نحو الغرب ، وتمكنت من العبور إلى البلقان ، ثم من الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وبشكل أنهى حياة الدولة البيزنطية ، وأثر على العلاقات بين الشرق والغرب .

كما تميزت فترة فجر التاريخ الحديث بظهور بشائر عصر النهضة الاوربية في إيطاليا ، ثم امتدت منها إلى بقية أنحاء أوربا ، وإن كانت قد أخذت لنفسها طابعاً خاصاً متميزاً في كل منطقة من المناطق . وظهر رجال جدد ، يمثلون بداية عصر جديد ؛ وظهرت تطورات في الدين والأدب والسياسة ، وظهر نشاط في أوربا والأوربيين .

ولا يمكن لأحد أن يتخاضى عن تلك العمليات ، التي أدت إلى الكشف الجغرافي التي قام بها كل من الاسبانيين والبرتغاليين ، والتي أدت إلى اكتشاف أراض جديدة ، والسيطرة على طرق التجارة العالمية ، وأسر هذه التجارة ، وتسييرها في طرق جديدة ؛ فتغيرت معرفة الناس بالعالم ، ومعلوماتهم عنه . وترتب على ذلك ارتفاع أمم ، وانخفاض أمم أخرى ؛ وأدى كشف طريق رأس الرجاء الصالح إلى تحول التجارة العالمية إلى طريق جنوب إفريقيا ، وانخفاض شأن كل من الاسكندرية والبندقية ، وارتفاع شأن أسبانيا والبرتغال ؛ وأدى ذلك إلى انقلاب هام في حياة أقاليم أوربا ، وحياة أهلها ، ومناطق توزيع الثروة في العالم . وترتب على ذلك وتلاه عملية التوسع العثماني في الشرق الأدنى واسيلااتهم

على كل من الشام ومصر ، ثم على العراق واليمن ، وبشكل غير التوازن الموجود في الحوض الشرقي من البحر المتوسط .

كما تدخلت الدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، حيث نشب صراع بين القوة الاسبانية والقوة الاسلامية المتمركزة في الجزائر ، والمتحدة مع الدولة العثمانية ، بشأن موانئ وقواعد الجزائر وتونس وليبيا ، لاستمرار حتى معركة ليبانتو .

وتتميز تاريخ أوروبا في العصر الحديث بظهور حركة الإصلاح الديني البروتستنتي ، والتي كانت ثورة وخروجاً على تقاليد وعقائد الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك لإصلاح العيوب التي تفشيت ؛ وكانت جرأة غير مألوفة بالنسبة لعقلية رجال العصور الوسطى ، ورغم أن بداية التفكير في نقد الكنيسة كان قد بدأ في نهاية العصور الوسطى ، إلا أنه سيتطور في العصور الحديثة إلى « حركة » لها أثرها في المجتمع ، ومن النواحي الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية . ولقد ترتب على ذلك ظهور حركة الإصلاح الديني الكاثوليكي ، الذي هدف لإصلاح عيوب الكنيسة الكاثوليكية نفسها ، وفي نفس الوقت الذي هدف فيه محاولة إرجاع كل من خرج على الكنيسة الكاثوليكية إلى حظيرة الكتلكة والخضوع للبابوية . وترتب على ذلك صراعات ومصادمات وحروب بين المعسكرين الكاثوليكي ، والبروتستنتي ؛ فخاضت أوروبا غمار المعارك بسبب حركة الإصلاح الديني ؛ وكانت لها آثار خطيرة على حياة المجتمع الأوروبي .

وإذا كانت فكرة الإمبراطورية المقدسة مهيمنة في أثناء العصور الوسطى ، فإن هذه الإمبراطورية العالمية ، والتي كانت الكنيسة الكاثوليكية تشد أزرها ، لم تعد تلائم روح العصر الحديث . وبدلاً من هذه الوحدة السياسية ظهرت دول أوروبا الحديثة المستقلة ، ذات السكبان الوطنى الواضح في فرنسا ، وإنجلترا ، واسبانيا ؛ وقويت سلطة الملوك في كل من هذه الدول ، في الوقت الذي قلت فيه

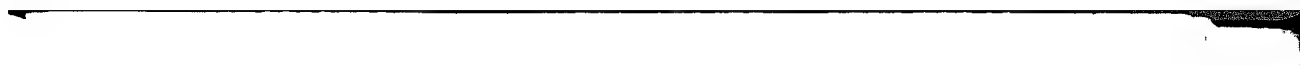
أهمية النبلاء والسادة الاقطاعيين . وعنى هؤلاء الملوك الأقوياء والمستبدين ، بتقوية بلادهم ، وتقوية جيوشهم ، وأساطيلهم ، وإستخدموا البارود لبناء قوات عسكرية لا يقوى عليها أمراء الإقطاع وتعمل في نفس الوقت على القضاء على حصون أمراء الاقطاع ومعاقلمهم . وتمت عملية التطور في تقارب بين الملوك والبورجوازية ، وعلى حساب النبلاء الذين زادوا ضعفاً .

وأخيراً ، وليس آخرأ ، فإن فجر التاريخ الحديث ، الذى شهد الكشف الجغرافية قد أدى إلى تغيير خريطة العالم المعروف وأدى أكثر من ذلك إلى ظهور حركة الاستعمار الاوربى للعالم ، كل العالم ، بما فيه الأمريكتين ، وأستراليا ، والشرق الأقصى ، وأفريقية ؛ ولا شك فى أنها كانت مرحلة هامة تمثل سيطرة أوربا على العالم ، وفى صالحها ، وأدى إلى بناء أوربا كتتحفة فنية ، فى مدنها ، وكركن مسيطر ، وعلى حساب الملايين ، وفى جميع أنحاء العالم .

وهذه المميزات للعصور الحديثة هى الفقرات الكبرى فى هذا الكتاب ، وتمثل أبوابه الرئيسية ، الواحد بعد الآخر . ومن عالم مغلق على نفسه إلى انفتاح وسيطرة واستغلال وتحكم وامبريالية . إنها قصة بدأت من فجر التاريخ الحديث ، ولا تزال حلقاتها متسلسلة ، وحتى الآن .

البَابُ الْأَوَّلُ

تفكك عالم العصور الوسطى في الغرب



الفصل الأول

ضعف النظام الاجتماعي

وإزدياد قوة الملكية

كان النظام الاقطاعي مظهر هام ، وأحد المميزات الرئيسية للحياة في العصور الوسطى في العالم الغربي . وكان قد تغلغل في المجتمع ، وأثر في وضعية الأفراد والممتلكات . وقام على أساس السيطرة على الأرض ، وهي وسيلة الانتاج في مجتمع زراعي ، ومن جانب طبقة من المحاربين ، تميزت ، وكونت نفسها طبقة خاصة بها ، إرستقراطية ، وضعت نفسها نظاماً تربطها بالآلهة ، وتربط كل منهم بتوحيده الأرض الموجود عليها . وأذن ذلك أن يكون تركيب المجتمع ، والسلطة السياسية فيه قد قامت بالفعل على أساس هذا النظام ، ومن عهد الأرض إلى صغار السادة ، ثم كبارهم ، وحتى تصل إلى السيد الأعلى ، والذي ليس له متيد ، وهو الملك . وكان من الطبيعي أن تظهر الأيام والممارسة نقائص المجتمع الاقطاعي ، وعرقته للتقدم الاقتصادي والبشري . فتظهر حياله قوى معارضة تتمثل من ناحية في القوى الشعبية التي تحاول الحصول منه على تنازلات ومن ناحية أخرى النظام الملكي ، الذي يحاول أن يرث حقوق الطبقة الارستقراطية ، من ناحية سلطتها السياسية مدعماً لنفسه ، ولنظامه الملكي ، في جميع أنحاء المملكة . ويؤدي هذا الصراع ، الطويل الممتد إلى ضعف النظام الاقطاعي وإضطرابه إلى التحول ، مع الظروف ، ومع الزمن ، عن الكثير من حقوقه ، وفي صالح الملكية ، التي تزدد قوة مع الأيام . وكان هذا التحول الطويل قد بدأ منذ منتصف القرن الثاني عشر . وأساس لتغير إقتصادي واجتماعي كبير ، في تكوين وبتيان حياة العصور الوسطى ، في الهادية ، والريف ، ونطاق الانتاج الزراعي ، وحيساسة

الريف ، التي كانت هي السمة الغالبة على حياة العصور الوسطى . وكان هذا التغير الجذري يمهّد لتغير يحدث في شكل المجتمع ، وكذلك في العلاقات الموجودة في البنيان الفوقي لمجتمع عالم العصور الوسطى في الغرب .

١ - النظام الاقطاعي :

كان الاقطاع يشتمل على مجموع النظم العامة والخاصة التي سادت غرب أوروبا أثناء العصور الوسطى ، والتي كان أهم ركن فيها توزيع مناطق النفوذ . ولقد امتد نظام الاقطاع بشكل عام ، وبغض النظر عن الازمنة والامكنة ، على كل النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والتي كانت تضم ؛ ومهما كانت مسمياتها . السمات الاساسية لما ساد أوروبا في هذه العصور . وعلينا ألا ننسى أن هذا النمط من المجتمع ومن الحكومة قد امتد إلى بلاد أخرى ، وفي فترات مختلفة ، وأنه قد اختلف ، في شكله ، من مكان لآخر ، وإن كانت بعض سماته العامة قد تميزت عن غيره من أنماط التنظيم الاجتماعي والسياسي .

وكان النظام الاقطاعي قد تغلغل في كل جسم المجتمع ، وأثر على أجهزته الحيوية ، وغير كل ظروف وجودها ، وحدد وضعية الأفراد ، ووضعية الممتلكات ؛ وكذلك السلاطات العامة . ويشتمل كل نظام اقطاعي على صفات ثلاث : (١) فهو يعيش في نطاق نظام زراعي ، وتشتمل الأرض فيه جزئياً على ممتلكات جماعية ، للنفعة العامة ، وكذلك على الممتلكات الزراعية المحددة لأسر أو لأفراد ؛ والتي يمثل إنتاجها العامل الاساسي في الثورة العامة ؛ أما التجارة والصناعة فليس لها سوى دور ثانوي ؛ (٢) وهو يمثل مجتمع محارب ، أي أنه بدلا من يستند أمر الحصول على الممتلكات إلى ظروف العمل والعدالة ، فإنه يتقرر في غالب الأحيان ، عن طريق القوى والقهر ، كما أن جزءاً كبيراً من المجتمع يعيش مسلحاً ، وبشكل دائم ، سواء من أجل الدفاع ضد أي هجوم خارجي ، أو من أجل المحافظة ، في داخل الدولة ، على تلك الوضعيه التي انشئت ، ضد

مقاومة غير الراضين ، أو ضد محاولات الطموحين ؛ (٢) وهو مجتمع أرستقراطي ،
أى أن أعضائه موزعين بين طبقات مختلفة ، وغير متساوية ، وللبعض امتيازات ،
وبينا تشغل الأعباء كراهل الآخرين . وهناك أشكال مختلفة للأرستقراطية :
فيمكن لإحدى الطبقات المتميزة أن تستند في تفوقها إما إلى شعب غاز تنحدر
منه ، وإما إلى إحدى المهن الدينية أو المدنية أو العسكرية ، التى كانت تمارسها ،
دون أن تشرك فيها أحداً معها ، وغالباً ما تحصل على أصلها وصلاية سلطتها نتيجة
لأكثر من عامل من هذه العوامل . وفى المجتمع الاقطاعى لا تتشكل الطبقة
الأرستقراطية بمهنتها المدنية ، ولا بثروتها غير العقارية . وتستند في تفوقها إلى
سلبين رئيسيين : ففى اوحيدة التى تسيطر على الأرض ، أى على الثروة العامة ،
فى هذا المجتمع الزراعى ، وهى الوحيدة التى تحمل السلاح وتمارس الحرب ،
وبالتنصاف فهى مرتبطة بالأرض كما أنها عسكرية . وليس معنى ذلك أنها تتكون
من المحاربين فقط ، خاصة وأن الطبقة المميزة فى المجتمع الاقطاعى تشمل كذلك
على رجال الدين ، ونقابات الحرف ، ومجموعات البورجوازيين ، ولكن هؤلاء
كانوا مضطرين ، من أجل التمتع بميزات رجال السيف ، إلى أن يمتلكوا
أراض ، أو يحصلوا على حقوق عقارية ، وأن يقدموا كذلك عن طريق ممثلين
عنهم ، خدمات للحرب ، أما الطبقات الدنيا ، فى مثل هذا المجتمع ، فإنها كانت
تتكون من عبيد ، مرتبطين بالأرض ؛ ومزارعين أو صناع يشاركون بدرجات
متفاوتة فى ظروف العبودية ، ومن رجال أحرار لهم حقوق مدنية محدودة للغاية ،
وعليهم أعباء ثقيلة . وكان هؤلاء هم الذين يزودون المجتمع كله ، وبعمالهم ، بكل
ما يحتاجه من الناحية الاقتصادية . ولما كانوا لا يمتلكون أرضاً خاصة بهم ،
ولما كانوا لا يمتلكون سلاحاً ، وليست لهم تقاليد حربية ، فكان من الواجب
عليهم أن يطلبوا إلى الطبقة الأرستقراطية ، وفى نظير الخدمات الشخصية ، أو
دفع مبالغ من المال ، التنازل لهم عن أرض صالحة للزراعة ، وكذلك أعطاهم الحماية

اللازمة لقيامهم بعملهم ؛ وبهذا أصبحوا يعيشون في خضوع لها ، وتحت رحمتها .
وهذه الصفات الثلاث توجد في كل المجتمعات الاقطاعية ، وإن كانت لا تكفى
للتمييز بينها وبين المجتمعات الارستقراطية ، والتي وجدت في بلاد اليونان
القديمة . وروما مثلاً ؛ وإن ما يمثل الاقطاع بنوع خاص هو ذلك الدور المسيطر
الذى تلعبه « الأرض » في العلاقات الاجتماعية ، والذي ينبثق عن الاحوال
الاقتصادية بصفة خاصة . ففي المجتمعات الحديثة ، يرجع هذا الدور إلى النقود :
فالحياة الاجتماعية تتكون من تبادل خدمات لا تنتهي ، بعضها خاص ؛ والبعض له
صفة العمومية ؛ وبشكل عام ، لا يتم تبادل هذه الخدمات بشكل مباشر نظير
خدمات أخرى ، ولكن نظير قيمه يتم الاتفاق عليها ؛ في شكل عملة أو عملة ورقية ،
تستخدم كإجراء عام . ويقوم كل شخص بدفع خدماته المنزلية ، ومواد استهلاكه
أو المنتجات الصناعية التي يحتاجها ، بالنقود ؛ كما أن الدولة تدفع مكافآت ،
ورواتب وأجور موظفيها ، نتيجة قيامهم على تولى أعباء الإدارة العامة .
ولكن الحال في هذه المجتمعات الاقطاعية ، كان مختلفاً ؛ حيث كانت زراعة
الأرض هي المورد الوحيد تقريباً للثروة ، وكانت التجارة والصناعة غير نامية ،
وكانت الثروة المنقولة (غير العقارية) تحظى بحماية سيئة ، ولا يقدرون قيمتها ؛
ولذلك فإن النقود لم تتدخل إلا بشكل تكميلي في العلاقات الاقتصادية ؛ وكانت
الأرض هي التي تقوم في ذلك العصر بدور النقود ؛ وتعتبر مكافأة وأجرأ
لمعظم الخدمات الخاصة ، أو حتى العامة . فإذا كان أحد الملاك يرغب
في أن يجبر أحد الرجال من طبقة أدنى على أن يقدم له من وقت لآخر منتجات
إحدى المهن ، أو عملاً جثمانياً أو ثقافياً معيناً ، فبدلاً من النقود ، كان يمنحه
حق التمتع بقطعة أرض أثناء كل الوقت الذي سيقدم فيه هذه الخدمات له . وإذا
كان يرغب في أن يحصل من رجل من نفس طبقته عن تعهد بالولاء والمعونة ،
والوعد بأن يحارب معه ، ويخضع لعدالته ، ويدفع له نوعاً من الجزية ، نوعية

أمر نقدية ، فإنه يمنحه ، وبشروط معينة ، الملكية التامة لأرض زراعية لها مساحتها المعينة ، ومع كل الحقوق التي يمارسها هو نفسه على سكان هذه الأرض . وفي الحالة الأولى يكون تبادل الأرض نظير خدمات خاصة ؛ وفي الحالة الثانية يكون تبادل الأرض نظير خدمات عامة ، تشبه تلك التي لأحد المواطنين تجاه الدولة . وهكذا يظهر أن الأرض كانت حينئذ ، بين أيدي المالكين وأبناء الطبقات المتميزة الذين يمتلكونها ، ليس مجرد مورد للثروة ، ولسكن بصفتها وسيلة للسيطرة : فهو اسطة الأرض ، لم يقتصر الأمر على مجرد مواجهة متطلبات الحياة المادية والاجتماعية ، بل كانوا يحصلون على حقوق سيادة على رجال آخرين ؛ ولم يكونوا مجرد ملاك يخضعون مستعبريهم ، وزراعيهم ، وصناعهم ، بل سادة يعاونهم تابعين ، أو صغار السادة ، في دولة صغيرة . وفي أثناء العصور الوسطى كانت الأرض التي تمنح بهذه الطريقة نظير خدمات عامة ، والتي كانت تمثل ، بين المتعاقدين ، علاقة السيد بالتابع تحمل ، في كل أنحاء أوروبا اسم منطقة النفوذ الإقطاعي Feoda ؛ وكانت تعطى اسمها لكل النظام الذي تمثل المؤسسة الأكثر أصالة فيه . ولكن المسألة الأكثر أهمية ، هي أن العقد الذي يتم به تبادل الأرض نظير خدمات مختلفة ، لم يكن مجرد تعهد شخصي بسيط ، لا يربط إلا الأطراف المتعاقدة فيما بينها ؛ بل كان يدخل فيه عامل أساسي ، ثابت ودائم ، وهو الأرض نفسها . إذ أن أحد المتعاقدين كان يحصل على خدماته ؛ بصفته مالكا للأرض الممنوحة ، وكان المتعاقد الثاني له حق في المطالبة بهذه الحقوق ، نظير حيازته لأراض خرجت واقتطعت من أرض أخرى . وهكذا قامت علاقة ، ليس فقط بين الشخصين المتعاقدين ، ولكن بين الأرضين ، واستمرت حتى بعد إختفاء المتعاقدين الأساسيين ، وضد أو في مصلحة المالكين الجدد ، مهما كانوا . وهكذا يمكننا أن نقول أن الخدمات المنصوص عليها قد فرضت على مساحة معينة ، من الأرض ، أكثر من فرضها على شخص معين ، وأنها تمثل إلتزامات معانة تجاه الأرض ، وعبودية

عقارية تستمر مادام عقداً جديداً لم يتم لتغيير العلاقات القائمة . وعلى العكس من ذلك ، كانت هذه الخدمات ترجع ، وعلى الأفل بالنسبة للمالك ، أولسيد الذى منحها فى أراضيها الملحقه به ، إلى حقوق أساسية ، يمكن تغييرها ، وإعادة منحها ، مع هذه الأرض نفسها .

وينتج عن طبيعة هذه الأوضاع نتيجتين هامتين ، تمثلان المجتمعات الإقطاعية : أولاً أن ظروف الأشخاص تحد بطريقتهم عامة تقريباً بنظام الأرض التى يسكنونها ؛ أما الدافع الفردى الذى هو على درجة كبيرة من القوة فى المجتمعات الديمقراطية ، والذى يسمح لكل فرد بأن يكون هو الصانع الأساسى لظروفه الاجتماعية ، فلم يكن له سوى تأثير ثانوى . إن ما يقيم الرجل ، فى المجتمعات الإقطاعية وما يمكنه أن يقوم به ، يرجع قبل كل شئ إلى الأرض التى يحوزها ، والصفة التى تتم الحياة طبقاً لها ، إن ذلك التنازل أو المنحة التى تكون قد أعطيت لأسلافه ، أو له شخصياً ، هى التى تحدد حقوقه وواجباته ، وكذلك وظيفته الاجتماعية . وإذا كان أحد الرجال هو رئيس رجل آخر ، أو تابع له ، فإن ذلك يرجع إلى أن الأرض التى يحوزها الأول لها سيادة ، أو تخضع للأرض التى يحوزها الثانى ، وإذا كان من النبلاء ، أو الأحرار أو عبيد الأرض ، فإن ذلك يرجع إلى نوعية حياته ، سواء أكانت نبيلة أو حرة أو خاضعة ، وكانت هناك وسيلة واحدة فقط لتغيير هذه الأحوال ، أو للتخلص من الإلتزامات والاعباء المربوطة على الطبقات الدنيا ، ومن أجل الحصول على إمتيازات الطبقة الأرستقراطية ، وهى الحصول على تنازل جديد يغير نوعية الحياة ولكن كل فرد كان ، بصفة عامة ، يظل مرتبطاً بالأرض ، أى للقصر الذى هو مهيكله ، أو للحقل الذى يزرعه ؛ أو للمدينة التى يمارس فيها مهنته . ولم يكن من المهم أن تنتقل الأرض من سيد إلى آخر عن طريق الوراثة ، أو التنازل ، بل تظل ظروف أولئك الذين يسكنونها ثابتة ، مادامت علاقاتهم مع الأرض التى يحوزونها لم تتغير . ثانياً أو الظروف الاقتصادية التى يعيش فيها المجتمع الإقطاعى تعطى

للملكية العقارية شكلاً جديداً ، وفي موقع متوسط بين نظام الملكيات الجماعية ،
الذى ساد المجتمعات البدائية ، ونظام الملكية الحرة والمطلقة ، والذى يسود فى
الجماعات الحديثة . وهذا الشكل يتمثل فى الحيازة الدائمة ، أو ذات المدى
الطويل ، والذى تمثل منطقة النفوذ الإقطاعى فيه العامل الأكثر وضوحاً . ويتميز
بشكل خاص بأن المالك ليس له على الأرض إلا حق مشروط ، ومحدود ، يشبه
ذلك الذى للمستأجر أو المشارك فى المزارعة . وتنتج هذه الصفة عن أن العلاقات
الاقتصادية والاجتماعية كانت تؤدى ، كما رأينا ، إلى تنازلات عن أرض مكلفة
بتقديم خدمات ، وأن الغالبية العظمى من الأرض ، بالتالى ، إذا استثنينا ذلك
العدد الصغير من الإقطاعات المعفاة من كل أعباء نتيجة للظروف الخاصة ، كانت
محملة ومكلفة بخدمات وأعباء تضع كل وحدة منها فى وضعية خضوع تجاه أرض
أخرى ، ولا تسمح لصاحب الحيازة أبداً بأن يتصرف فيها بحرية ، كما يرغب .
وكانت القاعدة الأساسية أنه لا يوجد أى شخص ، سواء من السادة أو الخاضعين ،
أو المستأجرين أو عبيد الأرض ، يمكنه أن يمتلك أرضاً إلا طبقاً لمنحه ،
ونظير عبء وتكليف بخدمات تجاه من يقدم المنحه . فلم يكن إذن من
يمنح أرضاً ، سواء أكان ذلك مجاناً أو فى نظير ، ينفصل عنها أبداً بشكل نهائى :
بل يحتفظ لنفسه بحجزه من الحقوق التى تتكون منها الملكية التامة ، ولا يتخلل إلا
عن الحيازة وحق الانتفاع ؛ وطبقاً للحقوق التى يحتفظ بها ، والمنصوص عليها
بالنسبة لأرضه ، فإنه يمكنه ، نتيجة لنقص الخدمات الواجبة ، وربما حتى نتيجة
لاوائمه ، أن يستعيد الأرض التى كان قد منحها . ولذلك فإن حائز الأرض
لم تكن لهم بهذه الطريقة إلا حقوق بسيطة ، ولا يمكنهم أن يتصرفوا فيها كما
يرغبون ، وفى غالب الأحيان لم يكن حقهم سوى من أجل الانتفاع ، وشخصى ،
ويعود بعدهم إلى من سبق أن منحه . وحتى حين يكون حقهم وراثى ، وإذا
كانوا يقدرون على توريثه ، فإنهم كانوا لا يقدرون على تحويله إلى آخرين ،

أو بيعه ، دون الحصول على موافقة السيد الذى كانوا قد حصلوا عليه منه . وكان من نتيجة هذه الإمكانات المحدودة للملكية العقارية أن أصبحت هذه الحقوق غير مؤكدة ، وأن زادت المطالبات ، وبشكل منع تفتيت الأرض ؛ ولكنه أوقف الدافع الفردى الحر ، وبالتالي التقدم الاقتصادى .

٢ - التركيب الاجتماعى والتنظيم السياسى :

إن شرح عملية التركيب الاجتماعى والتنظيم السياسى داخل المجتمعات الإقطاعية تسمح لنا بزيادة فهم الدور الرئيسى للملكية القعارية فى هذه المجتمعات ، وخاصة بعد أن عرفنا كيف أن الأرض المقطعة ، أو منطقة النفوذ ، كانت فى نفس الوقت مركز الحياة الاجتماعية ، والحياة السياسية .

لقد كان تجمع الأفراد فى نظام إقطاعى يقوم أساساً على علاقات الخضوع والتكافل التى تنتج عن تلك السلسلة من التنازلات عن الأرض المسكفة بأعباء خدمات ، ليس فقط بين الطبقات الدنيا والطبقات الأرستقراطية ، ولكن كذلك بين الأفراد المختلفين لهذه الطبقة الأخيرة ، ولم يكن كل سيد ، يستند إلى مساحة أرضه ، وإلى عدد رجاله المسلحين ، بل كان لديه زبائن يتمثلون فى الرجال الأحرار والمستأجرين وعبيد الأرض ، الذين يزرعون أراضيه ؛ ويتمثلون كذلك فى سادة آخرين ، فى فقر واضح ، أو على درجة من الضعف ، لا تسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم فى فترات العنف والإضطراب ؛ ويرغبون فى وضع أنفسهم تحت حمايته ؛ فيقدمون له الولاء عن أنفسهم وعن أملاكهم ، ويحصلون منه نظير ذلك على مناطق نفوذ ، تحولهم بالتالى إلى تابعين له . ويصل بنا الحال إلى أن نجد أن كل الإقليم قد أصبح مقسماً بين الأعضاء الرئيسيين فى الطبقة الأرستقراطية ، وأن كل منهم قد أصبح سيّداً على منطقة لها درجة لإتساع معينة ، ويشكل سكانها مجموعة متميزة تحت سلطته ؛ فيخضعون له ، وإن كان ذلك بدرجات مختلفة . وكان لكل سيد قوى على أراضيه الخاصة عدداً من المستأجرين الذين ينتسبون إلى

طبقات أدنى ، ولبعضهم وضعية الرجل الحر ، وللآخرين وضعية عبيد الأرض ؛ وكان له على الأرض التي أقطعها لغيره ، والتي لا يزال سيدياً عليها ، تابعين ينتسبون مثله إلى الطبقة المتميزة ، وتحت سلطة كل منهم رجال أحرار وعبيد أرض . في ذلك الإقطاع الذي أصبح خاصاً بكل منهم . وكان لا يطالب المستأجرين إلا بالمدفوعات المالية أو الجسدية ، في شكل إيجار أو سخرة ؛ أما التابعين ، فكان يطالبهم بالولاء والمعونة الشخصية ، في شكل خدمات حرب ، وعدالة ، أو نقود ، وكان له ، بالنسبة للأولين ، حقوق المالك على مزارعيه ، أو السليم على خدامه ؛ أما بالنسبة للثانين ، كانت له سلطات رئيس دولة على رعاياه . وهكذا نجد أن هذه المجموعة التي انتظمت بهذا الشكل لم تكن معزولة عن المجموعات المجاورة ؛ فالسيد ، الذي هو رئيسها ، يمكنه أن يدخل بنفسه ، وبصفته تابع ، في مجموعة أخرى لها نفس طبيعتها ، والتي يكون السيد رئيسها له من الصفات ما يجعله أكثر قوة منه ؛ ويترتب على ذلك أن تصبح أراضيه تابعة مباشرة لهذا السيد ، وعلى أساس منطقة النفوذ الإقطاعي ؛ وتصبح أراضى تابعة كذلك تابعة بطريق غير مباشر لهذا السيد ، وعلى أساس أنها « إقطاعات بالتبعية » . وبهذا الشكل يمكن لمجموعات عديدة أن تلتحق بمجموعة أعلى ، في الوقت الذي تخضع هذه الأخيرة إلى غيرهما ، أكثر عواً منها . هذه هي الخطوط الرئيسية لهذا التجمع الخاص بالافراد في مجتمع إقطاعي ؛ وكان الرباط الذي يربط السيد بتابعيه النبلاء وبأبناء الطبقات الأدنى الخاضعين بطريقة مباشرة له ، لا يشتمل على مجرد تعهد شخصي ، ولكن على عقد فعلي ، وعن طريق الإقطاع الفعلي لأرض مكلفة بخدمات معينة . ولكي يصبح الفرد تابعاً ، لم يكن تقديم الولاء كافياً ؛ ولكي يصبح مستأجراً أو عبيد أرض لدى أحد السادة ، لم يكن مجرد تقديم تعهد ، من رجل لرجل ، كافياً ؛ بل كان من اللازم ، علاوة على ذلك ، وفي الحالة الأولى ، التنازل عن منطقة نفوذ إقطاعي ؛ وفي الحالة الثانية ، التنازل عن حياة

مستأجر أو عبد أرض . وإذا كان التابع ، والمستأجر ، مرتبطين تجاه السيد بالتزامات مثل التي سبق ذكرها ، فإن ذلك كان يرجع ، قبل كل شيء ، إلى طبيعة الإقطاع الذي كانوا قد إستلبوه ؛ وإذا كانوا يرغبون في فك ارتباطهم من هذه الالتزامات ؛ فإنه كان من اللازم عليهم أن يتنازلوا عما إستلبوه ؛ أما إذا أهملوا في الوفاء بالتزاماتهم ، فإنهم ، كانوا يعاقبون بفقدانهم حيازتهم .

وحينما تصبح الحالة الاجتماعية التي شرحناها عامة ودائمة لدى أحد الشعوب ، فإنها تنتج بالضرورة شكلا جديدا للحكومة . وإن ما يميزها هو أن السيادة ، بدلا من أن تتمثل في الأمة كلها ، أو في شخص ملك واحد ، تكون موزعة بين أيدي عدد لا يحصى من رؤساء المجموعات الإقطاعية ، الذين يقتسمون الأرض ؛ وأن هؤلاء الرؤساء متحدون فيما بينهم ، لابرابط إتحادية ، ولكن بسلم طبقي ، يجعلهم في ظروف معينة ، خاضعين البعض منهم للآخرين ، وفي ظروف أخرى ، يتركهم يتمتعون بالاستقلال التام . وفي كل المجتمعات المنظمة ، تتمثل حقوق الدولة في واجبات على الأفراد لتقديم خدمات شخصية وتقنية ، وتكون في مجموعها القوة الاجتماعية ؛ وتشتمل هذه الواجبات على ضرورة الوصول إلى أن تضمن للأفراد ، وعن طريق هذه القوة الاجتماعية ، الحماية والعدل وحرية العمل اللازمة لهم . وفي دولة مركزية ، يحكمها رئيس منتخب أو وراثي ، يعود إلى هذا الرئيس وموظفيه الذين يمثلونه ، أن يقوم كل شخص بتقديم الخدمات ، وطلب مثل هذه الحماية ؛ أما في الدولة الإقطاعية فإن ذلك يرجع إلى السيد الذي تعود إليه ، بطريقة مباشرة ، الأراضي التي يقيمون عليها ؛ إذ أنهم لا يعرفون سواه ، وليس عليهم واجبات إلا حياله ، وليس لهم أن ينتظروا معونة أو حماية أو حماية إلا منه . وهكذا نجد أن كل مجموعة إقطاعية كانت تشكل ؛ في هذا المجتمع ، ما يشبه دولة صغيرة ، مزودة بحكومة خاصة بها ، ويمكنها القيام بكل الوظائف الأساسية لدولة كبرى : ونتيجة لخدمات الحرب ، والعدالة والمشورة ، التي يقدمها

التابعون ، يمكن السيد أن يكون له جيش ، وقصر عدالة ، وللمجلس حكومة ؛ ونتيجة للجزية التي يدفعها التابعون ، وللوارد المالية التي ترد من المستأجرين ، تصبح له خزانة ؛ ونتيجة للخدمات الجسدية أو السخرة التي يقدمها له عبيد أرضه ، وغالباً كذلك الرجال الأحرار الذين يقيمون في أراضيه ، يسيطر على أكبر عدد من السواعد ، سواء للزراع أو الحرفيين . ولكننا رأينا أن المجموعات الإقطاعية ليست منفصلة عن بعضها ؛ بل إنها مرتبطة فيما بينها بروابط تبعية ، ويشكلون سلباً كبيراً يصل من المجموعات الدنيا إلى المجموعات العليا ، والتي يقل عددها بالتدريج ، حتى فصل إلى سيد لا يعترف بسيد أعلى منه ، ولا يحصل على حقوقه من أحد ، بل « من الله وبسيفه » . والحقيقة أن وجود رئيس واحد ، وميد أعلى ، على رأس السلم الإقطاعي ، لم يكن شيئاً أساسياً بالنسبة لمثل هذا النظام . ويبدو حتى أنه ، في أحد أشكال الحكومة ، وحيث يقوم كل كبار ملاك المناطق الإقطاعية ، بمنح أنفسهم ، وكل في منطقة نفوذه ، حق ممارسة السلطات العامة ، فإن التنظيم الملسكي ، أي إنشاء سلطة مركزية وعليا ، كانت عاملاً غريباً ، وحتى معادياً . ومع ذلك ، ففي الواقع ، وتحت تأثير ظروف مختلفة ، اختلفت حسب الزمان والمناطق ، وفي كل مكان نشأ فيه النظام الإقطاعي ، كان أحد السادة المسيطرين على الأرض يسيطر على الآخرين ، ويركز في شخصيته كل السلم الإقطاعي . وكان هذا السيد صاحب السيادة يحمل عادة لقب الملك أو الإمبراطور ؛ وكان يسيطر ، وعلى درجات من تحته ، على كل مناطق النفوذ وكل استثمارات وحيازات الأرض في المملكة ، والتي كانت تحسب بين مناصاته المباشرة ، أو غير المباشرة . وواقع أن سلطته كانت في بعض الأحيان حقيقية على تابعيه ، وغالباً ما كانت فعلية ، ففي بعض الأحيان ، وإذا ما كانوا أقل قوة ، أو منقسمين نتيجة لمنافسات شخصية ، فإنه كان يحتفظ بهم بين أيديه ، موزعاً عليهم ، ومستعيداً منهم ، وحسب رغبته ، تلك الإمتيازات التي كان قد منحها لهم ، طبقاً لدرجة الخضوع التي كان كل منهم قد أظهرها له ؛ وفي أحيان أخرى ،

وإذا ما كانوا أقوياء ومتحدين ، فإنه كان يتفاهم معهم ، ويواجه منهم مقاومات مستهجرة ، ولا يحصل منهم إلا على رغبتهم في الاستمرار في إظهار طاعة قلبية ، وطبقاً لمصالحهم . ولكن علينا أن نلاحظ ، في كل الحالات ، أنه لم يكن يمارس سلطته ، خارج منطقة نفوذه الخاصة ، إلا على أشخاص التابعين له بطريق مباشر ، ولم يكن من حيث المبدأ ، يمارس أبداً مثل هذه السلطة ، على التابعين بالتبعية ، أو على المستأجرين الذين كانوا يخضعون لتابعية ، ولم يكن له من رعايا سوى الأولين ، وكان في وسعه أن يجبرهم على الحركة من أجل نفسه ، أو تابعيه ، والرجال المسؤولين عن إقطاعاتهم ؛ ولمكنه أن لا يقدر ، إلا في حالات استثنائية ، على أن يحصل مباشرة على أية خدمة من تابعيه ومن هؤلاء الرجال الذين لا يخضعون له . وهكذا كان كل سيد ، وعلى كل مستوى من مستويات السلم الإقطاعي ، سيداً ، وتابعاً في نفس الوقت : سيداً في منطقة نفوذه الإقطاعية والتي كانت أراضيها ورجالها لا تخضع إلا له ؛ وتابعاً لسيدته المباشر ، والذي كان عليه تجاهه واجبات إقطاعية .

وإذا كانت هذه هي السمات الأساسية لنظام سياسي خاص بالمجتمعات الإقطاعية ، فما هو شكل الحكومات التي يمكنها أن تنتج عن ذلك ؟ علينا أولاً أن نستبعد الأشكال الديمقراطية لها ؛ مادام المجتمع الإقطاعي ، بحكم تعريفه ، لا يتمشى مع النظام السياسي الذي يمكن للشعب في ظله أن يحكم نفسه بنفسه ، أو عن طريق تمثليه . ويمكن للنظام الإقطاعي أن يضع نفسه بين الحكومات الأرستقراطية ، مادامت السلطة موجودة في أيدي عدد من الرجال من طبقة مميزة ، والذين يمتلكون وحدهم الأراضي الزراعية ، ويحملون السلاح . ولمكن يمكن وضعه كذلك بين الحكومات الملكية ، مادام أعضاء الطبقة الحاكمة يكونون نظاماً طبقياً تحت السلطة الفعلية أو الاسمية لرئيس واحد . والملكية الإقطاعية في بعض الأحيان إنتخابية ، وفي أحيان أخرى وراثية ، ولمكنها دائماً مرتبطة بالوطن أي أن

رئيسية يمارس السلطة ، لاعتن طريق تفويض من الخاضعين له ، الملكية التمثيلية ،
أو عن طريق سلطة ما وراء الطبيعة ، الملكية الشيوعية ، ولكن بإسمه الشخصي ؛
كما أنه يستخدم ممتلكاته الشخصية ، وأنه في كل درجات السلم ، لا يمكن لأى حق
سياسى أن يظهر إلا في شكل « وطنى ، كقطاع أو منطقة سيادة . ومع ذلك فإن
الملكية الإقطاعية ليست مستتبدة : فإذا كانت سلطة الملك شبه مطلقة على أراضى
وأشخاص تابعيه ، فإن هذه السلطة كانت محددة إلى درجة بعيدة لدى السادة
خاضعة للارتباط الإقطاعى الذى يوحدها به . وبالإختصار فيمكننا أن
نلخص الإقطاع ، وبصفته نظام سياسى فى أنه ربط بين أرسقراطية الأرض
والأرسقراطية المحاربة ، وبين الملكية الوطنية . ولكن العنصر الأرسقراطى هو
الذى يسود فيه ؛ فالامتيازات ليست للطبقات المسيطرة وحدها ، ولكن للطبقات
صاحبة السيادة ؛ ليس الملك نفسه إلا أحد السادة ، ولكنه فوق كل الآخرين ،
وليس هناك من سيد عليه . وهكذا نستخدم فى بعض الأحيان تعبير « نظام
السادة » كرادى « للنظام الإقطاعى » . ولكن ربما كان التعبير الأول أكثر
إتساعاً ، إذ أنه يدل على نظام يكون السادة الفعليون فيه ، من وجهة النظر
السياسية والاجتماعية ، هم السادة . ومع ذلك فإن التعبير الثانى هو الذى إنتشر ؛
ولأنه كان يحدد معنى الإقطاع ، ويفسر التفوق الاجتماعى والسياسى للسيد .

٣ - تطور النظام الإقطاعى :

لاشك فى أن النظام الإقطاعى كان يحقق للطبقات الدنيا نوعاً من الأمن تحصل
عليها من حماية المحارب للأرض التى تعيش عليها ، وكان يحقق للطبقات الحاكمة
الاستقلال والعزة المعنوية من السيادة التى يمارسها كل فرد منهم على ممتلكاته ؛
وذلك فى ظل نظام تعافدى . غالباً ما يكون باهظ الثمن بالنسبة للضعفاء ، وإن
كان أفضل من سيادة العنف ، وللتحكم .

ومع ذلك فإنه لا يمكن للنظام الإقطاعى أن يستمر إلى مالا نهاية دون أن

تظهر نقائصه ، وذون أن يتضمن الكثير من الإنحرافات ، والظلم ، فتشور ضده
الاحقاد ، وتنشأ ضده الثورات ذلك أن حماية السيد تتحول إلى وسيلة كبت :
فالسيد يسمى من إستخدام قوته للضغط على أولئك الموجودين تحت إشرافه ،
فيستولى بدون حق على أملاكهم ، ويستبعد أشخاصهم ، ويتقل عليهم بالأعباء
الباهظة والمذلة ؛ وحتى إذا كان لا يكبت مزارعيه ، فإنه يستغلهم ، ويتحول
معظم الخدمات التي يطالبهم بها إلى مصلحته الشخصية ، أو لأرضاء مطالبه
الأسرية ، وطموحه كما أن الروابط الحقيقية التي تربط الإنسان بالأرض ،
والانخراط التي يتعرض لها أى شخص من أملاك السيد ، وتقسيم المجتمع إلى
طبقات مغلقة ، كانت تمثل عقبات في مواجهة تنمية التجارة والصناعة ، وأما التقدم
الاقتصادى . وكانت عدم كفاية الروابط الاقطاعية لإقامة النظام في مجتمع لا يعترف
إلا بالحقوق الفردية ، وكذلك التقاليد العنيفة للاستقراطية ، التي لا تعرف سوى
مهمة الحرب ، تسبب في حروب خاسرة ، باستمرار ؛ وتكون من بين نتائجها
الاستعباد . وهروب الأهل من الأرض ، وتخريب المدن والأرياف . وأخيراً ،
فإن الدولة الاقطاعية ، وحيث توزع السيادة بين الكثير من الأيدى ، كان لا يمكن
أن يكون لها ، من وجهة نظر الإدارة الداخلية والعلاقات الدولية ، ذلك الانعجام
والقدرة التي تتمتع بها الدولة المركزية . وهذا النقص والاضرار التي تنبع
عنه تسبب ، إن أجلاً أو عاجلاً ، في نشأة رد فعل مزدوج ضد النظام الاقطاعى .
ويجىء أحدهما من الطبقات الدنيا : ففي كل مكان ، حيث لا تؤدي العزلة
والتخلف المعنوى إلى عدم القدرة ، يتحد المكبوتون ، سواء أكانوا من الأحرار
أو العبيد ، وينظمون أنفسهم في مجموعات صغيرة ؛ ونتيجة لتسلحهم بهذا
الاتحاد ، يمكنهم أن يحصلوا ، شيئاً فشيئاً ، وإما بالموافقة أو بالرغم ، على
تنازلات محددة من بحكم السيد ، وتصمن لهم عدداً معيناً من الحقوق والامتيازات
الجماعية ، وفي نفس الوقت تتحسن أحوالهم الاقتصادية ؛ وماداموا قد أصبحوا

أكبر حريه ، فانهم يثرون من التجارة ، ومن الصناعة ، ومن الفنون ؛ فيشثرون الاراضى ؛ ويحصلون بذلك على القوة الاجتماعية وتتمكن بهذه الطريقة بعض المجموعات من ان تصل إلى أن تنفسيه لنفسها مكاناً في الطبقة المميزة ، ولا تحصل فقط على حقوق في المدينة ، ولكن كذلك على سيادة سياسية حقيقية ، تسمح لها بالتعامل على مستوى الند للند مع السادة الإقطاعيين . ويجيء رد الفعل الثاني من الرئيس الأعلى ، الذي يحتل قمة السلم الأرستقراطي في المجتمع الإقطاعي ، سواء كان يلقب الملك ، أو الامبراطور . وكانت أسرة السيد قد استولت ، بالقوة أو بالخداع ، على هذا المركز ذا السيادة ، ووضعت سياستها على أساس توسيع أراضيها ، وحقوقها وامتيازاتها على حساب أسر السادة الآخرين ؛ وكانت قد قامت في أغلب الأحيان بالارتباط ، طبقاً لمصالحها ، مع رئيس الجماعة الدينية ، والطوائف المدنية أو الريفية ، ومع صغار السادة التي تحاول أن تفصلهم عن سيادة كبار السادة لكي تدخلهم في تبعيتها المباشرة ؛ وكانت قد أخذت صادرت وأعدت شراء الأعلبية العظمى لمنطقة النفوذ ؛ وأكدت لنفسها حق الانفراد بحقوق التمتع التي يمارسها كل سيد في أراضيه ؛ وكانت عن طريق العودة شيئاً فشيئاً إلى الوحدة السياسية ، والركزية الادارية ، قد أرضت طموحها الشخصي والمصالح العامة للامة في نفس الوقت . ولكن تحرر الطبقات الشعبية ، وتطور الحياة الاقتصادية ، واستعادة السلطة المركزية لـكل حقوق السيادة كانت تمثل ، في مجموعها ، نتيجة رد الفعل الثاني . ومنذ ذلك الوقت لا تصبح منطقة النفوذ الإقطاعي هي مركز الحياة الاجتماعية ، والحياة السياسي ، ويدخل النظام الإقطاعي ، الذي ضعف وتحطم في مبادئه نفسها . في مرحلة الانهيار . ولكن علينا ألا ننسى أن هذا الصراع طويل المدى ، وأن مقاومة أصحاب الامتيازات تكون عنيدة . ذلك أن النظام الإقطاعي هو الوحيد من بين كل أشكال التنظيم الأرستقراطي الذي تتوغل جمذوره إلى أعماق مدى في المجتمع الذي ينشأ فيه ،

مادام تفوق الطبقة الحاكمة ، وتبعية الطبقات الدنيا تبنى ، كما رأينا ، على وضعية خاصة للملكية العقارية ، لا يمكن تغييرها إلا ببطء كبير . ولذلك فإن النظام الاقطاعى يبقى كذلك ، حتى بعد تحطيمه ، لفترة طويلة ، فى شكل حقوق عقارية ، وإمتيازات شخصية ، فى صالح مجموعة نبلاء ، تخضع للملكية ، ومكروهة من الشعب ، التى تثقل على كاهله ، دون أن تعطى له أى خدمة عامة . ومن بين القوتين الاجتماعيتين الذى يقضى عملهما على النظام الاقطاعى ، وهما الشعب والنظام الملكى ، نجد أن القوة الثانية هى التى كانت فى أغلب الأحيان الأحسن تسليحاً والأكثر قوة ؛ وكان النظام الملكى ، فى غالبية الأحيان ، هو الذى يأتى مباشرة بعد النظام الاقطاعى ، ويرثه . وفى بعض الأحيان يكون النظام الملكى مطلقاً ، أو يكون تمثيلاً .

وفى الحالة الأولى ، التى كانت هى حالة فرنسا ومعظم دول أوربا عند نهاية للعصور الوسطى ، نجحت السلطة الملكية ، فى صراعتها مع النظام الاقطاعى ، ونتيجة للظروف ولحكماء الملوك السياسية ، من أن تحول لصالحها القوى الحية فى الأمة ، وقامت تحت شعار إعادة الوحدة السياسية ، والتنظيم الإدارى ، بتجريد السادة من ميزات سيادتهم ، وكذلك بتحطيم أو مصادرة كل سلطاتهم المستقلة ، وإلغاء كل الاعفاءات المحلية التى كانت الطبقات الشعبية قد حصلت عليها بكل مشقة . وهذا يقلل من قيمة التغيرات الاجتماعية والسياسية التى تمت . حقيقة أن عدم المساواة فى الحقوق وفى الثروة قد أصبح أقل مما كان عليه بين الأرستقراطية والطبقات الأدنى كما أن كل الطبقات أصبحت تخضع للمعبء المشترك الذى يفرضه الملك المطلق السلطة عليها . وبدلاً من عدد كبير من دول السادة الصغيرة ، وحكومات الأفليات البلدية ، التى كانت تتمتع ، ومع إحفاظها بالنزومات الاقطاعية ، باستقلال شبه تام ، لم يعد هناك سوى دولة واحدة ، أكثر قوة ، ولها إدارة أكثر انتظاماً ، وأكثر قدرة على القيام بعمل دبلوماسى أو عسكرى . ولكن الوضعية السياسية ، تظل فى

جمهورها ، كما هي ، إذ أن السيادة التي تركزت في أيدي رجل واحد ، تظل مرتبطة بالأرض ، كما كانت حين كانت منقسمة بين رجال كثيرين ؛ ويعطى الملك لنفسه ، وعلى كل الممتلكات والأشخاص في كل مملكته ، نفس الحقوق التي كان كل سيد يمارسها في منطقة نفوذه ؛ وبدلاً من أن كانت الدولة تخضع لاستغلال الكثير من أسر السادة ، لاتصبح مستغلة إلا عن طريق رجل واحد ؛ ومن أجل مصالحه الخاصة ، وطموحه الأمروى .

أما في الحالة الثانية فإن الطبقات الشعبية تتمكن ، في نفس الوقت الذي تتخلص فيه من التحكم الاقطاعي ، من أن تتسلح ضد طغيان النظام الملكي ؛ وهذا هو ما حدث في إنجلترا بنوع خاص ، وكانت سلطة السادة ، بعد الغزو النورمندي ، قد نشأت في كل منطقة نفوذ إقطاعي ، وبشكل قوى مدعم ؛ وعن طريق قيادات متسلسلة بدقة ، ولكن دون أن تتخطى أو تتبلغ السلطات الأخرى . وهكذا بقيت الملكية ، منذ الأيام الأولى للعصر الاقطاعي ، أكثر قوة عما كانت عليه في أي مكان آخر : فكان الملك يمتلك أعلى وأكبر المقاطعات ، وكان قد احتفظ لنفسه بكل حقوق المتعة ، وحافظ على التقسيمات الإدارية القديمة ؛ واحتفظ تحت سيطرته رجال الدين الذين كان يعينهم ويعطيهم المنح ، وكذلك بمعظم السادة العلمانيين الذين كانوا تابعيه المباشرين ، والذين لم يكن يحترم ممتلكاتهم وإمكانياتهم كل اوقت . أما الطبقات الشعبية ، والتي كان النظام الاقطاعي ينقل على كواهلها ، فإنها كانت تخشى من تحكم الملك ، كما كانت تخشى من كبت الارستقراطية العلمانية والدينية لها : فمن أجل الحصول على إعتراف بحقوقها . والحصول على تحررها ، لم يكن من مصلحتها أن تستند إلى تأييد السلطة الملكية ، ولكنها كانت تطالب بمنحها هذه التنازلات كمشئ للمعونة التي كان في وسعها تقديمها للنبلاء ورجال الدين ، نظير ما كانوا يحصلون عليه من الملكية : ولذلك فإننا لانرى في أغلب الأحيان ، في تاريخ إنجلترا . أن صناع المدن ، ومستأجرى الأرياف ، يناضلون ضد الارستقراطية الدينية أو العلمانية ؛ ولكنهم يتحدثون معها لكي يتمكنوا ،

وفي عمل مشترك ، من أن يقاوموا إدعاءات الملكية ومشروعاتها . وبعد سلسلة طويلة من المفاسد ، كانت نتيجة هذه السياسة في أول الأمر هي المحافظة على التوازن بين القوى الإجتماعية المختلفة ، والتقليل من سلطات السادة ، دون أن يؤدي ذلك إلى تدعيم سلطة ملكية مطلقة ؛ وتركوا بهذه الطريقة التحرر الشعبي يستمر ، بين ميزات الأرستقراطية وحقوق الملكية . ثم جاء ذلك دور التغيير العميق في وضعية السلطات العامة : ذلك أن السلطة بين أيدي السادة ، وحتى بين أيدي الملك ، لم تعد حقاً مرتبطة بالأرض ، يمارسونها حسب رغباتهم ، بل تحولت إلى وديعة مشروطة ، يكونوا مسؤولين عنها . ويمكن الأعضاء الرئيسيين للأرستقراطية العلمانية ورجال الدين ، متحدين مع ممثلي نقابات وطوائف المدن ، من أن يكونوا ، وتحت إسم مجلس العموم ، مجلساً ممثلاً للأمة كلها ، يتدخل في الأمور العامة للمملكة ، من أجل مراقبة السلطة المركزية ؛ ولم يعد في وسع الملك أن يفرض ضرائب دون موافقة هذا المجلس ، وأصبح عليه أن يحسب حساباً ، عند ممارسته سلطاته ، لرغبات وإحتياجات كل طبقة في المجتمع ؛ فأصبح بذلك ، في إدارته للشئون العامة ، موكلاً أعلى عن الأمة كلها . وهكذا نجد أن النظام التماثلي ، الذي كان أساس الاقطاع نفسه ، قد إمتد وإتسع ، بدلاً من أن يمتدني ؛ ولم يعد يطبق فقط على العلاقات الاقطاعية ، النقابية والبلدية ؛ ولكن على مجموع علاقات الحكم بالحكومين ؛ أي أن الملكية الاقطاعية قد تغيرت ؛ وباختصار ، إلى نظام ملكي تمثيلي .

٤ - ضعف الاقطاع في فرنسا :

إحتفظ نظام الاقطاع في فرنسا بقوته حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، ثم بدأ ضعفه في الظهور بعد ذلك .

وكان النظام الاقطاعي ، قد نشأ في أول أمره ، كحاجة إجتماعية ، وأجاب ، في أثناء القرنين العاشر والحادي عشر ، للحاجة الحقيقية للأمن والحماية لكل طبقات المجتمع . ولكن سرعان ما ظهرت مساوئ هذا النظام ، بعد مرور الأزمنة ،

وكذلك العادات الوحشية للرجال الذين كابوا يطبقونه ، وظهر أنه يحمل من المساوىء ومن الفوضى الكثير . أما الخدمات التي كان في وسع طبقة النبلاء ، وبصفتها «درك دائم» ، أن تقدمها ، فإن المحكومين كانوا يدفعون ثمنها غالباً ، نتيجة للقهر المفروض على من يحتاجون لحماية ونتيجة للتخريب المستمر الناتج عن الحروب الاقطاعية . هذا علاوة على أن هذه الطبقة من المحاربين الملاك ، والمستقلين ، والذين يعيشون في فراغ ، لم تكن تميل إلا للسلاح ، وكانت تعيش على حساب المزارعين وعبيد الأرض ، ولم تكن في حقيقة الأمر طبقة حاكمة . ذلك أن مانسيه بحكومة الاراضى الاقطاعية لم يكن في حقيقة الأمر سوى نظام للاستغلال . واستغلال قهري ، لأنه يفرض نفسه على كل الاعمال ، ويظهر في ألف شكل ؛ ومفروض من جانب واحد ، لأنه من غير الممكن تسوية كل شيء ، كما أن العرف كان لايربط السيد إلا بما يرغب هو نفسه في أن يرتبط به ، وطغياني ، لأنه كان يمارس عن طريق مندوبين أصغر ، يصادون إلى قرب الفلاح ، ودون أى رقابة ، أو نظام محدد ، لإعادة النظر في تصرفاتهم ؛ وكرهه ، لأنه كان يأخذ الأكثر أهمية ووضوحاً من الإيرادات والحاصلات ولا يقدم ، نظير ذلك ، أية «خدمة» . ولم تكن مانسيه بالحكومة الاقطاعية تستحق لقب حكومة ، إذ أن علاقات الخضوع والتبعية فيها ، وكذلك تسلسلها ، لم تكن كافية في وافع الأمر لضمان الأمن العام وإحترام الحقوق للأفراد . ولذلك فإننا نجد أن غالبية أبناء الامة ، ومنذ نهاية القرن الحادى عشر ، أصبحت لا تشعر بأن نظام حكم السادة الاقطاعيين يمنحها الأمن والعدل اللذين تحتاج اليهما . والتي كانت قد بحثت عنها ، غريزيا ، إما لدى الاتحادات البلدية ، أو عن طريق الحماية المباشرة لأحد كبار السادة ، مثل ملك فرنسا ، أو أحد كبار البارونات في المملكة أما الاتحادات البلدية ، فإنها كانت قد خضعت لمحاربة السادة في بعض الحالات ، أو دفعت ثمناً باهظاً للمحافظة على حياتها ؛ وكانت منتصرة على طول الخط منذ نهاية القرن

الثاني عشر، وكان قد ساعد ذلك على تلاحم التجارة والصناعة، التي عملت على زيادة الثروة في أيدي أبناء المدن، وكذلك الحملات الصليبية التي كانت تلك أرسلت إلى الأراضي المقدسة، والتي كانت تكاليفها الباهظة تجعل الكثير من صغار السادة يطالبون بالحصول منها على ثمن لحقوقهم. ولقد انتهت هذه الانحدارات البلدية إلى نتيجة مزدوجة: تتمثل في إحدى الحالات في فتح عهد بالتحريك، يحدد به السيد أو يلغى جزئياً بعض سلطاته على منطقة نفوذه الإقطاعي، وتتمثل في حالات أخرى في إقامة ارسقراطية بلدية، أو قنصلية، تكون حقوق سيادتها مساوية، وفي الغالب منافسة، لحقوقه هو: كما أن الالتجاء إلى الحماية المباشرة لصاحب السيادة العليا، وهو الملك، ساعد هذا الأخير، وفي كل مكان تقريباً، على أن يعيد إدخال تابعيه الثائرين إلى نطاق طاعته، ويأخذ من التابعين الخاصين به: فنتج عنها بهذه الطريقة، أن نشأت، في مناطق نفوذ كبار السادة في الأقاليم، وفي أقاليم التاج، سلطة مركزية قوية، وإدارة منتظمة، أبعدت أهالي هذه المناطق عن كثير من أعمال العنف والطغيان المحلية، وفي نفس الوقت، فقدت التقاليد الإقطاعية جزءاً من شدتها الأولى؛ فأصبحت الخدمات الفردية، وبخاصة الخدمة العسكرية، أقل صرامة في ضرورة تطبيقها، وتحولت في أغلب الأحيان إلى تقديم بدل مالي عنها؛ أما مناطق النفوذ التي كانت وراثية، فإنه أصبح من الممكن التصرف فيها، وبالتالي أصبح من الممكن للرجال الأحرار أن يحصلوا عليها؛ أما الحالة المدنية للطبقات الدنيا، فإنها أصبحت أقل شدة، ووجد كثير السادة أن من مصلحتهم تحرير عبيد أراضيهم، وتحويلهم إلى عمال أجراء، أو على الأقل تقليل شروط العبودية بالتخلي عن حق السخرة. وأخيراً فإن الحروب الإقطاعية أخذت شكلاً أقل بربرية، تحت تأثير نظام الفروسية، وأصبحت أكثر ندرة، نتيجة محاولات السلام المتعددة التي كانت الكنيسة تقوم بها. وقللت هذه التعديلات المختلفة التي أدخلت على النظام الإقطاعي، إلى درجة

كبيرة ؛ بعض مساوئه ، وأعطته منذ منتصف القرن الثاني عشر إلى منتصف القرن الثالث عشر ، قوة وإزدهاراً جديدين . ولكن هذا النظام كان يشتمل على مساوئ في أصل تكوينه . ولم يكن من السهل إختفائها إلا مع إختفائه . وكان المجتمع الفرنسي ، منذ ثلاث قرون مضت ، وقد ضاعف إمكانياته المادية ، وأصبح أكبر إستئثاره ، وعلم بوضوح أكثر بحقوقه ومصالحه ؛ وبحث عن تنظيم إجتماعى وسياسى جديد يستجيب ، بدرجة أكثر من النظام الإقطاعى ، لاحتياجاته الجديدة . وإعتقد أنه قد وجدها في ملكية أسرة كابيت . وفى خلال القرن الثاني عشر ، أخذت الملكية في فرنسا الإقطاعية مركزاً مسيطراً . وكان كل من لوى السادس ، ولوى السابع ، وفيليب أغسطس ، قد تمكن شيئاً فشيئاً ، من الحصول على إعتراف بسلطته ، ليس فقط من جانب صغار السادة في مناطق النفوذ الخاصة بهم شخصياً ، ولكن كذلك من جانب معظم كبار بارونات المملكة ، وتمكنت الملكية ، ونتيجة للتأييد المعلنوى ، والموارد المادية التى وجدتتها في مناطق نفوذ السادة الدينيين في شمال ووسط فرنسا ، من أن تقضى على حركات المعارضة المحلية ، وتمدد وتوحد أراضيها . وتجمع حولها قوات كافية ، لتي تبرر بها إدعاءاتها للحكومة العامة للمملكة . وظهر الملك ، في شخص فيليب أغسطس ولوى التاسع ، أمام الطبقات الشعبية ، والمكثيسة ، وجزء من النبلاء أنفسهم على أنه الحامى ، المقرر الأعلى للعدالة ، والذي يجب أن يلجأ إليه كل من يقاسى من قهر السادة الإقطاعيين ، وكل من لم يجد ضماناً بالأمن وبالسلم العنام إلا في إعادة سلطة مركزية ، تفرض سلطتها الفعلية على كل مناطق السادة الإقطاعيين في المملكة . وكان هذا هو السبب الذى جعل كل القوى الإيجابية للامنة تتحول ، منذ أواسط القرن الثالث عشر ، وبدرجة أكبر من الإقطاع ، صوب ملكية أسرة كابيت ؛ وهى التى لم تهمل ، من جانبها ، أية وسيلة لجذبهم إليها ، ولضمهم .

وهكذا نرى أن العدو الرئيسى للنظام الإقطاعى كان هو السيادة الملكية .
ولقد استمر الصراع الذى نشب واضحاً بين هاتين القوتين ، عند نهاية القرن
الثالث عشر ، زمناً طويلاً ؛ إذ أن النظام الإقطاعى كان مرتبطاً بجذور عميقة
متوغلة فى تعميمها داخل المجتمع . ولكن الملكية كانت تستند إلى مواردها التى
تحصل عليها من أراضيها ، وإلى التأييد الذى تحصل عليه ، من خارج أراضيها ،
عند البورجوازية ، وعند الموظفين ، وحتى عند جزء من النبلاء التابعين ، فى
مناطق النفوذ الكبرى ، وإلى أنها ستعطى للمجتمع الفرنسى شكل حكومة
تناسب بدرجة أحسن مع آماله ، وساعدها كل ذلك على أن تقتصر . مع ذلك ،
فعلينا أن نلاحظ أن ما كان المارك يمارسه فى نظام الإقطاع ، كان هو مجرد سلطته
ونفوذه السياسى ؛ وإن ما انتزعوه منه كان يتمثل فى ذلك الجزء من السيادة التى
كان يحتفظ بها على حساب سلطاتهم ، ولكنهم إحترموا ، وزادوا حق معظم الحقوق
الاجتماعية الخاصة به ، وتركوا له معظم الحقوق الادارية التى كان يمارسها فى
منطقة نفوذه ؛ أى أنهم بالاختصار قد أنزلوه من منزلة الطبقة الحاكمة ، ولكنهم
إحتفظوا له بمستوى الطبقات المتوسطة . ذلك أن ملكية أسرة كابيت ، وكانت
نتيجة مثل النظام الإقطاعى ، لمجتمع أرستقراطى ، وافقت على كل التميزات
وعدم المساواة . ما دامت لا تمثل عقبة أمام سلطتها الطغائية . ولم يكن الهدف الذى
سعى إليه الملوك المتتالين ، من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر ، هو
تخبط النظام الإقطاعى ، ولكنه كان يتمثل فى أخذهم مكانه ، ووضع أنفسهم
بدلاً من السادة الإقطاعيين فى ممارسة حقوق السيادة ، وأن يبتلعوا أنفسهم كل
مناطق النفوذ المحلية ، لئلا يكونوا منها سلطة موحدة ، وكانت طبيعتها ، فى
جوهرها ، هى نفس طبيعة السيادة السابقة . وبعد وصولهم إلى تحقيق هذا الهدف ،
لم يفكروا فى إصلاح حالة الملكية العقارية ، ولا عدم المساواة الموجودة بين الطبقات ،
والتي كانت تميز النظام الإقطاعى ، والتي استمر النبلاء فى الاستفادة منها . ولذلك فإن

النظام الإقطاعي ، رغم تحطيمه كسلطة ميساسية ، قد إستمر ، كنظام إجتماعي ، حتى نهاية الملكية القديمة في فرنسا ، ونشوب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ .

٥ إزدياد قوة الملكية :

وكانت الضربة الأولى التي وجهها النظام الملكي للسلطة السياسية للإقطاع في فرنسا ترجع إلى أواسط القرن الثالث عشر . ورغم أن المشغولية الرئيسية للبلوك كانت تتمثل في أن يفرضوا سيادتهم الفعلية على كبار التابعين ، إلا أنهم لم يتراجعوا عن الاستناد إلى الامتيازات التي كانت ترجع إليهم ، وبصفتهم ورثة للملكية التقليدية ، ونجد أن تجدد الدراسة في القانون الروماني ، ونشاط المشرعين ، عملا على تدعيم حقوق الملك ، ودفعها في طريق السلطة المطلقة . وكان من حق الملك ، كمشرع ، أن يقلل أو يلغى حقوق السيادة الخاصة بالسادة ، كلما استدعى أمن الأمة ، أو مصلحتها العامة ، ذلك . وعمل ملوك فرنسا على إلغاء أو تحديد حق الحرب الخاصة ، في أراضيهم أولا ، ثم في بقية أنحاء المملكة . ولكن بجهوداتهم لم تنجح على طول الطريق بالنسبة لهذه النقطة ، خاصة وأن البهلاء عارضوا في ذلك ، وإضطر الملك إلى التراجع في بعض الحالات .

ولكن الملوك نجحوا بدرجة أكبر في تحديد السيادة القضائية لصغار السادة ، وحتى لعدد من كبار البارونات ، وذلك بتقريرهم مبدأ إمكان إستئناف أى حكم يصدره أمام محاكم الملك ، إلى أن يصل الأمر إلى البرلمان . وزاد تدخل قضاء الملك في الجنايات التي ترتكب في الأقاليم ، كما أن القضايا الملكية ، وهي ما تشتمل على أى شيء يمس بالملك ، كانت وسيلة أخرى لإمتداد سلطة القضاء الملكي في كل الأقاليم .

اما من وجهة نظر الضرائب فإن ملوك فرنسا ، منذ فيليب الجليل ، قد منعوا السادة من جمع عدد من الضرائب ، دون الحصول على تصريح بذلك من الملك ؛ كما حرموا عليهم صك العملة . ومن ناحية أخرى عملت بعض المدن على أن تحصل

من الملك على وثيقة تؤكد إمتيازاتها وعمل الملك ، وعن طريق المشرعين ، على أن يكون له وحده سلطة إعطاء وثائق إمتياز المدن ، التي خرجت بهذا الشكل عن سلطة السادة الإقطاعيين ، وحظيت بحماية الملك . كما عمل الملك ، بنفس الطريقة ، على إستخلاص الأسقفيات والأبرشيات والأديرة ، من سلطة ونفوذ السادة الإقطاعيين والبارونات ، واحتفظ بها تحت نفوذه . وأخيراً فإن المشرعين والفقهاء عملوا على نشر النظرية القائلة بأن الملك بمفرده له سلطة التشريع . ولم تكن الملكية قادرة في أول الأمر على فرض ذلك على الإقطاعيين ، ولكنها كانت توجه إليهم ملاحظات ، ونصائح ، وأوامر ، تهدف إلى تحديد سلطتهم على مر الأيام . ونلاحظ أن معظم حقوق السيادة لتبلاء الإقطاع قد أصبحت مهددة عند نهاية القرن الثالث عشر بحقوق الملوك ؛ كما أن واجبات تبعيتهم للملك غيرت منهم ، وقربت بينهم وبين بقية الرعايا ، ولم تعد خدمات المجلس والبلاط تطلب منهم ، إلا في أحوال استثنائية ، وبطريقة شرفية ، مادام الملك أصبح يعتمد في ذلك على فقهاء القانون والمشرعين . أما الخدمة العسكرية ، والتي كان التابعين يقومون بها عن غير رغبة ، فإنها وتحولت إلى مشاركة مالية ، سمحت للملك بإعادة تنظيم جيشه على أسس جديدة ، وبأن يقلل منه العناصر الإقطاعية ، ويدفع رواتب القوات المرتزقة ، والتي كانت خدمتهم مستمرة ، وطاعتهم أكثر تأكيداً . ومن الجانب الآخر ، نجد أن الخدمات المالية وخاصة المعونة الإقطاعية ، زادت في حجمها ، وتعددت ، وأخذت شيئاً فشيئاً شكل وطبيعة الضرائب المنتظمة والسنوية . وأخيراً فإن كل من كبار وصغار الطبقة الإقطاعية قد زاد شعوراً ، وهو في أرضه ، بإزدیاد السلطة المركزية حين أخذ المندوبون في مراقبة أعمالهم ، وإستولوا على حقوقهم ؛ وأخذوا منهم الرجال لكي يضعوهم تحت سلطة الملك ؛ وكان ترغلهم بطيئاً في كل مكان ، ولكنهم كان مستمرراً ؛ وتوغلت معهم مبادئ وعمارسة ووضع أسس ونظام الملكية .

ولم يكن الإقطاع العلماني هو الذي أصيب وجرده في حقوقه السيادية . ذلك أن الأرستقراطية الكنسية ، والتي كانت دائماً على علاقات وثيقة بالسلطة الملكية ، والتي كانت مشروعات السادة العلمانيين وعداوة المدن قد أجبرتها في غالب الأحيان على طلب تدخل الملك ، شعرت في أثناء القرن الثالث عشر بأن إشراف الملك عليها يشغل كاهلها ، ويحدد من إستقلالها . وإحتفظ الملك لنفسه بحق الإشراف على انتخابات رئاسات الأسقفيات والأبرشيات ، التي خرجت من سيطرة مناطق نفوذ كبار الإقطاعيين والبارونات ، علاوة على ما كان منها تحت إشرافه من قبل ؛ كما أنه بدأ في إخضاع أحكام مجلس الأسقفيات والأبرشيات لسلطة البرلمان ، مع الحق في الإستئناف كذلك في باريس ؛ والسماح للقضاة الملكيين بالتدخل لوقف أى إنحراف يقوم به رجال الدين . كما أن الملوك أخضعوا كل الكنائس لضرورية شبه دائمة ، وبدعوى حاجة الدولة إليها ، سواء بموافقة البابا ، أو ضد رغبته . وكان مندوبو الملك يستخدمون العنف أو السياسة لتقليل قوة هؤلاء السادة الكنسيين ، وللاعتداء على حقوقهم القديمة ، ولكي يستخلصوا منهم السيطرة على بعض الأراضي التي كانت تحت إشرافهم .

وكذلك شهد السادة الأرستقراطيون في المدن ما شاهده غيرهم من الإقطاعيين ، من إزدياد سلطته الملكية . ولم يشجع الملوك ، أو يوافقوا على ، تلك الحركات التي ظهرت في المدن في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، والنصف الأول من القرن الثالث عشر ، إلا حينما رأوا فيها وسيلة لزيادة موارد دهم الضرائبية والعسكرية ، ووسيلة لتقليل نفوذ كبار رجال الإقطاع . وعمل الملوك بكل إصرار على أن يحطموا ، وفي جميع أنحاء المملكة ، سلطة السيادة السياسية للمدن ، والبلديات ، باعتبار أنها إحدى العقبات الكأداء التي تقف في وجهه لإمتداد السلطنة الملكية . فنزعوا عنها إستقلالها المألوف . بحرمانها من جمع الضرائب والتصرف في أراضيها ، وعتد القروض بدون تصريح ، وفرضوا رقابة على حساباتها . كما

خرموها من الإستقلال العسكرى بإخضاع جندهما للضباط الملكيين ؛ ومن الإستقلال القضائى بتحديد اختصاصات قضاتها ، وبالسماح للبرلمان بالنظر فى إستئناف الأحكام الصادرة من قضاء المدن . كما عملوا على خرابها بفرض الضرائب الباهظة والغرامات الكبيرة عليها ، وأفادوا من صراعاتها ، الناتجة عن أزماتها المالية ، بين الأرستقراطية البورجوازية ، وبين أفراد الشعب ، للتدخل فى شئونها ، وإلغاء إمتيازاتها وحقوق سيادتها ، وفى صالح النظام الملكى .

ولقد تمت عملية قضاء الملكية على الحقوق السياسية وحقوق السيادة للسادة والبارونات الإقطاعيين عبر سنوات ، طويلة ؛ وحاول فيها السادة أن يقاوموا ، ولم يفلحوا عن أى حق من حقوقهم بسهولة ، بل نتيجة لعجزهم عن الاحتفاظ بها تبعاً للظروف الموجودة . وكم من مرة حاول السادة الإتحاد مع أبناء المدن ضد الملك ، أو الإتحاد إقليمياً مع بعضهم ضده ، ولكن بلا جدوى . وشهد أواسط القرن الرابع عشر عمليات المقاومة هذه ، وإن كان خط التطور العام لم يكن فى صالحها .

وهذا تمكن النظام الملكى من أن يزيد من قوته ، وبشكل يساعد على سرعة تدعيمه ، كسلطة مطلقة ، مرتبطة بالوطن ، فى كل بلد من البلاد الأوروبية ؛ وبشكل لم يكن له وجود فى العصور الوسطى ، مع فكرة وحدة الأمبراطورية ؛ وكان هذا هو أحد أسس ظهور الملكيات فى العصر الحديث .

الفصل الثاني

الصراع بين البابوية والامبراطورية

في الوقت الذي انتصر فيه النظام الملكي على السادة الاقطاعيين في غرب أوروبا ، وأكدوا فيه سيطرتهم الفعلية ، والاقتصادية والعسكرية على أقاليمهم ، حاولت البابوية ، في شخص بونيفاس الثامن ، أن تستعيد سلطتها «التيوقراطية» على الملوك ، وكان هذا سبباً أساسياً لوقوع صدام بينها ، كصاحبة الكرسي الرسولي ، ووارثة القديس بولس ، وبين ملوك أوروبا . الأمر الذي أدى إلى طرح الخلاف علناً ، للنقاش ، ولم يكن ذلك في صالح «التقليدين» ، بل في صالح القوى الفعالة النامية. فانهزمت البابوية؛ وفي صالح الأسرة المالكة في فرنسا، وخاصة بعد مشكلة جماعة فرسان المعبد ، وكانت هذه هي فترة الأسر البابلي ، الذي أقام فيه البابوات في أفينيون ، في فرنسا ، والتي تميزت بضعف البابوية ، وكذلك بضعف الامبراطورية ؛ وهي التي ستمهد بفتح الباب على مصراعيه ، لمناقشة ماعية البابوية ، وسلطانها ، وتصرفاتها ، وتقاليدها ؛ ذلك الباب الذي سيؤدي بالعالم المسيحي الغربي إلى الوصول إلى الإصلاح الديني فيما بعد .

١ - الخلاف بين بونيفاس الثامن وفيليب الجميل :

أفادت فرنسا ، منذ السنوات الأولى من عهد فيليب الجميل ، من تقدمها عن الممالك المسيحية الأخرى ، ونظمت سياستها ويشريعاتها ، ووضعت أسس المملكة المستبدة . وفي نفس الوقت ، ظهر أحد البابوات الذي تمكن من أن يعمل من أجل تحقيق إدعاءاته «التيوقراطية» . فبدأ الصراع بين مملكة فرنسا وبين البابوية التي حاولت فرض سيطرتها العالمية ، وكان هذا الصراع من أهم موضوعات الفترة

التي تمتد منذ نهاية القرن الثالث عشر ؛ والذي كانت أهم شخصياته ، في هذه المرحلة ، هي فيليب الجميل وبونيفاس الثامن .

وكان عرش فرنسا قد مر ، منذ سنة ١٢٨٥ ، إلى فيليب الرابع ، المعروف باسم الجميل ؛ وكان له سبعة عشر عاما ، ولم يكن أحد في ذلك الوقت يعلم أو يتنبأ بأنه سيقوم بأعمال هامة ، تثبت له في التاريخ . ونظر إليه المعاصرون ، في أول حكمه ، على أنه ملك هادئ وضعيف ، يهتم بالصيد ، ويهمل شئون الحكم ، ويترك شئون الدولة لبعض رجال الحاشية . ولكنه كان أميراً واقعياً ؛ وبدلاً من أن يعتمد على الحملات العسكرية ، فضل استخدام السياسة ، مع عمليات الخداع . وكان يحذر كبار السادة الاقطاعيين ، وكذلك فقهاء القانون الذين كانوا يشكلون مجلسه ؛ وفضل عليهم مجموعة من رجال القانون الذين كانوا قد أظهروا ، منذ عهد لوى التاسع ، ومساعدة القانون الروماني ، النظرية السياسية للمملكة . وكانوا جميعاً من رجال الطبقة الثانية ، ولكنهم ساعدوه على وضع آماله موضع التنفيذ . وبدأ فيليب الجميل عهده بتصفية مغامرة أراجونا التي كانوا قد أوقعوا والده فيها . وساعده على ذلك إدوارد الأول ، ملك إنجلترا ، الذي كان قد حافظ على حياده في هذه الحرب ، وأصبح له بالتالي دور الحكم . وانتهت هذه العملية سنة ١٢٨٧ بأن وعد ملك أراجونا بعدم التدخل في الشؤون الإيطالية ، وذلك في الوقت الذي احتفظ فيه أخوه بحكم صقلية . ولكن البابا رفض التصديق على هذه الاتفاقية ، فكانت القضاة بين البابوية وفيليب الجميل ، الذي فاوض وضرب عرض الحائط بموافقة خليفة القديس بولس ، وفي سنة ١٢٩١ ، اقترح ملك فرنسا اتفاقية جديدة ، كانت شروطها تتفق مع شروط اتفاقية سنة ١٢٨٧ .

ولقد استند فيليب إلى الهدوء الذي ساد من جانب إسبانيا ، وإلى السلم المؤقت مع إنجلترا ، وعمل مع مستشاريه على تنظيم وتدعيم السلطة الملكية . ومع ذلك فعلمنا ألا ننظر إليه كمجدد جرى عمل على تحييم الإطارات القديمة ، وبناء نظام

جديد : فالتد طالت الاقطاعية نشطة ، وأكدت حقوقها في ممارسة العدالة ، واهتجت على الانتهاكات التي مارسها الملك وضباطه داخل مناطق نفوذهم الإقطاعية ، كما أن رجال الدين حاولوا الاحتفاظ بامتيازاتهم المستقلة ، وبحقهم في جمع الضرائب ، وتمكنوا في سنة ١٢٩٠ من أن يحصلوا على ميثاق يؤكد هذه الامتيازات . ولكن المرسومات الملكية عملت على إلغاء أو عود إلى قطعت رسمياً ، وجاءت الظروف والضرورات الاقتصادية لكي تؤكد نتائج التغييرات السياسية ، ودفعت المملكة إلى أن تأخذ ، شيئاً فشيئاً ، وضعاً أكثر وضوحاً ، في مواجهة التقاليد الإقطاعية التي كانت لاتزال قوية .

وزادت أهمية القصر الملكي ، الذي صدرت اللوائح العديدة لتنظيمه ، والذي ازداد عدد الموظفين والحجاب والأمناء والكتاب فيه ، والذي أصبح مدرسة يتخرج منها كبار رجال الدولة ، رغم أنهم كانوا متواضعين في أصلهم ؛ وذلك في الوقت الذي تدخل فيه ضباط الملك ومندوبيه في مناطق نفوذ كبار السادة الإقطاعيين ، وأصبحت القضايا تعرض على العدالة الملكية ، بدلاً من يحكم فيها السادة الإقطاعيين .

وظهرت إلى جانب القصر الملكي مؤسسة جديدة هي البرلمان ، ولم يعد الملك يرأس هذه المنصة الكبيرة ، التي تأخذ شكل المحكمة ، بل ترك لبعض البارونات والأشخاص العاديين رئاسة هذا الاجتماع ، الذي كان شيئاً يختلف عن بلاط الملك ، وأصبح البرلمان يضم قضاة علمانيين أو كتاب ، يحملون لقب مستشارين ، ويحتمون فيه بشكل مستمر ، ويحيط بهم الكثيرون من رجال القانون ، ولم تعد هذه المحكمة تتبع الملك في تنقلاته ، بل أصبحت مستقرة في باريس ، في القصر الملكي القديم الموجود في وسط المدينة ، في قصر لوي التاسع ، جد الملك ، وفي الأماكن التي نظمها لها . وكانت تجتمع في دورات نظامية ، دورتان أو ثلاث دورات في العام ، تستمر كل منها لبضعة أشهر ، وأصبح هذا البرلمان ينظر في

استثناف الأخكام التي ترد له من جميع أنحاء المملكة ، وتقدم إليه كل تابع سامت علاقته بسيده ، ووجد فيه أذانا صاغية ، من قضاء الملك ، ضد كبار السادة الاقطاعين ، وكان هذا تدعيماً لسلطة الملك ونفوذه قانوناً ، على حساب سلطة كبار السادة الاقطاعين .

وفي الميدان المالي والاقتصادي ، وجد فيليب أن البابا كان قد فرض العثور على رجال الدين الفرنسيين ، وجمعها في صالح ملك فرنسا ، أثناء حرب أراجوت ، فصمم الملك بعد نهاية هذه الحرب ، على الاستمرار في جمع هذه الضرائب ، وحصل من البابا سنة ١٢٨٨ على تصريح بالاستمرار في جمعها لمدة ثلاث سنوات الامر الذي دعم خزينة الملك ، في الوقت الذي زاد فيه ضعف كبار السادة الاقطاعين هذا من ناحية المملكة .

أما فيما يتعلق بالبابوية ، فإنها كانت قد خرجت مضعضة القوى من مغامرة صقلية ، ولم يتمكن البابوات الضعاف ، بعد سنة ١٢٨٥ ، من التخلص من هذه الحالة . وفي سنة ١٢٩١ فقد المسيحيون عكا ، في الأراضي المقدسة ، دون أن تتمكن البابوية من الحيلولة دون ذلك . كما ظهر ضعف البابوية في إعطاء عرش الجرجر لمرشحها أمام خصومه . ولم يعد العالم المسيحي يحترم البابوية كما كان من قبل ، وتقلص نفوذها في إيطاليا نفسها ، وأخذت الكنائس الوطنية تتحدث بحرية أكثر . ورفض الفرنسيون الخضوع التام للكرسي البابوي سنة ١٢٨٣ في باريس ، وطالبوا بإعطاء الاساقفة سلطة الحل والعقد . وحدث كل ذلك في الوقت الذي تدعمت فيه سلطة فيليب الجميل ، وسلطة عرشه ، بشكل واضح .

ولقد ضعفت سلطة رجال الدين ، وانغمسوا في المؤامرات ، وتحكم الملوك في الكنيسة في كل مكان . وظهر أن سياسة البابوية في صقلية ، وفي شئون ألمانيا ، وفي الجرجر ، تهدف إلى السيطرة على العالم ، والسيطرة على الامراء . وكان الامر يحتاج إلى شخصية قوية لأحد البابوات ، يمكنها أن تعيد النفوذ البابوي إلى ما كان

عليه . وكانت هذه الشخصية تنمو وترتفع على سلم رجال الدين ، وهي تتمثل في بنوا كاتاني الذي عمل مع عدد كبير من البابوات . وكان طموحاً ، ويرغب في الاحتفاظ بالامتيازات الدينية ، وظهرت كفاءته في تلك البعثات الدبلوماسية التي كلف بها . وكان هو الشخص الذي أوصى البابا في سنة ١٢٩١ بقطع المعونة عن ملك فرنسا . وحين إنتخب للبابوية في ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٩٤ أصبح اسمه نونيفاس الثامن . وبدأ بابويته بإلقاء القبض على البابا السابق ، الذي كان قد عزل ، واحتفظ به في السجن حتى وفاته سنة ١٢٩٦ . وكان هذا الأمر ، تجاه من حظى بالقدسية ، يعتبر ظاهرة خطيرة .

وعمل نونيفاس الثامن ، بمجرد وصوله لكرسي البابوية ، على تأكيد تفوق البابوية على أمراء العالم . وأعطى نفسه سلطة التدخل سنة ١٢٩٦ ضد ملكي إنجلترا وفرنسا ، لوقف الحرب القائمة بينهما ، وعلى أساس أن الحرب بين المسيحيين وبعضهم خطيئة ، وفرض عليها السلم ، الأمر الذي أدى إلى ردود فعل من جانب ملك فرنسا . وكان ملك فرنسا قد حصل على مساعدة من رجال الدين الفرنسيين له في حربه ضد إنجلترا . تتمثل في دفع ضريبة العشور له لمدة عامين . وحاول أن يجمدها في سنة ١٢٩٦ ، فاشتكى بعض رجال الدين الفرنسيين الأمر للبابا ، وتدخل نونيفاس الثامن بشكل قاطع ، وصرم عليهم دفع أية معونة له دون تصريح من الكرسي البابوي . ولم يكن في هذا القرار أي جديد ، كما أنه كان قراراً عاماً ، حتى وإن كان يهدف ملكي فرنسا وإنجلترا . وكان رد فعل الدولتين عنيفاً . ففي إنجلترا ، رفض رجال الدين دفع المعونة ، فقسام إدوارد الأول بالإستيلاء على أملاك الممتنعين ، وأجبر الاساقفة على دفع المعونة المطروحة . وفي فرنسا قام فيليب الجميل بعملية إنتقام ، ومنع تصدير الفضة والذهب ، وصرم البابوية من الموارد الهامة التي كانت تصلها من رجال الدين الفرنسيين . وظهرت نظرية تناقض العلاقة بين رجل الدين والفارس ، وتهاجم الامتيازات الكنسية ،

وئذ لعل على تفوق المجتمع العلماني على بمحسوح رجال الدين ، وتظهر أن الواجب الوطني عليهم مساعدة الملك وقت الخطر . وأمام هذا الموقف اضطرب بونيفاس إلى التراجع ، وإلى الاعتراف للملك بالحق في أن يقوم ، وقت الحاجة والضرورة ، بفرض ضرائب على الكنيسة ، دون إستئذان الكرسي البابوي وأعلن في نفس الوقت قدسية لوى التاسع ، إسترضاءاً للأسرة الحاكمة في فرنسا .

وجاء عام ١٣٠٠ الذي حج فيه ما يقرب من مائتي ألف حاج إلى روما ، وجماعوا من جميع أنحاء أوروبا ؛ وشعر البابا ، وسط هذه الاحتفالات ، أنه يحكم العالم . وأخذ يتدخل في شئون الممالك ، سواء في صقلية ، أو ضد الألمان أو المجر ، الذين قاموا بانتخاب إمبراطور وملك دون موافقته . وأعلن في ١٧ أكتوبر سنة ١٣٠١ : « إن الله قد رسم البابا فوق كل الملوك والممالك ، لكي ينزع ويحطم ويهني ويفرس » ؛ وظهرت في كتاباته اتجاهات لجعل النظام الشيوقراطي يحتوى العقيدة الدينية ، ويصبح أحد أسس العقيدة نفسها . ولم يتغير لحكومة فرنسا اعتدائها على حريات رجال الدين ، وبدأت القطيعة مع فرنسا واضحة في الأفق . وحدث في ذلك الوقت أن تم التحقيق في باريس مع أحد الاساقفة ، بتهمة إهانته ملك فرنسا ، والتفاوض سرّاً مع إنجلترا . وكان هذا التحقيق أمام الملك ، وثبتت الحياقة على الأسقف ، وعهد به إلى رئيسه ، رئيس الاساقفة . إنتظاراً لإطلاع البابا على ملف التحقيق ؛ فثارت ثائرة بونيفاس الثامن ، خاصة وأن هذا الأسقف كان من المقربين إليه ؛ وألغى كل الميزات التي كانت قد منحت لملك فرنسا ؛ وأرسل إليه مرسوماً مليئاً بالاتهامات له ، ولشكل ملوك الأسرة . ولم يقتصر الأمر على إحتجاجات البابا على نقض الإمتيازات الممنوحة لرجال الدين ، بل فضح الانحطاط التي إرتكبتها الحكومة الزمنية للمملكة ، من قهر الرعايا ، وتغيير قيمة العملة ؛ وذكر أن الله قد وضع البابا فوق كل الأمراء ، وأن عليهم جميعاً أن يطيعوا راعي المسيحية ؛ وأبلغه أن مجلساً سينعقد في روما في العام التالي ،

ويمكنه أن يحضره أو يرسل له مندوبين عنه. وأرسل إلى رؤساء الكنيسة الفرنسية للاشتراك في هذا المجلس ، حتى يتشاوروا مع البابا في أمر المحافظة على حريات الكنيسة ، واصلاح المملكة ، والملك ، وحكومة فرنسا .

ونشر خطاب البابا في شكل مشهور ، أثنى حنق الفرنسيين . وقام الكتاب بالدفاع عن ملك فرنسا ضد البابا ، وناقشوا حقوق البابوية ، وذهب البعض إلى أن موقف البابا يمثل نوعاً من الهرطقة . وجمع الملك ممثلي الطبقات الثلاث : النبلاء ، ورجال الدين ، والطبقة الثالثة ، في باريس يوم ١٩ أبريل سنة ١٣٠٢ ؛ ودافع الموجودون عن الملك ، في جو ساد فيه الحماس . وكتب المندوب ، وكذلك النبلاء ، إلى البابا خطابات تميزت بالوقاحة ؛ وطالبت بالتراجع عما قرره تجاه الملك ؛ واشترك رجال الدين في ذلك ، دون أن يتخلوا عن إحترامهم لرئيس الكنيسة . ومنع الملك رجال الدين من الاشتراك في المجلس الذي سيعقد في روما ؛ ولكن ذلك لم يؤثر في موقف بونيفاس الثامن ، إلا لكي يزيد صلابته . وكتب مؤيدوه يشرحون سلطته ، ويكتبون عن الحكومة المسيحية ، وعن سلطة الملك وسلطة البابا ؛ وذهب البعض إلى ضرورة عزل الملك فيليب . وأكد الجميع أنه ليس للكنيسة سوى رئيس واحد ، هو السيد المسيح ، خلفه المرسل ؛ وأن هناك صولجانين . الأول روحى للبابا ، أما الزمنى فيستخدمه الملوك طبقاً لرغبة البابوات ، وأن السلطة الروحية هي التي تحكم السلطة الزمنية ، ولا يحكمها سوى الله . ورفضوا فكرة إستقلال السلطين . الزمنية والروحية عن بعضهما ، أو انفصالهما ، وأكدوا أن خضوع كل البشر لسلطة البابا هي ضمان السلام . وهكذا تعدى بونيفاس الثامن كل مدى كان قد وصل إليه أى بابا آخر من قبل ، إذ أن أى منهم لم يكن قد وصل به الحد إلى أن يضع سيادة روما كأساس من أسس العقيدة .

ولقد اضطر فيليب إلى إستخدام السياسة ، ولم يمنع رجال الدين من الذهاب إلى مجلس روما ، الذي أصدر إندازاً للملك ، وفي أسلوب معتدل ؛ وحول الخلاف

إلى تحكيم أمام دوق برجنديا ، وكونت بريثاني .
وأدت هذه الخصومة ، مع الحجج التي ذكرت من هذا الجانب أو ذاك ، إلى
إضعاف مركز الكنيسة بشكل واضح .

٣ - هزيمة البابوية ، والتفكك الديني والسياسي :-

عهد الملك إلى أحد فقهاء القانون في جامعة تولوز بالدفاع عنه ، ولكنه فضل ،
على الدفاع ، أن يقوم بمهاجمة البابا نفسه ، وعلى أساس أنه قد إغتصب البابوية ،
وإرتكب الكثير من الجرائم . ومهد بذلك للوصول إلى أن السلطة البابوية
الحقيقية أصبحت مهددة ، وأن على ملك فرنسا أن يدافع عن مصالح الكنيسة ، وذلك
عن طريق جمع مجلس ديني ، من أجل إعادة السلام إلى العالم المسيحي . ووافق
ملك فرنسا على هذه الخطة ، في ٧ مارس سنة ١٣٠٣ ؛ وفي يوم ١٢ لإجتماع في
قصر الافر كبار رجال الدين والبارونات ، تحت رئاسة فيليب ، وطالبوا بنقل
البابا إلى أحد السجون الملكية ، ومحاكمته أمام ممثلي الكنيسة العالمية . وحاول البابا
أن يجمع حوله بسرعة عدداً من الأصدقاء ، وصمم فيليب من جانبه على جمع
المجلس الديني ، وذهب المندوبون إلى البلاد لجمع موافقة رجال الدين على ذلك .
وفي إيطاليا نفسها ، قامت حركة ضد البابا ، وفي ٧ سبتمبر ، هاجم بعض الرجال
المسلحين القصر البابوي ، ونهبوه ، ووصلوا حتى البابا نفسه ، وأهانوه . وأعلن
قادتهم له أنهم سيقتدمونه أمام المجلس الديني ؛ وقبضوا عليه ، ووضعوه تحت
الحراسة . وكان من الصعب نقل البابا عبر كل إيطاليا والذهاب به حتى ليون .
ولسكن هذه العملية أثرت في هذا الشيخ ، الأمر الذي أدى إلى وفاته يوم ١١
أكتوبر . ودلت هذه العملية ، بتهورها ، وعدم إحترامها لكل القيم الموجودة
في ذلك العصر ، على حدث هام في تاريخ الكنيسة ، وأدت إلى قلة ثقة الناس فيها
وساعدت على هزيمتها .

وبدلاً من أن يعلن السكرادة عدم موافقتهم على ما قام به الملك ، إختاروا

أحدهم لشغل منصب البابوية . وأظهر هذا البابا الجديد رغبته في مصالحة فرنسا ،
والغنى كل ما كان البابا السابق قد أصدره ضد ملكها . ولكن هذا البابا الجديد ،
وهو بنوا الحادى عشر ، توفى فى ٧ يوليو سنة ١٣٠٤ ، وترك المشكلة قائمة .

وظل الكرسي البابوى خاليا لفترة من الزمن ، تميزت بحدة المشاعر ، وبانقسام
الكرادلة على بعضهم خلال ما يقرب من عام بين مؤيدين لذكرى بونيفاس ومؤيدين
لملك فرنسا . وكانوا لعبة فى أيدي الدبلوماسية الفرنسية ، إلى أن نجحت فى
توصيل رئيس أساقفة بوردو إلى الكرسي البابوى ، باسم كليمنت الخامس ، فى
شهر يونيو سنة ١٣٠٥ . وكان تابعا لكل من ملك إنجلترا وملك فرنسا ، الأمر
الذى كان يمثل انتصارا للدبلوماسية الفرنسية .

وجاءت مسألة محاكمة فرسان المعبد لى تثبت من جديد هيمنة البابوية أمام
ملك فرنسا . وكانت لجماعة فرسان المعبد ذكرى حافلة ، وتاريخ قديم ، وإن كان
سبب وجودها قد انعدم بعد فقد المسيحيين للأراضى المقدسة فى نهاية الحرب
الصليبية ، وكانوا قد التجأوا إلى أوروبا ، ومعهم ثروات ضخمة ، وقاموا بعمليات
المصارف التى ساعد عليها انتشارهم فى جميع أنحاء أوروبا . وكان لملك فرنسا
نفسها حسابا جاريا لدى معبد باريس ، كانت تستخدمه من أجل توحيد إيراداتها ،
ودفع نفقاتها . ومن الصعب تحديد الأسباب التى دفعت بفيليب الجميل إلى تغيير
موقفه من هذه الجماعة فى ١٣ أكتوبر سنة ١٣٠٧ بعد أن كان قد منحهم نفعه .

ومما لاشك فيه أن ثروة هذه الجماعة وقوتهم المالية كانت سببا فى الحقدهم ،
فأساء الناس تفسير حفلات التكريس التى كانوا يقيمونها لهم الأعضاء الجدد ،
وأنهم هم بممارسة مالا يوافق عليه المجتمع . فهل كان فيليب الجميل يرغب ، تحت
وطأة الضائقة المالية فى الاستيلاء على ثرواتهم ؟ أو كان يرغب فى كسب الرأى
العام على أساس حمايته للعقيدة ؟ وعلى أى حال فإن الاتهامات ترايدت ضد هذه
الجماعة ، ونقلت هذه الاتهامات إلى كليمنت الخامس ، الذى لم يعرفها إلا لتبائات

اللازم ، ثم أمر بالتحقيق فيها في شهر أغسطس سنة ١٣٠٧ . ولـكن سرعان ما صدرت الخطابات الملسكية في ١٣ ، ١٤ أكتوبر بالقاء القبض على كل فرسان المعبد ، وبمصادرة ممتلكاتهم . ودلت الاتهامات العنيفة التي وجهت لـلهم على أن ملكة فرنسا كانت ترغب في القضاء على هذه الجماعة تماماً . وتم التحقيق مع الفرسان وكذلك تعذيبهم ، وحصلوا منهم على إقرارات صريحة . وربما كانت هذه الإقرارات نتيجة لاعتقادهم فيما ذكره المحققون ، من أن الاعتراف بما ينسب لـلهم سيكون أساساً للإفراج عنهم .

ورجى البابا نفسه أمام الأمر الواقع ، نتيجة لتصرف ملك فرنسا ، فاحتج ، وحاول أن يكسب الوقت ، وأمر بالإستيلاء على ممتلكات الجماعة في كل العالم المسيحي ، ووضعها في حماية الكنييسة ، حتى يمنع بقية الملوك من التصرف بطريقة ملك فرنسا ؛ وأمر بحاكم التفتيش بالتحقيق مع فرسان المعبد ، الأمر الذي أثبت ممارسة التعذيب ضدهم .

بدأ فيليب الجميل حملة من المقالات هاجم فيها شخص البابا وسياسته ، ثم جمع مجلساً من النبلاء ، وافق على سياسته ؛ وذهب لمقابلة البابا وأظهر علناً عدم موافقته على سياسته تجاه الجرايم التي ارتكبها المتهمون ، وتراجع البابا وأمر بالتحقيق مع الجماعة نفسها . وكان في وسع الملك وسلطاته المحلية ، أن تؤثر على سير التحقيق . وأصدر أحد المجالس الذي جمعه الملك حكمه بإعدام ٤٥ فارساً حرقاً في ١٢ مايو سنة ١٣١٠ . ولم يجرؤ أحد بعد ذلك بالدفاع عن الجماعة .

ولكي يمنع الملك أي إمكانية قد تقوم بها البابوية في هذه المسألة ، ربط بينها وبين قضية بونيفاس . فاضطر البابا إلى التخلي عن جماعة فرسان المعبد لملك فرنسا نظير وقفه للمشاطة في قضية بونيفاس ؛ وألغى البابا كل المرسومات البابوية التي كانت قد صدرت منذ أول نوفمبر سنة ١٣٠٠ . ونتيجة لإستمرار ضغط فيليب الجميل على البابا تمكن من أن يحصل منه على مرسوم بإلغاء جماعة فرسان المعبد في

٣ أبريل سنة ١٣١٢ ، ثم أمر بتحويل ممتلكاتهم وأموالهم إلى مجموعه الإسيبتالية ، من أجل الإعداد لحملة صليبية جديدة . وإذا كان فيليب الجليل لم يتمكن من الإستيلاء على هذه الممتلكات ، إلا أنه حصل على إيراداتها مدة عدة سنوات ، ولم يرجعها إلا نظير بدل ضخم .

وهكذا كانت تنمو سلطة الأسرة الحاكمة في فرنسا على حساب ضعف الكرسي البابوي ، وعلى حساب إضعاف الحكم البابوي على العالم المسيحي . وعلينا أن نرى من جانب آخر أن عنف فيليب الجليل ضد البابوية جعله ملكاً غير محبوب في بلاده . وجاءت وفاته في نفس العام الذي توفي فيه البابا كليمنت الخامس ، سنة ١٣١٤ . لكي ينظر الأهل إلى أنها على أنها لانتقام إلهي .

ولقد استمر ضعف البابوية في الواضوح حتى بعد بابوية كليمنت الخامس ؛ وكان هذا البابا الفرنسي ، الذي أقام في فرنسا ، قد فتح للكنيسة عهداً حزيناً سمي « بفترة الأسر البابلي » . وفي كل مرة كان يرغب فيها في الذهاب إلى إيطاليا ، كان ملك فرنسا يطلب إليه ضرورة البقاء . وقد أقام أفينيون ؛ في إقليم بروفانس ، لانتظاراً لعبور الجبال إلى إيطاليا ؛ ولكنه فشل كما فشل الكثير من خلفائه ، في تحقيق ذلك . وإمتلاء البلاط البابوي بالفرنسيين ، كما زاد عدد الكرادلة الفرنسيين المحيطين به ، حتى أصبحوا الغالبية العظمى في الكنيسة ، فأصبحت البابوية في أيدي ملك فرنسا ، وقلت هيبتها في أعين العالم المسيحي .

وكان الأكثر خطورة من ذلك هو تفكك الكنيسة نفسها ، وفقدانها سلطتها على رجال الدين أنفسهم . فلم تعد أمام الكثيرين من المسيحيين تمثل حماية العقيدة ، وظهرت بعض الاتهامات للبابوات بخيانة الإنجيل .

وظل الفرنسيون منقسمين على أنفسهم ، وزادت ظهور الحركات المدينية في جنوب فرنسا . وعجزت السلطات الكنسية في بعض المناطق عن مواجهة هذه الجماعة التي لم تجرؤ على التفطيش على إتهامها . ولكن بعض جماعات الفرنسيين

أصرت على ضرورة إصلاح العالم المسيحي عن طريق ممارسة الزهد ، والإبتعاد عن الثروة . وعملت على تقوية نظام مجموعتها وزيادة سلطة رئيس الجماعة ، الأمر الذى أدى إلى صدام بينها وبين المعتصمين للسلطة البابوية ، وأدى بالتالى إلى إعلان حرمانهم . ولقد قام البعض منهم بالدفاع عن أنفسهم ، بالقوة ، ومعهم بعض الأهالى ، وذهب الأمر بالبعض منهم فى منطقة بروفانس نفسها إلى إعلان عدم إعترافهم بسلطة الكنيسة الفاسدة . ولقد حاول بعض البابوات تفريق شملهم ، ومات البعض منهم حرقاً ، ولكنهم ظلوا ينظرون إلى الكنيسة على أنها قد تحولت إلى ملك زمنى ، وأصبح تخضع له ومن الضروري عودتها إلى الزهد والفقر والمحبة . ولقد إلتجأ البعض منهم إلى الجمال ، وأرسل البابا كليمنت الخامس ضدهم إحدى الحملات الصليبية ، التى تلتها حملات غيرها ، دون أن تتمكن من القضاء عليهم ، نتيجة لتأييد الكثير من الأهالى لهم . وإنتشر الزهاد فى كثير من المناطق ، وهاجموا الكنيسة بوضعها الموجود ، وأعلنوا أنها ليست ضرورية نتيجة للأخطاء المرتكبة من القائمين عليها ، كما أعلنوا أنه يمكن للأهالى أن يتعبدوا فى أى مكان . وإنتشر أعوان هذه الحركة فى كل مكان ، فى ألمانيا ، وفرنسا ، وفى أسبانيا ، وبخاصة فى السنوات الأولى من القرن الرابع عشر ، حتى إعتقد دانتى أن بعض رؤسائهم كانوا من أتباع محمد ، أى من المسلمين .

وفى نفس الوقت الذى إزدادت فيه الخصومات مع الفرنسيسكان ، والخصومات بين البابوات من ناحية وملوك فرنسا والأمبراطور من ناحية أخرى ، ظهرت هناك حركات قوية ضد حاكم التفتيش ، وضد سلطتها ، فنتج رجال الدين فى فرنسا من إصدار الأمر بإلقاء القبض على الأهالى ، كما كلفت الدولة إثنين من الأساقفة بمراجعة المحاكمات الموجهة ضد من كانوا يطالبون بالإصلاح الدينى . أى إصلاح الكنيسة . وهكذا شلت حركة حاكم التفتيش فى فرنسا ، وزادت سلطة الدولة على حساب ضعف سلطات الكنيسة .

وإلى جانب هذا التفكك الدينى ؛ كان هذاك التفكك السياسى .

وكان فيليب الجليل قد أضعف البابوية ، ولكن ، من كان فى وسعه أن يمد سلطته الفعلية على الغرب المسيحى ؟ لقد كانت الإمبراطورية ضعيفة وعاجزة عن فرض سيطرتها ، ومشغولة بأمور ألمانيا ؛ وواجهتها مشكلات كثيرة وثورات عديدة ، وفى كل مكان . وظهر عجز الإمبراطورية فى فرنسا ، وفى منطقة الراين ، وزادت المنافسات على العروش والتيجان ، وعاش وسط أوروبا ، فى ذلك الوقت ، سلسلة معقدة من المحالفات ، وإتجاهات الولاء ، التى تدعمت بالعلاقات الأسرية ، وتنافست فى نفس الوقت وتعارضت مع بعضها بالخصومات والمنافسات ، وحتى بتغير المواقف وإعلان الثورات والحروب . وتشكلت التكتلات ، من جانب ، ثم ظهرت تكتلات أخرى جانب آخر ، من أجل زواج إحدى الأميرات ، أو من أجل الحصول على إمارة ، أو حتى بعض الإمتيازات . وفى هذا المناخ ، كان فيليب الجليل يرغب فى الحصول على التاج الإمبراطورى لانيه الأصغر ، شارل صاحب فاوا . وإستخدم كل الطرق للوصول إلى ذلك ، من محاولة شراء بعض الأمراء ، إلى ممارسة الضغط على البابا . ولكن البابا ، رغم ضعفه ، شعر بخطورة هذا المخطط ، وظهر عليه التردد ، ثم وافق على تعيين أحد الأمراء ، الذى أنتخب ، وهو هنرى كونت لوكسمبورج ، فى منصب الإمبراطورية . وبهذا العمل ، أوصل البابا أحد صغار الأمراء إلى رأس الإمبراطورية ؛ ولم يكن يعلم أن هذا الأمير الذى سيلقب بإسم هنرى السابع ، سيكون إمبراطوراً خطيراً بالنسبة للبابوية .

وكانت الإمبراطورية مجرد شبهة فى ذلك الوقت ، ومنذ عهد فردريك الثانى . ولكن سرعان ما ظهرت إتجاهات هنرى السابع ، الذى عمل على زيادة نفوذ الإمبراطورية . وإحياء مطالبها بالملك العالمى ، والإشراف على الكرسي البابوى ، وأعاد السياسة الإمبراطورية السابقة ، وطالب بتوثيق العلاقات بين ألمانيا

وإيطاليا ، بعد أن كانت السلطة في إيطاليا قد تحولت ، منذ زمن ، من أيدي البابوية ، إلى أيدي البابوات . ولذلك فإن البابا شعر ، بخطورة هذا الاتجاه ، وعمل على تأجيل تنويع الامبراطور الجديد حتى بداية سنة ١٣١٢ .

وكان هناك خوف من أن يقسب بحجى الأمير إلى إيطاليا في زيادة المشكلات ، خاصة وأن إيطاليا كانت منقسمة على نفسها ، بين أنصار سلطة الكنيسة والبابا ، وأنصار سلطة الامبراطورية . واعتقد البعض ، ومنهم دانتي أن بحجى هذا الأمير الألماني إلى إيطاليا ، سيساعد على القضاء على الخلافات . ولكن مسيرة هنرى السابع في إيطاليا تحولت إلى حرب بين الجانبين . وبعد تنويجه بأيدي ثلاثة من الكرادلة في روما سنة ١٣١٢ ، تفاوض مع نابلي ، وحاصره وفرنسا ، ثم اضطر إلى الاتجاه إلى بيزا ، مع فلول قواته التي لم تعد تسليح لمعارك أخرى ، وأعلن شمال إيطاليا الثورة ضده ، ولكنه حاول في نفس الوقت أن يهاجم بمسكة نابلي في سنة ١٣١٢ ، وإن كان الاجل لم يمهله ، فرص ، ثم توفي في صيف نفس العام .

وكانت محاولة فرض سلطة هنرى السابع ، كأمبراطور ، على إيطاليا ، وكذلك محاولة السيطرة على نابلي ، وهى في نطاق نفوذ الكنيسة ، يمثل صداماً كبيراً بين البابوية والامبراطورية . وهكذا طرح في أول القرن الرابع عشر ، وبعد ثلاث قرون ، أمر العلاقة بين البابوية والامبراطورية ، من جديد . ولقد طرح في نفس الوقت ذلك المبدأ الذى كان معروفاً ، من أن الامبراطور يستلم التاج من أيدي البابا ، وبشكل يمثل الخضوع للبابا كما أدعى البعض ، أو يمثل خضوع البابا للامبراطور ، إذ أنه كان يقول له نفس الوقت الذى يسلمه فيه التاج : إليك ياسيدى ، كما أدعى الألمان ذلك . وكانت هذه النقطة تمثل ، علاوة على فكرة عالمية الكنيسة ، وعالمية الامبراطورية ، ذلك التنافس على السيادة العليا ، بين السلطتين الكنيسية والزمينية .

ولقد أفاد كايمنت الخامس من وفاة هنرى السابع من أجل أن يحدد بعض المبادئ العامة فى هذا الموضوع ، ويثبت خضوع الإمبراطورية البابوية ، ويلغى بعض الحقوق التى كان هنرى السابع قد أعطائها لنفسه ، وخاصة تجاه ملك نابلى . وبهذا الشكل كان عهد كايمنت الخامس يمثل ضعف البابوية أمام الفكرة الملكية ، ويمثل كذلك الضعف النهائى لفكرة الإمبراطورية .

٤ - ضعف البابوية والإمبراطورية :

شهدت الأجيال التى عاشت بين موت فيليب الجميل ، وبين الانقسام الكبير ، سرعة ضعف كل من البابوية والإمبراطورية ، واللذان كانا يمثلان أساس نظام العصور الوسطى . وكانت السلطة البابوية تدعى لنفسها حق ممارسة سلطة زمنية على الشعوب والموك ، ولكنها كانت مهددة برغبة لدى القوى المضادة ، وبقوة مادية وضعت فى خدمة النظرية التى نادى بحرية الدولة العلمانية تجاه الإشراف الدينى . وكانت الإمبراطورية مهددة بالأمراء الألمان ، والاحتقاد الإيطالية ، وبعداوة الملوك الذين لم يعودوا يعترفون بتفوقها عليهم ، وعجز البابا والأمبراطور عن الاتفاق ، وضعف كل منهم نتيجة للصراعات المستمرة ، وأصبح الأمبراطور مهدداً بأن يفقد نهائياً سلطته على العالم المسيحى ، دون أن يتمكن من أن ينشئ فى ألمانيا ، دولة قومية ، وعجزت البابوية كذلك ، وأمام الخصومات التى واجهتها ، ورغم جهوداتها ، من أن تنشئ إدارة تماثل إدارة الأمراء ، وتسمى المصالح المادية ؛ وأعطت بتزايد الضرائب المفروضة عن رعاياها ، حججاً جديدة فى أيدي خصومها .

وسرعان ما وجدت الآراء الخاصة بتفوق الكنيسة على الإمبراطورية تطبيقاً لها ، حين وجد الإبن اوحيد لهنرى السابع ، وهو حنا ملك بوهيميا ، أنه ليس له كثير من المؤيدين للوصول إلى تاج الإمبراطورية ؛ وإنقسم الناصبون إلى قسمين . وتم تنصيب إمبراطور فى سنة ١٣١٤ : الأول فى بون والثانى فى إكس لاشايل .

وتدخل البابا حنا الثاني والعشرون في هذا الخلاف ، وبشكل يدعم من سلطة البابوية تجاه الإمبراطورية في تلك الأزمة الكبيرة . ومرة يضع سنوات ، من سنة ١٣١٤ إلى سنة ١٣٣٠ ، تمتعت فيها البابوية بانقسام سلطة الإمبراطورية المنافسة لها ، وذلك على أساس أن محاضر الانتخابات لم تكن قد وصلت بعد إلى البابا ، الذي اعتبر أن منصب الإمبراطورية لا يزال شاغراً . وفي خلال هذه الفترة ، استمر الصراع بين الملوك والأمراء في أوروبا ، ولانتشرت الحروب والمؤامرات . ثم تدخل البابا حنا الثاني والعشرون ، وأعلن في ١١ يوليو سنة ١٣٢٤ عدم صلاحية لويس ملك بافاريا ؛ وحاول أن يقدم ترشيح شارل الجليل ، ملك فرنسا ، للعرش الإمبراطوري . ولكن أمراء ألمانيا وقفوا ضد ذلك ، واتحدوا مع أسرة هابسبورج ، واتجهت أنظارهم صوب إيطاليا . وحاولوا أن يصلوا إلى روما ويتوجون إمبراطورهم فيها . واستخدم البابا مرسوماته البابوية بالحرمان سلاحاً ، ولكنه كان بدون فاعلية . وكانت خصومة كبيرة بين البابوات والباطرة ، خاصة وأن لوى ملك بافاريا ، أتم تنصيبه في روما وقت وجود البابا في أفينيون ، وعلى يد أعداء البابا ورسم ضرورة وجود البابوات في روما نفسها .

ورغم ضعف سلطة البابوية ؛ كان الملوك الكاثوليك يتراجعون أمام إمكانية حدوث انقسام . فلم يعترفوا بالإمبراطور الجديد ؛ وكان أهالي إقليم روما يفضلون اختيار إمبراطوراً من بينهم . واضطر الإمبراطور إلى التراجع ، وعادت سلطة حنا الثاني والعشرون إلى روما . ولقد فرض قادة بافاريا الضرائب الباهظة على الإيطاليين لكي يخففوا بذلك هزيمتهم ، فأدى ذلك إلى وقوف أسرة إست وفيسكونتي مع البابوية وزادت قسوة الألمان تجاه الإيطاليين ، ولكن الأمر انتهى بهم إلى التراجع ثم الانسحاب من ممر برن صوب بلادهم . واستند ملك بافاريا إلى حنا ملك بوهيميا ، وإلى البابا المزيف الذي أسلمه الناج في روما ، ولكن البابا حنا الثاني والعشرين لم يتراجع عن موقفه ، وظل في عدائه الصريح مع لوى

ملك بافاريا ، معتمداً على حنا ملك بوهيميا . وقام تحالف وتكتل بين الحلف في إيطاليا ، ثم تكتل الحلف والجملين لأول مرة في سنة ١٣٣٤ ، ولكن دون الوصول إلى نتيجة . وبعد عشر سنوات من الصراع ، لم تتمكن أى من القوتين من إخضاع الأخرى ، وحطم لوى ملك بافاريا كل إدعاءات من أجل حكم امبراطورية إيطاليا ، وذلك في الوقت الذى كان فيه الفرنسيون سكان في بافاريا لا يغتفرون للبابا . أمر ترك إيطاليا ، وكانوا يرغبون في توجيه اتهاماً جديداً للبابا ، ولكنه توفي في شهر سبتمبر سنة ١٣٣٤ .

ثم جاء إلى كرسي البابوية بنوا الثانى عشر ، وكانت الكنيسة في حاجة ، بعد هذا الاضطراب إلى السلام ، فعقد البابا الجديد الصلح من لوى مع ملك بافاريا . ولكن الأمور لم تستقر نتيجة لتدخلات من جانب نابلى ومن جانب معظم الكرادلة الفرنسيين . وحاول الامبراطور بلا جدوى أن يتراجع في اتهاماته السابقة لحنا الثانى والعشرين ، ويعلن خضوعه للكنيسة ، ولكن بلا جدوى . ونشبت الحرب بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٣٤٢ ، ولم ينتج البابا بمجهوداته السلمية ، في الوصول إلى نتيجة ايجابية .

وجاء إلى الكرسي البابوى كليمنت السادس ، الذى عاد إلى سياسة التشدد ، وزاد الصراع مع الامبراطورية ، وأبذر البابا الملك لوى في سنة ١٣٤٣ ، بضرورة التنازل عن العرش في مدة ثلاثة أشهر ، وإلا فيكون خارجاً على الدين . وبعد حرب أضعفت أهالى بافاريا في مدة عشرين سنة ، اضطروا إلى التراجع . وأرسلت السفارات إلى البابا في أفيزيون ، ولكنه أصر على موقفه ، ثم أعلن عزل لوى ، وطلب إلى الأمراء انتخاب امبراطور آخر فوراً . ورغم استعداد ملك بافاريا للحرب ، إلا أنه توفي فجأة سنة ١٣٤٧ وفي فرانكفورت تم انتخاب امبراطور جديد أعلن استقلال الامبراطورية تجاه البابوية . ولكن سرعان ما وافته المنية ، ولكى يحصل على تأييد البابوية ، اضطر حفيد هنرى السابع إلى

أن يعلن أنه لن يبقى في إيطاليا دون موافقة البابا ، وأنه لن يبقى في روما سوى يوم واحد للتوقيع . وأخيراً تقدم في إيطاليا سنة ١٣٥٤ لكي يعلن خضوع الامبراطورية للبابوية ؛ ولم يكن معه سوى حرس يتكون من ثلاثمائة فارس ودفع فدية تبلغ مائة ألف فوران تكفيراً عما صدر من جده . ووصل أمام روما في ابريل سنة ١٣٥٥ وانتظر بضعة أيام حتى يدخل كنيسة القديس بطرس ويتوجه نائب البابا في روما للمبراطوراً . ثم عاد إلى ألمانيا ، وكانت غالبية المدن تقفل أبوابها في وجهه .

وهكذا اخرجت الامبراطورية في شكل يثبت خضوعها لسلطة البابوية . أما محاولة السيطرة على إيطاليا فإن شارل الرابع قد تركها للبابوية . والواقع أن أكبر سلطة زمنية ظلت ، رغم رفضها لأحكام السيطرة ، هي رأس مجموعة إيطالية تطالب بالتدخل في شؤون شبه الجزيرة الإيطالية . وفي نفس الوقت كانت الخريطة السياسية لبلاد ألمانيا قد تطورت ، وكان أباطرة القرن الرابع عشر قد عملوا على مد سيطرتهم على أقاليم واسعة ، وإن كانوا قد فقدوا بعض الأراضي في النمسا والتيrol وسويسرا . وانخفضت هيبة أسرة هابسبورج ، وارتفعت أسهم أسرة لكسمبورج . ولكن سيطرة حكومة بوهيميا امتدت صوب الشرق ، صوب براند بورج .

ومع ذلك فإن أعمال الامبراطور شارل الرابع ظلت ناقصة ، خاصة وأن سوء الأوضاع المالية كان يحرمه من تحقيق أحلامه . والواقع أن النظام الامبراطوري ، الذي كان قد طوره بنفسه ، كان لا يعطيه سوى لقب براق : فكانت تحيط به مجموعة من الأمراء المنتخبين ، ودايت بدون قوة ، وسلطة بدون إدارة . وهكذا كانت الامبراطورية . ولذلك فإن كل إقليم ألماني احتفظ بشخصيته رغم جهودات شارل الرابع ؛ ولم تر المدن الألمانية في الغرب والجنوب ، علاجاً للفوضى سوى في المحالفات ، والجامعات التي توحد مصالح المدن . ونشأت حول نورمبرج جامعة سنة ١٣٥١ تتمثل على حماية التجارة ضد أطماع صغار النبلاء وبيعان

ما أخذت هذه الجامعات أهمية سياسية ، وتدخلت في حكومة الإمبراطورية . ولم يتمكن شارل الرابع ، الذي دخل في صراع معها ، من أن يحطمها ، أو يفرض سيطرته عليه .

وعلى ما نذكر أن الإمبراطورية لم تعد ، في أواسط القرن الرابع عشر ، سوى مجرد كلمة ، وعلى العكس من ذلك نجد أن الكنيسة ، كعامل هام من عوامل المحافظة ، قد تطورت بعمق ، وواضعت بين نفسها وبين المبادئ الجديدة التي حكمت في ذلك الوقت التنظيم السياسي لمعظم دول أوروبا الغربية . وكانت إقامة البوابات في أفينيون قد أصبحت نهائية ، ولم يتمكن البابوات من تنفيذ خططهم بالعودة إلى إيطاليا . وكانت أفينيون مدينة جميلة ، وباعتها كونتيسة إقليم بروفانس للبابوية سنة ١٣٤٨ . وبعد إقامة البابوات في أحد الأديرة ، تطور الأمر ، وبني قصر بابوي ، له أبراج ، وفي شكل قلعة تشرف على المنطقة . وأحسن تجهيزه من الداخل ، وتزيينه ، ووضع التماثيل فيه . وكان من الصعب الاستناد إلى نداءات الإيطاليين بعودة البابوات إلى روما ، ولكن لزيادة خطر الحرب بين إنجلترا وفرنسا ، وانتشار العصابات ، كانت عوامل مضادة . وأحاط بالبابا في أفينيون بلاط ، كما أصبح له جيش من الكتاب والموظفين ، لهم سلوك معين . وكان رجال الدين هم الجهاز الأساسي في إدارة الكنيسة ، ثم نشأت المستشارية بمكانتها السبعة وسجلاتها . كما تطورت الإدارة القضائية ، وتطلب الأمر وجود المتخصصين ، وأصبح على البابا أن يترك القضاء لمجموعات متخصصة . أما مجلس الكرادلة فكان يختص بمناقشة الشؤون الهامة ، وأصبحت المحاكم تخضع للكرادلة . كما نشأت إدارة خاصة لبحث أمور الحرمان ، والتوصية بها ، وإذا أضفنا إلى ذلك المجلس الرسولي الخاص بالتبشير ، والذي يشرف على مالية الكنيسة ، لأخذنا فكرة عن نمو الإدارة الكنسية أثناء القرن الرابع عشر . وكان الأمراء يعطون المنح للكرادلة ، ورغم جهودات البابوات وأصرارهم على ضرورة الاقتصاد ، أصبح لكل من

الكرادلة قصر خاص به ؛ وتمكن الكثير منهم من تكوين ثروة طائلة ، حتى اضطرت البابا ، في الأوقات العصيبة ، إلى الاستدانة منهم . وكان البابا يجمعهم في المناسبات الهامة ، ومناسبات الترقية لمناصب الكرادلة ، الأمر الذي كان يدفع بهم إلى محاولة زيادة سلطاتهم على حساب البابوية . ولم يعد في وسع البابا أن يصدر قرارات ضدهم دون أن يحصل على موافقة ثلثيهم عليها . وهو الأمر الذي حول هذا الملك البابوي إلى حكم أقلية كاردينالية . وفي مواجهة ذلك كانت هناك عزيمة البابوات ، خاصة وأن البابا كان هو رأس الكنيسة ، وكان له أجل بلاط في كل أوروبا ، وكان يحمل تاجاً يمثل سلطة المسيح ، ويندل على السلطة المطلقة للكرسي البابوي ضد محاولات الكرادلة . وكانت للبابوية سلطة كبيرة في نطاق النفوذ السياسي ، وكانت في حاجة ، في صراعها ضد البلاد الثائرة ، مثل ألمانيا وإيطاليا ، إلى تأييد رجال الدين . كما نشأت وفاقا بين البابا والملوك ، تمهيداً لصدور الكونكوردات خلال القرن التالي ، من أجل تنظيم السلطات المدنية في كل مكان . وكان توزيع المكاسب بين الكرادلة يمثل جزءاً هاماً في الإجراءات المالية للبابوية ، أكثر من كونه يهدف الانضباط الديني ، أو السلطة السياسية . وكان يمثل دخلاً كبيراً للبلاط البابوي ؛ ويسير صوب نظام مركزي ، الأمر الذي دفع البابوات إلى وضع نظام ضرائبي محدد .

ولاشك في أن ازدهار بلاط أفينيون قد أسهم في زيادة نفوذ البابوات . وشعر الأساقفة بقوةهم ، وإن كان مجموع العالم المسيحي قد شعر بقلق نتيجة إزدياد ثقل الضرائب ؛ وزادت المطالب والالتماسات الموجهة إلى البابا لحفض الأعباء الضريبية . وأساء البعض في عملية جمع الضرائب ، وتكديس المكاسب وبشكل أفقد فاعليتها . وكان نظام الضرائب للبابوات يمثل الكثير من المساواة . وجاءت عملية تسوية مسألة جماعة فرسان المعبد ، ثم الخوف من القطيعة بين فرنسا وإنجلترا ، وبعد ذلك مسألة إرسال إحدى الحملات الصليبية ، ثم مسألة

عدم أمن إيطاليا ، عوامل تدفع البابوات إلى إطالة مدة إقامتهم في أفينيون . ولكن الوضع تغير في عصر إنوسنت السادس ، فأصبح موقف البلاط البابوي مهدداً في أفينيون ، ووصلت العصايات إلى أبواب القصر البابوي . وبعد بضعة سنوات ، أنفق البابوات أموالاً طائلة في إبعاد العصايات عن المنطقة ، في نفس الوقت الذي كان يصدر فيه علناً مرسومات حرمانهم . وكان الرأي العام المسيحي يطالب بإصرار بضرورة عودة البابوات إلى إيطاليا .

ولذلك فإن مسألة العودة إلى روما قد طرحت على نطاق السياسة البابوية ، بعد موت إنوسنت السادس سنة ١٢٦٢ . وأعلن البابا أوربان الخامس استعداده للعودة إلى إيطاليا ، ووافق الإمبراطور على ذلك في سنة ١٢٦٥ . ثم جاءت سفارته من شارل الخامس لكي تعارض ذلك ، ولكن أوربان الخامس ترك أفينيون سنة ١٢٦٧ ، ثم وصل إلى روما ودخلها دنول الظافرين . وفي روما حاول البابا إدخال إصلاح على نظام الكنيسة في إيطاليا ، وعقد بعض المحادثات ، وانتظر وصول الإمبراطور شارل الرابع ، ووضع الإمبراطور التاج على رأس زوجته بينما كان يقوم هو بتأدية فروض الصلاة . ثم انسحب بعد ذلك مباشرة . وسرعان ما وصل روما حنا باليولوج الخامس من القسطنطينية ، وكان سفراؤه يعرضون ، منذ خمسة عشرة عاماً ، أمر خضوعة لروما ، نظير حصوله على معونات يواجه بها الأتراك . وأصدر البابا أمره بضرورة إعداد حملة صليبية جديدة .

ولكن الحرب بين فرنسا وإنجلترا نشبت من جديد ، وترك حنا باليولوج روما دون أن يحصل على ما هو أكثر من وعد . وظل أوربان الخامس موزعاً في إيطاليا بين العودة إلى أفينيون ، وبين نصائح الكرادلة الفرنسيين له بضرورة التوفيق بين إنجلترا وشارل الخامس . وسأول في سنة ١٢٧٠ أن يترك إيطاليا ، ولكن الأهالي طلبوا منه البقاء ، ثم وصل إلى أفينيون ، حيث توفي في نفس السنة . وتولى جريجوري الحادي عشر كرسي البابوية ، وحاول أن يجمع الأمراء

المسيحيين ضد الأتراك . وقامت أسرة فيسكونتي سنة ١٣٧٥ بشورة في ممتلكات الكنيسة ، فقام البابا بحرب مع حلفائه ، وقرر العودة إلى روما . فأقلع من مرسيليا سنة ١٣٧٦ ، ولم يدخل روما إلا في ١٧ يناير سنة ١٣٧٧ .
وهكذا انتهى الأسر البابلي ، وإن كانت العودة إلى روما غير نهائية . ذلك أن الكرادلة الفرنسيين كانوا لا يرغبون في البقاء فيها وبقى الكثير منهم في أفينيون ، حيث احتفظوا ببعض الإدارات البابوية . وفي روما نفسها كان الأهالي والنبلاء لا يطيعون رغبات البابا ، وزادت الدعاية عن مساوئه ، وإستخدامه العنف ضد الأهالي ، وإستخدامه القسوة في جميع الضرائب . وإجتمع مجلس ديني في روما سنة ١٣٧٨ للتوفيق بين البابا وخصومه . وفكر البابا في الطرب من روما ، ولكن المنية عجلت به ، وكان يعلم أن السلطة البابوية مهددة بالأحداث القادمة .

٤ - الاستعداد للهجوم على الكنيسة :

كانت سلطة الكرسي البابوي مهددة بتلك المعارضة المتزايدة لأصحاب الرأي التائل بأن روما قد خانت الانجيل . وعملت محاكم التفتيش على تحطيم مراكز وأصحاب هذه الأفكار ، ولكن معظم الدول لم تكن تؤيدها كل التأييد . وإذا كانت فرنسا قد سمحت لمحاكم التفتيش بالعمل في الجنوب ، فإن حرب المائة عام قد جاءت لتزيد من بطيء اجراءاتها . وكان الصراع بين حنا الثاني والعشرين ولوى ملك بافاريا يشل حركة رجال الدين في الامبراطورية . ووافق شارل الرابع بعد ذلك في سنة ١٣٤٨ على ممارسة الكنيسة لسلطة محاكم التفتيش في ألمانيا ، ولكن الأمراء وحتى الأمافقة أنفسهم لم يؤيدوا هذا القرار إلى حد بعيد وأظهر ملك بوهيميا نشاطاً بسيطاً في بلاده ضد المراطقة ، كما أن الخصومات بين البابوية وأسرة فيسكونتي في لومبارديا لم تسمح بإستقرار سلطة محاكم التفتيش في هذه المنطقة . وكانت البندقية تواصل التحقيق في عمليات الاحتيال التي قام بها بعض المقربين من النظام البابوي . أما في نابلي فإن سلطة محاكم التفتيش قد قصرت مهامها

على تتبع اليهود ، ولم تترك لها أسرة . أراجونا الحاكمة في صقلية ، إلا وجوداً
إسمياً . وهكذا وجد الكرسي البابوي نفسه في مركز ضعف أمام الفرنسيين ،
وأمام كل من يهاجم سلطانه ، وكل من يرفض العقيدة الكاثوليكية ونمت الدول في
كل مكان بطريقة متحررة ، دون إتفات إلى الأسس الأخلاقية للكنيسة ، ودون
أن تعمل على حمايتها . وكانت الكنيسة لا تعمل بنشاط من أجل إصلاح نفسها ،
وتجميع قواها .

وكان البابا حنا الثاني والعشرون قد دخل في صراع مع الفرنسيين وأقام
لهم منذ ربيع سنة ١٣١٧ أكوام الخطب في مارسييا وناربون ومونبيلييه
وكركاسون وتولوز . ولكن نشاط حاكم التفتيش ضدهم كان أقل من ذلك في
جنوب إيطاليا ، فظلت أعدادهم كبيرة في مملكتي نابلي وصقلية . وأدت هذه
التخوصمة إلى تطور المسألة في شكل مناقسة نظرية ، وإتحدت فيها كل جماعة
الفرنسيين ضد البابا . وطرحت مسألة الزهد في الكنيسة ، وضرورة التخلي عن
امتلاك مخازن الحبوب وكهوف الخور ، وليس الملابس الفاخرة . وحكمت بعض
حاكم التفتيش على البعض منهم بالمهرطقة . ولما كان المسيح يمتلك أى سلطة زمنية ،
فلم يكن من حق خليفته ، وهو البابا ، أن تكون له مثل هذه السلطة . وكانت
هذه النقطة خطيرة بالنسبة للبابوية ، فهاصبهم العداء . وظهر من بين الأساقفة من
حاول اثبات أن المسيح قد عاش فقيراً ، ولكنه كان يارس حق ملكية الأشياء ،
وذلك في الوقت الذي زاد فيه نشاط أنصار الزهد والفقير بين جماهير المسيحيين .
وحين أصر البابا على موقفه ، استعداد أصحاب هذه الحركة للخروج عليه ، وأعلانه
خارجاً عن الدين ، وبابا مزيف ؛ ووجدت هذه الحركة تأييداً لها في بافاريا
وفي ألمانيا ، واهتمت البابا بتغيير تعاليم الدين . وكانت طريقة حياة البابوات
نفسها تعمل في ضد مصالحهم ومصالح النظام الكنسى ، فزادت عليهم الهجمات .
ووصلت الحالة إلى أخذ قرار في سنة ١٣٣٤ بضرورة محاكمة البابا ، وإن كان

لم ينفذ نتيجة. اوتة في نفس السنة ؛ وخفت هذه الحركة بعد سنوات ، نتيجة لعدم
اصرار البابوات على عدم معارضتها ، ونتيجة لموت عدد من القائمين بها ؛ ولكنها
كانت فرصة لهاجمة كنيسة روما ، التي فشلت في الدفاع عن نفسها ، وكان ذلك
سبباً من أسباب ضعفها .

وكانت الكنيسة تواصل في نفس الوقت ، وعن طريق محاكم التفتيش كذلك ،
تعقبها للهرطقة وللهرطقة . وانتشرت هذه الحركات في جميع أنحاء أوروبا ، من
ألمانيا إلى إيطاليا وشبه جزيرة البلقان ، وكذلك جنوب فرنسا ، وسويسرا
وألمانيا وبوهيميا . وكان تشدد الكنيسة ، بمحاكم التفتيش ، يعني اصرارها على
ثبات العقيدة على ما هي عليه ، واصرارها على التفسير الذي يعطيه البابوات لكل
مسألة تطرح . ولا شك أن هذا الموقف كان يعنى عدم المرونة ، وعدم السماح
للمسيحيين بالتفكير والنقد والمقارنة . وستزيد خطورة هذا الموقف حين يظهر
بعض المفكرين ، وبخاصة في الجامعات ، بفكر يستند إلى منهج . ولا يستمد نفاذيه
إلا من الكتاب المقدس ، والكتاب المقدس وحده ، دون اعتبار لوجهات نظر
البابوات . وعندئذ تحرم البابوية من كل أسلحتها ، ولا تقوى على مواصلة الحوار ،
حتى في شؤون العقيدة . وإذا ما انسحب ذلك على مسألة السيادة الزمنية للبابوات ،
فإن الكنيسة الرومانية ستكون بغير سلاح .

وعلىنا أن نذكر هنا جان ويكليف ، الانجليزى ، والذي كان من جماعة
أكسفورد ، وعلى علم دقيق بحياة القديسين وأطلاع كبير وثقته في الكتاب المقدس .
وأخذ ويكليف موقفاً واضحاً سنة ١٢٦٦ في تلك المناقشة التي فتحت بين الرأى
العام الانجليزى وبلاط روما . وتحدث عن « تعريف السيادة » التي نفاها فيما بعد
إلى نظرية . ثم شارك في سنة ١٣٧٤ في مؤتمر بروج ، ووافق في سنة ١٣٧٦ على
إحتجاج البرلمان الانجليزى ضد اتفاقية كانت في صالح البابوية لحد بعيد . ثم أخذ
يدرس في أكسفورد عن السيادة المدنية ، وذكر أن هذه السيادة لا تعود لإلله ،

وأن الله بدلامن أن يمنحها للبابا ، قد وزعها بين كل أولئك الذين يحكمون الأرض ؛
ولذلك فإن السلطة الملكية ليست أقل قدسية من السلطة الدينية ، بل أن الكنيسة
ترتكب خطيئة حين تدعى لنفسها الجمع بين سلطتها على الروح والسلطة الزمنية ؛
وعلى الأمراء العلمانيين أن يستعيدوا سلطاتهم التي تسمى الكنيسة استخدماها ، وعليهم
أن يهتموا ويصححوا البابا .

وكانت جراحة فريدة ، واجتمع رجال الدين في إنجلترا سنة ١٣٧٧ وكانت
مناقشة حادة ، أثرت في عاصمة إنجلترا ، ولم يتمكن المجلس الديني من الحكم عليه .
ولم ترفض كليات جامعة أكسفورد نظرياته ، وساعده الحظ إذ أن مجلس العموم
أظهر عداوة شديدا للبابوية . وهدد بالاستيلاء على كل مبلغ يرسل إليها . وحين سؤل
ويكلف عن ذلك ، أجاب بأن هذا الاجراء مشروع . وأصبح ويكلف شخصية
محبوبة في كل إنجلترا . ولا شك في أن هذا كان يمثل ضعفا للبابوية ، وهجوما
عليها ، من عالم متفقه ومفكر ، وعجزت البابوية عن محاكمته ، نتيجة لعدم وصول
سلطات التفتيش إلى بلاده .

ومن جانب آخر نجد أن النظريات الشيوقراطية . أي الخاصة بالحكم الديني ،
وامتداد سلطة الكنيسة زمنيا ، لم تعد تلقى قبولا خارج المدارس . وإذا كان البابا
قد أكدها أمام أحد الأباطرة الضعفاء ، فإنه كان عاجزا عن أن يذكرها أمام ملك
فرنسا . وكانت سلطة الكرسي البابوي قد خضعت أمام ملوك فرنسا إلى التبعية ،
ولم يرفعها من هذا المستوى إلا نشوب الحرب بين إنجلترا وفرنسا . وكان الأمراء
عازمين على عدم اطاعة البابا في الأمور الزمنية بعد ذلك ، بل كانوا أكثر من
ذلك ، قد أخذوا في السيطرة على الكنائس الموجودة في أقاليمهم . وجاءت زيادة
اختصاصات المحاكم المدنية لكي تقلقل من اختصاصات محاكم رجال الدين .

أما في إنجلترا فإن موقف البابوية كان أكثر صعوبة ، فإتهامها وقت الأسر
البابلي بأنها متحيزة لفرنسا . وأفاد ملك إنجلترا من نشوء حركة عدم رضاء في

بلاده ضد البابوية لكي يزيد من سيطرته على الكنيسة في إنجلترا . وعمل الملك إدوارد الثالث على تخويف البابوية ، وأخذ يدافع ، أمام الرأي العام ، عن حريات الكنيسة ، ضد مساوىء رجال الدين . وحين طالب البابا بلمحة مهددة بالضرائب الكنسية التي كانت إنجلترا قد توقفت منذ سنوات عن إرسالها ، لم يكن الملك هو الشخص الوحيد الذى أظهر أسفه ، بل لقد أرتفعت الاحتجاجات من البرلمان ومع جميع أنحاء إنجلترا . ووصل الأمر بالحالة سنة ١٣٧٦ إلى أن قام مجلس العموم بإتهام البلاط البابوى ، بتحطيم كنيسة إنجلترا ، وبالتلاعب فى الأمور المقدسة . وأفادت بافاريا من هذه الأوضاع لكي تفرض على كنائس الإمبراطورية رغبتها ومرشحيها . وأخذت سلطة البابوية المعنوية فى التراجع ، ولم تعد الدول تنظر إلى المشروعات البابوية الخاصة بضرورة إرسال حملات صليبية نظرة الجذ ؛ حتى فى مواجهة هجمات الأتراك والمغول . وكان تجميع الضرائب والأرباح فى أفينيون ، وعدم مبالاة كبار رجال الكنيسة يتسبب فى فشول قلق فى بلاد غرب أوروبا ، وفى ظهور حركات لقض هذه الحالة . وكادت البابوية أن تفقد ممتلكاتها فى إيطاليا ، التى ظهر فيها شعور جديد بالحرية ، ولم تتمكن الكنيسة من إعادة فرض نفسها عليها إلا بقوة السلاح . وظهرت كنيسة روما على أنها لم تعد تصلح لرعاية الشعوب . ولم يعد من الممكن الآن إعادة تقسيم السلطتين الدينية والزمنية بين البابوية والإمبراطورية ، وبخاصة بعد ضعف الإمبراطورية . ولم يعد من الممكن الوصول إلى أى حل سوى ترك كل من الشعوب والأمراء يجدون حلا ، وكل فيما يخصه ، بشأن مشكلات الحكم ، وطبقا لمصالحهم ، وتجارهم ، وطريقة تفكيرهم .

ولقد أعطت مملكة فرنسا المثل على هذا التحرر الكامل للدولة . ومنذ بداية القرن كان الفقهاء والمشرعون فيها قد أظهروا أنهم لن يسمحوا للبابا أن يسيطر على سياسة الملك بالانجيل . وينطبق ذلك بالتالى على الإمبراطور . وكانت هناك

إلى جانب ذلك بعض الإتيهات لرسم برنامج التوسع الفرنسي ، فكان يأمل فى أن تنمو سيطرة الملوك ، أحفاد القديس لويس ، على إيطاليا وألمانيا وممتلكات البابا ، وكذلك على الإمبراطورية الشرقية ، وعلى إسبانيا أو إنجلترا . وربما كان هذا البرنامج خيالياً ، ولكنه كان يدل على تفكير موجود بالفعل ، ويسعى إلى أن يحل سلطنة ملك فرنسا محل الإمبراطورية ، وحتى محل البابوية فى ممتلكاتها الزمنية .

وكانت سياسة فرنسا تقوم على أساس التجربة ، والحساب ، وإذا كانت تستند إلى أساس دينى ، فإن فكرة الملكية كانت فكرة عقلانية . وإهتمت بفن الحكم ، على أساس المبادئ ، وأحاطت نفسها بالعلماء والنظريات الواقعية عن العالم الحديث ، وعن التاريخ . وفى الوقت الذى احتفظت فيه الملكية بالحق الإقطاعى القديم والخاص بمبدأ الخضوع الشخصى لذلك ، استندت كذلك إلى القانون الرومانى لى تطالب بتضحية الفرد من أجل الدولة ، بمثابة شخص الأمير . وهكذا ظهرت نظرية الدولة ، التى تحررت من سيطرة روما ، ومن السلطة العليا للإمبراطورية ، ويشكل محدد فى الغرب الملكى . وكانت المملكة الانجليزية ، تحت إشراف برلمانها ، تجهل الإمبراطور ، وتبعد نفوذ البابا . وقام الأحرار والسادة الألمان بإنشاء ممالك حقيقية ، لا تخضع سياستها إلا للأناية الضيقة . وسادت الأناية الممثلة فى كل مكان كانت البورجوازية فيه تحكم نفسها ، وكانت المشغوليات الخاصة بالمصالح المادية هى التى تجمع بين المدن الألمانية فى الجامعة الهندسية ، وبين مدن الفلاندر فى الأراضى المنخفضة . وكانت المصالح المادية للطبقات المختلفة التى تسمى الثروة هى التى تسيطر على السياسة ، وعلى الصراع بين الأحزاب .

وكانت معرفة التاريخ القديم فى إيطاليا ، والمناقشة الحرة التى تعودت عليها المجالس البلدية منذ فترة ، وكذلك المحادثات الدبلوماسية ، قد جعلت فن الحكم يخضع لمبادئ علم واقعى ، يعرف مناهجه وأهدافه ، الأمر الذى جعل إيطاليا ، أكثر من غيرها ، تتحرر من كل إعتهار دينى وأخلاقي . وإهتم الطغاة فى شمال

إيطاليا بكل ما يزيد قوة دولهم ، وأنشأوا حكومات ملكية مطلقة ولكنهم إهتمت بالإدارة التي عملت على أن تعطي الشعوب ، نظير خضوعها ، الرفاهية والثروة ؛ وطبقوا على أقاليمهم نظم الإمبراطورية الرومانية ، نظرياً وعملياً . أما الجمهوريات فإنها تركت مصلحة الدولة تتطابق مع الميزات الإيجابية لتلك الطبقة ، أو ذلك الحزب الذي كان في الحكم .

وكانت عملية تحرر الدولة تدل بوضوح على ضعف سلطة الكنيسة . وهكذا انتهى تحطيم الإطار العام لعالم العصور الوسطى . وفي مواجهة هذا الخطام للنظام الكاثوليكي ، وهذا التناسي للإنجيل الذي أصبح قانونه ، بعد أن أهملته الدول ، لا يتمشى إلا مع الأفراد ، لإحتج ضمير المسيحية في كل مكان . وفي الوقت الذي إهتم فيه المراقبة الكنيسة بخيانة الحقائق التي عهد بها إليها ، كانت أفكار من ظل مخلصاً لمقيدته تأمل في حدوث إصلاح من الرأس حتى بقية الأعضاء . وكان هناك شبه إ اتفاق على أن بابوات أفينيون قد أهملوا رسالتهم ، وحتى من قام منهم ببذل مجهود فإنه كان يرى مجهوده يضيع نتيجة للامبالاة من جانب الكرادلة والأساقفة ، والذي نتج سوء إختيارهم على التقاليد البابوية في مسائل تعيين كبار رجال الكنيسة . وسادة فكرة ضرورة إصلاح الكنيسة في كل مكان .

الفصل الثالث

حرب المائة عام

مرت الممالك الغربية الكبيرة عبر تجربة صعبة . وحاولت حكومة فيليب الجميل أن تعيد لصالحها إمتيازات الملوك في العصور الرومانية القديمة ، ولكن بلا جدوى ؛ فإصطدمت هذه الطرق المطلقة بمقاومة خفية في أول الأمر ، ثم معلنة من جانب النبلاء ، الذين رفضوا أن يتم القضاء عليهم وبأنفس الشكل ، علينا أن نجد في إنجلترا أولئك البارونات غير الخاضعين ، الذين كانوا مستعدين دائماً لتأكيد إستقلالهم ، عند ظهور أقل دلالة على ضعف السلطة الملكية . وهذا النظام الإقطاعي ، الذي أعتقدنا أنه كان قد أخذ في الضعف ، كان يقف لجأه ، وبحركة أقوى منها عنها في أى وقت مضى ، في العقد الثاني من القرن الرابع عشر ، ويحاول أن يكسب ما كان قد فقده ، سواء في فرنسا أو في إنجلترا .

ومع ذلك فإن الملكية كانت تسير ، وكان المستقبل مضموناً لها . ولكن الدولتين ، ونتيجة لحدثين تقارباً زمنياً ، وهما عزل أدوارد الثاني في إنجلترا سنة ١٣٢٧ ، ووصول أمراء فالوا إلى الحكم في فرنسا سنة ١٣٢٨ تواجها في صراع مرير ، بل كان أشد مرارة وأكثر طولاً عما كانت أوروبا قد شهدته حتى ذلك الوقت . وسيكون من الخطأ تقليل أهمية حرب المائة عام ، إلى مجرد خصومة بين أسرتين حاكمتين ، أو حتى بين شعبين : ذلك أن خطورة الصدام ، وإتساع نتائجه في كل الميادين ، السياسية ، والإجتماعية ، والإقتصادية ، والمعنوية ، وزيادة عدد الدول التي مسها . بطريق مباشر أو غير مباشر ، جعل منه أكبر حدث دار حوله تاريخ أوروبا لمدة قرن من الزمان ، وهو ذلك القرن الذي شهد تدهولم حضارة أوروبا في العصر الوسيط .

١ - تطور الأوضاع في كل من فرنسا وإنجلترا :-

كانت المسألة المالية هي أساس الصعوبات التي أصطدم بها النظام الملكي في فرنسا وفي إنجلترا . وكانت المملكة في فرنسا ، حتى عصر فيليب الجميل ، قد اتبعت سياسة حكيمة ، وتعيش على موارد العادية التي تجمعها من أملاكها ، وتضيف إليها بعض المعونات التي كان العرف الإقطاعي المعمول به يسمح لها بالحصول عليها من بعض التابعين . ومع توسيعها لميدان عملها ، وحاولتها القيام بسياسة ملكية مقررّة ، شعرّت بالحاجة إلى ضمان موارد ثابتة أكثر إتساعاً ، وكان فيليب الجميل في حاجة دائمة للأموال ، وطرق من أجل الحصول عليها كل الأبواب ؛ فأفاد في سنة ١٣٠٦ من إرتفاع شعور شعبي معادي لليهود ، وقام بطردهم من مملكته ، وصادر أملاكهم . وقام بعمليات مماثلة ضد رجال المال الإيطاليين الموجودين في بلاده . وذهب الخد بهذا الملك إلى أن قام بتغيير قيمة العملة . وكان يرفعها أو يخفضها حسب ضرورات الوقت . ولم تعط هذه التغيرات للخزينة الملكية إلا فائدة وهمية ، لأن خزينة الملك كانت لا تمتلئ ، بعد الفترة المفاجئة الأولى ، إلا بالعملة الرديئة التي خلقها ؛ ويؤدي شلل التجارة إلى الفقر العام الذي لا تكون المملكة هي آخر من تتأثر به .

ومع ذلك فإن كل هذه العمليات ، بما فيها هجماته ضد جماعة فرسان المعبد ، لم تكفه لمواجهة نقص الميزانية الملكية . فأضطروا إلى وضع نظام ضرائبي ثابت ؛ يقوم على أساس دخول ضرائب منتظمة . فزادت طلباته إلى رجال الدين ، بموافقة البابا أو بدونه ، لتقديم العشور ، وفرض ضرائب غير مباشرة كبيرة القيمة على كل العمليات التجارية ، وحاول أن يبدل التقليد الإقطاعي الخاص بضرورة تقديم كل تابع خدمه لسيدة وقت الضرورة ، بتقديم هذه المعونة نقداً ، بدلا من تقديمها عسكرياً . وكان الملوك قد استخدموا منذ فترة الجنود ، أو المرتزقة ، بدلا من المجندين الذين يأتي بهم السادة الإقطاعيون ؛ فأراد الملك ،

وبعقلية ضرائبية بحتة ، إبدال الخدمة الإقطاعية بضريبة تجمع كل فترة معينة ، وهي التي ستصبح المعونة الملكية فيما بعد . هكذا تتراجع المبادئ الإقطاعية شيئاً فشيئاً أمام المبادئ الملكية . ومع ذلك فإن الملوك لم يصلوا إلى أهدافهم مباشرة ، فكان عليهم أن يكسبوا الأهلالي أو يتساوموا معهم : فكانوا يستشيرون المدن والأقاليم عن طريق مجالس الوجهاء ، وكذلك كبار التابعين عن طريق المفاوضات المباشرة ، ويطلبون منهم معاونة الملك ؛ ولم تكن المعونات تقبل بحرية ، إلا على أساس أنها مؤقته . وكان يكفي أن تطول الحرب . وتحدث معها أزمات إقتصادية ، حتى تضطرب الخزنة الملكية ، وتصبح المعونات المؤقته معونات دائمة .

ولم يرضى الملوك على المعارضة ، حاولوا أن يكسبوا الرأي العام ، بعرض الأمور الهامة على مجالس الوجهاء ، التي كانت تجتمع من أجل الدعاية . وكان من الممكن أن نرى في هذه الاجتماعات ، التي كانت تضم النبلاء ورجال الدين ومدوبي المدن ومناطق النفوذ الكبيرة ، أحد أصول تلك الآلة الحكومية ، وهي مجلس طبقات الأمة . وكان الملك قد إعتاد أن يطلب المعونة من مجالس من هذا النوع .

وكان جمع الضرائب الملكية يتسبب في نشوب حركة عديم رضاء في البلاد . وكانت هناك بعض الفضائح نتيجة للانحرافات في جميع الضرائب ، كما أن النبلاء قد شعروا بهزيمتهم ، وكانوا مستعدين للانتقام عند أول فرصة يظهر فيها ضعف الملك . وكانوا يطالبون بضرورة الاعتراف لهم بشن الحرب ، وبضرورة احترام القضاء الإقطاعي ، واحتجوا على تدخل الملكية داخل مناطق نفوذهم ، وأجبار تابعيهم على دفع المعونة . وكان برنامج رجعي ؛ يهدفون من وراءه إلى العودة إلى تقاليد عصر القديس لوى ، بإعتبار أنه العصر الذهبي للإقطاع . وكانت حكومة المملكة لاتهتمهم ، كما كانوا لا يهتمون بالحریات الأساسية الأصيلة ، ولكنهم كانوا منقسمين على أنفسهم ولم يكونوا يحظون بتأييد رجال الدين ولا رجال الكنيسة ؛ ولذلك فإن الحكومة الملكية لم تراجع ؛ وإن كانت قد قدمت بعض

التنازلات التي بدت على أنها في صالح الاقطاعيين ، إلا أنها عادت ووضعت عليها الاشتراطات ، الأمر الذي جعلها تأخذ بيد ، ما كانت قد أعطته باليد الأخرى .

ولو حدثت أزمة في ذلك الوقت للأسرة الحاكمة في فرنسا ، ذلك أن لوى العاشر ، ابن فيليب الجميل ، توفي فجأة ، سنة ١٣١٦ ، أى بعد والده بسنتين ، ولم يترك سوى بنت ، لا تقدر على أن تحكم بدله ، طبقاً للقانون المعمول به حينئذ . ولكن الملكة كانت حاملاً ، الأمر الذي أجّل تقرير مسألة الوراثة . واستولى أبوه أبناء فيليب الجميل الآخرين على العرش ، وكانت هذه الفرصة لكي يحاول بعض النبلاء القيام بحركة ضد مغتصب العرش ، ويفرضون بذلك كلمتهم على الملكية . ولكنهم فشلوا في ذلك ، إذ سرعان ما جمع الملك مجلساً من النبلاء ورجال الدين والبورجوازيين وأساتذة الجامعات ، في باريس ، وجعل هذا المجلس يصدق على ترشيحه للعرش ، ووضع بذلك تقليداً عن اعتلاء أنحو الملك العرش بعد وفاته ، في حالة عدم وجود وارث ذكر . وهكذا توصل ملوك فرنسا بسهولة إلى التغلب على معارضة النبلاء . ولكي يمنعوا تكامل قوات الاقطاع مع القوى الشعبية ، أفهموا الفلاحين أنهم سيحجمونهم ضد السادة ، وعملوا في نفس الوقت على تخويف السادة من خطر ثورات الفلاحين المزعومة . ونجحوا بذلك في احتضان كل طبقات الشعب ، وإشراكها اسمياً في شئون الحكومة . وزادوا من استخدام مجالس طبقات الأمة ، التي كان يشترك فيها ممثلين عن الطبقات الثلاث : النبلاء ورجال الدين ، والعامّة . وأصبحت هذه المجالس تجتمع من فترة لأخرى ، سواء أكانت عامة أو محلية . وكان يستشير رعاياه في الأمور السياسية الهامة ، ويتنزه الفرصة ويطلب منهم دفع المعونات اللازمة لسياسته العسكرية . ولم تكن هذه المجالس تشتغل على نظام تمثيلي صحيح ، فكان الملوك هم الذين يطلبون عقدها ؛ ولم تكن الأمة تفرض بها رقابتها على الملك ، وكان دورها السياسي صغيراً ، ولا يقلل من سلطة الملك .

أما في إنجلترا فإن الموقف كان مختلف عن ذلك كثيراً . ذلك أن الربع الأول من القرن الرابع عشر كان يمثل ضعف السيادة الملكية . ويمكننا أن نرجع ذلك إلى عصر الملك إدوارد الأول ، الذي نجح في القضاء على ثورة كانت قد نشبت في بلاد ويلز ، ثم استخدم كل قوته من أجل غزو اسكتلندا ، الأمر الذي أنهك قواه ، وكانت محدودة . وكانت هناك بعض حقوق سيادة لملك إنجلترا على ملك اسكتلندا ، فاستغل الإنجليز ذلك إلى أقصى درجة . وأخذوا يوجهون الارشادات إلى الاسكتلنديين ، الذين قاموا بدورهم بالتحالف مع فرنسا ، فأدى ذلك إلى تصميم الإنجليز على استخدام القوة لمعاقتهم . وكانت الحملة سهلة وكأنها نزهة حربية ، وعين الملك أحد الأوصياء على عرش اسكتلندا ، وفرض عليهم إدارة انجليزية . وكان هذا الغزو سهلاً ، ولمكنه كان ضعيفاً ، وبمجرد عودة الملك إلى إنجلترا نشبت الثورة في اسكتلندا ، وطرده الإنجليز ، فاضطر الملك إلى إرسال قوات جديدة . وطوال مدة ستة سنين ، كانت همه الملك إدوارد متجهة صوب الشمال ، وكان يضطر إلى إرسال حملة كل سنة . ولقد كلف ذلك إنجلترا الكثير ، من قواتها ، وهيبتها وعيالاتها . فاضطرت الملكية الإنجليزية كذلك إلى أن تطلب معونات مالية تواجه بها حالة الخزانة . ورفض رجال الدين دفع المعونات ثم ثار البارونات ، ورفضوا الخروج للحرب خارج بلادهم ما لم يكن الملك مع الحملة ، ثم انضم أهالي لندن إلى الحركة ، وأدى ذلك إلى تراجع الملك ، ثلاث مرات ، وإلى أن يؤكد رسمياً شروط العهد الأعظم ، مع اضافته إليه مواد جديدة ، تتعلق بالإشراف على الضرائب . وأصبح برلمان لندن كثير الانعقاد ، وكثر فيه اجتماع العامة ، واستخدامهم البارونات كسلاح يعارضون به الملك .

وجاء إدوارد الثاني إلى الحكم سنة (١٣٠٧ - ١٣١٧) ، وكان ملكاً ضعيفاً الأمر الذي كان يغري النبلاء على الكسب على حسابه ، وبخاصة بعد أن تخلص من مستشاري والده ، وكانت الخزانة خاوية بعد حروب اسكتلندا . وحصل

البارونات في أول الأمر على بعض المكاسب ، ولكن ادوارد الثاني التجهأ إلى الشمال ؛ وساعده جيوش اسكتلندا على هزيمة قوات الاقطاعيين الانجليز ، ثم انقلب الموقف رأساً على عقب ، وضاعت مكاسب ادوارد الأول ، وسادت الفوضى البلاد . وعمل النبلاء على التجمع سوياً ، لفرض أنفسهم على الملك ، ونجحوا في ذلك لبعض الوقت ؛ ولكنهم انقسموا على أنفسهم ، وانتهر الملك ادوارد الثاني ذلك لكي ينضم إلى إحدى المجموعتين ، عند المجموعة الثانية . واستمر الصراع بين النبلاء وادوارد الثاني من سنة ١٣١١ ، إلى أن قبض عليه وتنازل عن العرش و قتل سنة ١٣٢٧ . وحتى هنا ، لم يكن هذا الحدث في صالح النبلاء ، وكان على حساب النظام الملكي ؛ ذلك أن البرلمان كان قد ازداد أهمية ، نتيجة لالتجاء كل من الملك والنبلاء إليه ؛ وكان يمثل العامة يحضرون ؛ ويزداد دورهم السياسي أهمية باستمرار . وكانت إنجلترا في حاجة إلى ملك قوى ، يمكنه أن يروض الاستعراطية ، ويدفعها إلى حرب خارجية ؛ ووجد النظام الاقطاعي سيداً له في شخص الملك ادوارد الثالث .

ولقد سارت كل من فرنسا وإنجلترا صوب حرب لم يكن أحد يعرف أنها ستمتد إلى فترة مائة عام . وكانت أصول هذه الحرب ترجع إلى منتصف القرن الثالث عشر ، وإلى العلاقة بين الملك لوى التاسع والملك هنرى الثالث ؛ وكان الملك لإنجلترا ، رغم وجوده في جزييرته ، يعتبر تابعاً لملك فرنسا . وكان ملك إنجلترا يرغب في التخلص من هذه التبعية ، ولكن الفقهاء والمشرعين المحيطين بملك فرنسا أفادوا من عدم الوضوح في المعاهدة المعقودة ، لكي يمدوا سلطنة ملكهم على حساب ملك إنجلترا ، وبخاصة فيما يتعلق بممتلكاته على القارة . وفشلت محاولات تطوير المعاهدة . واستولى ملك فرنسا على بعض هذه الممتلكات ، ولم يواجه الملك ادوارد الأول علناً ، بل حول أنظاره صوب الفلاندر ، كما تدخل البابا في الموضوع وعقد الصلح ، وتزوج من سيصبح ادوارد الثاني ايزابيلا

أميرة فرنسا . وعادت المسألة في شكل أزمة بعد قتل أدوارد الثاني سنة ١٣٣٧ ، ومصادرة ملك فرنسا لقطاعه من جديد .

أما فيما يتعلق بمسألة الفلاندر ، فنعرف أن إنجلترا كانت بلداً تربي الأغنام في ذلك الوقت ، وكانت تعيش قبل كل شيء على تصدير الصوف ، وكانت تحتاج بالتالي إلى أن تجد سوقاً خراً في الفلاندر ، بلاد صناعة الأنسجة . ورغم أن الفلاندر كانت منطقة نفوذ إقطاعي للملك فرنسا ، إلا أنها كانت مستقلة تقريباً . ولكن فيليب الجميل عمل على تدعيم سيطرته عليها ، واحتل مدنها ، وتدخل في شؤون الكونت سلهدا ، حتى في مسألة زواج أبنائه . وشعرت إنجلترا أن وجودها الاقتصادي أصبح مهدداً بطريقة مباشرة ، فكان من الطبيعي أن تقوم بحركة رد فعل أمام هذا المشروع الفرنسي . كما أن الكونت صاحب الفلاندر رفض طريقة معاملة الفرنسيين له ، فتحالف مع الإنجليز . وانتهر ملك فرنسا ذلك ، واحتل الفلاندر ، وصادر هذه الكونتية . وسامت حالة صناعة الأنسجة في الفلاندر ، ونشبت الثورة في بروج ، ثم تبعتها البلدان الأخرى ، وتمكن الشوار من انزال بعض الهزائم بالفرسان الفرنسيين . وحاول ملوك فرنسا الاستناد إلى السكونت معه الأرستقراطية ، ولكن البورجوازيين في المدن كانوا أكثر قوة من رغبة الأمير . وهكذا أصبحت إنجلترا مهددة بفقد مناطق إنتاج العنب والفييذ على الفارة ، وكذلك مناطق تصدير الصوف ، فاضطرت إلى أن تقوم بالهجوم . وكان من الممكن أن يقع الصدام قبل ذلك ، إذا لم يكن أدوارد الثالث مشغولاً بمشكلات اسكتلندا . ولقد حاول البابوات التوفيق بين ملكي فرنسا وإنجلترا بأى ثمن ، حتى يوجهانها إلى القيام بحملة صليبية ضد الإمبراطور المغشق ، لوى ملك بافاريا . ومنذ سنة ١٣٣٠ إلى سنة ١٣٣٦ انشغل ملك فرنسا بأعداد هذه الحملة ، ولم يكن يعتقد في صدق عزيمة الإنجليز على مهاجمته .

ومجس من الجانب الآخر أن إدوارد الثالث قصد عمل على عزل فرنسا

دبلوماسياً ، وضمن كثيراً من الحلفاء ، وفكر حتى في أن يستخدم حلفاء في الهجوم على فرنسا ؛ ثم انضم في سنة ١٣٣٨ إلى لوى صاحب بافاريا ، وذهب إلى كولونيا ، وحصل من الامبراطور على لقب راعي الامبراطورية . وكان هذا العمل الأخير يدل على طموح ادوارد الثالث ، وأرهب البابوية ، وكان السبب المباشر للحرب . وكان ضعف ملك فرنسا سبباً كذلك في نشوب الحرب ، فكان يحب البذخ والمجد ، ويعلم بالحملات البعيدة ، وكان بلاطه مكان التقاء كبار الاقطاعيين الذين يفضلون الحملات الكبيرة ، وان كان هو نفسه لا يتمتع بمحمية النبلاء ، وترك الموظفين يحكمون البلاد . ولم تكن مالهته مستقرة ، وكانت إيراداته تكفى بالكاد لمعيشته وقت السلم ؛ فكان مضطراً مع إعلان الحرب إلى استخدام المالية الاستثنائية ، فاستخدم العشور التي كانت البابوية قد سمحت بها من أجل الحملات الصليبية ، وطالب مجالس طبقات الأمة في الأقاليم بارسال المعونات ، واستدان من النبلاء والمساكين ، ورجال الدين ، وحتى من ضباطه ؛ وغير من قيمة العملة ؛ ورغم كل ذلك فقد ظل دائماً يحتاج للتقود . وكان عاجزاً عن إنشاء جيش نظامي ، وأكتفى بأن طلب إلى السادة الاقطاعيين المجيء مع رجالهم والخدمة مدة أربعين يوماً ؛ أما ببقية جيشه فكان يتكون من الفرسان الذين يتقاضون خصصات كبيرة ، وكانوا من كل البلاد ، وغير منظمين ، ويفكرون في الأسلاب ، دون أن يفكروا في ضرورات الحرب الحديثة .

أما ادوارد الثالث ملك إنجلترا ، فإنه كان واقعياً ، ويعرف الهدف الذي كان يرغب في الوصول اليه ، ولكنه كان يوفى بين هذا الهدف وبين الحقائق السياسية ، وتمكن من يجمع السادة الاقطاعيين حوله . وإذا كان قد فشل في فرض سيطرته على اسكتلندا ، إلا أنه كان يحكم بلداً يحب النظام ، رغم قلة سكانها . وكانت إنجلترا بلداً زراعية ، وكانت تعتمد من أجل تجارتها . وصناعتها على التجار الأجانب ، وعلى الصناع الفلمنكيين ؛ ولذلك فإن ادوارد كان يضمن لها الاستقلال الاقتصادي والسيطرة على البحار . وأعطى دفعة قوية

للتجارة ، كما بدأ في توطين صناعة المنسوجات في بريستول سنة ١٣٣٩ ، ووضع نظاماً لمراقبة سواحل إنجلترا بإسطول حربي . وكانت أهم أعمال إدوارد الثالث هو لإنشائه جيشاً على أسس جديدة ، وكانت حملات ويلز واسكتلندا قد أعطت الانجليز حب الحرب ؛ وعمل الملك على تنظيمهم في جيش مهم ، ووضع لهذا الجيش نظام دقيق ، وأجبر الأرستقراطية على تعلم فنون الحرب ، وتعلم اللغة الفرنسية ، كما أجبر الأهل على التمرن على اطلاق السهام . وجعل الخدمة العسكرية اجبارية من سن السادسة عشر حتى الستين ، لكل رعايا الملك ؛ وأصبح مندوبي الملك يختارون الرجال للخدمة العسكرية ، وأصبح على كل رجل يزيد سنه عن عشرين جنسياً أن يتسلح ، ويتزود بفرس على حسابه ؛ أما الفقراء فكانوا يعملون في المشاة التي ستصبح القوة الرئيسية للجيش الانجليزي ، وتثبت تفوقها على الفرسان عديمي الخبرة ، وغير المنظمين ، والذي كان ملك فرنسا قد جمعهم . وكان ضاربو السهام يمثلون سلاحاً متفوقاً ، وكانت أسهمهم تصل إلى ٣٥٠ متراً ، وتمنع بالتالي هجمات الفرسان ، وتقتل الخيل وتحمي المشاة . وكانت هناك فرقة حملة الرماح التي كان أفرادها يصيبون الأعداء رغم لبسهم الدروع ؛ وأخيراً فقد استخدم إدوارد الثالث سلاحاً جديداً ، وهو المدفعية ؛ ولاشك في أن مدافعه كانت تخيف أكثر من أنها كانت تدمر ، وكانت تؤثر على الروح المعنوية للمحاربين . وهكذا نجد أن مملكة إنجلترا ، رغم كون مواردها محدودة ، قد بدت أكثر استعداداً للحروب من مملكة فرنسا ، التي ستكون ثرواتها ، وسلطاتها القوية بدون نفع كبير لها في المعركة . وسيكون الانتصار الانجليزي سهلاً .

٣ - الهزائم الفرنسية ونتائجها :

كان إدوارد الثالث قد أصبح مستعداً لخوض الحرب عند صيف سنة ٣٣٩ ، وجمع جيشاً في بروكسل ، ولكن الأموال كانت تنقصه ، وربما كان يربح الموقف ، فلم يشترك في معركة . وكانت أول حملة في الحرب بدون قيمة كبيرة

لأنجلترا ، ولكن ادوارد تمكن في السنوات التالية ، وقبل أن يوجه ضربه
الكبيرة ، من أن يكمل المحاصرة الدبلوماسية لفرنسا ، ويمنع الخصم من القيام
بهجوم . وكان يرغب في الحصول على أصدقاء على ساحل فرنسا ، يساهمون لقواته
أمر النزول ؛ ويرغب كذلك في ضمان السيطرة على البحر . وكانت الأوضاع
الموجودة في الفلاندر وبريتاني ، والهيّاج الموجود في نورمانديا يسمح له بالحصول
للمدف الأول ، وأكملت المعركة الباقي . ولقد تمكن ادوارد الثالث من أن يستغل
الأوضاع الاقتصادية السيئة في إقليم الفلاندر ، والنتيجة عن منع إستيراد الصوف
الانجليزي إليها ، ومنع تصدير المنسوجات منها ، وإشتداد أزمة البطالة ، ووقوف
الاهالي ضد النبلاء في ثورة معلنة وبخاصة في جاندا ، ووجود مشروع لإتحاد بين
البلديات مع الدول المجاورة ، من أجل الدفاع عن مصالح التجارة . ووعد ادوارد
الثالث البرلمان الذي انعقد في هذه المدينة سنة ١٣٤١ بالمعونة وبعض الامتيازات .
ولمستند الانجليز إلى تحالفهم مع الفلمنكيين ، وعملوا على تحطيم الاسطول
الفرنسي الذي كان ملوك فرنسا قد اتفقوا سنوات عديدة في جمعه ، وذلك في نفس
السنة ، وفي معركة قاد فيها إدوارد الثالث الاسطول الانجليزي بنفسه وقضى
فيها ، في بضع ساعات ، على الاسطول الفرنسي . ولولا اضطراب الملك إلى العودة
سريعا لمواجهة مشكلات داخلية في إنجلترا لكان لهذه المعركة البحرية أبعاد أكبر .
وكانت هناك حرب أهلية في بريتاني ، على الدوقية ، وسرعان ما تدخل فيها
ادوارد الثالث سنة ١٣٤٢ ؛ وأخذ جانب ضد جانب ، الأمر الذي أنشأ له ركائز
هامة في شمال فرنسا .

وبدأت الحرب كذلك في نورمانديا ، نتيجة لقصر نظر ملك فرنسا . سنة
١٣٤٥ . وفي الوقت الذي كان فيه ابن ملك فرنسا مشغولا في تأكيد سلطته على
بعض المدن ، بذل الملك ادوارد الثالث مجهوداً عسكرياً ضخماً . ونزل في البلاد
شهر يوليو سنة ١٣٤٦ ، وكانت بدون دفاع ؛ فتقدم الجيش الانجليزي ؛ وأحرق

كل ما واجهه ، حتى اضطر فيليب السادس ، مع جيش من الفرسان ، إلى الخروج شمالاً لمقابلته . وتحصن الجيش الانجليزي عند كريزي ، ولحقه الجيش الفرنسي يوم ٢٦ أغسطس ، ودخل إلى المعركة دون أن يستريح . وتحطمت هجمات الفرسان أم السهام الانجليزية ؛ وكانت مجزرة . وهزم رجال الاقطاع الفرنسيين تلك الهزيمة التي أدت تحطيمهم . وفر فيليب السادس ، وترك الجيش الانجليزي يطارده حتى أمام كاليه . وبعد عام ، تمكنت فرنسا من تكوين جيش لانقاذ هذه المدينة ، ولكنه لم يصل إلى نتيجة ؛ ذلك أن كاليه سلمت في أغسطس سنة ١٣٤٧ . وظهر انتصار ادوارد الثالث سيئاً وقع على الهدنة في شهر سبتمبر ، وكان قد حطم هيبة خصمه ، وجعل كاليه مكاناً انجليزياً ، ونقطة نزول ، ستظل لفترة ثلاثة قرون تثير قلق باريس ، وقلق الملك ، ولكن علينا أن نذكر أنه كان لا يزال هناك أمر غزو فرنسا .

وتوفي فيليب السادس سنة ١٣٥٠ . وكان خليفته سريع التقلب ، وفكر في أشياء كثيرة قبل أن يفكر في الخطر الانجليزي . ونتيجته لفشل المفاوضات مع الانجليز في سنة ١٣٥٥ أصبحت الحرب حتمية .

وهذه المرة وصل الغزاة من الجنوب ؛ فترك ولي عهد انجلترا بوردو ، على رأس جيش قوى ، واتجه صوب الشمال ، وفكر في أن يلتقي مع دوق لانكستر الذي كان قد نزل في نورمانديا وفي شهر سبتمبر سنة ١٣٥٦ وصل الأمير الأسود إلى نهر اللوار . وجمع ملك فرنسا جيشاً ضخماً ، وهجم به بسرعة على الجيش الانجليزي ، وهو متحصن ، ومرة جديدة هزم رجال الاقطاع الفرنسيون ، للمرة الثانية . ولكن هذه المرة أخذ الانجليز ملك فرنسا أسيراً ، فجاءت الكارثة السياسية لكي تزيد من ثقل الكارثة العسكرية .

وهكذا وجدت فرنسا نفسها بعد معركة بواتييه بدون ملك ، وبدون جيش ؛ وبدون حكومة . ووقعت مسؤولية السلطة على شاب له عشرين عاماً ، وهو الأمير

شارل ، الذى لم يكن قد تدرب بعد على شؤون الحكم ، وكان منذ وقت طويل فى دوقيته فى نورمانديا ، وكانت أزمة كبيرة للمملكة الفرنسية . وكانت الخزائن خاوية ، والأمن مضطرباً فى البلاد ، والتجارة مهددة . وكانت قيمة الجنيه قد انخفضت من ١٨ إلى ٤ فرنكات ذهب تقريباً ثم سقطت إلى ١،٧٣ / من الفرنك الذهب ؛ إنه انهيار اقتصادى ، كما تنشر الطاعون فى كل الأقاليم المجاورة لميادين المارك ، وقل عدد الصناع ، وطالب كل من بقى منهم على الحياة بأجور مرتفعة . وجاءت قلة الإنتاج لى تزيد من حدة البؤس وعدم الأمن وانتشار الجرائم ، وسيادة الفوضى . وكانت بحال طبقات الأمة قد قررت ، قبل المعركة ، وقف المعونات ، وأخذت تطالب بعدها بضرورة إجراء تطهير داخل الحكومة . وعجز الرضى على العرش عن مواجهة الهياج ؛ وحين نخرج الملك من الأسر كانت سلطته غير موجودة ؛ فكان البرجوازيون ورجال الشعب فى باريس فى ثورة معلنة ، وكانوا يطالبون بالاستيلاء على أسلحة وخزائن المملكة . وكان غيرهم قد أخذ فى مهاجمة قصور النبلاء وفى الاستيلاء على ما فيها ، وخاصة بعد أن انضم الفلاحين إلى الثورة . وكان الإنجليز يدخلون باريس ، لولا أن قامت الجماهير بقتل هذه الحركة ، ودعت الملك لدخولها . وساعد ذلك على نشوء شعور قومى فى باريس لامتد منها صوب الأقاليم المحيطة ، خاصة وأن جماعات الإنجليز كانت تهاجم هذا المكان أو ذاك ، الأمر الذى أدى كذلك إلى قيام الفلاحين بعمليات مقاومة محلية ؛ وساعد كل ذلك على ظهور روح وطنى .

وكان الإنجليز قد طالبوا ملك فرنسا بدفع فدية كبيرة ، مع التنازل عن عدد ضخم من المقاطعات . ولكن هذا الاتفاق لم ينفذ . ثم زادت مطالب الإنجليز بعد ذلك ، فطالبوا بأربعة ملايين من الجنيهات الذهبية ، ونصف مملكة فرنسا ، ولكن الرأى العام الفرنسى كان يفضل الحرب . وفى أكتوبر سنة ١٣٥٩ حضر إدوارد الثالث إلى كاليه ، ووصل فى العام التالى إلى قرب شارتر ، وأنقص من

مطالبه بعض الشيء ؛ فتم الاتفاق على ذلك في ٢٤ أكتوبر سنة ١٣٦٠ في معاهدة كاليه . وحصلت بريطانيا بمقتضى هذه المعاهدة على كل شمال غرب فرنسا ، مع كل المنطقة التي كان الإنجليز قد احتلوها ، والتي تمتد من بوردو وجبال البرانس إلى الهضبة الوسطى والمحيط ، في شكل كتلة واحدة ، هذا علاوة على كاليه في الشمال . كما انفقوا على دفع ثلاثة ملايين جنيه من الذهب ، وعلى تسليم بعض المواقع الحصينة ، وإثنين من أبناء ملك فرنسا ، وأخوه ، وسبعة وثلاثين أميراً أو باروناً أو من ممثلي المدن . وهكذا سوت إنجلترا المشكلة لصالحها ، وكانت معاهدة كاليه عبئاً ثقيلاً على كاهل فرنسا . وفرضت ضرائب باهظة لجمع الغرامة والغدية . وحتى سنة ١٣٦٤ كان الملك قد عجز عن دفع أفساط الغرامة ، وكان قد هل الحرب ، فعاد إلى إنجلترا سجيناً حيث مات .

وتولى العرش بعد ذلك الملك شارل الخامس ، الذي تميز بحكمته ، وعمل على تخفيف عبء الاحتلال واتساعه ، وكذلك تخفيف عبء الغرامة العسكرية ، وعلى فك أسر العديد من الأسرى . فبدأت العلاقات الفرنسية الإنجليزية إلى حد بعيد . وعمل شارل الخامس على النهوض بفرنسا ، وعلى تدعيم سلطته في المنطقة الباريسية . وعمل على تخليص البلاد من خطر العصابات التي كانت قد ملأت فرنسا أثناء الحرب . كما عمل على إخراج فرنسا من العزلة السياسية التي كانت قد وصلت إليها . وأصبح كل شيء معداً للحرب ضد إنجلترا من جديد ، خاصة وأن ولي عهد إنجلترا كان يشير الأمل إلى نتيجة لما كان يفرضه عليهم من ضرائب ، فالتجأوا إلى ملك فرنسا . وتجمع سادة المدن ، نتيجة لدبلوماسية حكيمة ، وجمعوا حولهم عدداً كبيراً من المحتجين . واستند شارل الخامس إلى أنه لم يتنازل عن حقوق السيادة في الوقت المنصوص عليه في معاهدة كاليه ، وبحسب الأمر أمام البرلمان في شهر ديسمبر سنة ١٣٦٨ ، ولم يعد أمام الإنجليز إلا الحرب .

وبجهد الإنجليز نفس التكتيك الذي كانوا قد استخدموه : النزول المفاجيء

في فرنسا ، والتقدم وتخريب المناطق السهلة ، وإهمال المناطق الحصينة التي كانت ستوقهم ؛ وحاولوا مقابلة جيش فرنسي أقل منهم عدداً وعدة ، ولكن هذه المرة وجدوا أنفسهم أمام خصم له تجارب ؛ وترك شارل الخامس الانجليز يتقدمون ، واستدرجهم حتى يستنفذ مواردهم . واستمرت هذه الخطة من سنة ١٣٦٩ حتى سنة ١٣٧٣ ، دون أن يتمكن الانجليز من الحصول على نتائج ثابتة .

وفي أثناء ذلك الوقت أخذت القوات الفرنسية تغزو الممتلكات الإنجليزية ، جزءاً بعد جزء ، وتزيد مكاسبها يوماً بعد يوم ، وبشكل أتقن الممتلكات الانجليزية سنة ١٣٨٠ إلى مجرد مناطق بوردو ، وبايرون ، أما في الشمال فلم يبق لهم سوى كاليه . وتم عقد سلسلة من إتفاقيات الهدنة بين الطرفين ، ابتداء من سنة ١٣٧٥ .

ومن هذا المجهود الطويل خرجت المملكة بهيبة متزايدة ، والدليل على ذلك هو زيادة الإمبراطور شارل الرابع لفرنسا سنة ١٣٧٧ - ١٣٧٨ . وتمكن شارل الخامس إلى حد كبير من إعادة بناء قواته المسلحة، وتحالف مع قشتالة؛ الأمر الذي ساعده على بناء أسطول قوى ، لا تنزع من الانجليز سيادتهم البحرية ، وهدد أمن الجزر البريطانية . ولكن ملك فرنسا ظل في حاجة إلى الأموال ، فاضطر إلى الاستمرار في جمع الضرائب ، وإن كان يعرض ذلك على مجالس الأعيان ، ولكنه لم يتم أحد سادة بريتانى بالتحالف مع الانجليز ، فسمح ذلك للانجليز بالحصول على ميناء برست كقاعدة لهم ، علاوة على كاليه وشربورج وبوردو وبايرون . ومن ناحية أخرى نجد أن إنجلترا نفسها قد أنهكت في تلك الحرب الطويلة ، التي كانت تقوم بها خارج بلادها . وكانت الإيرادات قد قلت ، وكذلك قيمة العملة ، واضطر إدوارد إلى عقد القروض . وبعد الاستيلاء على كاليه بدا أن التجارة ستزهر ، ولكن سرعان ما انتشر الطاعون الذي خفض عدد الأهالي . وتزايدت أسعار المعيشة بشكل واضح ، وهجر الأهالي حقولهم ، واضطرب

الإقتصاد الزراعى ، كما اضطربت التجارة . وكانت أهم الموارد للخزانة الملكية هى الضريبة التى وافق عليها البرلمان ، على تصدير الصوف ؛ فأنشأ سوقاً واحداً يخضع للإشراف الضرائب ، وتجمع فيه الضرائب . وترددوا بين جعل هذا السوق فى إنجلترا أو فى الخارج ، وبعد محاولة فاشلة فى بروج أنشئ هذا السوق فى كاليه سنة ١٣٦٣ . وتوفى إدوارد الثالث سنة ١٣٧٧ ، وترك التاج لابن أمير ويلز ، ريتشارد الثانى ؛ وهو الذى سيحكم وسط تعقيدات سياسية ودينية ؛ وجموعات مالية ؛ وصدامات بين أطماع أبناء الملك السابق . وهكذا ستكون إنجلترا ، بصراعاتها الداخلية ، عاجزة عن مواصلة الحرب .

٣ - الفوضى فى فرنسا ووصول لانكستر إلى الحكم فى إنجلترا :

عادت الحرب التى كانت قد سببت الكثير من الخسائر بين فرنسا وإنجلترا فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر مرة جديدة ، فى النصف الأول من القرن الخامس عشر . وفى فرنسا ، حاول الملك شارل الخامس أن يعيد تنظيم شئون المملكة ، وبذل فى ذلك مجهودات ، إلا أن موته المفاجئ ، ووصول ابنه شارل السادس الضعيف إلى العرش ، كان يعنى بداية عصر من الفوضى ، أكثر طويلاً ، وأشد خطورة من غيره . وفى ذلك الوقت كانت هناك بالفلبسبة لإنجلترا أسرة جديدة ، هى أسرة لانكستر ، كانت تستعد للوصول إلى العرش ، وتعيد تنفيذ خطط الغزو الأجنبى الذى كان إدوارد الثالث قد بدأها .

وكان شارل الخامس قد حاول أن يضع نظاماً لولاية العرش ، يتلخص فى وضع ابنه تحت وصاية أعمامه ، فى نفس الوقت الذى توكل فيه السلطة الفعلية إلى أيدي مجلس يتكون من كبار مستشارى المملكة . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ؛ وبعد فترة قصيرة من الوصاية ، أسرع أعمام الملك شارل السادس بإبعاد وزراء العهد السابق ، ثم إقتسموا السلطة فيما بينهم ، وكل لمصلحته الشخصية . وكان أحدهم يهتم بشئون نابلى ، والثانى يهتم بشئون برجنديا ، والثالث يهتم بشئون

الفلاندر . وفي خلال ذلك الوقت ، أهملت شئون ملكة فرنسا نفسها ، ونشبت فيما
سلسلة من الحركات الشعبية ، نتيجة للفقر ، والصعوبات الاقتصادية . وارتفاع
الضرائب . وخرجت فيها جوع الأهالي في باريس نفعها ، وأستولت على مبنى
البلدية ، وطردت جامعي الضرائب ، وموظفي الملك ، وفتحت السجون ، ونهبت
دار المحفوظات . وشهدت مدن الشمال ، وبخاصة روان ، حركات مماثلة .
وتظاهرت الحكومة في أول الأمر بأنها قد نفضت أيديها من مشكلات
الفلاندر ، حتى تتمكن بعد ذلك من القسوة على الأهالي . ثم أخذت في إلقاء القبض
على الكثير من البرجوازيين ، رغم أنهم كانوا قد عملوا على تهدئة الحركات الشعبية ؛
ثم قامت بإعدام الكثير من بينهم ، وألغت الكثير من حقوق التجار . وحدث
ذلك في باريس ؛ كما حدث في روان . واضطرت مدن كثيرة إلى دفع فديات
ضخمة لإنقاذ نفسها ؛ فقلت حدة فراغ الخزانة الملكية ، ولكن الضغط الذي بذل
لجمع الضرائب دفع بالكثير من البرجوازيين لكي يبدأوا في كراهية النظام الملكي ،
بعد أن كانوا من دعائمه الرئيسية .

وبعد أن بلغ شارل السادس سن الرشد ، سنة ١٣٨٨ . عمل على التخلص من
سيطرة أعمامه ، وأعاد مستشاري والده إلى السلطة . وصدرت مراسيم ملكية
جديدة في السنة التالية لتنظيم إدارات الحكومة ، والبرلمان ، وإدارات الضرائب ؛
وكذلك النظام الإداري العام ، ولكن الملك اصطدم بعقبات كثيرة ، وكان ضعيفاً ،
وترك المحيطين به يسيرونه ، وأنفق أموالاً كثيرة على الإحتفالات . وزاد نفوذ
أخيه ، الأصغر عليه ، وكان في حاجة دائمة إلى المال ، وله مشروعات للتوسع في
إيطاليا سنة ١٣٩١ ، وهكذا كانت الحكومة غير مستقرة ، ومضطرة إلى زيادة
الضرائب ، ولتغيير قيمة العملة ، فأثارت ضدها الأمراء والعامة .

وساءت مهمة شارل السادس ، وأصابته أزمة جنون أثرت على سلوكه تأثيراً
واضحاً ، وجعلته عاجزاً لفترات طويلة عن ممارسة الحكم . ومنذ سنة ١٣٩٢ عاد

أعمامهم إلى ممارسة الوصاية عليه ، وتخلصوا من المستشارين الملكيين وعادت
إتجاهاتهم الخارجية إلى الظهور من جديد ، وعملوا على تنفيذها على حساب فرنسا .
وأدت هذه المشروعات الخارجية إلى منافسات حادة فيما بينهم ، كما حدث بين دوق
برجنديا ودوق أورليان بشأن السيطرة على جنوة التي ضمها لهم من سنة ١٣٩٦
إلى سنة ١٤٠٩ . وستزيد خطورة هذه المنافسة في السنوات التالية ، نتيجة لرغبة
كل من الأميين ، رغم ثرواتهم الطائلة ، وفي الإستيلاء على موارد الخزائنة
الملكية . وكان هذا الأمر يؤدي بالتالي إلى صراع من أجل السلطة ، ظهر واضحاً
في إتجاه كل مجموعة ، ومحاولتها تسيير المملكة على خط معين ، يتجاوب أو
يتعارض مع مصالحة البابوية ، أو مصالح الملوك والأمراء الآخرين . وتمكن دوق
برجنديا من قتل دوق أورليان سنة ١٤٠٧ ، ولكن ذلك لم يقضى على العداوات
الموجودة بين حزبيهما ، بل أدى على العكس من ذلك إلى نشوب حرب بينهما ،
للتأثر والانتقام ، مارسوا فيها الكثير من القسوة والتخريب . وعجز الملك عن
التوفيق بينهما ؛ واستعان كل منهما بالانجليز ، فظهرت المملكة منقسمة
على نفسها .

وزاد حقن الطبقات الشعبية ، وبدأ صغار التجار ، ومنهم الجزائريين في باريس ،
في تنظيم أنفسهم . وظهر عدم الرضا عند كبار الجورجوازيين ، واجتمعوا في
مجلس طبقات الأمة في باريس سنة ١٤١٣ ، وطالبوا بإدخال الإصلاحات على
الإدارات الملكية . وهبت جماهير باريس من جديد وأحتلت دار البلدية ،
وأسامت معاملة كبار الضباط غير الشعبيين . وأصبح الأمراء بلاسلطة ، واضطر
دوق برجنديا إلى أن يتجاوب مع أماني الجماهير ، وأصدر الأوامر بمد الحقوق
الإنتخابية ؛ ولكن هذا التساهل أدى إلى زيادة المطالب ، خاصة وان بعضها جاء
من جامعة باريس نفسها . وظل الموقف سيئاً حتى سنة ١٤١٣ ، حيث قام
الانجليز بغزوة جديدة ضد فرنسا ،

أما بالنسبة لإنجلترا ، فإنها قد اجتازت ، هي الأخرى ، فترة أزمت داخلية ، اضطرتها إلى التراجع عن أن تتمكن من القيام بهجوم جديد على القارة ، وعند موت الملك إدوارد الثالث سنة ١٣٧٧ إنتقل التاج إلى طفل له من العمر إحدى عشرة سنة ، هو ريتشارد الثاني . وكما حدث في فرنسا ، قام أعمام الملك ، وعلى رأسهم دوق لانكستر ، بالاستيلاء على السلطة . وكانت ذكرى السنوات الأخيرة قد جعلت لانكستر غير محبوب ، كما أن المجنحوات العسكرية الأخيرة كان قد ثبت عدم جدواها . وكان الأسطول قد تحطم ، وأصبحت البلاد بدون وسائل دفاع . كما أصبحت الحالة المالية خطيرة ، الأمر الذي تطلب فرض ضرائب جديدة وقع عبئها على طبقة الفلاحين ، وكان هذا نذيراً بعاصفة مقبلة .

وكانت حالة الفلاحين في إنجلترا قد ازدادت سوءاً منذ أواسط القرن الرابع عشر ، نتيجة لارتفاع أسعار المعيشة ، وتحديد الأجور ، والتشدد في تطبيق قوانين العمل . مما أدى إلى زيادة الحقد ضد كبار الملاك ، ومنهم رجال الدين ، وكذلك ضد موظفي الحكومة والقضاة ، الذين كانوا يؤيدون دائماً مصالح الطبقات المالكة ، وكذلك ضد التجار الأجانب الذين ازدهرت تجارتهم ، وبالطبع ضد الحكومة التي عجزت عن إنقاذ الضعفاء . وأدى ذلك إلى قيام حركات مضادة من الفلاحين ، هاجموا فيها المدن ، وقتلوا عدداً من التجار الأجانب ، كما هاجموا بعض قصور الأمراء ، وقصور بعض الوزراء . وأخذ الملك موقفاً متشدداً ضد الشوار ، ثم قام النبلاء بتعقيبهم ، بمنتهى الشدة ، وكانت ثورة سنة ١٣٨١ أشد عنفاً من أي ثورة وقعت في فرنسا وفي الفلاندر في ذلك الوقت .

وأظهر دوق لانكستر عزوفاً عن السياسة الداخلية ، وفي ذلك الوقت الذي أظهر فيه الملك ريتشارد الثاني إستقلالاً ، وجمع حوله الكثير من المستشارين الذين سيطروا عليه بدورهم . وتجمع الأمراء والنبلاء حول أحد أعمام الملك ، وهو دوق جلوسستر . وسيطروا على البرلمان منذ سنة ١٣٨٥ . وظهر أن ريتشارد

الثاني يرغب في الاستمرار في مقاومة البرلمان ، فاتخذ قرارات هامة ضد أعوانه ومستشاريه سنة ١٣٨٨ ؛ منها أحكام الإعدام والآخرى بالنفي ، وأظهر ريتشارد الثاني رغبته في أن يحكم بنفسه ، ويتلخص من المحيطين به ، ولكنه عمل سراً على إعادة تجميعهم حوله من جديد . ولكي يسيطر الملك على الداخل ، حاول أن يحصل على السلم في الخارج ، وخاصة مع فرنسا ؛ واستعان في ذلك بدوق لانكستر . وفي شهر أكتوبر سنة ١٣٩٦ ذهب ريتشارد الثاني إلى فرنسا وتزوج ابنة شارل السادس ، وعقد معه هدنة لمدة ثلاثين عاماً . وكان ريتشارد قد حصل على إعلان رؤساء الثورة الإيرلنديين الخضوع له ، ورفع النقاب عن منخططاته . وإدعى وجود مؤامرة ، وقد بعث الأوامر للمحاكمة أمام البرلمان ، وحرّمهم من حق إستئناف الحكم . ووزع الألقاب ومناطق النفوذ على أعضاء حاشيته ، ولكنه كان في حاجة إلى الضرائب التي تجمع من المدن وسرعان ما تجمع الأوامر غير الراضين عنه ضده ؛ وحيث وجد ابن دوق لانكستر أنه مهدد في شخصه وفي أملاكه ، فر إلى أيرلندا ، وانتهر فرصة وجود ريتشارد الثاني في أيرلندا ، وعاد إلى إنجلترا على رأس قوة صغيرة ، تمكن بها من هزيمة أعوان ريتشارد ؛ ثم أسره حين عاد بسرعة من أيرلندا ، وأجبره في شهر سبتمبر سنة ١٣٩٩ على التنازل عن الملك ؛ وفي انتظار التخلص منه قتيلاً بعد بضعة أشهر ، أوج نفسه ملكاً على إنجلترا ، باسم هنري الرابع ، وحصل من البرلمان على اعتراف بذلك .

كان هنري الرابع عملياً وحكماً ، وعمل ببطء ، وخاصة وأنه كان يرغب في تغيير سياسة سلفه . وأظهر أنه في صف رجال الدين وأنه يعمل ضد السياسة الموالية لفرنسا ، والتي كان ريتشارد قد سار عليها ، ومع ذلك فقد احتفظ بالهدنة مع فرنسا ، إذ كان عليه أن يقوم بالكثير في إنجلترا نفسها ، من أجل تدعيم سلطته قبل أن يواجه فرنسا من جديد .

ولقد حاول بعض أنصار ريتشارد الثاني القيام بثورة ضده ، ولكنه قضى

عليهم بكل عنف . وكانت الحرب قد نشبت من جديد مع إسكتلندا ، ولكن حظ هنري الرابع خدمة حين تمكن من أسر ملكها الشاب جاك الثالث ، وإحتفظ به رهينة . وشغلت هذه المشكلات العشر سنوات الأولى من القرن الخامس عشر . وفي خلال هذه المدة تأكدت شخصية ولي العهد . الذي سيضطر أمام مرض والده سنة ١٤١١ ، إلى أن يطلب إليه أن يتنازل له عن العرش . وسيعطى دفعة قوية للسياسة الخارجية ، ويستعد للقيام بحملة عسكرية جديدة . وحين يموت هنري الرابع ١٤٠٣ ، سيكون من الواضح أن ابنه سيقوم بسياسة غزو على القارة .

٤ - الغزو الانجليزي ورد الفعل الفرنسي :

وبمجرد إعتلاء هنري الخامس عرش إنجلترا ، عمل على القضاء على الثورات المحلية ، واستعان بأخويه دوق بدفورد ، ودوق جلوسستر ، في تيسير أمور المملكة ؛ واستعد للقيام بهجوم على فرنسا .

وكانت أحوال فرنسا في غاية السوء ، وواصل هنري الخامس حملة دبلوماسية قوية ضد حكومة باريس ، وأرسل سفارة تطالب شارل السادس بالتنازل عن عرش فرنسا ، كما طالب بالتزوج بابنة ملك فرنسا ، حتى يحصل على بائنة تتمثل في عدد من المقاطعات الفرنسية . وكان هذا يدل على سعيه إلى قطيعة مع فرنسا . وحصل على الميزانية اللازمة من البرلمان في خريف سنة ١٤١٤ ، وأخذ في إعداد حملة ضد فرنسا في الصيف التالي . وأمسك إلى أخويه أمر نيابته في غيابه ، وأعد أسطولا حريباً قوياً ، كما أعد أدوات الحصار والتموين ، وجمع القوات في الموانئ الجنوبية لإنجلترا . ورغم أن ملك فرنسا إقترح تقديم بعض التنازلات ، إلا أن هنري الخامس رفضها . وفي يوم ١٣ أغسطس نزل مايزيد على ١٢٠٠٠ جندي عند مصب نهر السين ، وواصلوا عملياتهم بطريقة تشبه عمليات جيش إدوارد الثالث سنة ١٣٤٦ . وحاول جيش الإقطاعيين الفرنسيين أن يتجمع ويفقد من الدروس السابقة مع الانجليز . ولكن ٥٠٠٠٠ جندي فرنسي ،

يحملون الأسلحة الثقيلة ، تجمعوا على إحدى المضارب ، دون أن تساعدهم طبيعة الأرض على الحركة ، ففضى عليهم بأسهم الإنجليز ، في ٢٥ أكتوبر سنة ١٤١٥ . وكان هناك من بين السبعة آلاف قتيل الكثير من الأمراء والنبلاء . وبعد هذا الانتصار عاد هنري إلى كاليه ومنها إلى إنجلترا .

وعاش شارل السادس في عزلة ، وسط الحزن الذي ساد المملكة ، واضطر في العام التالي إلى أن يتفق علانية مع هنري ، الذي اعترف به ملكاً على فرنسا . ولكن هنري الخامس عاد من جديد إلى شمال فرنسا في شهر أغسطس سنة ١٤١٤ وبدأ في القيام بعملية غزو منظمة في أقاليم نورمانديا ، واستولى على روان بعد حصار طويل ومقاومة شديدة ، وأجبرها على دفع فدية ضخمة . وحلت الإدارة الإنجليزية هناك محل الإدارة الفرنسية ، الأمر الذي ساعد بعض الأمراء المجاورين في بريطانيا ، على عقد الصلح مع الإنجليز .

وفي نفس الوقت الذي قام الإنجليز فيه بالهجوم واجهت مملكة فرنسا هجوماً آخر من دوق برجنديا ، وبعد قتل دوق برجنديا عمل ابنه على الانتقام ، واتصل بالإنجليز . ووافق هنري الخامس على أن يقوم دوق برجنديا الجديد بحكم بعض أقاليم فرنسا . وفي ٢١ مايو سنة ١٤٢٠ تم التوقيع على معاهدة تروا ، بين شارل السادس ، وهنري الخامس ، وكانت المعاهدة قاسية ، وأظهرت ضعف المملكة الفرنسية . وأعطى يد ابنته زوجة لملك إنجلترا ، وحرّم ابنه من حق وراثة العرش في صالح هنري الذي سيدير بالفعل ، وباشتراك مع دوق برجنديا ، حكومة مملكة فرنسا ، ويحمل لقب وريث ملك فرنسا . وكان هذا يعني لإتحاد إنجلترا وفرنسا تحت صولجان أسرة لانكستر ، بعد موت ملك فرنسا ؛ أي يعني نهاية حكم الأسرة المالكة الفرنسية ، ويعني بالتالي نهاية الاستقلال .

وسرعان ما سار هنري في شوارع باريس ، وحصل على إعراف بوضعيته من مجلس طبقات الأمة ، ثم أخذ في الاستعداد لغزو مملكته المقبلة ولكنه سرعان

ما مرض وتوفي في ٣٦ أغسطس سنة ١٤٢٤ ، وذلك قبل بضعة أسابيع من وفاة شارل السادس ملك فرنسا في ٢١ أكتوبر .

وكان من الطبيعي أن يعود عرش فرنسا ، طبقاً للمعاهدة تروا ، لهنري السادس ، ملك إنجلترا . وكان طفلاً صغيراً ، وقام عمه بالوصاية عليه ؛ ولم يكن في وسع الوصي أن يصرف أمور فرنسا كذلك ، خاصة وأن القوات الإنجليزية لم تكن قد غزتها كلها .

وكانت الإدارة الإنجليزية موجودة في شمال فرنسا ، وتستند هناك إلى حماية منظمة ، وعملت على الاحتفاظ برهائن من الأهالي حتى تضمن خضوع المنطقة . أما بقية المناطق ، فكان الضباط الإنجليز يحكمونها ، دون أن يدخلوا فيها نظام الحكم الإنجليزي ؛ ويحافظون فيها على نظم الضرائب السابقة . ولكنه كان من الصعب الاستمرار في هذه الحالة ، خاصة وأن الأهالي كانوا يعيشون في فقر ، وزادت مصائب الحرب ، ومرور القوات ، وحصار المدن ، وشرائية بعض الإنجليز ، من الأحوال سوءاً . وكان الأهالي غير راضين عن الاحتلال الإنجليزي ، فلم يكن في وسع الإنجليز جمع مجالس طبقات الأمة ، أو البرلمانات ، لتقرير دفع الضرائب . ولم يكن في وسع الإنجليز أن يحصلوا على إمدادات لهم حتى من إنجلترا ، التي كانت أحوالها هي الأخرى سيئة . وأصبح على الوصي الإنجليزي أن يواجه موقفاً صعباً .

ولم تكن سلطة دوق برجنديا تمتد إلى الكثير من مناطق فرنسا ، وظلت مقاطعات كثيرة موالية لولي العهد السابق ؛ وإمتد تعاطف الأهالي معه حتى إلى داخل المناطق التي كانت خاضعة لحكم الإنجليز . وكان أهالي باريس ، رغم ميلهم إلى دوق برجنديا ، قد أخذوا في التعاطف مع ولي العهد السابق ، نتيجة لزيادة وضوح طغيان الوصي على العرش الإنجليزي ؛ كما أن جماهير الشعب ، ورجال الدين ، ضاقوا ذرعاً بنظام جميع الضرائب الذي أثقل المحتل وأعوانه كواهام به ،

وأخذ الأهالي يخشون فرنسي نورمانديا ، الذين كانوا يقاومون الاحتلال الإنجليزي . وأصبح لولي العهد (الفرليسي) أعوان في كل مكان ، في مناطق الانجليز ، وفي مناطق دوق بوجانديا ، كانوا مستعدين للعمل من أجله .

ولكن ولي العهد كان ضعيفاً ، حتى بعد أن توج نفسه ملكاً على فرنسا باسم شارل السابع في سنة ١٤٣٢ ؛ وكان ينتقل من مدينة إلى مدينة ، ومن قصر إلى قصر ، وبخاصة في وادي نهر اللوار ؛ وكان يمقت الحرب وكانت سياسته قاصرة ، وكان شاباً له من العمر تسعة عشر عاماً ، كما أن مجهوداته العسكرية كانت ضعيفة فبدون نتيجة ؛ وهزمت قواته أكثر من مرة أمام القوات الإنجليزية . واستمرت الحرب ، وكانت عملية محاصرة مدينة أورليان لفترة طويلة ، هي التي عملت على تهجير العنصر غير الراضية ، وعلى زيادة الحساس الشعبي ، وقلقة السيطرة الإنجليزية .

وكانت لمدينة أورليان أسواراً حصينة ، سمحت لها بمواجهة حصار طويل . وحاصرها الانجليز ، وبثوا حولها القلاع ، وعجزت محاولات الملك لإنقاذها . وفي هذا الوقت ظهرت فتاة من الفلاحين ، كانت نشطة وذكية ، وكرست كل مجهودها من أجل الملك ، وتمكنت من قلب الأوضاع تماماً ، وهي تجان دارك . وكانت قد ولدت وعاشت في منطقة مغلضة لذلك ، وبين أحداث الحرب . وذكرت أنها سمعت بعض الأصوات ، ورأت بعض الرؤيا التي ذكرت لها أن الله قد اختارها لإجلاس ولي العهد على عرش أجداده . وتعرف عليها بعض الضباط ، وأرسلوها في حراسة إلى ولي العهد الذي استجوبها ؛ ثم جمعت حولها بعض الضباط ، وسارت على رأس هذه القوة الصغيرة صوب أورليان وهاجمتها ، وأعادتها الثقة إلى نفوس الأهالي ، وأجبرت الانجليز على رفع الحصار في ٨ مايو سنة ١٤٣٩ . وكان التأثير المعنوي لهذا الحدث كبيراً وأثار الحساس الشعبي ، وألقى الرعب في قلوب الانجليز . وتمكنت جان دارك ، في عدة معارك ، من تخليص

مدن نهر اللوار ، ومن أسر الكثير من الانجليز . واقنعت ولي العهد بضرورة
 المجيء معها إلى ريمس ، وسارت على رأس ١٢٠٠ مقاتل ، ودخلت هذه المدينة
 يوم ١٦ يوليو ، وتم تنويعه هناك ملك على فرنسا .
 وانضمت كثير من مدن الشمال للملك ؛ ولمكنه عاد إلى نحو له ، وترك جان
 دارك تعمل ، دون أن يؤيدها . وحاولت أن تهجم على باريس ، ولكنها جرحت ،
 واضطرت إلى الانسحاب . وخرجت في حملة أخرى بعد ذلك ، لكنها وقعت
 أسيرة سنة ١٤٣٠ في أيدي الانجليز ، ولم يقيم شارل السابع بأى مجهود من أجل
 تخليصها ، أو من أجل منع الانجليز من أخذها إلى روان ، وعما كتبها ، أمام أحد
 الاساقفة من أعوانهم . وكانت مهزلة في شكلها ، ومأساة في صميمها . وبعد
 تعذيب وسجن طويل ، احتفظت جان دارك بوقارها وثبات إيمانها . وجنكروا
 عليها بالإعدام ، حرقاً ، وعلى أنها من الهرطقة ؟ !
 وأعطت جان دارك كشيدة وطنية ، الكثير لملك فرنسا ، حتى أن تنويع
 هنري السادس في باريس سنة ١٤٣١ قد جاء بدون معنى . ولكن شارل السابع
 كان عاجزاً عن القيام بأى مجهود أصيل ، وإن كانت عصابات كثيرة من الفرنسيين
 ظلت تحارب الانجليز ، هنا وهناك .
 وطلب الانجليز عقد الصلح ، الأمر الذي تم في سنة ١٤٣٥ بمعاهدة أراس ،
 التي سمحت الكثير من شروط معاهدة تروا ، وأصبح في وسع شارل السابع الآن ،
 بالاستناد إلى قوة برجنيايا ، التقدم لإكمال تحرير بلاده . وأخذ أهالي المدن
 يطردون الانجليز ، وأعاد الانجليز احتلالها ، وتطلب الأمر العودة إلى عقد هدنة
 جديدة بين الدولتين سنة ١٤٤١ ، اعترفت من جديد بحقوقها على نورمنديا . ولم
 يكن ضعف شارل السابع هو المسؤول الأول عن طول فترة هذه الحرب ، في هذا
 الدور من أدوارها ؛ بل كانت هناك ، قبل كل شيء ، الحالة السيئة التي عاشتها
 فرنسا ، التي إستهلكتها الحرب . وكان القيام بمجهود عسكري كبير يعني الحاجة

إلى إمكانيات مادية ضخمة ، لم يكن في وسع الأهلالي ، الذين كانوا قد خضعوا لضغط كل من الملك والأعداء ، أن يقدموها . وكان الأهلالي قد استبدوا ، في حالات كثيرة ، إلى مواردهم ، من أجل الدفاع عن أنفسهم . ولم تكن هناك جيوش نظامية ، ولا قيادة ؛ بل مرتزقة ، ولا يحصلون على خصصاتهم بانتظام ؛ فكانوا يعيشون على المناطق التي يعملون فيها ، وتحولوا إلى عصابات ، تعيش من النهب والسلب ، ولعدة سنوات . وكان كل ذلك يؤدي إلى خراب البلاد .

ولقد أثرت حرب المائة عام كذلك على إنجلترا ، رغم أن عملياتها العسكرية كانت تقع على القارة . وتم في سنة ١٤٤٤ عقد هدنة جديدة بين فرنسا وإنجلترا وتزوجت الأميرة مرجريت ، ابنة رينيه ملك أنجو ، آخر ملك فرنسا شارل السابع ، ملك إنجلترا ؛ الأمر الذي زاد من سلطة ونفوذ ملك فرنسا ، في بلاط ملك إنجلترا ؛ ومهد للتخلص من نفوذ دوق جلوسستر سنة ١٤٤٧ . وعادت الحرب من جديد بين الطرفين ، سنة ١٤٤٩ ، وانتهز ملك فرنسا هذه الفرصة لكي يكمل تحرير نورمانديا من الإنجليز . في أقل من عام . وكانت الحملات الإنجليزية في أحوال سيئة ، نتيجة لنقص الإمداد والتموين .

وتم واصل شارل السابع تحرير بلاده في منطقة بوردو ، وإن كان الأهلالي قد تعودوا التعامل مع الإنجليز ، وارتبطت مصالحهم بهم ، وبشكل جعلهم ينظرون إلى مجيء ضباط ملك فرنسا ، وحرصهم على جمع الضرائب ، نظرة العداء . وصعب ذلك من أمر سيطرة الملك على منطقة بوردو ، لبعض الوقت ، وحتى سنة ١٤٥٣ . وفي هذه السنة ، كان الإنجليز قد جلوا عن كل الأراضي الفرنسية ، ما عدا كالية . وتم في سنة ١٤٥٦ إعادة إعتبار جان دارك رسمياً ، من كل ما كانت قد إتهمت به ، وبعد خمس وعشرين سنة ، إعتُرف بها بطلة ، وشهيدة .

ولكن إذا كانت الوحدة الوطنية قد سارت طلباً لمصلحة أسرة فالوا ، فقد كان على هذه الأسرة أن تحسب حساباً للأرستقراطية القوية ، التي ظهر منها بعض أسر

إقطاعية : فكانت هناك أسرة برجنديا ، وأسرة البوربون ، وأسرة رينيه ملك
أنجو . وكان كل هؤلاء السادة قد حطمتهم الحرب الطويلة ، وأصبحوا يمشون
بمجموعات من العناصر غير الراضية . وكانت أخطار هذه المجموعات هي مجموعة
برجنديا .

• • •

وكانت حرب المائة عام قد ساعدت نمو أسرة قوية في شمال شرق فرنسا ،
سيكون لها دور كبير في تاريخ أوروبا ، وهي أسرة برجنديا ، التي أخذت اسمها
من الأقليم الذي كان لها في فرنسا .

وكانت هذه الأسرة تحكم الأراضي المنخفضة ، والتي تمثلها الآن هولندا
وبلجيكا ، منذ القرن التاسع الميلادي . وفي خلال القرن الثالث عشر ، ظهرت
أهمية المنطقة التي كانت تحكمها هذه الأسرة ، لأسباب إقتصادية ، نتيجة لكثافة
سكانها ، ومهارتهم في الحرف ، ونتيجة كذلك لإمكانية تحالفهم مع إنجلترا ،
الامر الذي كان يعرض مصالح فرنسا للخطر . وعملت فرنسا على زيادة نفوذها
في هذه المنطقة ، الامر الذي كان يدفع دوق برجنديا إلى التحالف مع ملوك
إنجلترا ، والتقرب إلى ملوك ألمانيا وأمراؤها . وفي سنة ١٣٦٩ تمكن ملك
فرنسا شارل الخامس من تزويج أخيه فيليب ، من ابنة أمير برجنديا ، وأصبح
فيليب بالتالي هو دوق برجنديا . وأضاف أملاكاً ومناطق نفوذ كبيرة إلى
سيطرته ، وهو أخ لملك فرنسا ، وخاضع له ؛ كما كان ملك إنجلترا نفسه خاضع
أو تابع لملك فرنسا .

ولكن ، بدلا من أن يزيد نفوذ شارل الخامس في الشمال ، عمل أخوه دوق
برجنديا على نقل فرع أسرته إلى الشمال وعمل على تثبيت دعائم حكمه هناك ، وعلى
حساب فرنسا . وزوج ابنته بأخي الإمبراطور شارل الرابع ، وزاد بذلك من
سلطة أسرة لوكسمبورج ؛ ودعم سلطته بسلطة أمراء لوكسمبورج وبافاريا ،

الامر الذى زاد من نفوذ الالمان فى ممتلكات دوق برجنديا . وفى أثناء القرن الخامس عشر ، دخلت أسرة برجنديا ذلك الصراع الذى عاد إلى الإشغال من جديد بين فرنسا وإنجلترا ، بعد أن زادت أملاكها فى كل غرب أوروبا .

وكان قتل دوق أورليان ، ثم كان قتل دوق برجنديا . قد دفع بهذه الأسرة الأخيرة إلى اتهام ملك فرنسا ، وإلى التحالف مع الانجليز . وهذا ما يفسر قسوة فيليب الطيب ، ولبن فيليب القوي ، دوق برجنديا ، فى محاربته للفرنسيين ، ومع الانجليز ؛ علاوة على وجود الاطماع السياسية ، ووضع قواته تحت تصرف الانجليز .

ولقد توسعت أسرة برجنديا ، وبشكل جعل منها أحد أسس التوازن فى غرب أوروبا ، وأنشأت دولة جديدة بين فرنسا وألمانيا ، كان دوقها يمارس عليها سيادة فعلية وإن كانت تخضع قانونا للتاج الفرنسى غرب نهر الاسكوت ، وللتاج الالماني شرق ذلك النهر . ورغم ذلك فان خضوعها لجيرانها كان خضوعاً إسمياً .

وبعد نهاية حرب المائة عام ، لم يقيم ملك فرنسا بمعاملة دوق برجنديا إلا بمعاملة تابع كبير ، ولكنه لم يذكر حقوقه عليه إلا بنفس الطريقة التى كان يذكر بها حقوقه على ملك إنجلترا ، فى الماضى ؛ وكان هذا يعطى لوناً معيناً لسياسة ملك فرنسا حياله . وكانت قوة دوقية برجنديا تمثل خطراً دائماً بالنسبة لفرنسا ، فكانت باريس قريبة من ممتلكاتها . وفى سنة ١٤٥٤ اقترح دوق برجنديا على البابا أن يقوم بقيادة حملة صليبية ضد الاتراك .

واستمر ملوك فرنسا ينظرون إلى أمراء برجنديا على أنهم فرع ثانوى من أسرة فالوا ، وحاولوا التقليل من أهميتهم ، بدلا من الإستناد إليهم . وأدى هذا الامر إلى نشوب مؤامرات ، وصراع بين الاسرتين . ولم تعد الحقوق الإقطاعية كافية

لاستمرار الصراع بين الأسرتين ، بل كان الأمر يتطلب إستخدام السياسة . ولم يعد في وسع برلمان باريس توجيه إتهام لدوق برجنديا ، بل أصبح الأمر يعني دوقا له بمتلكات واسعة ، وأهالي ، ومصالح : إنها الأراضي المنخفضة ، بكل ما تمثله ، بالنسبة لأوروبا ، أما الدوق فإنه أصبح يحمل لقب مؤسس بلجيكا ، التي مستحاول فرنسا إحتلالها ، ولكن التوازن الأوربي سيظل مرتبطاً بها ، عبر قرون .

البَابُ الثَّانِي

التفريات العميقة

,

.

.

.

.

.

الفصل الرابع

التغيرات الاقتصادية والاجتماعية

لقد تعرضت أحوال أوروبا لتغيرات عميقة ، ابتداء من نهاية القرن الثالث عشر ؛ وظهر ذلك بوضوح ، في الأحوال الاقتصادية الأمر الذي أدى إلى تغيير ؛ بالتالى ، في حالة المجتمع . ولقد شهدت أوروبا المناقشات بين مراكز الإنتاج الصناعي ، كما شهدت حركات اجتماعية في المدن . أما في الريف ، فقد تطورت الأحوال إلى أن وصلت إلى حد تفكك أطارات حياة الريف ، ونشوب ثورات الفلاحين . وكانت هذه تغيرات عميقة ، لها نتائجها .

١ - الأوضاع الاقتصادية :

لا يمكننا سوى أن نعطي الخطوط العامة العريضة للأوضاع الاقتصادية في أوروبا الغربية عند نهاية القرن الثالث عشر . ويبدو أن تزايد السكان بطيئاً ؛ ويظهر ذلك من دراسة خطوط آثار المدن . كما أن عملية توسيع رقعة الأراضي الزراعية على حساب قطع أشجار الغابات ، وردم المستنقعات ، قد سار بهبطاً كذلك ، وتوقفت عملية توسع الألمان على سواحل بحر البلطيق ، وفي مناطق السلاف .

ولا يمكننا أن نحاول تقسيم الأهالي بين الريف والمدن ، وإن كان من المؤكد أن عدد سكان الريف كان يزيد بكثير عن سكان المدن ومهما كانت المدن مزدهرة ، فإن حضارة أوروبا في ذلك الوقت كان يغلب عليها الطابع الزراعى . وحتى في مناطق الحياة في البلديات ، في الأراضي المنخفضة وفي شمال إيطاليا ، فإن التجارة والحرف كانت تشغل عدداً من الأهالي يقل بكثير عن ذلك العدد الذي كان يعمل

في الزراعة . وتزايدت هذه الظاهرة وضوحاً كلما ابتعدنا عن السواحل ، وعن وديان الأنهار . وكانت هذه الظاهرة مهيمنة في وسط فرنسا وإنجلترا وألمانيا ، دون أن نتحدث عن شبه الجزيرة الأسبانية ومناطق سكناً السلاف ، حيث كانت هذه الظاهرة تمثل الأغلبية المطلقة للسكان . وكانت الطبقات ذات النفوذ المسيطر ، وهما رجال الدين والنبلاء ، تحافظ على نفوذها ، مستندة إلى ملكيتها للأرض ، وكان من الواضح أن أساس التنظيم المالى للدولة كان يقوم على موارد الملكيات الزراعية . وإذا كان عدد البورجوازية أقل ، إلا أن عملها كان مؤثراً في كل النظام الاقتصادي . وكان إنشاء المدن قد غير ظروف حياة الطبقات الفلاحية جذرياً . فكان سكان المدن يعتمدون عليها في الحصول على موادهم الغذائية ، وكانت هذه الطبقات تمثل سوقاً دائماً لتوزيع منتجات المدن : وأختفى الإنتاج المنزلي ، الذي كان يهدف سد حاجيات السادة وأتباعهم ، وحل محله اقتصاد يقوم على التبادل ، نتيجة الحاجة المدن إلى تزويدها بالمواد الغذائية . وتبدل النظام المحدد القائم منذ قرون على توزيع المحصول وعلى الرق الوراثي في أشكال مختلفة ، وحل محله في أثناء القرن الثالث عشر نظاماً أكثر مرونة وأكثر إنتاجية . ومع توسع المدن ، تغيرت أحوال المعيشة في الريف ، وزاد تأثير حياة المدن على حياة أهل الريف . وظهر ذلك بوضوح في الأراضي المنخفضة ، كما بدا تحرر الفلاحين في الفلاندر . وكلما ازداد نمو المدن في دخل البلاد كلما زاد تحرر الفلاحين ، وزاد إستصلاح الأراضي غير المنتجة . وتنافس كل من رجال الكنيسة ، والسادة من العلمانيين ، في إنشاء مدن حديثة ، وفي إستصلاح أراضي المستنقعات . وظهر نظام جديد بين المزارعين يقوم على أساس الحرية الفردية . وقل اعتماد الفلاح على السيد في المناطق القريبة من المدن .

وكان هذا التحول في حياة الفلاحين قد تم عند نهاية القرن الثالث عشر أو كان على وشك التمام في كل أوروبا . وانتشر ذلك بسرعة ، حسب أعداد المدن وأهميتها ،

ومن الغرب إلى الشرق . ولا شك في أن بعض صيغ وملاحم الماضي ظلت باقية في مناطق السلاف ؛ ولكن التحول فرض على المجموع . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن الأقلية البورجوازية قد قررت مصير الأغلبية ، وهي من الفلاحين ، وذلك نتيجة لإعتمادها عليهم في الحصول على المواد الغذائية ، وفي تسويق سلعها لديهم . وبالتالي فإن اقتصاد المدن حطم أساس الانتاج المنزلي ، وفتح أبوابا جديدة للانتاج الزراعي . وغير الظروف الاجتماعية والقانونية للطبقات الفلاحية .

وإذا كانت المدن يستهلك منتجات الريف ، فإن الريف كان سوقا في نفس الوقت لصناعات المدن . وتبع عن ذلك تخصص في العمل فيما بينها في أثناء القرن الثالث عشر . وأصبح الفلاح الذي يزود المدن بالمواد الغذائية ، يحصل منها على الأواني والملابس ، وأثاثاته التي كان يجبراً على صنعها لنفسه في الماضي . واختفت المعامل والورش التي كان بعض السادة وكبار الملاك قد أقاموها في أحواش مساكنهم ، ولم تعد موجودة إلا في مناطق السلاف ، في الشرق . وبالاختصار أخيفت ظاهرة الانتاج الحرفي الريف . وتركزت هذا الانتاج في المدن وأصبح حكراً على رجال البورجوازية . وأصبحت هذه البورجوازية ، مع نهاية القرن الثالث عشر ، تمنع ممارسة الصناعة في الريف إلا إذا كانت تحت إشرافها ، كما حدث في مصانع غزل الصوف قرب المدن ، والتي عمل فيها الفلاحون ، بمواد أولية يقدمها لهم أصحاب هذه الصناعة في المدن ، وبأجور يحددونها لهم كذلك . ووصل اقتصاد المدن ، الذي بدأ منذ القرن الحادي عشر ، إلى عصر ازدهاره ، عند نهاية القرن الثالث عشر . ولن تبدل التعديلات التي مر بها خلال الإصطدامات الاجتماعية التي وقعت أثناء القرن الرابع عشر كثيراً من مبادئه الرئيسية . وكانت الروح المحركة له منظمة تماماً ، وتعطيه شكلاً يفرى البعض على أن يسميه « باشتراكية البلديات » . وكانت النقابات الحرفية اجبارية ، يدخل فيها كل العاملين . وكانت ممارسة أية مهنة تتطلب الدخول في الحرفة التي تحتكرها ، وكان

الدافع الفردى بسيطاً داخل كل حرفة . وكان الهدف الأساسى هو الاحتفاظ بين أعضاء النقابة على مساواة تمنح أحد الأفراد من الإثراء على حساب الآخرين . وكان هذا هو أساس كل القرارات العديدة ، الخاصة بطريقة الصناعة وتحديد ساعات العمل ، والتي كانت تنظم عمليات البيع والشراء ، وتقرر الأسعار ، وتمنع الدعاية وكل أنواع المنافسة . وكانت هذه النظم تهدف كذلك ضمان جودة الصنف ، وفى صالح المستهلكين ، الأمر الذى تطلب التفتيش على السلع . وعلى المواد الخام . ولكي يحاربوا ارتفاع الأسعار ، حاولوا التخلص من الوسطاء ، مسهلين بذلك عملية التبادل المباشر بين المنتج والمستهلك . وكانت هذه النظم تطبق على كل المستويات ، ومن الأسواق الكبيرة حتى أصغر حوانيت الصانع ؛ وطبقت كذلك على تجارة المواد الغذائية . وكان هذا النظام يعنى الحماية ، وعدم السماح بالمنافسين الأجانب ؛ وأصبح الانقسام للبورجوازية هو السبيل الوحيد للوصول إلى حرية النشاط الاقتصادى فى المدينة . وسرى العمل بهذا النظام فى كل مدن أوروبا الغربية . وكان يطبق على حرف وتجارة المدن مع ضواحيها .

أما الإنتاج الصناعى الكبير ، الذى كان يهدف التصدير ، فإنه كان لا يخضع لهذا النظام . وبدلاً من قيامه على عشرات من الصانع ، كان يعتمد على المئات ، ويتخصص فى صناعات معينة ، ويخضع لتقديرات ولإلزامات التجارة ، وبالتالى لرأس المال . وكان معظم عماله من الأجراء ، ويورد لهم الرأسماليون المواد الخام ، ويستلمون منهم السلع المصنعة . وكان العمال ينظمون كذلك داخل نقابات ، ولكنها كانت أقل حرية وأكثر خضوعاً لرأس المال وللرأسماليين . وكان العامل هنا لا يتصل بالمستهلك ، ولا يمكن عقد مقارنة بينه وبين صاحب رأس المال ، وكان هذا القطاع هو الذى شهد الدور الأولى للإضرابات التى بدأت مع منتصف القرن الثالث عشر ، وأدت إلى اضطرابات اجتماعية .

وكانت التجارة الكبيرة التى تزود الصناعة بالمواد الأولية ، وتنقل المنتجات ،

وتهم بنقل بعض المواد الغذائية والادوات السكالية، مزدهرة بشكل خاص في
بحر المتوسط، وكانت تتركز بنوع خاص في جنوا والبندقية. وكانت
المنافسة الشديدة بينها لا تمنعها من تنمية المراكز التجارية التابعة لكل منها في
شرق البحر المتوسط. وكانت الملاحة هي وسيلة الغرب للتزود بسلع ومنتجات
الشرق، التي ازدادت أهميتها باستمرار في حياة شعوب الغرب، وشاركت كل
من برشلونه ومارسيليا إلى جانبها في هذه التجارة المربحة.

وكانت هناك تجارة رابحة كذلك بين موانئ بحر الشمال وموانئ بحر البلطيق.
ولكن الصلات البحرية كانت ضعيفة بين تجارة البحر المتوسط وتجارة بحر الشمال.
ولذلك فإن الأسواق الدولية إنتشرت في غرب أوربا بين منطقة الفلاندر وبين
إيطاليا. كان التجار يتقابلون في هذه الأسواق ويتبادلون ويشتررون ويدفعون.
وشهدت هذه الأسواق عمليات الشراء بالأجل، ومع تحميل الأسعار بعض
الآرباح مع التعاقد عليها بصكوك بين البائع والمشتري.

وزادت العمليات التجارية من الاهتمام بالفضة والعملات. وكان اليهود
يشاركون فيها. وكانت عملياتهم تغطي في غالبيتها قروضا لمواد استهلاكية؛
فأصبحوا ضروريين ومبغضين في نفس الوقت، وهذا ما يفسر لنا طرد كثير من
أمرأء وملوك أوربا لهم في بعض الفترات، وتحملهم ومنحهم الحماية في فترات
أخرى. وكانت السلف التجارية موجودة، ولكنها ازدهرت منذ القرن الثالث
عشر، ونمت في إيطاليا، التي تميزت بوجود رؤوس أموال ضخمة، ثم انتشر
منها نشاط أصحاب رؤوس الأموال الإيطاليين، نتيجة تطور نظامهم وسهولته،
إلى معظم أنحاء أوربا الغربية.

٤ - حالة المجتمع :

بدأت الشروخ تظهر في هذا المجتمع الأوربي، الذي كان قد ظل بلا تغيير
لمدة قرون عديدة. ولم يظهر التطور في كل مكان في نفس الوقت. فقد كانت

هناك بلاد تأخرت ، مثل ألمانيا التي ظلت القوضى الإقطاعية ضاربة فيها ، ومثل أسبانيا التي كانت قد أنهت حروبها ضد المسلمين في الأندلس ، تقريبا ، واحتفظت بمثل عليا عن حياة الفروسية . ولكن الأمر كان مختلفا بالنسبة لبلاد أخرى كانت التنمية الاقتصادية فيها أكثر تقدما ، مثل إيطاليا ، وكذلك الحال بالنسبة لمملكتي فرنسا وإنجلترا ، حيث كانت التطورات السياسية الجديدة للمملكة تتعارض تماما مع مبادئ النظام الإقطاعي . ويمكننا أن نرى في فرنسا بنوع خاص ، ومنذ نهاية القرن الثالث عشر ، الإرهاصات الأولى لذلك التحول الذي سينتهي بتحطيم النظام الإقطاعي .

والحقيقة أن نظام الفروسية قد بدأ يتحطم بقوة الأوضاع الطبيعية . فلتقد كانت هناك عملية مزدوجة للجميع ، وللتفتيت في نفس الوقت . فكان كبار النبلاء يتشبهون بالملك ، ويستخدمون سياسة الزواج والشراء ، من أجل زيادة مساحة مناطق نفوذهم . وحدث ذلك في فرنسا ، كما حدث في إنجلترا كذلك . ولسكنا نلاحظ من ناحية أخرى أن كثيرا من مناطق النفوذ الإقطاعية الصغيرة تفتت ، وبشكل زاد من صعوبة شكل الخريطة الإقطاعية للبلاد . وكانت عمليات التقسيم والوراثة والبيع تساعد على ذلك . وأصبحنا نجد بعض السادة بدون أرض ، والبعض الآخر لا يحتفظ من أراضيهم إلا بما تمثله مزارعه النافعة . وأصبح في وسع البورجوازيين ، أو من أثرى من الفلاحين ، أن يشتري بعض امتيازات السيد الإقطاعي . وهكذا وجدنا النبلاء ، الذين يعتمدون على مولدهم ، والسادة الذين يعتمدون على ممتلكاتهم العقارية من الأراضي ؛ وأصبحنا نجد نبلاء بدون سيادة ، وإلى جوارهم سادة من الأغنياء الجدد والتجار والسماسرة . وهكذا تطورت العلاقات الشخصية ، وأواجبات المتبادلة التي تأسس عليها نظام الإقطاع ، وساعد على هذا جمود الالتزامات الإقطاعية في مواجهة نظام رأسمالي مرن . وفقدت الإيجارات النوعية أو المالية قيمتها الفعلية مع مضى الوقت ، نتيجة

لتنمو الإقتصادى الذى ساعد على سرعة دورة رأس المال . وكان انخفاض قيمة الإيجارات الخاصة بالإقطاعيين بسيطاً . ولكن وقوع إحدى الأزمات ، مثل حرب المائة العام ، كان كافياً لزيادة سرعة التطور ، والتمهيد لتغير اجتماعى حقيقى . ولم يكن النبلاء مستعدين لمواجهة مثل هذا الخطر . بل كانوا يحاولون الإحتفاظ بحرياتهم تجاه تدخل السلطة الملكية . فكانت عملية المحافظة على حقوقهم ، وتفتت إقطاعاتهم ، وحروبهم المتعددة ضد بعضهم ، تنهك قواهم ، وتستنفذ دماهم وإيراداتهم . وكانوا لا يفهمون السياسة ، ولا الإقتصاد . وكانوا مثل بقية رجال العصور الوسطى لا يفهمون معنى التوازن المالى ، وينفقون أكثر مما تسمح لهم به دخولهم . وكانوا يضطرون إلى الإستدانة لكى يحافظوا على مظاهرهم ، أو لزواج أبنائهم ، ويقعون فريسة للبرابيين . ويرهنون أراضيتهم ، ويتحطمون .

وأخذ النبلاء ، الذين بدأوا فى فقد الصلة بالأرض ، وهى التى كانت لا تزال أساس كل إقتصاد . يكونون طبقة ، لم يعد هناك معنى لبقاء إمتيازاتها . وأخذت هذه الطبقة تنغلق على نفسها كل يوم أكثر ، وتصاب بالضعف ، نتيجة لإغلاقها وعدم تجدد دماها . وبعد أن كان النبيل مرتبطاً بالفروسية ، إنصرف كثير من النبلاء عن الفروسية ، وفضلوا عليها الوظائف والحصول على الإلتزامات . وبعد أن كان الحقول على ألقاب النبيل مفتوحاً ، وأمام الأثرياء ، تحول إلى حق لا يمنحه إلا الملك وعدد من كبار أتباعه . وكان البورجوازيون وكبار الفلاحين لا يأبهون كثيراً بالحصول على ألقاب النبيل ، التى كانت تمنحهم إمتيازات بسيطة ، وتفرض عليهم أعباء ثقيلة ودخل كثير من النبلاء إلى المدن لىكى يحصلوا على إمتيازات البورجوازيين .

أما طبقة رجال الدين ، ومن حيث كونهم طبقة ملاك ، فإنها أخذت تقاسى ، مثل النبلاء من الأحوال الاقتصادية الأقل ميزة بالنسبة للممتلكات العقارية الكبيرة من الأراضى ؛ وأصبحت إيراداتها ، نتيجة لسوء الإدارة ، لا تكفى لسد

إحتياجاتها. ومع ذلك فقد ظلت هذه الطبقة قوية وثرية ؛ وظلت المؤسسات الدينية موجودة ؛ وكان كل مسيحي يرغب أن يترك ، عند موته ، شيئاً للكنيسة ؛ الأمر الذي أدى إلى تجديد ثروة رجال الدين باستمرار . ولكن مظاهر الضعف بدأت تظهر عليها ، خاصة وأنها أثارت الأحقاد عليها ، نتيجة لجهل بعض رجال الدين ، أو انحرافهم ، أو شرارهم ، وبشكل لا يؤدي إلى احترام الناس لليزات كانوا يتمتعون بها . وكان كل من الملوك والسادة يحاولون جاهدين السيطرة على الكنائس ، فكانوا يرشحون من يرغبون فيه لتولى مناصب الكنيسة بدلاً من نظام الانتخاب الموجود ، كما كانوا يرغبون في إجبار رجال الدين على المشاركة في أعباء الضرائب في البلاد ، ويحاربون ضد حرية رجال الدين وإمتيازاتهم .

ومن ناحية أخرى ، كانت بلاط روما يتطور ، وكان يطالب كل يوم بمختلفات إقليمية جديدة : فزادت مطالباته بضريبة العشور ، التي كان قد فرضها من أجل تمويل الحروب الصليبية والحملات العسكرية التي كان يشرف عليها ، وبشكل جعل هذه المطالبات منتظمة . وأنضدت الأحقاد تظهر داخل نطاق طبقة رجال الدين نفسها . وزاد عدد الجماعات الدينية ، التي شجع عليها البابا ، وبشكل يهدد أسس تنظيم الكنيسة نفسها : وأصبح الأساقفة يحقدون على الرهبان ، وحاولت الجماعات أن تنفي عن بعض الرهبان حقهم في المشاركة في التعليم . وكان هذا يدل على ضعف طبقة رجال الدين ، وبشكل يمنعهم من القيام بواجباتهم على أحسن وجه .

وعلى العكس من ذلك نجد أن طبقة الفلاحين تصل إلى درجة من الرخاء المادي في فرنسا ، وبدرجة لن تعرفها بعد ذلك . وشاهد الفلاحون في فرنسا ، والى كان الشطون الإجتماعي فيها أكثر تقدماً ، زيادة حدود الحرية الفردية عما كان عليه الأمر من قبل . وأخذ نظام العبودية ، الذي لم يصل إلى مرحلة الشمول ، في التفتت واضمح . وأعطى ملوك فرنسا ، بقراراتهم المتحررة ، الحق للفلاحين

في شراء الأرض أو في إستئجارها ، وبشكل يسمح لهم بالتحرر من العبودية . وزاد عدد المتحررين في عهد القديس لوى ، ورأى خلفاءه في ذلك إجراء ضرائبي في صالح الخزانة التي كانت خاوية بشكل مستمر تقريباً . وأرسل كل من فيليب الشجاع وفيليب الجميل مندوبيه يجوبون المقاطعات ، ويتعاملون مع الفلاحين . وأخذت ظاهرة الإقطاع كذلك تتطور في صالح الفلاحين . وأصبح من حق من يدفع جزء من نصيب المالك في المحصول أن يحتفظ بالأرض من جديد لفلاحها ، وبالتالي حق الانتفاع بها ، وإبقائها في حيازته . وأصبح كثير من السادة يوافقون على تخفيض نصيبهم في غلة الأرض ، حتى لا يهجرها الفلاح ، وتبقى بدون زراعة . وكان تخفيض قيمة الإيجار تخفف العبء عن الفلاح ، في الوقت الذي كانت فيه ضد مصلحة النبلاء . وأصبحت حقوق السادة حقوقاً واقعية وفعالية ، مع مرور الزمن ؛ وأصبحت تتعلق بالأراضي بعد أن كانت مرتبطة بالأشخاص . ومع ذلك فلم تكن أوضاع الفلاحين مرضية ، وإذ أنهم كانوا يخشون من الحروب ، أمام الحروب وعمليات النهب . وفي الوقت الذي تنشب فيه الحرب بين فرنسا وإنجلترا ، أثناء القرن الرابع عشر ، ستمتد هذه الحرب ، وتؤثر على كل مملكة فرنسا ، وتصبح طبقة الفلاحين هي فريستها الأولى ، ترى أن أزدهارها قد توقف لفترة طويلة .

أما البورجوازيون ، فكانوا مسلحين بدرجة أحسن خلف أسوار المدن التي يسكنونها أمام أخطار المستقبل . وكانوا قد تحرروا ، في كل مكان ، وفي القرون السابقة ، من الخضوع لنظام الإقطاع ؛ وحصلوا على موافق بالتحرر تسمح لهم بتنظيم أنفسهم ، وتنمية حرفهم وتجارتهم ، في نطاق إدارة المدن . ولكن نمو المدن كان قد وصل إلى حده الأقصى : فأصبح من النادر إنشاء مدن جديدة . أما حكومات المدن فكانت حرة من الناحية النظرية فقط ، إذ أن السلطة الملكية كانت تفقد من صعوباتهم المالية من أجل زيادة سلطة النظام الملكي . وكانت

بعض المدن ، في بعض المناطق الخاصة ، والتي كانت يعمدة بالصناعات الكبيرة ، ومن أجل تجارة التصدير ، هي التي تقدر ، مثل مدن الفلاندر ، ومواني بحر البلطيق ، وبحر الشمال والمدن الإيطالية ، على أن تزيد من عدد سكانها ، والعاملين فيها . ولكنها كانت تتطور بسرعة ، وفي وسط أزمنة مستمرة ، وكانت تحاول الوصول إلى توازن . ذلك أنه بعد الصراعات السابقة ، التي كانت موجهة ضد سلطة السادة ، حدثت اضطرابات إجتماعية ، تصادمت فيها الطبقات المختلفة داخل المدينة الواحدة ، وبشكل واضح ، وأصبحت مدن إيطاليا الشمالية ، التي تحررت من السيطرة التي حاول أن يفرضها عليها الأباطرة الجرمان ، تمثل المظهر الأساسي لتلك المجتمعات المتطورة . وأصبحت تلك الهوة التي تفصل بين المفاضلات السياسية ، بين الجلف والجبليين ، آخذة في الاختفاء ، وإن كانت خطوط المستقبل غير واضحة تماماً بعد . وفي بعض المدن ، مثل البندقية أخذت أوليغاركية بعض كبار التجار تفرض نفسها بشكل واضح ، وتقفل الطريق أمام تقدم الطبقات الشعبية ، بينما تلاحظ في فلورنسا ، وحيث كان النظام الديمقراطي لا يزال سائداً ، دفعة قوية من جانب الطبقات الوسطى : فمشاهد حقد طبقات النبلاء ، فتحاول الطبقات الوسطى أن تفرض نوعاً من أنواع الحكومة المعتدلة ، حيث تشارك نقابات التجار السلطة كذلك . أما فيما عدا ذلك ، وفي سهل لومباردي ، فإن التطور كان أكثر تقدماً ؛ ذلك أن عامة الشعب كانوا قد انتصروا على الجلاء وعلى أوليغاركية التجار ، فأخذوا السلطة في أيديهم ؛ ولما كانوا عاجزين عن التنظيم ، فإنهم تركوا السلطة في أيدي المغامرين الذين يسيطرون على الموقف . ولذلك فإنه من حقنا أن نتوقع حدوث أكبر الاضطرابات الإجتماعية ، في مجتمعات المدن .

٣ - المنافسة بين مراكز الانتاج الصناعي :

كان من نتائج تزايد العلاقات التجارية ونمو النظام الرأسمالي تزايد الإنتاج

في صناعات التصدير ، رغم أن أهمها ، وهي صناعة النسيج ، كانت تواجه صعوبات ضخمة من أجل الحصول على المواد الخام .

وتأثر سوق الصوف خلال القرن الرابع عشر بأزمة خطيرة . وتعرضت صناعة النسيج الفلمنكية لصعوبات كثيرة نتيجة لنقص الصوف الانجليزي . وكانت إنجلترا ، في نفس الوقت الذي كانت تزيد فيه من سيطرتها على القارة ، تحاول التحرر في نطاق العمليات الاقتصادية . وحاول ادوارد الثالث ، الذي رفض أن يكون إقتصاد بلاده تحت رحمة السيد المسيطر على الفلاندر ، أن يتحرر من الصانع الآين من القارة ؛ وحاول أن يوطن صناعة الألبسة في إنجلترا ، وينشئ منها للغزاليين في المدن الرئيسية للمملكة ، وبخاصة في بريستول التي ستخرج منها أحسن المنسوجات الأوروبية خلال القرن الخامس عشر . وفي انتظار الوصول إلى ذلك ، اضطرت إنجلترا إلى أن تستمر في الاعتماد على الصانع الفلمنكيين من أجل تجميع الصوف الخام . ولكن سياسة التصدير التي وضعها ادوارد الثالث كانت خاضعة للتردد والحذر . ولما كان هذا الملك يحصل على أكبر إيراداته من الضريبة المفروضة على بالاث الصوف عند خروجها من المملكة فإنه عمل على فرض رقابة شديدة على نقلها ؛ كما أن تجار لندن ، الذين ساروا على نهج أصحاب البنوك الإيطالية ، سيطروا على تجارة التصدير ، وفرضوا على الملك سياسته الفلمنكية . وأنشأوا سوقاً خاضعاً للمراقبة ، من أجل الإشراف على تصدير الصوف ، ولأن كانت المنافسة بين التجار قد تسببت في تغيير مكان هذا السوق ، سواء في الموانئ الانجليزية أو في موانئ القارة ، مثل بروج وكاليه . وكان هذا التغيير المستمر مع عدم استقرار الظروف العامة للسوق في غير صالح نمو صناعة المنتجات الصوفية . وكان من الطبيعي أن يخضع الملك لهذا التأثير ، في نفس الوقت التي إزدادت فيه العلاقات التجارية . ورغم الصعوبات فإن الإنتاج قد إزداد ، نتيجة لزيادة الطلب . وليس هناك ما يدفعنا إلى الاعتقاد في أن زيادة الإنتاج كانت تنعش مع

تمحيث السلعة ، بل أن كل الشواهد تدفعنا إلى الاعتقاد في أن طريقة الإنتاج قد ظلت كما هي . وإن دراسة النظم ، التي ازدادت تفصيلاً أثناء القرن الرابع عشر ، والتي فرضت على العزاليين والنساجين والصباغين ، وكل أبناء المهن المتصلين بصناعة المنسوجات ، لا تدل على أقل تجديد . ولقد ادعى البعض أن هذا الاستقرار المزعوم يرجع إلى روح العصور الوسطى المحافظة ؛ ولكن التقدم الذي تم في التقنية التجارية ، وروح الابتداع التي ظهرت بوضوح في التغيرات التي حدثت في التسليم العسكري وفي الانشاءات البحرية تدفعنا إلى الاعتقاد في غير ذلك ، وإلى القول بأن الاستمرار في العمل حسب أنماط تقليدية للإنتاج كانت ترجع إلى الأساس التنظيمي الذي فرض على الصناعة خلال القرن الثالث عشر ، والذي ازداد قوة في الفترة التالية . ذلك أن الانحياز الفردي كان يخضع لرقابة صارمة ، وكان مرفوضاً . وكانت نقابات المهن تحيط بنشاط العامل وتضغط على العمال بدرجة متزايدة . وإذا كان النظام الرأسمالي يسيطر في نطاق التجارة ، فإننا نجد على العكس من ذلك أن كل الاحتياطات قد اتخذت بشكل يفرض على الصناعة عدم الحرية في إستيراد أو تصدير المنتجات . وكان هذا يدل دالة واضحة على استمرار خضوع الصناعات ، وبشدة ، لإقتصاد المدن المغلقة .

ولم يستمر هذا الوضع إلا نتيجة لضغوط قوية . وكانت القوة تتدخل من أجل الاحتفاظ للمدن بحق الاحتكار ، ومن أجل حجبها داخل أسوارها . ومن الطبيعي أن هذه الصناعات كانت ستنتشر في الأرياف إذا ما تركت أقل حرية لتصرف أبناء المهن . وكانت مصالح الملاك العقاريين والفلاحين تدفعهم إلى المشاركة في أرباح أعمال الصوف التي تعود إلى البورجوازيين . وأعطينا الفلاندر وهي أكبر منطقة صناعية في أوروبا في ذلك الوقت ، دلائل لها قيمتها . فمنذ بدايه القرن الرابع عشر حاولت بعض القرى أن تشترك في صناعة المنسوجات ، وأنشأ الفلاحون فيها مهن للغزل والنسج . ولكن المدن كانت تراقب بحذر هذه

المحاولات ، التي كانت ستعرضها ، في حالة نجاحها ، لمنافسة قوية . فقاموا يومياً بتنظيم عمليات للإستيلاء في المناطق المحيطة بالمدن ، يتم فيها الإستيلاء على كل أدوات الصناعة ، وينقلونها أو يحطمونها أو يحرقونها . وكان على الصناعة أن تظل إمتيازاً يحتفظ به للبورجوازيين وحدهم . وكان هذا هو الشرط الأساسي في تلك التنظيمات التي هدفت للإحتفاظ بالأجور في أعلى مستوى ممكن .

ومع إزدياد قوة المدن إزدادت معها قوة صناعاتها . التي ستعمل على إعطائها شخصيتها المميزة . وبعد منع الفلاحين من إستخدام الصناعات أصبح من الضروري منع المدن الثانوية من صناعة المنسوجات ، التي لها نفس نوع أو التي لها نفس صفات منسوجات المدن الرئيسية . وإستخدمت كل الحجج للوصول إلى هذه النتيجة ، سواء للإحتفاظ لبعض المدن بصناعة المنسوجات الرقيقة ، التي كانت لو سدها تزود تجارة التصدير ، وترك المنسوجات الخشنة للمدن الصغيرة ، خاصة وأن أسعارها كانت منخفضة ، وكانت تستخدم في الإستهلاك المحلي .

وكان التخصص الصناعي للمدن الكبرى يشرح هذه السياسة بوضوح . فكان هو الذي يدفعهم إلى أن يطالبوا أمام الأمير ، بإستقلال ذاتي ، يسمح لهم بالوصول إلى السيطرة الإقتصادية التي يأملون فيها . وكانوا يدعون أنهم يقرضون عليه خط سير سينضع عمله تماماً لمصالحهم . وفي بداية حرب المائة عام ، لم يكن لذلك الصدام الذي نشأ بينهم وبين الأمير خلال سنوات ؛ وحين لأمير غيره حكومة الفلاندر ، سلباً سوى رفض الأمير الأول التحالف مع ملك إنجلترا ، ذلك الرفض الذي دفع ملك إنجلترا إلى منع تصدير الصوف ، الأمر الذي تسبب في وقف صناعاتهم . ومع ذلك فلم يكن في وسعهم ، لفترة طويلة ، أن يعملوا حسب إتفاق معين ؛ إذ أن التمييز الذي كان يضعهم في مواجهة الأمير كان يضعهم في مواجهة بعضهم . ونشأت عن ذلك سلسلة من القلاقل المستمرة التي أعطت لتاريخ الفلاندر شكلاً يميز بالإضطراب . فكانت المدن الثلاث ، الموجودة هناك . تتحد

مرة ضد الأمير ، وكانت تفصل من بينها اثنتين ، مرة أخرى ، وب تأييد من الأمير ، من أجل عاربة المدينة الثالثة .

٤ - الحركات الاجتماعية في المدن :

إذا كان الإنقسام هو الذى يسود بين المدن وبعضها ، فإنه كان يسود بدرجة أكبر من ذلك بين أهالى كل واحدة من هذه المدن . وكانت هذه المراكز الكبرى للصناعات مسرحاً لصراعات إجتماعية مستمرة ، كانت بذورها قد ظهرت فى القرن السابق ، ثم استمرت بقوة لها شكل المأساة .

وكان التنظيم النقابى الذى يتناسب مع أحوال الصناع الذين يعيشون من السوق المحلى ؛ غير قادر تماماً على إرضاء حاجات صناع المنسوجات . الذين كانوا ينتجون إنتاجاً كبيراً من أجل التصدير . ولم يكن فى وسعه أن يحمى ، من نفوذ رأس المال ، أولئك الغزاليين والفساجيين المكسيكيين فى الحارات الصغيرة فى مدن الأراضى الواسطة ، أو فى فلورنسا فى إيطاليا . ورغم كل شيء ، فقد ظلوا يخضعون لكبار التجار ، الذين كانوا يسيطرون على نشاط ورشهم الصغيرة . وكانوا عمالاً يعملون فى منازلهم ، ويتقاضون مرتبات فى نفس الوقت . وإذا كان نظام النقابات يحميهم من منافسة العمال غير النقابيين ، ويحافظ بينهم على المساواة فى الظروف ، فإنه لم يصل إلى حد إعطائهم الإستقلال الإقتصادى تجاه أصحاب العمل . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك تلك الإضطرابات الناشئة بسبب الحروب ، أو بسبب منع تصدير العصور من إنجلترا ، ومن فترة لآخرى ، حدثت أزمات كان من الصعب التنبؤ بها ، ومن الصعب كذلك منعها ؛ وحلت هذه الأزمات بصناعة المنسوجات التى كانت تخضع للخارج ، وأدت بالعمال إلى البطالة . وفى الأوقات العادية كانت هناك حركة عدم رضا مكتومة بين جماهير العمال ضد أصحاب العمل الذين يستخدمونهم . ولم تكن حركات الإضراب التى إلتجأوا إليها منذ أواسط القرن الثالث عشر سوى الإرهاصات الأولى للشورة .

وهذه الثورة التي كانت إجتماعية في أصولها ، أخذت طابعاً سياسياً في شكلها . ونعرف أن البورجوازية الغنية كانت قد احتفظت منذ البداية بممارسة السلطة البلدية . وفي كل مكان كان رجال البلديات يختارون بنوع خاص من بين رجال مجموعة هؤلاء التجار ، الذين كان صناع المنسوجات يعملون لديهم . وكانت حكومتهم حكومة طبقية بكل معنى الكلمة . ومع مرور الزمن ، أصبحت علاوة على ذلك حكومة أقلية . وكانت هذه حقيقة واضحة ، تتمثل في إستيلاء بعض الأسر على إدارة المدن ، وهو الأمر الذي يمكن ملاحظته في جميع أنحاء غرب أوروبا . ولم يكن النظام السائد مهدداً في تلك الأماكن التي لم يكن للصناع فيها القوة الناتجة عن أعدادهم ، ولا تلك التي ساد فيها للشعور بالظلم . ولكنه كان من الصعب أن تستمر الأحوال على ذلك في المدن التي تضم الصناعات : ولقد إضطهدت هناك بمعارضة آلاف الأجراء ، الذين كانوا يميلون إلى المطالبة بالمشاركة في السلطة ، التي كان يمارسها ممثلون عن أولئك الذين كانوا يحتفظون بهم تحت سيطرتهم الإقتصادية .

وكانت أخطاء الأرستقراطيين عند نهاية القرن الثالث عشر قوية عليهم . وكان كل من يبعده عن حكومة المدينة يطالب بإصلاح ؛ لم يكن الأمير الأقليمي يأمل فيه ؛ وكان هذا الأمير يرغب في التخلص من العناصر المتحركة ، بينما كان صناع المهن الصغرى يحتدون على سيطرة تلك المجموعة الأرستقراطية اللانائية وصاحبة السلطة التامة . وفي مثل هذه الظروف كان من الطبيعي أن ينصر جانب عمال هذه الصناعات الكبرى . وفي الفلاندر ، وحيث كان عددهم ، وبالتالي قوتهم ، أكبر منها في أى مكان آخر قاموا قرب سنة ١٢٨٠ بكفاح ضد الأرستقراطيين . وليكن يحتفظوا بأنفسهم ضد معارضة كانت تقف إلى جانب كونت الفلاندر ، فإنهم طلبوا معونة فيليب الجليل . وأسرع الملك بإرسال المعونة لهم ، ووضع أحد سادة المنطقة تحت حمايته ، الأمر الذي أدى إلى زيادة الحقد

بين الطرفين : مجموعة كونت الفلاندر ، ومجموعة ملك فرنسا . ورغم انتصار قوات ملك فرنسا سنة ١٣٠٠ إلا أن بعض الأخطاء أدت إلى نشوب الثورة في بروج سنة ١٣٠٢ ، الأمر الذي أدى إلى نزول الفرسان الفرنسيين إلى المدينة لإعادة سلطة الأرستقراطيين . وقتل الأهل إلى بعض الفرسان أثناء الليل ، وانتشرت الأخبار ففشبت الثورة في كل مكان ؛ ثورة الصغار ضد الكبار ، ثورة الفقراء ضد الأغنياء ؛ وبدأ أن ثورة إجتماعية كانت على وشك النشوب في كل مدن الأراضي المنخفضة ، إذ أن الثورة امتدت من الفلاندر إلى برابانت ثم إلى ليمبورج . وأعاد الانتصار الذي حصل عليه عمال وصناع بروج ضد الجيش الملكي المرسل ضدهم ، في ١١ يوليو سنة ١٣٠٢ ، الثقة إلى نفوسهم ، وكان بداية لمشاركتهم في السلطة كما كانوا يأملون .

ومع ذلك فعلى أن نعترف بأن آمالهم لم تتحقق كلها . ففي أثناء القرن الرابع عشر كله ، لم تهدأ المدن الصناعية ، واستمرت فيها الاضطرابات ، نتيجة إلى الإفتقار إلى التوازن بين المجموعات المختلفة لذلك المجتمع الموجود فيها ، واستمرت البورجوازية الكبرى في محاولة إعادة السيطرة التي فقدتها . ووصلت إلى ذلك نتيجة لمساندة الأدواق لها في مدن برابانت . أما في ليمبورج فإنها اضطرت إلى التنازل ، في سنة ١٣٨٤ ، وبعد جولات دموية ، أمام رجال الصناعات . وفي الفلاندر ، وحيث كان صناع النسيج يستندون إلى سيطرة كبيرة على كل الصناعات الأخرى ، حاولوا تنظيم نوع من تمثيل المصالح ، عن طريق توزيع السلطة البلدية بين الأرستقراطيين ، ونقابات النسيج ومجموعات المهن الثانوية . ولكن المصالح التي حاولوا التوفيق بينها كانت على درجة من الاختلاف لا تسمح بنشأة وفاق لمدة طويلة .

وكان الاختلاف في ظروف الحياة بين مهن الصناعة الكبرى ومهن الصناعات الصغرى يمثل نوعاً من الصدام المستمر . وعلاوة على ذلك كانت مسألة الأجور

تسبب في نشأة إختلاف من وقت لآخر بين الفساجين والغزالين ، خاصة وأن كل من رجال هاتين المجموعتين كان يحاول أن يضم من ميزات على حساب رجال المجموعة الأخرى ، ويحصل لعملة على أجر كان يرفضه لعميل خصمه ، بدعوى منع الانقراض الزائد لأسعار المنسوجات . وكانت الإضطرابات الدموية تدفع بكفة الميزان إلى هذه الناحية مرة ، وإلى تلك مرة أخرى . وزادت الفوضى علاوة على ذلك نتيجة لمشاركة الأرستقراطيين وأصحاب المهن الصغرى في هذه الخصومة ، وتدخل الكونت ، الذي كان يتحالف طبقاً لظروفه إما مع الفساجين ، أو مع الغزالين ، وتزايد ظهور وإصدار الوائح الخاصة بتنظيم العمل ، ولكنهما لم تؤد إلى نتيجة . والواقع أنه لم يكن يكفي أن يستولى الصناع على السلطة حتى يحصلوا على الإستقلال الإقتصادي الذي كانوا يحملون به . ذلك أن سقوط الأرستقراطيين قد وضع حداً لكثير من المساوىء ، ولكن الظروف العامة التي تحيط بصناعة المنسوجات ظلت موجودة . ولم يكن هناك أى شخص في السلطة يمكنه أن يوقف الأزمات الناتجة عن الحروب ، أو أن يقرر أسعار الصوف المستورد من إنجلترا ، ولا أسعار المنسوجات الموجودة في التجارة الدولية . ولم تنتهي الصفة الرأسمالية المنسوجات نتيجة لإنهاء سيطرة الرأسماليين على حكومات المدن . ولا شك أن السيطرة المباشرة لأصحاب الأعمال على العمال قد انتهت ، أو قلت ، ولم يبعد في وسعهم بعد ذلك تنظيم الأجور أو تنظيم العمل لمصالحهم وحدهم ، ولكن ضرورات التجارة الدولية ظلت تضغط كما كانت على العمال بكل ثقلها . وإذا لم يعودوا ضحايا كبار الصناعة فإنهم ظلوا ضحايا الصناعة الكبرى . وكانوا عاجزين عن فهم ذلك . وحاولوا ، بلا جدوى ، وبكل نشاط ، قتل صناعة النسيج في الريف والقرى ، ومحاولة منافسة المدن الصغرى . كما حاول الفساجون بلا جدوى تقليل أجور الغزالين ، كما حاولت جاند بلا جدوى كذلك فرض سيطرتها على بقية الفيلاندر ، ولم يكن كل ذلك إلا أدلة على عدم القدرة من جانب إقتصاد المدن على أن يتخلص

من مطالب الإقتصاد الدولى . وإذا كان بعض الصناع قد وصلوا إلى السلطة وأصبح
فى وسعهم تنظيم صناعة المنسوجات ، فإنه لم يكن فى وسعهم إجبار التجار
الأجانب على شرائها . وأصبح من الواضح ، ومنذ أواسط القرن الرابع عشر ،
أن ازدهار صناعة المنسوجات الفلمنكية قد أخذ فى الإنهيار ؛ فقل التصدير ،
وقلت الأصواف الإنجليزية ، وارتفع ثمنها فى بروج ، نتيجة لشراء التجار
الإيطاليين لها بشكل متزايد ، وإرسالهم جزء كبير منها إلى فلورنسا ، بينما بدأت
الصناعة الوليدة فى إنجلترا نفسها فى إستهلاك كميات أكبر منها .

وتسبب عدم الرضا الذى يقاسى منه جماهير الصناع ، دون أن يتمكنوا من
معرفة أسبابه ، فى إنتشار موجة من القلق ظهرت لها أشكال لبعض الأمانى الشيوعية .
ويمكننا أن نرى مظاهر ذلك أثناء الثورة الكبرى للفلاندر ١٣٢٥ - ١٣٢٨ . كما
نتج عنها كذلك ، وفى ظروف أخرى ، بعض الزاهدين ، وحتى مدعى الإلهام .
وإستمر عمال نسيج جانده مدة عشر سنوات فى صراع مرير ضد الكونت وكبار
البورجوازيين ، وفى شكل صراع إجتماعى واضح . وصنعوا أمام الأمير ، وأمام
كل من كان عليه أن يخسر . وفى كل مكان ، كان أولئك الذين يقاسون من النظام
الإجتماعى ويعملون على تغييره يتبعون ما يحدث ؛ ومن روان وباريس إرتفعت
الصيحات بحياة جانده وبدأ أن مصير الكبار والصغار يعتمد على إنتصارهم . ولكن
ملك فرنسا أنزل بهم هزيمة شديدة سنة ١٣٨٢ ، فلم يتمكنوا من الحركة بعد ذلك .
وإذا كنا قد أخذنا الفلاندر كمثال لنا ، فإن ذلك يعود إلى أن الصناعة قد
لعبت فى هذه البلاد دوراً كبيراً ؛ وبشكل يسمح لنا بالتبصير فى حالتها على الحالة
الإقتصادية ، والحالة الإجتماعية . أما فى إيطاليا وبنوع خاص فى فلورنسا ، فإن
عمال النسيج لم يتمكنوا من السيطرة على مجريات الأحداث بنفس الطريقة . ذلك
أن صغار الأهالى قد وجدوا فى " الأهالى السمان " مقاومة ضئيلة إذ أن قواتهم
كانت أكبر . وكانت الأوضاع معقدة فى فلورنسا ، وخاصة مع تعدد الأحزاب

ومع تدخل المدينة في الصراعات السياسية الدينية التي إنتشرت في إيطاليا، وبشكل
لن يسمح لهال الفسيح بفرض أنفسهم على الموقف . ومع ذلك فقد كانوا هم الذين
قد شاركوا في نشر ثورة الأهالى في شهر يوليو ١٢٧٨ ، مفيدون في ذلك من
الخصومات المستمرة بين أسر كبار التجار . وقامت الجماهير بالإستيلاء على قصر
السيد ، وعينت رئيساً للعدالة ، وحكومة ديمقراطية ، تعمل من أجل الصناعات ،
وتحارب النبلاء ، واستمرت في السلطة حتى سنة ١٣٨٢ ، أى نفس السنة التي قضى
فيها على ثوار جاند .

وكانت الحركات الاجتماعية التي شهدتها المدن عند نهاية العصور الوسطى كبيرة
الإتساع ، وامتدت إلى ما هو أبعد من صناعات التصدير . أما تلك المدن التي
كانت تغلب عليها صفة التجارة ، فإن حكوماتها كانت في الغالب من بين التجار .
وكانت أكبر مدينة متاجرة في العالم في ذلك الوقت هي مدينة البندقية ، التي كانت
في نفس الوقت أكثر المدن أرسقراطية في نظمها . وفي ألمانيا احتفظت مدن
الهانسة برؤسائها . وكانت كولونيا في المدينة الوحيدة في ألمانيا والتي أصابها ، عند
نهاية القرن الرابع عشر ، اضطرابات تشبه تلك التي حدثت في الأراضى المنخفضة .
وفي فرنسا ، لم يتمكن الصناعات في فرض أنفسهم على سياسة المدن ، وكانت المملكة
على درجة كبيرة من القوة ، فلم تراجع عن مواجهاتهم .

ولقد جرى العرف على أن يسمى وصول رجال المهن إلى السلطة البلدية باسم
الثورة الديمقراطية . ولكن هذا التعبير خاطئ . فإذا كان من المؤكد أن إنتصار
صغار الأهالى قد نشر الحقوق السياسية في بعض المدن ، فإنه لم يساعد أبداً على
نشرها خارج هذه المدن . بل إننا نجد على العكس من ذلك أن من يسمون أنفسهم
بالديمقراطيين قد عاملوا أهالى القرى المجاورة بشدة متزايدة . ولم تطرح مسألة
حقوق المدن بدرجة أقوى مما حدث وقت سيطرة الصناعات على الحكومة ، وكانوا
بلا شك من صغار الهورجوازيين ، ولكنهم كانوا هورجوازيين قبل كل شيء .

أما الديمقراطية بمفهومها الحديث ، فإننا لا نجد لها أى أثر فى سلوكهم ، مادامت ديمقراطيتهم هى ديمقراطية أصحاب إمتيازات .

وسواء خضعت أو لم تخضع لحكومات شعبية ، فإن البورجوازية كانت تكون طبقة فى كل البلاد ، بدأت فى أثناء القرن الرابع عشر ، فى أن تشترك ، وتحت طبقة رجال الدين وتحت طبقة النبلاء ، فى النشاط السياسى للأمة . وكانت هى الطبقة الثالثة ، والذي كان نفوذها المتزايد لا يعمل إلا فى صالحهم وحدها . ولم تعتمد المدن إلى البحث عن هذا النفوذ ، ولم يحصلوا عليه إلا بصفتهم جماعة لها ذاتها . ولقد اضطروا الملوك والأمراء ، وهم مرغمون ، على مواجهة المصروفات التى زادت باستمرار عن قدرتهم المالية ، ونتيجة لأن الحزب قد أصبحت تكلف الكثير ، إلى أن يطلبوا إلى المدن تقديم العون الذى لم يعد فى وسعهم إجبارهم عليه دون موافقتهم . وفى وقت الأزمات ، استدعوا إليهم مندوبيهم ، كما كانوا يستدعون دائما مندوبى رجال الدين ومندوبى النبلاء . وهكذا إمتدت المشاركة فى الحكومة ، التى كانت قاصرة حتى ذلك الوقت على طبقتين ، إلى الطبقة الثالثة . وكان هذا هو أساس ظهور مجالس طبقات الأمة ، والذي يدل إسمه على أنه مجلس ذوى الامتيازات . وتحول ذلك الإجراء المؤقت ، مع الزمن ، وأصبح عرفاً وتقليداً ، وحاجة لمواجهة الأمور . وعلينا أن نذكر أن عمل المدن كان متزايد باستمرار . فكانت ثروتها تجعل منها القوة التى تزود الخزائن العامة بما يلزمها من الضرائب ، وبشكل يضمن لأبنائها تفوقاً أفادوا منه من أجل تقليل إمتيازات الملك ، وفى صالحهم . وزادت قوة تدخلهم فى كل مكان ، كما حدث فى إنجلترا ، فى البرلمان ، وفى فرنسا أثناء اضطرابات حرب المائة عام . وكذلك فى الأراضى المنخفضة ، الأمر الذى أعطاهم مكاناً أكثر إتساعاً من مكانة النبلاء ورجال الدين فى دساتير البلاد . وفى هذا المجال يصح لنا أن نقول أن القرن الرابع عشر كان هو قرن البورجوازية . ولكن هذا القول يعنى مجرد أن الحياة السياسية قد إمتدت إلى

بمحاولة جديدة من ذوى الإمتيازات، وهى الطبقة الثالثة، ولا يعنى أنها قد وصلت إلى الجماهير العميقة للأمة .

٦ - تفكك اطرار حياة الريف ، وثورات الفلاحين :

كانت الغالبية العظمى للأهالى فى ذلك الوقت هى سكان الأرياف ، وكانت أحوالهم بلا شك أقل مما كانوا قد تمتعوا به من قبل . وكان تحرر الفلاحين ، الذى إنتشر فى القرن الثالث عشر ، قد أنهى العلاقات ذات الطبيعة الابوية التى كان النبلاء قد احتفظوا بها معهم . ولما كان الإستقرار فى الأرض الزراعية قد تم ، فقد أصبحوا الآن محرومين من وسائل تحسين مصيرهم عن طريق الهجرة أو عن طريق إقامتهم إما فى المدن الجديدة وإما فى الأراضى المستصلحة فى الداخل . ونتج عن ذلك أن أصبحوا معرضين ، وبدون حماية ، لإستغلال أصحاب الأراضى . ومست الأزمة المالية التى بدأوا بالشعور بها فى ممالك الغرب ، والتى أسرعت بحرب المائة عام بتطورها ، الملاك الإقطاعيين ، وبالتالي طبقة الفلاحين التى كانت تعيش معهم . وتسببت الحروب فى تقليل حجم العملة المتداولة ، الأمر الذى نتج عنه إنقفاخ متزايد لأسعار المعيشة . وحاول الملوك ، وبشكل خاص فى فرنسا ، العثور على موارد استثنائية عن طريق تغيير قيمة العملة بطريقة مفاجئة ، وباستمرار . ولكن ذلك أدى إلى إضطراب الإقتصاد العام ، وبعد بضعة أشهر من الربح الصافى ، ثم فيها دفع ديون الدولة المتعاقد عليها بعملة قوية ، بواسطة عملة ضعيفة ، عادت العملة الجديدة إلى الدخول إلى الخزانات الملكية فى شكل ضرائب ، وفقدت الميزة المؤقتة الناتجة عن خفض قيمة العملة . أما قطع العملة الأجنبية ، مثل الفلورنسى فى ممتلكات البابوية ، والدوقى فى البندقية ، والتى كانت قيمتها ثابتة ، فانما احتفظت بقيمتها فى كل الأسواق . وحاولت المملكة ، بلا جدوى ، أن تحرم إستخدامها ، وتمنع تصدير الفضة ، ولكن ثقة الأهالى فى أنواع العملة الوطنية ، والتى كانت علاقتها فى تغير دائم مع العملة الثابتة ، تقلعت إلى درجة كبيرة .

أما التجارة الكبيرة ، التي كانت تتعامل بالعملة الثابتة ، فإنها لم تتأثر كثيراً . ولكن إيرادات السادة النبلاء ، وعلى الأقل تلك التي كانت تدفع نقداً ، والتي كان مقدارها لا يتغير ، فإنها فقدت الكثير من قيمتها . أما ملاك الأراضي الذين ربطوا بين زيادة أسعار المعيشة وبين قلة إيراداتهم ، فانهم أظهروا كثيراً من التشدد مع فلاحهم ؛ فأعادوا حقوقاً كانت قد ألغيت ، مثل نصيب عيني من المحصول ، والسخرة ، الأمر الذي أعاد العبودية القديمة في شكل مقنع . وعجز كثير من صغار السادة عن أن يعيشوا من ممتلكاتهم ، فبحثوا عن الثروة في الحروب ، وكونوا العصابات ، وجماعات قطع الطريق . وقاست منهم البلاد السهلة ، والتي كانت بدون دفاع ، كما قاست من الإناوات التي فرضوها عليها . أما كبار السادة ، الذين حل بهم الفقر كذلك ، والذين كان من الواجب عليهم مواجهة إنفاقات تزايد باستمرار ، حين يتبعوا المثل الذي يعطيه الملك ، والبابا ، منهم أنشأوا نوعاً من الضرائب الجديدة ، في شكل ضرائب إستثنائية . وهكذا أضيف إلى العثور التي تجمع للبابا ، والضرائب الملكية ، والمعونات التي صوتت عليها البرلمانات ومجالس الطبقات ، معونات تعطى للسادة ، وازداد ثقلها وحجمها باستمرار . وتمكنت المدن المنظمة ، من أن تدافع عن نفسها حسب قدرتها ، وحصلت على تأجيلات وتخفيضات ، ولكن طبقة الفلاحين كانت مجبرة على أن تدفع . ولما كانت المدن تستبعدهم تماماً عن كل مشاركة في الصناعة ، وكانوا غير منظمين ، فلم يكن لديهم أية وسيلة لتحسين مصيرهم ؛ وإضطروا إلى الإستسلام .

وكانت الكوارث المتتالية ، من حروب وأوبئة ، تزيد حياة الفلاحين ظلاماً . وجاء الطاعون الأسود ، الذي إستشرى في أوروبا في أواسط القرن الرابع عشر ، لكي يعطى الضربة القوية لإقتصاد السادة . ويمكننا أن ندرس نتائج هذا الوباء بدرجة واضحة في إنجلترا ، وإن كانت هذه النتائج لم تكن بأمل من ذلك على القارة نفسها . وكانت مظاهره العامة هي نقص عدد الفلاحين ، وخراب الأديرة

والمستشفيات ، وتدهور عمليات تنقية الريف . وتسببت قلة الأيدي العاملة في الزراعة ، نتيجة للأوبئة ، في إرتفاع مفاجئ في الأجور . ولم يعد في وسع الملاك أن يجدوا . العمال وفي إنجلترا حصلوا على تأييد الحكومة لهم ، حين أصدرت تشريعاً يهدف فرض معدل أجور يتماشى مع الأجور المنخفضة قبل إنتشار الطاعون ، وطبق هذا القانون بكل شدة ، وعلى العكس من كل التشريعات التي صدرت في العصور الوسطى . وإنتشرت لجان خاصة في كل البلاد ، مكلفة بالتأكد من أن العمال الزراعيين لا يستولون أجور تزيد عن الحد المشروع . وهكذا تعاونت الحكومة والنظام الإقطاعي من أجل كبت العمال ، الذين كتب عليهم البؤس وإضطروا إلى الخضوع .

ومع ذلك ، ومن بعيد لبعيد ، وكلما أصبحت المساوىء التي يقاسون منها غير محتملة ، أو كلما دفعتهم الفوضى السياسية نفسها إلى الثورة ، كان الفلاحون ينهضون بحركات مفاجئة ، تشتعل بعنفها وبشرها الذعر ؛ كما أنها كانت تشتعل بعنفها عن أن تفتش شيئاً مستمراً . وحدث ذلك في الفلاندر ، سنة ١٣٢٣ - ١٣٢٨ ، كما حدث في فرنسا ، وحدث في إنجلترا سنة ١٣٨١ .

وكانت الأولى من بينها هي الأكثر استمرارية ، وتنجت عن فرض الغرامات على الفلاندر بعد هزيمتها ، وبشكل قاسى . وساند الفلاحون فيها ثورات بروج وغيرها من المدن . ولا شك أن مشاعرهم كانت مشاعر ثورية . ولم يهاجموا النبلاء وحدهم ، بل هاجموا كل النظام الاجتماعى . وتقدم الصفوف العناصر الأكثر عنفاً من بين الأهالى ، ولم يتراجعوا أمام الإجراءات المشددة وهاجموا النبلاء والمعتدلين وكل أولئك الذين يمتنعون عن التصريح بأنهم مع الشعب ، وكان يكفي عدم العيش من العمل اليدوى سبباً للاشتباه في الشخص . وأجبروا بعض الناس على قتل أقاربهم أمام الجماهير . ولم يكن حظ الكنيسة أحسن من حظ النبلاء . وعارض الفلاحون في جمع العشور ، وأجبروا الكنائس على توزيع القمح

الموجود في محاربتها على الفقراء ، وبدأت الديانة نفسها وكأنها مهددة ، فإدعى أحد كبار قادة الثورة بأنه لم يدخل الكنيسة أبداً ، وأنه يرغب في شق آخر القسوس . وفي مواجهة عقد الشعب ، كان هناك عقد النبلاء . وأخذ الفرسان يهجمون بعنف على الفلاحين الغلاظ ، ذوى اللحاة الطويلة والملابس الممزقة ، والفجوريين بأنفسهم مثل الكونتات ، ويعتقدون أنهم يمتلكون العالم ، وبدأت الثورة سنة ١٣٣٣ ، وتحملها الحركات هدوء ، واستمرت حتى سنة ١٣٣٨ . واضطر البكونت ، لكي يقضى على الثورة إلى أن يطلب تدخل ملك فرنسا ضد الثوار الذين كانوا ، حسب قول أحد المعاصرين ، يهددون المجتمع كله ولا تنهي الانتصار الذي حصلت عليه قوات فيليب دى فالوا ، عند مونت كاسيل ، يوم ٢٣ أغسطس ١٣٣٨ ، على عصائياتهم ، بمذبحة تبعها عملية قمع كانت لا تقبل في قسوتها عن عنف الثورة نفسها . وساد النظام نتيجة للإرهاب . ولم يضطرب بعد ذلك .

أما في فرنسا ، فإن ثورة ١٣٥٨ في منطقة شامبانيا كانت قصيرة ، ولها مظاهر أقل ثورية . وكانت الحركة تهدف بنوع عام النبلاء ، وكان الفلاحون يقاسون من الضرائب ، ومن عصايات الجنود المرتزقة المسرحين ، فذهب الفلاحون ضد السادة ، واتهموهم بكونهم شبيب كل ما يحدث لهم من مساوئ . ولم تكن هناك خطة متكاملة في هذه الثورة ، ولا رؤساء معروفين ، ولا مطالب محدودة . وكانت هذه الحركة تمثل مرحلة من اليأس ، ولانفجار الغضب . وخافت البورجوازية ، وظلت وراء الأسوار ، ترقب الحركة دون أن تشارك فيها ، وربما كانت تفكر في الإفادة منها في حالة نجاحها . ولكن كيف كان في وسع هذه الحركة أن تنجح ؟ لقد تمكن الفرسان ، على خيولهم الثقيلة ، وبعد أن عجزوا أمام الإنجليز ، من أن يواجهوا هؤلاء الفلاحين بسهولة ، وبقوة أبنائهم ، ويستبيحوا نساءهم ، ويحرقوا مساكنهم . وبعد أن مرت الفترة الأولى بدأ النبلاء حملتهم ، وبدأت الحملة المنظمة ، وعاد بقايا الفلاحين إلى ملاكهم ، بعد أن تأكدوا

من ضعفهم ، وكان الفزع قصيراً ، وعنيفاً ، ولم يستمر أكثر من شهر . ولقد مر وقت طويل قبل أن تقوم ثورة فلاحين أخرى في فرنسا .

أما أحداث إنجلترا سنة ١٣٨١ فإنها انتهت كذلك بنفس الطريقة . وكان الفلاحون قد أقلل كاهلهم بتشريعات قاسية ، فقاموا في الجنوب وفي الغرب بشورة تدل على اليأس ، حين فرضت الحكومة عليهم ، وبدون حكمة ، ضريبة جديدة ، تضاف إلى الضرائب السابقة . وتميز الفلاحون بالغضب والرغبة في التدمير الناتج عن شدة البؤس . وقاموا بنهب الكنائس وإحراق قصور السادة ، وقتل كبار الشخصيات التي وقعت في أيديهم . وفي كل مكان ، كانوا يطالبون بسحب ألقاب السيادة ، ومنحوا أنفسهم صكوك التحرر التي تحررهم من الإلتزامات الثقيلة ؛ ولكن أعمالهم كانت بدون خطة ، وبدون برنامج . وكما حدث في فرنسا ، لم يتمكن الفلاحون من الصمود أمام قوات النبلاء المسلحة والمدرعة . وكما حدث في فرنسا انتهت حركتهم بعد بضعة أيام ، ولم تعد من جديد .

وكانت ثورات الفلاحين هذه تدل على خطورة المساواة الموجودة في الريف ، والإضرابات الناتجة عن الحروب التي عاشتها أوروبا ، وإنعدام التوازن الذي حدث في المجتمع نتيجة للتغيرات الاقتصادية التي سبق شرحها .

الفصل الخامس

التجارة والمراكز البحرية

إذا كان نظام الإقطاع قد ضعف ، عند نهاية العصور الوسطى ، وأفادت من ذلك الملكيات الحديثة ، وبخاصة في غرب أوروبا ؛ وإذا كانت التغيرات الاقتصادية ، التي وقعت مع هذا التغير ، في كل من الريف والمدن ، قد أدت إلى تغيرات إجتماعية ، ونتج عنها تنافس بين مراكز الانتاج الصناعى ، وحركات إجتماعيه في المدن ، وثورات الفلاحين التي عملت على تفكيك إطارات حياة الريف ؛ وإذا كان ذلك قد حصل في أهم مواقع الانتاج ، الزراعى والحرفى ؛ فإن تغيراً جديداً قد وقع على حدود هذا المجموع الأوروبى ، وفي كل من مدن وموانئ البحر المتوسط ، وكذلك مدن وموانئ الشمال ؛ ونتج عنه نمو ولزدهار وسائل العمل الجديدة ، والنظام الرأسمالى ، في كل من جنوا ، البندقية ، وكذلك في مدن الجامعة الهنسية . إنه رأس المال ، والتجارة العالمية ، في مراكز التجارة البحرية .

١ - الوسائل الجديدة :

لم تكن أوروبا الغربية قد تمكنت من أن تحقق توسعاً اقتصادياً ، في الفترة الواقعة بين نهاية القرن الثالث عشر ، وبين السنوات الأولى من القرن الخامس عشر . وظل هذا التوسع محصوراً ، كما كان من قبل ، في حوض البحر المتوسط من ناحية ، وفي بحر الشمال وبحر البلطيق من ناحية أخرى . ولكن هذه الحركة ، رغم أنها كانت محدودة ، ولم تتمدد في الجنوب مضيق جبل طارق ، إلا أنها أصبحت أكثر كثافة .

وزادت أهمية مجموعات جديدة ، زادت أهميتها باستمرار ؛ لم تستخدم الدروع والخيول ، بل استخدمت الصرف والصيد ، والودائع ، والتأمين وعقود الشركات .
لهم بحارة وليسوا محاربون ، بحارة وليسوا من الفرسان ، أما هدفهم فكان الربح أكثر منه العزو ، والأرباح أكثر من كونها الأراضى ، ولقد اهتموا بإنشاء المراكز التجارية ، والشركات التجارية ؛ إنها الرأسمالية المتاجرة التى بدأت فى العمل ، وفى النمو وإزدياد القوة ، فى الوقت الذى ضعف فيه غيرها .

وفى الوقت الذى كانت فيه الطرق البرية صعبة وغير مأمونة ، أصبح الطريق البحرى مفتوحا لحركة النشاط الجديد . وتعنى بالبحر هنا البحر المتوسط ، وكان الغرب قد أبعد المسلمين عن مالمطة وصقلية ، ولم يكن الأتراك قد تمكنوا بعد من السيطرة على المضائق . فظهر أن مستقبل أوروبا الغربية ، فى العالم ، قد إرتبط بالماء .
ولقد تحسنت وسائل الملاحة ، ورغم أن السفن الحربية كانت لا تزال تعتمد التجديف ، إلا أن السفن التجارية قد أخذت فى استخدام الشراع المثلث ، على سارية أو ساريتين ، مما سمح لها بالسير فى إتجاه مخالف للرياح ، أو بزوايا معينة ، وسمح لها كذلك بالالتفاف . وأصبحت السفن مزودة بثلاث أجهزة تسمح لها بالإبتعاد عن الساحل ، الأول هو البوصلة أو الأبرة المغناطيسية التى تسمح لها بمعرفة الشمال ، والثانى هو الاسطرلاب الذى يعين لها خطوط العرض ، والثالث هو الدقة المتحركة والمثبتة فى مؤخرة السفن ، والتى حلت محل المجاذيب الكبيرة ، الذى كان البحارة يحاولون إدارته أو تثبيته فى نقطة معينة ، وبمشقة . فأصبح من السهل بعد ذلك بناء سفن كبيرة ، يمكنها أن تسير فى أعلى البحار .

وكان معنى بناء سفن كبيرة وقوية ، إمكان شحنها بكميات أكبر من البضائع ، وتطلب هذا بالتالى وسائل مادية أكبر ، لتنفيذ هذه المشروعات ، ولذلك فإننا نجد أن تقدم الوسائل المالية ، جاء مكملًا لتقدم الوسائل الفنية البحرية فى هذا

الميدان ، فظهرت البنوك وانتشرت ، وبدلاً من نقل الذهب والفضة ، بدأ الممولون في إيداعها لدى أحد المختصين ، والذي أصبح بالتالي مسئولاً عن خزائنه ذاتها . وأصبحت « الطاولة » التي يقع عليها الإيداع أو الدفع تسمى « البنك » ، بالإيطالية . وكان من السهل على المودعين أن يدفعوا ما يرغبون في دفعه بأمر صغير لمصاحب البنك . وإذا كانت العملية مصحوبة بتغيير نوع من النقود إلى نوع آخر ، فهناك التحويل ، والصرف ؛ وإذا كانت الودائع مصحوبة بتمهيد بإعادتها مع الربح ، فهي سلفة . وبدأت بذلك العمليات المصرفية الرأسمالية ، ومنذ بداية القرن الثالث عشر .

وفي نفس الوقت بدأ الأفراد يجتمعون ويضعون مواردهم سوياً في مشروعات أكبر من أن تتحملها قوى فرد واحد منهم . وبعد عقود التوريد وعقود الشركات ، جاء التأمين البحري لكي يضمن العمليات عند أخطار البحر . وسبق الإيطاليون غيرهم في هذا الميدان ، وأصبحت جنوا مركزاً لبنك سان جورج ، أما حي الريالتو في البندقية فأصبح من أكبر المراكز المالية ، وتخصصت هذه المدن ، مع غيرها من مدن شبه الجزيرة الإيطالية في تقديم السلفيات ، واحتفظت بسجلاتها ومراسلاتها التجارية . وأصبح في وسع المصدرين والمستوردين أن يجدوا فيهما رؤوس الأموال اللازمة ، والمعلومات الخاصة بالموردين والمستهلكين في مختلف الأقاليم .

وجاءت النقود المصرفية لكي تزيد وسائل العمل التي كانت تقوم بها القطع المعدنية . وظهرت قطع فضية كبيرة وأصبحت متداولة في كل أوروبا ، وأخذ الذهب في الغرب نفس الأهمية التي كانت له في الشرق مع الدينار والبيزنطى ، وبخاصة في المدفوعات الدولية . وإزدادت أهمية نوعين من القطع الذهبية التي ظهرت في العصور الصليبية ، الأولى قامت فلورنسا بصكها وأسمتها فلوران ، ولمنتشرت بعد ذلك في كل إيطاليا وفي فرنسا وإنجلترا والإمبراطورية ، والثانية

قامت البندقية بصكها ، متشبهة في ذلك بفلورنسا ، وأسمتها الدوق ، وانتشرت
بعد ذلك في البحر ومع الفرسان التيوتونيين في بروسيا ، وعرفها المشرق بأسم
الصكة . وهكذا تفتحت مناطق النفوذ المالية ، ومناطق التغلغل المصرفية
والإقتصادية .

ولم تنتشر الأجور ، سواء للعامل ، أو الموظف أو صاحب الحرفة ، مع
انتشار النقود وإتساع إستخدامها . فأتى ذلك بالتالى على الاستعباد ، واختفى
نظام الرق من أوروبا . وزاد إستغلال الإنسان لحيوانات الجر ، وذلك بإستخدام
حزام الوسط ، وطوق الرقبة ، مما جعل هذه الحيوانات تتمكن من مضاعفة ما تجره ،
وتوفر مجهود الانسان في هذه العمليات . وأخيراً فإن سفر عدد من السادة في
الحروب الصليبية قد ساعد على تحرير أبناء القرى وأبناء المدن . فاجتمعت بذلك
العوامل الأساسية للإزدهار الصناعى .

ولم تكن هذه الصناعة سوى حرف المدن والبادية ، وإن كانت قد أصبحت
أكثر تخصصاً وأكثر تنظيمًا . وكان أهم هذه الحرف هى صناعة المنسوجات التى
إستغلت الأصواف ، وانتشرت في كل أوروبا ، وعاشت منها جيوش من الغزالين
والفساجين والصباغين . وأخذت ميلان وفلورنسا وتشكانيا في التصنع في صنع
هذه الأنسجة ، وأخذ الايطاليون يبيعونها ويوزعونها في جميع أنحاء العالم ،
وساعدت التجارة على إزدهار هذه الصناعة . وجاءت المعارض والأسواق الدولية
لكى تسهل تسويق السلع ، وتساعد على التوجيه إلى إنتاج السلع المطلوبة أكثر من
غيرها . وكانت هناك سلسلة متتالية من المعارض والأسواق تمر في فرنسا وتصل
شبه الجزيرة الإيطالية . بهرطانيا ، وألمانيا . وحينئذ قامت الحروب بين فرنسا
وإنجلترا ، تعطلت هذه الأسواق ، وأصبحت هذه السلع تمر بين شمال أوروبا
وجنوبها بحرياً ، عبر المحيط الأطلسى والبحر المتوسط . أو مع نهر الراين وعبر
جبال الألب .

وكانت هذه هي الوسائل الجديدة من سفن ونقود وأنسجة ، أما الأهداف ، فكانت هي التعامل مع بلاد الشرق ، رغم أنها إسلامية . ولقد حاول البابا أن يعارض أو يعترض على قيام مثل هذه الحركة مع الشرق ، ولكن الإيطاليين لم ينصتوا إليه . وأخذ الفاتيكان في إصدار صكوك الحرمان ، ولكنه اضطر إلى ترك هذه العملية ، وأغمض عينه عنها . وكانت أوروبا تحتاج إلى أن تباع . سواء بموافقتها أو بدونها ، وإحتاجت في ذلك إلى المراكز البحرية ، وإلى الامتيازات ، والمخازن والقواعد ، التي كانت ، في حقيقة الأمر الدعائم التي تقوم عليها المستعمرات وبدأ كل من البحارة والتجار في العمل .

(٢) أهالي جنوا :

حاولت كل موانئ الخوض الغربي للبحر المتوسط أن تجرب حظها وتعمل على تصدير الأنسجة على سفنها للشرق ، وتعود بالسفن محملة بالتوابل . وساهمت كل من برشلونة ومونبلييه ومرسيليا وغيرها في هذه الحركة ، كما ساهمت فيها جنوا وبيزا والبندقية في إيطاليا .

ورغم أن الأسبانيين كانوا قد إنشغلوا بمشكلاتهم الخاصة عن الحروب الصليبية ، إلا أنهم حاولوا الاشتراك في هذه الحركة التجارية الجديدة . وكانت أنسجة الشمال تصل إلى برشلونة عن طريق نهر الرون ، ثم بالطريق الساحلي الموازي لسواحل فرنسا الجنوبية ، أو بالسفن رأسا . وكانت برشلونة توزع هذه السلع في كل إسبانيا ، وحاولت أن تباعها كذلك في صقلية وشمال إفريقيا وفي مصر . وكانت لها مراكز تجارية في دمياط والاسكندرية ، وشركات في اليونان ، واتحدت أرغونة ونافار تحت حكم أسرة أرغونة التي سيطرت على ليون وقشتالة واستعادت لتوحيد إسبانيا ، ثم انتزعت ميورقة من المسلمين ودعمت سلطة برشلونة في منطقتها . كما أنها حكمت صقلية ، التي تخلصت من الحكم الفرنسي ، واستعادت بعد ذلك لغزو كورسيكا وسردينيا . وكانت كل هذه المحاولات تبدل

على أن أبناء أرغونة كانوا عبيدين ، وأنهم كانوا مصممين ، بعد تخلصهم من تحكم الرومان والقوط والعرب ، على أن يفتنهم ويتوسعوا فيما حولهم ، ويتحكموا في غيرهم . إنها روح إستعمارية واضحة كانت آخذة في النمو والتوسع .

أما أهالي جنوب فرنسا فكانوا يحاولون التجارة مع شمال إفريقيا ، ومع شرق البحر المتوسط ، خاصة وأن سفنهم كانت موجودة . وكان لتجار مرسلينا مراكز ومخازن تجارية في عكا ، واحتفظوا بفنادقهم في الاسكندرية ، رغم أن نشاطهم كان أقل من نشاط أهالي جنوا بكثير ، ورغم أن جنوا كانت تنافسهم في هذا الميدان .

وأما بيزا فقد قامت بنشاط كبير ، وأنشأت المراكز على السواحل السورية في أثناء الحروب الصليبية ، لكي تمولن المسيحيين ، وإن كانت قد استمرت في تزويد القاهرة بالأسلحة التي إستخدمها المماليك في حربهم ضد المسيحيين . وحصل أهل بيزا من مصر على تعريفة جمركية مخفضة لوارداتهم إلى الاسكندرية ، وظلوا يتاجرون مع شمال إفريقيا بعد هزيمة القديس لوى ، بل وسيطروا على التجارة الخارجية في موانئ تونس ، وسفاقص ، وقابس ، وطرابلس . ولقد تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا عدة مرات ، علاوة على سيطرتهم على كورسيكا نظير إيجار إسمي يبلغ جنيتها ذهبيا واحدا يدفعونه للكرمي البابوي : ولكن جنوا تمكنت من هزيمة أسطول بيزا ، وأسرت كثيرا من أهلها ، واستولت أسرة أرغونة على سردينيا ، كما استولت جنوا على كورسيكا ، وقام نزاع بين أبناء الطبقة الارستقراطية في بيزا ، ولانتهى الأمر بخضوعهم لفلورنسا ، وأصبحت سفن بيزا بعد ذلك تعمل لحساب الفلورنسيين .

وكانت جنوا تقع في مركز متوسط ، من البحر المتوسط ، وكانت في نفس الوقت أقرب من غيرها إلى مراكز الانتاج الشمالية وكان أهالي جنوا قد ربخوا كثيرا من الحروب الصليبية ، وبخاصة في إمارتي طرابلس وأنطاكية . وبعد

إنهاء هذه الحروب إتجهت أنظار أبناء جنوا إلى الأراضي القربية من امينائهم ، وخاصة إلى كورسيكا وسردينيا ، وإمتد نشاطهم إلى الساحل الأفريقي ، وتوسعوا في سبتة ، وإستمرروا في الملاحة في المحيط الأطلسى حتى سلا ، ويظهر أنهم وصلوا إلى جزائر الكناريات ، وأقاموا لأنفسهم قواعد في طرابلس وتونس وبجاية وهران وتلمسان . وإضطروا إلى محاربة العرب حتى يتمكنوا من فرض أنفسهم ، ولكن سرعان ما أظهروا أنفسهم على حقيقتهم ، كتجار ، وتفاوضوا مع العرب ، وعقدوا إتفاقات سمحت لهم بالسيطرة على تجارة إفريقية الداخلية ، التي كانت تمر عبر هذه الموانئ . وكانت سفن جنوا تحمل المصنوعات الزجاجية ، والأسلحة والأواني إلى العرب ، وتعود محملة بالتب والصفوف والجلود والعبيد . ولقد حاولت اجنوا أن تبعد المنافسين لها عن طريقها ، وتمكنت من القضاء على أهمية أبناء جنوب فرنسا ، ولكنها لم تنجح في إبعاد خطر بحارة شمال إفريقية . وإزدادت قوة أبناء أرغونة ، مما إضطرت جنوا إلى توجيه نشاطها صوب الخوض الشرقى للبحر المتوسط .

وكانت لجنوا مصالحها في الاسكندرية منذ وقت طويل ، فعملت على التحالف مع الأباطرة اليونانيين لبيت نطة حينما وجدت أن البندقية قد تحالفت مع أباطرتها اللاتينيين ، فانتصرت جنوا حينما عاد اليونانيون لحكم بيت نطة ، وحصلت على إمتيازات وتسهيلات كثيرة ، وتمكنت من إنشاء حتى بيتا وحي خلطة ، على الجانب الأيسر للقرن الذهبي ، اللذين أصبحا مستعمرة اجنوا ، ومدينة شبه مستقلة ، نمت على ضفاف البوسفور ، وكمركز الأعمال البحرية والتجارة . وحصلت جنوا من البيت نصيبين على مراكز أخرى ، على ساحل آسيا الصغرى ، وعلى جزر خيوس وليسبوس ، وإستغلتها كمراكز بحرية ، كما إستغلت الامكانيات الاقتصادية الموجودة فيها . وإستقر أبناء جنوا في قبرص ، وأقاموا مراكزهم التجارية في فابروسا ، ثم أرسلوا حملة لإحتلال هذه المدينة ، وسيطروا بذلك على

التجارة الخارجية لهذه الجزيرة . كما توغلوا في البحر الأسود ، وأنشؤوا المراكز في القرم وعند مدخل بحر آزوف ، واشتروا منها الفراء والشمع والقمح والأسماك الملاحية ، وباعوا فيها منتجات بلادهم ، والمنتجات التي كانت تأتي اليهم من مناطق أخرى . ولم تقتصر التجارة في هذه المراكز الأخيرة على التعامل مع جنوب روسيا ، بل امتدت إلى السيلج الآتيه من آسيا ، والتي كانت تصل بالقوافل من قبل إلى مالك الفرنجية في سوريا . كما كان لابناء جنود المراكز في اللاذقية ، فاشتروا منها التوابل والإفشة والأحجار الكريمة ، وباعوا فيها الأنسجة الصوفية والانبذة والحبوب .

ولم تصادف جنوا مصاعب كبيرة في مستعمراتها ومراكزها ، خاصة وأن أهل غالبيتها كانوا من أبناء جنوا نفسها . ولكن بعض هذه المستعمرات ، مثل القرم ، كانت خاضعة لحكم جنوا ، فكانت جنوا فيها مجلساً خاصاً بها لإدارتها وإرسال تعليماتها إلى أحد القناصل الموجودين في المستعمرة لتنفيذه . أما فاجومينا فإن جنوا قد عينت أعضاء المجلس الخاص بها ، ولكنه كان يجتمع في هذه المدينة . وأما مايرا وجبلطة فكانت إدارتها شبه عسكرية . وأما ليسبوس فكان حكم جنوا فيها إقطاعياً ، إذ أنه كان في أيدي أسرة أرستقراطية من جنوا . وأما بقية جزر بحر إيجه فإن جنوا قد عهدت بها إلى شركات كان عليها أن تضمن الأمن الداخلي والدفاع الخارجي ، وتنظيم المالية حسبما ترى ، ويمثلها أحد أمراء البحر في الجزيرة لتنفيذ القرارات . وكانت أسهم هذه الشركات تباع في جنوا ، كما كانت تباع فيها أنصبة من المستعمرات . ونجح هذا النظام ، واجتذب عدداً من أصحاب رؤوس الأموال في جنوا . رغم المخاطرة الموجودة فيه . وإمكانية عدم الربح أو حتى الخسارة والافلاس . واستخدمت جنوا نفس الطريقة في كورسيكا ، التي انتشرت فيها الثورات ، رغم وجود حاميات قوية فيها . فكانت جنوا شركة لإدارتها وإبعاد نفوذ أراغونة عنها ، وعملت جنوا هذه الطريقة ،

وأنشأت بنك سان جورج لتجميع رؤوس أموال كل متهول الجمهورية، ثم عادت له بكل ممتلكاتها فيما وراء البحار . وأصبح لهذا البنك مجلس إدارة ، هو في واقع الأمر مجلس شيوخ ، كما أصبحت له قواته ، وباشر « السيادة » على كورسيكا وعلى كل المراكز والمستعمرات الخاصة بجنوا .

وسواء كان الشكل الخارجى لهذا الاستعمار هو عام أو شخصى ، فإن أهدافه لم تكن إلا تجارية . وكان هدف القائمين عليه هو الشراء بأرخص الأثمان ، ثم تسخير النقل ، والبيع مع أكبر ربح . وعمل أبناء جنوا على الموازنة بين تكاليف السفر في الذهاب وتكاليفه في العودة ، كما زاروا المعارض والأسواق الدولية ، وعقدوا المعامدات التجارية مع المدن . وجاء تجار كثيرون من فرنسا والفلاندر وبلاد الراين وإنجلترا إلى جنوا ومعهم سلعهم من الأنسجة الصوفية ، عارضين بيعها . وكانوا يعودون إلى مناطقهم بعد شرائهم للحرير والتوابل من جنوا . وكانوا يجدون في هذه المدينة كل ما يحتاجون إليه من سلع وسفن ورؤوس أموال وسلفيات ، فكانوا يتعاملون ويستلفون ، ويودعون ويضاربون ، وكانت هذه المدينة تسحرهم بالطابع الشرقى الذى كان يسودها ، ويؤثر حتى في لغة ولهجة أهلها .

ولكن قوة جنوا ورفاهيتها كانت رقيقة . فكانت تحكمها جماعة تتكون من ثمانية أشخاص ، ثم بدأت الفوضى تدب في المدينة بعد أن أصبح الحكم في أيدي قائدين من « قواد الشعب » يعاونهم أحد رجال الكنيسة بأسم « راعى الشعب » ، فتنازعوا على السلطة وتنازعوا الاختصاصات ، ثم بدأت الحروب الأهلية لتأيند هذا العنصر أو ذاك . وساعد على هذه الحروب الانقسام الفكرى ، وتضارب المصالح : بين السادة البجيلين ، و « الشعب » الذى كان له إتجاه الجلف ، أو بمعنى أدق ، تبلور المصالح وتضاربها بين الارستقراطية والبورجوازية : إذ أن « الشعب » بالمفهوم الحقيقى كان مستغلا في هذا الصراع . وحاولت جنوا أن

تتخذ الموقف بتسليم السلاطة العليا فيها لدوق من الدوقات ، ولكن هذا النظام لم يوقف الصراع الداخلي والذي ترأسه أسرجنوا الكبيرة . وأخذت الأحزاب في طلب المعونة الأجنبية فدخلت جنوا تحت نفوذ ميلان ثم البابا أو نابلي أو فرنسا . وكان تضارب المصالح مع البندقية سببا أساسيا في إضعاف جنوا ، خاصة وأن هذا التضارب والتنافس قد أخذ شكل حروب شبه مستمرة ، وفي المشرق وبنزلة وقبرص . وكانت للبندقية حكومة مدعومة ، في الوقت الذي تهمل فيه حكم جنوا . ولقد إنتهز المغاربة فرصة هذا الصراع ، وتمكنوا في بعض السنوات من إقفال الملاحة في مضيق جبل طارق ، ومنعوا سفن جنوا في بعض الحملات من الوصول بالإنجارة إلى الفلاندر .

٣ - البندقية وإمبراطوريتها :

كانت البندقية تعيش على الماء وكانت تعيش من الماء . وكانت غزوات اللومباردين قد دفعت أهلها صواب البحيرات ، وإلى الاعتصام بالجزر الموجودة فيها ، وأجبرتهم على المعيشة من صيد الأسماك وإستخراج الملح ، تحت حماية بينزلة البعيدة .

ونمت البندقية حول كنيسة القديس مرقس ، وكان نظام حكمها في أول الأمر عبارة عن « ملكية شعبية » ، إن جاز هذا التعبير ، فعلى رأسها دوق ، أو دوج ، ينتججه الشعب مدى الحياة ، ولها مجلس مشغول وقوانين ، ثم أصبحت السلاطة أرستقراطية ، وتحول مجلس « الشعب » إلى مجلس « السادة » ، وأصبحت سلطنة إنتخاب الدوق في أيدي أربعين عضوا ، بعد أن إنتزعت من أيدي الشعب . وأصبحت هذه المجموعة تعد القوانين وتعرضها على مجلس « السادة » أو « العقلاء » أو « الشيوخ » ، ونشأ مجلس آخر من عشرة أعضاء لإدارة الأمن والدبلوماسية والمالية ، ثم سيطر على كل السلاطة ، وعن طريق عدد من الموظفين الذين كانوا يديرون الحياة السياسية سرآ ، وبالتجسس والوشايات .

حقيقة أن الدوقية لم تكن وراثية ؛ بما قد يؤدي إلى الفوضى ، ولكن السلطة الحقيقية كانت مركزة في المجلس الأعلى ، والذي كان من شروط الأعضاء فيه ، أن يكونوا من أبناء الأعضاء السابقين فيه ، وكان هذا المجلس هو الذي ينتخب أعضاء مجلس العشرة ، مما جعل مصير البندقية محسوراً في أيدي أبناء عدد محدود من الأسر الغنية في المدينة . وكانت السياسة الاقتصادية للبندقية موجبة ، وكان هناك إحتكار لتجارة الملح ، وضرائب معينة على إستيراد الزيت والقمح ، وإشراف تام على الواردات والأسواق . ولكن الميدان كان مفتوحاً للضباط الحزب والتجارة والأعمال المصارف ، التي ازدهرت ، وإستمرت في الإزدهار .

وأخذت البندقية في إنشاء «فروع» لها ولتجارها ، كمراكز ومستعمرات ، على الساحل البلقاني المواجه لها في زارا . ومنذ هذه اللحظة بدأت في الشعور بضرورة تأمينها ، والسير بسياساتها وسط المسافات «الدولية» والاقتصادية ، فصممت على التخلص من النفوذ البيزنطي ، وعلى إنشاء أسطول قوى لها .

وحصلت البندقية على إمتيازات إقتصادية وتجارية في مملكة الفرنجة في بيت المقدس ، وأصبحت تمتلك حيفا وثلث عسقلان وصور . وحصلت البندقية على مكاسب من بيزنطة ، وذلك باستيلائها على كورفو ، التي تشرف على مدخل البحر الأدرياتي ، وبإتسائها حياً خاصاً بأبنائها في القسطنطينية ، يشرف على القرن الذهبي ، وبإتسائها من كل ضرائب الدخول والإستيراد . وكانت البندقية هي التي حولت الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية ، لتعين أباطرة لانيين على عرشها . وكان هذا إنتصاراً كبيراً للبندقية التي أصبحت نصف القسطنطينية في أيديها ، مع ما تشتمل عليه من كاتدرائية القديسة صوفيا ، فعينت فيها حكماً وازنت سلطتهم سلطة الأباطرة الرومانيين . وكانت البندقية تحتار نقاطاً هامة لإتسائها مراكزها ومستعمراتها ، بدلاً من أن تعمل على الإستيلاء على أراضي وأقاليم واسعة ؛ فاستولت على دورازو وكريت وغاليبولي وهرقلية على بحر مرمرية ،

منهجية. بذلك صوب البحر الأسود ، ولقد أثر إنبهار الامبراطورية اللاتينية وعودة اليونانيين إلى بين نطة على إمكانيات البندقية ، خاصة وأن جنوا ، منافستها ، هي التي أخذت في تدعيم ركائزها هناك . وإقتسمت كل من جنوا والبندقية مناطق النفوذ في الشرق ، وإن لم يمنع ذلك من إستمرار التنافس . وأثر ذلك على الحركة التجارية ، خاصة وأن أعمال القرصنة والاستيلاء كل من الطرفين على سفن الآخر ، قد أصبحت من صفات هذا التنافس ، بل هذه الحرب الاقتصادية المستمرة . ودفع بذلك البندقية إلى تدعيم نفوذها ، وتوسيع نطاق الأراضي الخاضعة لها ، فأعدت إجتلال كروفو ، وسيطرت على أثينا وسالونيك ، وأخذت في مد مراكزها في البحر الأسود إلى الشمال من مصب الدانوب في القرم ، وفي بحر آزوف . كما عملت على تنمية فنادقها في الاسكندرية والقاهرة ، وعقدت إتفاقيات مع السلاطين المماليك . وإستمر البنادقة في اللاذنية يشترتون — إلى جانب أبناء جنوا — المتاجر والسلع الآتية من آسيا بالقوافل . أما قبرص فإن آخر ملوك أسرة لوسيفيان فيها كان قد عمل على التحالف مع البندقية ، وتزوج من إحدى البندقيات ، مما جعل جمهورية البندقية ترث هذه الجزيرة بعد موته .

وكانت قوة البندقية السياسية تستند إلى عوامل اقتصادية . فقد كان هناك ستة عشر ألفا من العمال يخدمون في الورش البحرية ، وكان في استطاعتهم بناء سفينة في كل يوم . وكانت مدينة الدوق مشهورة بصناعة المنسوجات ، إذ كانت تنسج الأفيطان المستوردة من سوريا والحرير المستوردة من الصين . وعمل رجال الحرف فيها على صناعة المعادن والعاج والزجاج والبوالا المشهور . وكانت التجارة ، بالنسبة للبندقية ، كما كانت بالنسبة لجنوا ، هدف كل صناعة ، وعدد كل سياسة . وكان الدبلوماسيون يعملون من أجلها ، وكذلك المجالس والأنظمة التي أعطت السلطة لأسر التجارة الكبيرة . وكانت البندقية تسيطر على سوق الملح ، كما كانت تسيطر على سوق القمح الذي كانت تستورده من البحر الأسود وروسيا ،

وتسيطر على أسواق التوابل والمستجات الشرقية التي تستوردها من الشام . وكانت تستورد الزيت من كورفو والابذة من كريت واليونان . وكانت توزع المستجات بين كل من آسيا وأوروبا وإفريقية .

وكانت هناك ثلاثة آلاف سفينة تحمل ستة وثلاثين ألفا من البحارة وتخرج من البندقية متجهة صوب شرق البحر المتوسط أو صوب الفلاندر في كل عام . وكان مجلس الشيوخ هو الذي ينظم هذه القوافل ، وهو الذي يشرف على إنشاء السفن ويعين لها قوادها وما يلزم لها من بحارة . وكان يترك ما بقى بعد ذلك ، من بيع وشراء وعقد صفقات ، للنشاط الفردى . وكانت البندقية هي التي توجه السياسة والإدارة الخاصة بالمستعمرات ، فكان نصف أعضاء مجلس العشرة مختصاً بمشكلات ما وراء البحار ، والنصف الثاني مختصاً بمشكلات الممتلكات الموجودة على القارة الأوروبية ، وكان مجلس الشيوخ يشرف على الأسطول الحربي ، ومجلس العشرة يشرف على الدبلوماسية والمالية .

وكانت البندقية تبيع من ممتلكاتها الخارجية ، إذ كانت الضرائب التي تجمعها فيها تصل إلى ٦٤٠ كيلو جراماً من الذهب في السنة ، في أوئل القرن الخامس عشر ؛ ثم زادت إلى ١٨٠٠٠ كيلو جراماً في القرن السادس عشر . أما الأرباح العامة ، والدخل القومي ، الذي يصل إلى جيوب الجنادة فكان أضعاف أضعاف ذلك . وكانت البندقية تعهد بإدارة ممتلكاتها إلى موظفين أو قناصل ، وترسل لجنانا للتفتيش على إداراتهم وحساباتهم من وقت لآخر ، وكانت لا تشرك الأهالي في الحكم ، ولكنها كانت لا تستعبدهم ؛ وإن كانت لا ترضى عن القوضى ، وتستخدم الشدة في كتبها حتى لا تعوق التجارة وتعطل الأسواق ، كما حدث بالنسبة لكريت . وكانت تعهد في بعض الأوقات إلى بعض الكونتات بإدارة مستعمراتها أو تعهد بها إلى أسر أرستقراطية ، وخاصة في القارة الأوروبية . وعملت في بعض الحالات على إحضار حاميات كبيرة ، وعلى توطين بعض أبنائها في المستعمرات ، كما حدث

مع كريت . أى إنما استخدمت استثمار « التوطين » وأفادت من هذه العناصر الواردة إلى الجزيرة لتكوين اطرار أو قيادات لها ، وبإشراف موظفي الدولة ، حتى تقضى على الروح الثورية . ونجحت البندقية حيث فشلت جنوا .

٤ - الجامعة المهنية :

نجحت المدن الألمانية مجتمعة في القيام في شمال أوروبا بنفس العمل الذى قامت به كل من جنوا والبندقية بنفسها ولنفسها في البحر المتوسط . وكانت عمليتها هى نفس عملية الاستعمار لأغراض تجارية ، ونفس عملية إنشاء المراكز التجارية شبه المستقلة والتي كانت تستخدم كمخازن وأسواق لبيع أنسجة الفلاندر ومنتجات الصناعة الغربية ، ولإسراء منتجات الأهالي والمواد الخام الموجودة . ولكن مدن الشمال قد عملت على توحيد عملياتها في الوقت الذى عملت فيه الفردية على توزيع مجهود اللاتينيين ، وساعد حب النظام أبناء الشمال على الاستمرار في عمليتهم بهذا الشكل الخاضع بهم ، ورغم أنه لم يكن لآى مدينة من مد شمال أوروبا إمكانيات جنوا المالية ، ولإمكانيات البندقية البحرية ، إلا أنها نجحت مجتمعة ، وبوضعها موازداها سوياً ، في إنشاء امبراطورية تجارية هامة .

ولقد نشأت هذه الاتحادات نتيجة لتطور اتحاد نقابات الحرف ، سواء أكان ذلك لأهداف البر والاحسان ، أو لاقامة الأعياد المهنية والدينية ، في مدينة من المدن . ثم اتحدت هذه النقابات في مدن مختلفة ، وكونت لها قوات متحدة ، لحراسة تجارتها ، وعارضة قطاع الطرق والقراصنة ، أسستها بالألمانية وهانس ، وأخذت بالتالي في الإشراف على تنظيم القوافل التجارية ، البرية والبحرية ، ثم الإشراف على الأسواق وعلى كل العمليات التجارية .

ونشأت هانسا الخاصة بلمدن بهذه الطريقة ، وأخذت في حماية المواصلات بين إنجلترا والفلاندر ، وكذلك هانسا المدن السبعة عشر في هولندا ، وهانسا « الماء » في منطقة السين في فرنسا . ثم تجمعت هذه الاتحادات سوياً ، وتعاونت

ماليا ، ثم وضعت رؤوس أموالها في اتحاد عام ، يساعدها على مجابهة الاخطار التي قد تتعرض لها تجارتها . وتحولت أعمال الاتحادات الهندسية من أعمال أمن إلى عمليات تجارية ، مشتركة .

وكانت الجامعة الهندسية الألمانية هي أشهر هذه الاتحادات ، وعملت على حماية أعضائها من الاستبداد الاقطاعي ، مثل حمايتها لتجارهم من قطاع الطرق . وتجمعت في هذه الجامعة مدن كولونيا مع موندتر ودورتموند ، وأخذت في إستغلال مناطق البحر البلطى ، وأنشأت لوبيك وروستوك وأقامت مراكزها في توفيزرود ، وعملت هذه الجامعة على حماية صيادى الرنجة فى لوبيك وغيرها ، واضطرتها هذه السياسة إلى فرض نفسها على البلاد الاسكندنافية ، والتوسع فيها من ناحية ، كما اضطرتها من ناحية أخرى ، إلى التعامل مع العالم المسيحي ، لكي تبيع أسماكها للكاتوليك ، وخاصة لوجبات يوم الجمعة ، ووجبات الصيام .

وانتقل مركز هذه الجامعة من كولونيا إلى لوبيك التى عقدت معاهدة صداقة وبحرية بحارة مع هامبورج ، ثم انضمت اليها ستون مدينة من موانئ البحر البلطى وبحر الشمال وحوض الراين ، وكانت جميعا الجامعة الهندسية . التى كانت في واقع الامر عبارة عن حلف يهدف العمل ضد أى اعتداء خارجي ، أو تحكيم داخل ، ويهدف ضمان حرية طرق الصيد وتجارة الأسماك ، والتوسع فيها . وانضمت زيوريخ وفرانكفورت ومدن الشمال والشرق ، وبريمن ومجدهبورج لهذه الجامعة ، التى نهجت في توحيد ألمانيا وعلى أسس اقتصادية ، بعد أن فشلت الامبراطورية الجرمانية في توحيدها على أسس عسكرية ودينية ، ونهجت فيها بوضعها لمواردها سويا وبالاشتراك ، بعد أن كانت تجربة الامبراطورية تقوم على أساس هزمى .

وسيطرت الجامعة الهندسية على مدن كثيرة في الأراضي الواطئة ، مثل بروج وألفن من وأمستردام . وكانت تدفع رسوم جركية مخفضة على بضائعها في بعض

المدين، وتتمتع بإعفاء كامل من هذه الضرائب والرسوم في مدين أخرى، دون أن تصل تجارتها إلى إحتكار السوق إحتكاراً كاملاً. وكانت الجامعة تستخلص الملح من الحفظ أسماكها من غرب فرنسا، كما حصلت فيها على إعفاء تجارتها من الضرائب، وحصلت على حق البيع والشراء وبذلك. وكانت الجامعة الهنسية تشتري الصوف من إنجلترا، وتصدر إليها المنتجات الشرقية والإستوائية والخشب والبهادن. وكان لها مركزاً محصناً في لندن. يعيش فيه التجار الألمان معيشة تشبه إلى حد كبير معيشة الرهبان في الأديرة. واضطرت الجامعة الهنسية إلى أن تحارب في بلاد الشمال الإسكندنافية، حتى تركز أقدامها في هذه المناطق، فأغارت على كوبنهاجن، وفرضت نفسها على الدانيمركيين والنرويجيين، وعقدت معاهدة تجارية معهم، حصلت بها على ثلاث موان، ومركز ثابت للصيد. وبعد حرب ثمانية حصلت الجامعة الهنسية على بعض المراكز التجارية في الدانيمرك، وإعفاء من رسوم الملاحة البحرية، واختصار دخول البحر البلطي لسفنها. واحتلت الجامعة الهنسية أستكولم لكي تقضى على العضابات وأوكر القراصنة الموجودة فيها، والموجودة بالقرب منها. وتمكن رجال الجامعة الهنسية من إنشاء المراكز التجارية، من البحر البلطي، في داخل روسيا نفسها.

وهكذا امتدت أراضي الجامعة الهنسية من إنجلترا إلى روسيا، ومنسندة إلى مراكز ونقط ثابتة. وكانت الجامعة الهنسية تشبه دولة منتظمة أكثر من شبهها بشركة تجارية، فكان لها مجلس أو برلمان، يجتمع في لوبيك مرة كل ثلاث سنوات، وقسمت مناطق عملها إلى أربعة أقسام هي وستفاليا وعاصمتها كولونيا، وساكس وعاصمتها برنزيك، والفاند وعاصمتها لوبيك، وبروسيا وعاصمتها دانترج. وكانت تعاقب كل مدينة عاصية وتفرض عليها الضرائب أو الغرامة، أو تصادر سفنها وتجارتها، أو تطردها من الاتحاد، مما يؤدي إلى أنهارها الاقتصادية.

وكانت مراكزها في الخارج محاطة بأسوار ، وتقفل أبوابها ليلاً ، ويحكمها خمسة من الشيوخ ، ويعاونهم مجلس من ثمانية عشر عضواً . وكان أبناء الجامعة يعيشون في هذه المحطات حسب نظام معين ودقيق ، وحرّم الاتحاد عليهم تكوين الشركات مع الأهالي ، أو استخدام أبنائهم ، أو الزواج معهم . كما حرّم عليهم تمثيل هيئات غريبة عن الجامعة الهندسية ، والقيام بعمليات تجارية مستقلة أو لحسابهم الخاص . ولم يكن من حق أي سلطة ، سوى قضاة الجامعة ، أن تتدخل في خصوصياتهم ، وطبقاً لقوانينها . وكانت سلطة الاستئناف مركزة في محكمة لوبيك . وكانت للجامعة الهندسية مواردها الثابتة من الضرائب ، كأي دولة من الدول ، وكانت تفرض رسماً معيناً على السفن والبضائع التي تدخل موانئها . كما كان لها جيشها وأسطولها الحربي . وكانت تعلن الحرب ، وتعتدّ الصلح . وكانت قوتها ترجع إلى سياسة الإحتكار التي سارت عليها ، إذ أنها كانت الوسيط الوحيد في كل العمليات التجارية في شمال أوروبا ، وكانت تباع هذه المناطق توابع الشرق ، وتمنع سفن غرب أوروبا من دخول الموانئ الاسكندنافية وموانئ البحر البلطي . وكانت هي وحدها التي تباع الرنجة المجففة والمملحة والمدخنة لكل العالم ، كما كانت تحتكر عنبر بروسيا وحديد السويد وأخشاب الترويج وفراء روسيا ، وكان تجارها يتوغلون في القارة مع الأنهار ، فكانوا يوصلون الأنسجة الفلامنكية إلى سيليزيا وبوهيميا ، ويعودون منها بالمعادن . ولذا كانت قيمة تجارة الجامعة الهندسية أقل من قيمة تجارة المدن الإيطالية ، إلا أن حجمها كان يماثل حجم تجارة هذه المدن .

وبدأ ضعف الجامعة الهندسية من داخلها . ذلك أن أهالي المدن الألمانية أخذوا في الثورة على دكتاتورية الأرستقراطية التجارية ، وتمكنت الأحزاب « الشعبية » من الوصول في بعض الحالات إلى الحكم . كما أن التنافس قد ظهر ، ثم تزايد ، بين مدن البحر البلطي ومدن بحر الشمال ، وفشلت لوبيك في فرض نفوذها ،

والوحدة الهنسية ، على المشافسين . ثم جاءت عوامل خارجية ساعدت على إضعاف الجامعة الهنسية ؛ ذلك أن هذه الجامعة قد اضطرت إلى إعلان الحرب على الدول الإسكندنافية الثلاث التي إتحدت مع بعضها ، حتى تحتفظ بمصالحها هناك ، كما قامت جماعة الإخوان التيوتونيين بتأييد المدن البروسية في حركة تحرزها وخروجها من الجامعة .

ولقد ظل البحر البلطى هو مركز قوة الجامعة الهنسية ، وهدف سياستها . ومن أجل تنفيذ هذه السياسة ، واجهت الجامعة الهنسية عدواً عنيداً ، يتمثل في شخص فلاديمير الرابع ، ملك السويد النشط ، الذي وجه ضربات قوية للسادة الإقطاعيين في بلاده ، ودعم سلطته ، وأخذ يحلم بتوحيد الدول الإسكندنافية تحت سيطرته ، وإخضاع مدن الجامعة الهنسية لأهدافه . وأرسل حملة عسكرية ، في شهر يوليو سنة ١٣٦١ ، إلى جزيرة جوتلاند ، حطمت المركز التجارية الموجودة فيها . وأدى ذلك إلى إتحاد بعض المدن مع الجماعة التيوتونية في هامبورج وبريمن وكيل ؛ واستندوا إلى تأييد ملك السويد ، وأعلنوا الحرب على الدانيمرك . ولما لم يتمكن أسطولهم الذي قاده عمدة لوبيك لم يحرز نصراً حاسماً ، وظل ملك الدانيمرك يسيطر على الموقف ، وتمكن من أن يفرض مع شروط الصلح على الجامعة الهنسية ، نوعاً من التحالف يشبه إلى حد كبير الخضوع لسيطرتهم ، وذلك في شهر نوفمبر سنة ١٣٦٥ .

ولكن الجامعة الهنسية عادت ، بعد عامين من الخضوع ، إلى الكفاح من جديد ضد الدانيمرك ؛ وعقدت في سنة ١٣٦٧ رابطة قوية مع كولونيا ، واشترك فيها ما لا يقل عن ٧٧ مدينة . وابتعدت كذلك إلى معونة سادة هولشتاين وملك للسويد ، وكونت وحدات محاربة ، وأسطول بحرى ، وأعلنت الحرب على الدانيمرك في العام التالي ، وتمكنت من الإستيلاء على كوبنهاجن ، الأمر الذى أجبر ملك الدانيمرك على طلب الصلح . وتأكدت امتيازات الجامعة الهنسية من

جديد ، وحصلت على حرية الملاحة . والإعفاء من كل الضرائب الجزئية ، وحتى إنشاء مراكز تجارية مستقلة في الأراضي الدانيمركية ، وإحتلت بعض أقاليم الدانيمرك كغرامة حرية وحصلت على صوت في إختيار خليفة ملك الدانيمرك الذى كان قد تقدم به السن .

وعلىنا أن نلاحظ أن الجامعة الهنسية لم تكن لها أية أطماع إقليمية ، بل كانت ترغب في مجرد الحصول على السيطرة البحرية ، وتم لها ذلك عن طريق تحطيم قوة الدانيمرك . وحصلت الجامعة الهنسية ، دون إحتلالها للدانيمرك ، على حرية منشأتها التجارية أمام أى تدخل أجنبي ، وعلى فتح المضائق أمام سفنها . وكانت هذه المعاهدة ، التى عقدت سنة ١٣٧٠ ، إنتصاراً واضحاً للجامعة الهنسية . وحين زار الإمبراطور شارل الرابع لوبيك سنة ١٣٧٥ ، تأكد نفوذ هذه المدينة ، عاصمة الجامعة الهنسية ، والتى كانت تسعى إلى الإستقلال ، بخضوعها لسيد خاص من النبلاء ، وفى شكل مشابه لروما والبندقية وبيزا وفلورنسا .

وأصبحت الجامعة الهنسية تجمع ، فى عمل مشترك ، كل المدن المطلة على السواحل الشمالية ، وكذلك مدن سهول ألمانيا الشمالية ، مثل كولونيا ، ودور تموند ، ومونستر ، وفراנקفورت . وأصبح لأعضائها مراكز لها إمتيازات تجارية فى روسيا ، والسويد والدانيمرك وإنجلترا والفلاندر ، كما أصبح لها مراكز تجارية دائمة فى لندن ، وفى بروج ، التى كانت تتصل عن طريقها ، وبواسطة الملاحة ، بسواحل المحيط الأطلسى ، وسواحل البحر المتوسط .

٥ - البحارة الإيطاليون :

ومنذ بداية القرن الرابع عشر ، كانت سفن البندقية ، وسفن جنوا ، تلتقى مع سفن الجامعة الهنسية فى بروج ، التى أصبحت منذ ذلك الوقت وحتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر حين أخذت أنفرس مكانها ، هى المركز الرئيسى للعمليات الدولية فى أوروبا . ولم يعد مينائها الداخلى مع مينائها الخارجى ، يكفى

لاستقبال كل السفن التي توجه إليها ؛ فكانت السفن الكبرى تضطر إلى الوقوف قبل الميناء . وكان الأجانب يحتلّون في المدينة نفسها ، ويقومون بالمعاملات التجارية ، والمبادلات ، والعمليات المصرفية .

وكان الإيطاليون هم الأغلبية بينهم ، كما كانوا الأكثر نفوذاً ، نتيجة لمعاملاتهم ، وضخامة رؤوس أموالهم . وكان تفوقهم نتيجة طبيعية لسيطرة إيطاليا الاقتصادية ، وإن كان ذلك يتنافض تماماً مع الفوضى السياسية التي كانت تضرب أطرافها في شبه الجزيرة الإيطالية . وكان العالم لا يزال بعيداً في ذلك الوقت عن قيام الدول بالمسير في الطريق الماركسيتلي . وكانت كل من البندقية وجنوا قد أفادت من موقعها الجغرافي ، ومن تقدمها على الدول القارية في فن التجارة وأعمال المصارف ، واحتفظتا بسيطرة لم يحرّوا أحد حتى ذلك الوقت على منافستهما فيها .

وكانت كل من البندقية وجنوا قد عملت ، بذكاء أبنائها ونشاطهم ، على اجتذاب كل السلع والمتاجر التي كانت تصل من الصين وفارس والهند وآسيا الوسطى والبلاد العربية إلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط : مثل الحرير والعطور والمجوهرات الثمينة ، وكذلك التوابل المختلفة ، والتي كانت تجارتها تضمّن لهم أرباحاً تزيد عن أرباح كل السلع الأخرى ، ولا يمكن عقد مقارنة بينها . وكانت غزوات المغول ، التي غيرت من شكل آسيا ، قد زادت من عزيمتهم ، ووسعت نطاق عملياتهم . وأصبحت الموارد الغذائية تصل من الصين ، عن طريق التركستان ، إلى طرابزون والقرم وفارس ؛ كما أن السلع التي كانت تأخذ طريق البحر كانت تصل في غالبيتها إلى مصر عن طريق عدن والبحر الأحمر ، أو عن طريق هرمز ، على الخليج الفارسي ، ومنها إلى موانئ الشام . وكان تجار البندقية وجنوا يذهبون إلى هذه البلاد لشراء هذه السلع ؛ واحتلّوا مواقع في القرم ، وازدهرت أماكنهم في كل مكان ؛ وأنشأت جنوا إدارة خاصة في القرم ، للإشراف على التجارة في البحر الأسود . وأصبحت السلع الروسية ، مثل الأسماك المملحة والقمح والفراء

والجلود ، أو الصينية ، مثل الحرير والتوابل ، يعاد تصديرها من القرم صوب أوروبا . وأفاد تجار جنوا من ضعف نفوذ المغول في جنوب روسيا ، لكي يوسعوا مناطق نفوذهم في القرم . وتم نفس هذا التوغل في فارس ، حيث أقاموا في تبريز ، وذلك في الوقت الذي عقد فيه البنادقة معاهدة للتجارة مع خان الفرس ، وعينوا قنصلهم في إيران سنة ١٣٢٠ .

وتمكنت كل من البندقية وجنوا ، نتيجة للأرباح الضخمة التي حققتها ، من أن تصبح لهارقوس أموال ضخمة ، الأمر الذي يفسر أهمية المكانة التي وصلت إليها في العالم ، رغم كونها لا تتناسب مع قوتها العسكرية . وأصبحت كل منهما وسيطاً ، لا يمكن الاستغناء عنه ، بين أوروبا وآسيا ، وأصبحت ثرواتها تعوضهما عن الخدمات التي يقومون بها . وتكافئتهما على نشاطهما في ميدان الأعمال . ويعود إليهما ، وإلى أبنائهما ، الفضل في تحسين وسائل العمل المصرفي : فقاموا بإبتداع أمور الدفع ، وتعمية السلفيات البحرية ، وساعدوا على ازدهار المؤسسات المصرفية ، ولعبت المضاربات دوراً هاماً في أعمالهم .

ولاشك في أن البندقية وجنوا ، كمراكز تجارية كبيرة ، كانت لها إشعاعاً في المناطق الواقعة حولها ، وتسبب ذلك في ازدهار لا مثيل له في كل شبه الجزيرة الإيطالية . وأفادت من ذلك مناطق لومبارديا ، وتوسكانا ، وفلورنسا ، التي اعتمدت على صناعة النسيج ؛ وأصبحت أكبر مركز تجاري في جنوب الالب . وفرض الإيطاليون أنفسهم على بقية بلاد أوروبا عن طريق السيطرة على تجارة الفضة ؛ وكانوا قد حووا ، منذ نهاية القرن الثالث عشر ، محل من يقدمون السلفيات المحلية ، والذين كانوا أقل ثراء منهم ، وأقل حكمة من هؤلاء المنافسين الجدد . وقل أن نجد ، في أثناء القرن الرابع عشر ، رجال مصارف من غير الإيطاليين ، حتى أصبحت كلمة لومباردي تعني من يقوم بإقراض النقود . وكان رجال الأموال يتركزون كذلك في فلورنسا ، وإشتهرت منهم أسر ألبيرتي ،

وباردى ، وميديشى ، فى أثناء القرن الخامس عشر . وكانوا يتدخلون شخصياً ، أو عن طريق مندوبيهم ، فى باريس ولندن وبروج وأفينيون ، وفى جميع أنواع العمليات . وعملوا كرجال مصارف البابوية ، وقدموا القروض للملوك والأمراء . كما أخذوا حق صك العملة فى إنجلترا وفرنسا ، وحق جمع الضرائب . وربما كان هذا التوسع سابقاً لأوانه ، خاصة وأن بعض هذه الأسر أعلنت إفلاسها فى أواسط القرن الرابع عشر ، ومضى قرن من الزمان قبل أن يظهر تفوق أسرة ميديشى من جديد .

وتسبب التفوق الواضح للبحرية والوسائل التجارية الخاصة بالإيطاليين فى تقليل أهمية الأسواق ، إذ أنه لم تعد هناك حاجة لهذا اللقاء الكبير بين تجار الشمال وتجار الجنوب . وكانت الإضطرابات والحروب تقلل من أمن الطرق البرية فيما بين بروج وإيطاليا ، رغم كونها مزودة بسلسلة من أماكن التبادل والأسواق والمخازن والمصارف . وكانت الجماعات المسلحة تنهب المسافرين ، وتوقف التجار ، وتفرض الاتاوات على كل من يقابلها ، وشارك فى ذلك بعض مجموعات من المحاربين كذلك . وأدت هذه الفوضى وقلة الأمن إلى التخلي عن طرق التجارة البرية بسرعة ، وأصبح البحر ، رغم مخاطرة وبطء حركة الملاحة فيه ، أكثر أمناً . وأصبحت السفن تمر مباشرة من مضيق جبل طارق صوب شمال فرنسا ، وبدأ المحيط يلعب دوراً للاتصال بين هاتين المجموعتين البحريتين الأوربيتين : مجموعة البحر المتوسط ، ومجموعة بحر البلطيق .

وسرعان ما أدت المنافسة السياسية بين فرنسا وإنجلترا إلى دفعهما صوب التنافس على السيطرة على هذا الطريق التجارى ، الذى تزايدت أهميته . وكان الأمر قد ازداد تعقيداً ، إذ أنه قد نشأ ، إلى جانب تجارة العبور التى يقوم بها الإيطاليون ، حركة تجارة وتبادل محلية ، جاءت لتزيد من أهمية تجارة المحيط . وكان بحارة برودو ، والبحارة الإنجليز ، قد أخذوا فى منافسة بحارة البرتغال

وخليج بسكاي ، وأخذوا يقومون بالملاحة بين شمال فرنسا ، وسواحل بحر المانش ، ولندن وبروج ، وذهبوا حتى بلاد النرويج لإحضار الأخشاب وأسلاك الرنجة المدخنة ، نظير القمح والأصواف التي كانوا يحملونها من إنجلترا . وكان ذلك من بين الأسباب التي دفعت إدوارد الثالث إلى محاولة السيطرة على بورديو ولاروشيل . وإحتلال إقليم بريتانى ، الأمر الذى دفع شارل الخامس إلى أن يرد على ذلك بإقامة تحالف يستند إلى بحرية قشتالة ، وإلى تجار بسكاي ، الذين كانوا ينافسون تجار لندن وبريستول .

ورغم هذه الصراعات ، وربما بسببها ، تمكنت سفن جنوا والبندقية من أن تجد لها إمكانيات جديدة للتوسع في المحيط الأطلسي . وتمكنت المؤسسات الإيطالية ، نتيجة لتقدم الوسائل التجارية ، من أن تعين لها مندوبين يتصلون بها مباشرة ، من كل مركز من مراكز الأعمال . وحاول الآخرون أن يتشبهوا بما كان يقوم به الإيطاليين ، الأمر الذى جعل التنظيم التجارى لبلاد الشمال يتطور ويتأثر بالإيطاليين .

وبدأت ألمانيا الجنوبية ، نتيجة لقربها من البندقية ، فى أن تشارك بنشاط فى الحركة الإقتصادية التى كانت قد سبقتها إليها الجامعة الهنسية ومنطقة الراين . وأصبحت مدن ألمانيا الجنوبية مراكز متوسطة بين موانئ بحر الإدرياتيك والمدن البحرية فى الشمال . وتأثرت كل من بوهيميا وهولندا بالتوغل المتزايد للتجارة فى القارة الأوروبية ، الأمر الذى ساعد على نمو مدينة براغ .

وهكذا شعرت أوروبا ، بوقوعها بين بحرين داخليين — البحر المتوسط وبحر الشمال — بتزايد ونمو عمل منعش ، كان يتم منذ وقت طويل من حولها . ونشأت حركة عامة للمواصلات ، بين كل أجزائها ، ساعدت على توحيدها فى مجموعة متماسكة ، وزاد تضامن أجزائها مع بعضها . وكان إنتشار مرض الطاعون الأسود من سنة ١٣٤٧ إلى سنة ١٣٥١ فى كل مناطق أوروبا ، دليلاً كافياً على وجود هذا العامل ، الهام ،

الفصل السادس

الاتجاهات الاقتصادية الجديدة

إن النصف الأول من القرن الخامس عشر الذي يبدو ، إذا ما نظرنا إليه من النواحي الدينية والسياسية والثقافية ، كفترة أزمة ، أو كمرحلة تحول عميق ، يظهر بشكل مخالف تماماً في الميدان الاقتصادي : فلم يكن هناك بعد ما يدل على أن أوروبا كانت في انتظار اتجاه غير متوقع للحركة التجارية ، وأن إكتشافات العالم الجديد ستعمل على تحويل محور توازنها الاقتصادي ، من بحر البلطيق والبحر المتوسط ، إلى المحيط الأطلسي ، وذلك في نفس الوقت الذي تتغير فيه ظروف المعيشة اليومية ، وتسبب في نمو الرأسمالية ، والصناعة ، ونظام العمل ، والتنظيم المالي ، مما سيكون له أخطر النتائج .

ولاشك في أن أوروبا قد تغيرت ، حتى منتصف القرن الخامس عشر ؛ ولكن هذا التغيير كان كمياً وليس كيفياً ؛ فكانت الحركة مستمرة ، ومتزايدة ، ولكن على نفس الخط ؛ وكان التقدم ، بالتالي ، في نفس الاتجاه . ولم يكن هناك ما يسبح بالتنبؤ بأنها ستأخذ اتجاهاً مختلفاً تماماً ، بعد خمسين سنة أخرى . وكانت الأحداث السياسية الضخمة قد عبرت فوقها ، ودون أن تؤثر فيها . ذلك أن زيادة فقر فرنسا وإنجلترا في حرب المائة عام ، والفوضى المتزايدة في إيطاليا وألمانيا ، وإنشاء دولة برشديا ، وتدعيم الممالك الإسبانية لم يكن لها على الاقتصاد العام إلا نتائج مؤقتة ؛ دون أن تغير مذهب أسامي وجوهري في هذا النظام . وكان في وسع البعض أن يعتقد أن توسع هولندا ، بعد انتصارها على الفريسان البرتغاليين (١٤١٠) ، ووصولها في الشمال حتى سواحل بحر البلطيق ، في نفس

الوقت الذى وصل فيه توسعها جتوباً إلى البحر الأسود ، سيجعل من هذه الدولة وسيطاً بين أوروبا وآسيا ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ؛ وجاء توسع الأتراك فى حوض البحر الأسود لكي يقفل هذا الطريق الجديد أمام العناصر السلافية . وكان البحر المتوسط ، وحق سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، رغم قربها من الكارثة ، لم يتأثر بعد باقتراب وزحف العناصر المتبروة . وظلت إيطاليا تحتفظ بذلك التقدم الذى كانت قد حصلت عليه منذ القرن الثالث على أوروبا الشمالية ، دون أن يفكر أحد فى أن أنهارها كان قريباً . وفى البحر الداخلى الثانى ، الذى كانت أوروبا تطل عليه ، وهو بحر الشمال ، لم يكن هناك أى دليل على التغيير ؛ وظلت الجامعة الهنسية مهيمنة هناك كما كانت فى الماضى . ولم يكن فى وسع أحد أن يتنبأ بأن كل من إنجلترا وهولندا سوف يرثانها هناك .

ولكن الأحوال تغيرت عند أواسط القرن الخامس عشر . ذلك أن إقفال الطرق التى كانت توصل آسيا بشرق البحر المتوسط ، نتيجة لغزوات الأتراك ، أجبرت أوروبا على البحث ، فى اتجاهات جديدة ، عن وسائل تضمن لها استمرار توازنها الاقتصادى . ولم يعد البحر المتوسط هو الشريان التجارى الكبير ، كما كان عليه الحال منذ العصور القديمة ؛ وخسرت الشعوب التى عاشت على سواحلها ما كانت تجنيه من احتكارها لهذه التجارة . وكان هناك تغيير قادم ، دون أن يتمكن أحد إلا من رؤية بعض مظاهره الأولى .

١ - نمو الرأسمالية :

إن الظاهرة الأولى ، المؤثرة والجديدة ، وسط هذا الاستقرار العام ، وذلك التوازن الاقتصادى فى النصف الأول من الخامس عشر ، تتمثل فى زيادة توزيع التجارة الرأسمالية . وكانت تسوغل أكثر وأكثر ، من مركزيهما : البندقية فى الجنوب ، وبروج فى الشمال ، فى جميع أنحاء القارة الأوروبية . وأصبحت الوسائل التى ابتدعها الإيطاليون فيما يتعلق بالتسليف ، ومثل ذلك الدفاتر ،

والمراسلات ، أمراً عادياً لدى كل رجال الأعمال . وقام الألمان ، الذين عملوا ذلك في فندقهم المطل على بحر الإدرياتيكا ، بنشر إستخدامها بين بنى جنسهم . وشهد جنوب ألمانيا ، الذى كانت له علاقات وثيقة مع البندقية ، نشاطاً واضحاً منذ منتصف القرن الرابع عشر . وأصبحت للشركة الألمانية الكبرى ، التى أنشأها جوزيف هومفى فى رافنزبورج سنة ١٣٨٠ ، فروجاً فى جميع أنحاء أوروبا . وأصبح لديها ، عند نهاية القرن الخامس عشر ، فروجا ومراكز ، فى كل الدول : فى إيطاليا فى جنوة وميلانو ؛ وفى إسبانيا فى سرياقوسه وبرشلونة وبلنسية ؛ وفى فرنسا فى ليون وأفينيون ومارسيليا ؛ وفى الأراضى المنخفضة فى بروج وأنفرس ؛ وفى سويسرا فى برن وجنيف ؛ وفى ألمانيا فى كولونيا ونورنبرج ؛ وكذلك فى فينا وفى بست . وكان رأسمالها يقدر بما لا يقل عن إثني عشر مليوناً من عملتنا الحالية ، وكانت كل تجارتها ، البرية والبحرية ، هى تجارة الجملة . ومنذ قرن سابق ، لم يكن فى وسع مثل هذه العملية أن تقوم ، تنظيمياً ، إلا فى إيطاليا . ولكن معرفة التقنية التى تتطلبها ، فى مديريها وموظفيها ، وكذلك طرق المراسلات ، كانت قد إنتشرت فى كل مكان ، الأمر الذى فتح المجال أمام الرغبة فى مواصلة الأعمال . وإذا كانت التجارة المحلية قد ظلت خاضعة للتنظيمات الدقيقة الخاصة ببناءات الحرفيين ، وباتجاه الحماية الصارم لإقتصاد المدن ، فإن التجارة الكبيرة لم تخضع لها ، ولم تخضع إلا للاتجاه الفردى الرأسمالى ، والذى كان التجار ورجال المصارف الايطاليين قد أعطوا أمثلة كثيرة عليه أثناء القرن الثالث عشر ، وظلوا من كبار ساداته ، حتى القرن الخامس عشر : فكانت أسرة البيرتى قد أخذت مكان أسرة برونزى وأسرة باردى فى فلورنسا حتى سنة ١٤٥٠ ، ثم تركوا مكانهم بعد ذلك لأسرة مديتشى التى كان لها أكبر متجر يعتقد أنه موجود فى العالم فى ذلك الوقت .

ومن جانب آخر نلاحظ أن إزدياد قوة الدول الملكية قد ساعد على نمو

الرأسمالية . وكانت المملكة قد إلتجأت ، في كل من فرنسا وإنجلترا ، وفي إنشاء القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وفي إحتياجها النقود ، إلى رجال المصارف الإيطاليين . ولكن رجال الأموال الوطنيين أخذوا في الظهور إلى جانب الإيطاليين ، ووضعوا أنفسهم في خدمة الدولة ، وقاموا بأعمالهم وأعمالها في نفس الوقت . وكان بيير بلادلين ، أحد مستشاري دوق برجنديا في الأراضي المنخفضة ، قد أدار خزنة سيده بكل ذكاء ، الأمر الذي جعله يحقق أرباحاً طائلة . ولدينا مثل جاك كير في فرنسا ، وهو المثل الذي يشرح لنا كيف أن السلطة الملكية قد شاركت في تكوين ثروة ضخمة . وكان جاك كير قد بدأ صغيراً ، ولم يكن يتصف إلا بالذكاء والمثابرة ، وشارك مع مجموعه من المتحمدين كان شارل السابع قد أعطاها حق ملك العملة ، وكانت الشركة مختلطة ، وجاءت عملية التجاره في المعادن الثمينة لكي تساعد على الإغراء بالعمل في المضاربات . وتمكن كير ، في خلال بضع سنوات ، من تحقيق أرباحاً طائلة ، وذلك عن طريق تصدير الفضة للشرق ، وإستيراد الذهب لفرنسا . ثم ضاعف بعد ذلك حجم عملياته ، وأخذ من الملك حق إستغلال مناجم ليون ، وأحضر العمال الألمان للعمل فيها . وأصبح « مورد الفضة » للبلاط ، أي « مول » البلاط ، فأخذ يقرض النقود طوًلاء العملاء من النبلاء ، ويبيع يتراوح بين ١٢ / ٥٠ . وأصبح رأسمالياً حقيقياً ، إستخدم أرباحه في تنمية مشروعاته ، أو في المشاركة في مشروعات الآخرين . وقيموا ، مع بعض المبالغه ، عدد المصانع التي كان يمتلكها بثلاثمائة مصنع ، موزعة في كل غرب أوروبا وفاجوستا وبروج ولندن . وكان أساس عملياته هو المضاربة ، فإتهموه بأنه يعمل على تحطيم التجارة الأمان ، وكانت ضخامة ثروته كارثة له ، وكانت سبباً في سقوطه ، فإتهم بأنه غير قيمة العملة ، وزور دمية الملك لها ، فنفي من المملكة ، وذهب إلى قبرص ، تاركاً وراءه ثروة تقدر بإثنين وعشرين مليون فرنك ذهب ، علاوة على عدد من التصورات في باريس

وتور وهو نبيليه ، وما يقرب من ثلاثة أبعادية .

وكان مصير جاك كبير ، رغم إنتشار قصته أكثر من غيره ، هو مصير الكثيرين من غيره . ويمتلى تاريخ القرن الخامس عشر بأسماء رجال جدد ، مثله ، جمعوا ثروات طائلة من المضاربات ، والاحتكارات ، وإستغلال عمليات النقود والتسليف . وجمع الكثيرون من رؤوس الأموال الضخمة هذه بسرعة ، وغالباً ما كان ذلك بوسائل غير أمينة ، ثم إنتهى الأمر بأصحابها إلى إعلان الإفلاس ، أو تقديمهم أمام القضاء . ولكن ذلك يصور ، بطريقة واضحة ، ذلك النمو الذى أصاب الرأسمالية فى شمال جبال الألب . ومن الطبيعى أن من يبحث عن الثروة لا يتقيد بالأخلاق التقليدية . فالقطيعة كاملة بين طريقة تعامل رجال الأعمال وبين تعاليم الدين ، مع رفضها أخذ أرباح على السلف ، ونظريتها عن الثمن الحقيقى ، ونظرتها إلى حب الربح على أنه نوع من البخل ؛ كما أنه كان هناك إختلافاً واضحاً بين روحهم ، وبين طريقة تفكير البورجوازية الصغيرة المتجمعة فى نقابات المدن ، والى كانت متحمسة لمنح التنافس ، والاحتكار ، ورفع الأسعار ، وتخزين المواد الأولية . ولقد حاولوا أن يزيدوا اللوائح التى تنظم الصناعة ، وتحديد البيع ، والشراء ، والإنتاج ، فى مجموعة من التشريعات الدقيقة ، ولكنهم لم يتمكنوا من منع كبار التجار والمصدرين ، ورجال الأعمال والسمايرة ، الذين يتبادلون فيما بينهم المواد الأولية والقمح ، ويقومون بإستغلال المناجم ، ويشرفون على تجارة الأصواف ، ويسيطرون على الملاحة ، من أن يستمروا فى سيطرتهم ، وفى إستغلالهم . وفى مجتمعات تزايدت فيه وسائل المواصلات ، وتمت فيه قوة العملة ، لم يعد فى ربح إنتاجه الإقتصادية فى المدن إلا أن يمثل خط دفاع رقيق وضعيف ، أمام الضغط الخارجى . وكانت الحرية التى تزدهر فى ميدان كبار الأعمال ، بعيدة عن متناولها ، كما كانت مقاومتها لها محكوماً عليها بالفشل مقدماً . هذا علاوة على أن تزايد التنظيمات الإقتصادية ، الذى تميزت به التشريعات

البلدية أثناء القرن الخامس عشر ، لم يؤد إلا إلى ذلك الاحتكار ، التي كان من المفروض أن تقضى عليه .

٢ - الظروف الجديدة للعمل في الصناعات:

فالواقع أن الصناع لم يجدوا حلاً لحماية مركزهم إلا في زيادة التحفظ . وأخذت كل نقابة في إحاطة نفسها بحواجز يصعب إختراقها . وازداد أمر الانضمام إليها صعوبة في كل يوم ، وأخضعوا ذلك لرسم للدخول فيها ، وحسن وتشطيط الأعمال ، ولشروط الإقامة ، والتدريب والتعلم ، الأمر الذي أدى إلى الاحتفاظ بكل حرفة لعدد صغير من « المعلمين » الذين كانوا ينقلون حرفتهم لابنائهم . وفي كل مدينة ، أصبحت الصناعات المحلية مميزة ومحدودة ومحددة على عدد من الرؤساء الوراثيين . ولم يعد من السهل على الرقيب أن يأمل في أن يصل إلى مستوى « المعلمين » وبدأ في النزول بنفسه إلى ظروف العمال الكادحين . وإنتهى الأمر بالتنظيم ، الذي كان قد مدح ، في أثناء القرن الثالث عشر ، بالازدهار المفاجيء لتلك الطبقة من صغار العاملين المستقلين ، المتحدين في شعورهم بالشرف والإخلاص لمهنتهم ، إلى أن يسلم البورجوازية في نهاية الأمر إلى استغلال عدد من الصناع والمصلحتهم ، دون مصلحة الجماهير . وإرتفعت أصوات الشكاوى ضد هذا الاحتكار ، الذي كان واضحاً ، ولكنه كان مشروعاً ، في نفس الوقت . وبدأت التفكير في فرنسا ، منذ نهاية القرن الرابع عشر ، وفي ألمانيا ، بعد ذلك بدمغوات قليلة ، عما إذا لم يكن بقاء الصناعات أكثر ضرراً عن نفعه ، وإذا لم تكن المصلحة العامة تقضى بإلغائه ، ولكنه كان من الضروري الدخول في صراع مع الحرفيين أصحاب الامتيازات ، من أجل إلغائه ؛ وكانوا يسيطرون على السلطة البلدية ، أو كانت السلطة البلدية تأخذهم تحت حمايتها . ومن ناحية أخرى نجد أنه إذا كان « الرقباء » و « الصبيان » يقاسون من الاحتكار ، إلا أنهم كانوا يعيشون منه ، لم يعد النظام « الأبوي » ، مع ورشه الصغيرة ،

يسنخ بالقيال بحركة ثورية ، لا نجد لها ذكر إلا في النادر القليل .
 وإذا كان الصناع الذين يعملون من أجل السوق المحلي يقاسون بهذه الطريقة
 من تقدم ونمو التجارة الرأسمالية ، فإذا نقول عن يعملون في صناعات التصدير ؟
 لقد رأيناها فيما مضى ، ورأينا أن مركزهم الاقتصادي كان يخضع لحركة التجارة
 الدولية . وكان وجودها يؤثر عليهم . ويمكننا أن نرى ذلك بوضوح إذا
 ما ألقينا نظرة على أكبر الصناعات التي كانت موجودة ، وهي صناعة المنسوجات
 في الأراضي المنخفضة . فكانت قد نجحت ، حتى منتصف القرن الرابع عشر ، في
 أن تحافظ على احتكار تقديم المنسوجات الفاخرة لأوروبا ، وذلك نتيجة لتفوق
 تقنيتهما ، ولأنها كانت تتنكر من أن تزود عن طريق ميناء بروج بالأصواف
 الإنجليزية الرقيقة ، وتجدها في هذا الميناء ، وفي كل فصول السنة ، تجار الجملة
 المستعدين لشراء منتجاتها . ولكن الواضح أنها بدأت ، مع منتصف القرن
 الرابع عشر ، تقاسى من مظاهر الضعف . ورجع ذلك أولا إلى أن المدن
 الإنجليزية نفسها بدأت في تصنيع الصوف ، الأمر الذي أدى إلى قلته في الأسواق ،
 وكذلك إلى ارتفاع ثمنه . ونتج عن ذلك ارتفاع أثمان المنسوجات التي أدى
 بالتالي إلى زيادة صعوبة تصريفها . وأفادت مدن الفلاندر الصغيرة من ذلك ،
 وعملت على أن تأخذ مكان المسكن الصناعية الكبيرة . فنشأت مجموعة لا تلتئم من
 الإدعاءات بين أكثرها قوة ، وبين جيرانها ، وانهمروا بأنها غير مخصصة في
 منافستها لهم ، وبأنها تقلد علاماتهم التجارية ؛ واستند الآخرون إلى امتيازهم ،
 في الوقت الذي أصر فيه الآخرون على حقهم الطبيعي ، والحق العام ، الذي ينص
 على حق كل فرد في أن يكسب قوته بعمله . وأظهر هذا الصراع بوضوح
 وجود مواجهة بين الفكرة الاقتصادية التي تنص الصناعات الاقتصادية على المدن ،
 وبين الفكر الجديد الذي كان يتمثل في الحرية ، والذي كان أساس إلهام التجارة
 الرأسمالية . وحاولت كل من جانده ، وبروج ، وإيس أن تعلل ضرورة احتفاظها

باحتمكاراتها الصناعية، ولكنه كان من الواضح أنهم كانوا يحاولون مجرد الاحتفاظ، وعن طريق حجج وادعاءات قديمة، بمرکز كان سيضيع منهم؛ وكانوا بالتالي لا يدافعون إلا عن مصالحهم. ولم يكن هناك ما يمنع التجار من شراء المنسوجات من المدن الصغيرة، مادام ذلك في مصالحهم. وكان في وسع المدن الكبرى، لكي تخرج من هذا المأزق، أن تغير تقنيتهما، وتخفيض أجور الصناعات، أو تزيد عدد ساعات العمل. ولكنهم لم يفكروا في أي شيء من ذلك، لأن صناعات النسيج في الفلاندر كانوا، منذ نهاية النظام الأبوي للحرف، هم الذين يسيطرون على الحكومات البلدية، فلم يكن في وسعهم أن يحدوا أنفسهم من الميزات الاقتصادية، التي كانوا قد كافحوا وقتاً طويلاً من أجل الحصول عليها. واعتقدوا أنهم يتشيشون بالأزدهار الذي سيفلت من أيديهم، فأقفلوا على أنفسهم الباب. داخل نظام الحماية والإحتكار، مستندين إلى حقوقهم الخاصة، ضد الحقوق العامة، وأخذوا يدعون التفوق على غيرهم.

وكان وفي وسع مثل هذا التفوق أن يفرض نفسه، على منافسيه، إذا ما كان فعلياً. ولسكن كل العالم كان ضد إمتيازات المدن الكبيرة: المدن الصغيرة والتجار الأجانب. وكان من الطبيعي أن تستند التجارة الرأسمالية إلى الخصوم والمنافسين لمسؤولاء المميزين الذين كانوا يفرضون عليهم الأسعار وطرق الإنتاج التي يقررونها. ولهذا فإن صناعة الأنسجة في المدن الكبرى فقدت الأسواق التي كانت تسيطر عليها. وبدون منافسة، منذ فترة طويلة. وكانت مجوّداتها للحفاظ على ثرواتها، تبعد عنها الأرباح. ونلاحظ أن منتجاتها، ومنذ نهاية القرن الرابع عشر، لم تعد تلك المنتجات التي لا توجد بها أية أخطاء، كما كان عليه الحال في الماضي. ولم يعد انزبائن يثقون في علاماتهم التجارية. ولم تعد «الشنية» الخاصة التي تدفع المشتريين، كما هو الحال الآن مع بطاقة العلامة التجارية، لها قيمة في الشراء من مصنوعات إيزر وبروج وجاند. وفي حوض البحر المتوسط، تفوقت منسوجات فلورنسا على منسوجات الفلاندر؛ بينما أخذت، في الشمال،

مناشورات المدن الصغرى ثمن الحركة التجارية ، وفي تزايد ، وظهر إلى جوارها
مناشورات إنجلترا ، كتمهيد للشهرة التي مستكسبها أثناء القرن الخامس عشر .
وهكذا ترى أن تدهور أحوال صناعة الأنسجة في المنطقة الفلنكية ومنطقة
برابانت كان نتيجة للتفوق المتزايد للتجارة الرأسمالية . ولم تتمكن من أن توازن
نفسها وهي مقيدة بتنظيمات إقتصاد المدن ، مع الأحوال الجديدة التي أصبح السوق
العالمى يعيش فيها . وجاء التفوق الذى حصل عليه صناع الصوف في المدن الكبيرة
أثناء القرن الرابع عشر لكي يساعد على سرعة هذا التدهور . ولقد حاولوا ، بلا
جدوى ، أن يرضوا مصالحهم ، كمتجين على النظام الرأسمالى . ولم يكن من
المسل القضاء على حرية التجارة التي كانت شركات التصدير الكبرى تعمل بوحى
منها . وفي أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر سينهار التنظيم الصناعى
الخاص بالعصور الوسطى في المدن ، تحت ضغط قوة الرأسمالية ، التي أصبحت
عامة وقوية .

ولذلك فإنه سيكون من الخطأ الكمال أن نشرح تدهور أحوال المدن
الصناعية الفلنكية الكبرى ، عند نهاية العصور الوسطى ، بالاضطرابات المدنية
التي وقعت هناك . وهذه الاضطرابات كانت نتيجة لها ، أكثر من كونها سبباً
لها . كذلك اعتد البعض في أن هجرة عدد من النساكين الفلنكيين قد ساعد
على ذلك ، ولكن يبدو أن الهجرة كانت تتجه بدرجة أكبر ، عند نهاية القرن
الرابع عشر ، صوب فلورنسا .

ومن ناحية أخرى ، فإن هذه الضربة القاضية لم تصب صناعة النسيج عامة
عند مطلع القرن الخامس عشر . بل أصابت صناعة النسيج في المدن وحدها ، أى
صناعة النسيج صاحبة الامتيازات ، إن جاز هذا التعبير . واضطرت في المدن الكبرى
في أول الأمر ، ثم في المدن الثانوية بعد ذلك ، وتحت ضغط تنظيمها النقابى ،
إلى أن تترك مكانها لمنافس نما منذ البداية في توافق مع التطور الاقتصادى ،

وهو صناعة النسيج في الريف . وكانت المدن الكبرى قد عملت ، أثناء القرن الرابع عشر ، على إستخدام القوة ، لمنع الفلاحين في المنطقة المحيطة بها ، من أن يعملوا في صناعة غزل ونسج الصوف ، وتمكنوا من أن يحصلوا من الكونت على امتيازات تثبت حق إحتكارهم الصناعي إلى مسافة محددة حول أسوار مدينتهم . ولمكنهم إضطروا ، منذ الربع الأول من القرن الخامس عشر ، إلى أن يتحملوا وجود منافس في وضع متفوق ، لأنه كان يستجيب في كل شيء للظروف الجديدة للحركة الإقتصادية . ولم يكن لدى هذا القادم الجديد أى شيء يشبه التنظيمات التي كانت موجودة بالنسبة لصناعة النسيج في المدن . ونما منذ البداية في مناخ من الحرية ، ولم ينتظم الفلاحون المشتركون في هذه الصناعة في نقابات ، وكانوا يتفاوضون مباشرة مع المتعهدين الرأسماليين ، الذين كانوا يزودونهم بالصوف ، ويصدرون مصنوعاتهم . وبعد أن تخلوا عن الصوف الإنجليزي الذي أصبح أكثر ندرة وأكثر ارتفاعاً في سعره ، عملوا في الصوف الذي أخذت إسبانيا في تصديره إلى بروج ، وصنعوا منه أنسجة رقيقة ، وبسعر منخفض ، الأمر الذي أدى بها سريعاً إلى إحتلال السوق بدلاً من الأنسجة التي فقدت رونقها ، مما كانت تنتجه المدن الكبرى . وتحت تأثير الحرية ، والنظام الرأسمالي ، هاجرت إذن الصناعة ، التي كانت مركزة منذ ثلاثة قرون في المدن ، صوب الريف . وتكون طبقة من الصناع ، مختلفة عن مجموعة الصناع أصحاب الامتيازات في العصور الوسطى . ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على صناعة المنسوجات وحدها ، بل نلاحظها كذلك ، في الصناعات الاستخراجية ، والتي كانت بطبيعتها لا تخضع لإشراف المدن عليها ، وهي التي ازدهرت بدرجة أكبر ، مثل مناجم الفحم ليميج ، ومناجم المعادن في ألمانيا الجنوبية .

٣ - المراكز التجارية الجديدة :

ومن الطبيعي أن يخضع التنظيم التجاري كذلك ، لنتائج النمو الرأسمالي .

وإذا كانت البندقية وجنوا ، في إيطاليا ، قد تمكنت ، نتيجة لإحتكارها تجارة الشرق ، من أن تستمر في تنظيم حركة الأجانب داخل أسوارها كما ترغب ، فإن الوضع في بروج كان مختلفاً عن ذلك ، خاصة وأن إزدهارها كان ناتجاً في المقام الأول من صفتها كمكان اللقاء دولي للتجار ؛ وفلاحظ منذ أواسط القرن الخامس عشر أن هناك تطوراً واضحاً فيها ، ويتم بسرعة . ولا شك في أن الردم المتزايد للميناء قد أسهم في حرمانها من زبائنها الأجانب . ولكن السبب الرئيسي لتدهور أحوالها يتمثل في عدم قدرة المدينة على أن تتعامل مع الطبيعة الجديدة للأشياء . ومثل مدن صناعة الأنسجة لم ترغب في التنازل عن إمتيازاتها في الوقت المناسب ، واستمرت في إختناج حركة الأعمال الموجودة فيها لحقوقها وضرائبها ورسومها القديمة ، والتي كانت في مصلحة الطبقة البورجوازية فيها . ولم تقدر على أن تفهم أن هذه الإمتيازات قد عفى عليها الزمن ، وأنها أصبحت تمثل معوقات أمام ممارسة التجارة ، وأصرت على ضرورة الإستمرار في تطبيقها . ولكن ، هل كانت هناك وسيلة لإرغام الأجانب على الحجى إليها ؟ وكانت قد أخذت أهميتها ، وجذبت إليها التجار ، نتيجة لأن المواصلات كانت محدودة في أوروبا ، وكانت القارة فقيرة في الموانئ الصالحة ؛ ووجد التجار فيها ظروفاً أكثر صلاحية منها في أى موقع آخر قريب . أما الآن فلم يعد هناك ما يمنعه من الهجرة إلى أماكن أكثر ملاءمة ، مع « الحرية الطبيعية » للتجار . ففتحوا عنها مع السنوات الأخيرة من القرن ، وأقاموا « مراكز حرة » لهم في ميدلبرج ، وفير ، وأوترخت ، وأمستردام ؛ وأخذوا يترددون أكثر وأكثر على معرض أنفرس .

وكانت أنفرس هي التي تجذبهم بنوع خاص ، وليس من أجل أمن مينائها ، بل وأكثر من ذلك . بسبب الحرية التي توفرها لهم . ذلك أنها تميزت بالتفكير الجديد ، والضروري للتقدم التجاري . فلم تكن هناك موانع ، وكان في وسع

الأجانب أن يتاجروا كما يرغبون . وكان في وسع أى شخص أن يعمل في السمسة وإستبدال العملة ؛ ولم يكن هناك ما يمنع تنمية الأعمال . وظهر بين بروج وأنفرس نفس التنافس الموجود بين صناعة الأنسجة في المدن ، وصناعة الأنسجة في الريف ؛ وبين الإمتيازات ، والحرية . وأخذ كل من الإيطاليين ، وأبناء الجامعة الهنسية ، والإنجليز والبرتغاليون والإسبان يتكون منازلهم في المدينة الأولى ، وينتقلون إلى المدينة الثانية ؛ التي كان ذلك بالنسبة إليها فاتحة للإزدهار الذى سيصيبها وبخاصة بعد إكتشاف العالم الجديد .

وكما حدث بالفعل من أن إستيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية لم يقض مباشرة على إزدهار كل من البندقية وجنوا ، فإن كشوف البرتغاليين والإسبانيين لم يتسببوا في إثمراء أنفرس . ذلك أن إثمراء هذه المدينة كان سابقاً للكشوف الجغرافية ، وكان نتيجة للتنمية الإقتصادية لأوربا . ونتيجة لوجوده ، أصبح ميناء أنفرس ، في القرن السادس عشر ، أكبر سوق للتوابل ، وملتقى الطرق التجارية ، التي كانت تصل من الهند ومن أمريكا .

وفي نفس الوقت ، بدأت عوامل جديدة في الظهور ، وأخذت تؤثر على المراكز التجارية الموجودة في بحر البلطيق وبحر الشمال ، مع الجامعة الهنسية من ناحية ، وتؤثر في المراكز التجارية الموجودة في البحر المتوسط ، في البندقية وجنوا ، من ناحية أخرى . وأثر ذلك بالتالى على طرق التجارة الدولية ، وتوزيعها في القارة الأوربية ، قبل أن تتم الكشوف الجغرافية ، وتؤثر بطريق فعال في الشرايين الرئيسية للتجارة العالمية ، بين القارات المختلفة .

ولقد جاءت عوامل كثيرة لكي تساعد على ضعف الجامعة الهنسية ، وكان من أهمها لزيادة قوة بولندا ، وإستيلائها على دانتريج ، وعملها على الحصول على مركز متفوق في البحر البلطى ، كما أن الإنجليز إدعوا أنهم يفضلون « حرية التجارة » ، وإستندوا إلى ذلك لقطع علاقاتهم مع الجامعة الهنسية ، وللاستيلاء

على تجارتها وسفنها الموجودة في الموانئ البريطانية . وبعد حرب دامت أربعين
سنوات، عادت إمتيازات الجامعة الهندسية إليها ، للإتجار مع لندن وبعض الموانئ
البريطانية . ولكن بريطانيا حصلت ، في نفس الوقت ، على حق الإتجار مع موانئ
البحر البلطى ، وكانت هذه أول ثغرة في نظام الإحتكار الذى أقامته الجامعة
الهندسية حول هذا البحر . وتمكنت بريطانيا من التحرر ، وجمعت رسوم الجمارك
على البضائع الواردة إليها ، ثم ألغت إمتيازات الجامعة الهندسية فيها ، وأردفت
ذلك بالاستيلاء على سفنها ، وإقفال موانئها في وجه تجارتها . ثم تحولت
الأراضى المنخفضة إلى دولة بحرية ، وأخذت سفنها المحملة بالأنسجة والملح تدخل
إلى البحر البلطى ، دون أن تتمكن الجامعة الهندسية من التعرض لها . وقلت الرغبة
من البحر البلطى ، واضطر الصيادون الألمان إلى متابعتها أمام سواحل الأراضى
المنخفضة ، في أوائل القرن السادس عشر ، حيث إصطدموا هناك بالهولنديين
والإنجليز والاسكتلنديين . وجاء إنتشار المذهب البروتستانتي ضربة إقتصادية
قاسية لأهم موارد الجامعة الهندسية ، وهو الأسماك . خاصة وأن مذاهب الإصلاح
كانت لا تصر على ضرورة أكلها في أيام الجمعة وفترات الصيام . وساعد عصر
النهضة وزيادة تربية البهائم ، مع إنتشار المراعى ، على زيادة إستهلاك اللحوم بدلا
من الأسماك : وأخذت بريطانيا في منع تصدير الصوف إلى الجامعة الهندسية ،
وأخذت في غزل ونسج الصوف في بلادها . وأخذت المدن المتحدة في الجامعة
الهندسية في التفكك والانفصال ، كما حصلت مراكزها على حريتها ، وانخفض عدد
المدين الأعضاء من ٩٢ إلى ٦٢ ، ثم أربعة عشر ، فثلاثة : هى لوبيك ، وبرين ،
وهامبورج . وأخيرا ، إجتمع مجلس الجامعة الهندسية ، أو برلمانها ، وآخر مرة
في سنة ١٦٦٩ . وكان قراره الوحيد في هذه الجلسة هو حل الجامعة .
وأما بالنسبة للموانئ المطلة على البحر المتوسط ، فلقد جاءت عوامل أخرى
أثرت في مركزها ، وأثرت في معاملاتها ، وفي أهميتها الاقتصادية .

فقد زاد ظهور ضعف جنوا نتيجة للصراعات الداخلية الموجودة فيها ،
وصراعاتها مع البندقية . وإنتهزت أراجونة هذه الفرصة ، وقامت بانتزاع
جزيرة سردينيا من حاكم جنوا ، كما قام العثمانيون بطرد أبناء جنوا من المشرق .
ولم يبق لجنوا في نهاية الأمر من إمبراطوريتها سوى جزيرة كورسيكا ، التي
استمرت فيها الثورات حتى اضطرت جنوا ، في آخر الأمر ، إلى بيعها لفرنسا ،
بعد أن تقلص نفوذها فيها ، وباعتها في نفس السنة التي ولد فيها نابليون على هذه
الجزيرة ، وكانت جنوا قد أصابها سوء الحظ قبل ذلك ودون أن تدري ؛ وكان
أحد أبنائها قد اقترح عليها إعداد حملة للبحث عن طريق جديد للهند ، بالإتجاه
صوب الغرب . ولكن جنوا ترددت ، خاصة وأنها كانت مشغولة بمراكزها
الجديدة التي احتلتها في القرم . فسرفت في تنفيذ هذا المشروع ، وقلت رغبتها
وإمكاناتها في العمل ، بعد أن تخلت عن كرستوف كولومب ، وفقدت أكبر
إمبراطورية كان في وسعها أن تتصورها .

أما البندقية ، فإن مسؤولياتها كانت قد اتسعت ، وخاصة بعد أن إستولى
العثمانيون على القسطنطينية ، وبعد أن إستولى الغزاة الجدد على طرق الشرق ، وبعد
أن أخذ كل من الفرنسيين والاسبانيين في التنارع على السيطرة على إيطاليا نفسها .
وتمكنت البندقية من الإحتفاظ بقبرص لمدة قرن بعد سقوط بينرطة ، والإحتفاظ
بكريت لمدة قرنين ، وبكورفو حتى آخر وقت الإمبراطورية . وضعفت البندقية
كدولة ، ولكنها إحتفظت بعظمتها وبرفاهيتها وثروتها ؛ وظلت مركز سياحة
لأوروبا ، وموطن لهُو وبحرن . وظل نظام الدوقية فيها ، حتى دخل بونابرت إلى
إيطاليا ، في نهاية القرن الثامن عشر .

وأخيراً ، فلا يمكننا أن ننسى أن العثمانيين قد أثروا ، بطريق غير مباشر ،
في التجارة الدولية في هذا العصر . ذلك لأنهم قد إستولوا على المراكز التجارية
لجنوا والبندقية في البحرين الأسود والمتوسط ، مما صعب تجارة التوابل ، ورفع

من أثمانها . وكان العثمانيون يسمحون لتجار إيطاليا بشراء التوابل والخسائر من موانئهم ، ولكنهم أخضعوا هذه السلع لضرائب مرتفعة . وظهرت حركة اللجوء إلى الشرق الأقصى بالسفن ، من المحيط الأطلسي ، إما بالإلتفاف حول إفريقيا ، أو بمواصلة السفر صوب الغرب ، حتى يصلوا إلى الصين واليابان وجزر التوابل . وما دام الإسلام قد زحف على أوروبا من الشرق ، ولما استولى على بنى أوطان ، لتعمل الدول الأوروبية على تطويقه ، والحصول على المنتجات الإستوائية والشرقية دون وساطته ، وتتنزع هذه الثروات من بين أيديه . إنها روح الكشوف الجغرافية .

٤ - أولى مراكز الأطلسي والتطلع إلى طرق بحرية جديدة :

لقد استمر عصر المراكز البحرية ، وساهم فيه أبناء أقاليم غرب أوروبا المظلة على المحيط الأطلسي ، وخاصة بعد أن فلت أهمية البحر المتوسط بما فيه من جنسوا والهندية ، وتمكنت دول غرب أوروبا من الوصول إلى البحر البلطى ، دون أن تتمكن مدن الشمال من وقفها .

ويمكننا إعتبار الإسكندنافيين الموجودين فى جرينلاند طليعة هذه الحركة ، التى عملت فى المحيط الأطلسي . وكانوا قد أقاموا فى هذه الجزيرة منذ قرون ، واستعمروا سواحلها ، وآثروا بالبهايم والأغنام من إيسلاند إليها . وقد إزدهر هذا الاستعمار وإمتد حتى خط ٧٣° شمالا ، إلى أن تغير المناخ فى أواسط القرن الرابع عشر ، وإشتدت درجة البرودة بشكل يؤثر على الفلاحة والمحاصيل ، وبشكل تسببت فى هجرة كثير من عناصر الاسكيمو من الشمال صوب الاسكندنافيين فى الجنوب . وبدأ الصراع بين أعداد الاسكيمو المتزايدة ، وأعداد الاسكندنافيين المتناقصة . ولم يكن هناك شك فى حتمية سيطرة الاسكيمو على الجزيرة ، وإنزعما من أيدى العناصر الاسكندنافية . ولقد حاول سكولب الدانيمركى إستخدام جرينلاند قاعدة لخطته إلى الصين عن طريق الغرب ، وقام مع أحد البرتغاليين

بالملاحه بجذاه مراحل نيوفوندلاند ، ولكنه اضطر إلى الرجوع ؛ ومع سيطرة
الامسكيو على جرينلاند ، إنتهى الاستعمار الاسكندنافي في هذه المنطقة .

أما الإنجليز فكانوا بعيدين عن التفوق في البحار رغم أن بلادهم جزيرة تحيط
بها المياه من كل جانب . وكان الإنجليز يربون الأغنام ويحصلون على الصوف ،
وتعدوا من الفلبك عمليات غزله ونسجه . وعمل إدوارد الثالث على حماية هذه
الصناعة الناشئة في بلاده ، وفرض الضرائب العالية على تصدير الصوف حتى
يحتفظ بالمواد الأولية لإنجلترا . وكانت الصناعة أساساً للتجارة ، واضطر التجار
إلى ركوب البحر حتى يصرفوا سلعهم ، وأدى ذلك إلى منافستهم للفلبك ،
وكفاحهم ضد الجامعة الهنسية . وأخذت بريطانيا تصدر منسوجاتها الصوفية إلى
أكريتانيا ، وكانت سفنها تعود من بوردو ، عبر المحيط الأطلسي ، محملة بالأنبذة .
وقرر هنري السابع عدم السماح لأي سفينة أجنبية بنقل أنبذة بوردو إلى إنجلترا ،
كما قرر ضرورة سفر البضائع الإنجليزية على سفن تحمل العلم الإنجليزي .
فساعد ذلك على نمو البحرية في إنجلترا وعلى ظهور هذه الدولة كقوة بحرية لها
أهميتها .

وأما الفرنسيون فكانوا يخاطرون بالسفر في ذلك الوقت أكثر من الإنجليز .
وتمكن جان دي بيتنكور Jean de Béthencourt من السفر على سفينة مع ثمانين
رجل صوب الجنوب ، بعد أن خرب الإنجليز أراضيه ، ووصل إلى جزر كناريا
وإستولى على « تين الريف » التي كانت تسكنها عناصر من بربر شمال إفريقيا ،
وإتحد معهم ضد القراصنة الأسبان . وأعلن نفسه ملكاً على الجزيرة ، ثم ترك
إدارتها لأحد أقربائه . ولكن القراصنة الإنجليز هاجموا أسطولهم ، فاضطر إلى
التنازل عن جزر كناريا إلى قشتالة ، التي طردت الأهل من أراضيه ، وقضت
عليهم تماماً .

وأما البرتغاليون فإن بلادهم كانت ذات موقع ممتاز ، تطل على المحيط

الأطلسي ، وبشكل يوجه أنظارهم إلى السواحل الإفريقية ؛ ويشعرهم بضرورة استكشاف ما وراء هذا البحر .

ولم تجذب الكشف الجغرافية البرتغالية ، حذاء سواحل إفريقية ، وحتى منتصف القرن الخامس عشر ، إلا الجغرافيين ، ونعرف أن هذه الكشف كانت في مبدأ الأمر غريبة تماماً عن كل فكرة للتوسيع الإقتصادي . فلم تكن للبرتغال أية حاجة للبحث عن أسواق خارجية ، كما أن تجارتها كانت بسيطة ، وكانت بحريتها لا تسمح لها بأن تقوم بدور في المستقبل يشبه ذلك الذي وصلت إليه . وكانت الدوافع الأولى لهذه العملية ، دوافعاً عسكرية وإستراتيجية ؛ ذلك أن البرتغاليين كانوا قد خضعوا لفترة طويلة لحكم المسلمين ، ورغبوا في القضاء على هذا الخطر قضاء تاماً ، فحاربوا هذه الدوافع ، العسكرية والإستراتيجية ، بغلاف الدين المسيحي والتبشير . ويمكننا أن نعتبر حملة البرتغاليين ضد سبته سنة ١٤١٥ .

كحرب صليبية وطنية ضد المسلمين ، وكفاتحة معنوية لذلك الجهد الذي سيقبى بعملية تجارية . كما أن دوح النضول هي التي دفعت هنري الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٢) إلى أن يوجه الحملات صوب إفريقيا ، تلك الحملات التي تستل في النهاية إلى ساحل ملاح ، وتأسس تجارة التوابل من البحر المتوسط وتوجهها ، عن طريق رأس الرجاء الصالح ، صوب سواحل المحيط الأطلسي .

ويبدو أن بحارة موانئ الغرب ، في البرتغال ، كانوا يفكرون أثناء إبحارهم في حذاء الساحل الأفريقي ، في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، في إكتشاف ذلك الذراع من البحر ، أو ذلك الخليج ، الذي سيسمح لهم بمهاجمة مسلمي شمال إفريقيا من الجنوب ، وربما يتمكنون كذلك من الوصول إلى المناطق الشرقية الغامضة ، التي كانوا يعتقدون أن الملك «يوجنا الواعي» قد أنشأ فيها مملكة مسيحية . وكانت هناك قصة منتشرة في أوروبا تتحدث عن وجود مملكة مسيحية في قلب إفريقيا ، أو قلب آسيا ، وعن رؤية الرحالة للملكها . ويوجنا

الراعى ، الذى تدعى القصة أنه كتب إلى البابا ، وأنه ملك قوى وغنى . وخطب البرتغاليون بين هذا الملك وبين نجاشى الحبشة ، واعتقدوا في إمكانية الوصول إليه بالملاحة حول السواحل الأفريقية .

وظهر في نفس الوقت ميل «الدون هنرى» ، ابن ملك البرتغال ، للبحر والملاحة . بعد أن نصبه والده حاكماً على إحدى مقاطعات البرتغال الجنوبية : فأنشأ مرصداً ومدرسة بحرية ، وأخذ في بناء السفن وإرسال الملاحين لاستكشاف المناطق المجاورة صوب الجنوب ، علمهم يهتدون إلى طريق التوابل ، أو بلاد يوحنا الراعى ، وينتمون من الإسلام . وكان التقدم بطيئاً في أول الأمر ، وكان يعترضه الخوف من ذلك البحر المجهول ، ومن المناخ الذى توقعوا صعوبته وقسوته عليهم . وكان إكتشاف جزر ماديرا ، أو الخالدات ، في سنة ١٤١٨ — ١٤٢٠ ، أمراً عارضاً ، وبدون أية علاقة بالملاحة حول إفريقيا ؛ وقام البرتغاليون بإحتلال هذه الجزر ، وأدخلوا زراعة الكروم وقصب السكر فيها . وبدأت هذه الملاحة في سنة ١٤٣٤ ، وهي السنة التى جاوز فيها الملاحون البرتغاليون لأول مرة رأس بوجادور ؛ ووصلوا في سنة ١٤٣٧ إلى جزر آزور ، التى أنشروا فيها ، بعد إحدى عشر عاماً ، مركزاً دائماً في حماية إحدى القلاع . ولقد استمرت سفنهم في السير بجذام الساحل الإفريقى حتى وصلت إلى أسواق النهر الآتى من إفريقيا السوداء ؛ إنه نهر الذهب ، أو وادى الذهب Rio de Oro . وعند موت هنرى الملاح سنة ١٤٦٠ كان البرتغاليون قد وصلوا إلى سيراليون ، وإلى جزر الرأس الأخضر ؛ وإنشؤا القلاع على نقط مختلفة من الساحل ، واستخدموها مراكز تجارية وحريرية لهم . وإذا كانت سواحل « وادى الذهب » والسفلى قد استكشفت ، وإذا كان بعض المسافرين قد دخلوا إلى داخل الأرض ، فإن استكشاف خليج غينيا كان لا يزال في أوله ، وكان البرتغاليون يعملون هناك بكل حذر .

ولكن عوامل إقتصادية بدأت في دفعهم للعمل بفشاط أكثر صوب الجنوب، فكانوا قد تعرفوا على بعض البلاد التي استكشفوا سواحلها ، وعرفوا أن فيها سكاناً . وكانوا قد عادوا منها ، ومعهم بعض العبيد ، والابر ، والمنتجات ذات القيمة . وكان أهالي بروج قد أظهروا دهشتهم ، منذ سنة ١٤٤١ لرؤيتهم بين حمولة السفن القادمة من لشبونة ، بعض القردة ، والأسود ، والبيغاوات ؛ ورؤا بعد بضع سنوات ، أن هذه السفن كانت تحمل ، من مينائهم، سلعاً مرسلة إلى خليج غينيا . ومنذ سنة ١٤٥٤ حرم البابا الملاحة حول سواحل إفريقيا منذ رأس بون إلى نهاية ساحل غينيا ، دون الحصول على تصريح بذلك من ملك البرتغال ، وحمى بذلك التوسع البرتغال من أى منافس له . وفي سنة ١٤٦٩ منح الملك الفونس الخامس تجارة السواحل الغربية لإفريقية ، ولمدة ست سنوات ، إلى فرناندو جومين ، نظير تعهده بأن يستكشف في كل عام ثلاثمائة فرسخ من الساحل ، ابتداء من سيراليون . ووافق الكورتيز ، في سنة ١٤٧٣ على إعتبار أن هذه المناطق كانت تعطى أرباحاً طائلة للتجار .

ولم يعد هناك شك في أنه كان يكفي الالتفاف حول القارة الإفريقية ، للوصول إلى هذه البلاد الساحرة ، التي كان البنادقة يحصلون منها على التوابل ، بواسطة مصر . وأكدت أبحاث مارتين بيهام ، عالم الجغرافيا الذي نشأ في نورنبرج ، والذي جاء وأقام في لشبونة ، هذا الأمل ، الذي دعمته روايات الرهبان الأسبائش والمعلومات التي ذكرها بعض الأهالي . وكانت محاولة ديميچو كام ، الذي كلف في سنة ١٤٨٢ بالأبحار إلى أبعد نقطة ممكنة في الجنوب ، قد انتهت باكتشاف مصب نهر الكونغو . ولكن بارثليميو دياز تمكن ، سنة ١٤٨٥ ، وعن طريق إستمرار الملاحة جنوباً ، من الالتفاف حول أقصى رأس في جنوبي القارة ؛ ورأى إختفاء الساحل عن أعينه في أثناء إحدى العواصف ، ولم يتمكن من رؤية الساحل الإفريقي إلا بالعودة صوب الشمال . ولم يسكن

هناك من شك في أن دياز قد إلتفت حول أقصى جنوب إفريقيا ، و مر من المحيط
الاطلسي إلى المحيط الهندي . حول النقطة التي أسماها رأس العواصف ، والتي سماها
ملك البرتغال رأس الرجاء الصالح . وعرفوا في نفس الوقت ، وعن طريق
بيير دي كوفيلام والفونس دي بايفا ، المرسلان إلى القاهرة ، للتعرف على طريق
الهند ، وجود ساحل ملابار ، وموقعه الفعلي تجاه شرق إفريقيا . وأصبح من
المؤكد بعد ذلك أن النجاح لا يتطلب سوى الاستمرار في الملاححة إلى أبعد من
ذلك . وفي هذا الاتجاه الذي لمح دياز . وكلف الملك إيمانويل ، أحد ضباط
البحرية من ياررانه ، وهو فاسكو داجاما ، بالقيام بهذه المهمة العليا . ولشرت
سفينة الأربع قلاعها يوم ٨ يوليو سنة ١٤٩٧ ؛ ومر عامان وأكثر قبل أن تعود
سفينة من جديد إلى مصب نهر التاج ؛ بعد أن كانت قد وصلت إلى قاليقوط
وكان الأسبانيون ، ومعهم كريستوف كولومب ، الذين كانوا يأملون في الوصول
إلى الهند عن طريق الملاححة صوب الغرب ، قد وصلوا منذ ست سنوات ، أي في
سنة ١٤٩٢ ، إلى كوبا ، وهم يبحثون عن الهند ؛ ووجدوا أمريكا . وافتتح عالم
جديد أمام أوروبا .

وكان من حق البرتغاليون أن يستبشروا بالمستقبل ، خاصة وأن البابا قد
منحهم السيادة على كل الأراضي التي يستكشفونها ، مع غفران ذنوب كل من
يموت في حملاتها . وكسب البرتغاليون الكثير من تجارة السواحل الإفريقية ،
وافتتح الطريق أمامهم ، وحتى الهند .

* * *

وهكذا نجد أن أوروبا كانت بدأت في تغيير وجه تاريخ العالم . وذلك نتيجة
للتغيرات العميقة ، الاقتصادية والمالية والاجتماعية ، التي وقعت فيها . فظهرت
الضرائب الثابتة ؛ وكان استخدام الأسلحة النارية والمدفعية يزيد من المصروفات
العامة ، وبشكل سريع . وأخذت الفنون الحربية الحديثة في إتمام القضاء على من

بقى على أرض المعركة من الإقطاعيين ، أو في أثناء عملية تفهقهم ، وذلك في صالح السلطة المركزية ؛ كما أنها أعطت الأوروبيين تفوقاً واضحاً في التسليح ، على بنية العالم . وعمل الأوروبيون على إستخدام هذه الأسلحة وبسرعة . ولكن على أساس تمكنهم من إيجاد الموارد اللازمة للإنفاق على المدفعية . وإذا كانت الضرائب الثابتة ؛ حتى إذا كانوا قد عهدوا بها إلى عدد من الرأسماليين الذين أثروا من ورائها ، قد أصبحت غير كافية ، فإن ذلك قد استدعى الإلتجاء إلى الفروض ، وهكذا انتصر النظام المالى الذى ساد فى جنوا والبندقية وفلورنسا ، رغم ضعف إيطاليا نفسها فى ذلك الوقت ، وظهور مدن أخرى نافستها فى الميدان المالى ، مثل ليون ونورنبرج وفرانكفورت وأنفرس . وإزدادت أهمية الأسواق ، المالية فى هذه المدن ، فى التمويل والإقراض أو التسليف ، وفى بيوت أصحاب البنوك ، مثل بيت فان دير بورص ، الذى أعطى اسمه لأول سوق مالى فى العالم . وأصبحت العمليات تتم على أساس نقدى أو مالى ، أكثر مما تتم على أساس سلع من الصوف والنيذ والمصنوعات .

وقلت أهمية الملوك أنفسهم ، وبصفتهم مسيطرين على السياسة الدولية ، ماداموا فى حاجة إلى الفروض . فأصبح الرأسماليون يسيطرون على وزارة المالية فى لندن ، كما أصبح كير يسيطر على مالية فرنسا . ويستغل المناجم ويدير المئات من المصانع فيها ، وفى بلجيكا الحالية ، وحتى فى قبرص . وأصبح هؤلاء الرأسماليون يقرضون البنوك والأباطرة والبابا . وكان هذا تطوراً طبيعياً للمراكز التجارية والبحرية ؛ والذى استمر ، بعد جنوا والبندقية والجامعة الهنسية ، مع هذه البيوتات المالية ، والمصارف ، والبورسات . أنها الرأسمالية ، وقد نمت وأخذت فى العمل .

وكثيراً ما كانت وسائل الدفع تعجز عن اتمام مهمتها فى هذا الجهاز الكبير للأعمال . كما أن الغرب كان قد مضم ما استولى عليه من أسلاب شرقية أثناء

الحروب الصليبية ، وأتى فائض الميزان المالى مع شرق البحر المتوسط ، وأخذ يقاسى من نقص المعادن النفيسة ، وأعوزته المادة التى يمكنه بها رفع قيمة عملياته التى نشأت مع الوسائل الجديدة ، من ورق ومطابع وكتب ، ومدافع وسفن ، ولوحات فنية وقصور . فأخذت أوروبا تبحث عن كنوز تنهبها ، ومناجم ذهب تستغلها . ولم يكن فى وسعها أن تجد لها إلا فيما وراء البحار .

البَابُ الثَّالِثُ

زحف العثمانيين وانتصارهم

الفصل السابع

امبراطورية المغول

كان الشرق في ذلك الوقت مسرحاً لتغيرات عميقة، وكانت القارة الآسيوية الضخمة، وراء عالم البحر المتوسط، تتغير بسرعة. وكان المغول يحكمون هناك منذ أواسط القرن الثالث عشر. وكانوا قد أنشؤوا لأنفسهم إمبراطورية تمتد من سهول روسيا إلى بحر الصين. وكانت هذه الإمبراطورية قد أخذت، بعد ذلك، في التفتك. ولم يعد في وسع الخان الأعظم، وهو في آخر الصين، أن يمارس إلا سلطة إسمية على إمارات المغول في فارس، وعلى خانات التركستان وروسيا الجنوبية. وكان المغول قد انتشروا في أقاليم كبيرة الإتساع، فتركوا بذلك أنفسهم لحكى تقوم الشعوب التي غزوها بهضمهم. ولقد قامت هذه الشعوب، قرب سنة ١٣٥٠، برفع رؤوسها في كل مكان؛ وبذلك مجرودات أدت إلى انهيار إمبراطورية جنكيز خان، وذلك في الوقت الذي نهض فيه الاسلام، بعد فترة ضعف، والذي بدأ فيه العثمانيون، في آسيا الصغرى، وبعدهم بقليل تركمان تيمور، عملية غزو العالم المسيحي.

١ - الامبراطورية :

كان الشرق الاقصى قد بدأ في الحركة في نفس الوقت الذي بدأ فيه الغرب في الاستيقاظ؛ وظهرت الحروب الصليبية ومشروعات المراكز البحرية التجارية وكأنها لعب صغيرة إلى جانب هذه الهجرات البشرية التي بدأت من الإستبس. وكان المسيحيون والايطاليون يعملون حول حوض البحر المتوسط، كما كانت الجامعة الطنسية تعمل في بحر الشمال والبحر البطلي؛ ولسكن جموع المغول عملات

على الانتشار في كل المناطق الأخرى ، ولم تحدد نطاق عملياتها ، وتمكنت من تكوين إمبراطوريات كبيرة .

وكان المغول يتنقلون في المنطقة الواقعة بين غابات سيبيريا في الشمال ، وصحراء جوبي في الجنوب ؛ وكانوا يعيشون في الشمال على الصيد ، وفي الجنوب على الرعى أى أنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد ، في السلم الحضارى ، إلى مرحلة الزراعة والتوطن .

وتمكن رئيسهم تيموجين ، أى الجداد ، من تنظيم جيش كبير وقوى ، معتمداً في ذلك على النظام العشرى ، الذي يسهل التعبئة والعمليات : جماعات من عشرة رجال ، وسرايا من مائة ، وكتائب من ألف ، وألایات أو لواءات من عشرة آلاف ، وفيالق من مائة ألف . وكان شديداً وصارماً ، فعاقب السرقة بالقتل ؛ ونظم الأسلاب التى كانت لا تبدأ إلا بأمر ، وكان يستولى على عشر هذه الأسلاب لخزائنه الخاصة . وتمكن هذا الرئيس من إخضاع القبائل الأخرى ، ثم هزم التتار المجاورين للمغول ، وقتل منهم الكثير ، وأدخل الباقين تحت سيطرته ، وأصبح الخان الأكبر ، جنجيز خان .

وبدأ بالصين ، وأمر بإحراق بكين ، ثم هجم على التركستان وإيران وروسيا ، وإكتمسح كل ما عترض طريقه . ثم عاد إلى الصين حيث توفي ، بعد أن أنشأ إمبراطورية ، تمتد على طول ثمانية آلاف كيلو متراً . وقام ابنه بمواصلة غزواته . فأتى تطهير شمال الصين ، وإستولى على كوريا ، ثم عاد صوب روسيا ، وعبر بولندا والمجر ووصل إلى بحر الادرياتيک . وقام قوبلاى ، حفيد جنكيز خان ، بالهجوم على آسيا الصغرى وسوريا ، وإحتل جنوب الصين ، ونشر سيادة المغول على أنام وكمبوديا . فأصبح فرسان الإسمتيس يسيطرون على موسكو وبغداد وكانتون ، ويحكمون أكبر جزء من العالم المعروف في ذلك الوقت .

وكان المغول ، بعد تخريب وتدمير المناطق التى يحتلونها ، ينشئون إدارة

خاصة فيها . وكانت إمبراطوريتهم عاصمة ، إنتقلت من وادى النهر الأصفر إلى منغوليا ؛ وكانت مقراً للخان الأعظم ، أو الخاقان . وكانت الإمبراطورية تنقسم إلى خانات ، إحداهما فى الصين ، والثانية فى منغوليا ، والثانية تركستانية فى روسيا ، والرابعة فى فارس . وكانت هذه الإدارة تعتمد على الموظفين المغول أو الصينيين أو الفرس ، وتضعهم على رأس حكومات الأقاليم بدلا من الأهالى . وكانوا يبدأون عملهم بالاستيلاء على الخيول ، ويأحصاء الأهالى ، ثم يأخذون فى جمع الضرائب ، ويعاقبون من يمتنع عن دفعها ، ومن يتلاعب فيها . وكانت دولة المغول تتم بالامن ، وتشرف على القوافل ، وتدير البريد ، وتحافظ على النظام فى أنحائها . وكان للمغول قانوناً مدياً وجنائياً فى نفس الوقت . ولقد ساعدت عملية توحيد جنكيز خان لآسيا على تسهيل التوغل الاقتصادى الغربى فى كل المنطقة ، وأصبحت طرق الشرق الأقصى مفتوحة للتجارة والمبشرين . وإذا كان الرهبان الفرنسيسكان قد حملوا رسائل البابا ولوى التماسع إلى خاقان المغول ، وحاولوا كسبه إلى المسيحية ، فإن بعض تجار البندقية قد ساروا على نفس الطريق ، وزاروا خانات جنوب روسيا والتركستان والصين . وإشتهر منهم ماركو بولو ، الذى كتب مذكرات رحلته فى هذه المناطق ، بعد غيبة إستمرت أربعة وعشرين سنة . ويذكر لنا كتاب « العجائب » الكثير عن ثروة الصين وتجارتها وسفنها ، وعن التوابل والأرز والسكر والحرير والفشاط التجارى والأوراق النقدية ، مما يدل على دقة ملاحظة كاتبه ، وبما عمل على إثارة خيال تجارب الغرب .

ثم بدأت إمبراطورية المغول فى الانقسام بين أحفاد جنكيز خان ، كما إنقسمت إمبراطورية الاسكندر بعد موته بين كبار قواده .

٢ - التفكك :

ولقد إنقسمت إمبراطورية المغول إلى أربع خانات ، أو دول ، إحداهما فى الصين ، والثانية فى منغوليا ، والثالثة فى تركستان الروسية ،

والرابعة في فارس ، كما ذكرنا .

وعند نهاية القرن الثالث عشر ، كان هذا الانقسام قد شتم بالفعل . وكانت الصين هي أهم قسم من أقسام الامبراطورية . وكان قوبلاي خان الكبير قد إستقر فيها ، وقضى على آخر حركات المقاومة منذ سنة ١٢٨٠ . وظهر بمظهر الامير الصيبي ، وأصبح بالنسبة لرعاياه الجدد ، ابن السماء ، وأعطى نفسه اسم تشي تسو ، وأتخذ بكين عاصمة له ، وأنهى بذلك حياة التنقل ، وبدأ حياة الاستقرار . وكان قصره محاطاً بأسموارها ما لا يقل عن أربعة آلاف برج ، ويضم في داخله عدداً كبيراً من القصور . وأراد أن يخلف أسرة سونج ، دون أن ينسى أصله المغولي . ومستكون أسرته هو ، هي أسرة يوان ، وأراد أن يزيد إلى رصيده هذه الأسرة الملكية الجديدة ، قائمة بأعمال مجيدة ، ترقى إلى مستوى تلك الدولة العظمى التي يسيطر عليها .

ولكن مشروعاته الاستعمارية لم تكن موفقة . وبعد أن فشل ، في سنة ١٢٨١ في غزو اليابان ، ركز بجهوده على غزو الهند الصينية . وأرسل حملتين عسكريتين ضد مملكة تشامبا ، وحملات أخرى ضد آنام ، وضد بورما ، تمكنت من تخريب البلاد ، ونهب الخواضر ؛ ولكن الجيوش المغولية اضطرت في كل مرة إلى الانسحاب أمام مجهود مضاد من قوات الأهالي . وإذا كان قد نتج عن إستخدام القوة بهذا الشكل ، أن وافق سادة آنام وتشامبا وبورما وكبوديا على الخضوع إسمياً لقوبلاي خان ، فإن ذلك كان مجرد إرضاء لغرور إمبراطور الصين . وأخيراً فإن المغول أصابتهم صدمة خطيرة في جزر الهند الشرقية ، حيث قضى تماماً ، في سنة ١٢٩٧ ، على جيشهم الذي كان قد ذهب لغزو جاوا . وهكذا إنتهت ، عند نهاية القرن الثالث عشر ، عملية توسع المغول صوب الشرق .

وإذا كان قوبلاي قد فشل في مشروعاته ضد اليابان وجاوا ، إلا أنه سيطر على كل أراضي وبلاد الصين نفسها . وكان المغول عدداً بسيطاً بالنسبة لمجموع أهالي الصين ، ولكنهم سيطروا على المراكز ، وكونوا طبقة عليا حاكمة ،

وحرّموا على الصينيين حمل الأسلحة ، وحقّ تعلم اللغة المغولية ، حتى يبعدوهم عن وظائف الدولة .

وإضطرّ قوبلاي وخلفاؤه أن يقللوا من نشاطهم ويحصرّوه داخل نطاق الامبراطورية الصينية . وكان خائفاء قوبلاي أقلّ بأساً منه وقوة ، وأكثر ضعفاً ، فنشأت الفوضى . هذا علاوة على أنهم قد اضطروا كذلك إلى الدفاع عن أنفسهم ضد تدخلات القبائل المغولية ، التي كانت تقيم في سهول الاستبس إلى الغرب ، وكانت تنظر بحقد إلى أخوانهم الأكثر سعادة ، والذين يسيطرون على أقاليم غنية . وبهذه الطريقة قام الخان قايدوا ، أمير إيلى ، والذي أصبح سيد تركستان الشرقية ، بإفلاق قوبلاي منذ سنة ١٢٧٥ . ولقد عاود الهجوم في سنة ١٢٨٧ . وتسبب في نشوب الثورة في منشوريا . وإضطرّ الامبراطور ، وخليفته تيمور (١٢٩٥ - ١٣٠٧) إلى قيادة حملات عديدة للقضاء على هذا الغازي ، الذي هزم وقتل في قراقوروم سنة ١٣٠١ .

ولقد تمكن أفراد أسرة يوان بسرعة من هضم الحضارة الصينية القديمة ، ولما ساندوا إلى نشاط المغول ، وأعطوا امبراطوريتهم قرناً بأكمله من الازدهار . ولقد أعادوا للصين وحدتها السياسية ، بانتهاء الانقسام بين مقاطعات الشمال ومقاطعات الجنوب ، وقاموا بمشروعات عامة نافعة ، مثل إكمال حفر التربة التي تزود بكين بالماء ، ووضعوا نظاماً للبريد ، وراقبوا المحاصيل ، وأنشأوا بعض المشروعات الخيرية . وكانت عودة هذا الازدهار المادى تسمح بازدهار كبير في كثير من الميادين الفنية والأدبية . ونشأت مدرسة من الرسامين تستند إلى الواقعية ، وتستعمل الألوان ، وتصور مناظر الطبيعة ، والصيد ، والحرب . ونقيصة للتكامل بين إمارات المغول ، ظهرت تأثيرات مختلفة ، وأصبحوا يشكون البرونز والفخار حسب طرق الفن الفارسية ، وكان الفرس كذلك هم الذين أدخلوا إلى الصين الفن البيزنطي الخاص بالمينا المجددة . وظهر التدخل الكبير بين العناصر

الصينية والمغولية في كل الميادين الفنية ، وبشكل دل على أن اليوان قد هضموا حضارة أقدم منهم .

وكانت روسيا ، في الجانب الآخر من الامبراطورية المغولية ، شبه مستقلة تحت سيطرة الغزاة من الجنس الأصفر . وكان أحد أحفاد جنكيز خان قد حكمه على معظم روسيا ، وأخذ عاصمة لها على نهر الفولجا ، ورفض الاشتراك في انتخاب الخاقان ، واحتفظ لنفسه بالمناطق الروسية التي أصبحت مغولية ، دون أن تخضع لمغوليا . وكانت طرق حكمه تشبه حكم المناطق التتارية الأخرى ، إذ كان يستولى على أكبر كمية من الضرائب ، ولكن موظفيه كانوا يحترمون العادات والتقاليد والديانات المحلية ؛ وتركوا الأمراء السابقين لهم يحكمون مناطقهم تحت سيطرتهم . وقاموا ببناء مخازن الحبوب ، وشق الطرق ، وتنظيم البريد . وكان المغول يوجهون كل شيء في روسيا ، ولهم نظام بوليسي أعطى للروس روحاً سلبية متواكدة أمام وحشية الدولة وربها . وكان أكبر أخطائهم هو إبعاد روسيا عن التيارات التي سادت في الغرب ، وفي الوقت الذي بدأت فيه أوروبا في اليقظة . وكانت صلات جنوا والبندقية من الجنوب مع روسيا ، وصلات الجامعة الهندية معها من الشمال ، اقتصادية قبل أي شيء آخر . فنزل ستار حديدى بين العالم الأبيض والعالم الأصفر . وأخذت روسيا في التقهر في الوقت الذي استمرت فيه بقية أوروبا في التقدم . وتكونت موسكو ونمت ، كما يقول ماركس ، في ظل مدرسة التواكل والعبودية المغولية ، ولم تشجذ هممتها وتجمع قواها ، إلا لتكرسها للتفنن في الخضوع للاستعباد .

أما بقية الممالك المغولية فقد ظهرت شخصياتها المتميزة بسرعة أكثر مما حدث في الصين وكانت التركستان ، المحصورة بين المغولية وخانات إيران وروميا ، غير قادرة على التوسع وكانت الأسرة الحاكمة فيها من سلالة جاكثاي ، الابن الثاني لجنكيزخان ، وحاولت أن تتوغل في الهند ؛ وأرسلت ثلاث حملات

إلى البنجاب ، ووصلت حتى أبواب دلهي ؛ ولكن السلاطين المسلمين قاموا بصمد هجمات المغول في كل مرة . هذا علاوة على أنه في أراضى جاكثاي نفسها ، لم يتمكن النظام المغولي القائم على أساس المركزية من أن يتغلب على تحركات الشعوب الترحائية التي تسكن البلاد ؛ وسرعان ما جاءت الصراعات الداخلية ، لكي تضعف من سلطة الخانات . ومنذ بداية القرن الرابع عشر ، انفصلت كل من بلاد ماوراء النهر ، والتركستان الشرقية ، تحت حكم فرعين متنافسين من فروع هذه الأسرة الحاكمة ؛ كما أن اتصال المحاربين المغول بالقبائل الخاضعة لهم ساعد على سرعة تحولهم إلى الاسلام . وكان الخانات الأول يتميزون بالسباحة الدينية ، ولكن سرعان ما خلفهم أمراء وقعوا تحت سيطرة التركمان أكثر فأكثر . ونجد أن قوة الحماس الديني الاسلامي كانت واضحة بنوع خاص في بلاد ماوراء النهر ؛ وهي المنطقة التي ستخرج منها عصابت تيمور ، قرب أواسط هذا القرن .

ويتميز تاريخ خانات المغول في فارس وفي روسيا بتاريخ مشابه من حيث التحول إلى الاسلام ، وكذلك الصراعات الداخلية . فلقد تكونت إمارات متنافسة في كبتشاق (روسيا المغولية) . وكانوا أقل ثروة وأقل قوة من مغول التركستان ، وتحولوا نهائيا مثلهم ، ومنذ نهاية القرن الثالث عشر ، إلى الدين الاسلامي ، الذي أصبح دين كل المغول الغربيين . وفي فارس ، واصل ذلك الفرع من أسرة جنكيز خان ، والذي أسسه هولاكو منذ سنة ١٢٥٦ ؛ توسعه بصبر صوب الغرب . ووصلوا إلى بغداد منذ سنة ١٢٥٨ وانتصروا على السلاجقيين في آسيا الصغرى ، وأخضعوهم لهم ، وسيطروا على أرمينيا الصغرى ، وعلى شعوب ما وراء جبال القوقاز ؛ وأصبحت دولتهم جارة خطيرة لسلطة المماليك في مصر . وفي سنة ١٢٨١ قام أباجا خان بغزو سوريا بدعوى الدفاع عن إمارات أرمينيا الصغرى .

وواقع أن مغول فارس ، مثلهم في ذلك مثل إخوانهم في الصين وفي

التركستان ، لم يتأخروا كثيراً عن أن يتأثروا بالشعوب التي كانوا قد غزوها . وتحولت خانات فارس ، شيئاً فشيئاً ، أثناء النصف الأول من القرن الرابع عشر ، إلى الاسلام ، وأخذت أنظار أمراءهم تتجه صوب مكة ؛ وزادت سرعة هذا التطور مع نهاية أسيرة جنكيز خان ، والذي كان آخر خاناتها ، هو أبو سعيد ، الذي حكم من سنة ١٣١٦ إلى سنة ١٣٣٤ ، وذلك بتقسيم إيران إلى أربع إمارات : هي آذربيجان ، والعراق ، وخراسان ، وفارس . وكانت بعض هذه الأسر المحلية التي حكمت هذه الإمارات من أصل غير مغولي ؛ فكانت من الأفغان ، أو الإيرانيين ؛ وكانوا مسلمين ، سواء من السنة أو الشيعة ؛ وكانوا قد هضموا غزاتهم . ومع ذلك ، فرغم قصر فترة الحكم المغولي ، والإنقسام السياسي الذي نتج عنه ، فإنه ترك آثاره على الحضارة الإيرانية القديمة . وإذا كانت فنون الفرس قد أثرت حتى في الصين ، فإن فنون الشرق الأقصى ، قد تركت أثرها كذلك في إيران . وقام خانات المغول في فارس بإستدعاء عدد من صناع الفخار الصينيين إلى منطقة حكمهم . وفي فترة حكم المغول في فارس ظهرت مدرسة الفنون الدقيقة الفارسية ، التي جمعت بين التقاليد المحلية ، وبين حب الصينيين للطبيعة ، والتي ستكون الأساس لهذه المجموعة من الرسامين ، الذين سيعملون على تنمية فنهم في عهد التيموريين وحتى أثناء القرن السادس عشر .

٣ - آسيا المغولية :

وإذا كانت امبراطورية المغول قد انقسمت بسرعة ، إلا أن آسيا قد عرفت في ظلها أكثر من نصف قرن من الإزدهار . ولقد احتفظت هذه الإمبراطورية ، حتى حوالي سنة ١٣٥٠ ، بوجدة نظرية ، كانت تترجم في ميدان الواقع . وكان الخانات الغربيون قد استمروا في النظر إلى امبراطور بكين على أنه سيدهم واحتفظوا معه بعلاقات احترام وسلام . وكانت الحدود ، المفتوحة إلى مدى بعيد . لا تعرقل التبادل ؛ وكانت لا توقف التجار ، ولا المبعشرين الغربيين . أما

أوربا ، التي كانت بحيرة دفيا مضى على المرور عبر سلطنة ممالك مصر لكي تحصل على سلع آسيا بأعلى الأثمان ، فإنها أصبحت تجد أمامها طرقاً تجارية سريعة ومسهلة العبور ، عبر القارة الآسيوية . وفي بعض الإمارات ، والسلطنات أو الخانات الخاصة بهم ، قام المغول بحماية القوافل ، وأنشئوا الطرق ومراكز الحراسة ، وبعض الأسواق الكبرى الدولية . وأصبحت فارس ، من جديد ، هي ثغر آسيا . ولعبت مدينة تبريز ذلك الدور الذي لعبته بغداد في عهد العباسيين . وكان يصل إليها طريقان من الشرق ، الأول هو طريق الحرير القديم الذي كان يمر عبر التركستان ؛ والثاني هو الطريق البحري ، أو طريق التوابل ، الذي يوصل إلى المحيط الهندي ، والغالبج الفارسي ، وحتى ميناء هرمز ، الذي أنشئ في سنة ١٣٣٠ . أما في الغرب ، فقد كان يخرج من تبريز طريقان آخران ؛ الأول ينتهي عند طوابيزون على البحر الأسود ، والآخر يعبر إمارة ارمنييا الصغرى لكي ينتهي عند خليج الاسكندرونة ، هذا علاوة على وجود طريق آخر كبير ، ويمر إلى الشمال أكثر من ذلك ، ويصل الصين بالقرم ، ماراً عبر التركستان وبحر قزوين ، وجنوب القوقاز ، والسكبتشاق .

ولقد أفادت التجارة الأوربية من هذا التغير الكبير . وبسبب هذه الطرق الجديدة وول السلع والمنتجات الآسيوية من كل نوع ، وبسعر أقل إلى الغرب ، وسمحت بالإتصال بين فنون المناطق المختلفة ، وقربوا فيما بين الحضارات المتباعدة عن بعضها . وأفاد الكثيرون من تلك التسهيلات الجديدة ، التي كانت تتمثل فيما نتج عن توحيد المغول لهذه المناطق المختلفة . وأعطى هذا الوضع الجديد آمالاً عريضة أمام جماعات التبشير ، للقيام بمجهود وللوصول إلى الصين ، وإلى الهند . وقاموا ببذل مجهود في هذا السبيل ، أثبت نجاحاً لبعض الوقت ، خاصة وأن مخانات المغول كانوا متسامحين ومن فارس ، وتركستان ، وحتى الصين ، بنيت آسيا ، في أواسط القرن الرابع عشر ، على أنها تنفتح أمام المؤثرات الخارجية

الفعالة . ولكن سرعان ما تغير كل شيء ، وظهرت إلتجهاحات محلية قوة ، في الصين ، و تركستان ، وفي فارس ، ولانتهى بها الأمر إلى تحطيم ذلك الصرح الذي كان جنكين خان قد أقامه ، وأكمله فيما بعد خلفاؤه ؛ ولانتهى الأمر بهذه الحركات إلى إعادة إغراق القارة القديمة في فوضى ، يفيد منها المنتصرون الجدد ، وهم من المنطقة .

ومع ذلك فعلينا ألا ننسى أن هناك ثلاث مناطق كبيرة في آسيا لم تضل إليها جيوش المغول ، أو وصلت أو صدت عنها ، وهذه المناطق هي اليابان ، والهند الصينية ، وشبه القارة الهندية .

أما اليابان ، فإنها ، بعد صدها لمحاولة المغول احتلالها سنة ١٢٨١ ، لم يقلقها الغزاة من القارة ، ولانغلقت على نفسها ، داخل جزرها ، وعاشت أزمتها الداخلية . وتولى الحكم فيها في أول الأمر مجموعة من الدكتاتوريين الذين كانوا قد تميزوا أثناء الحرب ضد المغول ؛ ثم ضعفت السلطة ، وزاد ظهور أهمية رئيس القصر ، أو الوصي ، الأمر الذي أدى إلى ظهور الامبراطورية في سنة ١٣١٩ ، مستندة إلى رجال الدين البوذيين ؛ وإلى ولاء العديد من السادة الاقطاعيين . وفي نفس الوقت ظلت اليابان خارج تلك التيارات الخاصة بالتبادل ، والتي رأينا نشأتها داخل إمبراطورية المغول .

وكان هذا كذلك هو حال الهند الصينية تقريباً ؛ تلك المنطقة التي ضعفت فيها إمبراطورية الخمير في أثناء القرن الرابع عشر ، وظهرت على حسابها مملكة قوية في سيام . وإلى الشرق من ذلك وفي نفس شبه الجزيرة ، وظهرت مملكة آنام ، حول تونكين الحالية ، وأخذت في مد سلطتها صوب الجنوب ، في السنوات الأولى من القرن الرابع . ولكن الضعف والفوضى والحروب الداخلية ، سادت المنطقة بعد ذلك .

وأما الهند ، فهي المنطقة لثالثة التي مستها عملية الغزو المغولي . بالكاد . ورغم

خضوع المناطق المحيطة بها لغزوات المغول فإنها ظلت، أثناء القرن الرابع عشر، خاضعة لغزاتها الأتراك الأفغان، الذين عملوا على توسيع ملكهم فيها. وكانت كل سهول السند والجانب، مع دلهي كعاصمة لها، تكون إمبراطورية عسكرية، تخضع لحكم جيش من المماليك. ورأى هؤلاء الغزاة أن المغول قد استولوا على بلادهم الأصلية، وعلى جبال الأفغان، ولكنهم تمكنوا أنفسهم من الاحتفاظ بالأراضي التي كانوا قد فقدوها. وتعاقب على العرش أسر عسكرية، تقوم الواحدة منها بإنتزاع السلطة من السابقة لها. وبعد عدد من السلاطين الأتراك، تولى عدد من السلاطين الأفغان السلطة، ابتداء من سنة ١٢٩٠. وقام السلطان علاء الدين (١٢٩٦ - ١٣١٦) بالعودة إلى محاولة غزو شبه القارة من جديد، بعد أن كانت قد توقفت منذ نصف قرن؛ فاستولى على الهند الوسطى، وأخضع ملوه، وضم جزء من مملكة المهراتا. وظهرت قواته وسط هضبة الدكن، ثم وصلت إلى أقصى الجنوب. ثم جاءت أسرة تركية جديدة إلى الحكم، واهتمت بنشر الإسلام بالقوة في البلاد التي خضعت لها. وسرعان ما ظهرت الثورات داخل السلطنة التركية الأفغانية، التي أخذت في الانقسام إلى دويلات إسلامية عديدة. وكان هذا الضعف، في السنوات الأخيرة من القرن، في صالح السياسة التي كان يتبعها تيمور.

٤ - بداية حكم تيمور :

شعر المغول عند، أواسط القرن الرابع عشر، وبعد أن عجزوا عن السيطرة على كل آسيا، بأن سيطرتهم قد أصبحت مزعزعة في البلاد التي لم يتمكنوا من أن يدعوا حكمهم فيها؛ وكانت الصين من بينها. وكان الأباطرة من أسرة جنكيزخان قد فقدوا شيئاً فشيئاً، ومنذ بدء حكمهم في بكين، الصلة مع بقية الأسر المغولية وانتهوا، نتيجة لضمهم الحضارة الصينية، بأن أصبحوا غرباء عن إخوانهم في الجنس، وبأن يشعروا، بدورهم، غير وطمع أولئك الذين ظلوا من بينهم يواصلون حياتهم المنقل في إستيس مغوليا. وكان هؤلاء الآخرين قد عادوا إلى

ممارسة سولاتهم التخريبية في أراضي الصين ، بحرين بذلك أسرة يوان ، ورغم أعمالها المغول ، على أن تسلك معهم نفس السلوك الذي كان يسلكه الأباطرة الصينيون من قبلها ؛ وأن تقوم باستخدام القوة ضدهم ؛ خاصة وأن جولات النهب والسلب في القرن الرابع عشر لم تكن أقل خطورة أو عنفاً من تلك التي كانت قد حدثت في القرن السابق ؛ وكانوا قد وصلوا في سنة ١٣٦٠ إلى بيتشي لي ، قاتلين وناهبين كل ما يصادفونه في طريقهم ، كما فعل أجدادهم تماماً .

وفي أثناء ذلك الوقت ، رأى سادة بكين أن الصين الجنوبية تعلن الثورة ضدهم . وكان الجنوب قد ظل مخلصاً لمبادئ كنفشيوس ، وكانت ميوله ديمقراطية ، ونشاطاته تجارية ، وذوقه أكثر رقة ، الأمر الذي يتعارض مع ما ساد الصين الشمالية ، التي صبحت بالصبغة المغولية ، وسادها نظام إقطاعي ، عسكري ، وأتوقراطي . وأعلنت كل الصين الجنوبية الثورة في سنة ١٣٥٠ ، وتمكن قادتها المحليين ، رغم منافساتهم ، من أن يهزموا الحكومة المغولية ؛ ودوب سنة ١٣٦٠ كانت كل المقاطعات الجنوبية ، الواقعة جنوب النهر الأزرق ، قد تمكنت من أن تتخلص من سيطرة حكام بكين . ولم يبق لهم إلا أن يلتفوا حول أحد قادتهم القادرين ، حتى يكلوا ما بدؤوه . وكان المغامر تشويوان تشانج ، المعروف باسم هونج وو ، قد أظهر مقدرته ونشاطه ، وأقام في نانكين التي انتزعها من المغول في سنة ١٣٥٦ ، وأخذ في القضاء على منافسيه ، وسيطر على الجنوب ، بما فيه كانتون ، ثم أخذ في سنة ١٣٦٨ في الزحف صوب الشمال . وعجز إمبراطور المغول الضعيف ، توغون تيمور ، عن أن يوقفه ، وكانت بضعة أشهر كافية لكي يصل تحت أسوار بكين ، ويستولي عليها . وكانت هزيمة المغول كاملة ، ولم يكتف هونج وو ، مؤسس أسرة مينج الصينية بانتصاراته الأولى ، وأردفها بالهجوم على أسراء أسرة جنكيزخان ، حتى في بلادهم الأصلية ، وتمكن من أن يصل بانتصاراته حتى إلى قراقوروم ، التي احتلها لفر سنة ١٣٧٢ .

وفي نفس الوقت ، كان هناك تغييراً أكثر خطورة يتم في التركستان .
ولقد ذكرنا أن خانات المغول هناك كانت قد انقسمت في أوائل القرن الرابع
عشر إلى قسمين : ما وراء النهر إلى الغرب ، وتركستان الشرقية إلى الشرق .
ولكن سرعان ما سادت الفوضى بلاد ما وراء النهر ، وتمكن النبلاء الأتراك في
سمرقند بسهولة . وهم من المسلمين المخلصين ، من القضاء على سلطة خان المغول ،
الذي كان يحكمهم إسمياً . وأفاد توجلوك تيمور ، خان تركستان الشرقية ، من
هذه الظروف ، وقام بغزو بلاد ما وراء النهر ، وأعاد الوحدة بين الأقليمين في
سنة ١٣٦٠ . واضطرت الأسر التركية الرئيسية إلى الالتجاء إلى الواحات الجنوبية
المجاورة لإيران ، حيث لا تنتظروا عودة الغزاة ، لكي يعلنوا الثورة وسيظهر
تيمور الكبير من بين أولئك اللاجئين .

وكان هذا الرئيس من سلالة أسرة من نبلاء أترك ما وراء النهر ، وكان
البحر الذي أصابه في إحدى المعارك هو سبب وصفه بالأعرج « لك » ؛ وكانت
حركته تمثل ثورة التركستان على المغول . ولا شك في أنه قد أخذ لنفسه أحلام
جنكيز خان من أجل السيطرة على العالم ؛ وحاول بعد نجاحه في حروبه أن يعلن أنه
من سلالة هذا الغازي الشهير ، ويدعى أنه من أسرته ؛ ولكنه سيكون من الخطأ
أن ننظر إليه على أنه استمرار للمغول . فلقد كان يمثل رد الفعل الوطني والديني
للنبلاء الأتراك ضد الخانات الذين لم تكن لهم ديانة ، أو كانوا متساهلين تجاه كل
الديانات . ذلك أنه قد حارب من أجل الإسلام ، وسيطر على نصف القارة
الآسيوية باسم الجهاد : وكان هذا العامل هو الذي سيزيد من خطورته ، وخطورة
حركته ، في نظر أوروبا ، وهي مسيحية ، خاصة وأنه سيصل إلى تخومها .

وكانت السنوات الأولى من حياة تيمور صعبة ، وقليلة النجاح . واضطر ،
في مواجهة توغلوك . إلى أن يتحالف مع الرؤساء المحليين ، وبخاصة مع الأمير

خسعين ، الذى تزوج أخته . . وتمكن فى سنة ١٣٦٢ من أن يضع أقدامه فى بلاد ما وراء النهر ، ويطرد المغول إلى بلاد القشغر . ثم قتل الأمير حسين ، فأصبح تيمور هو الرئيس دون شريك ، وأفاد من موت توغلوک ، فى سنة ١٣٦٤ ، لى يعاود الهجوم ، وإن كانت غزواته لم تبدأ حوالى سنة ١٣٧٠ . ولقد إحتاج إلى عشر سنوات أخرى لى يقضى على الخان السابق ، وإلى خمس حملات لى يحطم قوة أمراء أسرة جنكين خان فى بلاد القشغر . ثم قام بضم خرمز ومنطقة خيوه فى سنة ١٣٧٨ .

وبعد أن ثبت دعائم حكمه فى منطقة التركستان ، بدأ فى تحويل أنظاره صوب الغرب . فاستعدت قرب سنة ١٣٨٠ لغزو فارس ، حيث يمكن التنبؤ بأنه سوف يجذب بسهولة صوب سوريا ، وصوب بلاد الأناضول .

٥ - القوضى عند المسيحيين فى الشرق :

ولم يعد للمسيحيين ، فى الخوض الشرقى من البحر المتوسط ، تلك القوة التى تمكنهم من مواجهة العدو الجديد ؛ وكانوا يفقدون نقط ارتكازهم ، الواحدة بعد الأخرى . وكان ما بقى من الأراضى المقدسة فى أيدي الفرنجة ، عند سنة ١٢٨٠ يتمثل فى شريط ساحلى ضيق من الأرض ، يشتمل على حيفا ، وعكا ، وصيدا ، وبيروت ، وطرابلس ؛ ورأى الفرنجة أن سلطان المماليك فى مصر ، قلاوون ، قد تمكن من دفع غارة المغول بقيادة مانجو تيمور فى حمص سنة ١٢٨١ . فإضطرت الفرنجة إلى منح تاج بيت المقدس لهنرى لوسينيان الثانى ، ملك قبرص فى سنة ١٢٨٦ . ولكن السلطان قلاوون تمكن من إعادة بناء قواته المسلحة ، وإستولى على اللاذقية سنة ١٢٨٧ ، ثم على طرابلس سنة ١٢٨٩ . ووصل فى إبريل سنة ١٢٩١ أمام عكا ، وحاصرها ، وإستولى عليها فى مايو ، وقضى على آخر معاقل الفرنجة فى الشام .

توجد الفرنجة ، أمام خطر المماليك ، وعدم إستجابة ملك وأمرام الغرب .

لنجدتهم ، أن المخرج الوحيد أمامهم يتمثل في التحالف مع خان الفرس الغزنوى ؛
ولذلك فاتهم وعدوه بالتأييد المطلق ، في سنة ١٢٩٩ ، حين علموا بأنه يستمد
لغزو الشام ؛ ولقد ساعده بقوة في أن يحصل يوم ٢٣ ديسمبر على انتصار على
القوات المملوكية في حمص ، وفي نفس المكان الذي كانت قوات المغول قد ذاعت
فيه مرارة الهزيمة على أيدي المماليك منذ ثمانية عشر عاما ؛ كما ساعده بحرباً وبرياً ،
وذلك حين استعد للاستيلاء على دمشق ، في يناير سنة ١٣٠٠ ، وكذلك حين
استمر بعد ذلك في حصاره لحلب . ولكن الوقت كان قد تبدل ، وكان النتيجة قد
لعبوا على الفرس الخاسرة ، بتحالفهم مع المغول ضد المماليك . ذلك أن ثورة
نشبت في فارس ؛ واضطر السلطان الغزنوى إلى العودة إلى بلاده ، تاركا سوريا
لقوات السلطان المملوكي ، الملك الناصر ، وانتهى حلم المسيحيين في الشرق بإعادة
غزو سوريا ، بمساعدة الغزاة الأجانب .

وبقي للمسيحيين خط تراجعوا إليه ، في مواجهة الاسلام ، وهو يتمثل في
مملكة أرمينيا الصغرى ؛ والتي كانت تقع محصورة بين سوريا والامارات التركية
في الأناضول ، وكانت قد عاشت لفترة من اوقت نتيجة لتحالفها مع المغول ،
وتمكنها من فتح طريق تجارى بين عاصمتها ، وبين إحدى الموانئ الصغيرة المعلقة
على خليج الاسكندرونة ، الأمر الذي ساعد على ازدهارها . وكان وجود هذه
المملكة يعيل ضد مصلحة سلطنة المماليك ، فهاجمت القوات المملوكية وميناءها
الصغير مرتين ، في سنة ١٣٢٢ وفي سنة ١٣٣٧ ، وخربته . وفي سنة ١٣٧٥ سقط
آخر ملوك هذه الدولة في أيدي قوات المماليك ، وقضى حياته في أوروبا . لاجئاً ،
بعد أن أطلق سلطان مصر المملوكي سراحه .

وإحتفظ اللاتين كذلك بمملكة قبرص ، التي كانت تمثل مفتاح الخوض الشرق
للبحر المتوسط ؛ وكانت من أكثر دول أوروبا بارشاه . وكانت ميناء فاجوستا تضم
الكثير من التجار ، من كل أنحاء أوروبا وعاشت فيها . تحت حكم لومينيان ،

أرستقراطية تشربت بالروح الشرقية ، وجنباً إلى جنب مع الجماعات الدينية القوية ؛ وانتشرت الكاندرانيات والحصون في كل مكان . وكانت جماعة فرسان المستبالية هي الجماعة المخاربة الوحيدة الموجودة في الشرق ، بعد سفر الفرسان التيموتون إلى منطقة بحر الباطيق ، وصدور الحكم على جماعة فرسان المعبود . وكانت جماعة فرسان المستبالية قد حضرت في أول الأمر كجماعة لاجئة إلى ليماسول ، في جنوب قبرص ، بعد سقوط عكا في أيدي المماليك ؛ ثم استعانت بأهالي قبرص وهاجمت جزيرة رودس في سنة ١٣١٠ ، وأقامت فيها ، وسيطرت على البحار المحيطة بها ، بمساعدة القبارصة .

وكانت الملاحة مهددة في بحر إيجه . ذلك أن الاسراء الاتراك في آسيا الصغرى كانوا قد أفادوا من تفتت الدول المسيحية في الأرمنيل وفي شبه جزيرة البلقان ، وقاموا بعمليات قرصنة موجهة ضد سفن الغربيين ، نشرت الرعب ، وعرقلت تجارة الايطاليين ، وبخاصة تجارة البنادقة . وقامت أساطيل لوسينيان مع جماعة الفرسان المستبالية ، وبعض سفن البندقية والبابوية ، في سنة ١٣٤٤ ، بحملة بحرية لتطهير بحر إيجه ، وتمكنت في ٢٨ أكتوبر من الاستيلاء على أزمير من عمورك . ولكن استمرار العمل في هذا القطاع كان صعباً دون الحصول على مشاكة أوربية فعالة فيه .

وكانت بزنطة ضعيفة ، ولم يعد لها سوى مساحة صغيرة من الأرض على الساحل الآسيوي للبوسفور وبحر مرمره ، علاوة على تراقيا والقسطنطينية ، وجنوب مقدونيا مع سالونيك ، وعدد بسيط من الجزر في بحر إيجه .

وأما البنادقة ، فإنهم كانوا ، علاوة على احتفاظهم بجزيرة كريت ، وبعض مدن المورة ، قد أقطعوا الجزء الأكبر من جزر الأرخبيل لعدد من أسرم الأرستقراطية . أما منافسهم ، أبناء جنوا ، فإنهم كانوا يحاولون الإحتفاظ بالاحتكار التجاري لمنطقة البحر الأسود ؛ وكانوا يهتفون في القسطنطينية ،

بكل من حتى بيراجون وحى جالطة ، وكانا قطاعيين لها دخل الاراضى البيزنطية ، وقام بعض المغامرين من ابناء جنوا بالسيطرة على ايدى جوس ونيسوس . وكانت بعض بقايا الامبراطورية القسطنطينية اللاتينية موجودة في شبه الجزيرة اليونانية ، وبخاصة في إمارة المورة ، التى كانت موضوع نزاع بين كثير من الامراء الاوربيين ، من أسر نابولى ، وأراجون وفالوا وأنجو .

وكانت الامبراطورية البيزنطية عاجزة عن الإفادة من هذه الفوضى ، إذ أنها كانت غارقة في صراعات داخلية مستمرة . وكان الامراء الصغار فى الأسرة الحاكمة يظالبون بقيادات كبيرة ، فتركوا لهم بعض المقاطعات الباقية ، واستندوا إلى صفتهم كحكام مطلعين ، وحاولوا الاستقلال بحكمهم . وكانت الخزانة سخاوية ولم يعد من السهل تجنيد الرجال من الاقاليم ، التى قل عدد سكانها . فاضطروا إلى الالتجاء إلى المرتزقة ، ولكنهم عجزوا عن دفع رواتبهم ، فتمحلت هذه العصابات من البلغار والكانالان أو الأتراك إلى العمل لحسابهم الشخصى ، ونهبوا البلاد التى كان من واجبهم الدفاع عنها . وأخيراً ، ولكي تستمر الميزة ، تآلت مزارع وثورات القصر ، حول عرش مقلقل مهتز . وساد الضعف أسرة باليولج ، وبدون أمل فى الشفاء . وكانوا يتعاونون على بعضهم ، فى صراعاتهم المستمرة ، بالصرى وبالأتراك العثمانيين وفى حالة ميؤس منها .

وأمام هذه الفوضى ، لم يكن من الواقعية التحدث عن حرب صليبية جديدة . وكان ملك قبرص ، بطرس لوسينيان الأول ، قد تمكن فى سنة ١٣٦١ من الاستيلاء على ميناء أضايا ، ثم على ميرا ، وليبيا ، وأعتقد أن الساعة قد حانت لتثبيت هجوم شامل على المسلمين . وحاول أن يقنع الغرب بوجهة نظره ، فزار معظم ملوك وأمرام أوروبا ، ولكنه لم يرجع من جولته إلا بمجموعة من اوعود . ولقد تمكن مع العشرة آلاف رجل ، الذين جمعهم بكل صعوبة من أن يفاجئ الإسكندرية فى شهر أكتوبر سنة ١٣٦٥ ، وينهبها ، ثم يقوم بنفس العملية عند

طرابلس الشام ، وطردوس ، واللاذقية ويافا في سنة ١٣٦٧ ، ولسكنه تمكن من الاضرار بالتجارة المصرية ، دون أن يتمكن من إحتلال أى موقع والتركز فيه ، وفي حرب مجهدة ومكلفة ، ومدمرة .

هذا علاوة عن أن هذه الحملات كانت تتعارض مع مصالح كل من جنوا والبندقية ، وكانت تثير حنقها . ولقد عمل البابوات ، بلا جدوى ، على تجديد تحريم الاتجار مع المسلمين ، وبصفتهم أعداء الدين المسيحى ؛ ورغم ذلك ، فإن البندقية عقدت في سنة ١٣٠٢ معاهدة تجارة مع مصر ، وحصلت بها على شروط مواتية في نظير إدخال السلع الممنوعة من جانب الكنيسة ، والمواد الحربية ، إلى بلاد المماليك ، كما أن جنوا قامت في سنة ١٣١٠ بنهب رودس ، وباعوا أسلابهم للأتراك . ولم يعد حصار الإسلام ، كحلم للبابوية بمجرد استحالة من حيث التحقيق ، بل نجد أن كل من أبناء البندقية وأبناء جنوا يعملون في صالح المسلمين . حقيقة أنهم قد تحالفوا ، في وقت معين ، من أجل تخليص بحر إيجه من القراصنة الأتراك ، الذين كانوا يهرقون نشاطهم ؛ ولسكنهم عادوا بعد ذلك إلى التناسخ فيما بينهم . ونشبت الحرب بين الدولتين في سنة ١٣٥٠ ، وامتلك البحر الشرقى ، الذى كان قد شهد وجود بعض سفنهم التى عملت ضد الأتراك ، بأساطيلهم . ولذلك فإن كل حملة صليبية جديدة كانت تتعارض مع منطلقاتهم . ولقد إحتفظت جنوا بالحياة ، وقت الهجوم على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ ، ورأت أن الصليبيين ينهبون فنادقها وخازن سلعها . وبعد فترة من الوقت ، اقترحت البندقية ، التى كانت تخشى على تجارتها الشرقية ، ومساطتها بين ملك قبرص ، وبين سلطان مصر . وأخيراً ، فإن أبناء جنوا أفادوا من مقتل بطرس الأول ملك قبرص سنة ١٣٦٩ ، فإدعوا حرصهم على إعادة النظام إلى مملكته ، وهاجموا الجزيرة ونهبوها ، وإحتفظوا لنفسهم بميناء فاجوستا سنة ١٣٧٣ . ومع قبرص ، سيطرت آخر دولة كان في وسعها أن تقف في وجه الشرق الاسلامي .

الفصل الثامن

قيام الدولة العثمانية

لقد توالى تقدم الغزاة الآسيويين في الحوض الشرقى للبحر المتوسط منذ نهاية القرن الرابع عشر . وفي أوروبا كانت هزيمة الصرب في قوصوه قد سلبت العثمانيين شبه جزيرة البلقان ؛ وفي آسيا كانت قوة بقية الإمارات الناتجة عن تقسيم الدولة السلجوقية متوترة ، وكان السؤال الوحيد الذى يطرح نفسه بالنسبة إليهم هو معرفة ما إذا كانت ستقع في أيدي العثمانيين ، أو في أيدي قوات تيمور ، واللىذان كانت قوات كل منهما تواصل إنتصاراتها صوب الغرب .

١ - نشأة العثمانيين :

بدأ عند نهاية القرن الثالث عشر أن الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين ، اللتين كانتا قد أقلعت المسيحيين في الماضى ، قد ضممتا . ففي القاهرة ، كانت الدولة المصرية السورية ، منذ أن خضعت لأرستقراطية المماليك العسكرية ، قد أخذت تصرف قواها في ثورات القصر ، كما أنها كانت تقاتل من ناحية أخرى ، ومن وقت لآخر ، نتيجة لعدم خضوع أمراء سوريا ، الذين أصبحوا مستقلين بالفعل . حقيقة أنها كانت لا تزال قادرة على دفع الغزاة ، في حالة حضورهم ، ولكنها كانت عاجزة عن القيام بغزوات . أما سلطنة السلاجقة في بلاد الروم ، أو في آسيا الصغرى ، فإنها لم تتمكن من النهوض من الضربات التى كان المغول قد وجهوها إليها . وتفككت عند نهاية القرن الثالث عشر ؛ ولم يعد حكام الأقاليم يطيعونها ، وكونوا مجموعة من الإمارات : ففي الداخل كانت هناك إمارة قرمان حول كوتاهية ، وإمارة قرمان حول قونية ، العاصمة السابقة لدولة

السلاجقة ؛ وكانت لكل منهما قوات مدربة على الحرب ؛ وعلى الساحل كانت هناك إمارة صاروخان في منطقة ليديا ، وإمارة آيدن التي تمكن أميرها في سنة ١٢٣٠ من استعادة أزمير من أبناء جنوا ، وأصبح له نفوذ في بحر إيجه . وتاريخ هذه الإمارات شبيه مجهول ، وكانت من التفتت بشكل يمنعها من القيام بعمل جاد . ولكن سرعان ما ظهرت قوة جديدة ، وهي قوة الأتراك العثمانيين ، التي سيعرف المسيحيون نخطرها بعد قليل .

والروايات غير واضحة عن أصل العثمانيين ، خاصة وأن كل ما يروى عن هذا الأصل يرجع إلى ما بعد إستيلائهم على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، مما يجعلنا لانستند إليه . فيعتقد أنهم جاءوا من قبيلة تركمانية صغيرة كانت تقيم عند بداية القرن الثالث عشر في خراسان ، وطردوا الغزاة المغول من هناك حول سنة ١٢٢٠ . فترك رئيسهم الأول سليمان خراسان ، وتناد قبيلته عبر بلاد آذربيجان وأرمينيا ، والغرات الأعلى ؛ وفي عهد أرطغرل دخلت القبيلة العثمانية في صلات مع دولة السلاجقة ؛ وربما أدخلها سلطان السلاجقة في خدمته لمحاربة مغول فارس ، وأقطعها أرضاً في بلاده . والثابت في هذا الشأن هو أن هذه القبيلة المدربة على الحرب كانت تقيم ، عند نهاية القرن الثالث عشر ، حول إسكي شهر ؛ وأصبحوا في إقليمهم الصغير ، جيران للإمبراطورية البيزنطية ، وكانوا يخرجون كل ربيع للهجوم على القلاع اليونانية القريبة من حدود المسلمين . وبدأ ظهورهم مع عثمان ابن أرطغرل .

ومنذ بداية حكم عثمان ، سنة ١٢٩٩ ، ترايدت غزوات العثمانيين : فأقام في نفس السنة في بني شهر ؛ وتمكن في سنة ١٣٠١ من هزيمة القوات البيزنطية قرب نيقوميديا وخرب الإقليم المحيط بها ؛ ومنذ سنة ١٣٠٨ تمكن عثمان ، وبصبر ، من الإستيلاء على الحصون اليونانية ، الواحد بعد الآخر ، والتي كانت تدافع عن بروسة ونيقوميديا ونيقيا . ثم تمكن شيئاً فشيئاً من محاصرة هذه

المدن ، وهدد خطوط مواصلاتها . وكان جيران العثمانيين من المسلمين الآخرين ، يهددون قوات العثمانيين البسيطة ، ولذلك فإنهم لم يتمكنوا من القيام بعمليات هجوم مباشرة ، ولسكنهم تمكنوا قرب نهاية حياة عثمان سنة ١٣٢٦ ، من الإستيلاء على بروسه ، بدون قتال ، وإتخذوا هذه المدينة البيزنطية أول عاصمة لهم .

وكانت الدولة التي تركها عثمان لابنه أورخان (١٣٢٦ — ١٣٦٠) لا تزال في بدايتها : فكانت تتكون من قبائل من الغزاة غير منظمة ، وكانت حدودها غير محددة ، ولم يكن لها مخرج على البحر ، ولا قوات نظامية . وواصل أورخان ، خلال النصف الأول من حكمه ، سياسة والده تجاه الممتلكات الآسيوية لبيزنطة . وتمكن في سنة ١٣٢٩ من أن يهزم أحد الجيوش البيزنطية على بعد إثني عشر كيلو متراً من القسطنطينية ، ومن أن يدخل نيقيا . وإضطرت المدن البيزنطية الباقية في آسيا الصغرى ، إلى أن تسلم له الواحدة بعد الأخرى . وفي سنة ١٣٣٧ فتحت نيقوميديا أبوابها للغزاة الجدد ، ولم يبق لليونانيين حوالى سنة ١٣٤٠ جنوب البوسفور سوى إسكدار والمنطقة المحيطة بها .

ولم يقتصر نشاط أورخان على هذا الميدان ، فهاجم أمراء السلاجقة المجاورين له ، ووسع دولته على حسابهم ، كما أنه عمل على تنظيم دولته ، فأشأ جيشاً نظامياً من الفرسان والمشاة ، بدلا من ذلك الجيش الذى كان يتكون من الفرسان المتطوعين فى عهد والده ، ثم ضم إليهم مجموعات المحاربين غير النظاميين ، من الفرسان والمشاة كذلك ، والذين كانوا خليطاً من أبناء الشعوب المزروعة ، من يونانيين مسلمين ، وسلاف وأتراك . هذا علاوة على وجود سلاح المدفعية .

وحق ذلك الوقت كان الجزء الأكبر من آسيا الصغرى لا يخضع لحكم العثمانيين ، ولكن أورخان لم يصبر حتى يكمل فتح كل آسيا الصغرى قبل أن ينتقل إلى شبه جزيرة البلقان . وساعده الخلاف الذى حدث بين كنتاكوزين

وباليولوج في بينزطة على ذلك فنذ سنة ١٣٤٥ طلب إليه كنتاكوزين المعونة ،
وفتح لقواته طريق تراقيا ؛ فقام في سنوات ١٣٤٧ و ١٣٤٩ ثم ١٣٥٢ بوضع
قواته التركية في مواجهة القوات الصربية . ثم قامت القوات العثمانية بعد ذلك
بقليل بعبور الدردنيل . أقامت في شبه جزيرة غاليبولى ، وتقدمت بإستمرار في
جنوب تراقيا .

وبمجرد وصول مراد (١٣٥٩ - ١٣٨٩) إلى الحكم قام بحملة سريعة
وخاطفة وسع بها غزوات العثمانيين في أوروبا ، وتمكن في سنة ١٣٦٠ و ١٣٦١ من
الإستيلاء على أدرنه وعلى فيليبوبولى ، والتي كانت عند سنة ١٣٤٤ فى أيدي البلغار .
ومنذ ذلك الوقت أصبحت القسطنطينية محرومة من الإتصال بالسهول الغنية التي
كانت تضمن تمرينها . وشعر مراد بالثقة في نفسه ، ونقل عاصمته من بروسة إلى
أدرنه سنة ١٣٦٦ .

وثار قلق الغرب ، وأرسل البابا أوربان الخامس في سنة ١٣٦٢ حملة صليبية
من المجر والبوشناق والصرب والافلاق ضد الأتراك . ولكنها إنهمزت في ماريترزا
في العام التالى . وحاولت حملة أخرى في سنة ١٣٦٦ أن تنفذ بينزطة ، وإستولت
على غاليبولى ، ولكنها اضطرت إلى الجلاء عنها ، والإسحاب . ولقد حاول
الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس ، أن يثير حماس أوروبا ؛ وكرر وعوده بأنه
سيهتق المذهب الكاثوليكي ، ولكن بلا جدوى ، ولم يتمكن البابوات من إعداد
حملة جديدة . فاضطر الإمبراطور البيزنطى ، بعد أن فقد الأمل ، إلى الإعتراف
بتبعيةه للسلطان مراد ، ووعد بمعوثته عسكرياً ، وأن يترك أولاده رهينة عنده
سنة ١٣٧٤ .

ومع ذلك فإن غزو تراقيا جعل مراد على إتصال مباشر بالصرب والبلغار ،
وكان ضعف هاتين الدولتين قد سهل عملية إستيلائه عليهما . وكانت بلغاريا مقسمة
منذ سنة ١٣٦٥ إلى قسمين ، فتمكن مراد من الإستيلاء عليهما ، الواحد بعد

البيزنطى

عنه مدخل
الرد رنيل

الآخر ، في عامي ١٣٧٠ و ١٣٧١ ؛ ثم دفع الصرب إلى ماويتزا في شهر سبتمبر سنة ١٣٧١ وإحتل قوله ودراما وسيريس ، لكي يصل بعد ذلك وادى فاردار الأدنى ، والذي كانت قواته تقوم بالعمليات منه حتى بحر الادرياتيكا ، وذلك في الوقت الذي كانت مجموعات أخرى تعمل فيه في ايروس وتساليا وأتيكا . وبعد بضع سنوات من توقف العمليات العسكرية ، من أجل تنظيم المناطق المفتوحة ، بدأ الهجوم من جديد . وساعد الاستيلاء على دوناغيتير سنة ١٣٨٠ على فتح الطرق إلى البانيا ؛ كما ساعد الاستيلاء على صوفيا سنة ١٣٨٥ على فتح منطقة الدانوب الأدنى ؛ والاستيلاء على نيش سنة ١٣٨٦ على فتح الصرب ؛ كما أن الاستيلاء على سناونيك سنة ١٣٨٧ ، بعد حصار دام أربع سنوات ضمن السيطرة من البحر حتى بداية وادى فاردار . وحاولت الشعوب البلقانية ، بشرة كبيرة ، أن تتخلص من هذا الغزو؛ وتم تكوين حلف برئاسة الملك لازار ، ملك الصرب ، مشتملا على أمراء البوسنة وألبانيا ؛ وأفادوا من وجود مراد في آسيا الصغرى ، ووجود معظم قاداته في بلاد المورة ، وقاموا بهجومهم على البوسنة سنة ١٣٨٧ . ولكن مراد أمسح بالعودة ، وهزم أمراء البلغار سنة ١٣٨٨ ، ثم إشتبك يوم ١٥ يونيو سنة ١٣٨٩ مع قوات الصرب في سهل قوصوه ، حيث دارت معركة حامية قتل فيها كل من لازار ملك العرب ، ومراد السلطان العثماني . ورغم شجاعة الصرب فإن هزيمتهم كانت كاملة ؛ وسيطر العثمانيون على بلاد البلقان .

٣ - توسع العثمانيين في عهد بايزيد (١٣٨٩ - ١٤٠٣) :-

كان من الصعب وقف توسع العثمانيين في البلقان . ولم يجد بايزيد ، ابن السلطان مراد ، الذي سقط على أرض معركة قوصوه ، أية صعوبة في الحصول على خضوع رؤساء الصرب ، سواء في شمال البلاد أو في جنوبها ؛ وإعترفوا بضرورة دفع جزية له ، وتقنين عدد من المحاربين يساعدون العثمانيين في

حروبهم . أما البوسنة فإنها كانت قد تحالفت مع دلماشيا وكرواتيا ، ولكن
موت ملكها سنة ١٣٩١ ، وضعف خليفته لم تسمح للبوسنة بالوقوف أمام إطماع
السلطان العثماني طويلا . وأما بلغاريا فإنها خضعت بسرعة ، وفي سنة ١٣٩٣
زحف جيش عثماني على بلغاريا لمعاقبها على مساعدة قوات المجر على التوغل في
البلقان ، وطرده أمير بلغاريا ، وألغى البطريركية البلغارية . ثم قام بايزيد في
سنة ١٣٩٤ بغزو الأفلاق ، التي فر أميرها إلى المجر . وفي نفس الوقت ، استمر
توغل العثمانيين في بلاد اليونان التي تم غزو إقليم تساليا فيها منذ سنة ١٣٩١ .
بقي بعد ذلك القسطنطينية وضواحيها على ضفتي البوسفور ، والتي انحصر
فيها ملك باليولج الضعيف . وكان الإمبراطور يوحنا الخامس قد قبل الخضوع
والتبعية للعثمانيين ، وأعطى ابنه مانيويل الثاني رهينة ، وأرسل قوة عسكرية
للعمل في الجيش العثماني . ولكنهم أخذوا في سنة ١٣٩٠ في ترميم أسوار العاصمة
فهدد بايزيد وطالبهم بضروية وقف الأعمال العسكرية . وبعد موت
يوحنا سنة ١٣٩١ ، تولى مانيويل العرش ، وظل محاصرا في مدينته . وتنازل
العثمانيين عن جزء من حى جملة ، وزاد الجزية التي يدفعها لهم ، ووفق على
وجود قاضي عثماني في القسطنطينية .

ولقد عمل بايزيد على توسيع ممتلكاته في آسيا وتدعيم حكمه وسيطرته على
كل الأناضول . وبعد موقعة قوصوه مباشرة أجبره بايزيد أمير آيدن على أن
يتنازل له عن ممتلكاته سنة ١٣٩٠ ، ثم غزا إمارة صاروخان ، فأصبح كل الساحل
الشرقي للبحر إيجه بين يديه ، الأمر الذي سمح له بإنشاء أسطول قوى ، استخدمه
في مهاجمة خيوس وعدد من الممتلكات المسيحية . واستولى بايزيد في سنة ١٣٩١
على أقاليمها ، وبدأ منها في تهديد قبرص . ولم يبق له سوى غزو شمال ووسط
الأناضول حيث لم يستطع بأفوى أمراء السلاجقة ، وهو أمير قرمان وقام بايزيد
في سنة ١٣٩١ بمحاولته الأولى للاستيلاء على قونية ، ولكنها فشلت ، وإن كان قد

حصل بها على بعض المناطق في شمال غرب الإمارة . وفي العام التالي ، اعتقد علاء الدين ، أمير قرمان ، أن الفرصة قد حانت لبدء الهجوم ، خاصة وأن بايزيد كان قد انتقل إلى أوربا ؛ ولكنه هزم منذ أول اصطدام بالجيش العثماني الذي أسرع بايزيد بإرساله ضده من أوربا ، وشنق ، وضم العثمانيون أملاكه . ومع ذلك فإن بايزيد لم يرغب في الوصول إلى آخر مدى في منطقة الأناضول في ذلك الوقت ؛ فاحتل قونيه ، مع بعض المدن الرئيسية ، ثم تقدمت قواته سنة ١٣٩٣ إلى الشمال الشرقي وإحتلت قسبارية وسيواس ، وإحتلت كذلك مينائي سمسون وسينوب ، على البحر الأسود ، وأصبحت غالبية آسيا الصغرى خاضعة له . وأخذ في إعداد جيش آخر . بقيادة أحد أبنائه ، للزحف به على أرمينيا ، ومنطقة الفرات الأعلى ، وهو الجيش الذي سيصطدم بالمغول وفول تيمور لنك في هجومهم صوب الغرب ، كما سنرى فيما بعد .

ولقد شعر بايزيد بأن الرياح والعواصف تتجمع من الغرب ، فأسرع بالعودة إلى البلقان . وكان الغرب قد أصم آذانه عن النداءات الخاصة بضرورة المصالحة بين كنيسة روما والقسطنطينية ، كخطوة أولى في سبيل الوصول إلى تكوين حملة صليبية لانتقاذ القسطنطينية من خطر الغزو العثماني . وشعر سيجسموند ، ملك المجر ، بذلك الخطر الذي كان يهدد بلاده قبل غيرها . وكان قد حاول الهجوم في سنة ١٣٩٢ صوب نيكوبوليس ، ولكنه اضطر إلى التراجع حين رأى تقدم أحد الجيوش العثمانية . ونجح في سنة ١٣٩٦ ، ونتيجة لنداء وجهه للملوك وأمراء أوربا ، في تجميع حملة صليبية غربية جاءت لتجده ، وكانت الهدنة قد عقدت في ذلك الوقت بين فرنسا وإنجلترا ، وجاء كثير من فرسان هاتين الدولتين ، وبخاصة من فرنسا ، وكانوا من الشبان الأصحاء ، المدربين ، الباحثين عن المغامرة . ولكنهم كانوا غير منظمين ، ورغم نصائح المجرين ، فإنهم صمموا على الهجوم في التو ، فغزوا الصرب ونهبوها ، وجاؤا محاصرة نيكوبوليس ، فأسرع

بايزيد بالزحف لمقاولة قوات المسيحيين ، وواجههم وهزمهم وشرد قواتهم ، في ٢٥ سبتمبر سنة ١٣٩٦ . وتمكن سيجسموند من الفرار ، تاركاً وراءه أعداداً كبيرة من القتلى ، ومن الأسرى في أيدي العثمانيين . إنها موقعة نيكوبوليس الشهيرة ، وآخر محاولة صليبية غربية ضد الاسلام في الشرق .

وفي ذلك الوقت كان موقف مانيويل الثاني صعباً في القسطنطينية ؛ حقيقة أن نداماته المتكررة نجحت في إجتذاب قوة فرنسية صغيرة ، سنة ١٣٩٩ ، إلى القسطنطينية ، وهي القوة التي سمحت له بالتنفس لفترة من الوقت ، ولكنه يحتاج إلى إمدادات جديدة . فسافر سنة ١٤٠٠ لجمع المعونة بنفسه من الغرب ، وزار البندقية ، وباريس ، ولندن ، وحصل على وعود جميلة ، ولكنه لم يحصل على قوات ، ولا على معونات ، وظل تحت رحمة العثمانيين ، ورحمة بايزيد

ولقد ظلت قوات بايزيد منتصرة ، في البلقان ضد الغرب المسيحي ، وفي الأناضول ضد السلاجقة ، في الوقت الذي استمر فيه في مراقبة القسطنطينية ، والاستعداد لمهاجمتها ، وكانت تمثل عملياته المقبلة . وكانت سرعة حركته ، من البلقان إلى الأناضول ومن الأناضول إلى البلقان ، ثم من البلقان إلى الأناضول ، منع انتصاره في كل معركة يخوضها ، سبباً في تسميته بالصاعقة ويلر درم ، ولكن الخطأ لعب دوره ، وبدلاً من أن يجد الوقت لمهاجمة القسطنطينية ، أصبح عليه أن يواجه زحف المغول بقيادة تيمور لنك صوب الغرب ، الأمر الذي منح القسطنطينية مهلة نصف قرن جديد لكي تستمر في البقاء بيزنطية .

٣ - غزوات تيمور لنك - آسيا الغربية :

وكان تيمور لنك ، الذي أقام في بلاد ما وراء النهر ، منذ سنة ١٣٨٠ ، قد قام منذ ذلك الوقت بشن الغارات . ولاشك في أنه لم يكن قد فكر في إنشاء إمبراطورية كبيرة ، ولكنه كان يظهر تمسكه بتنفيذ رسالة دينية ؛ فادعى أنه سيذهب ليحارب ويعافب أمراء المسلمين الضعفاء الذين كانوا يسيطرون على

مصر إيران والعراق وآسيا الصغرى والهند ؛ وإدعى أنهم قد ابتعدوا عن روح الإسلام الحقيقية ؛ ولقد أظهر تحمسه للدين في كل مكان وصل إليه ، وكان يقدم المنح للمساجد والأضرحة . وكانت تنقصه صفات رجل الدولة ، وكان يتحكم في الأهالي عن طريق الخوف .

ولقد بدأ جولته في إيران التي كانت فريسة سهلة نتيجة لانقسامها السياسى ، فقام فيها بعدة حملات ، عاد بعدها إلى سمرقند لكي يكسب فيها غنائمه التي حصل عليها من الإمارات الإيرانية التي قضى عليها . ثم توغل في خراسان ، واحتل عاصمتها هيرات سنة ١٣٨١ ، ثم أقام بعد عامين على شاطئ بحر قزوين ، وأرسل حمله الثالثة ضد فارس ، مواطن المظفرين . وباحتلاله لأصفهان وشيراز أكمل تيمور غزو إيران . ولكن هذا الغزو كان غير نهائى ، فلقد اضطرت سنة ١٣٨٧ إلى إعادة فتح أصفهان ، ويقال أنه أمر فيها بقتل سبعين ألف من السكان ، حتى يجعلها عبرة لغيرها من المدن ؛ وأخذت رؤوس القتلى شكل سلسلة من الأهرامات حول أسوار المدينة . كما قضى تيمور على آخر الأمراء المظفرين ، وبدأ على أنه سيد إيران المطلق .

ثم قام تيمور بعد ذلك ، في سنة ١٣٨٧ بالهجوم على العراق ، واستولى على بغداد ، واضطر أميرها إلى اللجوء إلى ممالك القاهرة ، الأمر الذى دفع المغول إلى الانتقام ، وذلك بهجومهم على سوريا . ولكن تيمور كانت له أهداف أخرى : ذلك أنه كان قد تقدم في سنة ١٣٨٦ صوب آذربيجان وأرمينيا ، واستولى على تبريز ، ووصل حتى قارص وتفليس ، ونهب إقليم جورجيا ؛ ثم عاد بعد ذلك صوب الغرب ، واستولى على أرضروم وفان . ولقد عاود هذه الكرة سنة ١٣٩٤ ، وكذلك في سنة ١٣٩٥ - ١٣٩٦ ، ومد بذلك حدوده حتى القوقاز .

وكانت أمراء الأناضول والشام يتسوقون تيمور بالهجوم عليهم ، ولما سكنه

إتجه صوب الهند . وكانت سلطة الامراء الاتراك والافغان في شهبول شمال الهند قد ضعفت . وإنقسم الإقليم إلى إمارات أصغر ، رفضت الطاعة ، وإستقلت بشعوبها ، وتناحرت بينها . فإتجه تيمور صوب هذا الإقليم ، وترك كابول في ١٥ أغسطس سنة ١٣٩٨ مدعياً العمل على إرساء حكم الإسلام وكان زحفه سريعاً ، فعبر نهر السند ، وقصد المدن الكبرى ، قاتلاً ، ناهباً ، حتى وصل إلى دلهي ، التي يقال أنه قتل فيها مائة ألف أسير ، ثم أمر بإحراقها ، في ١٧ ديسمبر من نفس السنة . وعاد بعد ذلك بأسبوعين ، محملاً بالغنائم . وحين عاد إلى عبور نهر السند في عودته في شهر مارس سنة ١٣٩٩ ، لم يترك وراءه سوى الخراب والدمار .

وفي أثناء ذلك الوقت كان السلطان المملوكي في القاهرة قد ساعد السلطان أحمد أمير بغداد الذي طرده المغول من بلاده سنة ١٣٨٧ ، وبشكل ساعده على العودة إلى عاصمته السابقة ؛ وقام بعد ذلك بغزو أذربيجان ، في الوقت الذي كان العثمانيون يقومون فيه بالزحف صوب الشرق ، وكان بايزيد ، كما رأينا ، قد قام بالامتلاء على سيواس سنة ١٣٩٥ ، ولم يتردد في قتل أميرها برهان الدين ، الذي كان قد خضع منذ بعض الوقت للغازي التركماني . ولذلك فإن تيمور لم يتأخر في الرد على هذا التحدي ، وقام في شهر سبتمبر سنة ١٣٩٩ بالزحف على قوات العثمانيين ؛ وبعد إستعادته لأذربيجان ، وتخريبه لجورجيا من جديد ، تقدم صوب سيواس التي إلتزاعها من العثمانيين ، وأمر فيها بدفن أربعة آلاف أسير وهم أحياء في شهر أغسطس سنة ١٤٠٠ . وبدلاً من أن يستمر في زحفه في الاناضول ، إتجه صوب سوريا ، وكأنه يرغب في القضاء على المماليك . وسقطت حلب وحماة وحمص وبلبك ودمشق في يديه ، ونهبها ودمرها . ثم زحف على العراق وإرتكب فيها الفظائع ، وإستعاد بغداد من جديد في شهر يوليو سنة ١٤٠١ .

وعندئذ توجه صوب بايزيد ، وشعر بقوة العثمانيين ، ويقال أنه جمع للقائهم ثلاثمائة ألف مقاتل ، ووقعت المعركة قرب أنقرة فى ٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢ .
ولم يهزم العثمانيون وتفرق شملهم وسط مجزرة حامية ؛ ووقع بايزيد فى الأسر ، ثم توفى بعد بضعة أشهر .

أنه الموت والخراب فى كل مكان ، وبإسم الجهاد وتدعيم سلطة الاسلام !
ولقد تمكن تيمور بسموله من غزو بقية الأناضول ، وأعا الأماراء الذين كان بايزيد قد طردهم من أقاليمهم ، الى السلطة فى هذه الأقاليم ؛ وأستولى على بروسه ، وظهر عند بحر هريرة ، وطالب الامبراطور البيزنطى بدفع الجزية ، ثم حاصر أزمير التى كانت فى قبضة فرسان رودس ، وأستولى عليها فى أول ديسمبر سنة ١٤٠٢ . وخضعت كل آسيا الداخلية لسيطرة هذا الغازى .

ولقد رحبت بعض الدول بانتصارات تيمور ، مادامت ضد الأتراك العثمانيين ، وتم تبادل السفارات بين فرنسا وقيسالة ، وبين تيمور . ولكن تيمور كان يفكر بطريقة أخرى ، وفى موضوع يهمه شخصياً ؛ فلقد كان يفكر فى اعداد حملة ضخمة لغزو الصين ؛ وبدأ هذا الاعداد ، ولكنه توفى فجأة فى شهر يناير سنة ١٤٠٥ .

كان ما قام به تيمور هشاً ، وكان قد إستبعد المناطق أكثر من كونه غزاهما ، كما أنه لم يقيم بتنظيم الأقاليم او اسعة التى كانت قواته قد حولتها الى ميادين للقتل والفساد . ولقد أفاد اقليم واحد من ذلك ، وهو اقليم ماوراء النهر ، فأثرى وازدهر ، نتيجة لما أحضره اليه من الأسلاب ، وازجت فيه التجارة ووجدت فيه سلع الهند وفارس والصين . ولقد أحضر اليه المهندسين المعماريين والرسامين والفنانين من كل نوع ، بعد أن كان قد نقل اليه التحف والأثروات ، من جميع أنحاء امبراطوريته ، الأمر الذى بهر كل من زار سمرقند فى هذا العصر .

وكان الجيش هو أهم شيء في دولة تيمور لنك ، وكان مقسماً حسب تنظيم جنجيز خان العشري . وخشيت أوروبا تيمور لنك ، وقامت جنوا والبندقية وبين نطة والعثمانيين بإنشاء تحالف ضده . ولكن هذا الحلف لم يعيش لمدة طويلة . وإنهار بعد وفاة تيمور لنك ، وإبتعاد الخطر الذي كان يوحد بين هذه القوى الأوروبية . ولكن إزدياد قوة تيمور لنك كانت قد أثرت في روسيا ، وجعلت الاسرة الحاكمة فيها تعهد ببعض السلطة ، وبجمع الضرائب ، إلى الامراء المحليين . قرادت فيها قوة النظام الاقطاعي تدعياً . كما أن هذه الاسر اعتنقت المسيحية على المذهب الارثوذكسي ، وشجعت على التبشير به حتى توازن خطر التتار ، وتوقف إنتشار الاسلام في مناطقها . فتحول مغول روسيا ، وأصبحوا روسيين ، ونقلوا عاصمتهم إلى موسكو ، وتركوا لقب «خان» وإختاروا لقب «قيصر» لرأس دولتهم .

أما من الناحية السياسية ، فإن إمبراطوريته كانت غير مترابطة إلا بشخصه ، ولم يفعل شيئاً من أجل استمرار ترابطها وإتحادها ، وسادها الانقسام والفوضى بعد موته . وحاول كل من أبنائه العديدين أن يحصل لنفسه على منطقة أو إقليم ؛ وكان كل من ميران شاه وشاه روخ هو الذي حصل على إقليم له وزنه : فحصل الأول على غرب فارس وتبريز وبغداد ، ولكنه فقد ملكه بعد بضعة أشهر ، وإقتسمه أولاده ، كما أن الأمير أحمد تمكن من استعادة العراق . أما شاه روخ فكان أسعد حظاً ، فكان قد حصل على خراسان ، ثم أضاف إليها ماوراء النهر ثم قرمان وأذربيجان ، والعراق ، لبضع سنوات . وكان ، كوالده ، من كبار الامراء ، محباً للأدب والفنون ، وتوفي سنة ١٤١٧ . وإذا كانت سمرقند وهيرات وبخارى قد إحتفظت بإزدهار واضع ، إلا أن سلطنة شاه روخ قد رأت بعد وفاة هذا الأمير ، ما حدث لغيرها من تفكك ، وأنقسام وضعف . وأخيراً فإن سلطنة أمراء أسرة تيمور في الهند لم تسكن تصل بعيداً عن أسوار المدن المنقسمة

على نفسها ، والى كانوا يحكمونها .

وإذا كانت سلالة تيمور قد ظلت ، لفترة من الوقت ، تحكم بلاد ما وراء النهر ، وخراسان ، وبعض الأقاليم المجاورة ، وسنجدها بعد ذلك في الهند ، مع بابر الأكبر ، أثناء القرن السادس عشر ، إلا أن الإمبراطورية نفسها التي قام تيمور بغزوها بسرعة كانت قد إنهارت بسرعة ، وبمح شخصه .

٤ - أزمة الدولة العثمانية بعد موقعة أنقرة :

سمح موت تيمور ، بعد موت بايزيد بقليل ، للعثمانيين باسترجاع أنفاسهم بعد موقعة أنقرة . ولكنهم احتاجوا إلى بعض الوقت ، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت قد بدت ، مع الهزيمة ، على أنها مهددة بالانهيار في كل مكان . وكان الابن الأكبر لبايزيد ، وهو سليمان ، قد اضطرب بعد هزيمة أنقرة ، إلى الالتجاء إلى الأقاليم الأوربية ؛ ولكنه وجد أن إخوته لا يعترفون بسلطته ، فاضطر إلى أن يدخل معهم في صراع استمر لمدة عشر سنوات .

وكانت هذه السنوات فترة تنهقر بالغسبة للدولة العثمانية . وكان ما نويل الثاني قد عاد من جولة في أوروبا الغربية ، وشحن برأسه ، وإثقلت الأوضاع : وطالب السلطان بالطاعة ، وبالتخلي عن سولونيك ، وإعادة جزء من ساحل مرمرة نظير التحالف معه . ولم تكن معونة الإمبراطور البيزنطي كافية لانقاذ سليمان ، الذي هزمه أخوه موسى في تراقيا ، واضطر إلى الحرب داخل القسطنطينية ، ثم قبض عليه بعد ذلك وسجن في شهر فبراير سنة ١٤١١ . أما موسى نفسه ، فإنه قد أثناع بجهوداته سدى في حملات فاعلة ضد الصرب ، ثم هزم في سنة ١٤١٣ قرب صوفيا ، على يد أخوه الثالث ، محمد الأول ، وقتل في ميدان المعركة .

ورغم أن السلطان محمد الأول كان يسيطر ، مع وجود معارضة . على تلك الأقاليم الآسيوية التي كان العثمانيون قد تمكنوا من إستعادتها بعد موت تيمور ، إلا أن موقفه في البلقان كان سيئاً . ويرجع إنتصاره إلى الدعم الذي أعطاه له

الإمبراطور البيزنطى ، كما أنه كان قد عبر إلى البلقان على سفن بيزنطية ولولا قوات مانويل لما تمكن من الانتصار على أخيه ، موسى ، ولذلك فإنه اضطر إلى أن يؤكد ويؤكد حق من التنازلات التى كان أخوه سليمان قد قدمها من قبل لخلفائه البيزنطيين . كما أنه قدم بعض التنازلات للصرب الذين كانوا قد أفادوا من صراع الأمراء العثمانيين مع بعضهم من أجل إستعادة جزء من أملاكهم المفقودة . وكان عليه بعد ذلك أن يحسب حساباً للبنادقة الذين كانت سفنهم منتشرة فى البحر ، وتمكنوا ، فى شهر مايو سنة ١٤١٦ ، من إنزال هزيمة ساحقة بالأسطول العثمانى أمام غاليبولى ، واضطر السلطان محمد لمواجهة الثورات المستمرة فى آسيا ، فاضطر إلى إتخاذ موقف الدفاع .

ولكن الوضع إستتف بعد موت السلطان محمد سنة ١٣٢١ . وإعتقد اليونانيون أنهم لا يزالون يعيشون الأيام التالية لموقعة أنقرة ، وأنه يمكنهم أن يضعوا الأمير مصطفى ، آخر أبناء السلطان بايزيد ، فى مواجهة ابن أخيه ، السلطان الجديد ، مراد الثانى ، وبدؤوا بالهجوم ، وحاصروا غاليبولى ، ولكن هذه الخطة لم تنجح ، ورد عليها مراد الثانى بكل عنف . فتمكن من أسر منافسه فى آسيا الصغرى ، وشنقه ، وإستمر حتى القسطنطينية ، التى فرض عليها الحصار ، فى شهر يونيو سنة ١٤٢٢ . وفشل الهجوم الأول على القسطنطينية ، ولم يكرره مراد ، إذ أن مانويل طلب الصلح . ومرة جديدة اضطر مانويل لدفع الجزية للعثمانيين ، كما اضطر إلى أن يعيد للسلطان العثمانى الجزء الأكبر مما كان قد استرجعه من العثمانيين فى تراقيا .

وهكذا دارت الأوضاع من جديد مع عهد مراد الثانى . وعاود الهجوم العثمانى من جديد ، مع قوة ساحقة . وإكتفى مراد الثانى فى ذلك الوقت بأنه عزل القسطنطينية ، وإهتم بأن يقوم بإعادة غزو كل من البلقان وآسيا الصغرى . أما فى الأناضول فإنه عمل على أن يجمع تحت سيطرته معظم الدول التى كان تدخل

ثيمور لذك قد تسبب في إنسلاخها ، وعزل أمرائها غير الخاضعين ، وأجبر الآخرين على الإعراف بسيادته وعلى تقديم الرهائن له (١٤٢٤ - ١٤٢٧) . وفي نفس الوقت قام بعملياته في البلقان . ومن عاصمته التي أعادها في سنة ١٤٢٣ إلى أدرنه ، قام بالتدخل في كل اتجاه . في البوسنة ، والافلاق ، والصرب ، وفي البانيا ، وفي أيروس في اليونان . واضطر أمير الصرب الشمالية الجديد منذ سنة ١٤٢٧ إلى دفع الجزية ، وتقديم عدد من المحاربين لجيش السلطان ، وتقديم إحدى بناته زوجة له . وحين تأخر في تنفيذ الشرط الأخير قام مراد الثاني بغزو بلاده ، والاستيلاء على عاصمته ، وتقديم إبنته ، ثم الإنسحاب إلى ماوراء الدانوب . وفي أيروس ، سقطت يانينا في سنة ١٤٣٠ ؛ وشهد نفس العام سقوط سالونيك في مقدونيا . ووصلت قوات مراد الثاني إلى المورة من جديد ، وإلى كثير من الجزر اليونانية . ثم استولى على العاصمة الجديدة لأمير الصرب الشمالية ، الواقعة على نهر الدانوب سنة ١٤٣٨ ؛ كما أصبحت الصرب كلها ، منذ سنة ١٤٣٩ مقاطعة عثمانية ؛ وشهد العام التالي محاولة مراد الثاني الاستيلاء على بلغراد ، كموقع حصين متقدم للبحر .

وأصبحت أيام القسطنطينية معدودة ؛ ذلك أن مانويل الثاني توفي سنة ١٤٣٥ ، وخلفه يوحنا الثامن ، الذي لم يكن في وسعه أن يعتقد في الخلاص بدون مجيء إمداد سريع من الغرب . ولكن ، من كان من حكام الغرب يفكر جدياً في التدخل ضد العثمانيين ؟ وقام يوحنا الثامن ، في آخر الأمر ، بتجديد نداء ، ووعد بالتوفيق بين السكندريين ، الشرقية والغربية ، حتى يجذب العالم المسيحي إلى الاهتمام بمصيره ؛ ولكن الاهتمام كان قليلاً بهذه النداءات التي تصدر وقت الخطر ، ولا تنفذ بعد ذلك . ولكنه لم يتصل بعد ذلك سنة ١٤٣١ بالبابا ، ثم إرتبط معه سنة ١٤٣٧ في مجمع فرارا ، ثم في مجمع فلورنسا ، حيث دار مناقشات حامية ، حول هذا الموضوع ، الذي انقسمت بشأنه الآراء . وأخيراً تم الاتفاق سنة ١٤٣٩

على إمكانية الإعلان الرسمي عن توحيد الكنيستين . وإعتقد الإمبراطور البيزنطي أن العالم المسيحي في الغرب ، سيستمع باكملة لنداء البابا ، ويجهز لنجدة عاصمته .

ولكن تطبيق قرار توحيد الكنيستين لقي معارضة من جانب أغلبية رجال الدين اليونانيين ، وفشل الإمبراطور في التغلب على هذه المعارضة رغم إستخدامه الشدة ضد رؤساء الأساقفة المعارضين . وإستمالوا أحد أخوة الإمبراطور ، وعادوا في سنة ١٤٤٤ ومعهم قوات عثمانية ، لمحاصرة القسطنطينية ، في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور ينتظر مجيء المدد من الغرب . ورغم قرارات البابا ، لم يبادر أى من ملوك أوروبا وأمرائها بتقديم المون للإمبراطور بيزنطة .

ولكن الخوف ساد في الدول الدانوبية ، على القسطنطينية ، وكانت هذه الدول مهددة بالغزو العثماني . وكان هو نياحى الذى نشأ في بلاد ترانسلفانيا في المجر ، قد تمكن من جمع الأهلالي حوله ، وأنزل إحدى الهزائم بإحدى القوات العثمانية . ثم تحالف مع أمراء الأفلاق ، وأمير الصرب ، وعبر جبال الكربات متعقباً القوة العثمانية حتى نهر الدانوب . وأعطى بذلك الوقت لملك المجر لكي يقوم بإعداد حملة صليبية ، بمساعدة كيزاريى ، المندوب البابوى . وتحرك الجيش المسيحي ١٤٤٣ ودخل أراضى الصرب ، وهزمت قوات مراد ، وخلت قوات هونيادى ، بعد تقدمها ، مدينة صوفيا ، ثم هزم جيش عثمانى آخر ، الأمر الذى أدى إلى إستيلاء المسيحيين على الصرب ، وإعلان إسكندر بك الثورة في ألبانيا ضد العثمانيين . وإضطرب مراد الثانى إلى إعلان هدنة سنة ١٤٤٤ مع المسيحيين لمدة عشر سنوات ، وإلى التخلي عن فتوحاته ، والتنازل عن السلطنة لابنه محمد الثانى .

ولسكر كيزاريى كان يرغب في إستمرار الزحف ، رغم النصائح بضرورة التمهّل ، فنقض الهدنة ، ودفع ملك المجر وهو نياحى إلى الزحف عبر بلغاريا حتى أسرار فارنا . وكان مراد الثانى قد تنازل عن السلطنة لابنه ، وإنسحب إلى آسيا .

الصغرى . ولكنه اضطر أمام هذا الغدر إلى العودة بسرعة إلى البلقان ، وإلى مهاجمتهم ؛ وتسبب موت كيزاريفي وملك المجر في تحويل المعركة إلى هزيمة ساحقة للأوربين في ١٠ نوفمبر سنة ١٤٤٤ . وإستعداد مراد الثاني السلطة ، وإستغل نجاحه بسرعة ، وأرسل قوات غازية في كل إتجاه ؛ فهاجم إقليم أتيكا ، وضربه ، وسيطر على مضيق كورنثا ، وغزا المورة سنة ١٤٤٦ ؛ كما هاجم البقية الباقية من الممشنات اليونانية الموجودة على البحر الأسود . فضعفت مقاومة المسيحيين في كل مكان . ولم يستمر في المقاومة سوى اسكندر بك ، وهو نيادى . وتمكن الأول من هزيمة أحد الجيوش العثمانية التي كان يقودها مراد الثاني بنفسه في ألبانيا ، يجبره على الانسحاب سنة ١٤٤٩ ؛ أما هو نيادى فإنه أصبح وصيا على عرش المجر مع وفاة الملك ، وحاول أن أن يقوم بعملية جديدة في بلاد الصرب ، ولكنه هزم في معركة قوصوه (الثانية) سنة ١٤٤٨ ، وأصبح عليه أن يواجه ثورات كبار الاقطاعيين في المجر .

وأصبحت القسطنطينية ، وامبراطورها ، ينتظرون مصيرهم . وحاول قسطنطين الحادى عشر ، الذى وصل إلى العرش بعد أخيه يوحنا الثامن ، أن يواجه أشد المخاطر في سنة ١٤٥٣ ، بإصدار قرار بتوحيد الكنيسة الشرقية مع كنيسة روما ، ولكن هذا الأمر زاد من الانقسام الإضطراب بين رعاياه . أما محمد الثانى الذى وصل إلى العرش بعد وفاة أبيه مراد الثانى سنة ١٤٥١ ، فإنه لم يتردد في إتخاذ التدابير من أجل الإستعداد للهجوم النهائى على القسطنطينية .

الفصل التاسع

محمد الثاني وفتح القسطنطينية

لقد شهد عصر محمد الثاني ، أو محمد الفاتح ، عملاً من أهم أعمال التاريخ العثماني ، وهو الاستيلاء على القسطنطينية . وكان فتح الأتراك للقسطنطينية ، في شهر مايو سنة ١٤٥٣ ، من أهم أحداث تاريخ العالم ، الذي كان له تأثير كبير على مصير أوروبا ، وأعطى التفوق للأتراك على الشرق ، ولعدة قرون . وكان في نفس الوقت كارثة عظيمة لليونانيين ، حتى يقطنهم من جديد في الربع الأول من القرن التاسع عشر . وكادت هذه الحادثة أن تغير مجرى التاريخ ، وبشكل نهائي . وكان حدثاً فذاً لأسباب عديدة ، كما أنه كان يمثل أول عملية حصار كسبتها المدفعية ، والتي كانت سلاحاً حديثاً للغاية في هذا الوقت ، وبشكل جعل هذا التاريخ نهاية للعصور الوسطى ، وبداية للتاريخ الحديث .

١ - الاستعداد :

كان محمد في آسيا الصغرى ، حين بلغه نبأ وفاة والده مراد ، فأسرع بالسفر إلى أدرنة . وكان يبلغ من العمر إحدى وعشرين عاماً ، ويتميز بحدة الذكاء وشدة تمسكه بالدين ، وكان وصول سلطان شاب للسلطنة يجعل أوروبا تقلق من طموحه . وأسرع الملوك والأمراء المجاورين للتابعين بإرسال السفراء إلى أدرنة لتقديم التهنئة للسلطان ، ولتأكيد نياتهم السلمية . وقام محمد الثاني بعقد صلح مع هونيادى لمدة ثلاث سنوات ، كما عقد وجمدد الاتفاقات مع جيرانه ، ومع التابعين له ، من ملوك وأمراء الصرب والأفلاق ، ومع جنوا ، وفرسان رودس ، وحاكم البليويونين ، وأمير قرمانيا ، وحتى الإمبراطور قسطنطين ، الذي وقع معه سنة ١٤٥١ على إتفاقية بشأن إيراد بعض القرى ، وبشأن دفع معاش لأورخان ، حفيد سليمان ،

الذى كان يقيم في القسطنطينية . ولكنه لم يكن يفكر في حقيقة الأمر ، إلا في غزو هذه المدينة ، التي طالما حاول أجداده الحصول عليها ، بلا جدوى .

ولقد أمر في ربيع سنة ١٤٥٢ ببناء قلعة جديدة على الشاطئ الأوربي للبو سفور ، سميت قلعة البوغاز أو روميللى حصار ، وذلك في مواجهة القلعة التي كان بايزيد قد أقامها على الشاطئ الآسيوى ، والتي سميت أناضولو حصار . وإستخدم في ذلك آلاف من العمال ، وكميات ضخمة من المواد ، أتى بها من الأقاليم المحيطة . وكان يشرف بنفسه ، ومعه كبار رجال الدولة على العمل ، حتى إنتهى في مدة ستة أشهر . وعلاوة على القيمة العسكرية لهذه القلعة ، فإنه كان يهدف من ورائها إلى إمكانية حرمان اليونانيين من موارد الجمارك وإيرادات ورسوم السفن التي كانت تأتي من البحر الأسود ، ويحصل عليها لنفسه .

ورأى إمبراطور بيزنطة الخطر المحدق به ، فهاجم العمال والحراس الأتراك ، بدعوى إتلافهم لأراضيهم وتعريضهم لممتلكات رعاياه ، فما كان من محمد الثانى إلا أن أعلن الحرب على الإمبراطور . وقام الإمبراطور بإغلاق أبواب مدينته ، وأمر بإلقاء القبض على كل الأتراك الموجودين فيها .

وكان الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر ، قد بلغ من العمر خمسة وأربعين عاما وقت إعتلائه العرش ؛ وكانت ممتلكاته تقتصر على مدينة القسطنطينية نفسها ، والمنطقة المحيطة بها ، وعلى إمتداد ما يقرب من مائة ميل ، في إتجاه الغرب والشمال ، وعلى ما يقرب من نصف مساحة البلبونيز ، والتي كان يحكمها أخواه ، بإسمه . وكان يعرف جيداً أن لا أمل له إلا في بحىء العون من أوروبا ؛ فأخذ قراراً بأن يعلن ، في كاتدرائية القديسة صوفيا ، الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية . ولكن إذا كان الإمبراطور ، وعدد من كبار الأعيان ، وكبار رجال الدين ، وقد وافقوا على هذا الإتجاه ، فإن أغلبية رجال الدين ، وكل الشعب كانوا متعصبين ، ويرفضون الإعتراف بالكاثوليكين ، حتى على أنهم مسيحيين ؛

فعارضوا القرار ، وأظهروا تفضيلهم الأتراك على اللاتينين . وحتى أولئك الذين أظهروا ، رسمياً ، أنهم من أنصار الوفاق مع روما ، لم يقوموا بذلك نتيجة لإقتناع ، بل لمجرد الأمل في الحصول على مدد . وهم في ذلك الوضع الذي كانت إمبراطوريتهم لا تحسد عليه . وهكذا زادت أسباب الشقاق والإنقسام داخل هذه المدينة المهددة ، وقلت بذلك إمكانية الحصول على معونة صادقة وفعالة من الغرب .

والحقيقة أن هذه المعونة كانت محدودة ، رغم الوعود التي أعطاها البابا ، والتي أعطتها البندقية . وإقتصرت في مجموعها على ما يقرب من مائتي رجل ، كان الكاردينال إيزيدور ، مندوب البابا . قد أحضرهم معه ، وعلى عدد من سفن البندقية التي كانت قد حضرت من أجل التجارة إلى القسطنطينية . وظلت في مينائها ، وسفينة من جنوا ، تحملان خمسمائة رجل بقيادة جوستينياني ، الذي سيكون الروح المحركة للمقاومة . ولقد أرسلت البندقية معونة أكبر ، ولكنها لم تتمكن من الوصول في الوقت المناسب .

وكانت القسطنطينية تشتمل ، في ذلك الوقت ، على ذلك الحى ، من إستامبول الحالية ، الذى يقع بين القرن الذهبى وبحر مرمرة ؛ وكانت تحيط بها الأسوار الحصينة من الناحية البرية ، وهى موجودة حتى الآن ؛ أما الأسوار المطلة على القرن الذهبى ، وعلى بحر مرمرة فقد تهدمت . أما حى جلطة فكان يقع على الضفة الأخرى للقرن الذهبى ، وكان عبارة عن مستعمرة لأبناء جنوا ، ويشرفون على إدارته ، وكانت تحيط به الأسوار كذلك . ولقد عمل البيزنطيون على ترميم الأسوار ، وإعادة حفر الخندق الذى يسير بمحازاتها . ثم قاموا بمد سلسلة من أقصى المدينة إلى حى جلطة ، وبشكل يقفل مدخل القرن الذهبى . وكانت تتكون من كرات خشبية ضخمة مربوطة ببعضها بسلاسل حديدية غليظة . وكان الهدف منها أن تحمي السفن الموجودة خلفها ، وهى عشرة سفن ، من هجمات الأسطول

العثماني . وكانت القوات التي تدافع عن المدينة تمثل خليطاً ، جمعتهم الصدفة ، من بين اليونانيين ، وأبناء جنوا ، والبندقية ، والكاتالان ، ومن الكاثوليك والارثوذكس . وكان جوستينياني ، الجنوي ، وأبناء البندقية ، مصممين على الدفاع عن القسطنطينية أكثر من البينظيين أنفسهم . وكان عددهم يقرب من ثلاثة آلاف ، بين ما يقرب من تسعة آلاف من المدافعين عن المدينة .

وكان جيش محمد الثاني كذلك خليطاً من جميع أنحاء السلطنة ، ولكنه كان كبير العدد ، وإختلف المؤرخون في تقديره بين ٨٠.٠٠٠ و ٤٠٠.٠٠٠ رجل ، وربما كان الأقرب إلى الصواب أن نرجح أن قوة العثمانيين التي وصلت أمام أسوار القسطنطينية بلغت ١٦٠.٠٠٠ رجل ، علاوة على العمال والخدم والتجار ، الذين كانوا يتبعون الجيوش إلى ميادين الحرب في هذه العصور . وكان محمد الثاني قد أعطى إهتماماً خاصاً بالمدفعية ، وكان والده من قبل قد إهتم بهذا السلاح الذي لم يكن قد مضى على إستخدامه قرن واحد . وقام العثمانيون بصب المدافع ، ويقال أن قطر فوهة أحدها بلغ ثلاثة أقدام ، وكان يقذف أحجاراً تزن ما بين ١٣٠٠ و ١٥٠٠ رطل إلى مسافة ميل . ولقد تم نعله من أدرنه إلى أمام أسوار القسطنطينية في مدة شهرين ، وكان يحرقه ستون ثوراً . وكانت مدفعية العثمانيين تشتمل على كثير من القطع الكبيرة والبعيدة المدى ، من بين عدد ضخم من المدافع .

وفي أوائل شهر أبريل ، وصلت القوات العثمانية من أدرنة أمام أسوار القسطنطينية ، ووزعت نفسها في مواجهة كل الأسوار البرية ، من بحر مرمرة إلى أقصى القرن الذهبي . وكان مركز قيادة السلطان في منتصف الخط تقريباً ، وعلى بعد ٢٥٠ كياو متر تقريباً من الأسوار . وبدأ بذلك الحصار .

٤ - الحصار :

وكان محمد الثاني يعرف إمكانية وصول الإمدادات للبينظيين عن طريق البحر .

ولذلك فإنه لم يهمل الأسطول . وتجمع الأسطول العثماني أمام غاليلوى بقيادة القبودان باشا ، سليمان ريس بلطة أوغلو ؛ وكان يشتمل على عدد كبير من السفن الصغيرة والسريعة ، علاوة على سفن النقل ؛ ثم دخل بحر مرمره ، حيث انضمت إليه سفن عثمانية أخرى أتت من البحر الأسود . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها أبناء بيزنطة أنهم يواجهون هجوماً عثمانياً على مدينتهم من ناحية البحر كذلك ، خاصة وأن كل هجمات العثمانيين السابقة على مدينتهم كانت برية فقط .

ولقد لعبت المدفعية العثمانية دوراً هاماً في عملية الحصار ، وأثر ذلك في نفسية أهالي بيزنطة ، علاوة على شعورهم بالتفوق العددي للعثمانيين ، وتنوع أسلحتهم ، وجسارتهم في الحرب .

ولقد قام العثمانيون بمحاولة للهجوم يوم ١٨ أبريل ، ولكنها لم تعط نتيجة إيجابية ، وحدث نفس الشيء مع محاولة الأسطول العثماني لإقتحام مدخل القرن الذهبي ، وكانت تحرسه السلاسل والسفن الواقعة خلفها .

وفي يوم ٢٠ حضرت أربع سفن كبيرة من بحر مرمره ، كانت ثلاث منها من سفن جنوا . وكانت تحمل بعض القوات ، ومؤن وذخائر ، وقابلت سفينة نقل كبيرة ، من سفن الإمبراطورية عائدة من صقلية محملة بالقمح ، فاقتادوها معها . وأسرعت السفن التركية بمهاجمتها ، وذلك في الوقت الذي كانت تستعد فيه للدخول إلى القرن الذهبي ، ولكن سفن جنوا كانت مرتفعة ، ولها ساريات عالية ، الأمر الذي ميزها على المهاجمين . وإستمرت المعركة ، ولكن غروب الشمس مع هبوب الريح ، سمح لهذه السفن بالحرب من المهاجمين ، خاصة وأن سفن البيزنطيين عبرت السلسلة ، وجاءت لمعاونتهم ، وأخذوهم إلى داخل القرن الذهبي . وعادت السفن التركية إلى موافعها . ولقد ساعد ذلك على رفع الروح المعنوية لأهالي بيزنطة ، وإعتقاداً أن هذه السفن تمثل مقدمة المعونة التي ستأتي

لهم من الخارج لإجبار الترك على رفع الحصار عن مدينتهم . وكانوا لا يعرفون أنها كانت كل المعونة التي متصلهم .

وإستمر الحصار ، وتسببت المدفعية في تحطيم بعض أجزاء من الأسوار . وبعد بضعة أيام بهت أهالي القسطنطينية حين رأوا جزءاً من الأسطول العثماني داخل مياه القرن الذهبي ، وخلف سفنهم .

٣ - الهجوم وفتح المدينة :

ووجد محمد الثاني أن الهجمات الموجهة ضد وسائل الدفاع البري ستكون بدون فائدة ، أو ستعطى تأثيرها بعد وقت طويل ؛ فأراد أن يهاجم الأسوار المطلة على القرن الذهبي ، والتي كانت أضعف من غيرها بكثير . فوضع مشروعه العجيب لنقل السفن من البوسفور إلى داخل القرن الذهبي ، بتمريرهم على تل بيرا . ورغم جرأة هذا المشروع ، فإن محمد الثاني تمكن من تنفيذه . وكانت الأيدي متوفرة لديه سواء في الجنود أو العمال الذين جمعوا بأعداد ضخمة ، وكانت السفن التركية التي قامت بهذه الرحلة صغيرة في حجمها ، خفيفة في وزنها ، وتراوح بين خمسة عشر وإثنين وعشرين مقعد تجديف ، ولا يزيد طولها على عشرين متراً .

وقاموا بإنشاء طريق منتظم من البوسفور حول جالطة حتى القرن الذهبي من الداخل ؛ وكان طولها يتراوح بين ثلاثة وخمسة كيلو مترات ؛ ثم غطوه بالأواح من الخشب ؛ ووضعوا السفن على ما يشبه الزحافات ، وجعلوها تسير على إسطوانات مدهونة بالشحم ، بعد أن أخرجوها من الماء ؛ وقام الرجال بحرها ، وبمساعدة الثيران . وبلغ عدد السفن المنقولة ما يتراوح بين ٦٠ و ٧٠ سفينة . وتم تنفيذ العملية بسرعة فائقة . وكان محمد الثاني قد فكر قبل بعد معركة ٢٠ أبريل ، وتم شق الطريق ، وأتم التجهيزات ، ووصلت السفن التركية داخل مياه القرن الذهبي في صباح يوم ٢٣ . ولقد تم نقل السفن كلها في ليلة واحدة .

ووجه العثمانيون إجراءات حراسة مشددة لإخفاء إستعداداتهم عن المحاصرين ، في الوقت الذي عملوا فيه على تحويل إنتباههم بقصف قوى بالمدفعية

في جهات أخرى وكانوا قد وضعوا قطع مدفعية قوية خلف مدينة جلاطة، أخذت في إطلاق قذائف ضخمة داخل القرن الذهبي . وزاد خوف المحاصرين من ظهور هذه السفن التركية ، خاصة وأن الأسوار المطلة على القرن الذهبي كانت ضعيفة وفي حالة سيئة . وفشل بحارة جنوا ، الموجودين على سفنهم في القرن الذهبي ، في محاولة حرق سفن العثمانيين ، وقبض الاتراك على المجموعة التي حاولت القيام بهذا العمل ، وأعدموها .

وبعد ذلك بقليل ، أقام العثمانيون قنطرة على القرن الذهبي ، قرب نهايته من الداخل ، مدعمة بهرمات من براميل متجمعة بواسطة قطع خشبية كبيرة . وسنة سمح هذه القنطرة بعبور القوات التي كان جزءاً منها متجمعاً عند بيراء ، كما أنها ستساعد على توصيل الإمداد والذخائر للمدفعية التي نصبوها لضرب التحصينات والأسوار التي كانت تسير بحذاء شاطئ القرن الذهبي .

وفي الوقت الذي زاد فيه ضغط المهاجمين على المدينة . ظهر الخلاف بين أبناء جنوا وأبناء البندقية ، وإلتهم كل منهم المجموعة الثانية بأنها تستعد للخروج من القسطنطينية . ومعها أموالها ، وعلى سفنها ، وفي أول فرصة سانحة ، لكي تنضم إلى نجاتها من أرض المعركة . وأخذ الإمبراطور يوفق بينهم ؛ ورفض الاستماع إلى النصيحة الخاصة بخروجه من المدينة لكي يجمع قوات نجدة من اليونان والبلقان ، ويدفع ملوك أوروبا لإرسال المدد؛ كما رفض العرض العثماني الخاص بإعطائه الأمان للخروج من المدينة ، مع من يرغب ، وتسليمه السلطة في بلاد اليونان ، كتابع للعثمانيين . وزاد إرهاب الأهالي ، مادياً ومعنوياً ، نتيجة للمشاركة في الحراسة ، واستمرار ضغط الاتراك ، وقلة النوم ، وقلة الأمل .

وفي يوم ٢٧ مايو ، أعطى السلطان أمره بالهجوم . وفي اليوم التالي زاد ضرب المدفعية ، وبدأ الهجوم في ليلة ٢٨/٢٩ مايو ، ثلاث ساعات قبل شروق الشمس ، وكانت القوات التركية مهيأة إلى ثلاث فيالق ؛ الأول من الجنود غير

غير النظامية ، والثاني من قوات الأناضول ، والثالث من جنود الإنكشارية ، الذين كان عليهم أن يتدخلوا لتقرير الأمر ، وبعد أن يكون هجوم الفيلقين الآخرين قد أدى إلى إرهاب المدافعين . ولقد فشل الهجومين الأول ، والثاني ، رغم قلة عدد المدافعين وإرهاقهم ؛ ثم أعطى السلطان أمره الإنكشارية بالهجوم ، وقت الشروق .

وكانت هناك بوابة صغيرة ، في السور الداخلي ، تسمى باب السيرك ، بالقرب من باب أدرنه ، كانت جراستها ضعيفة ، إذ أن المدافعين إنشغلوا عنها بنقط أخرى من السور . وكانت الأسوار الخارجية قد أساءها بعض الدمار ، من ضرب المدفعية ، تتمكن الإنكشارية من الدخول إلى الجزء الذي يتوسط السورين ، ومع نور الصباح ، رؤوا هذه البوابة الصغيرة الموجودة في السور الداخلي ، فدخلوا منها إلى الساحة الداخلية . وتمكنوا بهذه الطريقة من الوصول إلى داخل المدينة ، الأمر الذي نشر الذعر في كل مكان ، وفي نفس الوقت جرح جوستيليانى الذى كان يشرف على الدفاع مع الإمبراطور عند باب القديس الرومانى ، والذي كان مهدداً ، وحموه إلى داخل المدينة لعلاجهم . ولا شك في أن بعض رجاله قد تبعه ، الأمر الذى أثر في الدفاع ، وفي الروح المعنوية للمدافعين .

ولقد واصل الإمبراطور البيزنطى المقاومة ، ولكن جحافل المهاجمين كانت ضخمة ، وظل في المواقع العسكرية حتى قتل . ودخل الأتراك المدينة حوالى التاسعة أو العاشرة صباحاً ، وكانت معركة ، بل مجزرة ، إختلط فيها الخابل بالنابل ، وتفنن الكتاب المسيحيين في وصف أهوالها . لقد قتل الكثيرون ، أما الشباب من الجنسيتين ، فقد جمعوا لكي يوزعوا على القادة ، ويوزعوا في الأقاليم . وكان الكثيرون من النساء والأطفال قد التجئوا إلى كنيسة سان صوفيا أو الحكمة الإلهية ، وأقفلوا على أنفسهم أبوابها البرونزية . ولسكن الأتراك وصلوا ، وإقتحموا الأبواب ، وأخذوا من فيها .

وإستمر القتل والنهب والسبي ، ثلاثة أيام بلياليها ، إنها مدينة مستباحة ، وقدر المؤرخون عدد الأسرى فيها بما يزيد على ٥٠٠٠ شخص ، علاوة على فقد ما يقرب من ٤٠٠ قتيل . وكان معظم البحارة الأتراك قد ترك سفنه للمشاركة في الهجوم ، وساعد ذلك على أن تتمكن كثير من سفن البنادقة وأهل جنوا من الخروج إلى البحر ، تحمل من تمكن من الوصول إليها ، من المدافعين ، ومن سكان المدينة .

وزار السلطان المدينة ، المفتوحة ، بعد ظهر يوم ٢٩ مايو ، وذهب إلى كنيسة سان صوفيا ، حيث شكر الله على ذلك الفتح العظيم ، الذى من به عليه ، وصلى لله فيها ، وحوطها إلى مسجد يحمل نفس الاسم السابق ، آيا صوفيا ، ولقد ترك العثمانيون المبنى كما هو ، وأضافوا إليه مئذنة ، ثم أضافوا إليه ثلاث مئاذن أخرى أثناء القرن السادس عشر (١٥٧٠ — ١٥٨٠) .

ولقد منح محمد الثانى الأمان لأهالى جنوا المقيمين فى حى جلطة ، ثم أكد لهم إستمرار تمتعهم بحقوقهم السابقة . ومنها حصولهم على إدارة خاصة لحى جلطة ، وحرية ممارسة الشعائر الكاثوليكية فى كنائسها ، وحرهم فقط من دق نواقيس الكنائس .

وفى وقت فتح القسطنطينية ، كان هناك أسطول يتكون من ثلاثين سفينة ، أرسله البابا ، والبندقية ، ويحمل الجنود والمؤن والذخائر ، يسير من أجل إنقاذ المدينة ، ووصل إلى الأرخيل ، وظل فيها بعض الوقت نتيجة لمعاكسة الريح له . وقبل أن يستمر فى أقلاعه ، كانت السفن التى نجحت فى الفرار من القسطنطينية قد حملت له أبناء فتح العثمانيين لها .

وظلت القسطنطينية التى تحول إسمها إلى إسلامبول ، وإستانبول ، عاصمة للإمبراطورية العثمانية ، على مدى خمسة قرون ، وأصبح لقب السلطان محمد الثانى . رسمياً ، هو « أبى الفتح والمغازى » ، ولقد إتخذ إجراءات سريعة لإعادة توطين

الأهالى فى أستانبول . وأخذت الإمبراطورية العثمانية بها شكلاً جديداً ، فبعد أن كانت آسيوية ، وإسلامية ، سيطرت على عاصمة الشرق المسيحى ، وظهر أن لها كثير من الرعايا المسيحيين ؛ يخضعون لعاصمتها الأوربية ، وجوهرة أوربا ، وأصبح السلطان العثمانى يشعر ، بأنه مستمرار كذلك للإمبراطورية الشرقية .

٤ - بقية أعمال محمد الفاتح :

كان فتح القسطنطينية يكفى كعمل محمد الثانى ؛ ولكنه قام بالكثير غيره ، وعلى مستوى أقل ، فى أجزاء كثيرة من البلقان ، وكذلك فى آسيا الصغرى .

وكانت أجزاء كثيرة من شبه جزيرة البلقان لا تخضع لسلطة السلطان . فرغم أن ملك الصرب كان تابعاً له ، فإنه كان فى بعض الحالات خاضعاً ومفيداً ، وفى بعض الحالات الأخرى مستعداً للتفاهم مع هونادى فى المجر ، رغم العداء الذى كان يفصل الأرثوذكس الشرقيين عن الكاثوليك .

وظلت البوسنة مستقلة فعلياً تحت ملكها ؛ وتمكن إسكندر بك ، فى ألبانيا ، من أن يصد كل الجيوش العثمانية التى حاولت التوغل فى بلاده .

أما أمراء الإقلاق والبغدان ؛ فرغم أنهم كانوا قد قبلوا الخضوع للسيادة العثمانية ، فإنهم كانوا تابعين غير ثابتين ، وكانوا ينضمون إلى الأعداء بسهولة ، ما داموا يجدون ميزة أو مصلحة فى إتخاذ مثل هذا الموقف .

وكان أخوى الأمبراطور قسطنطين يحكمون المورة ، وبصفتهم تابعين للسلطان . وكانت بعض مناطق شبه الجزيرة هذه خاضعة للجنادقة ، الذين كانوا يمتلكون كذلك معظم جزر بحر إيجه وشرق البحر المتوسط . وذلك فى الوقت الذى احتفظت فيه جنوباً ببعض الجزر ، والذى احتفظ فيه فرسان القديس يوحنا بجزيرة رودس ، مقرأ لهم .

وفى الأناضول نفسها كان بعض أمراء الأسرة الإمبراطورية البيزنطية السابقة يحتفظون بحكم طرابزون ، كما كان أمراء قرمانيا مستعدين دائماً لإتهان

الغرض التي تضمن إستقلالهم .

ولقد أمضى محمد الثاني فترة حكمه الطويلة ، والتي بلغت ثلاثين عاماً ، منها ثمانية وعشرين بعد فتح القسطنطينية ، في حروب مع جيرانه ، حتى يضمن إقامة وتوكيد سلطته على الأراضى والأقاليم التي لم تخضع له ، أو التي كانت سلطته عليها غير مباشرة .

ومع ذلك ، فقد أظهر محمد الثاني ، في الأشهر التالية لفتح القسطنطينية ، رغبته في السلم والوفاق . ورأينا أنه جدد إمتيازات المدينة الخاصة بأبناء جنوا في جلطة ، ثم قام بعد ذلك بعقد إتفاقيات تنص على دفع الجزيات السنوية مع الأتريين اليونانيين في الباليونين (١٠.٠٠٠ دوق) ؛ ومع حاكم الصرب (١٢.٠٠٠ دوق) ؛ ومع أبناء جنوا في خيوس ولسبوس (٦.٠٠٠ و ٣.٠٠٠ دوق على التوالي) ؛ ومع الإمبراطور اليوناني في طرابزون (٢.٠٠٠ دوق) ؛ ومع جمهورية راجوزة (٣.٠٠٠ دوق) ؛ وأخيراً في سنة ١٤٥٤ مع جمهورية البندقية . وضمن حرية التجارة لجمهورية البندقية ، ومنحها حق إرسال قنصل يقيم في القسطنطينية . ولكن فرصة السلم هذه كانت قصيرة ، وسرعان ما بدأت الحملات البرية والبحرية منذ سنة ١٤٥٤ .

وأراد محمد الثاني أولاً أن يسيطر تماماً على إمارة الصرب التي كانت تقع جنوب نهر الدانوب ، وعلى طريق أوربا ، وفي موقع هام ، وكان أميرها قد أظهر أنه تابع مخلص . وأرسل إليها حملة أولى سنة ١٤٥٤ لم تتمكن من الحصول على إنتصار حاسم . وشهد العام التالي هجوم هونيادي ، وإنتصاره على أحد الجيوش التركية . فإضطر السلطان إلى الخروج بنفسه على رأس حملة توجهت إليهم . ووصل الجيش العثماني أمام بلغراد ، وحاصرها ، وبدأ ضرب أسوارها بالمدفعية . ولكن هونيادي جمع جيشاً كبيراً من المتطوعين من المجر وألمانيا وبوهيميا وإيطاليا ، ووصل بهم في سفن على نهر الدانوب حتى بلغراد في منتصف يوليو سنة ١٤٥٦ . وفشلت

ثلاث هجمات للأتراك على بلغراد ، وقتل بعض قادتهم ، ويقال أن محمد الثاني جرح
بهم في هذه المعركة ؛ فأضطر الجيش العثماني إلى رفع الحصار عن بلغراد ، وإن كان
قد احتفظ بملكياته وسيطرته على غالبية إقليم الصرب . ومات هونيادى بعد أسابيع
من معركة بلغراد .

وكان أمير الصرب قد احتفظ بقطعة من ممتلكاته ، ولكن وفاته في آخر سنة
١٤٥٦ أدت إلى منافسات على الأمانة كانت فرصة لكي يستولى العثمانيون على
الأمانة كلها ، وبشكل نهائي . وتقدم أحد الجيوش العثمانية بقيادة الصدر الأعظم
محمود باشا ، وتمكن في سنة ١٤٥٩ من السيطرة على بلاد الصرب ، ما عدا بلغراد
التي ستمثل في أيدي المجر مدة ٦٢ عاماً أخرى .

وسرعان ما خضعت البوسنة لنفس مصير الصرب ، واستولى عليها جيش الصدر
الأعظم سنة ١٤٦٣ ، وأخذ ملكها أسيراً في أستانبول . أما الهرسك فإنها احتفظت
بدورها فترة من الوقت ، إلى أن ضمت إلى الإمبراطورية العثمانية سنة ١٤٨٠ .
وكانت إحدى الحركات الدينية المعادية للأرثوذكسية والكاثوليكية قد ظهرت في
البوسنة ، وكانت لها نظرية فطرية للدين ، لا تختلف عن الإسلام في الكثير ،
وساعدت هذه الحركة على سهولة إنضمام الإقليم للدولة العثمانية ، وعلى تحول الكثير
من أبنائه ودخولهم في الإسلام في ظل الحكم العثماني ؛ وحق النبلاء فإنهم دخلوا
في الإسلام ، واحتفظوا بممتلكاتهم وإميازاتهم . ومع ذلك فقد احتفظ الكثير
من أبناء البوسنة في الشمال ، وقرب حدود كرواتيا والهرسك ، بالديانة الكاثوليكية ،
وفي الجنوب وقرب حدود بلغاريا بالديانة الأرثوذكسية ، وظلت البلاد مقسمة
بين الديانات الثلاث ، وفي أعداد متقاربة .

وكانت حملات العثمانيين صوب الدانوب ، وحروبهم مع المجر ، تدفعهم إلى
الاتصال بالامارتين الرومانيتين ، الأفلاق والبغدان ، اللتان كانتا قد أضطرتا ، من
أجل الاحتفاظ باستقلالهما الداخلي ، تحت أمراء متبدا . إلى المرافقة على دفع

جزيرة للباب العالي . وكانت تحيط بهما ثلاث دول قوية . هي بولندا والمجر والدولة العثمانية ، وكانت كل من هذه الدول تدعى سيادتها عليهما ؛ فاضطرتا نتيجة للظروف ، وحفاظاً على مصالح كل منهما ، إلى طلب حماية الواحدة أو الأخرى من بين هذه الدول القوية . ولكن الحالة الداخلية كانت مضطربة ، نتيجة لوجود النفوذ الأجنبي ، وخاصة وقت خلو عرش الإمارة ، وكان الأمر يصل إلى درجة طلب تدخل الإمارة الأخرى ، أو من إحدى الدول المجاورة القوية .

وقام أمير الأفلاق بقتل إحدى السفارات العثمانية ، فزحف السلطان محمد الثاني على رأس جيشه لمحاربتهم ، ولكنه لم يتمكن من الحصول على انتصار حاسم ، فانسحب ثم دفع ضده أمير البغدان ، الذي هزمه وأجبره على الالتجاء إلى المجر سنة ١٤٦٢ . وسرعان ما دب الخلاف بين أمير البغدان وبين العثمانيين ، بشأن الأفلاق ، وزحف جيش الصدر الأعظم سليمان باشا لمحاربتهم ، ولكنه انتصر على الجيش العثماني في معركة مرتبة في شهر يناير سنة ١٤٧٥ . وبعد بضع سنوات تخلى عنه المجر ، والبولنديون ، وزحف ضده العثمانيون ، مع جيش من الأفلاق ، وهزموه ، وإن كانوا قد اضطروا للإنسحاب نتيجة لنقص التموين ولانتشار الطاعون ، وتمكن الأمير من إعادة بناء قواته وجيوشه . وسيزيد مع الزمن نفوذ العثمانيين في أمارتي الأفلاق والبغدان ؛ ولكن علينا أن نقرر أن هاتين الإمارتين ، رغم تبعيتهما للدولة العثمانية ، ودفع الجزية السنوية لها ، قد احتفظتا بحرية اتصالهما وحرية عملهما مع الخارج .

ولقد تمكنت الدولة العثمانية من أن تحصل ، في الشمال ، على نجاح هام سمح لها بمد سيطرتها على كل الساحل الشمالى للبحر الأسود ، وبشكل حول هذا البحر إلى بحيرة عثمانية . فاستولت على كافا وعلى آزوف وعلى عدد من الموانع التي كان أبناء جزائرها يملكونها في هذه المنطقة ، ثم أفادت من الصراع الناشب حول عرش سخانات القرم ، وبشكل جعل الخان يعترف بالسيادة العثمانية على بلاده سنة ١٤٧٠ .

أما الحروب مع المجر فإنها استمرت ، وبلا انقطاع ، طوال عهد محمد الثاني . وإذا كان المجر قد تدخلت في البوسنة ، أو في بلاد الصرب ، فإن الأتراك قد تدخلوا في ترانسلفانيا ، وكان الأتراك يعبرون الدانوب ويغيرون على بلاد المجر ، ويعودون منها بالأسرى والاملاب .

أما البانيا فكانت مستقلة ، وقاومت محاولات التدخل العثماني فيها ، وكانت شخصية الإسكندر بك قوية ، عرفت كيف تحافظ على استقلال بلادها . ولقد كافحت ، وبجحاح ، لمدة ثلاثين عاماً عند الأتراك . ولكنه توفي في سنة ١٤٦٧ ، وكان ذلك هو نهاية استقلال البانيا ، وقبل الألبانيون الانضمام إلى الدولة العثمانية . وكما حدث في البوسنة ، نجد أن جزءاً كبيراً من نبلاء البانيا وكثير من الألبانيين يعتنقون الدين الإسلامي ، تحافظ النبلاء على أملاكهم وإمتيازاتهم ، في الوقت الذي شارك فيه الألبانيون في بناء الدولة العثمانية نفسها . ومع ذلك فقد ظلت هناك أقلية ألبانية كاثوليكية في الشمال ، إلى جوار ممتلكات البندقية ، وأقلية أرثوذكسية في الجنوب ، إلى جوار اليونان . وكان على الإدارة العثمانية أن تحسب حساباً للروح الإستقلالية عند الألبانيين . ولقد أعطى الألبانيون المسلمون للدولة العثمانية عدداً ضخماً من كبار موظفيها وقادتها ووزرائها . وإذا كانوا لا يرغبون في أداء الخدمة العسكرية ، ولا في دفع الضرائب ، فإنهم كانوا متطوعين ممتازين ، ومخلصين وشجعان .

ولقد تمكن محمد الثاني من القضاء على الدولتين اللتين كان أخوى إمبراطور بين نطة يحكماهما في بلاد اليونان ؛ ودخلت اليونان كلها ، في طاعة الدولة العثمانية ، فيما عدا بعض المواقع التي احتفظ بها البنادقة . كما قامت قوات محمد الثاني بغزو إمبراطورية طرابزون ، في آسيا الصغرى ، برأ وبحراً ، سنة ١٤٦١ . وتدخلت قوات العثمانيين في قورمانيا سنة ١٤٦٣ . وأنهت استقلالها الذاتي ، وقضت بذلك على البقية الباقية من دولة السلاجقة . ويزاد عدد الحملات البحرية في عهد محمد الثاني ،

وكانت لها نتائج هامة تتمثل في السيطرة على الكثير من الجزر، وبخاصة تلك التي تقع بالقرب من سواحل آسيا الصغرى. ونشبت الحرب بين العثمانيين وجمهورية البنادقة، ولكنها انتهت بالصلح بينهما سنة ١٤٧٩، واحتفظت البندقية بمراكزها في ألبانيا وفي المورة، واستمرت إمتيازاتها التجارية وحققها في تعيين قنصل في القسطنطينية، ولكنها وافقت على دفع جزية سنوية تبلغ ١٠٠,٠٠٠ ر. ١٠ دوق. وفي العام التالي قام الأسطول العثماني بالإستيلاء على أوترانت، في جنوب إيطاليا، وحاول الاستيلاء على جزيرة رودس، ولكنه لم يتمكن من ذلك.

وتوفي محمد الفاتح سنة ١٤٨١، ويشتمل تاريخه على فتح القسطنطينية، وتدعيم الحكم العثماني بشكل نهائي في أوروبا، وأعطى لممتلكاته حدودها الطبيعية مع الدانوب والساف، وفيما عدا بعض النقاط التي احتفظت بها البندقية في ألبانيا وبلاد اليونان، فإنه أخضع كل الأقاليم الواقعة داخل هذه الحدود لسلطته، وأكد، فيما وراء ذلك، السيادة العثمانية على إمارات الأفلاق والبغدان، وفرضها على خانات القرم. وإذا كان بعض خلفائه سيقومون بمد هذه الحدود إلى ما وراء ذلك، وإلى البحر، فإن هذه الغزوات ستكون مؤقتة. أما غزوات محمد الفاتح فإنها ستظل حتى بداية القرن التاسع عشر، وحتى إلى سنة ١٨٧٨. أما في آسيا الصغرى فإنه سيضم طرابزون ويخضع قرمانياً بشكل نهائي.

ومع كل هذه الحروب، وجد محمد الثاني وقتاً لتنظيم وإدارة إمبراطوريته، وحول السلطنة من مجرد قيادة لجيش آسيوى وغازى إلى رئاسة دولة لها أهميتها.

٥ - بايزيد الثاني :

كان بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢)، هو الابن الأكبر لمحمد الفاتح، وخليفته في السلطنة، وكان هادئ الطبع ومتواضع، وكان شاعراً وكاتباً ومحباً للفنون والعلوم وكان قد وصل إلى السلطنة في سن نضج، إذا كان عمره خمسة وثلاثين عاماً، وكان قد تمرن أثناء سلطنة والده ولفترة سنوات طويلة، على حكم وإدارة بعض الأقاليم. وكان ذوقه وطبيعته وميوله تبشر بعهد من السلم، ولكن الظروف أجبرته

على الدخول في صراعات مختلفة مع جيرانه ، كما أن طموح أخوته وأفراد أسرته أجبره على التدخل ضدهم . وفي الختام ، فإن حكمه الطويل ، والذي بلغ إحدى وثلاثين عاماً ، لم يترك الإمبراطورية العثمانية وقد فقدت . أوزادت ، إقليماً من أقاليمها .

وقد بدأ حكمه بأن حاول أخوه جم الوصول إلى السلطة ، بمساعدة محمد القرمانى ، الصدر الأعظم ، الذى أخفى خبر وفاة السلطان محمد لعدة أيام ، حتى يتمكن الأمير جم ، والذي كان في ذلك الوقت حاكماً على إقليم قرمانيا ، من الاستيلاء على السلطة ، وذلك في نفس الوقت الذى حاول فيه منع بايزيد من الوصول إلى أستانبول ولكن الانكشافية أعلنت تمرداً ، وقتلت الصدر الأعظم ، وتمكن بايزيد من الوصول إلى أستانبول واعتلاء العرش .

ولكن جم لم يتنازل عن إدعاءاته . فجمع القوات وهاجمها بروسة واستولى عليها ؛ ولكنه لم يهزم بعد ذلك قرب نينى شهر ، واضطر إلى الفرار إلى سوريا ، التى كانت خاضعة في ذلك الوقت لسلطنة المماليك في مصر ؛ ثم ذهب منها إلى مصر . حيث أحسن السلطان المملوكى وفادته . وفي العام التالى (١٤٨٢) لبي جم نداء عدد من العناصر المناوئة لآلبنيه السلطان العثمانى ، وتقدم حتى قونية ؛ ولكنه هزم من جديد ، ورفض عروض الصلح التى عرضها عليه بايزيد ، وفضل العيش في المنفى ؛ عند السيد الأعظم لجماعة فرسان رودس ، وكان يأمل في أن يحصل على معاونته وتأييده لغزو الأقاليم البلقانية للإمبراطورية العثمانية . وبعد أن أحسنوا إستقباله ، عمل فرسان رودس على التقرب من الدولة العثمانية ، محاولين عقد الصلح معها ، وتعهدوا بالإحتفاظ بالأمير جم ، وبإبعاده عن الدولة العثمانية . ونقل بعد ذلك إلى فرنسا ، حيث ظل أسيراً مدة سبع سنوات ، في السكنايس الخاصة بجماعة الفرسان ، ثم نقل إلى روما ، وبعد ذلك أخذته قوات شارل الثامن معها إلى نابولى ، حيث توفي سنة ١٤٩٥ .

وعمل بايزيد الثاني ، منذ أول حكمه ، على تجديد المعاهدات منع البندقية وراجوزه . ثم عقد بعد بضع سنوات هدنة مع ملك المجر لمدة خمس سنوات . وسمح ذلك لبازيد بالهجوم على البغدان . وتمكنت القوات العثمانية من الإستيلاء على كيلىا ، الواقعة على مصب الدانوب ، ثم تعاونت مع خان القرم ، وتمكنت من الإستيلاء على آكرمان سنة ١٤٨٤ . ولم تتقدم القوات العثمانية إلى أبعد من ذلك ، بل إحتفظت بهذين الموقعين ، اللذين يضمنان سلامة الإتصال بين تركيا وبلاد التتار ، واللذان سيصبحان نقطة إنطلاق فيما بعد لهجمات عثمانية فى البغدان ، وحتى فى بولندا .

وفى نفس الوقت الذى عملت فيه الدول المسيحية فى إيطاليا على الدخول فى علاقات ودية مع السلطان العثمانى ، وجه مسلهو الاندلس ، وهم تحت ضغط فرديناند الكاثوليكي ، والذى كان قد وحد تاجى قشتالة وأراجونا ، نداء للحصول على معونته للمسلمين ضدالمسيحيين . وأمر بايزيد بإعداد أسطول للذهاب ومهاجمة سواحل إسبانيا ، وإن كان هذا الإجراء لم يعط نتيجة فعالة .

وكانت أحداثاً أخرى قد إجتذبت أنظار السلطان العثمانى إلى منطقة أخرى ، وشغلته بها ، بطريق مباشر . ذلك أن السلطان المملوكى فى مصر لم يكن قد إكتفى بإعطاء حق اللجوء للأمير بجم ، بل كان قد سمح لقواته بأن تحتل فى منطقة قليقيا ، بعض المدن والأراضى التى كانت خاضعة لإحدى الإمارات التركمانية . والتى كانت تحت حماية السلطان العثمانى . فأرسل بايزيد حملة صوب فيليقيا وسوريا ، ولكن حملتين متتاليتين فى عامى ١٤٨٩ و ١٤٩٠ كانتا فى غير صالح العثمانيين . وقرر السلطان بايزيد أن يقوم بنفسه بقيادة حملة جديدة ، ولكن أمير تونس تدخل فى الأمر ، وتم عقد الصلح بينه وبين سلطنة المماليك .

وعند موت ملك المجر سنة ١٤٩٣ ، حاول بايزيد أن يفيد من الموقف ، ويحتل بلجراد ، التى كانت فى أيدي المجر . ولكن هذه المحاولة فشلت ، دون أن

تثبط من عزيمة العثمانيين على مواصلة الهجمات شمال نهر الدانوب . وبخاصة في بلاد
السكروات . وكانت هذه الهجمات ، من جانب العثمانيين ، مثلها في ذلك مثل هجمات
الحجر المضادة ، تتميز بالقسوة والوحشية ، وسهولة استخدام القتل ، والقتل ،
والحرق حياً . ورغم أن بايزيد كان يرغب في المعيشة في سلام مع جيرانه ، فإننا
نجد أن كبار قادته ، في بعض الأحيان ، هم الذين كانوا يعملون على تغيير الموقف ؛
فرغم المعاهدة المعقودة مع بولندا ، قام بالي بك ، حاكم سيلستريا ، بعبور
الدانوب ، وعبر البغدان بالاتفاق مع أميرها ؛ وهاجم الأقاليم البولندية القريبة
من الحدود ، وغربها ؛ وإن كان يحى الشتاء قد أجبره على الإنسحاب .

وكان محظ العثمانيين أحسن من ذلك مع البندقية ، التي إنهمز أسطولها قرب
ليبانتو ، في ٢٨ يوليو سنة ١٤٩٩ ؛ الأمر الذي سمح لهم باحتلال ليبانتو ، والقيام
في العام التالي باحتلال مودون ونوارين وقورون . كما أن هجمات بمجموعات
« وعصابات » العثمانيين في الشمال الغربي للبلقان استمرت ، وبشكل سمح لها بدخول
إيطاليا وعبور تاليامينفو ، والوصول حتى البندقية ، ومستغل لهذه الهجمات صفة
العصابات لفترة من الوقت ، قبل أن يتقرر قيام قوات عسكرية بها ، فيما بعد ،
وللقيام بغزوات في بلاد الحجر ، تصل حتى أسوار فيينا .

وكرر فعل على إستيلاء العثمانيين على بعض مواقع البندقية في المورة ؛ قام
الباي إسكندر السادس ، وبطلب من البندقية ، بتكوين حلف ضد الدولة العثمانية ،
وضم إليه في سنة ١٥٠١ ، كل من فرنسا وإسبانيا . وقام الأسطول الأسباني ،
بقيادة القبطان الأعظم جونز ألفي القرطبي ، بتخريب سواحل آسيا الصغرى . بينما
حاصرت السفن الفرنسية هتيلين ، ووصل فيه أسطول البابوية إلى البوردنييل .
ولكن هذه العمليات لم ينتج عنها سوى إحتلال عدد من الجزر الصغيرة . وتم عقد
الصلح في العام التالي مع البندقية ، التي أصبح من حقها إرسال قنصل لها إلى إستانبول
كما شهد نفس العام (١٥٠٢) عقد الصلح كذلك مع الحجر .

وفيما عدا المناطق المجاورة ، عملت الدولة العثمانية على الدخول في علاقات مع الدول ، الأكثر بعداً ؛ مثل للبابا ، وفلورنسا ، و نابولي ، والإمبراطورية المقدسة ، التي حاولت الوصول إلى صداقتها ، والاستعانة بها في مشكلاتها . وترى لأول مرة في التاريخ ، أن العثمانيين يتصلون بالروس في ذلك الوقت ، عن طريق ، خان القرم ؛ وحضر سفراء روس إلى أستانبول سنة ١٤٩٥ سنة ١٤٩٩ ، طالبين إعطائهم تسهيلات لتجارهم .

وكان بايزيد قد رغب ، قبل ذلك ، في عقد روابط قربي ، مع جارية المسلمين الكبירים ، فزوج إحدى بناته لورث عرش فارس ، ووافق على زواج بنت أخيه ، الأمير جم ، بسلطان مصر المملوكي . ولاشك في أن ذلك كان يمثل حلماً ، بالوصول إلى عقد روابط صداقة وقربي مع جيرانه المسلمين الأقوياء . وكان من السهل علينا أن نتوقع أن السنوات التالية ستكون سنوات سلم ووثام مع جيرانه ، في أوروبا ، وفي المشرق ؛ ولكن حكمه الذي بدأ بالصراع ضد أخوته ، سينتهي بالصراع ضد أبنائه ، الذين سيعلمون الثورة ضده .

وكان بايزيد قد عهد إلى أبنائه بحكم بعض أقاليم الدولة ، في آسيا ، الأمر الذي سيسهل قيامهم بالثورات ضده . وكان سليم ، أصغر أبنائه . قد عرف كيف يكسب رد الانكشارية . بينما كان كركود ، أخوه الأكبر ، يميل إلى الشعر والفلسفة ، ويحب الفنون أكثر من حبه للحرب ، ورجال الحرب . وعمل بايزيد نفسه على إبعاد كركود عن وراثة السلطنة ، والعهود بها إلى ابنه الثاني ، أحمد ، الذي كان يحظى كذلك بتأييد الصدر الأعظم ، عالي باشا . ولما كن الخصومات الناشبة بين كركود وأحمد كانت في صالح الابن الثالث ، سليم ، الذي أعلن الثورة ضد والده أكثر من مرة ، وأخذ في الزحف على أذرنة . وأخيراً قام الانكشارية بالتمرد ؛ في الوقت الذي شبت فيه الثورة في إسطنبول ، وبشكل أجبر بايزيد ، الذي كان شيخاً ، مسناً ومريضاً ، على التنازل عن السلطنة ، في

٢٥ أبريل سنة ١٥١٢ ، لإبنه سليم . وسافر السلطان المنتحى إلى مسقط رأسه ، ولكنه توفي في الطريق ، في ٢٦ يونيو سنة ١٥١٢ .

وهكذا فشل بايزيد في تحقيق فترة حكم سلمية ، كان يأمل فيها ؛ كما أن حملاته الحربية لم تقدم للسلطنة غزوات جديدة ، ولا إنتصارات ثابتة . واسكنه نجح مع ذلك في زيادة حجم علاقات السلطنة مع الدول الأخرى . أما في الداخل ، فإنه إهتم بالأدباء والشعراء ، وبني مساجد عديدة ، ومن أهمها مسجده الذى يحمل اسمه ، الذى يقع على أكثر أماكن إستانبول إرتفاعاً ، قرب سيراس قيراط ، بهامعة إستانبول الحالية ؛ كما بنى الكثير من المدارس ، والمباني ، والقناطر والجسور .

وعلىنا أن نذكر أن بايزيد الثانى قد حكم بعد والده ، محمد الفاتح ، الذى إستولى على القسطنطينية ، وكان بذلك من الرجال الذين وضعوا نقطاً مميّزة على تاريخ العالم . . ويمكننا أن نعتبر حكمة تدعى "حضارياً ، وسياسياً وإستراتيجياً" لما وصل إليه محمد الفاتح . كما أنه حكم قبل سليم الثانى ، لإبنه ، فاتح الشام ومصر ، والذى مد أيديه إلى رجال الجهاد على كل السواحل الإسلامية ، وحتى مضيق جبل طارق . فكان عصره فترة لتدعيم إنتصار ساحق ، والاستعداد لتكتل الأقاليم العربية والإسلامية ، فى شكل جديد وفريد ، لم يشهده التاريخ من قبل . وأخيراً فعلىنا ألا ننسى أن فترة حكمه هى التى شهدت وصول البرتغاليين إلى مياه الهند ، وعجز سلطنة المماليك ، رغم توافق مصالحها مع مصالح تجار إيطاليا ، فى البندقية وجنوا ، عن الوقوف فى وجهها .

إنها صفحة جديدة من تاريخ العالم ، مع فجر التاريخ الحديث ، ولننتقل إلى إيطاليا ، ليرى مظاهر النهضة ، كتهيبه للكشوف الجغرافية فى بداية التاريخ الحديث .

البَابُ السَّابِعُ

النَهْضَةُ الْأُورِيبِيَّةُ

الفصل العاشر

ظهور النهضة في إيطاليا

تجمعت بعض الأسباب، الجغرافية، والإقتصادية، والسياسية والاعنوية، لكي تجعل النهضة الأوروبية تظهر في إيطاليا قبل غيرها من الأقاليم الأوروبية؛ وأخذ هذا التحول وقتاً لكي يظهر مثل غيره من التغيرات العالمية، وبشكل يميزها عما سبقها تاريخياً من المظاهر. وكانت النهضة الإيطالية خصائصها، كما كانت لها مظاهرها. ولنعكس كل ذلك في حركة إحياء الدراسات القديمة، ووضوح في ظهور اللغات الحديثة، الأمر الذي إمتد إلى خارج حدود إيطاليا، وإلى أقاليم أخرى كانت تتمسك حتى ذلك الوقت بإعتبار اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية للعالم الغربي. ولقد إنعكس كل ذلك، في روحه والرغبة في التجديد، على الفنون الجميلة، من تصوير ونحت وعمارة. وبدأت حركة النهضة من إيطاليا، لكي تنتشر في بقية أنحاء العالم الغربي. وإذا كان منار النهضة قد نبأ نوره في إيطاليا، وربما قبل غيرها من أقاليم غرب أوروبا، فإن هذه الحركة قد إستمريت، كحركة تطور إنساني، لها جذور إجتماعية وإقتصادية ومعنوية، في بقية أنحاء أوروبا، وتكاثفت عواملها مع عوامل جديدة لكي تظهر في شكل الكشوف الجغرافية، والإصلاح الديني، وتفوق أوروبا وسيطرتها على العالم.

١ - خصائص النهضة ومظاهرها:

علينا أن نحدد أن النهضة الإيطالية لم تظهر فجأة، وبشكل واضح في إيطاليا. إذ إنها، كحركة من حركات تطور الانسانية، أخذت في النمو، والتبلور، عبر سنوات طويلة، وفي تفاعل مع عوامل ومتغيرات عديدة، قبل أن تظهر،

كظاهرة عامة لها خصائصها وميزاتها ، وبشكل واضح ، يدل على حدوث تغير في حياة البشر ، بشكل متميز عن حياتهم السابقة ، ويشير بسيرهم في خط حياة جديد ، يختلف عن خط حياتهم السابق .

وهناك من ينظر إلى النهضة على أنها عصر قائم بذاته ، وعصر خطير في التاريخ الأوربي ، وتاريخ العالم ؛ وعلى أنه قد ختم العصور الوسطى ، وقضى على الكثير من القيود التي كانت موجودة من قبل ؛ فهو عصر ظهور الفرد ، وعصر الأدب ، وعصر الفن ؛ وهو عصر التحول ، والهدم والبناء ، وعصر المخاطرة والكشف الجغرافية والعلمية ، وعصر العلم الجديد ، عصر التهمك والضحك والمرح ، وعصر مخالفة القوانين والتقاليد الأخلاقية ؛ وعصر الغدر والخيانة ، وعصر السياسة الصاخبة ومجد الأمراء والنبلاء والعظماء من الرجال . وبهذا الشكل يكون عصر النهضة هو عصر التغيرات الكبيرة التي أصابت المجتمع الأوربي في الفترة الواقعة بين العصور الوسطى والعصر الحديث ، أي فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر . وهذه التغيرات تتمثل في ضعف الامبراطورية الرومانية ، وفي ضعف البابوية وسلطة البابا ؛ وهما السلطانان اللتان سيطرتا على العالم الأوربي أثناء العصور الوسطى ؛ وحل محلهما نمو الدول الأوروبية الحديثة ، التي أصبحت لكل منها كيان سياسي مستقل وواضح ، وقائم على أسس جغرافية وإقتصادية وبشرية . وتتمثل كذلك في ظهور الكنائس الإقليمية المستقلة عن سلطة البابا ، وظهور مذاهب دينية جديدة ، لا تخضع للبابوية ، ولا للكاثوليكية . كما تتمثل في نشأة الآداب الوطنية الجديدة في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا ، مستقلة عن الآداب اللاتينية القديمة ، الذي ساد خلال العصور الوسطى . وتتمثل في ضعف سلطة الأمراء والسادة الإقطاعيين ، ولزيادة نمو أرباب الصناعات ، ونمو رجال الطبقة الوسطى . كما تتمثل في ظهور وسائل العمل الجديدة ، مثل البوصلة والاسطرلاب ، واستخدام الدقة المتحركة ، الأمر الذي سهل الملاحة ، وساعد

على كشف الطرق التجارية الجديدة ؛ وكذلك إختراع الطباعة الذى سهل أمر إنتشار العلوم والآداب بين عدد كبير من الناس ؛ وإكتشاف كوبرنيكوس أن الأرض غير ثابتة ، وأنها تتحرك حول نفسها ، وحول الشمس . وبهذا الشكل يكون عصر النهضة هو ثمرة الانسانية كلها . التى أسهمت فيها شعوب قديمة وحديثة ، وهو ذلك العطاء الحضارى الانسانى ، الذى يعتمد على تحرر النفس البشرية ، وإنطلاقها من القيود ؛ وهو عصر يمكن تشبيهه بالمرجل ، وبالخى التى أصابت البشرية ، نلاحظ أثاره فى تلك الدماء الحارة التى جرت فى عروق الناس ، وحركتهم ، وجعلتهم يتأثرون بهذه التيارات ، التى تكاملت مع بعضها ، وخرجت منها طريقة الحياة الجديدة ، وفى كل مناحى الحياة . وهذا التفسير والتشبيه المعنوى صادق وأمين فى حد ذاته ، وإن كان يحتاج إلى تعمق فى البظر إلى القوى العميقة ، التى أدت إلى اخراج هذا التغيير فى حياة الناس ، فوق الأرض .

وهناك من ينظر إلى النهضة على أنها حركة ، وهذه نظره أضيق ؛ فيعتبر أنها حركة إحياء الدراسات القديمة ، وظهور الفكر العقلانى ؛ وبهذا المعنى تكون النهضة قد ظهرت فى إيطاليا قبل غيرها ، ثم إنتقلت منها إلى بلاد أخرى فى العالم . وعلينا أن نعرف بأن إحياء التراث القديم ؛ الرومانى واليونانى ، يدل على بعض قطاعات النهضة ، وإن كان لا يشملها جميعاً . وكذلك نجد أن رجال الفن يعتبرون ، من ناحيتهم ، أن النهضة عبارة عن ظهور الفن الجديد ، بعد أن تخلص الفنانون من قيود العصور الوسطى ، وأخذوا يستمدون فنيهم من عناصر الحياة الواقعية ، ومن روح الدين المسيحى ، وقصص وأساطير العصور الوسطى ، ومن قصص ابرومان واليونان القديمة ، واستوحوا من هذا المزيج وحيأ لفنهم وأنتجوا من ذلك فناً رائعاً .

ولا شك فى أن تطور حياة الناس من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة كان يرجع إلى تغيرات عميقة اقتصادية ، واجتماعية ، ومرتبطة بوسائل الإنتاج

والتبادل ، وفي علاقه مع نظام الحكم ، كما شرحنا في الفصول السابقة ؛ وهو الأمر الذى أدى إلى تغير طريقة حياة الناس ، وطريقة تفكيرهم ، وابداعهم .

وكان أهالى العصور الوسطى ينظرون للحياة نظرة غير عملية ، وأعوزهم فهم الحياة فهماً صحيحاً ، كما أعوزتهم القدرة على التمتع بالحياة ، فكانوا يأخذون الأمور قضايا مسلم بها ، ويخضعون للأساطير والأوهام ، ويعتقدون فيها ؛ ونظروا إلى الحياة الدنيا على أنها فترة مؤقتة زائلة ، وإلى التمتع بالجمال على أنه لثم وخطيئة ، سواء أكان ذلك تتمتع بجمال الطبيعة ، أو تقدير لجمال أجزاء الجسم وتفصيلاته ؛ وكانت العلوم دنيئة ، وتتعلق بالعقيدة والحياة الأخرى ، وفي ظل الكنيسة ، الأمر الذى دفع الناس إلى الاكتفاء بما يسد الرق ، دون طلب المزيد .

وسيطرت الكنيسة على حياة البشر ، سيطرة تامة ، حتى أصبح رجال الكنيسة حائلاً بين الخالق والمخلوق . وكان لنزول الكنيسة إلى ميدان الحكم الزمى ومحاولتها السيطرة على الامبراطورية ، وانشائها لنظام حكم واداة حكم تشبه تلك الموجودة لدى الملوك والأمراء ، وعملها على السيطرة على دول مثل فلورنسا وجنوا ، والتوسع فيها ، ودخول البابوات نطاق الحياة السياسية ، واستئثارهم جنداً من المرتزقة ، وانشائهم للأساطيل البحرية ، كان لكل ذلك أثر يمتثل ، علاوة على الصراع مع الحكومات الزمنية ، فى ضعف البابوية نفسها ، بعد أن نزلت إلى ميدان ليس ميدانها ؛ وعرقلت بالتالى التطور الطبيعى لعباد الله الصالحين ، ولفترة من الوقت .

وفشلت البابوية فى السيطرة على ايطاليا ، دنيوياً ؛ وضعف نفوذها الدينى ، خاصة وأن بعض البابوات أصبحت حياتهم دنيوية ، وتزوجوا ، وخالفوا قواعد الدين ، وجاهروا بالكثير من شئون هذه الحياة الآثمة ، مع قبولهم للرشاوى واختلاس الأموال ، والاشتراك فى المؤامرات ، وإرتكاب الأوزار كالقتل وبيع صكوك الغفران ومناصب الكرادلة ، الأمر الذى أدى إلى ضعف البابوية ، ودعوط نفوذها وسيطرتها . ومع زيادة تعنت الكنيسة ، مع ضعفها المتزايد ، ستكون أداة

يمارس فيها أنصار التحرر قوتهم بعد أن إستندوا إلى أسس قوية من المال والاقتصاد، والإنتاج والتجارة الثروة، والرغبة في الحياة، وفي الحرية، التي هي صفة لازمة من صفات الرأسمالية الناشئة والنامية في ذلك الوقت .
ونتيجة للتحرر الاقتصادي، وبداية التحرر الاجتماعي، ستكون الحرية، بكل صورها، من خصائص ومظاهر النهضة الأوروبية .

وأخذ محرر النفوس يظهر في النطاق الديني . وبعد أن كان نفوذ الكنيسة قوياً، ظهرت في لومباروديا جماعات من الأهالي أخذوا يتكلمون على الديانة المسيحية، وينادون بشرب الخمر، ويمجدون باكوس إله الخمر عند اليونانيين . كما ظهرت جماعة Weldani نسبة إلى Weldo، إنتقلت إلى إيطاليا ونشرت مبادئه، وناذت بالرجوع إلى نص الكتاب المقدس، والثورة على رجال الدين، وعلى أساس أنه يجب ألا تكون هناك وساطة بين الفرد والله، متمثلة في رجال الدين، وأن في وسع الفرد أن يتصل بخالقه مباشرة . ولقد إنعكس ذلك، في شكل قلق وسخط، على فن التصوير، منذ القرن الثالث عشر، فكانت صور المسيح تظهر وهي تحمل دلائل السخط وعدم الرضاء، مما يدل على الحالة النفسية للفنانين أنفسهم، وظهرت شخصيات تنادى بالتحرر، أولها شخصية أيبيلار، الأستاذ بجامعة باريس، وهو الذي يجد العقل ودعا إلى إستخدامه، فلا ينبغي أن يعتقد الفرد في شيء قبل أن يفهمه، وحق الدين يجب تطبيق العقل عليه . وناذى بضرورة الحد من سلطة الكنيسة، وعدم وضع وساطة بين الفرد والخالق . وجاءت من بعده شخصية تليده أن تولدو بريشيا Arnoldo Briscia الذي تشبع بالآراء الحرة، وإنتقل إلى إيطاليا، وهاجم السلطة الزمنية للكنيسة . ودعا إلى تحطيمها، مع إقتصار الكنيسة على الناحية الدينية . كما نادى بضرورة إعادة الجمهورية الرومانية، وتوحيد إيطاليا تحت سلطة روما، على نمط الجمهورية القديمة؛ ولأن كان قد فشل وقتل، إلا أن أثار هذه الحركة ظلت في نفوس الأهالي، تدفعهم للتحرر من سلطة الكنيسة .

وكذلك ظهرت شخصية يواكيم دافلورا ، الذى تأثر بالثقافة التى سادت فى جنوب إيطاليا ، وهى ثقافة متنوعة الاصول ، متأثرة بثقافة اليونان والرومان والبيزنطيين والعرب والزمنديين ، وهذه الثقافة تخلق عقلية أقل تمسكاً بالدين ، والخضوع لسلطان الكنيسة ، وأقرب منها إلى الحرية ، ومن أهم الافكار التى نادى بها يواكيم هى فكرة الحرية ، وفهم الله على أنه الحرية وأن الله يحب الحق ، فلا بد أن يكون الانسان حراً . وفكر يواكيم فى الكنيسة وأحوالها وفسادها ؛ ولكن تشاؤه كان مزوجاً بالتفاؤل ، وقال أن العالم ، بعد هذه الويلات ، سيدخل فى طور جديد ، ويقوده الرهبان المخلصون ، وتتسامى المسيحية والتصوف . ولاقت دعوته نجاحاً وإنتشاراً فى إيطاليا ، وأحس الناس أنه قد أراضى حاجة فى نفوسهم . وكان قد دعا إلى التغيير ، وإن كان هذا التغيير لن يتم بالشكل الذى توقعه ، وبالرهبان ؛ ولن يكون قادة العصر الجديد هم السكينة كما توقع .

وهناك شخصية القديس فرانسيسكو ، الذى نشأ فى أسرة غنية ، وفشل نتيجة رقة صحته فى أن يكون من رجال السيف ، فأدى به الأمر إلى الزهد فى الدنيا ، وإلى التصوف ؛ ولكنه لم يكن متشائماً ، بل مليئاً بالتفاؤل . ولقد نادى بالتمتع بالحياة ، وتمجيدها ، ودعا إلى التمتع بهذا الكون ، الوصول من ذلك إلى تمجيد الخالق فى مخلوقاته جميعاً . وكان ذلك تمهيداً للفكرة التى إنتشرت بعد ذلك عن تمجيد الطبيعة فى كل صورها . وكان ينظر إلى البشر جميعاً نظرة واحدة ، إذ إنهم إخوة فى الانسانية ، فليست هناك طبقات إجتماعية وكان يقدر للجرم واللص تلك الظروف التى أجرم أو سرق فيها . وكان معجباً بالطبيعة ، ويخاطب عناصرها ، متمثلة فى الشمس والنار والهواء ويعتبر أن الخالق موجود فى كل منها . وكان راهباً ، ولكنه تصرف وكأنه يرجع إلى روح الوثنية القديمة ، وكان مهدداً لروح الحركة الانسانية . وهناك كذلك شخصية الامبراطور فردريك الأكبر ، حفيد فردريك هينريخ ؛ وهو الذى ترك حكم أملاكه فيما وراء الراين فى يد أبنائه ، وإستقر

هو في جنوب إيطاليا ، ولقد عمل على القضاء على نفوذ الأمراء والبارونات ، وعلى تنمية إمكانيات الطبيعة والاقتصادية ، سيطر على النقابات والبلديات ، وعمل على إضعاف سلطة الكنيسة ؛ فاعتبر نفسه حامي الكنيسة ، متأثراً في ذلك بدين الاسلام، الذي أعطى للخليفة السلطتين الزمنية والروحية . ولقد قام فردريك بحرب صليبية في الشرق ، في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وكانت حرباً صليبية سلبية ، ولانفق مع الملك الكامل ، سلطان مصر ، على معاهدة صلح وسلام ، في حلف ضد أعدائهما ، حق من مسيحي الشرق . وأخذ فردريك بيت المقدس ، وأعجب بعادات وأخلاق الشرق ، وظهر أنه بعيد عن التصعب وتعتبر سنة ١٢٢٩ نقطة تحول جوهري في العلاقات بين الشرق والغرب ، أو بين الهلال والصليب ؛ إذ أنها تدل على أن العقل الانساني قد نفى عن نفسه فكرة العداة التقليدية بين الهلال والصليب ، وأنه من الممكن التفاهم بالطرق الودية ، وطبقاً للمصالح الموجودة . ولقد إحترم فردريك وفود الأديان الأخرى ، وأصبح لكل من الديانات الاسلامية واليهودية والمسيحية مكاناً محترماً في بلاطه ؛ وكان يجتمع كثير من مفكرى وعلماء المسلمين ، ويكاتبهم ؛ وإتصل بتلاميذ إيزن رشد ، الذين كانوا يرون أن الاسلام يدعو إلى الفكر الحر ، والناقشة ؛ وعدم أخذ أى شيء إلا بعد ثبوته وأن للعقل المكان الأول في حياة البشر؛ وأن ما يروى عن المعجزات فجدير بالعامه . ولقد إهتم فردريك بالحركة العلمية ، فأثبأ جامعة نابلى ، وكلية للطب في الرمو ، وقام بتجارب عملية ، وإشترك في بعضها ، في تشريح الجسم الانساني، وكان بلاطه غاصاً بالمهندسين المماريين المسلمين ، فأقيمت مباني وكنائس متأثرة بالطراز العربى ، بها كتابات عربية وكوفية في بعض الأحيان . وزاد الأمر حتى أنه أعلن أنه لا يعقل أن يكون الله في نظر المسيحيين هو المتجسد في جسم معين ، ولا يعقل أن الله قد ولدته امرأة عذراء ، وأعلن بذلك ثورة خطيرة على المسيحية . ولقد عبر فردريك عن عصره ، أو عن فمكر الرجال الأحرار في

تلك المنطقة في ذلك العصر . ولذلك فانه يمكن أن نقول بأن فردريك كان أول رجل يمثل العصر الحديث ، ويمثل روح النهضة .
ومن هذا نرى أن حركة النهضة جاءت من خارج الكنيسة ، وكانت علمانية ، وشاربت زيادة سلطة الكنيسة ؛ وكانت عقلانية ، ورفضت وجود الكنيسة كواسطة بين الفرد والخالق . ولقد عملت هذه الحركة بالتالى على إضعاف الكنيسة ، وساعدت على استمرار التغيير الاجتماعى والفكرى . ولقد اعتمدت حركة النهضة على سكان المدن ، ورجال المهن والتجارة ، والذين تزايدت الثروات فى أيديهم ، والأموال فى أكياسها لديهم أو فى المصارف . وهم رجال الطبقة الوسطى ، أو الطبقة البورجوازية ، التى ستزيد أهميتها . وبإستمرار ، فى الوقت الذى تقل فيه أهمية النبلاء والسادة الإقطاعيين . ولذلك فإن هذه المسند هى التى ستكون مراكز الإشعاع الفكرى والعلمى والفنى ، فى كل غزب أوروبا . وكما رأس المال يشد الحرية فى تعامله ، فإن صاحب رأس المال لا يمكنه أن يتعامل إلا طبقاً لمصلحه ، وفى حرية ، وليس طبقاً لمقيدة معينة ، خاصة إذا ما شعر أن وضعيته الكنيسة تؤثر على مصلحه ، وتفرض عليه التزامات لا يقرها العقل . ولذلك فإنهم حاربوا من أجل حرية الرأى ، وحرية الشخصية ، وحرية التعامل ؛ وعموا بذلك على تحطيم القيود التى كانت سائدة طوال العصور الوسطى . وظهرت هذه الحركة بمظاهرها المختلفة ، وأول ما ظهرت ، فى إيطاليا .

٤ - أسباب ظهور النهضة فى إيطاليا :

كان لظهور النهضة فى إيطاليا ، قبل غيرها من الأقاليم الأوروبية ، أسباباً عديدة ، ترجع فى أولها إلى أسباب جغرافية ، بحكم الموقع ، تلتها أسباب إقتصادية ، ثم إجتماعية ، وسياسية ومعنوية .

وكان الموقع الجغرافى لإيطاليا ، فى غاية الأهمية ؛ نتيجة لوقوعها فى وسط البحر المتوسط ؛ وهو البحر الذى قامت على ضفافه أقدم الحضارات ، والذى كان

مركز التبادل بين العالم القديم ، قبل إكتشاف العالم الجديد . وكانت المدن الإيطالية هي مراكز الإتصال بين بلاد أوربا ، والبلاد المطلة على الحوضين ، الشرق والغرب لهذا البحر .

ونعرف أن الحضارة الإسلامية كانت مزدهرة أثناء العصور الوسطى ، وأنها أسهمت بنصيب وافر في ميادين العلوم والفكر والإنشاءات والطب والفلك وعلوم البحر . وكانت مراكز الحضارة الإسلامية موجودة في كل مكان ، وكان أقربها إلى أوربا يتمثل في جامعات الأندلس في الغرب ، وصقلية وتونس ، في الوسط ، ومصر والشام ، في شرق البحر المتوسط . وكانت هذه المراكز المتقدمة للحضارة الإسلامية تحيط بإيطاليا من كل إتجاه ، ويمكن لأهالي ثغورها الوصول إليها بالسفن وكانت تعتبر معابراً ونقط إتصال على وحضارى ، بين الشرق والغرب ؛ وجاء الكثير من طلبة العلم من الغرب إلى هذه المراكز يدرسون ويتعلمون ويقتبسون ويفكرون ، الأمر الذى ساعد على إزدياد أهمية الموانئ ، علاوة على أهميتها العسكرية ، في الحروب الصليبية ، وأهميتها الاقتصادية في التعامل في التجارة بين الشرق والغرب .

وكانت إيطاليا ، بفضل موقعها ، أقرب من غيرها إلى بينزطة ، تلك العاصمة العالمية القديمة . وكان الكثير من علماء بينزطة يحضرون لإيطاليا كأساتذة ، أو يحضرون إليها كمهاجرين ؛ كما كان بعض أبناء إيطاليا يذهب إلى بينزطة لطلب العلم . ولا شك في أن موقع إيطاليا الجغرافى ساعد على هذه الحركة بين العلماء وطلاب العلم ، وأعطى لإيطاليا ميزة منطقة الإلتقاء بين المعارف والعلوم والفكر ، من كل مكان . أما من الناحية الاقتصادية فنجد أن المدن والموانئ الإيطالية ، مثل جنوا وفلورنسا والبندقية ، قد إشتغلت بالتجارة ، والنقل ، منذ العصور الوسطى ، والحروب الصليبية ، مع موانئ شرق وغرب البحر المتوسط ، ووصل نشاطها التجارى إلى البحر الأسود ، وتعاونت مع موانئ مصر والشام ، في نقل التجارة

العالمية التي كانت تصل إليها من الشرق الأقصى ، إلى بقية بلاد أوروبا . ولقد ساعد ذلك على زيادة الثروة لدى أبناء المدن الإيطالية ، وبشكل ساعد على إنتشار العملة ، وظهور المصارف ، والشركات ، وعمليات التأمين ، أى ساعد على إزدهار النظام الرأسمالي ، ورغبته في الحصول على حرية عملة ، وحرية حركته ، حتى في تعامله مع الأعداء ، ، ورغم مراسيم البابوية ، وتوجيهات أمراء الإقطاع وأوامرهم . واستعمل أرستقراطية المدن في نخط يختلف تماماً عن أمراء الكنيسة والإقطاع . وسيكون هذا التحول الإقتصادي ، الذي يتمثل في ضعف الكنيسة والإقطاع من ناحية ، وإزدياد أهمية الرأسمالية المتاجرة من ناحية أخرى ، سبباً في قلب الموازين السابقة ، وبشكل يعلن ميلاد عهد جديد ، لبثداء من التجارة ، ومن الموانئ ، وفي إيطاليا ، لكي يمتد تأثيره بعد ذلك إلى كل أوروبا ، من غربها ، إلى شرقها .

وأما من الناحية الاجتماعية فلا يمكننا تناسي أهمية طريقة حياة التاجر ؛ ذلك أن الأرباح كانت تتضاعف أمامه مع سرعة دورة رأس المال . وكان يحقق ربحاً كلما عمل على تحويل مادة أولية إلى سلعة ، أو كلما باع سلعته ، مهما كان وقت البيع قصيراً ؛ وذلك بعكس الفلاح الذي كان عليه أن ينتظر نضج المحصول ، وسلامته من الآوبئة والكوارث الطبيعية ، ويصلي لله أن يزرقه حتى يتم نضج المحصول بعد ستة أشهر ، لكي يقسمه مع السيد الإقطاعي . وكان الفلاح يعمل في أرضه من شروق الشمس لغروبها ؛ أما التاجر في المدينة فعمله أقل صعوبة ، ولديه من الوقت ما يسمح له بالتحدث والقراءة وحتى التنزه ؛ فزاد إهتمامه بحياته أكثر من الفلاح ؛ وكانت لديه في المدينة وسائل الراحة والمتعة والجمال .

وكانت طبيعة الالهائي في إيطاليا ، ومنذ أقدم العصور ، تحب الحياة والجمال والتمتع ؛ وإذا كانت الكنيسة قد فرضت عليهم نوعاً معيناً من السلوك والانخلاق خلال العصور الوسطى ، إلا أنها كانت مستعدة للعودة إلى طبيعتها المنطلقة ، مع

أول تغير للظروف . وكان الإيطاليون لا يحبون الحرب ، ويتكون هذه المهنة للمرتزقة ، من الألمان والسويسريين . ولقد ساعدتهم الرخاء الاقتصادي ، وتشجيع الأمراء ، مع جمال الطبيعة ، وشعورهم بمجد روما القديم وآثارها الحضارية ، على المشاركة في التذوق ، وفي الخلق والإبداع .

أما من الناحية السياسية والمعنوية ، فكانت إيطاليا هي عهد الحضارة ، الرومانية وكانت مليئة بآثار هذه الحضارة وقراتها ؛ وكان الإيطاليون يشعرون بأنهم خلفاء الرومان ، الذين سيطروا على العالم ؛ وعادت أنظارهم إلى آثار الرومان ، تستوحى منها ، ثم انتقلت إلى آثار اليونان ، والتي كانت تتمثل في أقاليم لهم فيها نفوذ اقتصادي وسياسي ؛ ومن الآثار تعمقوا في التراث والمخطوطات لكل من الرومان واليونان في العصور القديمة ، وتأثروا بها ، وظهر تأثيرها على أدبهم وفنهم وفكرهم .

وساعد على ذلك تمتع إيطاليا بالسلام لفترة طويلة ، الأمر الذي أعطى للإيطاليين المناخ الذي يسمح لها بالدراسة والتذوق .

وتميزت ب**قيام حكومات مستنيرة في المدن** ؛ وأخذت هذه المدن في منافسة بعضها ، تشجيع الآداب والفنون ؛ وحكمتها أسس قوية كانت أشهرها أسرة مدينتي في فلورنسا ، وأسرة فيسكونتي التي سيطرت على ميلانو ، وأسرة بورجيا التي حكمت أملاك البابوية . ورغم أن حكم هذه الأسر كان إستبدادياً ، إلا أنهم عملوا على تشجيع العلماء والأدباء والفنانين ؛ وكان بلاطهم مليئاً بكل من يذبح ويبدع ويبلغ .

وكانت هي مقر البابوية ، وقبلة العالم المسيحي الغربي ، الأمر الذي كان يشير إعزاز الإيطاليين بها . وكانت الكنيسة من القوى المضادة للتقدم ، وللتطور ؛ ولكن نزلها إلى ميدان السياسة العلمانية ، والتوسع الإقليمي كإمارة ودولة ، وصراعها مع الإمبراطورية ، أدى بالتالي إلى ضعفها ؛ وزاد من هذا الضعف

إنتشار الفساد فيها ، الأمر الذى سهل مهاجمتها . ولقد أثرت الكنيسة من مواردها المالية من كل أوروبا ، وأخذ بعض البابوات المستنيرين ينفقون على نشر العلم وإنشاء المكتبات وجمع المخطوطات وإقتناء الكتب وبناء الأكاديميات ، وجمع القطع الفنية ، والعمل على تجميل مدينة روما . وأخذوا ينافسون أمراء إيطاليا في رعاية العلوم والفنون والآداب ، وكان العلماء والفنانون يقصدونهم ؛ وإشتروا في التاريخ بإسم بابوات النهضة ؛ ومن أشهرهم نيقولا الخامس الذى وضع أسس مكتبة الفاتيكان ، في منتصف القرن الخامس عشر ؛ كما أخذ البابا ليون العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) في البدء في إنشاء كنيسة القديس بطرس .

٣ — إحياء الدراسات القديمة :

كان إحياء الدراسات القديمة ، أو إحياء التراث العالمى القديم ، من أهم مظاهر النهضة الأوروبية ونصائصها . ولقد رأى البعض أن إتجاه الإيطاليين إلى منابع الحضارة القديمة ، اللاتينية والاعريقية ، وأخذهم عنها ، هو الذى عمل على تغيير العقلية الإيطالية والأوربية ؛ ولكن الواقع أن هذا التغيير كان قد وقع قبل ذلك ، وهو الذى عمل على توجيههم إلى إحياء الدراسات القديمة . ولقد كان التراث القديم معروفا أثناء العصور الوسطى ، وحفظته الكنيسة ورجال الدين ، ومع ذلك فلم تشهد أوروبا خلال العصور ذلك الأدب أو الفكر الحر ، الذى وجد في مطلع التاريخ الحديث . ولا جدال في أن العقلية الأوروبية قد تغيرت أولا نتيجة لبدء الحركة العلمية ، ونتيجة لتغير طريقة حياة الناس ، التى إستندت بدورها إلى أسباب عميقة تتعلق بالانتاج وتبادل السلع ، وهذا هو الذى أدى بالتالى إلى الإفتناع بضرورة تغيير ما تعودوه ، وإتجاههم إلى التراث القديم . وكان إحياء الدراسات القديمة يقوم على أساسين : الأول هو الأساس اللاتيفى ، والثانى هو الأساس اليونانى أو الاغريقى .

وكان العقل اللاتينى قد تميز بصفات مستمدة من ظروفه الخاصة وكان اللاتين

أو الرومان قد قضوا فترة كبيرة من تاريخهم في صراعات داخلية ، وصراعات خارجية ، حتى انتصروا ، وتكونت لهم عقلية خاصة ، منعتهم من الاشتغال بالكلام والمناقشة والشك ومحاربة التجديد ، وجعلتهم أميل إلى المحافظة على القديم ، وأكسبتهم صفات العزم والقوة وحب النظام الدقيق المحكم ، فكانوا صارمين ومحددين .

أما العقلية اليونانية القديمة ، فهي تمثل ذلك الشعب الصغير المبدع ، الفنان والحلاق ؛ وقد تميزت بحب الجمال ، الذي اعتبر على أنه حاسة سادسة لديهم ؛ وحب الحرية ؛ فهم لا يرضون بالاستبداد ، حتى إذا جاء من عند الآلهة ، الأمر الذي دفعهم إلى الاعتقاد في أكثر من إله ؛ وتميزت بحب الصراحة والصدق ، وأخذ الأمور كما هي ، والنظر إلى الحب . في صورته المختلفة ، نظرة واقعية ؛ كما تميزت بالنزعة الانسانية ، ونظرتهم إلى الناس نظرة موضوعية ؛ وتميزت بتعدد الجوانب والميول والاهتمامات .

وسارت عملية إحياء التراث القديم على مرحلتين : الأولى لاتينية رومانية ؛ والثانية يونانية إغريقية .

أما المرحلة الاولى ، اللاتينية الرومانية ، فكان من الطبيعي البدء بها ، وبخاصة في إيطاليا ، وحيث كانت آثار الرومان ماثلة أمام الأهالي في كل مكان ، وحيث كانت اللغة المتعارف عليها بينهم هي اللاتينية ، رغم ما أصابها من ضعف في عصر بداية التاريخ الحديث . وجاء الاسر البابلي ، ووجود البابوات في أفينيون ؛ لكي يسمح بظهور حركات سياسية ، تطالب بإعادة إنشاء الجمهورية الرومانية القديمة ، كمثل أعلى تهفو إليه النفوس . وكم من خطبة أُلقيت ، أشارت إلى الابداح والآثار الخالدة ، والتي تدل على العظمة ، في كل مكان . وحتى إذا كانت هذه الحركات لم تنجح ، إلا أنها عادت إلى لغة شيشرون وقيصر ، وإلى فلسفة سنيكا . وأدى ذلك إلى أن يرجع اللغة اللاتينية صفاءها القديم ، وتعصب لها

بعض الكتاب ، مثل بترارك ، الذى أعتقد أن أحسن ما كتبه هو القصيدة المسماة « إفريقية » ، والى كتبها باللاتينية ، رغم أن كتاباته التى ستخلد هى التى كتبها بالإيطالية . وامتنع بترارك عن قراءة الكوميديا الإلهية ، التى كتبها دانتي ، حتى لا يتأثر بأسلوبها . ولقد أظهر جميع الأدباء المعاصرين اهتماماً كبيراً باللغة اللاتينية ، وأشاد دانتي بفضلها ومقامها .

وفى هذا النطاق ، أهتمت الكثير من الأسر الإيطالية بقتبع أصولها التاريخية ، وافتخر دانتي بأنه من سلالة ترجع إلى عهد أغسطس ، وتسمى الناس بأسماء لاتينية ، وكتب بترارك رسائله باللاتينية إلى شخصيات العالم القديم . كما نشأت مدارس ، فى القرن الرابع عشر ، لتعليم اللغة اللاتينية الصافية ، والخالية من اللفاظ الغريبة . واتجه الإيطاليون إلى الآثار الرومانية القديمة ، وأحسوا بأنها رمز العظمة ؛ وغير بعض الشعراء عن ذلك ، ووجد من البابوات من عفى بالدراسات الرومانية القديمة ، مثل بيو الثانى الذى تخصص فى الآثار القديمة ، وأصبح من كبار المتخصصين الشغوفين بتخصصهم ، وكان يقتل بينها باحثاً ودارساً ، وأنفق الأغنياء أموالاً طائلة على إنشاء مباني على الطراز الرومانى القديم .

أما المرحلة الثانية ، فكانت هى اليونانية الاغريقية ؛ وكان من الطبيعى أن يودى الإهتمام بالدراسات اللاتينية الرومانية إلى الوصول إلى الإهتمام بالتراث اليونانى الاغريقى ، وهو التراث الأقدم . وإذا كانت دراسة اللغة اليونانية قد اضمحلت فى غرب أوروبا ، إلا إنها كانت موجودة فى بلاد اليونان وبنزلة . وكان من يرغب فى الدراسة يذهب إلى القسطنطينية ويتلمذ فيها على أساتذة التراث اليونانى القديم ، كما انتقل بعض الأساتذة من بنزلة إلى إيطاليا ، وكان البعض من بينهم يفضل البقاء فيها ، واستقر بعضهم فى فلورنسا فى أواخر القرن الرابع عشر . وكان بوكاشيو Boccaccio يمثل الفريق الأول ، الذى ذهب الى القسطنطينية ؛ وكان كرىزولوراس Chrysoloras يمثل الفريق الثانى . وكان

إمبراطور بيزنطة قد أرسل كريسولوراس يطلب مساعدة الايطاليين ضد هجمات الأتراك العثمانيين على القسطنطينية . وعرفه علماء فلورنسا . واتصلوا به بعد عودته لبلاده وطلبوا منه العودة وتدريس اللغة اليونانية القديمة في مدينتهم ، فعاد واستقر بها ، وانشأ فيها مدرسة خاصة لهذه الدراسات ، وصارت إشاعاتها إلى غيرها من المدن . وزاد يحى العلماء والأساتذة من القسطنطينية إلى المدن الايطالية ، منذ أوائل القرن الخامس عشر ، وجاء سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين لكي يساغد على هجرة العلماء إلى إيطاليا ، الأمر الذي كان موجوداً من قبل ؛ وأدى ذلك إلى ازدهار الدراسات اليونانية القديمة في إيطاليا في ذلك الوقت .

ولقد نظر أهل العصر للتراث اليوناني نظرة جديدة ، تخالف نظرة أهل العصور الوسطى ؛ الذين كانوا قد نظروا إلى الفلسفة اليونانية نظرة دينية ؛ ويعرف أن أصحاب المذهب المدرسي Scolastic في العصور الوسطى نشروا فلسفة اليونان بما يناسب التفكير الديني ، وجعلوا الحياة على الأرض فترة مؤقتة لا قيمة لها ؛ وعلى العكس من ذلك نظر الناس في عهد النهضة نظرة جديدة للتراث اليوناني القديم ، وتقدم هذه الحركة الانسانيون الذين جعلوا الإنسان محور العلم والفن والأدب ؛ وكانوا يشبهون السفسطائيون ، في التاريخ اليوناني القديم ، وهم أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، وهدموا الموجود ، وتشككوا فيه ، وجعلوا الإنسان محور الوجود . وكذلك عمل الإنسانيون ، ونظروا للفلسفة اليونانية نظرة جديدة ، وفسروها على أساس أن الحياة على الأرض لها قيمتها ، بجانب الحياة الروحية . وكان الإنسانيون يحاضرون الناس ، ويتنقلون من بلد لآخر ، ونجحوا بثقافتهم في التأثير في المستمعين . وكان الإنساني خطيباً ودارساً ومعلماً ، وكان يخطب في الجند ، ويقوم بزيارات وسفارات بين الدول ، ويكتب رسائل سياسية ، ويخطب في الجماهير ، وإشتغلوا أساتذة في الجامعات ، ويندعاهم

للأمرام . وكان الأماهي يتقاطرون عليهم من كل جانب .
ولقد اعتمدت هذه الحركة على دراسة المخطوطات القديمة . وكانت
الأديرة والكنائس تضم أعداداً من المخطوطات . وزادت الرغبة في الإطلاع عليها
في إيطاليا ، والبحث عنها في البلاد المجاورة ، في سويسرا والإمارات الألمانية .
وأسهمت الأسر الكبيرة في المدن الإيطالية في تمويل البحث عن المخطوطات ،
وشراؤها وإقتنائها ، أو نسخها أن تعذر ذلك ؛ وأخذت هذه العملية شكل
منافسة بين هذه الأسر في هذا الميدان . واتجهت الأنظار إلى بيزنطة ، بحثاً عن
المخطوطات اليونانية القديمة ، ونشأت تجارة هامة في هذه المخطوطات ، قبل
سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين ، وسارت جنبا إلى جنب مع
حركة طلب العلم في القسطنطينية ، وجميـء عدد من علماء بيزنطة للتدريس أو للإقامة
في مدن إيطاليا ؛ وكانت كل منهما تسهل وتكمل عمل الأخرى ؛ وانتهى الأمر
بانتقال عدد كبير من المخطوطات اليونانية من القسطنطينية إلى المدن الإيطالية .
ولقد توتب على ذلك عملية نسخ المخطوطات والكتب ، وظهر في ذلك العصر
جيش من الفساخ ، وخاصة من الألمان ، عكفوا على نسخ الكتب القديمة ؛ وساعد
الأغنياء والأمراء والباباوات على نمو هذه الحركة .

ولقد تنافس الأمراء ، والأثرياء ، والمدن في إنشاء المكتبات التي ضمت
المخطوطات والكتب وبعض قطع الآثار وروائع الفن ، فزاد عددها في إيطاليا ،
وكان من أشهرها مكتبة البندقية ، ومكتبة فلورنسا ، ومكتبة الفاتيكان التي إهتم بها
البابا بانيقولا الخامس ، وجمع لها مجموعات ضخمة من المخطوطات والكتب .

وارتبطت بهذه الحركة نشأة المجامع العلمية ، والتي أسهمت في نشر
الدراسات اللاتينية واليونانية ، وكانت تشبه حلقات البحث ، التي تجمع الاساتذة
بعد المحاضرات مع طلاب العلم ، ويشترك فيها المجموع ، في نقاش علمي ، سواء أكان
ذلك في الفلسفة أو الأدب أو الفن . وانتشرت هذه المجامع في كثير من مدن

إيطاليا ، وازدهرت ، واشتهرت بكثرة المشتركين فيها ، وبخاصة في فلورنسا ،
نتيجة تشجيع أمراء أسرة مديتشي لها ، واستضافتهم لأعضائها في قصورهم ،
وكانت تميل إلى التخصص في الفلسفة اليونانية . أما أكاديمية روما فكانت أكثر
تخصصاً في التاريخ والآثار ، وكانت أكاديمية نابلي متخصصة في الآداب ، وأكاديمية
البندقية متخصصة في الدراسات اليونانية .

ولقد ارتبط بذلك أمر البحث عن الآثار ، والاهتمام بها ودراستها ،
والمكتابة عنها ، وزاد الاهتمام بالفن القديم .

كما زاد الاهتمام بالدراسات التاريخية ، وخاصة مع ازدياد ملكة النقد ،
 وظهور النقد العلمى التاريخى . ونتيجة لذلك قام لورنزو فاللا بإثبات بطلان دهبه
قسطنطين ، للبابوات ، وكان البابوات قد استندوا إليها في صراعهم مع الأباطرة ،
 لإثبات حقهم في السلطة الزمنية ، إذ أن هذه الهبة كانت تدعى أن قسطنطين منح
البابوات الحكم الزمنى في إيطاليا عندما نقل عاصمته إلى القسطنطينية . وظلت هذه
الفكرة مسيطرة طوال العصور الوسطى ، واستخدمها البابوات لإثبات إدعاءات
لهم . ولكن لورنزو فاللا أبان أن هذه المنحة لم تثبت تاريخياً ، فليست هناك أى
عملة بابوية تحمل ذكرى هذا الحادث الهام ، كما أنه لم يتوصل إلى وجود الوثيقة
الأصلية الأولى ، التى حدثت بمقتضاها هذا المنحة ، إن كانت قد حدثت ، وكان
كل ما وجدته هو بعض الكتابات التى تذكر هذه الهبة ، وهى مليئة بالأخطاء .
وهكذا أوصلت روح النقد التاريخى لورنزو فاللا إلى ثبات بطلان وتزوير
هذه الهبة .

ولقد أسهم عدده من البابوات في حركة إحياء الدراسات القديمة ، مثلهم في
ذلك مثل الأمراء والأغنياء . ونذكر منهم نيقولا الخامس الذى عين لورنزو فاللا
سكرتيراً له ، بعد أن أثبت بطلان دهبه قسطنطين ، ؛ وبيوس الثانى الذى عفى
بدراسة الآثار ، وبولي الثانى الذى عفى بجمع الماديات والتحف ، وليون العاشر ،

وكان من أسرة مدينتي، وهو الذي جعل البابوية أمانة تعيش في ترف وبذخ وتمتع.
وأخيراً ، فإن هناك الطباعة ، التي كانت خير معين على إنتشار الدراسات
الانسانية . وكان حنا جوتنبرج الألماني قد أدخل تحسينات على الطباعة ، ودخلت
الطباعة إلى إيطاليا سنة ١٤٦٥ ، قبل دخولها فرنسا وإنجلترا وإسبانيا . وكان
أصحاب المطابع رجالا مثقفين ، ومتعمقين في الدراسات القديمة ، والآداب
والنقد . وساعدت المطبعة على زيادة عدد الكتب المتداولة ، وفي إخراج جميل
متقن ، الأمر الذي سهل القراءة والإطلاع وتوسيع آفاق الفكر .

ولقد ارتبط كل ذلك بظاهرة إهتمام الناس بالمجد ، وعملهم على تخليد ذكرى
الأشخاص ، والإهتمام بكتابة ترجمات للشخصيات وإقتبس الناس من الدراسات
القديمة ، وإستمدوا منها عنصر الجمال لتغذية عقولهم ؛ ثم حاولوا أن ينافسوا
القدماء في آثارهم ، فأثر ذلك على عنصر الخلق والإبداع لديهم ، سواء أكان
ذلك في نطاق الأدب أو السياسة أو الفن .

وظلت اللغة اللاتينية هي لغة العلم ، ولكنها لم تعد هي لغة العلم الوحيدة ؛ إذ
وجدت إلى جوارها اللغات الأوروبية الحديثة ، التي شاركتها في نشي نواحي
التفكير الانساني ؛ وأصبحت اللغات الأوروبية خصبة وغنية ، وكسبت من
التراث القديم المرونة والقدرة على التعبير .

٤ - ظهور اللغات الحديثة :-

منذ عهد الدولة الرومانية القديمة ، وفي وقت إزدهار الأدب اللاتيني ، كانت
هناك لغة لائيقية عامة إلى جانب الفصحى ؛ ولم تكونا لغتين مستقلةتين ، بل كانتا
من أصل واحد . ومع مرور الزمن ، حافظ الأدباء والكتاب عل إختيار ألفاظهم
وأساليبهم ، بينما أهمل العامة الأسلوب ، وحتى قواعد النحو ؛ فزاد ظهور الاختلاف
بين اللغتين . وتأثرت لغة العامة بالألفاظ المحلية والإقليمية ، وزاد الاختلاف
والبوارق بين اللهجات العامة واللغة الفصحى ، حتى تطورت هذه اللهجات إلى

إلى لغة ثانية ، هي اللغة العامية ، التي أصبحت مستقلة عن اللغة الفصحى ،
وعندما اتسعت الدولة الرومانية القديمة ، وشملت مساحات واسعة من أوروبا ،
توغلّت اللاتينية العامية إلى جانب اللغة الفصحى بين الشعوب التي خضعت للحكم
الروماني ، واختلطت اللاتينية العامية باللهجات العامية لدى هذه الشعوب ، كما
اختلطت باللهجات البرابرة عندما أغاروا على أملاك الدولة الرومانية . ومن هذا
الخليط اشتقت اللغات المختلطة ، والتي تسمى اللغات الرومانسية ؛ والتي هي اللغات
الفرنسية والإسبانية والبرتغالية والرومانية والإيطالية ، وهي تعتبر على أنها لغات شقيقة .
ونلاحظ أن الأدب الإيطالي قد تأخر في ظهوره عن باقي الآداب الأوربية ،
وحتى عن تلك التي استخدمت لغات شقيقة ، خاصة وأن كل من فرنسا ، وحتى
إنجلترا ، كتبت أدباً خاصة بها منذ العصور الوسطى . وكان ذلك يرجع إلى أن
إيطاليا كانت هي مهد التراث اللاتيني القديم ، الأمر الذي إحتفظ به مرتبطة به ،
غير قادرة على التخلص منه ، على عكس المناطق الأخرى التي كانت اللغة اللاتينية
قد دخلتها مع غزوات الرومان . كما أن أحوال إيطاليا السياسية خلال العصور
الوسطى حرمها من الاتجاه إلى الأدب ، وأجبرها على الانصراف إلى الحياة
اليومية والعملية ، وفي ظل الكنيسة ، والدراسات التي كانت تشرف عليها ، دون
غيرها وأدى كل ذلك إلى تأخر ظهور الأدب ، وتبلور اللغة الإيطالية ، عن
غيرها من اللغات ، حتى الشقيقة .

ولقد مر تطور الأدب الإيطالي في مراحل مختلفة . ففي أثناء القرن الثالث
عشر دون الإيطاليون أشعارهم باللغة الفرنسية ، وكذلك باللغة الإيطالية العامية ،
متأثرين في ذلك بشعراء إقليم بروفانس ، في فرنسا . وكان ذلك يلقى قبولا من
الاهالي . وفي وسط إيطاليا ساعدت حركة القديس فرانيسكو على انتشار أناشيد
كتبت باللغة الإيطالية العامية . أما في جنوب إيطاليا فإن حكم الإمبراطور فردريك
ساعد كذلك على نشأة ومدرسة صقلية ، الذي كتب شعرها كذلك باللغة الإيطالية

العامية ، وإن كان يصف الشجاعة والفروسية ، ويتميز بالجفاف .
وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر نشأت في فلورنسا وبولونيا مدرسة
تسمى « المدرسة الانتقالية » ، أفادت من شعر صقلية ، ومن البيئة الجديدة ،
خاصة وأن لهجة توسكانيا كانت أقرب اللهجات إلى اللغة اللاتينية ؛ وعمل ذلك
على تنقية اللغة العامية السائدة في الجنوب ، من الكثير ، وعلى صقلها . وكانت
لمنطقة توسكانيا مكانة متفوقة في الفن والتجارة والسياسة ، فمالجت لغتها الكثير من
عناصر الفلسفة والأخلاق والدين والعلم . وسُمِّع هذه المدرسة ، منذ القرن
الثالث عشر ، عن معاني العاطفة ، مسع جويدو جينزيلي ، الذي كتب أشعاره
باللغة العامية ، في منطقة توسكانيا في وسط إيطاليا .

أما المرحلة الثالثة ، فهي مرحلة مدرسة الشعر العذب الحديث ، التي ظهرت
كذلك في منطقة توسكانيا ، ونشأت في فلورنسا ، وعبرت عن العواطف ؛ ولشهر
من كتابها جويدو كافالسكانتي Guido Cavalcanti وتشينو دابستويا
Cino Da Pistoia ثم برونطلاتيني Brunetto Latini والذي يعتبر شعره تمهيداً
للكوميديا المقدسة التي كتبها دانتي البيجيري . والمهم ، هو أن للكتابة في الأدب
والشعر قد إتجهت صوب الكتابة باللغة العامية الإيطالية ، متجهة في ذلك من
الشمال إلى الوسط والجنوب ، ثم إلى الوسط ، في توسكانيا من جديد . وكان ذلك
هو سطر ميلاد اللغة الإيطالية الحديثة ، كلغة قومية في شبه القارة الإيطالية ، التي
عملت اللغة والمواطن والمشاعر على توحيد أهلها أكثر من نظم الحكم في ذلك
الوقت . واستخلد اللغة الإيطالية بمقدمته للحضارة من تراث ، ومنذ ذلك الوقت .

٥ - الفنون الجميلة :

كما قام الإيطاليون بمجمود كبير ، وفعال ، في ميدان إحياء التراث القديم ،
نبغوا كذلك في ميدان الفنون الجميلة ، وأعطوا للإنسانية ثمرات فنية لها قيمتها
ووزنها ، بتلك الفنون التي ازدهرت بأيديهم ، في بلادهم ، ولانتشرت منها إلى
بقية أنحاء العالم .

ولقد جاء تحرر الفنان وفكره وشعوره ، لكي يححر الفن من أشكاله التقليدية ؛
وظهر ذلك في فن التصوير والنحت ، في إيطاليا ، ثم فن العمارة كذلك . وتحرر
الفن من تقاليد العصور الوسطى ، وإستوحى من الفن الروماني واليوناني في
العصور القديمة ؛ ورغم بقاء الروح المسيحية ، إلا أنها واهمت بين نفسها وبين
روح المجتمع الإيطالي الجديد . وتأثر الفن كذلك بالحياة العملية ، وسار من
الافتباس صوب الإبداع والابتكار ؛ كما تأثر بروح العلم ، ودراسة جسم الانسان ،
والتشريح ، ومن دراسة الهندسة اللازمة لفن المعمار . وكانت الظروف مواتية
أمام الفنانين ، وسمحت بتفوق الكثيرين من بينهم ؛ فكان هناك ذوق يتجه إلى
الجمال ، ويتذوقه ، ويحاول التعبير عنه ؛ وكان هناك جمال الطبيعة وصفاء الجو ؛
وكان هناك التشجيع والتعزيد بالمال من جانب الأغنياء والأمراء للفنانين ،
وتنافسهم فيما بينهم لجمع الفنانين حولهم ، مثل أسرة مديتشي في فلورنسا ، وأسرة
سفورتزا في ميلانو ، والبابوات في روما ، وأسرة أراجون في نابلي . وكان
الفنانون يحتمعون حولهم ، ويبنون لهم القصور والقلاع ، وأقاموا الحفلات ،
ورسموا الصور المختلفة . وانتشرت عادة جمع القطع الفنية والتحف بين الناس ،
لتزيين منازلهم ، وزاد إعجاب الأهل بالصور واللوحات التي كانت تزين
السكناس والقصور .

وكان فن التصوير مقيداً طوال العصور الوسطى ، ومقصوراً على موضوعات
خاصة ، دينية أو كنسية ، وكانت مقيدة في أشكالها ، وأوضاعها وحتى في ألوانها ،
وبشكل طمس كذلك شخصية الفنان . ولكن الأمر تطور مع النهضة ، وتحرر
الفنان وتمكن من رسم الطبيعة ، ومن التعبير عن مشاعره وإحساساته تجارها ،
وأفاد من دراسة جسم الانسان والتشريح ، ومن استخدام الألوان الزيتية
وتجسيئها ، واستخدام الفريسكو ، الأمر الذي جعل الصور واللوحات تعيش .
وأصبح الفنان يعطى انعكاساً لإحساساته وانطباعاته وحتى لما يدور في عقله وفي

نفسه ، في الصور التي يرسلها . ولم يهتم الفنان الموضوعات الدينية ، التي سادت في العصور الوسطى ، ولكنه قرب هذه الموضوعات من الحياة اليومية . وجعل صور العذراء والقديسين تمثل رجالا ونساء عاشوا في زمن الفنان ، وأصبحت صورهم تعبر عن الواقع وعن الحياة العملية .

ولقد بدأ التصوير في إيطاليا في القرن الرابع عشر ، وظهرت بعض مدارس التصوير في فلورنسا وسينينا ، وكانت صورها لا تزال تتميز بالجدوى أول الأمر ، رغم زيادة ظهور جمال الوجه والجسم وبالتدريج ازداد ظهور هذا الاتجاه الجديد ، وظهر بعض كبار المصورين ، ومن أشهرهم جيوتو (١٢٦٦ - ١٣٣٧) الذي كان مصورا ، ومهندسا معماريا ، ونحاتا . وكان يمثل بالذنبية للتصوير ، ما كان دأبى يمثله للأدب ؛ وكان صديقا لذاتى ، الذى أوحى له ببعض صورته . ولقد حسن وسائل التصوير الفنية ، وأدخل إلى الصور عناصر الاحساس والعاطفة وقوة التعبير . ومن أشهر الصور التى رسمها صورة المسيح وقد فارق الحياة ، ومريم العذراء تحمله وهى نجانية ، وحرله بعض القديسات والملائكة ، وقد إرتسمت علامات الحزن والأسى على وجوه الجميع . وهو الذى مهد الطريق لظهور عظماء المصورين مثل ، ليوناردو دافنشى ، وميشيل أنجيلو ، ورافايلاو . ثم ظهر جيل آخر من المصورين في القرن الخامس عشر ، وكان منهم ساندرو بوتيتشيللى (١٤٤٤ - ١٥١٠) الذى استطاع أن يوحده التماسق في الصورة ، واكتمال الجمال فيها ، لمنع تعبيرها عن الأسايس : وروسم العذراء تسير على العشب ممشوقة القوام ، ترتدى ثوبا مزينا بالورود ، وتحمل طفلا جميلا تبدو عليه الصحة ، وحولها الملائكة ، وكانهم جميعا يعيشون العصر الذى رسمت فيه اللوحة . وظهر كذلك ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci (١٤٥٢ - ١٥١٩) ، هو من عظماء رجال الفن في العالم ، وامتاز باتساع الثقافة وتعدد الملكات ، وكان مطلعا على العلم والطبيعة والكيمياء والميكانيكا كما كان موسيقيا وشاعرا ونحاتا .

ولقد إمتزج كل ذلك فى نفسه ، فزج العلم بالفن ، وبما أوحى به اليه الطبيعة . ومن أشهر آثاره الفنية صورة العشاء الربانى . . . وهى التى تصور المسيح وجوله الجواريون أمام مائدة عليها الخبز وأقداح الشراب ، ولما رسمت على وجه المسيح تعبيرات الألم . والإستكار للخيانة ، بينما إرسمت أحاسيس متباينة على وجه كل من الحواريين ، فمثل الألم ، والخوف ، والدهشة ، والاستنكار ، والجزع ، والإرادة ، والغضب . . . ومن أشهر صورة الجيو كوندادى وهى السيدة إيطاليا تدعى موناليزا جيزاردىنى وإستغرق رسم هذه اللوحة أربع سنوات . وظهرت فيها مفاتن هذه السيدة الوديمة الحسناء ، المحرومة من متعة الحياة ، بعد وفاة زوجها . ولقد خلط ذكى هذه السيدة برسمه صورتها .

أما ميشيل أنجيلو Michel Ange (١٤٧٥ — ١٥٦٤) ، فقد إشتهر كذلك بتعدد الثقافات ، واتساع الأفق والمعرفة . وبرع فى التصوير والنحت والهندسة ، ونظم الشعر ، وإشتهر بوفرة إنتاجه ، وتعدد الموضوعات التى عالجها ، والمستوى الرفيع الذى وصل اليه . . . وستود إليه من جديد عند الحديث عن النحت . أما فى التصوير ، فكانت تبدو فى صورة التعوض والخشية من العقاب ، التى وعد بها الآثمون ، وكانت صورة تصدر عن قلبه المتألم كصراخ ، أو أعتاف بما كان يعانى من الألم . وتميزت صورته بوضوح عضلات الجسم البارزة ، وبشكل له دلالة وتعبير .

أما رافائيل أو رافاييلو Raphael (١٤٨٣ — ١٥٢٠) ، فيمكن اعتباره أهم الفنانين الذين برعوا فى فن التصوير فى إيطاليا . ورغم أنه قد توفى وهو لا يزال شاباً ، إلا أنه أعطى من عبقريته ، وبشكل خلل بها العبقرية الفنية الإيطالية فى فن التصوير ، بما خلفه من آثار فنية رائعة . ولقد إمتازت فنه بالإنسجام والتوازن ، وبقوة الخلق والابتكار . ولقد إفتبس ، وتأثر ، وخلق ، وأبدع ، وبخاصة فى رسم الطبيعة . . . ومن أهم صورته عذراء الغرباندى ، نسبة إلى فرديناند الثالث ،

غراندوق توسكانيا ، الذى أغرم بهذه الصورة ، وكان يحملها معه فى تنقلاته .
والصورة تمثل السيدة العذراء ، فى شكل امرأة فلورنسية جميلة ، وديعة هادئة
طاهرة النفس ؛ تحمل طفلا جميلا ، فى صحة جيدة ، هو السيد المسيح . ومن
صوره كذلك صورة مدرسة أثينا ، الموجودة فى الفاتيكان . ورغم أن رفايللو
لم يقرأ كتابات أفلاطون وأرسطو ، إلا أنه عاش بين تلاميذه ، وتأثر بهم .
والصورة تمثل أفلاطون وأرسطو فى الوسط ؛ وأفلاطون يفسر ، ويرفع
إصبعه إلى السماء ، وهو شيخ ، وإلى جواره أرسطو الشاب ينظر إليه ويشير
بيده إلى الأمام وإلى الأرض ؛ دلالة على الاتجاه الفلسفى ؛ ويحمل فى يده كتاب
الأخلاق . وتشتمل الصورة على بطليموس يحمل الكرة الأرضية ، وفيثاغورث
يحمل لوحاً عليه بعض الأرقام . وكان رسم الصورة يستمد من عناصر الحياة
الموجودة فى وقت رفايللو وزمنه . ولا شك فى أن ليونارد دافنشى وميشيل
أنجيلو ورفايللو يشتركون معاً فى إعطاء النهضة فى إيطاليا ، وفى القرن السادس
عشر ، أمجاداً ستظل فى طليعة ما قدمه الفنان للإنسانية .

أما فن النحت فقد وصل إلى مستوى رفيع فى ذلك العصر ، ولقد تأثر بالفن
القديم خاصة وأن كثير من الآثار كانت لا تزال باقية ، وزاد الكشف عن كثير
منها . وتأثر الفنانون بهذا التراث ، وأخذوا منه ، ثم أبدعوا بعد ذلك فى
تحفهم الفنية .

ومن أشهر رجال النحت دوناتيلو Donatello (١٣٨٦ - ١٤٦٦) ،
الذى تميز بطبيعته الثائرة ، وبقوة الخلق . ومن آثاره فى النحت تمثال القديس
جيو فاني ، الموجود فى فلورنسا ، وهو جالس على مقعد ، وفى ملامح وجهه قوة
الشخصية ، وقوة التعبير ، وهو شكل مملوء بالحياة . ومن آثاره كذلك تمثال قائد
الجند البندقى جتاميلا ، وهو تمثال فارس على صهوة جواده ؛ والفارس رائع ،
والحصان رائع : الفارس تظهر عليه القوة والعزم والسلطة والحياة والنشاط ،

والحصان تظهر عليه القوة والرشاقة . ولا شك في أن دوناتللو قد مهد الطريق
أما ميشيل أنجيلو لم يكن ينحت بعد ذلك تمثال موسى .

واشتهر من رجال النحت في ذلك العصر لو كاديللا روبيا Luca della Robbia
(١٤٠٠ — ١٤٨٢) ومن أهم آثاره نحت تماثيل الأطفال من المرمر ، في برونز ،
وهم يغنون ويرقصون ويعزفون على الآلات الموسيقية ، وبشكل لم يضارعه فيه
أحد إلى مثل هذه الدرجة من الإبداع الفني .

وأما ميشيل أنجيلو Michel Angelo (١٤٧٥ — ١٥٦٤) ، فقد ذكرنا عند
حديثنا عن التصوير أنه كان متعدد الثقافات متسع الأفق . ولقد اكتشف نبوغه
لورنزو العظيم ، فقربه إليه ، وألحقه بمدرسة الفن التي أنشأها بإحدى حدائقه
بفلورنسا . ووصل ميشيل أنجيلو إلى مستوى رفيع في الفن ، وبخاصة في النحت ،
وعبر في تماثيله عن روح العصر الذي عاش فيه ، وإستمد من المعاني التي أحسها
بنفسه عناصر كثيرة ، وعبر عنها أصدق تعبير . فشكل الآمان والاحلام والحن
والمصاعب التي أحاطت بشخصه ووطنه ، ظهرت في آثاره الفنية ؛ وجعله ذلك
في حالة عصبية ، أعطت آثاره طابعا من الألم والقوة والجمال الرائع . ومن أهم
آثاره تمثال الشفقة Pitié ، في كنيسة القديس بطرس في روما ، يمثل المسيح في
أمه ، وبين ذراعيها ، بعد صلبه وعلى وجهه تعبيرات الألم ، والحزن واضح على
وجه العذراء ، رغم نضارتها وشبابها ، وكانت تتألم بدون دموع . وله تمثال
آخر شهير ، هو تمثال موسى الموجود في أحد كنائس روما . وهو تمثال يبرز
البصر ، رائع الجمال في تفاسيله وفي مجموعه وتناسقه ، وفي وضوح العضلات وقبضة
اليده ، وفي جمال اللحية وطولها ، وفي لفته رأسه ؛ وملامح وجهه ملامح القوة
والانفعال ، والغضب والألم ، لما حاق بشعبه من العذاب . وهو من أروع آيات
الفن في العالم ، إذ أنه تمثال كأنه حي ناطق معبر . ويقال أن ميشيل أنجيلو ، بعد
أن أنه ، صاح به أن ينطق ، ثم سقط مغشياً عليه .

وأما فن العمارة فإنه كان الفن الجليل الوحيد الذي لم يندثر خلال العصور الوسطى ، وظل قائماً ومزدهراً ، معتمداً على نهاذج من الفن القديم ، وبخاصة الفن الروماني في إيطاليا ، والفن البيزنطي في شرق البحر المتوسط ، كما أضاف العرب إليه الكثير ، وأبدعوا وتفتنوا فيه . أما بلاد الشمال وشمال غرب أوروبا ، فإنها شهدت الفن القوطي ، الذي تطور كذلك وعلى مراحل ، حتى وصل إلى القوطي الجديد أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، والذي إشتهر بدقته ورقته إلى حد بعيد ، كما يظهر ذلك في كثير من المنشآت والمكتائس الكبيرة . ولما جاءت النهضة ، انعكس ذلك على فن العمارة ، فأدخلت الخصائص والرسومات التي كان الاغريق القدماء يتبعونها . وظهر هذا التطور الكلاسيكي في أثناء القرن الخامس عشر ؛ ولازالت الكثير من مباني وعمائر فلورنسا والبندقية وروما في ذلك الوقت تشهد لهذا الفن ، حتى الآن .

• • •

وأخيراً فعلينا ألا ننسى أن النهضة الإيطالية ، بما بنيت عليه من حياة حرة ، وشخصيات متحررة ، نقدر الحياة ، وتبعد عن الجمود . تحت الجمال وتعشقه وتعبر عنه ، وتسعى إلى التمتع بالحياة الدنيوية ، كانت تمثل نمطاً جديداً يختلف عن انماط الحياة في العصور الوسطى . أنه عصر جديد ، برجال جدد ، جاء نتيجة لتغيرات عميقة في جذور المجتمع ، وإمكانيات إنتاجه ومعاملاته ، وتغيرات بالتالي في طريقة الحياة في المجتمع ، وطريقة التفكير ، والتعبير . وفي الوقت الذي ساد فيه الاهتمام باحياء التراث القديم ، وبالمخطوطات ؛ والكتب ، والجامع العلمية والجامعات ، كان هناك النفى السياسي ، والاضطرابات الاجتماعية ، ونمو الثروات ، والتمتع . وزاد إقبال الناس على السخرية والتهمك ، والتكيت ، والضحك والمرح . لقد كانت النهضة خروجاً على عادات وتقاليد وأخلاق العصور الوسطى ، من أساسها إلى أفرعها وفصولها ؛ لقد كانت حياة جديدة ، لعصر جديد .

الفصل الحادى عشر

بعض كبار شخصيات النهضة فى إيطاليا

لقد أغطت النهضة لإيطاليا ، مجموعة من الشخصيات العملاقة ، فى شتى ميادين الحياة العلمية والأدبية ، والإنسانية ورجال السياسة ؛ وبرزت هذه الشخصيات كأعلام كبيرة ، لا بالنسبة لإيطاليا وحدها ، بل بالنسبة للإنسانية جميعها ، وعلى مدار العصور . ونختار عدداً منها فى هذا الفصل ، ومن تخصصات مختلفة ، وإن جاز هذا التعبير ، أو تحت عنوان أكثر الميادين التى تركوا أثارهم عليها وضوحاً : فنختار فى الآداب دانتي أليجييري (١٢٦٥ - ١٣٢١) ؛ ومن الأمراء لورنزو العظيم (١٤٦٩ - ١٤٩٢) ؛ ومن بين الرهبان والحركات الدينية سافونا رولا (١٤٥٢ - ١٤٩٨) ؛ وفى ميدان السياسة مكيا فيلى (١٤٦٩ - ١٥٢٧) .

١ - الآداب : دانتي أليجييري :

كان دانتي أليجييري (١٢٦٥ - ١٣٢١) شاهداً كبيراً على نهاية عصر من العصور ، وعلى ميلاد عصر جديد .

وولد فى فلورنسا فى شهر مايو سنة ١٢٦٥ . من أسرة نبيلة ، وماتت أمه وهو طفل صغير ، ثم توفى والده وهو فى سن الثامنة عشر . وكانت أسرته قد قاست من إحتكاك كبار الملاك العقارين ، وإستغلالهم للبورجوازيين الجدد . الذين كانوا قد حضروا من الريف ، وأثروا بسرعة من الصناعات ومن التجارة . ودرس دانتي منذ حداثة التراث اللاتينى القديم ، وتردد على جامعتى بدوا وبولونيا ، ودرس بها الفلك والرياضة والفلسفة والمنطق وعلوم الدين ؛ وكذلك قرأ الشعر الذى وجد فى إيطاليا فى ذلك الوقت ؛. والذى كتب بالعامية الإيطالية . وكان دانتي معتزلاً بنفسه ، يميل إلى العزلة والسكون والبعد عن الناس . وسرعان ما ظهرت كفاءته كشاعر شاب ، من بين تلك المجموعة التى حاولت إدخال المزيد

من العواطف والحرية في فن التروبادور. وألمحه حبه لبيئاتريس الكثير من الأغاني التي تميزت برشافتها، والتي نشرها في سنة ١٢٩٥ في كتاب باسم «الحياة الجديدة»؛ فظهر كعالم شاعري، يظهر فجأة وعلى غير إ انتظار. وستكون كتابات دانتي، باللغة الإيطالية، من العوامل المهمة التي جعلت هذه اللغة تستقل بذاتها، خاصة وأن دانتي قد عبر بها عن مختلف الآراء والعواطف الانسانية.

وإشترك دانتي في الحوادث السياسية التي وقعت في فلورنسا في ذلك الوقت، فإشترك في الحرب بين فلورنسا وبيزا؛ ثم دخل سلك الوظائف، ثم أصبح عضواً في مجلس الشعب في فلورنسا، ثم أصبح بعد ذلك، وفي سنة ١٣٠٠، عضواً في السفنوريا، أو مجلس السادة، الذي يتكون من تسعة أشخاص، ويحكم فلورنسا. وكانت فلورنسا تعاني في ذلك الوقت من الصراع والمنافسة الحزبية؛ ووجد بها حزب «الجلف» البابوي الذي كان يميل إلى أن يسيطر البابا في إيطاليا وخارجها، وحزب «الجبليين» الإمبراطوري الذي كان يناصر الإمبراطور على إيطاليا. ثم انقسم حزب الجلف إلى فرعين متعادين: البييض، وهم وإن كانوا من الحزب البابوي، إلا أنهم كانوا يؤثرون الدفاع عن فلورنسا ضد التدخل البابوي؛ والسرد وكانوا من أنصار الخضوع، مع مدينتهم، لسلطة البابا. وكان دانتي من فرع البييض، وآثر مصلحة فلورنسا؛ ولكن البابا وحزبه لم يغفروا له ذلك، خاصة وأنه أصر على ضرورة عدم إرسال مائة فارس من فلورنسا إلى البابا، للاشتراك في قواته. وأرسلت فلورنسا وفداً إلى البابا، وكان من بين أعضائه دانتي، وتمت القطيعة بين الرجلين: دانتي يدافع عن كيان فلورنسا، رغم تدينه، والبابا يسعى إلى السيطرة الدنيوية على فلورنسا، وإلى ضمها لممتلكاته. وتمكن أنصار البابا من إحداث انقلاب في فلورنسا، سيطر فيه السود على الحكم، ونكروا بالبييض. وأصدروا حكماً ضد دانتي سنة ١٣٠٢ لإتهامه فيه بالنسق والعرقه، وإستغلال السلطه، وإبتزاز الأموال، وإستخدامها ضد البابوية؛ ثم حكموا

عليه بالنبي من فلورنسا . فبدأت حياة النبي والتشرد والغربة والفقر والحerman ،
وكان ذلك سبباً في إنصهار روحه أكثر وأكثر ، وفي ظهور نبوغه .

وتنقل دانتى في أنحاء إيطاليا ، وحين زار الامبراطور هنرى السابع إيطاليا
سنة ١٣١٠ قابلته دانتى وطلب إليه تحرير فلورنسا من نير حكم البابا ، وكتب
رسالة باللاتينية إلى أمراء إيطاليا وشعوبها ، ويدعوهم فيها إلى الانضمام إلى
الامبراطور ، ليخلصوا البلاد من طغيان البابا . ولكن أنصار البابا كانوا أقوياء ،
وتوفي الامبراطور سنة ١٣١٣ ، دون أن يتمكن من عمل شيء . ورفض دانتى
أن يعود إلى فلورنسا على أنه مخطئ يطلب العفو والغفران ؛ وإستقر في رافينا من
سنة ١٣١٣ إلى أن توفي بالملايا سنة ١٣٢١ .

ولم يفتد دانتى ، في أى وقت من الاوقات ، الأمل في نشأة نظام مسيحي في
المستقبل . وكتب دانتى جميعه قبل سنة ١٣١٢ ، والمطهر قبل سنة ١٣١٤ ؛
وكان حيثئذ قد أصبح من رجال العقيدة ؛ أما الفردوس ، وكتابه عن « الماسكية »
فإنها ترجع إلى الفترة الأخيرة من حياته .

ولقد عبر دانتى في كتابه عن « الماسكية » ، وهو الذى كتبه باللاتينية ، عن
آرائه السياسية ؛ ونادى فيه بضرورة وجود سلطة زمنية دنيوية ، وسلطة روحية
دينية . فيجب أن يحكم شعوب العالم إمبراطور ، ينظم العلاقات بين الحكومات
والمحكومين ، وبين الحكومات وبعضها ، دون إلغاء شخصية الشعوب ؛ وذلك
في نطاق إمبراطورية موحدة وكان دانتى لا يمانع في أن تكون روما هي عاصمة
هذه الامبراطورية ، ويعبذ أن يكون إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة
هو رأسها . وإشترط دانتى عدم تدخل السلطة الدينية ، أى سلطة الكنيسة ، في
الشئون الدنيوية والسياسية لهذه الامبراطورية ، حتى لا تفسدها ؛ وكان دانتى
متديناً ، ورأى أن تتفرغ الكنيسة والبابوية للمسائل الدينية ، من توضيح التعاليم
المسيحية ، والدعوة إلى الخلق القويم . أى أنه كان ينادى بالفصل التام بين السلطتين

الدينية والدينوية . ، وتفرغ الكنيسة لأساس رسالتها المسيحية . ، وكانت فكرة دائي التي ترمى إلى توحيد العالم تحت زعامة إمبراطور واحد ، هي فكرة العصور الوسطى ؛ فكأنه كان يعبر عن العصور الوسطى ، رغم أنه عاش فيما بين العصر الوسيط والعصر الحديث ،

ويرجع إلى مؤرخي الأديب الإيطالي أن يتبعوا ذلك التسكين البطيء لعبقرية دانتى ، منذ الأشمار الأولى والأغاني ، إلى نشر الحياة الجديدة ، وحتى تلك الرؤية الواضحة والقاهرة ، والتي يحتتم بها الكوميديا الإلهية . ويرجع إليهم كذلك أن يحاوا شخصيته ، وما عاناه ، وهي شخصية يصعب ترويضها ؛ تأثرت بالحب وبصراع الأحزاب ، وبالنفى ، وتأثرت بقراءات واسعة ، فشمت العصور القديمة ، والمسيحية ، وكذلك الإسلام ، بدون أدنى شك . ولقد ظل دانتى مختلصا لتقاليد القرن الثالث عشر ، باعتقاده في السلطة المزدوجة ، التي أعطاها الله لكي يسير المؤمنون في طريقى السلام ، والعبادة ؛ أما فكرته عن الله ، وعن العالم ، والرجال ، فقد ظلت هي فكرة مدارس العصور الوسطى ، التي قام بتلخيص فكرها . ولكنه أكمل ذلك باتجاه عقلاى عربى ، أخذه عن ابن رشد ، وأثر فيه ، وبشكل يضعه في مصاف كبار رجال العقيدة .

وتتقسم الكوميديا الإلهية إلى ثلاثة أجزاء : الجحيم ، والمطهر ، والفردوس ؛ وهي تضم مائة أنشودة . أربعاً وثلاثين للجحيم ، وثلاثاً وثلاثين لكل من المطهر والفردوس . ولقد أمضى دانتى ما يقرب من ثمانية عشر عاماً فى وضع الكوميديا الإلهية ، التي تعتبر موسوعة ، صب فيها شتى أنواع المعارف والسياسة بأسلوب شيق ، وإستعرض فيها المجتمع عبر العصور ؛ حتى يمكننا أن نقول بأنها الرؤية الدينية ، للقرن الثالث عشر . ومع ذلك ، ومن الناحية اللغوية والأدبية ، فإن دانتى ، بمكتباته الكوميديا الإلهية ، قد ساعد على خلق لغة جديدة ، هي اللغة الإيطالية الحديثة ، إذ أنه جعلها قادرة على التعبير عن كل الأمور والأحداث

الاحاميس ، فأثرى هذه اللغة العامية ، عن طريق تطويعها ، وجعلها لغة غنية ، رقيقة منجية . وساعد إنتشار وتداول الكوميديا الإلهية على أن يحذو غيره حذوه في الكتابة بهذه اللغة العامية ، التي أحسن إستخدامها ، فكانت نشأة اللغة الإيطالية الحديثة .

٢ - الامراء فلورنزو العظيم :

هو أمير من أشهر أمراء إيطاليا في عصر النهضة ، وهو من أسرة مدينتى ، وحكم فلورنسا في النصف الثانى من القرن الخامس (١٤٦٩ - ١٤٩٢) .
وفلورنسا ، حسب اسمها ، هى مدينة الزهور ، ولها مكانة واضحة في تاريخ إيطاليا ، وتاريخ أوربا ؛ فاعتبروا أنها أمينا عصر النهضة ؛ أو أمينا العصر الحديث . وهى مدينة جميلة ومليئة بالمناحف والآثار . ويمكننا أن نقول أن فلورنسا كانت أول دولة ، في التاريخ الحديث ، وإمتازت عقلية أهلها بعمق التفكير ، والبراعة في النقد ، والقدرة على الإبداع الفنى ، والدهاء في السياسة . وشهدت فلورنسا تجارب سياسية عنيفة ، مع صراعات وإنقلابات ، بشكل تميز عن بقية المدن الإيطالية ، كما شهدت نشأة نظم حكومية بها . أرقى من غيرها من المدن . وشهدت فلورنسا صراعاً بين الأحزاب الديمقراطية ، وبين اللاوليباركية ، وكانت بها مجموعات من رجال الطبقة الوسطى ، وتقابات الصناع وأصحاب الحرف . وكانت حكومتها في بعض الأوقات ديمقراطية ، وفي أوقات أخرى إستبدادية ، وفي غيرها دينية . ووصفها مكيافيللى ، بأنها تشبه الكائن الحى ، الذى ينمو نمواً طبيعياً . ولقد سيطرت العناصر الشعبية على الحكم في فلورنسا في أوائل القرن الثالث عشر ، ولكن الحكم الشعبى لم يستمر . وظهرت منافسة بين أسرتين من أسر النبلاء ، فازت فيها أسرة مدينتى . وعمل كوزيمو ، من أسرة مدينتى ، في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، على إرضاء الشعب ، وحقق فترة من الأمن والرخاء ، وإعنى بتنشيط التجارة ، وتشجيع

تحت
نفسه
حكم الملك
هى حكومة
تاريخها
جمهورية
فصلهم
التي

العلوم والفنون والآداب . ثم ظهر الأمير لورنزو العظيم ، من نفس الأسرة ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

وكان البابا قد حاول إضعاف فلورنسا ، وأعلن جرجان آل مديتشى من الغفران ؛ وإذ سمعت إيطاليا نتيجة لذلك إلى قسمين : الشمال وفيه البندقية وميلانو وفلورنسا ، والجنوب ويشتمل على البابوية ونابلى ؛ ونشبت الحرب ، ولكنها كانت فائتة ، نتيجة للانقسامات الموجودة داخل كل معسكر ، كما أن تهديد الأتراك العثمانيين لإيطاليا وأوروبا جاء عاملاً هاماً في إيقاف هذه الحرب . فاستتبّت الأمور للورنزو العظيم ، وأخذ يعمل من أجل الاستقرار ؛ وشجع رجال الآداب والفنون ؛ وشيد الكثير من المباني ؛ وإمتاز بمهارته وحسنه السياسية ، فجعل من فلورنسا مركزاً لحركة النهضة في إيطاليا وأوروبا على السواء .

ومن الناحية الشخصية إمتاز لورنزو العظيم بالذكاء وإتساع الأفق ، وكانت له جوانب متعددة ، وميول مختلفة ومتكاملة . وكان بسيطاً متواضعاً ، محتاطاً بالشعب ، ويتصل بالأهالى من كل الطبقات ، ودون أن يفرق بينهم ؛ وكان يجلس على مائدته الغنى والفقير على السواء . وجمع لورنزو الكثير من هذه الصفات التي تجعله محبوباً من الناس ، ومتفاعلاً بهم ومعهم ، وفي إحساساتهم وإنطباعاتهم . وكان على سجيته وطبيعته ، حين يشرف على إعداد بعض الحفلات ، وحين يدرس أحد المخطوطات التي ترد إليه من الشرق ، وحين يحادث أميراً أو سفيراً أو أحدهم رجال الفن ، أو رجلاً من عامة الشعب ، وحين يخرج للصيد ، أو لقضاء بعض الوقت في الريف ، أو عندما يجلس بين أولاده ، أو يكتب لهم قصة أو قطعة موسيقية يتسلون بعزفها . وكان في كل ذلك رجلاً طبيعياً ، يقوم بهذه الأعمال بشكل مألوف . وكان يوزع نشاطه بين هذه النواحي المتعددة . سواء الفن أو التمثيل أو الموسيقى أو قول الشعر ، أو دراسة المخطوطات القديمة ، أو عندما يكون أولاده وأصدقائه .

ولاشك في أن هذه الحياة البسيطة ، والضيقة ، والحرّة ، كانت لاتعجب
العناصر التقليدية . وأنصار الجود والتزمت ، أنصار أخلاقيات العصور الوسطى ،
بما تحمل من شكل سليم ، وتخفى تحت أستارها الكثير من المفاسد ، المختبئة ؛
فأتهموه بأنه قد شجع وحرض أهل فورنسا على الخروج على الشرف والتقاليد
وواعد الأخلاق والدين . ولم يكن لورنزو مسؤولاً عن سلوك أهل عصره ،
ولاعن حريتهم وتحررهم ، ذلك أن عوامل عميقة كانت هي الدافع المحرك في
تطور الانسانية من عصر إلى عصر ؛ ومن مرحلة إلى مرحلة أخرى . وكانت
روح العصر ، إن جاز هذا التعبير ، هي التي دعت الناس إلى الخروج ، على
تقاليد العصور الوسطى ، وإلى طريقة حياة العصر الحديث . ولم يعمل لورنزو
العزيز على تجريض أحد ، بل كان هو نفسه ، نتاج عصره بما فيه من تطور .
وكانت حياة لورنزو الخاصة أفضل بكثير من حياة الأمراء والملوك ، وحتى
الاساقفة والبابوات ، المعاصرين ؛ فلم تنسب له أولاد غير شرعيين ، على الأقل ؛
وكان محباً لأسرته ، ولأولاده ، ويسعد بهم ، ويسعد بهم ، ولكن بطريقة
جديدة ، حرة ، ومفتوحة ، وبدون نقاب .

وكان لورنزو شاعراً ، بفطرته ، يحب الطبيعة ، وذواقاً للجمال ؛ وإستوحى
الطبيعة والجمال ، كمادة لشعره الرقيق ، الذي وصف فيه الحياة في توسكانيا ، وجمال
طبيعتها وزهورها وطيورها ومراعيها ومزارعها ، وعبر عن كل ذلك بإحساس
قوى وشعور دقيق . وكان يقيم في إحدى ضواحي فورنسا ، لأنه كان يفضل
حياة الريف ؛ وكان يجمع حوله ، أو تجميع حوله ، مجموعة من رجال الشعر والفن
والادب ، يقرؤن أشعار القدماء ، من يونان ولاتين ، وكان لورنزو يقرأ
الأشعار القديمة ، كما كان يكتب شعره باللاتينية وبالإيطالية . وكان لورنزو
مليئاً بالتحدث عن ضرورة التمتع بحياة اليوم ، وتذوق الجمال ، في كل مظاهره .
ولقد أنفقت أسرة مدينتي أموالاً طائلة على تشجيع حركة العلوم والفنون

والآداب ، وأنفقت في ثلث قرن من سنة ١٤٣٤ إلى سنة ١٤٦٩ ما يعادل ثلاثة ملايين جنيه إسترليني على أرضاء نزعتهم في تشجيع حركة أحياء العلوم والفنون ؛ وكان لورنزو ينفق ما يقرب من سبعين ألف إسترليني سنوياً على نفس الغرض . وإعتاد أن يرسل بعثات خاصة للبحث عن الكتب والمخطوطات القديمة ، والآثار ، وبخاصة في الشرق ؛ وكون جيشاً من النساخ ، عكفوا على نسخ صور من المخطوطات والكتب النادرة ، حتى يعم استخدامها والإفادة منها . وأنشأ معاهد متنوعة ومختلفة للدراسات ؛ منها جامعة بيزا في سنة ١٤٧٢ ، وهي التي أصبحت من أشهر جامعات أوروبا . وتخصصت في الدراسات اللاتينية ، التي عثت بها . وإهتم لورنزو العظيم كذلك بدراسة التراث اليوناني القديم ، بجامعة فلورنسا ، وأنشأ في هذه المدينة أكاديمية لدراسة النيات ، أي النقود والأنواط والتراث اليوناني القديم . وإنتشرت هذه الدراسات من فلورنسا إلى بقية أنحاء إيطاليا ، ومنها إلى أوروبا ، التي أصبح طلابها وعلمائها يقدون من فرنسا وإنجلترا وألمانيا إلى فلورنسا للدراسة والبحث والتزود . ومع إهتمامه بالدراسات اللاتينية واليونانية القديمة ، لم يغفل لورنزو الإهتمام باللغة الإيطالية ؛ وكانت أشعاره باللغة الإيطالية صدى لأشعار بترارك . ودافع لورنزو عن لغة توسكانيا ، وأدرك قيمة العبقرية الإيطالية مسجلة فيما كتبه دانتي ، وبترارك ، وبوكاشيو .

وكان لورنزو العظيم ، مثله في ذلك مثل عدد كبير من أسرة مدينتي ، يشجع الفنون ، وكان نفسه مصوراً ، وكان يرسم بعض الصور التي تناسب بعض الحفلات التمثيلية ، كما كان يضع التصميمات التي يكملها الرسامون . وضاعف لورنزو من محتويات قصر آل مدينتي الفنية ، من روائع فن التصوير والنحت ، وجعله فريداً في نوعه في أوروبا . ونال معظم الفنانين ، الذين عاشوا عصر لورنزو العظيم ، قدراً من تشجيعه لهم ؛ ومنهم ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci ؛ أما فنانون الجيل التالي فكانوا لا يزالون عبياراً في ذلك الوقت ؛ وإختلعت كثير منهم

إلى مدرسة النحت التي أنشأها لورنزو في حديقة قصره ؛ وكانت للورنزو حاسة
إكتشاف العابرة من رجال الفن . فاكتشفت نبوغ ميشيل أنجيلو من حدائمه ،
وكان يعامله كأحد أفراد أسرته .

ومع إعطاء لورنزو العظيم كمثل ، لا يمكننا ألا أن نقول بأن أمراء إيطاليا ،
وأصحاب السلطة والثروة فيها ، كانوا عنصراً هاماً في حركة النهضة ، في ميادين
بعث التراث القديم ، وتشجيع الأدب الحديث ، وكذلك العلوم والفنون ؛ وأدى
ذلك إلى تقديم خدمة كبيرة تمخضت عن منصوبة في إعطاء تراث خالد للحضارة
في الأدب والفن .

٣ - الراهب الثائر : سافونا رولا :-

قام سافونا رولا (١٤٥٢ — ١٤٩٨) بحركة تعتبر حركة مضادة لما ساد
في بدء العصر الحديث ، وهي كرد فعل للنهضة ذاتها ، وتحتوى على عنصر الرجوع
للقديم ، ومحاولة فرض قواعد الدين والأخلاق ؛ فهي حركة دينية ، تعمل على
أساس أخلاقي ، للوصول إلى السلطة السياسية ، وتطبيق قواعد الدين والأخلاق
على المجتمع .

ولقد ولد سافونا رولا في فرارا ، وكان أبوه طبيبياً ؛ ولقد شعر منذ طفولته
بالوحدة والعزلة ، وكان سائطاً على المجتمع . وترك أسرته فجأة ودخل الدير في
بولونيا ، نتيجة لفساد المجتمع في نظره ؛ ثم ترك الدير ، بعد أن وجد فيه بعض
المفاسد كذلك ، ودرس في الجامعة وكان يعتقد أن الناس قد ابتعدوا عن الفضائل
وعن الخير ، وأخذ ينتقل بين المدن الإيطالية ، إلى أن دعا لورنزو العظيم إلى
الإقامة في فلورنسا ، وهو لا يعلم ما سيقوم به في المستقبل في هذه المدينة .

ولم تعجب أحوال فلورنسا ، في عهد لورنزو العظيم ، سافونا رولا ، فرأى
أنها مدينة تعيش في الترف والبذخ والثروة ، وأن النبلاء يتمتعون بحياة مادية
مترفة ، وأن الشعب يميل للزنا والمرح . ورأى سافونا رولا أن أبناء فلورنسا

لأيراعون قواعد الأخلاق والدين ، وأن حفلاتهم قد تأثرت بالروح الوثنية .
وأساء كل ذلك إلى سافونارولا ، كراهب متدين ومتعصب لأرائه ومبادئه .
وكانت روما كذلك تعيش في بذخ ، وخرجت على قواعد الدين والأخلاق
الصحيحة . أما من الناحية السياسية ، فإن سافونارولا قد رأى أن لورنزو
العظيم قد ركز السلطة في يده ، وأنه كان يحكم فلورنسا حكماً جمهورياً ، من الناحية
الاسمية فقط ، وأنه قد ركز السلطة في يديه على حساب الشعب . فأحس لورنزو
العظيم بخطر آراء سافونارولا ، وبدأ يخشاه ويراقبه .

وأعلن سافونارولا آراءه عن خطورة تجميع السلطة في يد الحاكم ، وإنقاذ
حياة المجتمع المترفة ، بقوة وصراحة وحماسة ، وأخذ على عاتقه معارضة سلطة
آل مديتشي ، وكذلك إصلاح المجتمع الفلورنسي طبقاً لقواعد الدين والأخلاق .
وأخذ يخطب في الناس ، داعياً إلى هذه المبادئ ، وكانت كلماته تتدفق ، وأنصت
الناس إليه وإنبهر بعضهم بفصاحته . وكان من بين سامعيه في ذلك الوقت ميكافيللي ،
إلا أنه لم يوافق على ما كان يقول . واعتقد سافونارولا أنه مرسل من الله ، في مهمة
مقدسة ، وأنه نبي يصرخ في الفيافي لتنوير عقول الناس ، وتطهير نفوسهم ،
 وإرجاعهم إلى أصول الدين .

وتولى بييرو السلطة بعد وفاة والده ، لورنزو العظيم ، وكان ضعيفاً ، فزادت
المعارضة ضد حكم آل مديتشي في فلورنسا ، وأسهم فيها سافونارولا بقسط
كبير . وزادت دعوة سافونارولا لقوة لإصلاح الكنيسة ، ليس فقط باعتبار
أنها نظام ديني فحسب ، بل باعتبار أنها أساس حياة كل المسيحيين ، وكان يقصد
تغيير حياة رجال الدين وسواكهم ، دون أي مساس بالعقيدة الكاثوليكية ، فكان
بذلك من بين المنادين بضرورة الإصلاح الديني . ومن ناحية ثانية تعرض
سافونارولا لقضايا إجتماعية : فهاجم الربا ، وتحدث عن عدم العدالة في جموع
الضرائب ، وظلم الفقراء وحماية الأغنياء ، وإنقاذ فساد الإدارة ، والشدة التي

يمارسها الحكام في المحافظة على سلطتهم ؛ ودافع عن حرية الأهالي ضد استبداد آل مديتشى . وقام من ناحية ثالثة بالتنبؤ بوقوع د الويل والشبور ، وعظائم الأمور ، كعقاب وتأديب لإيطاليا وفلورنسا . ولتطهيرها ، وإجبارها على التكفير عن خطاياها .

وقد وقع هذا الحادث العظيم بعد ذلك ، في شكل الغزو الفرنسى لشبه الجزيرة الإيطالية ، عند نهاية القرن الخامس عشر . وكانت إيطاليا منقسمة سياسياً على نفسها إلى وحدات سياسية كثيرة ، وكل وحدة منها ضعيفة عسكرياً ، رغم الثروات المالية الموجودة فيها وإيثاق نور النهضة في أرجائها ، الأمر الذى كان يسهل السيطرة عليها . فكانت هناك البندقية وميلان في الشمال ، وفلورنسا وأملاك البابا في الوسط . ونابلى في الجنوب . ووضع ضعف الأمير بييرو ، أمير فلورنسا في ذلك الوقت ، في أنه ترك التحالف مع ميلانو في الشمال ، للتعاون معها في صد الهجوم الفرنسى ، وأخذ يتآمر مع نابلى في الجنوب ضد ميلانو في الشمال ، وقت تقدم القوات الفرنسية في إيطاليا ، فسهل على فرنسا أمر الاستيلاء على ميلانو ، وأصبحت فلورنسا معرضة للغزو الفرنسى .

وقام سافونارولا ، وخطب الأهالي ، ودعاهم إلى التخلص من العيوب ، وطالبهم بالوحدة والتعاون والتآزر ، لدفع الخطر الأجنبي . وسار شعب فلورنسا ، حين شعر بآقترب خطر الغزو الفرنسى ، وفرو بييرو وآل مديتشى من المدينة . وكتب سافونارولا كلاً إلى شارل الثامن ، ملك فرنسا ، وذكر له أنه مرسل من الله لإنصاف المظلوم ، والإنقاذ من الظالم ، وللقضاء على الخطايا والآثام ؛ ونهه بأنه محرر لإيطاليا ورئيس الكنيسة . ثم دخل شارل الثامن فلورنسا ؛ بعد أن انفصلت عنها بيزا ، ودخلت في حماية الفرنسيين .

ثم قامت فلورنسا بعد ذلك بحركة إصلاح ، وكان سافونارولا هو الموجه لها . وكان يرى أن الإصلاح ينبغي أن يبدأ من الناحية الروحية ؛ إذ أن طهارة

النفوس ضرورية لإصلاح المجتمع والحكومة. وطبق سافونارولا قواعد الأخلاق والدين ، فنع تسكع السكرى في الشوارع ، ومنع المقامرة ، وأحرق أدوات الزينة وأوراق اللعب والصور الخليعة علناً في ميدان السينيوريا ؛ وألقى حفلات الكرنفال ، ولم تعد تسمع في فلورنسا أغاني لورنزو التي كانت تنغى بأغاني الشباب ، وتدعو إلى التمتع بالحياة قبل فوات الوقت ، وإستبدلت بأغاني وأناشيد لتمجيد المسيح . وازدحمت الكنائس بالأمهالي ، وتدفقت الأموال على أعمال البر والإحسان . ثم قام بعد ذلك بإعلان المسيح ملكاً على فلورنسا .

أما من الناحية السياسية ، فنجد أن فلورنسا وضعت في ذلك الوقت ، وبتوجيه من سافونارولا ، دستوراً جديداً . وكان الدستور في عهد أسرة مديتشى ينص على أن فلورنسا جمهورية ؛ تحكمها بعض المجالس القائمة على أساس نقابات الصناع والحرفيين ؛ أما السلطة التنفيذية فكانت في أيدي السينيوريا ، وهو مجلس يختار وعلى أساس عضوين عن كل حي من أحياء المدينة . وأراد سافونارولا أن يضع لفلورنسا دستوراً مسيحياً ، مقتبساً في نظامه من دستور البندقية ، وعلى أساس وجود مجلس يتكون من الأعضاء الصالحين للانتخاب ، والذين كانت أسرهم ، خلال أجيال ثلاثة ، لم تصدر عندها أى أحكام مخلة بالشرف ، وهذا المجلس ، هو الذى يشرف على اختيار أعضاء السينيوريا .

ولم يكن في وسع مثل هذه الحركة ، ومثل هذه الإصلاحات ، أن تستمر لفترة طويلة . فكان من الصعب إستمرار سيطرة سافونارولا الدينية ، وجعله مدينة فلورنسا مدينة مقدسة ، بالقوة ، خاصة وأن الروح الدينية كانت قد ضعفت في ذلك العصر ، الأمر الذى لم يكن يسمح بسيطرة قواعد الدين والأخلاق بنفس الطريقة التي كانت موجودة بها في العصور الوسطى . كما أن روح النهضة وتحررها ، كانت أقوى من أن تخضع لخمس سافونارولا الدينى ؛ وكانت أغاني لورنزو العظيم لا يزال صداها يتردد في آذان الناس . وسرعان ما مل شعب

فلورنسا ، الذى جارى تيار سافونا رولا مؤقتاً ، مع أغانيه وأناشيده الدينية ، هذا التيار الدينى ، وتطلع من جديد إلى أغاني لورتزو العظيم ، التى كانت تعبر عن أحاسيسه . كما أن تطرف سافونا رولا وتمصبه لمبادئه الدينية كانت من الأسس التى أدت إلى إنصراف الناس عنه . وأخيراً ، وليس آخراً ، فهناك فشل سافونا رولا فى الميدان السياسى ، الأمر الذى سهل القضاء على نفوذه الدينى ، وفشل الحركة كلها ؛ ذلك أنه كان قد إرتدى فى أحضان السياسة الفرنسية ، وأظهر عداً للبابا . وإعتقد أن ملك فرنسا سيصلح الكنيسة ، ويقر السلام فى إيطاليا . ولكن ملك فرنسا تفاهم مع البابا ، وصفى مشاكله معه . وهكذا ظلت الكنيسة بدون إصلاح ؛ كما أن شارل الثامن لم يرجع يتراف لفلورنسا . وكان هذا فشلاً ذريعاً لعملية الإختيار السياسى التى قام بها سافونا رولا .

وعلىنا ألا ننسى أن جماعات دينية أخرى ، مثل الفرنسيسكان ، ساءهم إستفحال نفوذ سافونا رولا ، فناهضوه . وكان هناك كذلك أنصار آل مديتشى ، الذين كان يهمهم عودة الأحوال إلى ما كانت عليه من قبل ، رغم الازن الدينى الموجود مع حركة سافونا رولا ، أو بسببه . وكان كبار التجار ورجال الأموال قد ساءهم إستفحال نفوذ سافونا رولا ؛ الذى زاد عليهم الضرائب . وقل من نشاطهم المالى والتجارى ، فاستأوا من هذا التعصب ، وقلة الخبرة فى الحياة العملية . وتجمعت كل هذه العوامل ، وإنتمت بإسقاطه ، والتضاء على حركته .

وإستدعى البابا سافونا رولا إلى روما ، وأمره بالكف عن الوعظ والخطابة فى الناس ؛ ولكنه لم يستمع لهذا الأمر ، وتحده ؛ فأصدر البابا قراراً بحرقه سنة ١٤٩٧ ، وتحده سافونا رولا كذلك . فزاد حق البابا عليه . وفى ذلك الوقت توفى شارل الثامن ، ملك فرنسا ، وخلفه لوى الثانى عشر ، الذى هدد بغزو إيطاليا . وضعف موقف السيفيوريا ، وخشيت من متابعة محافظتها على سافونا رولا ، والاختار تهدها من كل جانب . ووجدت حكومة فلورنسا

ضرورة إيقاف خطبه ومنعها ؛ ثم أمرت بالقبض عليه بشبهة النبوءة الكاذبة ،
والخيانة السياسية ، والعمل عل إلغاء الدستور . وتعلّبت عليه العناصر المعادية ،
وعذبوه . وقرروا شنقه في ميدان السيثيورياسنة ١٤٩٨ ؛ ثم أحرقت جثته ، في
نفس المكان الذي كان قد أحرق فيه أوراق اللعب والصور الخليفة ، وألقي رماد
جثته في نهر الأرنو .

٤ - السياسة : مكيا فيلي :

يعتبر مكيا فيلي هو المعبر عن الفكر السياسي ، وبالمفهوم الحديث ، عند مطلع
التاريخ الحديث ؛ وتمكن نتيجة لتجاربه التي مر بها ، من أن يكون آراءه ، ونظراته
السياسية ، عن الدولة ، ونظم الحكم ، وعن الحاكم في العصر الحديث .

ولقد ولد مكيا فيلي في فلورنسا ، في شهر مايو سنة ١٤٦٩ ، من عائلة نبيلة ،
وتلقى التعليم السائد في ذلك العصر : فتعلم اللغة اللاتينية ودرس الآثار الرومانية
واليونانية ، وكذلك التاريخ . وكان منذ شبابه يحب العيش السهل والتمتع بالحياة .
وكان حاضر الذهن ، قوى الملاحظة ، مقدراً لظروف الحياة الواقعية التي
عاش خلالها .

وحصل مكيا فيلي في سنة ١٤٩٨ على وظيفة سكرتارية حكومة فلورنسا ؛
وأصبح أحد مستشاري مجلس العشرة ، وكان من إختصاصه بحث المسائل المتعلقة
بالحرب ؛ وكان يبدى رأيه في هذه المسائل ، وقام بعمله بحماس وإخلاص .
وسمح له عمله بالقيام بعدة سفارات خارجية ؛ فسافر إلى فرنسا عدة مرات ،
وذهب إلى لوى الثاني عشر مرة لكي يطلب إليه مصادقة فلورنسا ، ثم عاد إليه من
جديد لكي يطلب إليه مساعدة خربية أمام تهديد البندقية لفلورنسا ، ثم مرة ثالثة
لمحاولة إصلاح العلاقات بين ملك فرنسا وبين البابا . وذهب إلى روما لمقابلة
البابا عندما طلب بعض الجنود من فلورنسا ؛ وسافر مرتين إلى فينيز بورجيا (إن
البابا) لكي يتعرف على نواياه ومشروعاته السياسية في إيطاليا ، وتجاه فلورنسا ،

وسافر كذلك وقابل الإمبراطور مكسميليان في منطقة التيرول ، لكي يشرف على نواياه ضد إيطاليا . وفي كل هذه السفارات ، لم يكن مكيافيللي مفوضاً لإجراء مفاوضات ، أو حتى محادثات رسمية ، تترتب عليها علاقات محدودة ، بل كان مجرد رسول أو مبعوث للتعرف على نوايا هؤلاء الملوك من الناحية السياسية . ولقد أفاد مكيافيللي بهذه السفريات ، فإتسع أفقه ، وزادت خبرته . وأدرك مواطن القوة والتقدم ؛ وخصوصاً التماسك السياسي ؛ ورأى ذلك بنوع خاص في فرنسا ، وقارن حال هذه البلاد بحالة إيطاليا ، التي كانت مفككة سياسياً ، وضعيفة حروبياً .

ولقد حاول مكيافيللي إدخال بعض التحسينات في فلورنسا ، خاصة وأنه أدرك خطورة الاعتماد على الجنود المرتزقة ، وعرف أهمية الجنود الوطنيين ، فأنشأ فرقاً مختارة من الجنود الوطنيين ، وأعدّها للحرب . وكانت فلورنسا تفكر في استرجاع مدينة بيزا بالقوة من الفرنسيين ، وفكرت في تحويل مجرى نهر الأرنو عن بيزا ، لإرغامها على الخضوع ؛ وأشرف مكيافيللي على هذا العمل ، وبدا المهندسون والعمال أشغال الحفر ، ولكن المشروع لم ينتج . ثم هبت عاصفة على فلورنسا ، غيرت من توازن القوى الموجود فيها والموجود حولها .

وكان البابا يرغب في إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا ، وكان على فلورنسا أن تختار بين صداقتها للبابا ، وصداقتها لفرنسا ، خليفتهما . ولقد إختارت فلورنسا التمسك بصداقتها لفرنسا ، وأوفدت مكيافيللي لإبلاغ لوى الثاني عشر بتمسك دولته بهذا التحالف من فرنسا . ثم اشتعلت الحرب بين البابا وفرنسا ؛ وتمكن الفرنسيون في أول الأمر من الانتصار على جنود البابا ؛ وحلفائه الإسبان سنة ١٥١٢ ، ولكن الفرنسيين اضطروا بعد ذلك إلى التقهقر بسرعة حين زحفت قوات البابوية ، وأخذت تستولى على المدن الإيطالية الواحدة بعد الأخرى . وتمكن البابا من إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا ، وإن كان قد أحل النفوذ الإسباني

محل نفوذهم في شبه الجزيرة . وصمم البابا على تحطيم جمهورية فلورنسا ، فإضطرت فلورنسا إلى ترك محالفة فرنسا ، والانضمام إلى البابوية وإلى إسبانيا . وطردت أميرة مدينتي مرة جديدة من فلورنسا ، وقررت السيفيوريا عزل مكيا فيللي من وظيفته ثم أمرت بنفيه . وفي منفاه ، أخذ مكيا فيللي في الكتابة والتأليف ، فوضع كتاب « الأمير » ، ثم « مقالات » ، وكتاباً عن « فن الحرب » ، وآخر عن تاريخ فلورنسا .

ولقد عرض مكيا فيللي خدماؤه على البابا ، كليمنت السابع ، الذي كلفه بإعداد خطة للدفاع عن فلورنسا . ولكن سرعان ما تطورت الأمور ، وهزمت فرنسا في معركة بافيا (١٥٢٥) التي أسر فيها ملكها فرانسوا الأول . وإضطرت البابا إلى مهادنة الامبراطور المنتصر شارل الخامس ؛ أو شريكه ، ووافق على دفع تعويض كبير . ولكن الجيش الامبراطوري هاجم روما ، وأجبر البابا على الهرب منها . وشهد مكيا فيللي عودة أسيرة مدينتي إلى فلورنسا ، بعد أن شاهد نهب روما ، وحاول من جديد أن يلتحق بخدمة حكومة فلورنسا ، ولكن وقته كان قد ولى ، ولم تقبل عروضه ، ومات سنة ١٥٢٧ .

ولقد ضمن مكيا فيللي آراؤه في السياسة والحكم وفي الدين والحرب في كتابيه: الأول « المقالات » ، والثاني هو كتاب « الأمير » . وذكر أنه من الضروري أن يكون منشئ الدولة ، وواضع نظمها وقوانينها ، حاكماً مستبداً بالسلطة ، إذ أن السلطة المطلقة ضرورية في وقت إنشاء الدولة ، فهذه السلطة المطلقة هي التي يمكنها أن تتغلب على المصاعب التي قد تواجه الأمير أو الحاكم ، في دور نشأة الدولة ، ووضع نظمها الأساسية . وبحث في كتاب الأمير أنواع الامارات أو الدول ، وكيفية نشأة الدول ، وإستقرارها ، ثم زوالها ، وأسباب كل ذلك ، وذكر أمثلة من التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى . وبحث في هذين السكتين الوسائل اللازمة لإنشاء الدولة ، والوسائل التي يجب على الحاكم

إلتزامها لضمان استقرار الدولة ونموها .

ويرى مكيا فيللي أن تكون الدولة مهيمنة ، وتوضع مصلحتها فوق كل الاعتبارات ؛ ومصلحة الدولة مرتبطة كل الارتباط بمصلحة الشعب ، ومصلحة الشعب مرتبطة كل الارتباط بمصلحة الدولة . ولذلك ، فإنه من حق الدولة ، أن تفعل ما لا يستطيع أن يقوم به الأفراد ، حتى تحتفظ بقوتها . فمن حق الدولة ، لكي تحقق مصلحتها ، أى مصلحة الشعب كله ، أن تقوم بما لا يتاح للفرد الواحد بمفرده أن يقوم به . فلا بد إذن من سلطة قوية تدير مصلحة الدولة ، ومن أن يكون لها حرية العمل والتصرف حسبما تقتضى الضرورة والظروف . وهكذا يبيح للحاكم أن يلجأ للقسوة ، والغدر ، والخيانة ، وعدم التمسك بالعهود والقوانين ، وبمخالفة قواعد الأخلاق والدين ، لأن الغاية فى نظره مبرر الواسطة ؛ وذلك لكي يصل إلى الغاية التى يهدف إليها .

ولقد حاول البعض أن ينظر إلى مكيا فيللي على أنه يهدم كل القيم والموازين ، ونظر إليه آخرون على أساس أنه لا أخلاق . ولكن علينا ألا نفصل النصوص التى رأها ونصح بها ، عن موضوع حديثة ؛ ما دام يتحدث عن ظروف الحاكم ، وعن مصلحة الدولة ، التى تمثل مجموع مصالح الأهالى . وهكذا لم ينصح مكيا فيللي باتخاذ أى فرد ، لأى وسائل ، والوصول منها إلى أية أهداف . فليس القتل وسيلة ، الوصول إلى القتل ، ولا للإنتقام ، أو إشباع رغبة الحاكم . وما دام الهدف هو مصلحة الدولة ، وبالتالي الشعب ، فلا ينظر أحد إلى الوسائل التى يتخذها الحاكم مهما اشتعلت على قسوة ، ومخالفة للأخلاق والتقاليد ، والعرف ، وحتى إذا ما وصلت إلى الغدر .

وكانت ظروف إيطاليا فى ذلك الوقت مليئة بالفوضى السياسية ، والغدر والدسائس ، ومخالفة قواعد الأخلاق ؛ وكانت محاربة الشر بالشر ، من أجل الوصول إلى حياة هادئة مستقرة فكرة لها قيمتها . فإذا كان هناك زعيم ثائر ، يهدد

بقيام حرب أهلية يروح فيها الكثير من الضحايا ، يسمح للحاكم بقتل هذا الزعيم ؛ وبهذا القتل يخلص شعبه من أهوال حرب أهلية ، إذا ما بقي هذا الزعيم .
ويتحدث مكيا فيللي عن حفظ العهود ، ويقول أنه إذا كان إحترام العهد ينزل
أضراراً بمصلحة الدولة ، فيمكن للحاكم ألا يتقيد به ، ويشرح كيف أن الكثيرين
من الناس منافقين وجشعين وناكرين للجميل ، يظهرون الولاء للشخص صاحب
السلطة ، ولكنهم سرعان ما ينفضوا من حوله إذا ما زالت سلطته . وإذا كانت
هذه هي أخلاق الكثير من الناس ، فما الداعي لتمسك الحاكم بوعوده ، ويلحق
بحكومته الأضرار ؟

ولم ينكر مكيا فيللي الفضائل ومبادئ الرحمة ، وذكر الكلمة الطيبة والفضائل
قد تؤدي إلى النفع أكثر من الشدة . ونصح الأمير بأن يكون مثالا للرحمة والتدين ،
وأن يكون مثالا للقوة والحزم ، إذ أن الناس يحكمون غالباً بالمظاهر ؛ والأمير
الذي يكون حازماً متديناً رحيماً يكون أبعد من التعرض للمؤاخذة ، وللعن
الداخلية ؛ فيجنب بذلك الدولة والشعب أخطاراً كثيرة .

ولقد اعتقد البعض أن مكيا فيللي من أنصار الاستبداد والحكم المطلق .
ولكن مكيا فيللي كان يفضل الاستبداد والسلطة المطلقة وقت نشأة الدولة ، وفي
وقت الفوضى السياسية ، فقط . وكان يعتقد أن السلطة المطلقة هي الوحيدة التي
تستطيع أن تقضي على الفوضى الداخلية ، وتخرج من حالة الفوضى والإضطراب
إلى حالة السلم والإستقرار . ولكن على الحكومة ، بعد أن تنتهي حالة الفوضى ،
أن تتخذ نظام الحكم الديمقراطي الجمهوري . لأن الحكومة الديمقراطية ، التي
تشارك عناصر مختلفة في إدارتها ، تكون أقوى على البقاء ، وعلى الإستقرار ؛ كما
أن تقارب الآراء المختلفة ، وإشتراك العقليات المتنوعة في دولة ما ، كتميل بإعطاء
هذه الدولة الحياة المستقرة الناجحة ؛ وهذا النوع من الحكم يعطي الفرصة للتغيير
والتطور ، وملاءمة سيرة الزمن ، إذ أن المجموعة الديمقراطية تكون أفقر على

فهم حاجات المجتمع الذي تحكمه ، وتستطيع بتذوقها أن تحدث التغير الملائم ، وهذا على العكس من الحاكم الفردى المستبد ، الذى مهما قيل فى صلاحيته وعدالته ، يعجز فى الغالب عن إدراك ما تتطلبه حياة المجتمع المتغيرة ، فالنظام الجمهورى الديمقراطى هو إذن المثل الأعلى عند مكيا فيلى ؛ أما النظام الفردى الاستبدادى المطلق ، فإنه لم يفضل له إلا فى وقت نشأة الدولة ، وفى وقت الفوضى السياسية .

ولقد تكلم مكيا فيلى فى كتاب الأمير كثيراً عن قيصر بورجيا ، وهو ابن غير شرعى للبابا إسكندر السادس ، وإعتبره الأمير المثالى . وقال عنه أنه أمير بارع ، مهاب ومحترم ، وغير مكروه من الرعية ، ومطاع من الجند ؛ وكان بارداً ، كفتاً ، صامتاً ، لا أصدقاء له ، ولا حب له . وكثيراً ما كان يحجب شوارع روما متنكراً ، لتفقد أحوال الرعية . وكان قيصر بورجيا قد سيطر على إقليم رومانيا ، واستطاع بالقوة والعزم والحزم والشدة أن يعيد إليه النظام والأمن . وكان يقسوته وشدته رجلاً رحيماً ، إذ أنه وضع الإقليم قوانين صالحة ، وعنى بالصناعات ، وخفض الضرائب على التجارة ، مع فلورنسا والبندقية ، وشغل العاطلين ، ومنع نهب القضاة للمبتخاضمين ، وخصص أموالاً للضرائب لإصلاح الكثير من الأماكن التى خربت وهدمتها الحروب . وكان فى أوقات المجاعات يوزع القمح على الأهل ، ويعطى المحتاجين ، فأحبه الشعب وقدر أعماله ، ونظر إلى شدته على أنها رحمة .

ونظر مكيا فيلى إلى الدين المسيحى ، على أنه يحض ، على الشجاعة والصبر ، ولست أكنها ليست شجاعة الفضل الإيجابى ، بل الشجاعة التى تجعل صاحبها قادراً على تحمل الآلام والتعذيب ؛ وتمجد المسيحية الضعفاء وترفع من شأنهم ضد ظلم الأقوياء ؛ وتصرف البشر عن الحياة الدنيا ، وتقودهم إلى الحياة الأخرى . وكان من الضرورى ، من أجل وجود المواطن ، أن يقبل الناس على العمل ، والنشاط

على الأرض ؛ وأن تكون الشجاعة هي المثابرة على العمل ، وإحترام القوة ، وفي هذه الحياة ، لا في الحياة الآخرة . هكذا إمتد فكر مكيا فيلي من تعاليم الكنيسة في العصور الوسطى ، إلى تعاليم ما قبل المسيحية ، تعاليم روما وأثينا القديمة ، حتى وإن كانت وثنية . وقال إن على الفرد ألا يستسلم ويتراجع أمام العقبات ، بل عليه أن يكافح ويناضل لكي يتغلب عليها . ونظر إلى الدين على أنه أداة هامة في أيدي الحكومة ، يمكنها من أن تجعل الرعية تقدر سلطة الحاكم ، وتشد في نفس الوقت عن عزيمة أفراد الشعب .

ولقد أدرك مكيا فيلي تماماً أهمية القوة الحربية للدولة ، وضرر إستخدام الجنود المرتزقة ، لأنهم لا يقاتلون بحماس ، ولا يدافعون عن المصلحة ؛ فرأى ضرورة إنشاء قوة من الوطنيين المدربين ؛ وأنشأ ، حين كان من المسؤولين في فلورنسا ، مجموعة من الجنود الوطنيين ، وعنى بإختيار الجنود والقواد كما عنى بتدريبهم ، وزود المشاة برماح طويلة ، للدفاع عن أنفسهم ضد الفرسان . وعنى بالمشاة أكثر من عنايته بالفرسان ، ولم يقدر أهمية الأسلحة النارية التي كانت قد ظهرت في ذلك الوقت . ولقد كتب آراءه الخاصة بهذا الميدان في كتابه عن دفاع الحرب ، ، وشرح فيه فنون الحرب ، وتنظيم المعسكرات ، وإختيار أماكنها ، وطرق تدريب الجند ، ومنعهم من شرب الخمر . وكان يرى أن الاجتديّة يجب ألا تكون مهنة أو حرفة ، بل تكون واجباً يفرض على كل قادر على حمل السلاح . ويتم جمع الجيش حين تتعرض الدولة لخطر ، أو عند الضرورة الحربية . وإذا زالت هذه الضرورة أو ذلك الخطر ، ينصرف المحاربون إلى مهنتهم وأعمالهم المعتادة .

ورأى مكيا فيلي أن الدولة تحتاج إلى المال ، حتى تكون قوية ، ويجب أن تكون الدولة غنية حتى تقدر على تحقيق مصالح الشعب . ولكنه رأى افضلية أن يكون الشعب فقيراً ، إذا أن الفقر يحفزهم إلى العمل ، وإلى الإنتاج . واعتبر أن

أكبر أعداء الدولة هم من يعيشون على أرباح ثرواتهم ، دون أن يؤدوا عملاً ،
كالتيجارة والصناعة . وكان يرى ، بالتالى ، ضرورة إلغاء طبقة النبلاء لأنها طبقة
كسولة ، غير منتجة . ودعا مكيا فيللى إلى الاعتدال فى المصروفات العامة ، حتى
تستطيع الدولة أن تحقق أكبر نفع للشعب ؛ كما دعا إلى ضرورة تنمية وجوه
الإيراد والثروة ، بالعمل ، وعارض الضرائب المرتفعة التى ترفع الشعب . وكان
المال مهماً لتجهيز الجنود ، والدفاع عن الدول .

ولقد عبر مكيا فيللى أصدق تعبير عن الظروف والفترة الزمنية والمجانية التى
عاشها ، واستمد آراءه من البيئة التى وجد فيها ، وبحث فى السياسة كعالم واقعى ،
لا كرجل أخلاق .

الفصل الثاني عشر

النهضة في بقية أنحاء أوروبا

لقد إنشئ نور النهضة ، تاريخياً ، أول ما إنشئ في شبه الجزيرة الإيطالية ، ورجع ذلك إلى ظروف وأسباب ، جغرافية ، وإقتصادية ، واجتماعية ، ومعنوية ، كما شرحنا في الفصول السابقة . وكان لهذه الحركة مظاهرها وخصائصها . وعملت أو دلت ، على تغيير طريقة الحياة ، وطريقة التفكير ، وتذوق الفنون ، وحتى طريقة خلقها له . وكانت حركة نهضة مظهراً هاماً لتحول حياة البشر ، والانسان ، عبر العصور التاريخية . وكان من الطبيعي أن يستمر ظهور هذه الظاهرة ، في بقية أنحاء أوروبا ، وفي توافق مع العوامل الإقليمية ، إن جاز هذا التعبير ، وقت ظهور وتطور الملكيات الحديثة ، كظاهرة نهضة ، توأم بين نفسها وبين الظروف المادية والمعنوية الموجودة ، وتظهر في المجالات التي يمكنها أن تظهر فيها ؛ وبالتالي أن تأخذ أشكالاً مختلفة ، ومظاهر معينة ، في كل إقليم من الأقاليم . ولكن علينا أن نقرر أنه رغم هذه الأشكال المختلفة من إقاييم لآخر ، لحركة النهضة في أوروبا ، أو هذه الظواهر المتباينة ، فإنها كانت جميعاً ترجع إلى نفس الأسباب ، ونفس الأصول ، المادية والمعنوية المتاحة ، لكي تستر في حركة إنسانية متكاملة .

١ - روح النهضة الإيطالية :

لقد كان من الطبيعي أن تبدأ النهضة الأوروبية من إيطاليا ، بآثارها ، وموقعها الجغرافي ، وإتصالها بين نقطة ، ونتيجة لإتصالات تجارها ، وعملهم في البحر المتوسط والبحر الأسود والشرق الأدنى . وكان من الطبيعي أن يصل هذا التأثير إلى بقية أنحاء أوروبا ، نتيجة لإتصال تجارها بكل هذه المناطق ، والتعامل معها ، ثم نتيجة لجذب هذه الحركة لعدد من المريدین والمهجهين ، الذين وجدوا لديهم الوقت

للتزود من مناهل هذه الحركة الانسانية ، والثقافية والحضارية ، وكنتيجة
لسماح ظروفهم لهم بالسير في هذا الاتجاه . كما أن عدداً من الفنانين الإيطاليين ،
والانسانيين ، والمتحمسين في الدراسات الانسانية ، إنتشروا في أرجاء أوروبا ،
وخاصة الوسطى والغربية وتركوا لهم آثاراً هناك .

ويمكننا أن نستشهد في نطاق الفنون الجميلة والنحت ، بالفنان تورييجيانو
Torregiano الفلورنسي ، الذي أنفق الجزء الأخيرة من حياته في إنجلترا وإسبانيا ،
وصمم في إنجلترا مقبرة وستمنستر ، وصمم في إسبيلية تمثال العذراء . وإذا كان
من الانجليز من لم تسنح لهم فرصة القيام برحلة إلى إيطاليا ، يشاهدون أثناءهما
تمثالاً من نحت دوناتلو أو ميشيل آنجيلو ، فانهم يستطيعون تذوق نفس الشيء
من زيارتهم لكنيسة وستمنستر ، حيث يستحوذ على إعجابهم قبر هنري الثامن ،
الذي صممه . وسيدودفن العبارة الإيطالية ، بأسمه الكلاسيكية ، جميع ربوع
أوروبا ، وبخاصة معظم كنائسها ، أثناء القرن السابع عشر . وقبل ذلك ، وأثناء
القرن السادس عشر ، كان الإيطاليون يبنون كنيسة القديس بطرس الجديدة في
روما ، وإمتد طراز عمارة النهضة من روما وغيرها إلى بقية أنحاء أوروبا ، وشجع
الملوك والأمراء على تطبيقه ، قبل رجال الكنيسة . فتغيرت حصونهم السابقة ،
أثناء القرن السادس عشر ، إلى قصور خلوية ، وخارج المدن ، تمشي مع المتعة
والتمتع بالحياة وبالطبيعة ، أكثر من مسايرتها لضرورات الدفاع والتحصن .
وهكذا بنيت قصور فونتينو ، وإيزاي ، وهاتفيلد ونول ، لتدل على بداية حياة
جديدة ، لها أسلوبها وطعمها المختلف عن الماضي . وهكذا حلت القصور محل
قلع الأمراء والنبلاء الاقطاعيين ، وحل حب المتعة والرفاهية محل الخوف من
المهاجمين ، وإستخدام وسائل التحصن والدفاع ، أمام المهاجمين .

أما في مجال الأدب والدراسات الانسانية ، فما ذكر النقاد عن الانسانيين
الإيطاليين ، وأنهم أقدم إستندوا إلى السطحية والضحالة ، فلاشك في أنهم هم الذين

مهدوا الطريق لاكتشاف المعنى الحقيقي لجمال العالم القديم ، في إيطاليا ، وفي بقية أنحاء أوروبا ، التي عرفت أفلاطون ، من جديد ، بفضل الحركة الإنسانية التي ظهرت في إيطاليا . وكان هذا يمهّد الطريق للمستقبل ، وللشكر ، والمعرفة ، بالنسبة للإنسانية .

ورغم أن أمراء أوروبا كانوا يرغبون في أن يصلوا إلى ما قام به أمراء إيطاليا ، من جمع المخطوطات ، وبناء وإنشاء المجموع العلمية ، وتشجيع حركات البحث والنقاش ، والأدب والشعر والفن ، إلا أنهم ، في غالبيتهم ، لم يوافقوا على الطريقة التي تحول بها البابوات إلى حكام علمانيين ، يوسعون ممتلكاتهم على حساب جيرانهم . وزاد ظهور ذلك لدى « المثقفين » ، وكانوا أصلاً من رجال الدراسات الدينية ، الذي أكدوا ثقافتهم بدراسات إنسانية . وكان الخطر العثماني واضحاً على البلقان ، وعلى شبه الجزيرة الإيطالية ، وبخاصة على ممتلكات البندقية ، وحتى على أقصى جنوب شبه الجزيرة . وكان إنصراف عدد من البابوات ، إلى مسايرة ومنافسة أمراء إيطاليا في طرق وأساليب حياة النهضة ، مع إنصرافهم ، وقلة فاعليتهم في ميدان الحياة المسيحية ، مثيراً للسخط عليهم ، وبدرجة تفوق خارج إيطاليا ، ما كانت عليه في شبه الجزيرة الإيطالية .

كما أن تطور الأمور في إيطاليا ، أدى إلى تغيرات سياسية لها قيمتها ، بين الأمراء ، فبعد استيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وافق أبناء البندقية على عقد صلح معها العام التالي ، استمر حتى سنة ١٤٦٣ ، حين وقع صراع بينها ، خرجت منه البندقية وقد فقدت سواحل دلماشيا والمورة ، وأجبرت على دفع جزية سنوية للسلطان . ولقد حاول نبلاء البندقية وأبناء أرستقراطيتها تعويض ذلك على حساب ميلانو وفرارا ونابلي ، وأدى ذلك إلى إثارة أطباع فرنسا ، بالتالي ، ضد البندقية . ومع ذلك فلا يمكننا أن نتناسى أن البندقية أتمت بناء كنيسة القديس مرقس في سنة ١٤٨٤ ، وأنها جاءت مثلاً حياً للفن .

البينزنطى ، بعد وقوع بينرطة فى أيدى العثمانيين ؛ وجاءت نصباً أصيلاً شاعراً
للفن البينزنطى ، وذكرى لأجداد بينرطة . وكانت البندقية هى المدينة التى تبنت
الطباعة الحديثة قبل غيرها ، وعملت بذلك على نشر التراث الإنسانى القديم ، فى
إيطاليا وغيرها ، وبشكل دفع بالطباعة إلى الأمام ، وكانت الطباعة من أهم وسائل
إنتشار النهضة فى أوروبا .

وكانت إيطاليا هى التى بدأ منها إنتشار رقة المشاعر ، الذى بلغ حتى حد
إقفال الحوانيت فى المدن لسماع أحد الشعراء يروى أشعاره . ولقد إنتشر ذلك
من إيطاليا إلى غيرها من الأقاليم والدول الأوروبية ، والى كان النبلاء فيها لا يزالون
يشمتعون بالغلظة والشدة ، كما كان عليه الحال فى فرنسا ، التى لم يتغير نبلاؤها إلا
نتيجة تأثيرهم بالنهضة ، وفى عهد فرانسوا الأول . وهكذا تأثرت الارستقراطيات
المحاربة ، فيما وراء الألب ، بهذه المواهب الإيطالية ، وهذه الطريقة الجديدة للحياة .
وتأثرت أوروبا بكتاب مكيا فيلى ، « الأمير » ، كما تأثرت بكتاب كاستيليونى ،
« رجل البلاط » ، ولقد نصح المؤلف الثانى بأن يكون رجل البلاط ، علاوة على
كونه سياسياً ، رجلاً مثقفاً ، ومدرّباً عسكرياً ورياضياً ، مع إلمامه بالرسم والفرن
والموسيقى . ولقد ترجم هذا الكتاب الأخير إلى لغات عديدة ، وأصبح دستوراً
لرجل الدولة ، والدبلوماسى ، عبر عصور طويلة .

وعلىنا أن نذكر أن النهضة لم تؤثر فى البلقان ، ولا فى الدولة العثمانية التى
سيطرت عليه فى ذلك الوقت ؛ كما أنها لم تؤثر فى روسيا ؛ وذلك رغم رسم أحد
البشادقة لصورة للسلطان محمد الفاتح ، وضمت فى قصر السلطان ، ورغم بناء الروس
للكرملين فى موسكو ، وأخذهم بخطوطه من ميلانو . فكانت هذه المناطق لا تستجيب ،
ولأسباب عميقة ، لحركة النهضة الأوروبية .

ومنذ ذلك الوقت ، ونتيجة لإنتشار روح النهضة من إيطاليا إلى بقية أنحاء
أوروبا ، أصبح العالم أكثر إهتماماً بفرنسا ، وشعر إنجلترا ومصر خيانتها الدرامية ،

وموسيقى ألمانيا ، منه بكل ما إشتملت عليه البندقية وفلورنسا من آثار وفنون .

٣ - النهضة في فرنسا :

مرت فرنسا ، في الوقت الذي ظهرت فيه النهضة في إيطاليا ، وبفترة صعبة في تاريخها ، بعد الحروب الطويلة ضد إنجلترا ، وما خلفته من خراب ودمار في كل مكان . وكانت الدولة ضعيفة ، والأمراء يتصارعون على السلطة ؛ فلم يكن في وسعهم الالتفات إلى الفنون الإيطالية ، ولا مسيرتها ، وأن يشجعوا رجالهم على تقديم فنون واضعة خاصة بهم . ولكن الفرنسيين أصبحوا أكثر تقبلاً للفن الإيطالي ، حين غزت جيوشهم إيطاليا سنة ١٤٩٤ .

وبعد وفاة شارل السابع في سنة ١٤٦١ ، وهو الذي نخلص فرنسا من نكسات الحروب الطويلة مع إنجلترا ، واصل ابنه لوى الحادى عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣) سياسته الخاصة بإنشاء دولة وجيش قوى لفرنسا من بعده . وكان لا يهتم بملابسه ، ولا بمظهره ؛ ولكنه كان من أصحاب المواهب ، ولم يتردد في قطع رؤوس معارضيه . وكان سياسياً ، يصغى لم يتحدث إليه ، ويجمع المعلومات عن بلاده ، وعن جيرانه ، أصدقائه وأعدائه ومنافسيه . واتخذ وابنته أزمات صعبة ، مثل تجمع شارل وريث دوقيه برجنديا ، مع دوق برى ، أخوى الملك ، ودوق بريتانى ؛ ولكنه واجههم بحزم وشجاعة ، وإعتمد على باريس لمحاربتهم ، وأرغمهم في مفاوضات طويلة ، وفرق بينهم .

ولقد خدم الحظ ملوك فرنسا ، إذ توفى دوق برجنديا سنة ١٤٧٧ دون أن يعقب ذكراً ، فالت برجنديا وبيكار دى وآرتوا للعرش الفرنسى . ثم توفى آخر ملوك ماكس ، في نفس الظروف ، فانضمت مقاطعات مين وأنجو وبروفانس إلى مملكة فرنسا سنة ١٤٨٠ . وأخيراً انضمت بريتانى إلى فرنسا ، بعد أن توفى دوقها ، دون أن يترك ولداً .

وبعد غزو الفرنسيين إيطاليا ، شجع ملوك فرنسا عدداً من العلماء الإيطاليين

وبعض البيزنطيين على الحجىء إلى باريس ، لتدريس اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية فيها . ثم زاد ظهور إعجاب ملوك فرنسا بالنمضة ، وأدخلوا إلى بلاطهم الكثير من مراسم وتقاليد الأمراء الإيطاليين . ولقد شجع فرانسوا الأول هذه الحركة في بلاده ، وأنشأ كاتبة فرنسا Collège de France سنة ١٥٣٠ ، خارج نطاق جامعة باريس ، وعين فيها أساتذة في الدراسات القديمة . ووصل من حد تشجيعه لرجال الأدب أن لقب بباحث الفنون ، وراعيها .

أما أدواق برجنديا ، فإنهم كانوا قد صنعوا بلجيكا المستقبل ، وعلوا أبناء الفلاندر ، التي هي نواة بلجيكا الحالية ، معنى الاستقلال والوحدة ، وجعلوا من بروكسل ، التي كانت مركز بلاطهم ، عاصمة أوربية شهيرة ، وساعدوا على نشأة مدرسة من الكتاب والمؤرخين لديهم ، وشجعوا الفنون الجميلة نفس تشجيعهم للتجارة . ورغم أن هؤلاء الأدواق كانوا فرنسيين ، في أصلهم ولغتهم وذوقهم ، إلا أنهم تعلموا اللغة الفلمنكية .

ولقد إنتشر فن النحت والرسم الفلمنكي غرباً ، عبر برجنديا ، إلى فرنسا ، حيث كان له أثر كبير ، وكما أثرت فرنسا في الفلاندر عن طريق أدواق برجنديا ، أثرت الفلاندر في فرنسا . ويرجع بقاء بلجيكا حتى الآن فرنسية الطابع ، إلى تلك الفترة التي خضعت فيها لأسرة فرنسية ، هي أسرة برجنديا .

وكان الفن الفلمنكي ، مثله في ذلك مثل الفن البرجندي ، يستمد أصوله من تراث العصور الوسطى ، ثم تطوروا منه إلى حياة العالم الحديث ، واعتمد الرسم عندهم على دقة الملاحظة ، وتميز في القرن الخامس عشر بركة الشعور ، ومراعاة الحقيقة . وكان الفلمنكيون هم الذين اخترعوا الأصباغ ، وأخذ الإيطاليون استخدامها منهم . وجاء الفن الفلمنكي نابعاً من حياة مدن زانخرة بالفشاط والرخاء والازدهار ، مثل فن المدن الإيطالية . واستمدوا رسومهم من الحياة ، وفي ألوان مشرقة ، رغم تبدل مناء بلادهم بالغيوم ، وآثروا الموضوعات المنزلية ،

وواحد من اظهر كل تفصيل مألوف . وانتشر تأثيرهم بكونه انتشر تأثير المدرسة الإيطالية ، حتى أصبح شمال ألمانيا تابعاً لهم من الناحية الفنية ، عند نهاية القرن الخامس عشر .

٢ - النهضة في ألمانيا :

واشتهرت ألمانيا ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، بتقديم في الثقافة والدراسة ؛ وهي الفترة التي زاد فيها سلطان الأمراء الألمان بشكل واضح ، وقد نشأ في ألمانيا ، في ذلك الوقت ، كثير من الأكاديميات ، كما ظهرت فيها الطباعة . ولما أبدى هنري جوتنبرج ، ثم انتشرت منها بسرعة في جميع أنحاء أوروبا ، وعرفت بأنها الفن الألماني .

وكان الجانب الأكبر مما أخرجته المطابع يتصل بالدين ، في الفترة الأولى ، وذلك نتيجة لكون رجال الدين هم أساس وغالبية الطبقة المتعلمة . وعمل ذلك على زيادة اهتمام الأهل بالدين وزيادة اهتمامهم بقراءة الكتب الدينية ومناقشتها ، وذلك قبل أن يتضح ظهور الحركة الفكرية والتفكيرية في القرن السادس عشر .

وكانت الكنيسة في ألمانيا تمتلك ثلث الأراضي الزراعية ، وأصبح رجالها على درجة كبيرة من الثروة ، وظهرت عليهم دلائل الترف والإسراف ، وبشكل لا يعصمهم من الفساد . أما الأمراء فكانوا يحاربون بعضهم بعضاً ، وحرمت ألمانيا ، نتيجة للالتجاسات الفردية ، عند النبلاء ، وعدم وجود سلطة قوية للإمبراطور ، من أن تسير صوب الوحدة ، أو حتى الاتحاد . وفشل البلاط في الوصول إلى إصلاح دستوري ، ولم يتمكن من إنشاء جيش إمبراطوري دائم ، ولما من وضع نظام ثابت لجمع الضرائب الإمبراطورية ، بعد أن رفض الأمراء والنبلاء العمل مع القوات الإمبراطورية ، فظلت الإمبراطورية مسالوبة القوة ، وواصل المنتخبون والأمراء الاحتفاظ بالقوة السياسية .

ولكن علينا ألا ننسى هؤلاء الآلاف من عمال المدن الألمان ، الذين بنوا

السكنائس والسكاندنايات على الطراز القوطي ، وغيرهم ممن أدخلوا تحسينات على الأرضين ، والذين نبغوا في النقش والحفر على الحجر والخشب والبرونز ، وخلفوا بذلك شهرة عالمية فائقة ، شهدت بمهارة الألمان .

وفي القرن السادس عشر حدث تغير في ألمانيا ، فإزدادت الفقر نتيجة للكشف عن الطرق البحرية الجديدة ، وسادت البلاد فوضى دينية وإجتماعية نتيجة لتحول أذهان الأماهي إلى ضرورة الإصلاح الديني ، وأصبح الدين لا الفن هو العامل الفعال . وزاد إهتمامهم بكتابات لوثي ، كما زاد إهتمامهم بالموسيقى ، التي سينبغون فيها .

٤ - النهضة في إنجلترا :

كانت إنجلترا قد قاست الكثير من حربها الطويلة مع فرنسا ، حرب المائة عام ، وهي التي إنتهت بطرد الإنجليز من فرنسا سنة ١٤٥٣ . ولم يمض عامان على نهاية هذه الحرب الطويلة ، حتى بدأت حرب جديدة ، معروفة باسم « حروب الوردتين » . وبعد أن تركت إنجلترا محاولتها لإحتلال فرنسا ، عملت على بسط نفوذها على الجزر البريطانية ، وعلى ضرب الاقطاع الموجود داخل الدولة . والتوسع في التجارة ، وإنشاء المستعمرات فيما وراء البحار ، ويرجع الفضل في كل ذلك إلى حروب الوردتين (١٤٦١ - ١٤٨٥) .

وكان لاستمرار الحروب في إنجلترا من أهم أسباب تأخر ظهور النهضة فيها . وبعد نهايتها ، أخذت الدراسات الانسانية طريقها إلى إنجلترا . وكان هناك بعض الإنجليز الذين تزودوا من الدراسات الانسانية في عدد من المدن الإيطالية ، مثل فلورنسا وروما والبندقية ؛ وبعد أن عادوا إلى إنجلترا ، أخذوا يحاضرون ويدرسون ويشرحون في أكسفورد ؛ حتى سمو باسم « مصاحو أكسفورد » . وساعدت زيارات إرنزم لأكسفورد في سنة ١٤٩٩ ، ثم إقامته في كمبرج (١٥١٠ - ١٥١٣) ، على إزدهار الدراسات الانسانية والقديمة فيها .

ولقد حاضرت في اللغة اليونانية القديمة ، ونشأت حولها مجموعة إهتمامت بهذه الدراسة . وكان من أعلام إنجلترا في هذا العصر توماس كولينت ، والسير توماس مور ، اللذان كانا من أصدقاء إدزيم ؛ وتعاون ثلاثتهم على نشر الإنجيل ، حتى يصل إلى يد كل فلاح ، وغزال ومسافر . ولقد نادوا بضرورة تحرر الفكر الانساني من تلك القيود التي كانت تفرضها الكنيسة عليه ؛ وكانوا متأثرين في ذلك بروح النقد الجديدة ، وطالبوا بضرورة إصلاحها .

وأخذت النهضة في إنجلترا طابعاً دينياً ، لخدمة المسيحية ، وإحتلّت بذلك عن النهضة في إيطاليا وفرنسا . التي أتجهت اتجاهها وثلياً ؛ وحاولت النهضة في إنجلترا أن توفق بين الفن والعقيدة ، وبين الجمال والدين . ولقد أعطت النهضة في إنجلترا تراجيم لأعلام الفكر القديم ؛ كما ترجمت الكثير من الانتاج الأدبي لرجال النهضة الايطاليين ، قبل أن تشهد قمة انتاجها الأدبي ما كتبه شكسبير وجون ميلتون .

وقبل أن ينتهي القرن الخامس عشر ؛ كان أحد البحارة من جنوا ، وإسمه جون كابوت Cabot قد أفلح ، بتصريح من ملك إنجلترا سنة ١٤٩٦ ، على ظهر سفينة من بريستول في غرب إنجلترا ، ثم عاد يحمل أبناء هامة عن وصوله إلى أراض في الجانب الآخر من المحيط الأطلسي . وترجع نيوفونديلاند ، أقدم ممتلكات التاج البريطاني ، إلى حكم هنري السابع ، الذي رأى أهمية الدور الذي يجب على إنجلترا أن تلعبه في الجزر البريطانية ، وفي ارتباطات بلاده الوثيقة بالقارة الأوروبية ، وفي الآفاق الواسعة فيما وراء البحار ، نتيجة لروح المخاطرة التجارية والبحرية الموجودة عند أبنائها .

٥ - النهضة في أسبانيا والبرتغال :

لقد تمثلت روح النهضة في إسبانيا في توحيد أراجونة وقشتالة ، والتخلص من آخر حكم للمسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية ، متمثلاً في غرناطة . وكان هذا

تمهيداً لروح المخاطرة الأكبر ، والبحث عن المجهول ، المتمثلة في حركة الكشف الجغرافية ، والذي وقع عبورها الكامل على كل من إسبانيا والبرتغال .

وإذا كان كريستوف كولومب قد وصل إلى أمريكا ، فإن مجهودات طويلة كان البرتغاليون قد قاموا بها ، من قبله ، للوصول إلى الهند بالاقلاع جنوباً تجاه السواحل الغربية للقارة الإفريقية ، تمهيداً للالتفاف حول أقصى جنوب القارة ، والوصول إلى المحيط الهندي ، وإلى الهند . وهكذا توصل بحارة شبه الجزيرة الأيبيرية ؛ وبتعظيم ملوكها ، إلى عالم جديد له ثرواته ، وإلى ثروات الشرق الأقصى ، التي أخذوا ينقلونها عبر طريق الرأس إلى بلادهم ، في غرب أوروبا . وهكذا أدت هذه الحركة ، التي نبعث أساساً من النهضة وروحها ، إلى تحول المكاسب المادية الناتجة عن التجارة الدولية من أيدي دول الشرق الأوسط والمدن الموافى الإيطالية ، التي كانت مهد ظهور النهضة ، إلى دول غرب أوروبا ، المطلة على المحيط الأطلسي . وكانت هذه نقطة تحول خطيرة بالنسبة لتاريخ البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، وبالنسبة لتاريخ العالم كله .

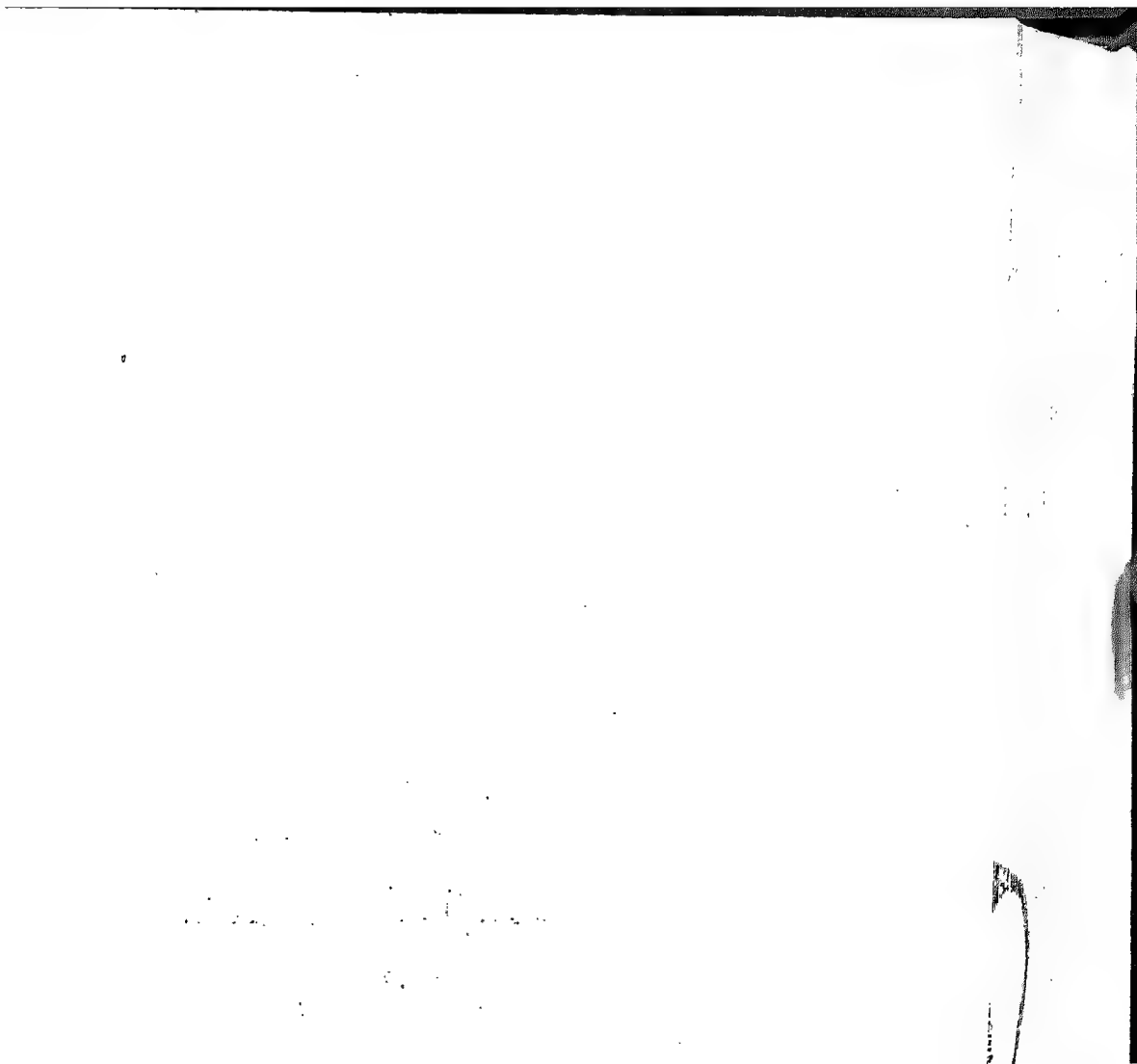
ومن ناحية أخرى سيجد أن ظروفها كثيرة قد أجبرت إسبانيا ، وقت النهضة ، على أن تكون من أقوى الواقفين مع الكنيسة الكاثوليكية ، مستخدمة في ذلك محاكم التفتيش ؛ رغم أن حركة النهضة كانت قد واجهت ، فكرياً على الأقل ، هذه الكنيسة وتصرفاتها ، وفي كل مكان . وإزدادت صلابة وقفة إسبانيا مع الكنيسة والبابوية ، في الوقت الذي ظهرت فيه حركة الإصلاح الديني .

1. The first part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that a knowledge of the past is essential for a full understanding of the present and for the development of a sound perspective on the future. The author points out that the study of history is not merely a collection of facts and dates, but a process of critical thinking and analysis. It is through the study of history that we can learn from the mistakes of the past and avoid them in the future. The author also emphasizes the importance of the study of the history of the United States, as it is a country that has played a significant role in the world. The study of the history of the United States can help us to understand the values and principles that have shaped the country and to see how these have been put into practice. It can also help us to see how the country has changed over time and to understand the forces that have shaped these changes. The author concludes that the study of the history of the United States is a vital part of the education of every citizen and that it is one of the best ways to develop a sense of national identity and pride.

2. The second part of the paper discusses the importance of the study of the history of the United States. It is argued that a knowledge of the past is essential for a full understanding of the present and for the development of a sound perspective on the future. The author points out that the study of history is not merely a collection of facts and dates, but a process of critical thinking and analysis. It is through the study of history that we can learn from the mistakes of the past and avoid them in the future. The author also emphasizes the importance of the study of the history of the United States, as it is a country that has played a significant role in the world. The study of the history of the United States can help us to understand the values and principles that have shaped the country and to see how these have been put into practice. It can also help us to see how the country has changed over time and to understand the forces that have shaped these changes. The author concludes that the study of the history of the United States is a vital part of the education of every citizen and that it is one of the best ways to develop a sense of national identity and pride.

الْبَيْتُ الْخَامِسُ

الكشوف الجغرافية
وبداية الاستعمار



الفصل الثالث عشر

كولومب والعالم الجديد

بدأت فكرة الوصول إلى الهند عن طريق الغرب في الإختصار في رأس كريستوف كولومب بعد أن وقعت في أيديه « صورة العالم » . وهكذا يمكننا أن نقول أن الأتراك العثمانيين كانوا مسئولين ، بطريق غير مباشر ، عن اكتشاف العالم الجديد ، خاصة وأنهم كانوا قد ساهموا في إقفال طريق آسيا والشرق الأقصى ، المار في الشرق الأدنى ، كما أن استيلائهم على بيزنطة قد تسبب في خروج عدد كبير من العلماء والأدباء من هذه المدينة وذهابهم إلى إيطاليا ، مما سمح للغرب بمعرفة التراث اليوناني القديم . وترجمت كتب بطليموس في بولونيا إلى اللاتينية ، وكان يصير فيها على أن العالم مستدير . وطبعت « صورة العالم » وأخذ بعض العلماء الأوربيين يعتقدون في كروية الأرض . وكان الأوربيون يقرؤون في ذلك الوقت كتابات ماركو بولو ، ويحلمون ببلاد شيبانجو (اليابان) وكاثاي (الصين) وبلاد الختان الأكبر أو الخاقان ، كما كانوا يقرؤون كتب الجغرافية وقصص الملك يوحنا الراعي . وكانوا يؤكدون وجود أراض وجزر غريبة وعجيبة في المحيط الأطلسي ، مثل الأتلانتيك ، التي تحدث عنها أفلاطون ، وجزر الأنتيل ، التي التجأ إليها سبعة أساقفة فروا حسب الرواية من « وحشية » المغاربة المسلمين . وكان الأوربيون يروون هذه القصص ، ويشيرون إلى أماكنها على خرائط العالم ، وكأنها موجودة بالفعل . وفي هذا الوقت وفي هذا الجو ظهر كريستوف كولومب البحار وظهر في جنوا .

(١) كريستوف كولومب

كان كريستوف كولومب شاعراً ومسيحياً وواقعياً في نفس الوقت . كان

شاعراً لأنه تأثر بالكتابات والروايات المنتشرة في عصره ، ومسيحياً لأنه كان مستعداً للقيام بحملة صليبية جديدة ، وواقعياً لأنه إعتقد في أن الأرض كروية ، وأنه يمكنه أن يجد في الغرب ، ما قام أجداده بالبحث عنه في الشرق .

ولكن خرائط ذلك الوقت كانت غير دقيقة ، وكانت تقرب المسافات ، كما أن أخطاء أخرى كانت موجودة وراء دوافع كولومب ، فلم يعد هناك مخاف أكبر ، أو خافان في الصين ، ولم يكن هناك يوحنا الراجي في الهند ، ولا في غيرها من البلاد ، ولم تكن هناك قارة تسمى الأتلانتيد . ولذلك فإن اكتشاف العالم الجديد كان وليداً للصدفة ، ولكنه كان في نفس الوقت وليداً للرغبة في الحصول على الذهب والفضة ، التي كان الاقتصاد الأوربي في أشد الحاجة إليها ، وكذلك الرغبة في الحصول على التوابل اللازمة للأوروبيين . وكان المستكشفون يتميزون بحب المغامرة ، وإذا بعضهم يحلم بأن يعيش معيشة الفرسان في أوروبا ، فإنه كان يحاول الوصول إلى ميادين معارك جديدة ، وفي آفاق جديدة . وكانت هناك دوافع دينية ، إذ أن الغزاة قد اعتبروا أنفسهم من الصليبيين ، وكان كولومب وأنصاره يعتقدون أنهم ينشرون المسيحية ويوقعون الصليب في بلاد الكفار . ورغم تسلبهم على الذهب والفضة والتوابل والمملكات الجسدية ، فإنهم قد كانوا كمنسيحين وماتوا كمنسيحين وفي مشروع مسيحي ، في أعينهم وفي أعين العالم كله . في ذلك الوقت . وكان كولومب من جنوا ، تلك المدينة التي تسير فيها الأعمال الرأسمالية ، والمسيحية ، جنباً إلى جنب . وبعد أن فشل في الحصول على مساعدة ملك البرتغال وملوك آخرين في أوروبا ، تقدم إلى ملك أسبانيا وملكتها ، فرديناند وإيزابلا ، وذكر لهم أن هدفه الأخير هو تخليص الأراضي المقدسة ، واستخدام السكونز التي سيهود بها من رحلاته في هذه العملية . ولقد عينته أسبانيا أميراً للبحر ، ونائباً لذلك ، في كل البلاد التي يكتشفها ، ومنحته الحق في عشر الأرباح . والأجور السكونية والذهب والفضة والتوابل ، وأي سلع يجدها في هذه البلاد .

ويجهز كولومب ثلاث سفن عليها تسعون بحارا ، وثلاثون مسافرا بينهم طبيب وجراح ومترجم وموثق ، وأقلع بها من بالوس صوب جزائر كناريا ، ثم إلى عرض المحيط ، دون أن يعلم أنه بدأ أكبر حركة للاستعمار في تاريخ العالم . وكانت الرحلة هادئة ، ولكن البحارة كانوا قلقين ، وكانوا يعتقدون دائما أن هناك أرضا تلوح على خط الأفق ، ولكن آمالهم كانت تخيب . وطلب مساعد كولومب منه أن يحول اتجاه السير قليلا إلى الجنوب ، بدلا من مواصلة السير صوب الغرب . ولولا هذا التغيير لوصل كولومب إلى فلوريدا ، ولأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية مستعمرة إسبانية . ولكن كولومب وافق على نصيحة مساعديه ، ووصل إلى أمريكا الوسطى ، التي ستصبح مع أمريكا الجنوبية من مستعمرات الملوك الكاثوليك .

وتأكدت دلائل الاقتراب من الأرض في اليوم السابع للرحلة ، وذلك بعد أن شاهد البحارة بعض الحشائش وأحد فروع الأشجار تعوم على وجه الماء ، كما شاهدوا بعض الطيور . ثم ظهر الساحل ، فاقتربت السفن وأنزلت القوارب ، وقفز منها كولومب على الشاطئ ، وركع وقبل الأرض ، وحمد الله ، ثم أشهر سيفه ورفع علم قشتالة ، وأمر الموثق بتخزين وثيقة الاستيلاء على هذه الأراضي باسم فرديناند وإيزابلا في سنة ١٤٩٢ .

ولم يكن هذا الساحل ساحل الصين ، ولا بلاد الذهب ، إذ أن كولومب كان قد وصل إلى إحدى جزر البهاما في شمال كوبا . أما الأهالي فقد خافوا من رؤية السفن والأشرعة والرجال الإسبانين ، ثم أخذوا في الاقتراب منهم لمحاولة التعرف عليهم ، فمنحهم كولومب بعض الخرز والأجزاء الصغيرة التي كان قد أحضرها معه . وكان لون الأهالي داكنا ، وأطلق الإسبان على اسم الهنود ، وبقي هذا الاسم مستعملا حتى الآن .

وواصل الأميرال حملته من جزيرة إلى جزيرة ، باحثا عن الذهب والتوابل ،

والخان الأعظم الذى كان يحمل له خطاب توصية من ملك أسبانيا . وكان الأهالى يدلونه على أن الذهب يوجد عند القبائل المجاورة لهم ، وبدلا من التوابل لم يجد سوى القطن . إلا أنه لاحظ نباتات وشجيرات كثيرة ، يمكن استخدامها فى الصباغة وفى الصيدلة والطب فى أوربا . ثم وصل إلى هاياقى وسماها هسبانيولا ، وبقي فيها قلعة وترك فيها تسعة وثلاثين بحارا ، كانوا أول المعمرين من أوربا فى العالم الجديد .

وعاد كولومب بعد ذلك إلى أسبانيا ألقى استقبلته استقبال الأبطال الغزاة ، وهتفت الجماهير باسمه ، وأنعم عليه الملك والملكة . وإذا كان كولومب قد عاد بكمية قليلة من الذهب والجواهر وبعض البيغاوات والهنود الجر من كوبا ، إلا أنه كان يحمل الأمل فى الاستيلاء على مستعمرة كبيرة ، وليس لها حدود وسافر كولومب من جديد ، كأمر للبحر المحيط ، ونائبها للملك فى الهند . وبلغت رحلاته أربعة ، اكتشف فيها جزر الأنتيل والبحر الكاريبى ، وبحث فيها عن مصب الكنج ، ولكن بدون فائدة .

وظهرت المصاعب أمام كولومب ، ثم ازدادت فى كل يوم . ولقد بدأت هذه المصاعب مع الأهالى ، الذى صعب على الأسبانيين التهاجم معهم ، وصعب عليهم إجبارهم على احترامهم . وكان كولومب يعتقد أنه أتى بالسعادة الأزلية لهم ، وذلك بمنحهم الحضارة الأسبانية ، وتبريعهم على إله المسيحيين . ولم يطلب منهم فى نظير ذلك سوى الذهب ، ولم يعطه الأهالى منه الكثير .

ولقد وجد الهنود أن الأسبانيين قساة القلوب ، وشهوانيين ، فقتلوا كل المعمرين الذين أقاموا فى هسبانيولا ، وكانوا مستعدين لقتل غيرهم ، وبدأت مصاعب كولومب مع الأسبانيين أنفسهم ، وعملت الغيرة والوشاية عملها فى هذا الميدان ، وتمرد عليه بعض الأسبانيين ، ونظر إليه آخرون على أنه ايطالى . وخابت آمالي كولومب فى البلاط نفسه ، الذى ظهر تردده تجاه

كولومب بعد هذه الوشايات . ونقد الوشاة مشروعات كولومب ، وذكروا أنها تكلف اسبانيا أكثر مما تدر عليها ، وأنه فشل في العثور على تلال الذهب وشحنات التوابل ؛ فأرسل البلاط حاكماً جديداً للمستعمرات ، وزوده بسلطات مطلقة ، وكان وصوله يعني بالنسبة لكولومب نهاية رضا القصر . وسرعان ما كبل الحاكم كولومب بالسلاسل وأرسله إلى اسبانيا . وإن كان الملوك الكاثوليك قد أطلقوا سراحه فيما بعد ، واعترفوا بأنه كان أول غزاة العالم الجديد .

وأخذت المستعمرة في الازدهار رغم كل ذلك ، ووصل آلاف المغامرين إلى هسبانيولا وكوبا وانتقلوا من مركز لآخر، وأقاموا في الانتيل في بورتوريكو، وفي جمايكا ، وفي جزر البحر الكاريبي ، ولم يكن هذا هو العالم الجديد ، وإن كان عالمًا جديدًا .

ولقد أثار هذا الاستكشاف مشكلة سياسية ، خاصة وأن رو قد أعطت للبرتغال كل الأراضي الواقعة على طريق الهند . فأرسل الملوك الكاثوليك السفارات من اسبانيا إلى الفاتيكان ، لكي يشرحوا أن ممالكهم الجديدة هي انتصار كبير للمسيحية ، ولكي يطلبوا من البابا منحهم هذه الأقاليم . ووافق البابا اسكندر السادس ، وكان اسبانيا ، وأصدر مرسوماً منح به ملك وملكة اسبانيا الامتيازات المماثلة لتلك التي أعطهاها الملك البرتغال في اكتشافاتهم الإفريقية . ثم أصدر مرسومًا ثانيًا لمنع أي طعن من هذا الجانب أو ذلك ، وقسم الامبراطوريتين بخط يمر من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي ، على بعد مائة فرسخ إلى الغرب من جزر الخالدات ، وجزر الرأس الأخضر : فأصبح كل ما يقع إلى غرب هذا الخط من نصيب اسبانيا ، وكل ما يقع إلى شرقه من نصيب البرتغال . ولكن برشلونة طعنت في هذا التقسيم ، ثم تفاوضت وجعلت من اسبانيا ومن البابا على مرسوم آخر ، نقل خط التقسيم إلى ثلاثمائة وستين فرسخًا إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر سنة ١٤٩٤ . وحدد هذا المرسوم الجاوي لتقسيم العالم ، طرق

الكشوف والاستعمار الموصلة إلى الهند ، وترك الطريق الغربي للاسبانيين ، والطريق الشرقي للبرتغاليين . ولكن أحدا في روما أو اشميلية أو لشبونة لم يفكر في ذلك الوقت في أن هذا الخط سيقسم القارة الامريكية ، وأنه سيجعل من البرازيل مستعمرة وواجهة برتغالية ، لقارة ستصبح إسبانية . ولم يفكر الاسبان والبرتغال إلا في الإسراع في مشروعاتهم ، التي كانت تهدف الهند ، سواء من الغرب أو من الشرق .

أما كرسstof كولومب فإنه قد قضى ما بقى له من أيام في الخيالات ، وأصر على أنه قد وصل إلى آسيا واكتشف سواحلها ، ونزل إلى قارة الهند . كما أصر على حقوقه وورثته ونصيبهم في الأرباح ، وعلى ضرورة العمل على تخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين . لقد كان يهنئ وكان لا يعرف المجد الذي سيسجله له التاريخ . ونقلت جثته بعد وفاته إلى الجزر التي اكتشفها ، والتي كانت وطنه الثالث ، بعد جنوا وبعد اسبانيا .

٤ - الامبراطوريات السابقة لكولومب :-

ولقد اشتمل العالم الجديد على امبراطوريتين هما امبراطورية الازاتكة في المكسيك ، وامبراطورية الإنكا في بيرو ، في الوقت السابق لوصول الاسبانيين ، وكانوا قد استعمروا غيرهم قبل أن يقوم الاسبانيون باستعمارهم .

أما امبراطورية الازاتكة فكانت تمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادى ، ومن هضبة المكسيك حتى نيكاراغوا . وكان الازاتكة قد جاءوا من الشمال في القرن الثالث عشر ، وانشروا مدينة في وسط المستنقعات ، وفي المكان الذى شاهدوا فيه نسرأ كبيرا يأكل حية ضخمة ، فاعتقدوا أنها اشارة من ربهم « مكسيكلى » لوقف سيرهم ، وبناء عاصمتهم ، التي ستحمل اسم مكسيكو . وسرعان ما إتحدت القبائل المجاورة أو خضعت ودفعت الجزية . وسادت قوانين الازاتكة ، وانتشرت آلهتهم في كل المنطقة . وتحدث الفلاسفة وعلماء الآثار

عن عادات الأزانكة وما تركوه من قصور ومعابد وأهرامات ، وعلينا ألا ننسى وحشية الأمالى فى هذا الأقليم ، وهذا العصر : ذلك أن الأزانكة كانوا يحبون الدماء ، وكانوا يتركون للفرد حرية اختيار مستقبله ، ولكن على أساس احتفاظ الدولة بحق التضحية به ، وكما ترى ، بمجرد أن تطلب الآلهة تقديم القرابين والضحيات لها . وقام الأزانكة بذبح عشرين ألف رجل ، وبأحراق قلوبهم بعد إنتراعها من أجسادهم ، كضحية لافتتاح معبد مكسيتلى . وكان الأزانكة يسلخون بعض البنات ، وهن أحياء ، فى إحتفالات عودة فصول معينة فى كل عام . أما المجتمع فكان أوليغاركية فى أول الأمر ، وله مجلس شورى ، ويختب رئيسين مدى الحياة : الأول لإدارة الأمن وجميع الضرائب ، والثانى لقيادة الجيش وللإشراف على المكينة . ثم تفوق الثانى ، وكان يختب من أفراد أسرة معينة ، وأصبح امبراطوراً وراثياً . وكانت السلطنة تمر بعد وفاته إلى أخيه ، أو إلى أقرب أقربائه ، من ناحية الأم .

وكان الأزانكة يعرفون الذهب والرصاص والبرونز ، ولم يكنم كانوا يحملون الحديد . وكانت تجارتهم بدائية وتعتمد على المبادلة والمقايضة ، أو تستخدم بعض قطع القصدير أو النحاس ، أو كمية التبر فى أنابيب من ريش الطيور ، كعملة بدائية . وكانوا لا يعرفون العجلات أو الخيول أو أى دابة من دواب الحمل ، فمما كان الحملون يحملون كل ما يرغبون فى نقله ، ويسيرون فى ممرات صغيرة وضيقة ، شتتها المساجين وسط الجبال أو الغابات ، وكانت تنس الممرات هى الطرق الوحيدة الموجودة فى ذلك العصر ، والتى كان كل من الحجاج والحملات العسكرية تستخدمها . وكان الحج إجبارياً ، كما كان يسمح بالإشراف على إستعباد القبائل المهزومة . وأما الحملات العسكرية فكانت تسهل تموين المعابد بالضحايا البشرية اللازمة لارضاء الآلهة . وكانت الإمبراطورية تنقسم إلى عدد من الأقاليم ، يتمتع كل منها بالاستقلال الذاتى ، سواء فى الشؤون الإدارية أو السياسية .

ولكنه كان يرسل كمية معينة من الضرائب العينية ، من ملابس وخبواب وفواكه
ونسورحية وعقود من الذهب ، كما كان يرسل عدداً معيناً من الرجال للخدمة في
بجوش الحكومة الامبراطورية . ولقد عاشت امبراطورية الازاتكة منطوية على
نفسها ، ولم تنصل بامبراطورية الانكا ، التي تمت إلى الجنوب منها ، خاصة وأن
الجبال والبحار والمستنقعات والغابات والحميات كانت تفصل بينها .

أما امبراطورية الانكا فكانت قد نشأت في الأقاليم الإستوائية من أمريكا
اللاتينية في بداية القرن الحادى عشر ، وأصبحت تمثل تجربة تاريخية هامة لإقامة
حكومة تعتمد على التوجيه ، وعلى التخطيط ، ولخلق مجتمع منظم فى وسط
الفوضى . ولفرض نظام جماعى لشعوب متباينة تضم المزارعين والرعاة .

ولقد تمكن أحد رؤساء قبيلة الانكا ، من السيطرة على الإقطاعيين ، ومن
توحيد الهنود الحمر ، ثم واصل خلفاؤه عملية مركزية الحكم من بعده ، وضموا
أراضى السادة ، وعملوا على مد الامبراطورية على طول سواحل المحيط الهادى ،
بشكل جعل من الهنود رعايا للانكا .

وكان الانكا الأعظم هو رأس التشكيل السياسى لهذه الدولة ، ويعتقد أنه
من سلالة الشمس ، ويمثلها على الأرض ؛ وكان يسيطر على رؤساء القبائل ، أو
الكاباك ، الذين يشرفون بدورهم على رؤساء الجماعات والموظفين المسؤولين ،
وكانت مجموعات الانكا ، وجماعاتهم تشتمل على عشرة ، أو خمسين ، أو مائة ،
أو خمسمائة ، أو ألف رجل . ثم على وحدات أخرى أكبر من عشرة آلاف
ومائة ألف . وكان كل شيء يبدأ من الانكا ، وكان كل شيء يفتى إليه . وكانت
الإدارة متدرجة متسلسلة ، ومتخصصة ؛ وكان لإختيار الضباط والمديرين وكبار
الموظفين يقع من بين الكاباك ؛ ثم يتبع ذلك لإختيار القضاة وأصحاب الحوائث ،
ويقوم رئيس العشرة بأعمال الامن العادية . اما الأراضي فكانت ملكاً للانكا كما

كانت في مصر القديمة ملكا لفرعون ؛ وكان على الالهالى زراعتها، على أن يقسموا
المحصول إلى ثلاثة أقسام : الأول للشمس ، أى للكهنة ، والثانى للدولة ، أى للمعجزة
والأرامل والأيتام ، والثالث للمجتمع ، ويقسم بين الأسر الموجودة .
وكان العمل إجباريا ، كما كان تنظيم أوقات الفراغ إجباريا كذلك ، وبشكل
لا يترك للفردية أى مجال . وكان الإنتاج يركز في مخازن عامة كما كان الاستهلاك
محدداً ومخططاً . وكانت المساكن متشابهة ، وكذلك الوجبات ، من الذرة
والبطاطس . وكان الثمائل تاما ، والنظام دقيقاً والمقبوبات صارمة . وكان هناك
تحديد لعدد الملابس ، وللأوقات تناول الطعام، وتحديد لاماكن الإقامة ، ولساعات
النوم والفراغ . وأدى هذا التخطيط إلى تقليل الشخصية والفسدية ، وإلى زيادة
الطاعة والسلبية .

وكان الالهالى يعرفون صهر النحاس وتشكيل البرونز ونسج الصوف وبناء
القصور والمعابد والحصون ، ولكنهم كانوا يجهلون الحديد والعجلات والكتابة .
ونجح النظام الشيعوى عند الانكسار، وضمن للالهالى حاجياتهم الضرورية ، ومنع عنهم
أخطار الجماعات . ورأى بعض المؤرخين أن هذه الإدارة الهامة الجماعية كانت
هى كل شىء ، وقضت على كل شىء فيما عداها ، وحتى على الإنسان ، الذى أصبح
يمتاز بالكسل والخمول العقلى ، ويرفض التفكير والتعديل .

والواقع أن إمبراطورية الانكسار قد أخضعت غيرها في الوقت الذى زادت فيها
سلطات رأس دولتها ، عن السلطات التى يتمتع بها رئيس أى دولة شيوعية .
وكانت الإمبراطورية تهضم كل إقليم تستولى عليه وتخضعه لها ، ولكنها كانت
تترك له آلهته ، فى نفس الوقت الذى تحاول فيه إدخال دياناتها وعبادة الشمس فيه .
وكان الموظفون يعملون على تطبيق قوانين الإمبراطورية فى هذه الأقاليم ، كما
كانوا يعملون على نقل الأسر والتهازل غير الخاضعة من منطقة لأخرى، حتى يصلوا
إلى كسر شوكتها وإذابتها فى النطاق الجماعى .

وقدر العلماء سكان إمبراطورية الانكا بأثنى عشر مليوناً ، وهو عدد يقارب عدد سكان إمبراطورية الازاتكة . أما بقية القارة فكان يعيش فيها بضعة ملايين آخرين ، موزعين بدون حكومات وبدون حضارات هامة . ولزدهرت الحياة المستقرة في المنطقة المدارية حيث كانت الأمطار تساعد على نمو النباتات ، وحيث كانت الذرة تنبت بالأمطار وبدون زراعة . وكانت معظم القبائل الأخرى شبه مرتحلة ، أو تعمل بالرعى أو الصيد . وكانت هناك بعض مجالس الشيوخ أو الحكماء لإدارة قبائل سكان الهمبا وغابات الأمازون ومراعى الشمال ، وكانت هذه القبائل تعبد أصناماً معينة أو أنواعاً من الحيوانات ، وكانت تأكل لحم الجاموس البرى ، وتدخن الطباق ، وتعتبر الأنهار فى قوارب تنحتمها من جذوع الأشجار ، كما كانت تستخدم القوس والسهم . وكان الهنود الحر بصفة عامة لا يتورعون عن قطع رؤوس أعدائهم بعد الإلتصار عليهم ، ويجمعون هذه الرؤوس أو يعلقونها . وروى كولومب نفسه أنه رأى بعض بقايا حجم بشرى تطهى فى قدر على النار ، وإستند فى ذلك إلى أن الهنود الحر كانوا يأكون لحم البشر . فى نفس الوقت الذى يأكون فيه لحوم الببغاوات .

إذا كان فى وسع الأسبانين أن يصلوا إلى العالم الجديد ، ومهما إنصفوا به من القسوة والتحكم فإنهم كانوا يحملون الأعمال فى العالم الجديد وسائل حياة ونظم تسمح لهم بتحسين حالهم . فقد كانت الحضارات السابقة لمكولومب ، وبقى المتفرعة منها ، متأخرة عن حضارة أوروبا فى ذلك الوقت بألفى سنة . وإذا كان الازاتكة يسلخون القرابين البشرية ، والانكا تنخفض بمستواهم إلى الكسل والسلبية ، وتقوم قبائل البرارى بأكلهم ، فلا يمكننا إلا نرى تقدماً واضحاً مع مجيء الأسبانين ، الذين نزلوا بمستوى كل الهنود الحر إلى مستوى اليهودية . ولكن هل كانت روايات الأسبانين عن الحضارات السابقة لهم روايات حقيقية علمية ؟ وهل كان من حقهم أن يفرضوا حضاراتهم وطريقة معيشتهم على غيرهم

وبالقوة؟ وهل كان من حقهم نهب موارد الأقاليم وذهبها وإرساله إلى أوروبا؟ وإذا رضى الأهل أو ثاروا، فقد كان عليهم أن يخضعوا لحكم الغزاة، إذ لم تكن لديهم الوسائل الكافية للصمود أمامهم، أو للدفاع عن أنفسهم. فقد كان الأسبانيون مزودون بالخيل، ومبرروا في ركوبها حتى أصبح الفارس وكأنه مرتبط بفرسه، وكانوا مزودين بالبارود الذي يقتل عن بعد ويرعد مثل البراكين ويجعل الأهل ينظرون إليهم كآلهة. ولقد تفتحت أمريكا للغزو الأسباني بكل سهولة، وكان ساحلها الشرقي مأوياً بآلاف الخللجان وآلاف المصبات والأنهار الصغيرة. وإذا كانت أوروبا قد نظرت إلى العالم الجديد كمقبة في سبيل الوصول إلى الهند، فإن هذه النظرة لا تمنح من كون أمريكا مقبة سهلة، بل ومحطة متوسطة يمكن عبورها والوصول منها، وبها إلى الهند.

ولقد أطلق اسم أمريكا على هذا العالم الجديد نسبة إلى امريجو فسبوتشي الفلورنسي والذي كان قد إصطحب كولومب في إحدى رحلاته سنة ١٤٩٩، والذي كان من أوائل من وصل إلى القارة الأمريكية. وكان أول من نادى بأن هذه الأراضي الجديدة لم تكن آسيا، فأصر لوران دي مديس على إطلاق اسمه على العالم الجديد. وقام أحد رجال الطباعة بوضع هذا الاسم على الخريطة الذي نشرها على العالم، رغم أن الأوربيين ظلوا لمدة طويلة يسمون العالم الجديد باسم الهند.

٣ - غزو الهند العربية :

ولقد إنتهت عملية الغزو كلها في مدة خمسين سنة، قام خلالها الغزاة الأوربيون بالإستيلاء على إمبراطوريتي الازاتكة والانكا، وبإخضاع القبائل، وبإحتلال ثلثي سواحل القارة. ومهما كان الوصول إلى أمريكا سهلاً ومهما، وكانت وسائل البيض متفرقة، إلا أن نجاحهم كان عجيباً، ذلك لأن بضعة آلاف من الرجال قد تمكنوا من الإتيان على ثلاثين مليوناً من الهنود الحمر، كما

انثصروا على البغوض والزواحف والحيات وثؤوج الجبال وشمس المناطق
الاستوائية ووحوش الغابات . ولا شك في أنهم كانوا قد تمرنوا على المتاعب
الجسدية، وشحنوا همهم وعزائمهم في حروبهم المتصلة ضد المغاربة في الأندلس،
كما شحنوها بشعورهم بالتفوق الحضارى والجنسى على غيرهم ، ولذلك فإنهم كانوا
يسبحون لأنفسهم بكل شيء وبدون تردد .

وكان مشروعاتهم للاستعمار مشروعا عاما وخاصة في نفس الوقت : ذلك أنهم
كانوا مزودين بمرسوم ملكي وكانوا يحاربون ويفتخرون بإسم ملك إسبانيا
والحسابه ، ولكنهم كانوا ينظمون حملاتهم على نفقتهم الخاصة أو لحساب أصحاب
رؤوس الأموال المستعدين لتحويل مثل هذه المغامرات . وفي هذه الحالة الأخيرة
كانت هناك عقود موثقة تحدد نصيب وحقوق كل من الأطراف المساهمة . وكان
هدفهم هو إكتشاف أراض جديدة ، والإقامة فيها بأحقية وأولوية الوصول إليها
وحكمها ، وإستغلال الأراضي والمعادن النفيسة ، والمعيشة بألقاب طنانة وبمجد
يشير الغيرة والحسد الأكبر سادة قشتالة في هذا الوقت . ويمكننا أن نذكر هنا
بعض الاسماء لقادة الغزو الذين سجلوا أسماءهم في العالم الجديد ، مثل بالبو
وكورتيز وبيزارو . وربما كان الحظ قد ساعدكم أكثر من غيرهم ، ولكنهم إستحقوا
تسجيل أسماءهم في التاريخ ، حتى ولو كان ذلك بناء على المأسى التي ارتكبوها في
أمريكا .

أما بالبو فقد بدأ حياته مزارعا في الجزر ، ولكنه هرب بعد مطاردة الدائنين
له ، وإختفى في أسد البراميل على ظهر إحدى السفن ، ولم يتركه إلا عند
رسو السفينة عند برزخ بنما . وعرف هناك أنه يوجد إلى الجنوب مناجم الذهب
وبحر آخر . وواتته الفكرة بأن هذا البحر قد يكون بحر الهند ، فسار لمدة عشرين
يوما داخل الغابات حتى رأى من أعلى أحد التلال محيطا كبيرا ليست له من نهاية ،
فنزل في الأمواج شاهرا سيفه ، وأعلن ملكية ملك إسبانيا لبحر

الجنوب ، الذي أصبح فيما بعد المحيط الهادى . ولقد عينت إسبانيا بالبو حاكما على هذا البحر ، فنقل أربع سفن ، بعد تفكيكها ، عبر البرزخ ، ثم جمعها ، وكان أول من يبحر على هذه المياه الجديدة .

أما فرديناند كورتيز فكان من طبقة متوسطة ، وفشل فى دراسته وذهب إلى كوبا للبحث عن الثروة . واختاره فاليسكين حاكم الجزيرة لقيادة حملة ضد القارة ، وكانت تتألف من إحدى عشر سفينة ، وعليها مائة وتسعين من البحارة ، وخمسةائة وثمانين من الرجال ، وستة عشر فرساً ، وعشرة مدافع . وفزلت الحملة على ساحل المكسيك حيث أقاموا الصلاة وبدأوا فى الإتصال برؤساء الأزانكة وأعطوهم بعض الخرز . وعاد الأزانكة يحملون هديتهم بدون حذر ، وكانت عبارة عن صناديق مليء بالذهب ، هدية من إمبراطورهم مونتزوما ، وكانت الطامة الكبرى : إذ أن كورتيز قد طلب من الرسل أن يطلبوا من سيدهم الإستمرار فى إرسال الذهب ، وكثير من الذهب ، بدعوى أنهم مرضى بالقلب ، وأن علاجهم لم يكن سوى الذهب . وأسرع كورتيز بجمع عدد من الحمالين من قبيلة كانت قد ثارت على حكم الأزانكة ، وسار على رأسهم إلى مكسيكو . وتمكنت شيوخه ومدفعيته من القضاء على جيش من الهنود بلغ أربعين ألفاً ، وقبيل مونتزوما إستقبال الاسبانين وهو لا يعرف أن كانوا من الرجال أو الآلهة ، بعد أن سماع قصص مدافعهم ، وللتقت حضارتان عند مدخل مكسيكو ، وكانت كل منهما تتحدى الأخرى . وعسكر أربعائة اسباني فى النقط الإستراتيجية من مكسيكو ، وفى قلب إمبراطورية بلغ عدد سكانها اثنا عشر مليوناً . ولم يتردد كورتيز فى تحطيم تماثيل آلهة الأزانكة وفى نصب تماثيل السيدة العذراء على المذبح . وطلب من مونتزوما أن يقسم بولائه ، ثم إستولى على أطنان من الذهب من القصر الملكى . ونصبت إمبراطورية الأزانكة تماماً فى مدة سنتين ، رغم أن الأهالى قد قاموا بمحاولات عديدة للدفاع عن أنفسهم ، وتكثروا من إجبار الاسبانين ، فى ظروف

معينة ، على الفرار من العاصمة ، مشيعينهم بصيحاتهم وبالأحجار والسهام . ولكن
الاسبانيون عادوا ، وقتل مونتزوما ، وأصبحت إمبراطوريته تسمى إسبانيا
الجديدة في سنة ١٥٢١ .

وجاء دور الانكا بعد الإزاتكة وتم إخضاعهم في سنتين ، وكان قائد العمليات
ضدها هو فرانسوا بيزارو ، الذي كان من رجال البو في عملياته الأولى . وكان
بيزارو قد بدأ حياته في أحد المزارع ثم تطوع كجندى ثم كبجاء . ولم يكن
يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه كان يمتاز بالقسوة وغلظة القلب . وعبر خط
الاستواء وعرف أن أحد الملوك الأقوياء والأغنياء يحكم في بيرو فعاد وشرح
القضية لبلاط طليطلة ، وذكر أن بيرو لم تكن إلا ذهباً يستولى عليه ، ونفوساً
تطلب الهداية والدخول في المسيحية . فمنحه البلاط مرسومًا بتعيينه قائداً أعلى
وحاكماً عاماً لما سيصبح قشتالة الجديدة فيما بعد واستند بيزارو الى هذا المرسوم ،
وأخذ في جمع رجاله وتنظيم جيشه الذي وصل إلى سبعة وعشرين فرس ، ومائة
وثمانين رجل زادوا فيما بعد نتيجة لوعدهم بالحصول على الأسلاب والغنائم .
وعبر الصحراء القاحلة ، ثم التهم المغطاة بالشواج ، ووصل إلى الانكا وشرح
له أن مرسوم البابا قد قسم العالم ، وأن البابا يمثل السيد المسيح في الأرض ، وأنه
هو ، فرانسوا بيزارو ، يمثل ملك إسبانيا . ولكن الانكا لم يكن يعرف غير
الإله الشمس الذي كان في نفس الوقت جده الأكبر ، ولم يكن قد سمع بالسيد
المسيح ولا بملك إسبانيا ، فالقى بالكتاب المقدس الذي أعطاه له بيزارو على
الأرض . فلم يكن من بيزارو إلا أن لوح بمنذيله الأبيض ، وكانت علامة متفق
عليها للهجوم والالتحام . وتصايح الاسبانيون وأطلقوا بنادقهم ومدافعهم ثم
هجم الفرسان ، وتبعثر حفل الاستقبال وقبض الاسبانيون على الإمبراطور ،
وأخذوا يتمرغون على الذهب ويضعون الأسرى في السلاسل . وقد قبل الانكا
أن يفدى نفسه بمليء الحجر التي مبعج فيها بالذهب ، وحتى إرتفاع تسعة أقدام ،

ونفذ وعده ، ولكن بيزارو لم يترك الأسير ، وحكم عليه بالتمديد ثم بالقتل ،
لا الواحدة أو الأخرى . وأصبح آخر أباطرة الانكا مسيحياً ، ثم خنقه المسيحيون
الاسبانيون .

ولم يتحرك شعب الانكا ، خاصة وأنه قد تمرن منذ فرون ، على الطاعة
السلمية ، فقبل الموقف الجديد واعتقد أنه غير امبراطوراً بامبرطور آخر . ومد
أثنا عشر مليوناً ، من العبيد ، أيديهم إلى الأسبانيين . لكي يضعوا فيها السلام ،
كما يقول المؤرخ جان ديكولا .

ولم يكن بالبو كورتيز وبيزارو إلا أشهر الغزاة . فلقد كان هناك الكثيرين
غيرهم ممن تعرضوا للعواطف وللسمام المسمومة وساروا في الادغال . ولكن
هؤلاء كانوا يمثلون الطبقة الأولى من الغزاة ، التي تميزت بحبها للغزو ، وبأملها في
الحصول على كل شيء .

وبعد أن انتهت خرافات الخان الأعظم ، أو الخافان ، وخرافات يوحنا
الراعي ، ظهرت خرافات جديدة ، إتصلت بالعالم الجديد . فوجد أن أحد رجال
بيزارو ، ويسمى أوربيانو ، قد سمع بعض الهنود يتحدثون عن مملكة مملوءة
بالذهب ، وعن أن ملكها كان يعطى نفسه بالتبر : أنه الملك الذهبي والدورادو ،
وكان قد ورث الانكا وأسس امبراطورية جديدة في داخل القارة . وانتقلت
هذه الخرافة من فم لآخر ، حتى أصبحت وكأنها حقيقة . وأضاف كل فرد إليها
قليلاً حتى روت وجود أسدين مقيدين بسلاسل من ذهب لحراسة القصر
الامبراطوري ، وأن الأنايب التي توصل الماء إلى النافورات كانت من الذهب ،
وأن جبال من الذهب الخالص كان يشرف على الاقليم . وقام المستكشفون بالبحث
عن هذا « الدورادو » العجيب لمدة قرنين ، وبحشوا عنه في كل مكان دون أن
يعثروا عليه . ولكن ذلك البحث سمح لهم بالتوغل داخل القارة ، وبالسيطرة
على مناطق أوسع ، وبتهب ما اتصل إليه أيديهم .

ولقد قام المستكشفون بارتداد منطقة فاوريديا ، وساروا من المكسيك حتى كاليفورنيا ، وقام غيرهم بالنزول حتى شيلي ، ووصل آخرون إلى غرناطة الجديدة ، التي أصبحت تسمى فيما بعد بكولومبيا ، وبدأ مندوزا من نهر ريودي لابلانا غزو الأقاليم التي ستصبح الأرجنتين فيما بعد .

الواقع أن هؤلاء الغزاة لم يكافئوا على المجهودات التي قاموا بها إلا من الناحية المعنوية ، وذلك بتسجيل اسمهم في تاريخ الاستعمار ، خاصة وأنهم قد تحاربوا فيما بينهم ، وشابهوا في ذلك الأطفال الذين يتنازعون لعبة معينة ؛ كما شابهوا رجال العصابات الذين يقتتلون عند تقسيم الأسلاب . ولقد غضب البلاط عليهم ، فكان يتهمهم بالخطورة ، إذا كانت لهم صفات رجال الدولة مثل كورتيز ، وكان البلاط يقضى عليهم ويبعدهم ، إذا لم يتميزوا بصفات القيادة . وكثيراً ما قضى عليهم في أثناء قيامهم بعملياتهم إما من الأسبانيين وأما من الهنود الحمر ، مثل بالبو ، الذي قطعت رأسه ، وبيزارو الذي طعن بالسيف وغيرهم من غرق أو توفى بالحمى ، أو أصابه الجنون أو وقع في أيدي الهنود الحمر . ولكنهم قاموا بعمل استعماري واضح ، وإمتدت الامبراطورية الأسبانية التي أنشأوها واشتملت على كل جزر الأنثيل ، والبرزخ الذي يصل بين الأمريكتين ، والمكسيك مع سواحلها ، وجزء هام من الشريط الساحلي للقادة الجنوبية ، واشتملت على امبراطورية الأزاتكة وامبراطورية الانكا .

إمتدت هذه الامبراطورية من كاليفورنيا حتى شيلي ، ولمسافة عشرة آلاف كيلو متراً ، ولم يحكم الاسكندر الأكبر ولا روما ولا جنكيز خان على مثل هذه الامبراطورية .

ولكن هناك نقطة ضعف أخذت في الظهور بالنسبة لهذه الامبراطورية ، وكان ذلك بسبب المرسوم البابوي الذي احتفظ للبرتغاليين بالأراضي الواقعة إلى شرق خط التقسيم . لكن كابرال تمكن من استكشاف أحد السواحل في هذه

المنطقة ، في قادة أمريكا الجنوبية ، لحساب بلاط لشبونة ، وأسماء ساحل الصليب المقدس سانتا كروز . وكانت هذه المنطقة هي التي تزود العالم بخشب الموجود . وتحولت سانتا كروز فيما بعد إلى البرازيل واكتشف فيها أحد الغزاة في شهر يناير سنة ١٥٣١ خليجاً جميلاً ، أنشأ عليه مدينة سميت ريودي جانيرو . وبدأت الامبراطورية البرتغالية في الاتساع في العالم الجديد . ولكن اليوم الذي ضمت فيه إسبانيا البرتغال سنة ١٥٨٠ عمل على توحيد هاتين الامبراطوريتين اللتين إمتدتا من الميسيسيبي حتى أقصى الجنوب ، وأصبحت كلها إسبانية ، وأفادت قشتالة من كل هذه العملية .

٤ - إدارة الهند الغربية :

أعلن تاج قشتالة للملوك والدول امتلاكه للعالم الجديد في سنة ١٥١٩ إسقناداً إلى منحه الكرسي البابوي وإلى الحقوق الأخرى ، وبشكل يجعل من هذا التاج صاحباً للهند الغربية ، وللجزر والقارات الموجودة في البحر المحيط ، سواء التي اكتشفت أو التي ستكشف فيما بعد وجاء الاستعمار بعد عصر الغزو . أي عصر الاستغلال لإتمام عملية الفتح ، والوصول بالوسيلة إلى الهدف . ولم يكن الإسبانيون مستعدين في هذا الوقت لإدارة امبراطورية شاسعة ، وبهذه الطريقة ، ولكنهم تمكنوا رغم ذلك من حكمها وإدارتها ، بالسيف والنهب والقتل ، وبغيرها من الوسائل التي كانت سهلة ، وأسهل بكثير من إدارة وحكم شعوب غلبت على أمرها . ولم يتورع الإسبانيون عن اتخاذ أي وسيلة للوصول إلى أهدافهم البدائية ، والتي كانت تنحصر في الحصول على الذهب وشحنة في السفن . ولم يتردد الحكام الإسبانيون الأوائل ، قانوناً أو فعلاً ، أمام وخز ضمايرهم ؛ بل كانوا يعملون ، ويعملون لأنفسهم أن لم يكونوا يعملون من أجل الملك . فكانوا يقسمون الكنوز بين الجنود ، ويقسمون الأرض بين الضباط . وإذا قاموا بأي مجهود للإدارة ، فإن هذا المجهود لم يزد عن كونه نقل نظم إسبانيا إلى أمريكا كما هي ، فكانوا يعينون القضاة والقواد ، كما لو كانوا في الجزيرة الخضراء أو في قادس . وحملت الهيمنة الملكية مع الزمن محل أهواء الاقطاعيين والغزاة ، وإن كانت العملية قد

تمت على مراحل . وأنشأت هذه السلطة الملكية حكومة مباشرة ؛ كانت تباشرها من اسبانيا ، وتنفذ تعليماتها في العالم الجديد .

وكانت الهيئة المركزية في اسبانيا تتمثل في مجلس الهند ، الذي كان يعاون الملك ، مثلما كان يعاونه مجلس قشتالة أو مجلس أراجونيه أو مجلس الحرب أو غيرهم . وحل هذا المجلس محل المراقبة العامة لشئون الهند ، والتي كانت قد أنشئت بسرعة ، بعد رحلة كولومبو الأولى للعالم الجديد . وكان هذا المجلس يخضع لمستشار أعلى لشئون الهند ؛ وكان يعد القوانين ، ويعتبر محكمة للاستئناف ، ويتدخل في كل قرارات الكنيسة المتعلقة بالعالم الجديد . فكانت له في واقع الأمر جميع السلطات التشريعية والقضائية وحتى الدينية .

أما السلطة التنفيذية فكانت في العالم الجديد ، وقد نظمت على أساس حكم «الأنليامنتو» ، أو حكم البلديات في قشتالة . وكان هذا النظام يتلخص في إنشاء مجلس خاص في كل إقليم ، بتشكيل من ثلاثة أو أربعة مسؤولين ، ويجتمع في أول الأمر كمحكمة ، ثم أصبح يجتمع بعد ذلك كمجلس . وكان الحاكم هو الذي يرأسه ويستشير . وفي أعلى القمة فصل إلى نائب الملك ، أو بمعنى أدق . نائبى الملك ؛ الأول في المكسيك . والثاني في ليما ، وكان كل منهما يسيطر على نصف العالم الجديد ، بخلاف الانتيل ، وهافانا ، التي كانت لها قيادة عامة خاصة بها .

وكانت هناك شخصية واحدة ، هي نائب الملك ، يعينها الملك ، وتمثله وتمييزه على شئون الحرب والسلم والأرواح . وكان نائب الملك يعين كبار الموظفين ، ويشرف على الاقتصاد والمالية ، ويلاحظ الكنيسة ، أو يراقبها . ولكن سلطاته واختصاصاته كانت محدودة . خاصة وأن البلاط كان يخشاه ، فقد تعينه بمدة ثلاث سنوات ، وأجبره بعدها على البقاء في المستعمرة لمدة ستة أشهر ، حتى يسمح لكل من يعارضه أو يطالبه بشيء ، أن يتقدم ضده بما يرغب . وفي نفس الوقت أعطى الملك لأعضاء المجالس حق مخاطبة البلاط رأساً ، كما كان يسمح لنفسه بإرسال

بعض كبار الموظفين ، كزائرين أو مفتشين من وقت لآخر . ولقد سار هذا النظام بدقة عجيبة ، خاصة إذا نظرنا إلى السرعة اللازمة لتقويم الأمور ، وإلى اتساع الامبراطورية ؛ ولكنه كان يتسبب في بعض التضارب بين السلطات ، كما تسبب في بعض الأخطاء الواضحة ؛ وكان أكبر خطأ فيه أنه قد وضع عن طريق الأسبانيين ، وللأسبانيين ، كما لو كانت أمريكا إحدى المقاطعات الإيبيرية ، وكما لو كانت لا تسكنها ملايين من الهنود الحمر . لقد كان وجود الهنود حقيقة واقعة ، وكان واجب الأسبانيين أن يحسبوا حساب هؤلاء الملايين ، الذين كانت لهم ألفتهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم . ولكن أغلب المعمرين الأسبانيين كانوا لا ينظرون إلى الهنود الحمر إلا نظرهم إلى المتوحشين آكلى لحوم البشر ، نظرهم إلى شعوب تفضل العيش عرايا ، شعوب بأكمها من المخادعين الكذابين الخائنين ، من السكارى القساة الكسولين ، شعوب لا تستحق أن تدخل في المسيحية يوما من الأيام . ولكن هناك من الأسبانيين من رآهم شعوباً خاضعة صبورة محبة للسلم ، ووجد في نفسه الرغبة في الدفاع عنها ، فأين الحقيقة ؟

وكان المعمرون متسلطين ومتعجرفين ولا يعرفون التسامح . ويعتقدون أنهم جاءوا إلى أمريكا للثراء ، ويترددون في إعلان ذلك . وحينما طلبوا من بنزارو القيام بواجبه المنشر المسيحية بين الهنود الحمر ، أجاب أنه لم يأت إلى العالم الجديد من أجل ذلك ، وإنما أتى للاستيلاء على ذهبهم . وكانت الأقلية هي التي تنادى بضرورة الاحتفاظ بالهنود الحمر وتهذيبهم وكسبهم إلى إسبانيا المسيحية . حقيقة أن البابا قد وضع مهمة التبشير بالمسيحية بين الهنود قبل أى عملية أخرى في العالم الجديد ، وأصر بولس الثالث على أنهم في وضع يسمح لهم بفهم الديانة الكاثوليكية ، بل وأنهم شعوفين باعترافها ، على حد ما يفهم ، ولذلك فإنه من الواجب عدم الإضرار بهم في حريتهم أو في ممتلكاتهم ، والإبتعاد عن إستبعادهم بأي طريقة من الطرق . ولقد تردد الملوك الكاثوليك في قسمة

بين هذين الاتجاهين . وأوصت الملكة ايزابيلا في وصيتها بعدم الإضرار بالهنود ، وبضرورة معاملة هذه الشعوب بالطيبة والعدالة . كما أن شارل الخامس ، ورثها الثاني ، قد ذكر حكمه بأن الله قد خلق الهنود أحرارا لاتابعين .

ورغم ذلك فقد استمرت الأخطاء ، من تعذيب وإتهاك يسمح بفضح طغيان الإسبانيين ذلك أنهم قد منعوا الهنود الحر من حمل الأسلحة ومن ركوب الخيل ، وقضوا على الأهالي قضاء تاما في مناطق بأكملها ، بسوء المعاملة أو بالقتل ، كما حدث في هاياتي . وأخذ الكتاب منذ عهد لاس كازاس في فضح هذه الجرائم ، وطالبوا الحكومة الإسبانية بضرورة المحافظة على أرواح الهنود ، دون أن يذكرها إن كان هدفهم هو السياسة ، أو ضرورة الاحتفاظ بالأيدي العاملة اللازمة للمستعمرات ، أو زيادة عدد السكان المسيحيين في العالم . حقيقة أن فظائع الإسبانيين تجاه الأهالي كانت أشد فظائع الإبادة الاستعمارية منذ بداية تاريخ الاستعمار ، ولكن صيحات الاعتراض على هذه الفظائع كانت كذلك أشد الصيحات حتى ذلك الوقت .

ولقد حاول بعض رجال الغزو والإستعمار الأوائل أن يدافعوا عن الهنود الحر ، مثل كورتيز الذي ما أن نزل على سواحل المكسيك سنة ١٥١٩ حتى أمر جنوده بعدم تعذيب الأهالي ، وبمصاصتهم إلى قراهم دون الاعتداء عليهم أو جرحهم أو التعرض لأملاكهم . وكانت هذ هي المبادئ الأولى لمحاولة ضم الهنود الحر ، وضمهم نهائيا إلى النظام الإسباني . ولكن عمليات أخرى قامت في جهات متعددة ، وأوجبت صيحات الإنسافية . واثارت « المشكلة الهندية » طوال القرن الأول للاستعمار الإسباني ، وبمناسبات ، متعددة . وكانت إسبانيا تتساءل بقلق عن مهمتها في العالم الجديد ، وعما يجب عليها أن تقوم به كدولة مستعمرة في أمريكا .

الفصل الرابع عشر

الاسبانيون

لقد تزعم بعض رجال الدين والمفكرين من الاسبانيين حركة الدفاع عن الوطنيين ، أو الهنود الحمر ، ضد معاملة المعمرين والحكام الاسبانيين في العالم الجديد . وكانوا مخلصين في عملية دفاعهم ، ومخلصين في أهدافهم التي كانوا يرغبون في الوصول إليها ، سواء أكان ذلك للإحتفاظ بالهنود الحمر كشعوب وأيدي عاملة يمكنها أن تنتج ، أو كان ذلك للإحتفاظ بهم كرعايا للكنيسة الكاثوليكية ، وزيادة عدد المسيحيين في العالم ، أو كان ذلك لتطوير حركة الإستعمار الإسباني بشكل يجعلها تخدم الإنسانية والمدنية ، بدلا من أن تقوم بإستغلالها ، أو بالقضاء على كثير من أبنائها .

١ - بين الانسانية الوحشية :

ولقد ترأس إثنان من الرهبان الدومينيكان عملية الدفاع عن الهنود ، بل الهجوم على الإستعمار في العالم الجديد، وهما أنطوان دى مونتسينوس، وبرتلوم دى لاس كازاس ، ولقد هاجم مونتسينوس المعمرين ومبدأ الإستعمار نفسه في خطبته الطنانة التي ألقاها في إسبانيا : « لقد صعدت على هذا المنبر لكي أشرح لكم أخطاءكم تجاه الهنود ، إن خطأكم جسيم ، وخاصة نتيجة لقسوتكم تجاه هذا الجنس البري . . . فبأي حق قتم بإعلان حرب ذنيفة ضد هؤلاء الناس الذين يعيشون في بلادهم وفي سلام ؟ وما هو السبب لترككم أيامهم في مثل هذه الحالة من الإنهاك دون إطعامهم والإهتمام بصحتهم ؟ . . . » كان معنى ذلك هو عدم شرعية الغزو الإسباني ، وهدد مونتسينوس برفض مبادئ الاسبانيين المتطرفين .

وضم لاس كازاس صوته لهذه الحركة . وكان قد بدأ حياته مزارعا قبل أن يتفوغ لخدمة الدين ، وواصل كفاحه حتى آتت أيامه للدفاع عن الهنود ، بشكل جعل منه أكبر مدافع عنهم ، وترك مادة غزيرة ، وصف فيها ما خضعوا له من ومخشية . ولقد وصف الحروب ضد الهنود بأنها غير عادلة وأنها طغيانية ، ووصف الذهب والفضة والمجوهرات والأراضي التي أخذت منهم بأنها منوبة ، ومن الواجب إعادتها إلى أصحابها . وفضح لاس كازاس مساوئ الإستعمار بشدة ، جعلت من مادته أسلحة قوية ، أفاد منها أعداء أسبانيا نفسها .

ولقد اضطرت سلطات قشتالة إلى محاولة إيجاد سياسة معقولة يمكنها أن توفق بين مطالب الإستغلال الاقتصادي ، وإتجاه رجال الكنيسة . وسمعت بالقيام بتجارب هامة في العالم الجديد . وكانت التجربة الأولى تتعلق بتحرير الهنود ، وأسس أحد القضاة ثلاث قوى للهنود المحررين في إسبانياولا ؛ ولكن الفشل كان تاما ، إذ أن الهنود قد امتنعوا بعد تحريرهم عن القيام بأى عمل . أما التجارب المماثلة والتي وقعت في كوبا ، فإنها لم تكن أكثر إيجابية . ثم قامت تجربة ثانية للإستعمار السلمى ، ذلك أن لاس كازاس قد حصل في فنزويلا على ٣٦٠ فرسخاً مربعاً ، وإختار مزارعين من إسبانيا ، ووعد بمنحهم لقب «فرسان المهاز الذهبى» . ولكن الفشل كان تاما ، إذ أن هؤلاء الفرسان المزارعين كانوا يرغبون فى الحصول على الذهب ، أكثر من رغبتهم فى الحصول على الأراضي ، وتحولوا بمجرد وصولهم إلى العالم الجديد ، إلى عصابات لصيد الهنود ، ولإستخدامهم كعبيد فى زراعة الأرض . أما التجربة الثالثة فكانت تهدف إلى تحويل الهنود إلى المسيحية ، وبطريقة سلمية . وحاول لاس كازاس أن يحولهم بكل هدوء ، وإختار منطقة يمتاز أهلها بحب الحرب للقيام بتجربته ، وهى منطقة جواتيمالا . والواقع أن بعض الهنود قد تمسحوا ، بعد سماعهم لصوات الدومينيكان أو بعد إهجابهم باللعب والإدوات الصغيرة التي كان الأسبانيتيون

يوزعونها عليهم. وقبل رئيسهم بناء كنيسة ، وتحولت المنطقة إلى بلاد سلم، وإن كان هذا التحول سطحيًا ، ولم يتمكن الهنود من معرفة المسيحية . وبعد فترة من الزمن قام الهنود بقتل راهبين، وسلبوا ثالثًا أمام أحد الأصنام ، وشيعوا أنصار لاس كازاس بالسهام ، وأحرقوا المستعمرة . وكانت نتيجة هذه العملية خطيرة بالنسبة للهنود ، وبالنسبة للإسبانيين ؛ ذلك أن الهنود قد تأكدوا لأول مرة من أن الإسبانيين ليسوا آلهة ، بل مثلهم من البشر، معرضون للوئ ، ويمكن قتلهم. فقلت درجة سلبية الهنود وتواضعهم؛ وأخذوا يرفضون العمل، ويفضون معيشتهم السابقة قبل وصول الإسبانيين .

وكان كل من الملك ومجلس الهند في إسبانيا يحاولون وضع سياسة المستعمرات الجديدة . ولكن ، هل كان في وسعهم إعلان الحرب على الهنود ؟ لقد قرروا عدم القيام بأى عمليات عدائية ضدهم ، إلا بعد أن يقرأ عليهم إنذار بذلك ، وهذا الإنذار كان يطالبهم بالاعتراف بالكنيسة والبابا والملك كأصحاب للسيادة ، وسادة عليهم ، ولإلا فإن الإسبانيين سيأخذونهم ، ونساءهم وأطفالهم ، ويجعلونهم عبيدًا ، يبيعونهم ويوزعونهم كما يرغبون . وسيأخذون أملاكهم ، ويعاقبونهم ويؤدبونهم ، كما يفعلون مع أى تابع ثائر . ولكن هذه الطريقة لم تكن عملية ، ولم يكن من السهل على الهنود إحترامها . واستخدم الإسبانيون وسائل أخرى للمحافظة على السلم في المستعمرات، وصدرت الأوامر بعدم خروج أى حملة دون موافقة رجال الكنيسة الملحقين بالجيش كتابيًا على ذلك . ومنع لاس كازاس أى عمليات حربية لم تكن مزودة بأمر صريح من الملك ومجلس الهند . ثم منع شارل الخامس قيام أى حملات إستكشافية في العالم الجديد إلى أن تتم محكمة بلد الوليد قرارها الخاصة بشرعية الغزو. ولم يشهد العالم حتى الآن غزاة متصرين يشكون في أنفسهم وفي عملياتهم بهذا الشكل الذى يؤثر عليهم وعليها . وكم من إسباني أعلن في ذلك الوقت في العالم الجديد أن الأراضي التي

يطأونها هي ملك للهنود . ولم يتمكن المستشارون وفقهاء بلد الوليد من اتخاذ موقف حاسم واضح بين النظريات المتعارضة التي كان لاس كازاس يمثل طرفاً منها ، وغلاة الغزو يمثلون الطرف الآخر . فاستمرت الحرب ، ولكن على أساس أن تكون حرباً عادلة ، وأن يسمى كل غزو بعد ذلك بأنه مجرد عملية تهدئة

• Pacification

وقامت مجادلات أخرى حول طرق التبشير والتعميد . وإذا كانت الوسائل السلمية قد فشلت ، فهل كان من سلطة الأسبانيين استخدام القوة لتحويلهم إلى المسيحية ؟ لقد ردت بلاد حاكم التفتيش بالإيجاب ، وأصبح تحويل الأهالي إلى المسيحية يعتبر جزءاً من مهمة الغزاة في العالم الجديد . وقام الأسبانيون بهدم الأصنام ومنع الأعياد الدينية ، وفرضوا التعميد والزواج على الطريقة الرومانية ، والصلاة في يوم الأحد . وإندهش معظم الهنود ، ولكنهم لم يعارضوا ، وقبوا أن يحتملوا مع شروق الشمس حول الصليب ، ويقوموا بالإشارات التي يعملها لهم المسيحيون . وكانوا في بعض الأحيان يخاطرون بين العقائد ، ويتصورون مسيحياً أسود في جواتيالا ، وكان غيرهم مخافاً على آلهته . وكان بعضهم يتساءل عما إذا كان هناك إسبانيين في الجنة ، فإذا كان الأمر كذلك ، فهم يفضلون الموت ، على غير المسيحية ، حتى لا يلتقوا بالأسبانيين في العالم الآخر . وكان الغزاة لا يفهمون هذه المقاومة ، وفكر بعضهم في استخدام القوة لانهائها ، ولكن لاس كازاس أعلن أن القوة لا تمشي مع الروح المسيحية ، رغم أن معارضيه أصرروا على أن التبشير يحتاج إلى جنود ، وعلى أن عملية تحويل الهنود إلى مسيحيين لا يمكنها أن تتم إلا في ظل طلقات البنادق .

وأخيراً فهناك مشكلة العمل الاجباري ، أو السخرة ، التي كانت تقسم المعمرين إلى قسمين . وكان الغزاة يرغبون في تعبئة الأيدي العاملة المحلية ، لاستغلال الأرض التي منها يعيشون ، وما تحت الأرض التي منها يثرون ويفتنون .

فكانوا يرون السخرة أمراً طبيعياً ، ولكن الأهالي أجابوا بالفرار إلى الأدغال والغابات . فاضطر الاسبانيون إلى تقييد نظام العمل الاجبارى . وكانت القرى الموجودة فى كل قطعة أرض أعطيت لأحد الغزاة ، تتجمع تحت رئاسة شيوخها الوطنيين ، وكان الهنود يعملون تحت الرئاسة الوطنية من أجل السيد الاسبانى . وكان هذا النظام لا يختلف كثيراً ، إلا من حيث الشكل ، عن نظام العبودية . ثم عمده الاسبانيون بعد ذلك إلى إبدال الرئيس الوطنى ، برئيس إسبانى ، بدعوى العمل على تحسين مصير الهنود ، والسماح بالحصول منهم على إنتاج أوفر . وكان الرئيس الاسبانى يكلف بإطعام وإلباس وحسن معاملة رجاله من الأهالي ، وذلك فى نظير الحصول منهم على عمل ، بقى إجبارياً : ولكن الهنود لم يفضوا هذا النظام على النظام السابق ، وكانوا لا يهتمون بالعبودية ، ويفضلون عدم العمل . وصدرت قوانين إسبانية ، بعد إستشارة لجنة دينية ، وأكدت تطبيق هذا النظام فى سنة ١٥١٢ مع أمرها بهدم أكواخ الأهالي القديمة ، حتى تمنعهم من الرغبة فى العودة إليها ، رغم أنها امرت بمعاملاتهم معاملة إنسانية ووضعت شروطاً للاعتناء بهم وحماية نسائهم وأطفالهم . فأصبح على الهنود أن يعملوا من أجل الاسبانيين لمدة تسعة أشهر فى كل سنة ، ويقضوا الثلاثة أشهر الباقية فى خدمة أرضهم . ولكن لاس كاناس وجد أن هذا النظام كان شديداً ، ووصلت صيحاته إلى برشلونة ، وأثرت على شارل الخامس ، الذى أصدر أوامره ثورية فى سنة ١٥٤٢ تنص على عدم إستعباد أى هندي ، وعدم استخدام أى هندي ضد رغبته ، وبمنع كل نواب المملك وجميع الضباط من اعطاء أى أوامر لتكوين جماعات العمل الاجبارية ، من الهنود ؛ وأصدر أوامر بتحرير الأهالي وبمنع استخدامهم فى الحل ، وبتكفل الحكومة بهم فى حالة وفاة سيدهم .

ولكن مطالب الاستغلال وصيحات المستعدين كانت أقوى من وعظ رجال الكنيسة ، وأقوى من الاراسيم الملكية ، فانهاالت الآراء والتقارير على شارل

الخامس بشكل جعله يديد السماح بتكوين جماعات العمل الإجبارية ، ولكن مع المحافظة على النصوص التي تمنع من سوء التنفيذ ، وسوء المعاملة . فهل تغير الوضع ، عملياً ، بالنسبة للهندي ؟

ودافع الملوك الاسبانيون عن الهنود ، وظهرت قوانين جديدة تحدد واجبات الاسبانيين وحقوق الالهالي ، فلا يمكن طرد أحد الهنود من مكان يقيم فيه . منذ أكثر من ٤ سنوات ، ولا يجوز فرض أى عمل على النساء وعلى الأطفال الذين يقل عمرهم عن ١٨ سنة ، ولا يمكن استخدام الشيوخ بعد سن السبعين ، ومن الواجب إنهاء العمل اليومي مع غروب الشمس ، وأن يتمتع العامل بساعة للراحة في وسط النهار ، ومن حقه التمتع بيوم الأحد وبيومين آخرين كل أسبوع للاعتناء بحقله ، وب عشرة أيام أخرى كل سنة . فلم يبق من أيام العمل الفعلية في العام ، وبعد حساب الأعياد الكثيرة ، إلا ما يتراوح بين ١٣٠ ، ١٤٠ يوماً ، وكان ذلك كثيراً بالنسبة للهنود ، وقليل جداً بالنسبة للاسبانيين ، الذين لم يحترموا هذه القوانين الجديدة .

ولأننى الأمر بترك الحرية للهنود في الاختيار بين العمل في جماعات العمل الإجبارية ، وحرية الحياة ، أى حرية البؤس في الجبال ، بعد أن استولى الاسبانيون على أراضيهم . ولقد فضل الهنود حریتهم ، واختاروا البؤس مع الحرية ، على الطعام مع العمل في ظل العبودية ، فاضطر الاسبانيون إلى تغيير هذه التشريعات وأبقوا الهنود في ظل الاستعباد الفعلي ، رغم أن قوانينهم كانت تدل على غير ذلك ونشأت نفس المشكلات في البرازيل . وكان للشهوة أيضاً مجلساً للمهند . وكانت مستعمراتها مقسمة إلى قيادات عامة ، ومزودة بالموظفين . ولكن الغزاة البرتغاليين كانوا أكثر تساهلاً من الاسبانيين ، وأقل تحكماً منهم في الالهالي . فكثير من تزوج منهم بنساء من الهنود ، وتمكن رجال التبشير البرتغاليون من التوغل في الغابات ، ومن هداية بعض الالهالي .

وعلى أى حال ، فرغم توتر العلاقة بين الغزاة والاهالى حول العمل ، فإن العالم الجديد كانت تنقصه كثيرا من الأيدى العاملة ، وكان إنتاج الهند منخفضا ، وكثيرا ما كانوا يقومون بعمل ردىء وكانوا لا يصلحون للعمل فى المناجم ، وتزايدت نسبة الوفيات فيما بينهم فاتجهت الأنظار إلى إفريقية لإحضار المدد من الزنوج والعبيد . ولاستمرار عملية الإستغلال .

٢ - تجارة العبيد والتخطيط .

إذا ما عبرنا المحيط الأطلسى لمشاهدة ما كان يحدث فى إفريقية فى الوقت الذى كانت فيه إسبانيا تستعمر قارتها الأمريكية. لوجدنا أن السلطان العثمانى قد إستولى على مصر وانضم إليه ساحل شمال إفريقية، أما فى المغرب الأقصى فإن دولة السعديين ، التى كانت قد جاءت من وادى درعا ، كانت تقاوم الاسبانيين والبرتغاليين ، الذين ناموا بالهجوم على هذا الاقليم ، وإحتلوا مواقع مختلفة من سواحله . وكان البرتغاليون قد ساروا على طريق فاسكو داجاما ، وعلى طول السواحل الأفريقية ، وأنشأوا عددا من المراكز المحصنة ، التى كانوا يستخدمونها كمحطات لتزويد سفنهم بما يلزمها ، من الرأس الأخضر إلى زنبار ، فأقاموا فى سان توما ، وفى أنجولا فى سان بول دى لواندا ، وفى موزمبيق ، ووجدوا معادن النحاس والفضة فى حوض الكنگو ، أما بقية قلب القارة ، من النوبة والسودان حتى رأس الرجاء الصالح ، فكان بعيدا عنهم ، وكانت تسكنه قبائل بدائية يجهلونها . ولم تكن هناك علاقات إقتصادية منتظمة فى هذه الغوضى الكبيرة التى ضربت أطناها فى إفريقية ، إلا للتجارة فى الملح وفى الرقيق الذى كان يوصل إلى العالم الإسلامى والاقاليم العثمانية ، ولكن ذلك لم يمنع من وجود إمبراطوريات كبيرة فى إفريقية عرفها التاريخ ، مثل إمبراطورية غانا ، أوجهلها ، وظل يجهلها حتى الآن . وجاءت إمبراطورية سنغاي بعد إمبراطورية غانا وإمتدت على مسافة ٥٠٠ كم بين الشرق والغرب ، وإشتهرت على تمبكتو وعلى غيرها من الاقاليم التى كان الاسلام قد دخلها من شمال

إفريقية مع طرق القوافل . وكانت تمبكتو مركز إلتقاء القوافل وتجارة العبيد مع فاس والقيروان والقاهرة وحتى مع جنوا والبندقية . وكان تنقل الملح والذهب والنحاس والعبيد ، التي كانت إمبراطورية جوار تحتكر تجارتهم مع البلاد السودانية ولقد تفككت هذه الإمبراطورية حينما شعر أحمد المنصور الذهبي سلطان المغرب بشدة ضغط الأسبانيين والبرتغاليين والأتراك عليه ، وصمم على الإستيلاء على مناجم الملح والذهب الموجودة فيها ، وأرسل حملة إلى النيجر ، إشتملت على عدد من الأسرى المسيحيين والأسبانيين والأرمن والفرنسيين واليونانيين ، ولمكنها كانت منظمة على الطريقة التركية ، وكانت في خدمة الاسلام . وأخضعت هذه المحلية تمبكتو ، رغم أن نفوذ المغرب الفعلي قد تقلص بعد ذلك من المنطقة .

وكان تجار العبيد يربحون ربحا كبيرا من عملياتهم ، وكثيرا ما كانوا يتفقون عليها مع رؤساء القبائل ، وكانوا يجمعون « العاج الأسود » ويسلمونه للتجار البرتغاليين والإسبانيين والإنجليز الفرنسيين . وكان العبيد يركبون السفن ، بعد أن يتجهعوا في الموانئ ، وكانت عملية عبور المحيط فظيعة ، إذا كانت الأجسام ترص الواحد إلى جوار الآخر ، ودون أن تتمكن من الحركة . وكانت نسبة انوفيات تصل في المتوسط إلى ٣٠ أو ٣٥ ٪ في خلال هذه الرحلة .

أما السبب في إنتشار هذه الهجرة الجديدة الاستعمارية من إفريقية إلى العالم الجديد فكان هو المهرين الأسبانيين ، ورجال الدين المسيحي ، ولقد أوصى لاس كازاس ، صديق الهنود الكبير ، بإستيراد الهمال السود ، دون أن يفكر في أن تمنحهم فوائد قوانين الشياية ، التي كانت قد صدرت في صالح الهنود وعامل الأسبانيون القادمين الجدد على أنهم في مرتبة الحيوان ، وذكروا أن أروا لهم كانت مدواء مثل بيلودهم . وليس معنى ذلك أنهم كانوا يعذبونهم . بعد أن يستخدمونهم في المناجم أو في مزارع قصب السكر ، ولكنهم كانوا يحتفظون لهم بوضعية العبيد ، تلك الوضعية التي كانت تجعل منهم مجرد أدوات ومنقولات .

وكان التاج هو الذي يمنع تراخيص إستيرادهم ، ويربح من هذه العملية .
نتيجة للضرائب التي يفرضها على النقل ، وكان يبيع في الحالات إمتيازات تجارة
الرفيق إلى شركات خاصة ، أو إلى دول أخرى . عددًا معيناً من الرؤوس في السنة ،
نظير مبلغ معين من الدوقات أو القروش . وحصل البرتغاليون والاسبانيون
والهولنديون ثم فرنسا وانجلترا على عقود بهذا المعنى . أما تجار العبيد فكانوا
يربحون الكثير ، وكانت نفس السفينة التي تنقل البضائع من أوروبا إلى إفريقيا ،
تنقل بعد ذلك العبيد من إفريقيا إلى أمريكا ، وتعود بعد ذلك إلى أوروبا مشحونة
بالسكر والروم . وكانت هذه الرحلة المثلثة طبيعية ومنظمة وتستخدم فيها الحولة
الكاملة للسفينة . وكان أول تصريح بالاستيراد صالح لاربعة آلاف عبد ، ثم جاءت
الآلاف بعد الآلاف الأخرى . وإستمرت هذه العملية لمدة ثلاثة قرون ، وقامت
بأكبر عملية للتهجير الاجبارى في العالم ، ونقلت ملايين الرجال من قارة إلى قارة ،
وجئت شباب إفريقية ، وعمرت به أمريكا . وبلغ مجموع ما قام تجار العبيد باقتناصه
من إفريقية ، ما يقرب من أثنى عشر مليوناً ، وقام القناصة بمبيدتهم من أنجولا
وغينيا والسودان والسنغال وجامبيا ، وفي كل مكان يمكنهم أن يمشروا فيه عليهم .
ويفسر هذا كيف تحولت مدن مزدهرة ، مثل جاو وتمبكتو ، والتي بلغ سكانها
٦٠ أو ١٠٠ ألف إلى مجرد قرى صغيرة . ولم تصل من هذه الملايين الإثنا عشر
سوى ثمانية أو تسعة فقط إلى أمريكا . وكان يصل منهم ثلاثون ألفاً في السنة
يوزعون بين الأنتيل ، وخصوصاً هايتى ، وبين الأمريكتين . ولكننا لا نجد في
كل أمريكا ، وبعد ثلاثة قرون من عملية التهجير هذه ، إلا أربعة أو خمسة ملايين
زنجرى . ويرجع ذلك إلى أن القناصة كانوا يفضلون الرجال على النساء في تجارتهم ،
فكانت نسبة الزواج بين الزوج في العالم الجديد منخفضة ، وحالات المواليد نادرة .
ولاحتاج الامر إلى أجيال عديدة لموازنة أعداد الجفسين ، والسماح بقيام عملية
أوطين طبيعية . وكان الهنود من جانبهم غير مهتمين لقبول الحجارة اللاتينية ،

وبلغ عددهم ثلاثين مليوناً قبل وصول كولومب ، ثم انخفض عددهم إلى ثلاثة عشر بعد قرن ، ولم يبق منهم إلا عشرة ملايين بعد ثلاثة قرون من الاستعمار ، ومعظم دمائهم أصبحت مخلطة . ونشأ عن هذا التخليط جنس جديد في أمريكا الإسبانية البرتغالية . وكان الغزاة والمعمرون يحضرون شعباناً ، غير متزوجين ، ثم يتصلون بالهنديات ، ويدخلون ذلك في نطاق عملية الغزو . وعلى أى حال ، فإن الإسبانين غير المخاطين يعتبرون قلة . وكان كولومب قد توصل إلى تبديل عقوبة الإعدام بالنفى إلى المستعمرات ، عملاً على تعميرها ، فوصل مجرموا شبه الجزيرة الأيبيرية إلى أمريكا ، وكانوا أول معمريها . وكانت إسبانيا تفضلهم على غيرهم من أبناء الدول الأوروبية الأخرى ، وتقبل أبواب أمريكا في وجه أى شخص لم يكن من رعايا التاج ، فأقبلتها في وجه اليهود ، ووجه المغاربة والمسلمين والكفرة . ولقد قدر بعض الجغرافيين عدد المهاجرين من شبه الجزيرة الأيبيرية بمشرة آلاف شخص في المتوسط في السنة ، ووصل من ذلك إلى مليونين من المهاجرين في القرنين الأولين للاستعمار ، ومليونين ونصف إلى ثلاثة ملايين ونصف لفترة ثلاثة قرون ، ومنهم مليون من البرتغاليين . ولكن الأهالي غير المخاطين لم يرتفع عددهم إلا إلى ١٥ أو ٢٠ ألف من الإسبانين البرتغاليين بعد قرن ، ومليونين بعد ثلاثة قرون . ونلاحظ هنا أن نسبة الوفيات في الحروب ، والجنى والإرهاق قد فعلت فعلها ، وأن الخصوبة قد أعطت من المخاطين أكثر مما أعطت من أبناء قشتالة .

وهكذا تغير الوجه الانساني لأمريكا اللاتينية الحديثة ، وهاش فيها البيض والحر والسود . ولم يكن في وسع البيض أن يحافظوا على حكمهم وتحكمهم إلا إذا اعتقدوا في أنهم سادة ، وأنهم متفوقين على غيرهم ، وإلا إذا ما نجحوا في فرض أنفسهم - بهذه الصفات - على غيرهم .

٣ - استغلال أمريكا اللاتينية :

كان المعمر الاسباني ، أو الغازي ، يعتقد أن من حقه أن يربح كل شيء ، حتى ولو أدى ذلك إلى تحطيم الآلهي ، ما دام قد أحضر لهم المسيح ، وهو أكثر من أن يقارن بأى شيء يأخذونه منهم . ولذلك فإنه كان يستغل ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، وكان هدف المعمرين الأول هو البحث عن مناجم الذهب والفضة ، ورغم خيبة أملهم فإنهم لم يفقدوا الأمل مادام الآلهي يتزينون بالجواهر ، ومادام يحكم الازاتكة ، والانتكا قد تمكنوا من جمع كنوز كبيرة . وأخذ الاسبانيون يغسلون رمال الأنهار ليحصوا على التبر ، ويبحثون في الأرض بعناد حتى يصلوا إلى نتيجة . ووجدوا بعض الذهب وكثيرا من الفضة في المكسيك أولا ، ثم في بيرو بعد ذلك . واكتشف أحد الهنود الذى يرعى اللاما مع أحد ضباط بيزارو جيبلان الفضة ، على الهضبة : إنها مناجم بوتوسى التى سيزيد إنتاجها بشكل يسمح للأوربيين باستخدام كلمة « بيرو » للدلالة على الثروات الكبيرة .

وإضطر الاسبانيون إلى الحفر فى الأرض لاستخراج المعدن النفيس ، ولم يكن هذا المعدن نقيا فى أغلب الأحوال ، بل كانوا يضطرون إلى تحطيمه وغسله وتنقيته . وتمكن رجال الكيمياء من تحسين طرق فصل الذهب عن الفضة بمعالجتها بالزئبق . ووجد الاسبانيون - لحسن حظهم - مناجم الزئبق فى بيرو نفسها ، فزادت كميات الانتاج الأمريكية بشكل مذهل . وكانت المناجم مملوكة للتاج الذى يمنحها للمستغلين ، والذين يتعهدون بتسليم المالك جزءا من الانتاج ، يصل إلى النصف أو الثلث فى أول الأمر ، ثم إلى الخمس فيما بعد ذلك ... وكان هذا المعدن ينقل بحريا من بيرو إلى بنما ، ثم على ظهر البغال لعبور البرزخ ، واشحنه من جديد على سفن إسبانية متسعة وبطيئة . وحقق الانتاج الأمريكى من المعادن النفيسة آمال إسبانيا والمستعمرة فى وقت بسيط ، وكان يمثل خمسة أوسنة أطنان من الذهب ، وثلاثمائة طن من الفضة فى كل عام .

ولكن الأتيل لم تلعب أى دور فى هذه المغامرة للحصول على المعادن .

وإتجه المعمرون فيها إلى إستغلال الزراعة ، خاصة وأن أرضهم كانت تنبت
الأناناس والموز ، فصمموا على استغلالها في زراعة قصب السكر ، الذى يعطى
السكر والروم ، والذى قد يصل قيمة إنتاجه إلى ما يقرب من الذهب ، أن لم يكن
هذا الانتاج يقيم بالذهب . فأصبحوا مزارعين بدلا من اشتغالهم بالمتاجرة ،
وكررنا السكر بدلا من تنقيتهم للمعادن . وزرعوا الذرة وربوا الخنازير .
وبدأ المعمرون على القارة نفسها ، وفي المناطق التى لم يعشروا فيها على معادن ،
يفكرون فى مثل الانثيل ، فزرعوا التوت فى المكسيك ، والكروم والزيتون فى
بيرو ، والموالح والخوامض وأشجار التين والخبوخ فى كاليفورنيا ، وأصبح
الاسبانيون من جديد مستعمرين بكل معنى الكلمة .

وزاد هذا الازدهار الاقتصادى التجارة بين اسبانيا ومستعمراتها الأمريكية.
وكانت التجارة بسيطة فى السنوات الأولى قبل العثور على مناجم المعادن النفيسة،
ولكن التصدير ازداد مع الزمن فى نفس الوقت الذى ازدادت فيه حاجة المعمرين
إلى مواد التكوين والملابس والأدوات والخيول والعجول من أوروبا . وكانت
إسبانيا تنظر إلى عملية التصدير هذه إلى العالم الجديد على أنها خراب لها . ولكن
الميزان إنقلب مع الزمن ، وزادت عملية التصدير من أمريكا بارسال الفضة
والذهب والكلية والأحجار الكريمة ، والسكر والقطن والكافور والطبايق ،
وكانت كلها ترسل إلى اسبانيا وتقوم إسبانيا وحدها بتموين مستعمراتها ،
ولمحتفظت باحتكار التصدير والاستيراد والنقل مع المستعمرات ، إلا فيما
يخص تجارة الرقيق ، وحرمت على السفن الأجنبية الرسو فى أمريكا ، حتى ولو
كان ذلك لإصلاح ما يصيبها من عطب ، وبمنفس الطريقة التى منعت بها قرطاجة
سفن الرومان من الرسو فى سردينيا أو فى ليبيا . وفتحت إسبانيا عددا
معيانا من الموانئ للتجارة حتى تمنع التهريب ، وكانت هى أشيلية ، التى أخذت
مكان قادس ، وبعد ذلك قرطاجة فى داخل البلاد ، وديوس وبورتوبالو

التي كانت تهيمن على التجارة في الداخل . ونظمت إسبانيا الملاحة في قوافل كبيرة ، وبطريقة البندقية ، حتى تتخلص من أخطار القراصنة . وكانت السفن تسافر في شهر أبريل عن طريق جزر كناريا إلى الأنطيل والمكسيك ، وفي شهر أغسطس لبرزخ بنما وأمريكا الجنوبية . أما في العودة فكانت القافلتان تجتمعان في كوبا ، وتمر على جزر الخالدات . قبل أن تصل إلى إشبيلية في شهر مارس .

وكانت هيئة التجارة هي التي تشرف على هذه العملية التجارية ، ولها في إشبيلية اختصاصات لإدارة الهجرة ، وتشرف على مدرسة بحرية ، وعلى محكمة تجارية وغرفة القضاة . وكانت هذه الهيئة آلة إدارية ثقيلة تخزن البضائع ، وتشرف على عمليات الشحن والتفريغ ، وتحصل الخمس الخاص بالتاج . وكانت عبارة عن وزارة لتجارة الهند ، ويشرف رئيسها على أمن القوافل في المحيط الأطلسي ، وتستلم خزائنه الرسوم الجمركية على البضائع ، ، ويستلم أنصبة أصحاب الشركات وأصحاب السفن الخاصة ، نظير حمايته لتجارته . وكان هناك موظفاً عاماً يعينه القصر ، ويشرف على قوافل وأساطيل الهند ، ويرسل إلى الإدارات العامة في العالم الجديد كل ما يلزمها ، من الزئبق اللازم لتنقية المعادن ، إلى الأسلحة اللازمة لأبناء الغزاة .

وكانت هيئة التجارة مؤسسة خاضعة للدولة ، وتشرف على العمليات الفردية الخاصة . فكانت تشرف على العملية دون أن تقوم بتنظيمها ، بل ترك للوردن والمصدرين في قادس وإشبيلية إتخاذ القرارات اللازمة لهم ؛ ولكن إشرافها كان عبئاً ثقيلاً على التجار ، الذين كانوا يحاولون التهرب من دفع الرسوم والضرائب : فلم يقتصروا على خفض قيمة التجارة المفرغة أو المشحونة في تصرّياتهم الرسمية ، بل بدؤوا في عمليات التهريب ، ووجدوا في داخل هيئة التجارة نفسها من يشاركون في هذه العمليات . وبدأت السفن تفرغ حمولاتها في البحر قبل دخولها إلى إشبيلية ، وتشحن بضائع أخرى بعد خروجها من الميناء .

كما اتصلوا بمهربين أجنب ، كانوا يقومون بنشاط عجيب في خلاجان العالم الجديد ، وخرج تلك تجارة العالم الجديد من أيدي هيئة التجارة نتيجة لهذه العمليات .

وإدعت إسبانيا كذلك الاشراف على الصناعات الناشئة في الهند ، دون أن تتمكن من القيام بذلك بطريقة عملية . وكانت المكسيك تفسج الحرير ، وبيرو تنسج الأصواف ، وكانت هذه السلع منخفضة السعر ، وهددت بمنافسة الصناعة الاسبانية . فمنعت مدريد هذه الصناعة ، ولكن نواب الملك لم ينفذوا هذه القرارات .

وإزدهرت أمريكا الاسبانية بطرق مشروعة ، وطرق غير مشروعة ، وظهر ذلك في نمو مدنها الصغيرة ، التي كانت تبني على خطوط منتظمة ، حول ميدان مربع ، كما هو الحال في مدن اسبانيا ، وتشتمل مثلها على كنيسة ومدرسة وأسطر الفنادق ، مبنية على الطريقة القشتالية . وكانت الشوارع تقاطع مع بعضها ، وتشتمل المساكن على حوش داخلي وعلى أعمدة . وبقيت الكنائس والكاتدرائيات في مكسيكو وفي ليما ، وأصبحت كل من هاتين المدينتين مركزاً لرئيس أساقفة ، ولها جامعة ، وفتحت الكليات أبوابها للهنود مع الاسبانين ، وأصبحت لغة قشتالة هي اللغة الرئيسية ، وخاصة في المدن . ولم تختلف فيرا كروز ولا كراكاس عن بورجوس أو غيرها من مدن إسبانيا . وكان فيما نفس التاجر ونفس الموظف ونفس الضابط ، إلا بوجود رجال لوحت وجوههم الشمس ، وبعض الهنود والزوج ، للدلالة على أنها ليست إسبانيا ، ولكنها مستعمرة اسبانية .

وهكذا أصبح العالم الجديد إنعكاساً للعالم القديم ، بعد أن أخذ منه لغته وأسماءه وديانته ، في نفس الوقت الذي استخدم فيه الخيل والعجلة وصناعة الحديد . وقيل أن تغير أمريكا أوروبا قامت أوروبا بتشكيل أمريكا .

٤ - أوروبا الاسبانية :

وكانت إسبانيا هي أهم شيء في أوروبا في ذلك الوقت ، وكانت قشتالة هي

أهم إقليم في إسبانيا . وقد عملت سلالة طويلة من الميراث والزواج ، على تجميع الأقاليم والدول على رأس ملوك إسبانيا . ولم يكن ذلك مجرد الحظ ، إذ أن ملوك إسبانيا قد عرفوا كيف يدرون دفة سياستهم في هذا العصر ، وساعدتهم امبراطوريتهم الامريكية في السيطرة على أوروبا ، كما ساعدتهم قوتهم في أوروبا ، وسهلت عملهم في استثمار أمريكا .

ووقعت مهمة إنشاء إسبانيا على الملوك الكاثوليكين ، فرديناند وإيزابلا ، وكان زواجهم قد وحد بين قشتالة وأراجونة ، مع ملحقات أراجونة في صقلية وإيطاليا . ونجحت جيوشهم في إتمام إعادة الغزو والقضاء على الحكم الاسلامي في الاندلس . وجاء اكتشاف أمريكا سنة ١٤٩٢ يوما من سقوط غرناطة في أيديهم . ظهرت إسبانيا فجأة في شكل دولة كبرى ، وإن كانت إيزابلا قد ماتت قبل أن تعلم بخطورة العالم الجديد الذي وقع في أيديها ، ولم يعرف فرديناند عن الهند الغربية أكثر من أنها تكلفه الأموال والرجال .

وتتجمع مجد اتحاد هذه الاقاليم الموروثة والمفتوحة ، والى انتخاب عليها ، مع شارل الخامس ، جعبد الملوك الكاثوليكين ، والذي سيطر على اسبانيا وناپلى وصقلية والمستعمرات الواقعة فيما وراء المحيط ، وأضاف اليها بقية إيطاليا والأراضي المنخفضة والفلاندر وبعض مقاطعات فرنسا ، والنمسا والامبراطورية المقدسة . لقد أصبح سيداً على عالم لا تغرب عنه الشمس ، ولكنه كان يرى في أمريكا وسيلة أكثر من كونها غاية ، وسيلة للحصول على الذهب ، وبالذهب كان يمكنه أن يسيطر على أوروبا ويحكمها .

ووصلت إسبانيا إلى أوجها في عصر ابنه فيليب الثاني . ورغم أن شارل الخامس كان قد حاول ترك الامبراطورية لأخيه ، إلا أن فيليب ضم البرتغال مع ممتلكاتها الخارجية ، فأصبح ملوكاً على لشبونة وعلى ميلانو ، وجنوا ، وبروكسل ، وبالرمو ، ومكسيكو . وجعلت مناجم بوتوسي منه أغنى ملك في أوروبا ، وشهدت

الإسكوريال بعظمته . ورغم أنه لم يهمل أمريكا ، إلا أنه انشغل بالأعداد
القريبين منه في أوروبا ، أو في إسبانيا نفسها ، بشكل منعه من التفرغ لها . والواقع
أن أمريكا كانت تحتاج إلى إهتمام أكثر من ذلك ؛ فلقد كانت أيزابلا تفضل عليها
غزو الاندلس ، وفرديناند يفضل عليها إيطاليا ، وشارل الخامس يفضل عليها
الفلاندر ، وفيليب مشغولا عنها بقشتالة . ولقد كانت مكسيكو وليما تهمهم بدرجة
أقل من غرناطة ، ونابلي وأنفوس والإسكوريال . والواقع أن مستعمراتهم
الحقيقية لم تكن فيما وراء المحيط ، بل كانت تقع على سواحل البحر المتوسط
أو سواحل بحر الشمال . فالواقع أنه لم تمكن هناك مستعمرات ، أو كانت كل
أقاليم أوروبا الإسبانية عبارة عن مستعمرات ، بما في ذلك أقاليم شبه الجزيرة
الإيبيرية . فأننا نجد نفس النظم ، مع نائب للملك في سردينيا ، وفي صقلية ، وفي
نابلي ، وفي الفلاندر ، وفي أراجونة ، وفي بلنسية ، مع حكام محليين ، وموكب
بيروقراطي ، للملكية مركزية . وكان الملك هو سيد كل ذلك ، بنفس الطريقة
التي يسود بها كبار الملاك أراضيهم ، وبدون أن يفرقوا بين السكروم وأراضي
الحراثة ، وبين الأراضي المزروعة والمراعى . لقد كان الملك يحكم وكان هذا هو
كل شيء . وكانت السلطة الملكية تسيطر على كل السلطات الأخرى ، فكان
الاقطاعيون خداما للملك ، وكون الفرسان حاشيته ، أما المجالس التشريعية
« السكورتيز » فكانت تغط في سبات عميق ، والعامّة غرق في مشكلاتهم اليومية .
وسادت سياسة التحكم الديني في جميع أنحاء الإمبراطورية : إذ أن إسبانيا كانت
كاثوليكية ، ولا تقبل أى مذهب آخر ، فاستندت إلى ذلك العامل كأساس من
أسس الوحدة ، ولكي تتخلص من المغاربة واليهود في الاندلس ، ومن غير المسيحيين
في الهند الغربية ، ومن رجال الإصلاح الديني في الأراضي المنخفضة . وكانت
النيران تحرق السكتب ، ومحكم التفتيش تأمر بأحراق الرجال ، وكل ذلك باسم
« النظام الوطني » .

وتسبب مبدء الإصلاح الدينى فى إثارة مشكلة « الوحدة » فى الاراضى المنخفضة . ذلك أن الهجنوت ، بعد أن طالبوا بحرية العقيدة ، طالبوا بالحرية المدنية ، والتحرر فى نظم الضرائب ، وبضمانات عسكرية . كانوا يطالبون بمعايد روتستانتية ، ثم أخذوا يطالبون بقلع ، ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين النظام الاسباني ، بما فيه من سيادة ملكية ، وإتحاد امبراطورى ، وبين « الفوضى » البروتستانتية ، فكان من الأفضل نفى الأيدى من ألمانيا ، على الاحتفاظ فى عالم قشتالة بمركز إنفصالى ؛ وكان من الأفضل كبت ثورة الفلاندر أو قطع العلاقة مع الاراضى المنخفضة على الاتفاق مع الهراطقة . ولم تعترف إسبانيا بوجود إله اللوثر أو لمكلفن فيها أكثر من إعترافها بوجود إله للمسلمين أو لليهود أو للهنود الحمر ، داخل امبراطوريتها .

ورغم ذلك ، فقد كانت الفلاندر أجمل جوهرة فى التاج الامبراطورى ، نتيجة لأهميتها الصناعية والتجارية ، ونتيجة لأنها وطن شارل الخامس الأسمى ، إذ أنه كان قد ولد فى جاند وأمضى شبابه فى بروكسل . وكان شارل أميراً فلينكنيا يتحدث اللغة الفلينكنية واللغة الفرنسية ، ولا يعرف الإسبانية ولا الألمانية ، إنه أرشيدوق الفلاندر الذى ورث عرش إسبانيا . وحينما وصل إلى إسبانيا محاطاً بالفلينكيين إعتقد الأهل أنى كانت عملية غزو . والواقع أن إسبانيا لم تستعمر الفلاندر ، بل كان الفلاندر هو الذى يستعمر إسبانيا ، باعطائه شارل الخامس إمبراطوراً لها . ولقد منح الامبراطور الألقاب والوظائف للفلينكيين وللبورجنديين وللفالونيين ، مما أثار إسبانيا . واضطر شارل إلى إعادة غزو مملكته . ولم تقبله إسبانيا وتمتز به إلا بعد إنتخابه امبراطوراً . فوافق بعد ذلك على تعلم الإسبانية ، ولكنه ملا مجلس الهند باصدقائه الفلينكيين ، وعين فلينكنيا آخر قاضيا اعظم لقشتالة ، وثالثاً حاكماً على كوبا . وكان هذا يدل على أن الفلاندر لم تكن مكبوته ، بل كان شارل يجمع مجلس الطبقات ويستشيرهم ، وإذا كان يحب

من حرية البلديات ، فانه كان يحترم حريات الاقاليم ، ومنح الحكم الداخلي للاتحاد
الفلينكى .

ولقد جمع هذا الاتحاد سبعة عشر مقاطعة ، وكان مركزه فى بروكسل ، مركز
الحاكم العام ، الذى كان عبارة عن خالة الامبراطور ثم أخته ، ومركز مجلس
الدولة والمجلس المخصوص ومجلس الميزانية ، والذى كان اعضاءهم يعينون مدى
الحياة ، وكان أغلبهم من الفلامنكيين . وظلت الإدارة محلية دون أى تدخل من
إسبانيا ، إلا فى السياسة العامة ، التى كانت تسير وفقا لسياسة مدريد . ولقد
ازدهرت هذه الاقاليم السبعة عشر فى ظل هذا النظام التجرى ، وازدهرت صناعة
الصوف والسجاجيد ، كما ازدهرت أنفوس ، وازدهرت أمستردام نتيجة لاستغلالها
بصيد الرنجة .

ولقد اختلف الديكور مع فيليب الثانى ، فبعد أن كان شارل فلامنكى ، جاء
فيليب أميراً إسبانيا ، ورغب فى صبغ الفلاندر بالصبغة الاسبانية ، وذلك
للتفيس عن تطرف القشتاليين من جهة ، وللقضاء على « الحرطقة » التى سادت هذا
الاقليم من جهة أخرى . وكانت هذه العملية الاستعمارية أكثر مرارة من العمليات
الاستعمارية فى الهند الغربية ، إذ أن الفلامنكيين لم يكونوا فى كسل الهنود الحمر ،
كما كانت عواطفهم مشتتة ، وصمموا على الثورة لإنقاذ حرياتهم الوطنية ،
وعقيدتهم الدينية . وحاول فيليب أن يحتفظ بالوحدة السياسية ، ووحدة العقيدة ،
فأرسل دوق إلب نائبا للملك من ميلان ، وعلى رأس عشرين ألف رجل . وكان
صارما ، ونشر الارهاب الإسبانى ، وأسرف فى إلقاء القبض والقتل ، وفى
فرض نفسه ؛ وعين الاسبانيين فى المجالس الفلامنكية . ولكن المجازر والنهب لم
تتمكن من القضاء على المقاومة المحلية . اما انصار كافن بعد إنتصارهم ، فانهم لم
يكونوا أكثر تسامحا من الكاثوليك ؛ وتحولت الحرب الاسبانية إلى حرب
أهلية . وحينما استلم فيرنيز سلطته كحاكم عام . وكان إيطاليا ، قام بمناورات ،

وصل بها إلى الفصل بين السبعة أقاليم الشمالية ، التي حصلت على إستقلالها لكي تصبح الأراضي المنخفضة الحرة ، والتي ازدهرت بسرعة ، وبين العشرة أقاليم الجنوبية التي حافظت على ولائها لروما ولمدريد ، والتي إحتفظت بحكامها العسكريين وبحمياتها الاسبانية ، التي ظلت راسخة تحت الحكم الأجنبي .

أما إيطاليا فانها لم تكن أسعد حظا . حقيقة أن حركة الإصلاح الديني لم تزعجها ، ولكنها كانت ميدان حرب لطموح كل من الإسبانين والفرنسيين . وكانت إسبانيا ترغب في أن تصل أقاليمها في صقلية ونابلي بالنمسا والفلاندر ، أما فرنسا فكانت تحاول كسر هذه العملية التي تهدد بتطويقها وخنقها . ولقد كسبت مدريد معركة إيطاليا ، وخضعت لها كل شبه الجزيرة ما عدا البندقية ، ووضعت حمياتها في تسكانيا وسافوا ، كما خضعت لها جنوة وبارما . وإعتمد الحاكم في ميلانو على إدارة ثابتة وجيش إحتلال . أما نائب الملك في نابلي فكان يعاونه مجلس يتشكل من أحد الايطاليين وإثنين من الاسبانين ، وأما الجيش فكان إسبانيا ، خاصة وأن الإدارة كانت تجند الايطاليين للخدمة العسكرية في مناطق أخرى ؛ وكذلك إحتفظت الادارة بالوظائف الكبيرة للاسبانين ، في نفس الوقت التي كانت فيه الضرائب مرتفعة . ولم يستسلم كل الايطاليين لهذا التحكم ، فزمر دوق سافوا ، وثارت صقلية أكثر من مرة ، وعارضت أسر نابلي القديمة المحتلين الاسبانين . ولكن ايطاليين آخرين قبلوا سيادة قشتالة ، وتمكن ساداتهم الجدد من إدخالهم في مجلس الهند ، وعينوا أندأراد أمرة فيرنيز ممثلا للملك في الأراضي المنخفضة . وكان الايطاليون في مجموعهم يعرفون عن شؤونهم السياسية ، ويتفرغون للفنون والآداب والعلوم ، وتمكنوا من رسم الجوكوندا وبناء كنيسة القديس بطرس في روما ، كما تمكنوا من إثبات أن الأرض تدور ، واكتشفوا عوالم جديدة الاخرين ، وقبلوا في نفس الوقت أن يقوم غيرهم باستعمارهم ، كما قبل مرطن أغسطس وكرستوف كولومب أن

يصبح مجرد أقاليم متفرقة ، تخضع للحكم الامبراطورية الاسبانية .
ولقد كاد الخوض الغربي للبحر المتوسط أن يصبح بحيرة إسبانية. ولكن
فرلسا اضطرت إلى التحالف مع الاتراك العثمانيين حتى تحطم العملية التي هدفت
تطويقها . وقامت إسبانيا ، من ناحيتها ، بإرسال حملات إلى مليلة ووهران
وبجاية ، وطرابلس ، وتونس ، واحتفظت بالمكانين الأولين منها تحت سيطرتها ،
وإذا كانت قد فشلت أمام الجزائر ، فإنها قد تمكنت من هزيمة الاسطول العثماني
في ليبانوس سنة ١٥٧١ . وانقسمت القوى بشكل أظهر البحر المتوسط خاضعا
لقوتين ومنقسما بينهما : قوة الإمبراطورية العثمانية في الشرق ، وقوة إمبراطورية
قشتالة في الغرب .

وكانت البرتغال هي آخر الغزوات في أوروبا . وإنتهت الأسرة الحاكمة فيها
دون ترك وريث مباشر ، فأفاد فيليب الثاني من هذه الفرصة ، وإستولى على العرش
الخالي ، وكلف دوق الب ، من جديد ، بترويض المعارضين . ووعده فيليب
باحترام القوانين البرتغالية ، إلا أن التبعلاء لاشتكوا من إبعادهم عن الحكم ، كما
اشتكى البرجوازيون من شدة وطأة الضرائب . ولم يقبل البرتغاليون المقيمون فيما
وراء البحار هذا الاتحاد مع إسبانيا بسهولة ، ودافعوا عن حقوقهم حينئذ وجدوا
أن إسبانيا لا يمكنها معاونتهم ، كما حدث في منطقة الأمازون . وعلى أي حال فإن
وحدة شبه الجزيرة الأيبيرية قد تمت ، وبقيت لمدة ستين عاما .

فكانت إسبانيا إذا موجودة في أوروبا من لشبونة إلى بروكسل ؛ وكانت
لها أقاليم في هذه القارة لا تقل أو تزيد ، في نظام الحكم الإستعماري ، عن مملكتها
الأميريكية ؛ وكان لها في كل منها ، كما كان لها في كل العالم ، ميليشيا كاثوليكية
ناشئة . ذلك أن أحد أبناء نافار الذي ولد في ليولا كان قد ترك الخدمة العسكرية
وذهب نفسه لخدمة السيد المسيح ، وأنشأ جماعة اليسوعيين ، الجزويت ، . وعمل
على محاربة تمسح غير المسيحيين ، والكفاح ضد الهراطقة ، أي غير الكاثوليك ؛

وظلت إسبانيا وأقاليمها الخاضعة تعطى قيادات هذه الجماعة لمدة طويلة، وانتشرت بعثاتهم في جميع أنحاء العالم، وساعدوا على صبغه بالصبغة الإسبانية. وميصلون بعد ذلك، مثل جماعة الإخوان الإيطالية والإخوان الشيوتونيين، إلى دور المستعمرين، بعد أن كان هدفهم هو كسب الأهالي للإنجيل.

هذه هي الامبراطورية الإسبانية، ويمكنها أن تظهر كإمبراطورية تمت بطريقة غير طبيعية، ونتيجة لعمليات زواج أو لعمليات ملاحاة بحرية، ولعب الحظ دورا كبيرا في وصول كولومب إلى الأنثيل، وفي دخول بورجونيا في ميراث قشتالة. ورغم ذلك أن هذه العمليات تتكامل. وكانت أراجونة محتاجة لقمح صقلية، والآننداس محتاج للسيطرة على وهران لأمده، ومدريد محتاجة لفضة بيرو لميزانيتها، وللجنود المبشرين، الذين أنشأهم إوجناس دى ليولا، في دبلوماسيتها. ولكن القطع، الأوربية من هذا البناء الضخم كانت رقيقة، ولا يمكنها أن تقاوم الاطماع الخارجية، ونمو الحركات القومية، لفترة طويلة. أما إمبراطورية ما وراء البحار، فإنها كانت بعيدة، وبشكل يحجبها ويحافظ عليها، ولعدة قرون أخرى.

الفصل الخامس عشر

البرتغاليون ومنافسهم

لم تكن الهند التي وصل اليها الغزاة عبر المحيط الاطلسي صدفه هي بلاد الهند الأصلية ، بل كانت جزر الهند الغربية . أما الهند التي كانت أوربا تحلم بالوصول اليها فكانت في الشرق ، وفي نهاية الطريق الذي إحتفظ به البابا للبرتغاليين ، بعد أن سارت سفنهم فيه . ولكن ، ألا يؤدي استمرار السفر غربا ، بعد الهند والأمريكتين ، إلى الوصول إلى الهند الحقيقية ؟ وهل هناك حدود يمكن للبابا أن يضعها بين ممتلكات الاسبانيين والبرتغاليين في أقصى الشرق الأقصى ؟ أو في آخر أقصى الغرب ؟ وعلى أي حال فلتتبع وصول البرتغاليين للهند ، لكي نصل إلى تطور الأحداث الاستعمارية في العالم بعد ذلك .

١ - البرتغاليون في الهند الشرقية :

كانت الهند تعيش في ذلك الوقت منقسمة وكان كل من السلاطين الأتراك والافغان يتنافسون فيها ، وفي جو من الكس ، ويحفظون للهندوس بالوظائف الصغيرة . ولقد تمكن بابر ، الحفيد الخامس لتيغور لنك ، والحفيد الرابع عشر لجنكينز خان ، من مد حكمه من سمرقند إلى كابل ، ثم إلى دلهي وأجرا . وإنحصرت مدافعيته على أفيال الاقطاعيين ، وسيطر على شمال الهند ، بعد أن نشر الارهاب على طريقة أجداده ، وأحرق النساء والأطفال .

ولقد تمكن حفيده أكبر ، الذي عاصر فيليب الثاني ، من اتمام عمل جده ، ومن تجنيع كل الهند تحت حكمه ، ما عدا أقصى الجنوب . فأصبح الحان الأعظم ، وتمكن بذلك أحفاد المنول من حكم الهند ، وسمى الغريون امبراطوريتهم باسم امبراطورية المغول الكبيرة . وكانت هذه الامبراطورية تشتمل على مائة مليون

لثامنة ، وثلاثين مليون ، ونصف مليون من الكيلومترات المربعة . ولقد أدهشت هذه الامبراطورية البرتغاليين الذين وصلوا اليها . وكان البرتغاليين يحملون معهم النار سموم البابوي الذي يمنحهم شرق العالم ، وكان برنامجهم يتلخص في الوصول إلى ثروات الهند ، والمقاجرة على حساب البنادقة والعرب . ولم يكن في وسع البندقية أن تصل إلى سلع الشرق الأقصى في ذلك الوقت إلا بعد صعوبات كبيرة ، وعن العراقيل التي وضعها الأتراك ، وبعد دفع مبالغ طائلة لنقل البضاعة بين البحر الأحمر والبحر المتوسط . وكان العرب يحتفظون باحتكار التجارة في المحيط الهندي . ولم يكن هدف البرتغاليين إلا أن يحطموا هذه المنافسة المزدوجة ، ويضمّنوا لأنفسهم احتكار تجارة الهند ، ويتهنّوا الفرصة لذئب المسيحية هناك .

ولقد رأينا البرتغاليين يفتشون المراكز على سواحل إفريقيا وعلى طول الطريق المؤدى إلى التوابل . كما قام دياز بالإلتفاف حول رأس الرجاء الصالح . وجاء بعده فاسكو دا جاما مع أربع سفن حقيقتية ، وتعرف على موفو موتابا . وبجزيرة موزمبيق ثم ممبسة تبلى أن يتجه جنوب الشرق ، ويصل إلى كالكتا ويشت رائحة التوابل . ولكنه عاد في رحلة ثانية مع إحدى وعشرين سفينة بحرية مسلحة . وهاجم المنشآت العربية في المحيط الهندي ، وأسس مركزاً في كوشين ، على ساحل المالابار ، وبدأت بذلك الامبراطورية البرتغالية في آسيا .

وواصل كل من ألميدا ، والبوكيرك هذه العملية ، وحاولوا من جهة ، أن يبعدوا العرب تماماً من تجارة الهند ؛ وأن يصلوا في نفس الوقت إلى التخلص من البنادقة . وقام البرتغاليون بتنفيذ ذلك بحماس ووحشية ، فأخذوا في إحراق سفن العرب ، وفي هدم المدن والمراكز الإسلامية . وفي طرد التجار ، وإدعوا أنها كانت حرباً صليبية ضد المسلمين ، وتحول المحيط الهندي إلى بحر برتغالي ، واحتفظت لشبهوة باحتكار التجارة فيه ، ومنعت كل سفينة من الملاحة فيه ، إلا

بعد تزويدها بتصريح رسمي من ملك البرتغال ، حتى وإن كانت هذه السفينة تابعة
للسلطان الأكبر . وعمل البرتغاليون ، من ناحية أخرى على إنشاء مراكز لهم على
طول الطريق ، وفي بلاد التوابل ، وإختاروا أحسن المراكز ، على الجزر الصغيرة
أو في الخلجان المحمية ، وفي أحسن المواقع للتجارة وللرسو ، ثم أعدوا في كل منها
بجنزناً وقلعة ، وتركوا فيها بعض التجار وبعض العمال وبعض الجنود . وتمكنت
الجيش الأوربية من فرض نفسها على الشرقيين الذين لم يقدرُوا معنى مجيء
البرتغاليين ، وإقامتهم في نقط صغيرة ، ولم يفكروا في معنى عملياتهم ، وتأثيرها
على التجارة العالمية .

وأقام البرتغاليون بهذه الطريقة في إفريقية الشرقية ، في دالاجوا وفي سوفالا
وموزمبيق وفي جنوب مدغشقر ، كما أقاموا في سوقوطة عند مدخل البحر الأحمر ،
وفي هرمز ، عند الخليج الفارسي ، وفي مسقط . أما في الهند ، فإن البرتغاليين قد
أقاموا في ديو ، وفي دمان التي تسيطر على تجارة سبيل الهند ، وفي جاو التي كانت
مركزاً لتجارة ساحل المالابار والهند الوسطى ، وفي كافافور وكوشين ، وهما
نواحي الهند الجنوبية ، في سيلان المواجهة لخليج البنغال .

ولقد وجد البرتغاليون في الهند كثيراً من التوابل والأندسجة ، ولكن معظم
التوابل كانت تأتي من أبعد من ذلك ، ومن بلاد « ويزر » موجودة قرب
الشمس المشرقة . فذهب البرتغاليون للبحث عنها على طول سواحل سيام ، وعند
مصببات الميكنج ، حيث وجدوا الطبيعة تشبه طبيعة مركزهم في كوشين ، فسموها
الكوشين صين ، وهي ما أصبحت الهند الصينية فيما بعد . ووصل البرتغاليون إلى
سومطرة وإلى جاوة ، وهم يبحثون عن القرنفل والمسك . وكانت ملقة هي مفتاح
المضائق ، فقاموا بإحراقها ونهبها ، وأنشعوا قاعدة لهم هناك ، فأصبحوا يقيمون
بين مزارع الفلفل والقرنفل والقرفة .

وكانت الصين تغريهم على المجيء إليها ، فوصلوا إلى كانتون ، وتفاوضوا ،

ثم طردوا ، ولكنهم عادوا مرات كثيرة ، ولانتهوا بإقناع الصينيين بقبولهم
وبتركهم يقيمون في شبه جزيرة ماكاو ، عند مصب نهر كانتون ، وعلى أساس
دفع إيجار لهذه القاعدة الجديدة التي بقوا فيها لمدة ثلاثة قرون متتالية ، وجعلوها
مركزاً لتجارهم مع الصين .

وكانت اليابان تستحق بعد ذلك زيارة خاصة من البرتغاليين ، ووصل إليها
ثلاثة منهم في سنة ١٥٤٢ ، ثم جاء آخرون بعد ثلاث سنوات ، وكانوا من التجار
وبدأوا في المفاوضة . ثم جاء أحد أتباع ليولا ، وهو فرانسوا إجزافيه ، الذي
أخذ في الوعظ في ملقة وفي سيليبس . وأعتقد الأهالي أنه كان مجدداً في الديانة
البوذية ، ولكن التجار البرتغاليين انتهزوا نجاح هذا القديس ووضعوهم أرجلهم
في هيرادو ثم في نيجازاكي .

وهكذا امتدت منطقة عمليات البرتغاليين على طول آلاف من الكيلومترات ،
وعلى طول سواحل أفريقية ، إلى موزمبيق وزنبار ، ثم على طول سواحل آسيا ،
من بلاد العرب حتى اليابان .

وكانت هناك سياستان متعارضتان في ذلك الوقت في البرتغال ، وتردد
البرتغاليون بينهما فترة من الزمن ؛ أما المبدأ فكان يعتمد في ضرورة الاحتفاظ
بالتفوق البحري ، وبأسطول قوى ، دون أن يزيد النفقات بإنشاء مراكز إحتلال
برية ؛ أما البوكيرك ، الذي إنتصر على المبدأ ، فكان من أنصار سياسة برية ، ولم
يكتفِ بإحتلال مفااتيح خطوط الملاحة البحرية ، مثل هرمز وملقة ، بل زاد من
عدد المراكز ، ووسع مناطقها ، وحاول أن يأني إليها بالمهربين . وكانت سياسته
بسيطة : ففي جاوا مثلاً ، لم يكن على البرتغاليين إلا أن يقتلوا الرجال ، ويتزوجوا
النساء ويعدوا الأطفال . فزناً شغب مخاط ، وكاثوليكي ، وخاضع للبرتغال .
وأفادت هذه السياسة من التنافس الموجود بين مسلمي الهند ، أو المغول أو الأتراك
العرب ، وبين الأهالي . وقام البرتغاليون بإحراق المساجد ، ونقل ما فيها إلى الكنائس ،

وحولوا جاو إلى لشبونة صغيرة ، ووضعوا لها نظاماً نقلوها عن نظم حاصمية هس التاج، بمجلس أعلى ، وأسقفية ودير وحامية وتجار . أما في غيرها من المراكز التي كان الهندوس يمثلون فيها أغلبية ، فإن البرتغاليين قد اكتفوا بإنشاء الراجا ، دون أن يمسوا النظم المحلية ؛ ولكنهم عقدوا في نفس الوقت إتفاقات تجارية تضمن لهم بيع تجارة البرتغال بأسعار محدودة ، وتمنع أى منافسة ممكنة ، وخاصة من الأقاليم الإسلامية .

ولكن العجيب هو أن مليوناً ونصف مليون من البرتغاليين قد تمكنوا من القيام بكل ذلك . ولكن هذه السياسة كانت تكلفهم الكثير ، وفي كل ميدان : الأموال الباهظة للإستمرار في حرب مستمرة ، والكثير من الرجال لشبونة في المستعمرات . وكان البرتغاليون يمنعون هجرة النساء ، ولذلك فإن البرتغاليين كانوا ينتقلون بمفردهم إلى آسيا ، وينقلون معهم قوانينهم وديانهم . وعاشوا في ماكاو ولم يزد عددهم على الألف ، وراء ذلك الحائط الذى بفتحه الصين لتحديد مستعمراتهم ، ولإستلام رسوم الجمارك منهم ، ولم تكن تحت حكمهم ، وإدارة مجلس شيوخ خاص بهم .

وكانت هناك سبع حكومات تقسم فيما بينها حكم المراكز البرتغالية ، من رأس الربراء الصالح إلى ماكاو . وكان حاكم جاو يتمتع بلقب نائب الملك ، ويدين لمدة ثلاث سنوات ، على الطريقة الإسبانية . ولكن الإغراء والفساد إنتشرا في الإدارة الإستعمارية ، رغم إرسال المفتشين من لشبونة ؛ وكان هدف الجميع ، بطبيعة الحال ، هو الإثراء وجمع الثروة بكل طريقة ممكنة .

وكانت هناك حكومة لدول الهند ، والهيئات المكلفة بالإدارة الاقتصادية في لشبونة ، وتسمى بيت المينا ، وتتحكم في ذهب غينيا ، مع بيت الهند ، الذى كان يشرف على الأساطيل وعلى المراكز ، ويحدد أسعار السلع المصدرة وأسعار التوابل المستوردة . وإحتكرت البرتغال العمليات التجارية في المحيط الهندى ،

واحتكرت الدولة البرتغالية تجارة الفلفل، وأصبح ملك البرتغال هو ملك الفلفل؛ وكان يدفع نفقات بلاطه وقصره، وحتى مهر إبنته عينا من الفلفل. وكانت كل التوابل الأخرى تستورد إلى لشبونة في صناديق مقفلة، ويقوم مفتشوا البيت ببيعها بعد أن يحصلوا على نسبة ثلاثين أو ستين في المائة من أثمانها ضريبة للخزانة، وكانت تجارة البرتغاليين مع الشرق، مثلها في ذلك مثل تجارة الاسبانيين مع العالم الجديد، تخضع للفصول السنوية، فكانت السفن تقلع من لشبونة في أوائل الربيع، وتفيد من الرياح الموسمية الشتوية، لكي تصل إلى لشبونة على مصب التاج في شهر يونيو أو يوليو، وبعد رحلة تدوم خمسة عشر شهرا. وكانت هناك أسطوار البحر، وتقلبات السوق، ولكن إمكانيات الربح كانت تغطي كل ذلك. ربح البرتغاليون أحلام الغرب القديمة، وأصبحوا سادة التوابل، ولم يكن الصليبيون أو أبناء جنوة أو البندنية قد وصلوا من قبل إلى مناطق انتاجها، ولم يصلوا إلا إلى رأس القواغل، أما غرارة لشبونة فقد نجحوا، لأول مرة في التاريخ، في الوصل بين مزارع القرقة وبين العطارين في أوروبا الغربية.

٣ - حدود الشرق الأقصى مع أقصى الغرب :-

لم يكن البرتغاليون بمفردهم في هذا الميدان كما يرغبون. وكانوا يحتفظون بحقوقهم على الشرق، تجاه الدول الأوروبية الأخرى استناداً إلى مرسوم البابا اسكندر السادس، الذي كان قد قسم العالم بنصف دائرة. ولكن أحداً لم يفكر، مع هذا التقسيم، في أن المنافسين يمكنهم أن يصطدموا مع بعضهم من الناحية الأخرى من الأرض، ودون أن يكون هناك خط حدود بين مناطق نشاطهم. وكان الاسبانيون غير قنوعين بالعالم الجديد، الذي لا توجد فيه أى توابل، وصمموا على الوصول إلى الهند، بنفس الطرق التي أعطاها البابا لهم، أى بمواصلة

السفر جنوب الغرب ، حتى ولو كان ذلك بعد الالتفاف حول أمريكا ؛ وإذا كان الجو غير مساعد من الشمال ، فإن ماجلان قد نجح ، وبأول محاوله ، في السفر من الجنوب .

وكان ماجلان برتغاليا ، ولكنه عمل لحساب شارل الخامس . وأقبح بخمس سفن ومائتين وثلاثين رجلا الالتفاف حول العالم . ورسا في ربو ، ثم هجرته إحدى سفنه ، وفقد سفينة ثانية في البحر . واستمر مع السفن الثلاث الباقية وعبر المضيق الذي حمل اسمه ، وخرج إلى المحيط الهادى . وسارت السفن لمدة مائة يوم وعشرة . ونزل الاسبانيون على إحدى الجزر التى سموها سان لازار ، والتى أنشأ ماجلان فيها أحد المراكز ، قبل أن يقتل في معركة مع الأهالى . وإحترقت إحدى سفنه ، وأمر البرتغاليون السفينة الثانية ، ولكن السفينة الثالثة وصلت إلى بورتو ، ثم سارت وسط الأرخبيل وخرجت إلى المحيط الهندى ، والتفت حول رأس الرجاء الصالح ، ووصلت إلى اسبانيا وعليها ثمانية عشر رجلا ، بعد رحلة دامت ثلاث سنوات ولقد ثبتت هذه المرة أن الأرض كروية تماما ، وتأكد الرجال من ذلك . ولكن التنافس الاسباني البرتغالى بدأ بعد ذلك ، وفي المنطقة المضادة للمحيط الاطلسى على السكرة الأرضية .

ولقد اشتبكت قوات هاتين الدولتين في ملقة ، كما اشتبكت جنوه مع البندقية في قبرص وفي بيزنطة من قبل . أنها حروب استعمارية ، وبين المستعمرين . وكان البرتغاليون هم أول من وصل إلى هناك ، وكانوا أقوى من الاسبانيين . وكان شارل الخامس في حاجة إلى النقود ، فاضطر إلى ترك مطالبه نظير ٣٥٠ ألف دوق من الذهب ، ولكنه لم يتخلى عن جزر سان لازار ، التى سميت الفيليبين ، نسبة إلى ولي العهد الذى سيصبح فيليب الثانى فيما بعد . وأقام فيها بعض مئات من الاسبانيين ، ونشأت ماينلا العاصمة سنة ١٥٧١ . وتحاشى الاسبانيون اساءة معاملة الأهالى ، ولم يدخلوا نظام الرق أو جماعات العمل الاجبارى في الجزيرة .

واكتشف الاسبانيون جزر هاواي وسالمون عن طريق المحيط الهادى ،
ووصلت تجارة الفيلبين إلى اسبانيا عن نفس الطريق . وقامت السفن الاسبانية
برحلات منتظمة بين مانىلا والموانى الغربية للمكسيك ، ونقلت منتجات الصين ،
من الصينى والحريز ، إلى إشبيلية ، عن طريق المحيط الأطلسى وحاول الاسبانيون
أن يتاجروا مع الصين نفسها ، ووصلوا إلى كانتول وحاولوا عقد معاهدة تجارية ،
ولكن البرتغاليين تدخلوا للاحتفاظ باحتكارهم فظلت التجارة بين الصين والفيلبين
فى أيدي الصينيين أنفسهم ، وهم الذين كانوا قد وصلوا إلى الجزيرة قبل
الاسبانيين . وحاول الاسبانيون أن يتخلصوا منهم ، فقتلوا عشرين ألفا ؛ ولكنهم
عادوا ، وبأعداد أكبر . ورغم أن الاسبانيين استخدموا نفس الطريقة من جديد ،
إلا أنهم فشلوا فى وقف هذه الهجرة ، وفى انتزاع التجارة بين الصين والفيلبين من
أيدي الصينيين . وحاول الاسبانيون أن يصلوا إلى اليابان ، ووصلت سفنهم إلى
هيراكو ، ولم يكن فى وسع البرتغاليين أن يمنعوهم ، ولكن علاقات الاسبانيين
مع اليابان لم تتقدم أكثر من ذلك .

وظلت لشبونة متفوقة فى هذه المياه ، وحتى الوقت الذى قامت فيه اسبانيا
بضم البرتغال نفسها . وكان على إشبيلية أن تبقى حظما فى المحيط الهادى ،
ولكنها كانت تسيطر على الذهب والفضة الأمريكية . أما لشبونة فكانت
تستلم ثروات أفريقية وآسيا من تهر الذهب ، والعاج ، وكاكاو غينيا ،
وسكر ماديرا ، وعبيد لواندا ، وقرنفل زنجبار وقهوة موخا ، والصمغ العربى ،
والماس ، واللؤلؤ ، وأحجار الهند ، والقطن ، والشاى من سيلان ، وفلفل ملقة
والمسك والقرفة والصينى والحريز من الصين ، مع كل الأعشاب والعطارة ومواد
الصباغة والعطور والمخدرات التى تلتجها جزر الترابل . وكانت هذه السلع النفيسة
تصل بالآلاف الأطنان ، وتخزن على أرصفة نهر التاج ، وبكميات لم تشهدها
الهندية من قبل . وقامت لشبونة ببناء السفن وصناعة الأسلحة ، وتكرير السكر ،

ولكن دولة البرتغال الصغيرة لم يكن في وسعها أن تعمل كل شيء . . . فلقد قام غزاتها بالإنشاء امبراطورية ، وإنشأ بحارتها في المحيطات ، وجاء تجارها إلى لشبونة بثروات قارتين ، ومئات من الجزر ، فكانت مضطرة بعد ذلك إلى أن تترك لغيرها مهمة توزيع هذه السلع وقامت أنفرس ، وهي على بعد خمسة عشر يوما من السفر بحرًا من لشبونة ، بهذه العملية .

وكانت أنفراس هي عاصمة رؤوس الأموال ، وأكبر مركز للتجارة الأوروبية ، وكانت لها سفنها ورصيدها ، وكان في وسعها أن تشتري وتنقل وتبيع . لقد كانت لشبونة هي المخازن ، وكانت أنفرس هي السوق . كانت لشبونة تخزن كميات كبيرة ، وترك لأنفرس إعادة بيعها بالتجزئة . وقام الباعة الفلاشكيون بشحن التوابل من مصب نهر التاج لكي يوزعونها بعد ذلك على كل موانئ الغرب ، وطبقاً للعقود التي عقدها رجال المال في أنفرس نفسها . ولكن أنفرس كانت مستعمرة إسبانية ، وبذلك تكون إسبانيا هي المنتصرة ، مادامت التوابل تفتى في مطافها إلى مراكز خاضعة لها ، وبين أيدي رجال هم من رعاياها .

ولقد حاول دوى الب ، نائب الملك في الأراضي المنخفضة ، أن يكسب من هذه العملية ، وذلك بفرض ضريبة تبلغ ١٠ ٪ على كل عملية تجارية وإصالح الخزانة الإسبانية . ولكنه ساعد بطمعه ، ودون أن يدري ، على إنقراض مذهب كلفن . وإنتهزت أمستردام ، عاصمة الرنجة ، هذه الفرصة لكي تثرث أنفرس . وحينما انفصلت الأراضي المنخفضة الشمالية عن الأراضي المنخفضة الجنوبية سنة ١٥٨٣ ، قضوا على تجارة أنفرس . ولكن لشبونة كانت قد أصبحت إسبانية منذ سنة ١٥٨٠ ، ومنع فيليب الثاني دخول تجارة الأراضي المنخفضة الشائرة إلى موانئها . فكانت النتيجة هي أن الهولنديين قد صمموا على ترك التعامل مع البرتغاليين ، خاصة وأن مرسوم البابا اسكندر السادس لم يكن ذا قيمة في نظر الهجنوت ؛ وقرروا الذهاب بأنفسهم إلى بلاد التوابل . وكان اليابا قد نسي أن

أنصار الإصلاح الديني لن يعترفوا بتقسيمه العالم ، ولثروات العالم .

٣ - المنافسة الانجليزية :

كانت هناك شعوباً أخرى في العالم تطالب بنصيبها من هذه الثروات ، ومنهم الانجليز والفرنسيين الذين شعروا بأنهم مظلومين ويتساءلون عن السبب في احتكار الاسبانيين والبرتغاليين لثروات العالم . وأعلن فرنسوا الأول أن الشمس تشرق للجميع ، وطالب بعرض وصية آدم التي تحرمه من تقسيم العالم . وكانت الطريقة العملية لإعادة التوازن لتلخص في إنتزاع الثروات إنتزاعاً من المستعمرين ومن مستعمراتهم فهل هذه هي القرصنة ؟ لقد حاول بعض الفقهاء والمشرعين التمييز بين القرصنة والقنصاة البحرية ، وذكروا أن القراصنة هم مجرد قطاع للطرق البحرية ، وأما القنصاة فتعترف دولهم رسمياً بهم ، وتعطيهم الحق الرسمي ، في وقت الحرب ، لاسر سفن الامة المعادية ، والاستيلاء عليها .

ولقد قام القنصاة البحريون بسفنهم السريعة بعمليات السلب بالقرب من الأنفيل ، وتعاونوا مع المهربين الذين كانوا يحاولون الوصول إلى العالم الجديد . وكثيراً ما قاموا بالنزول إلى الأماكن والمراكز التي تخزن فيها البضائع وهاجموها ، كما هاجموا ونهبوا السفن الإسبالية التي كانت تخاطر من وقت إلى وقت بالسفر بمفردها على المحيط الأطلسي أو المحيط الهادي .

ولقد قام القنصاة الفرنسيون بمهاجمة مخازن هافانا وحولوا الأماكن القريبة من جزر كناريا والخالدات إلى مناطق عمليات وصيد بحري . وكانت أهم مغامراتهم في سنة ١٥٢٣ حين تمكنوا من أسر سفينتين من ثلاث سفن اسبانية كانت تحمل إلى شارل الخامس ، من كورتيز ، كنوز مونتزوما ، وعثروا فيها على أواني ذهبية وفضية وأحجار كريمة كبيرة . وظهر قنصاة آخرون أمام ديو وهاجموا سومطرة . وكان البرتغاليون يعذبون القراصنة الذين يوقعون في أيديهم حتي يحتفظوا باحتكارهم .

أما الانجليز فكانوا يراقبون السفن الاسبانية أمام خليج قادس . وقام هوكنز باستيلاء على حولات كاملة من العبيد ، وكان يبيعها بعد ذلك في أمريكا . وقام ابن عمه فرنسيس دريك بالنزول في أمريكا الوسطى وبمهاجمة قوافل البغال التي تحمل الذهب والفضة من بيرو ، واستولى عليها وعاد إلى بليموث بالسبائك . وشجعت الملكة اليزابيث مشروع السفر حول العالم حتى تتمكن من تطويق أمريكا الاسبانية ، وساهمت في مشروع الحملة . وقام دريك بعبور مضيق ماجلان ، ودمر ممتلكات الاسبانين من شيلي إلى كاليفورنيا ، واستولى على سفينة اسبانية محملة بالذهب ، وعبّر المحيط الهادى وفرض غرامه كبيرة على ماينلا ، وتزود من جاوة ثم عاد إلى إنجلترا عن طريق رأس الرجاء الصالح يحمل غنائم كبيرة . ولقد قام دريك برحلته حول العالم هذه في وقت السلم ، ومع ثمانين هجمة وغزوة . وإذا كانت اليزابيث قد تبرأت منه ، إلا أنها كافأتها في نفس الوقت . وحينما نشبت الحرب بدأ دريك من جديد في هايتى وفلوريدا وهاجم وأغرق مائة سفينة اسبانية فيها ، وقام دريك بدوره في هزيمة الارمادا أمام بليموث سنة ١٥٨٨ ، وعرف الانجليز أنهم بحارة مهرة .

ولكن الترسنة وأعمال القناصة البحريين ليست من الاستعمار ، رغم أن دريك كان قد استولى على موقع في شمال كاليفورنيا ، ووضع أحد سلاطين جزر التوابل الثائرين ضد البرتغال تحت حماية الملكة اليزابيث . ولكن فكرة الاستعمار بدأت رويداً في النضوج في رأس البريطانيين . وكانت إنجلترا تفضل بعض المراكز في أوروبا أو جويانا أو كاليه على أقاليم استعمارية واسعة فيما وراء البحار . وكانت حروبها الطويلة مع فرنسا والخلافات الداخلية قد أبعدها عن الاستعمار فيما وراء المحيط ، كما كانت في صعاب جمّة مع إقليم ويلز التي حاولت أن تدخل فيه إدارتها ، ومع إيرلندا التي حاولت أن توطن فيها بعض المزارعين الانجليز .

وعهدت بريطانيا لاولى رحلاتها البعيدة إلى جان وسباستيان كابوت الايطاليين اللذان أبحرا من بريستول ، لكي يبحثا عن طريق شمال يوصل إلى الهند . فوصلا إلى نيو فونلاند وعثرا على مناطق غنية بالأسماك ، وإن كانت الأسماك لا يمكنها أن تحمل محل الذهب والتوابل . وقام بحارة آخرون مثل فروبشير وجيلبرت وادفيس بمحاولات أخرى ، واستكشفوا سواحل لبرادور وجرينلاند واتصلوا بالاسكيمو ، وتعلموا صيد الحوت ، ولكنهم لم يجدوا الطريق المؤدى إلى الهند . وفكر الانجيز في الالتفاف من الناحية الأخرى صوب الشمال الشرقى للالتفاف حول آسيا بدلا ، من الالتفاف حول أمريكا ؛ وقام تشانسلور باعداد حملة مو لها تجار لندن وسار على طول سواحل لابونيا ، ووصل إلى بحر لايرى الليل ، إنه البحر الأبيض . ووصل بعد ذلك إلى نقطة ستصبح أركانجل ، وسمع هناك الاهاالي يتحدثون عن مدينة كبيرة يمكن الوصول إليها عن طريق الزحافات . فهل هى بكين ؟ إنها لم تكن إلا موسكو . وتأسست الشركة الموسكوفية فى لندن للتجارة مع روسيا . وكانت هذه الشركة تحلم باستخدام الطريق الجديد عبر روسيا والشرق للوصول إلى الهند . وحاول جنكسنون سنة ١٥٦١ أن يسافر عن طريق الفولجا وبحر قزوين حتى فارس . ووصل ثلاث تجار إنجليز إلى نهاية الرحلة سنة ١٥٨٣ ؛ ولكن الاخطار كانت جسيمة والمصاريف باهظة بشكل يجعل العملية غير مربحة .

ولم تكن هذه الرحلات ، مهما ساعدت فتح ميادين تجارية ، تشتمل على إنشاء مستعمرات ثابتة . وإذا كانت الهند بعيدة عن أيدي الإنجليز ، فلم لا يقوم البريطانيون بالبحث عن الثروة على القارة الأمريكية ؟ وكان الإنجليز من البروتستانت فلم يهتموا برسوم البابا . كما أن الاسبانيين كانوا قد تركوا السواحل بدون إستكشاف وخاوية ، وبخاصة فى الشمال الذى لا يعجبهم مناخه ، والذى يتلاءم مناخه مع الإنجليز ؛ فقام جيلبرت بضم مربع يبلع طول جانبه مائتى ميل

في نيو فون د لاند ، وقام أخوه ، السيرو ولتر رالى ، الذى كان من أصدقاء اليزابيث ، بمحاولة إنشاء مستعمرة على السواحل الأمريكية ، تعطيها الملكة أسماها ، وهى مستعمرة فرجينيا . وبعد رحلته ، ترك مائة من الرجال وبعض الذئب على إحدى الجزر . ولكنهم اختفوا حون أن يتركوا أى أثر ورائهم . ورغم كل ذلك فإن رالى لم يفقد آماله . وشجعت إنجلترا على التوسع فى تربية الاغنام وقامت بتحويل أراغبيها الزراعية إلى مراعى لتشجيع صناعة الأصواف فيها . وكانت تشتمل على كثير من المزارعين ، الذين لا يملكون أرضا زراعية ، وكان فيها كثيرا من المشردين والفقراء يمكن تهجيرهم إلى ما وراء المحيط . وفكر جليبرت فى إنشاء مستعمرات للتوطين للتخلص من زيادة السكان فى بريطانيا ، حتى وإن كانت هذه المستعمرات لا يوجد فيها الذهب والتوابل . أما رالى فإنه قد أحضر الطباق من فرجينيا ، وأخذت عادة تدخين الطباق فى الانتشار ، وظهر معها ما يمكن لأراضى العالم الجديد أن تلتجته . وكان رالى هو أول من وضع نظرية التسليطة البريطانية المقبلة ، والى تلخص فى أن من يتحكم فى البحر يتحكم فى التجارة ؛ وأن من يتحكم فى تجارة العالم يتحكم فى ثروة العالم ، وبالتالي فى العالم نفسه . وبدأ بذلك تاريخ إنجلترا الاستعماري .

٤ - المنافسة الفرنسية :-

لم يفكر الفرنسيون كثيرا فى البحر نتيجة لإنشغالهم مع إنجلترا ثم مع إسبانيا والنمسا . وكانت الحروب الدينية قد قسمت فرنسا فى عصر الغزو الاسباني ، وكان كل من الاسبانيين والبرتغاليين يمكنهم العمل لأنهم كانوا قد قرروا نهائيا أن يكونوا من السكاثوليك . وكذلك كان فى وسع الانجليز أن يعمدوا ماداموا قد إستقروا فى البروتستانتية ، أما الفرنسيين فكان عليهم أن ينتظروا قليلا حتى يقرروا اتجاهاتهم فى بلدهم .

وكانت أطعمهم الاستعمارية متجهة صوب إيطاليا ، وصوب البحر المتوسط

الذى أعطاهم نظام الامتيازات فيه بعض المزايا في الجوعى الشرق منه . وكان ينقص الفرنسيين بعض الحصان والصفات اللازمة للمستكشفين وللتجار ، فكانت تنقصهم تلك العزيمة التى دفعت غزاة ليبيريا على طرق التجارة العالمية ، وكان ينقصهم حب المكاسب الذى كان يحرك الانجليز . كانوا يفضلون بلادهم على أى بلد آخر ، وإقليمهم على الأقاليم الأخرى ، وقربهم على القرى المجاورة . وإذا كانت لديهم الأموال فانهم يشترون بها أحد المناصب أو أحد الألقاب الفخرية أو قطعة أرض قريبة من قريتهم . ولكن بعض العناصر المغامرة ظهرت على سواحل نورماندى وبريتانى ، وبدأت فى الصيد إلى جوار نيوفوندلاند ، وقام جان أنجو بإعداد حرب القناصة البحريين ضد البرتغاليين ، وجعلهم يخسرون ثلثائة سفينة ، وأرسل الاخوان بارنتيه إلى سومطره وإلى الصين ، وكلف بيير أوبير بإنشاء مركز لصيد الاسماك وتجارة الفراء فى نيوفوندلاند ، ونصح فرنسوا الأول بارسان فيرازانو إلى أمريكا ، وتمويله برؤوس أموال من ليون وفورنسا . ولقد أعلن فرنسوا الأول سنة ١٥١٥ حق رعاياه فى الملاحة على كل البحار المعروفة . وأمر بإنشاء ميناء فى الغرب وعلى مصب السين ، يكون مرسى وموقعا حصينا . فكان ذلك بداية لنشأة الهافر . وعين فرنسوا الأول فيرازانو فى خدمته ، وقام هذا الأخير بالاستيلاء لفرنسا على نيوفوندلاند ، واكتشف إلى الجنوب منها أرضا سماها أنجوليم ، نسبة لسلطة رأس الملك ، وهى التى ستصبح نيويورك فيما بعد .

ولقد منح فرنسوا الأول معونة تبلغ ستة آلاف جنيه إلى أحد المترجمين البرتغاليين من ميناء سان مالو ، وذلك للقيام بعمليات استكشاف فى الغرب . وللغشور على بعض الجزر والبلاد التى يقال بأنه يوجد فيها كميات كبيرة من الذهب . وقام جاك كارتيه بإعداد سفينتين والإبحار صوب لبرادير ، ودخل فى مصب أحد الأنهار الكبيرة الذى سماه سان لوران ، ثم نزل إلى الساحل ورفع العلم الأبيض

الملكي ، ونصب صليبا نقش عليه اسم ملك فرنسا . وجاء الالهالي يكررون أمام
الفرنسيين كلمة كندا وهم يشيرون إلى قراهم وأكواخهم ، فأصبحت هذه الكلمة
هي اسم الإقليم . ولقد رحب هؤلاء الوطنيون بالفرنسيين وقدموا لهم الأسماك
الكبيرة . وعاد كارتيه إلى فرنسا مصطحبا معه بعض الوطنيين ، فمنحه الملك ثلاث
سفن لرحلة ثانية ، قام في خلالها بصعود نهر سان لوران إلى مكان معسكر للصيادين
وتجار الفراء ، الذي أطلق عليه اسم مونريال . ولقد أكد الهنود أن نهر
سان لوران يتهى إلى بحر كبير ، فهل كان هو بحر الصين ؟ وعلى أي حال فقد
كان الشتاء قاسيا ولم يجد الفرنسيون ذهباً في مستعمرتهم الجديدة . ورفع كارتيه
صليبا جديداً في المكان الذي نشأت كويلك فيما بعد فيه ، ثم عاد إلى سان مالو .
أما رحلته الثالثة سنة ١٥٤١ فقد كان يحمل فيها لقب القائد العام وكان
مكلفا بمهمة محددة لإنشاء مركز دائم وبمعرفة المعمرين ورجال المين والصناعة .
وبدلاً من أن يجد الذهب ، وجد النحاس ، ولكن بكيات كبيرة . وكانت السفن
تعود محملة بالصيد والفراء . ولكن الجو كان قارس البرودة وخاصة في الشتاء ،
فأدى ذلك إلى إخلاء المستعمرة ، وإن كانت فرنسا تدستفظت بها ، ودون أن
تحصل على تعريض بذلك من روما . وكان في فرنسا كثير من أنصار كلن الذين
حاولوا الحرب من الاضطهاد الديني وإقامة في أقاليم جديدة . وكان بعضهم
يذهب من فرنسا لإقامة في فلوريدا أو في البرازيل . وقام كوليزيه بتشجيع هذه
الهجرة ، وأرسل جان ريبولاستكشاف سواحل فلوريدا . ولقد أنشأ ريبو
قلعة على إحدى الجزر عند مصب أحد الأنهار الصغيرة وسماها قلعة شارل وترك
فيها بعض الرجال كمعمرين ، ثم عاد إليها في رحلة ثانية مع أربعائة آخرين ،
وأصبح الإقليم يسمى كاليفورنيا . ولكن الأسبانيين حاولوا التخلص من
الفرنسيين نظراً لكونهم من الفرنسيين ، ومن الهجنوت ، ولأنهم لم يحترموا
قرارات البابا بتقسيم العالم : غامروا بقتلهم بما فيهم من نساء ومرضى ، وسروا

البجارة من أعينهم على ساريات السفن، وشتقوا الجنود بعد أن كتبوا على صدرهم « لا كفرنسيين ، ولكن كبراطقة » . وقاموا بسلخ ريبو حياً ، وأرسلوا لجيئته إلى إسبيلية . وبعد ثلاث سنوات قام أسد أبناء بوردو بأعداد ثلاث سفن سريعة وأقلع من روان ومعه ثمانين بحاراً ومائة جندي وأعاد إحتملال قلعة شارل التي أصبحت سان مانيشو ، وشتق بدوره كل الاسبانيين الذين وجدهم ، وكتب على صدورهم : « لإاسبانيين ولكن كخزنة ، وقتلة » وكانت عملية الاستعمار تحتاج للمجهودات متواصلة ، لا لمجرد مجهودات متفرقة ، ولذلك فإن كارولينا لن ترى بعد ذلك الفرنسيين .

ولقد حاول الهجنوت أن يجدوا ملاجأ لهم في البرازيل حسب توجيهات كوليفي ، وقام أسد البجارة بتوصيل ٦٠٠ فلاح وعامل إلى خليج ريو ، وأنشأ قاعدة كوليفي على جزيرة صغيرة ، وهنرى فيل على الساحل المجاور . ولكن هذه المستعمرة انتهت بمنازعات ذبذبة رغم الامدادات التي وصلتها من الهاغر ، ثم قضى البرتغاليون عليها وذلك سنة ١٥٦٠ بعد أن هاجموا بالفي رجل ، رغم أن الفرنسيين الذين كانوا يدافعون عنها لم يزد عددهم عن ٧٤ . وتفرق المعمرين ، ولم يبق من هذه المخامرة إلا اسم جزيرة الفرنسيين ، الواقعة في الخليج أمام ريو دي جانيرو .

ولا يمكننا أن نتجاهل الألمان ، خاصة وأن شارل الخامس كان في حاجة إلى الرأسماليين من بينهم ، فاستثنى الألمان من القاعدة التي كانت تحتفظ بتجارة العالم الجديد حكراً على الإسبانيين . فأفاد من ذلك بعض الألمان الذين أنشأوا مركزاً تجارياً لهم في هايتي ، وإشتروا إحدى المقاطعات إلى جنوب برزخ بنما ، وحاولوا إستعمار فنزويلا ، وبدأوا في غزو منطقة ماركايو . ولكن الأهالي عاديهم . ولما كانت العملية بالنسبة إلى الألمان هي مجرد عملية مالية ، وأكثر من كونها عملية استعمارية ، فانهم انسحبوا منها نظير دفع الدولة لهم مبلغ ١٠ آلاف بيزيتا ذهبية .

وهكذا فشل الفرنسيون والألمان، أما الانجليز فكانوا قد بدأوا مغامرتهم، وكان كل من هؤلاء المنافسون لا يعنى الكثير أمام العاقلة الأسبانيين والبرتغاليين والذين أصبحوا سادة الهند الغربية والهند الشرقية . وكان خطأهم الأكبر هو قلة رغبتهم فى المخامرة ، ومعيتهم متأخرين . كما أنهم لم يجدوا الذهب والتوابل التى كان الموك والشعوب فى انتظارها ؛ وإن كان الوقت سيعمل فى صالحهم ويسمح لهم بالتفوق .



ويتضح مما سبق أن هذا القرن الذى مر منذ أن وضع كريستوف أرجله على جزيرة سان سلفادور ، قد غير تاريخ العالم . ولم يكن الاستعمار قد أحدث مثل هذا التغيير من قبل ، والذى عمل بدوره على تغيير كل شئ فى التوازن السياسى ، وفى الظروف الاجتماعية ، وفى التقاليد ، وفى المعتقدات . ويمكننا أن نقول بدون كبير خطأ أن الغزاة قد أنشأوا عالماً جديداً .

ويمكننا أن نتصور بعض الرجال الذين عاشوا فى هذا العصر . فانه قد ولد مع أمريكا ولاحظ التأثيرات العالمية . فاذا كان من الهنود الحمر ، فانه قد رأى انهيار الامبراطوريات القديمة ، وانهيار الآلهة القديمة . ورأى حضور الرجال الذين ينهبون وينقلون الكنوز المادية ، ويوردون غيرهم ، ويدخلون على الارض الأمريكية عاداتهم ولغتهم ، ويوطنوا فيها زوج افريقيه . ولقد أحضر الغزاة معهم مرض الحصبة ولصكتهم كانوا أول من بذر حبوب القمح ، والذى أصبحت أمريكا أكبر منتج له فى العالم فيما بعد ، وقاموا بزرع أشجار الزيتون والكروم والمواالح ، وأدخلوا الخيول ، والخنائير التى زادت سرعة تناسلها بمجرد مجيئها إلى جوها الطبيعى ، وملأت الجزر والسهول . ولقد قام الرجل الأبيض بإدخال الأدوات الحديدية فى تلك القارة التى ستصبح فيما بعد أكبر منتج للحديد فى العالم . وقام الأبيض باستخدام العجلات بدلاً من استخدام دواب الحمل . وإذا كان الأهالى

قد إندھشوا لرؤية المسيحيين يأكلون من لحم السيد المسيح في الكنائس ، فانهم قد تمرنوا بعد ذلك عن أن يكفوا عن أكل لحوم البشر وتقديم التضحيات البشرية . أما إذا كان من الأوربيين فانه قد شاهد دخول مأكولات وأدوات وأمراض في منزله ، لم يكن قد تعودها من قبل . فكانت هناك التوابل التي تأتيه عن طريق لشبونة وأنفوس ، وكان هناك الطماطم والأناثاس والشكاكو والديكة الرومية ؛ وحضر بعد ذلك البطاطس والقهوة وسكر القصب ، التي كانت تنتج في آسيا ، ثم زاد إنتاجها في أمريكا . وكانت الهند تورد له مواد الصباغة ، أما أمريكا فكانت تورد له الزهور والأخشاب والطباق الذي بدأوا في استخدامه في الطب ثم أسندوا في تدخينه . ولقد أثر ذلك على تاريخ العالم تأثيراً كبيراً ، وأفاد السكر في التقوية ، كما عمل البطاطس على إنقاذ أوربا من أخطار المجاعات ، وساعدت الضرائب على الطباق على إنهاء مشكلات مالية كثيرة .

وكانت من نتائج إكتشاف أمريكا زيادة ورود المعادن النفيسة ، ولم تكن هذه المعادن تلقى في جزائن ملك إسبانيا بل كانت تنشر في كل أوربا في شكل قطع ذهبية إسبانية أو فلورنسية أو فرنسية أو إنجليزية . وساهم القناصة البحريون في زيادة توزيع ذهبها وفضتها ، بشرائها بالمنتجات التي تحتاجها من الخارج ، مادامت بلادها كانت غير قادرة على صنعها ، وبدفع ديونها إلى رجال البنوك الفلمنكيين والألمان ، وبدفع رواتب جنودها المرتزة من السوليسريين والبلجيكيين ، وبإدخالها الأيدي العاملة الأجنبية ، وخصوصاً الفرنسية ، في شبه جزيرة أيبيريا ، وفي وقت الذي كانت ترسل فيه الأسبانيون للعمل في أمريكا ، وإرتفعت الرواتب ، وزادت القوة الشرائية وزادت وسائل الدفع ، فارتفعت الأسعار . وبدأت هذه الحركة لارتفاع الأسعار من البرتغال وإسبانيا ثم وصلت إلى فرنسا وإيطاليا ثم إلى أوربا حتى هولندا وروسيا . وزاد استخدام الفضة ، وانتشرت عادة الاقتراض بالفوائد . وأخذ رجال الاقتصاد في ذلك العصر في

البحث عن سبب غلاء كل شيء ، فتوصلوا إلى إنخفاض سعر العملة ، وحاولوا أن يتغلبوا عليه . ولكن الرجل العادى لم يكن يهتم بالنظريات ، بل يهتم بدورة رأس المال ونمو الرأسمالية . وكان آباؤه وأجداده يعيشون عيشة متواضعة ويلبسون ملابس متواضعة ويأكلون الجذور الدرية والرنجة . ولكنه أصبح الآن يهدم المساكن القديمة ويرتدى ملابس من أنسجة متقنة ، ويعتبر ما كان كماليا بالأمس ضروريا في يومه . وليس من حقا بعد أن نسأل إن كان هذا الرجل قد أصبح أكثر سعادة من أجداده . لقد ارتفعت الأثمان وتضاعفت ثلاث مرات وأربع مرات ، ولكن الإيرادات تضاعفت بنفس النسبة أو بنسبة أكبر ، وإن كان توزيعها قد اختلف . وكان هناك من كسب من هذه التغيرات ومن خسر ، مثلهم في ذلك مثل كل فترة تتغير فيها الأسعار . وكسب الفلاح وأصحاب الدخول المتغيرة مثل التجار وأصحاب البنوك ، وخسر أصحاب الدخول المحددة ، ومن أول صغار الموظفين حتى النبلاء ، وفي إسبانيا وإنجلترا وفرنسا . وتغير السلم الاجتماعى ، وازدادت درجة الصراع الطبقي ، وإن كان قد أخذ شكل صراع دنى . ولقد ساعدت الثروة على تقدم الطباعة والنشر ، وأخذ الناس يقرءون أكثر من قبل . أما العناصر غير الراضية ، وكل من خسر من عملية إنخفاض قيمة العملة فقد أخذوا في التفكير في آراء الإصلاح ، وأما العناصر الراضية ، والتي بحثت من العمليات الاستعمارية فقد أخذت في الدفاع عن العادات والتقاليد الكاثوليكية الرومانية . وأخذ الملوك يميلون إلى معارضة البابا ، ما داموا قد شعروا بأنه ابعدهم عن تقسيم الأسلاب ، في تقسيمه للعالم . وإذا تركنا لإسبانيين والبرتغاليين جانبا ، لرأينا أن الإيطاليين يكونون شعبا كاثوليكيا تحت السيادة الإسبانية ، أما الانجليز والهولنديون ، فانهم يعلنون الثورة ، قد لى البابا اسكندر السادس حين تقسيمه لممتلكات ماوراء البحار أنه يعمل في نفس الوقت على تقسيم المذاهب داخل العالم المسيحي نفسه . واثرت الكشوف الجغرافية على الفنون والآداب ،

فظهر أسلوب جديد في البرتغال إختلط فيه النباتات البرية والبحرية مع الحيوانات ، كما إختلط فيه الهند مع الكنغو . أما النهضة الاسبانية والإيطالية فقد امتاز أسلوبها بتذهب السقوف والأدوات الخشبية . ولانتشرت عادة القلائد الذهبية ، وجمع ريش الطيور النادرة ، وإنعكس كل ذلك على الأدب ، زيادة على القصص والروايات التي بدأت في إستخدام أسماء أقاليم ومناطق جديدة من العالم .

أما التغيرات السياسية التي تمت في هذا القرن فكانت كبيرة وبعيدة المدى ذلك أن الامبراطورية العثمانية كانت قد تمكنت في خلاله من توحيد شمال إفريقيا ، في الوقت الذي سيطرت فيه أوروبا على كل العالم ، والذي تحول فيه مركز الثقل العالمي لأول مرة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي . وكان الجيل السابق قد رأى المسلمين في غرناطة ، ولكن نفس الجيل رأى قشتالة تخضع جزءاً كبيراً من العالم . أما الجيل التالي فقد رأى بداية لإنهيار إسبانيا مع تركها لأراضيها كمرع للأغنام ، ومع هجرة فلاحيها وقلة عدد سكانها . وإذا كان الاستعمار قد رفع الأسعار فإن هذه العملية كانت تبعد رعاياها ، بشكل يحزم شبه الجزيرة الإيبيرية ، كوطن ام ، من القوة العاملة فيه .

ولقد كانت أوروبا كلها وكل الغرب ، آخذة في الصعود . أما آسيا فكانت لم تستيقظ بعد . سواء امبراطورية الصين الخاضعة لأسرة المانج ، أو الهند التي خضعت لباروأكبر . أما إفريقيا فلم يكن هناك من يقيم لها أى وزن . وكان على أوروبا وحدها أن تأخذ القرارات ، بعد أن أخذت الأراضي ، وأصبحت تمتلك أمريكا وتوابل آسيا ، وعبيد إفريقيا . وكانت أوروبا تضع الكل في مرحلة العبيد ولإرضاء حاجاتها ، سواء أكان ذلك هو ثروات العالم الجديد أو توابل الهند أو عبيد السودان .

وأصبح للعالم في هذا القرن بمفرده تاريخاً أكثر مما كان له منذ آلاف سنة .

ولكن ذلك لا يمكننا من أن نتحدث عن ثورة إستعمارية . فلقد رأينا غزاة من قبل يسمون الاسكندر الأكبر وجنكيز خان ، ولقد كانت فارس أمريكا جديدة بالنسبة لأبناء مقدونيا ، وكذلك المشرق بالنسبة للصليبيين . أما عن المذهب فقد كان النتيجة الطبيعية للغزوات ، وكانت قرطاجة قد عرفت طريقة ، وقام تراجان بالاستيلاء عليه ، كما قام كورتيز بالعثور عليه في المكسيك . ولقد وجد ماركو بولو باكتشافه أوراق العملة في الصين شيئا جديدا لم يصل إليه الغرب إلا بعد عصر الذهب ، ولتسهيل العمليات فيه .

وكان الغزاة هم طلائع حركات استعمارية سيطرت مع الزمن على كل العالم . ولكنهم كانوا قد نجحوا في الوقت الذي فشلوا فيه تمام الفشل . لقد اعتقدوا أنهم وصلوا إلى الهند ، رغم أنهم وصلوا إلى أمريكا ، واعتقدوا في إمكانية الوصول إلى يوحنا الراعي وإلى الخان الأعظم ، وإلى الالدو رادو ، ولكنهم لم يجدوا إلا شعوبا بدائية كان عليهم أن يقوموا بتعليمها . وكانوا يبحثون عن الفلفل والقرنفل فعادوا بالببطينات والأمراض . ولقد اعتقدوا في عملهم على نشر المذهب الكاثوليكي فأسرعوا بتدعيم حركة الإصلاح الديني والمذهب البروتستانتي . ولقد اعتقدوا أنهم يريدون ثروة إسبانيا فلم يعملوا إلا على إفقارها وتدهور أحوالها . ولقد اعتقدوا الرجال أنهم يتحكمون في مصير العالم ، ولكنهم استعبروا دون أن يعرفوا ودون أن يرغبوا في إتمام عملهم بهذا الشكل . وإمامهم هو أن أوروبا كانت تحاول الوصول إلى موارد إقتصادية جديدة ، وإن السيطرة على التجارة العالمية ، فتمكنت في هذا الميدان من الوصول إلى أهدافها ، كما تمكنت بحصولها على المعادن الثمينة في العالم الجديد - وهي أساس كل الحيات التجارية والاقتصادية - من السيطرة على إقتصاد العالم .

الباب السادس

الصراع في حوض البحر المتوسط

1

2

3

4

الفصل السادس عشر

المرحلة الأولى من الحروب الإيطالية

(حتى سنة ١٥١٥)

في الوقت الذي كانت تتم فيه عملية الكشف الجغرافية البرتغالية والإسبانية ، وقبل أن تظهر نتائجها ، شهد البحر المتوسط صراعا بين القوي ، تشمل أولا في محاولة فرنسا زيادة نفوذها وسيطرتها على شبه القارة الإيطالية ، الأمر الذي أدى إلى نشوب الحروب الإيطالية ، التي تحولت مع الزمن على صراع بين فرنسا وإسبانيا للتفوق في أوروبا ، وفي حوض البحر المتوسط . وأخذت هذه الحروب مراحل متتالية ، إنتهت المرحلة الأولى منها بتوازن بين نفوذ كل من فرنسا وإسبانيا في إيطاليا . وفي خلال ذلك الوقت كان هناك صراع بين سلطة المماليك والبرتغاليين ، إنتهى إلى تمكن البرتغاليين من أسر طرق تجارة التوابل ، وإضعاف قوة المماليك ؛ الأمر الذي أدى إلى تدخل العثمانيين في المنطقة ، وسيطرتهم على الشام ومصر والحجاز ، وإتحاد أمراء البحر في شمال إفريقيا معهم ضد المعتدين الإسبان ، الذين ترايد نفوذهم في الحوض الغربي للبحر المتوسط . وإذا كان الصراع الفرنسي الإسباني سوف يستمر بعد ذلك على شبه الجزيرة الإيطالية ، حتى سنة ١٥٥٩ ، إلا أن القوة العثمانية سوف يحسب لها حساباً في هذا الصراع الموجود في حوض البحر المتوسط ، خاصة وأنها كانت قد بلغت أوجها في عهد السلطان سليمان القانوني ، كما سيحسب حسابها بالنسبة للموقف في وسط أوروبا نفسها ، وقلبها ، وحتى معركة ليپانتو . فلنبدأ من البداية ، ومن المرحلة الأولى للحروب الإيطالية .

١ - التدخل الفرنسي في إيطاليا :

كانت شبه الجزيرة الإيطالية ، في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ، تنقسم إلى عدد من الدول أو الإمارات : أهمها جمهوريات البندقية ، وميلانو ، وفورنسا ، ثم الممتلكات البابوية ، ونابولي ، في أقصى الجنوب . كما كانت تشتمل على دوقية سافوا ، الواقعة على حدود فرنسا ، وعلى جمهورية جنوا . وكان هذا الانقسام يعود تاريخيا إلى فترة العصور الوسطى ، ويرجع سياسيا واقتصاديا إلى المصالح التي نمت وتطورت في أواخر العصور الوسطى ، وبداية التاريخ الحديث . وكان هذا الانقسام يدل على ضعف الوحدات السيامية الإيطالية ، من الناحية الحربية ، ورغم تفوقها في ميادين التجارة ورأس المال ، وتفوقها الفني والأدبي وقت ظهور النهضة الأوروبية ، أمام الدول الأوروبية الأخرى ، التي تمكنت من إقامة وحدتها الوطنية والقومية ، والتي كانت مجاورة لها مثل فرنسا وإسبانيا . وكان هذا الانقسام أكبر مشجع لها تين الدولتين على التوسع في شبه الجزيرة الإيطالية ، في ذلك الوقت ؛ خاصة وأن الدول والإمارات الإيطالية كانت تنافس بعضها ، وتحاول كل منها التوسع على حساب جيرانها . وسيطور الأمر ، مع محاولة الاحتفاظ بالتوازن بين الدول ، إلى تدخل كل من الإمبراطورية ، وإنجلترا ، في هذا الصراع ، الذي سيفتتب بين فرنسا وإسبانيا حول إيطاليا . وكانت ممتلكات الإمبراطورية في التيرول تقع بالقرب من أراضي البندقية ، أما إنجلترا فكانت لا تزال تحتفظ بشجر كاليه ، في شمال فرنسا .

ولقد بدأ التدخل الفرنسي في إيطاليا ، عسكرياً ، في عهد الملك شارل الثامن (١٤٨٣ — ١٤٩١) ، والذي تولى العرش بعد لوى الحادى عشر ، وإستند في ذلك إلى جيش قوى مدرب ، ويعتد على سلاح مدفعية له قيمته . وكان نخبالياً ، ويرى ضرورة السيطرة على إيطاليا ، كمرحلة أولى لتجهيز حرب صليبية كبيرة ، بوجهها ضد القسطنطينية ، ويستخلصها من أيدي العثمانيين . ولم يتمكن من تقييم

القوى الوجودية، وضرورات توازن القوى ، وخاصة بالذسبة لأراجون وقشتالة،
التي كانت لها ، بعد إتحادها، أطماعاً ومصالحاً في شبه الجزيرة الإيطالية . وبخاصة
في نابولي وصقلية .

ولاستند شارل الثامن إلى إدعاءات أسروية لوراثته عرش نابولي وعرش
ميلانو ، وإلى نزاع نشب في ميلانو . ول الحكم ؛ وعقد إتفاقيات مع إنجلترا
وإسبانيا والدولة الرومانية المقدسة ، كتمهيد لتدخله العسكري في إيطاليا . وعمل
على حشد قواته وسط هالة من الدعاية حول الزحف اللاحق إلى القسطنطينية ،
ولتخليصها من أيدي العثمانيين . وزحف الجيش الفرنسي ، الذي ضم عناصر من
الألمان والسويسريين ، على بيدمونت سنة ١٤٩٤ ، واحتلها ، ثم واصل زحفه
وإحتل كل من فورنسا وبيزا، ودخل في آخر يوم من هذه السنة إلى روما . وإذا
كان شارل الثامن قد فشل في أن يحصل من البابا على مرسوم بحكم نابولي ، إلا أنه
واصل زحفه السريع صوبها ، وأخذ معه ميزار بورجيا ، ابن البابا إسكندر
السادس ، وكذلك الأمير جم ، أخ السلطان العثماني ، بايزيد الثاني . وكانت المدن
الإيطالية تعلن تسليمها له قبل وصوله إليها . وعجزت نابولي عن المقاومة، ودخلتها
قوات شارل الثامن في ٢٢ فبراير سنة ١٤٩٥ . وكان سيزار بورجيا قد هرب
منه في أثناء الطريق ؛ ثم نسي ، وسط إحتفالات الانتصار في نابولي، أمر مواصلة
الزحف ضد العثمانيين ، خاصة وأن الأمير جم كان قد توفي .

وكان هذا الزحف الفرنسي السريع ، وبدون كبير مقاومة . قد جعل فرنسا
تسيطر على شبه الجزيرة الإيطالية . ولكن هذه السيطرة كانت تتعارض مع
التوازن الدول ، وتشير أحفاد الدول الأخرى ذات المصالح . ووجدت الدول
الإيطالية نفسها تحت نفوذ السيطرة الفرنسية ، فكوت « حلف البندقية » ، في
نفس السنة ، ١٤٩٥ ، وهو الحلف الذي ضم كلا من البندقية ، وميلانو ، والبابا
إسكندر السادس ، ومكسميليان الأول إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ،

وفرديناند وايزابلا، حكام أراجونا وقشتالة . وكان كل من الإمبراطور، وملاوك أراجونة وقشتالة يطمعون في السيطرة على إيطاليا ، أو على الأقل في التوسع فيها؛ الأول من الشمال ، والثاني من الجنوب ، ومن نابولي .

وكانت صياغة شروط « حلف البندقية » غير محددة ؛ إذ أنها نصت على « الدفاع عن العالم المسيحي ضد الأتراك ، والدفاع عن إيطاليا ، وتحرير الدول الإيطالية » ؛ ولكنهما كانت موجهة ضد فرنسا. وكان في وسع إسبانيا مهاجمة فرنسا من جبال البرانس ، وكذلك مهاجمة قواتها الموجودة في إيطاليا من جزيرة صقلية؛ كما كان في وسع الإمبراطور مهاجمة القوات الفرنسية من الشمال، ومنعها من العودة إلى فرنسا ، وذلك في الوقت الذي ساد فيه شعور الأهالي العدائي في إيطاليا ضد القوات الفرنسية. وفي كل مكان. ولذلك فإن شارل الثامن قرر الانسحاب بقواته من إيطاليا ، بادئا بالانسحاب من نابولي ، ثم من روما ، وبيزا . ولقد اضطر إلى الدخول في معركة عند فورنوفو ، شمال بيزا ، مع قوات حلف البندقية ؛ ولكنه تمكن من الاستمرار في الانسحاب شمالا ، وأنقذ بذلك بقية جيشه من الدمار . ولم تحصل فرنسا على أى نتيجة إيجابية من هذه المغامرة الإيطالية ، سوى إنبهار سمعتها وكرامتها .

وعند وفاة شارل الثامن سنة ١٤٩٨ ، تولى العرش بعده ابن عمه لوى الثاني عشر (١٤٩٨ — ١٥١٥) ، الذى عرف من قبل بإسم دوق أورليان . ولقد انتهج سياسة سلفه التوسعية في إيطاليا . واتفق مع كل من إسبانيا وإنجلترا على الوقوف على الحياد ، كما اتفق على البابا مع إعطاء ابنه سيزار بورجيا أحد الأقاليم . وعبرت القوات الفرنسية جبال الألب سنة ١٤٩٩ ، وتمكنت من إحتلال ميلانو ؛ ورغم مقاومة أميرها لها ، إلا أنها تمكنت من الاستمرار في السيطرة على الاقليم . وبقى هذه المرحلة ، لم تحدث أية مضاعفات . ولكن سرعان ما اتجهت أنظار لوى الثاني عشر صوب نابولي ، في جنوب إيطاليا ،

وكان لفرديناند الكاثوليكي أطباعاً في نفس الإقليم ، مستندة كذلك إلى إدعاءات أسروية . فاضطر ملك فرنسا إلى عقد معاهدة غرناطة سنة ١٥٠٠ مع فرديناند الكاثوليكي ، وتحت رعاية البابا ، وهي التي نصت على اقتسام نابولي بين الملكين . وعجزت مملكة نابولي عن الوقوف في وجه الجيوش الفرنسية والاسبانية . ولكن سرعان ما ظهرت الخلافات بين المنتصرين ، الاسبانيين والفرنسيين ، بعد انتهاء المعركة ؛ وتنازلت الهزائم على القوات الفرنسية ، وانتهى الأمر بطردها من نابولي ، التي انفرد الإسبان بالسيطرة عليها ، ولم يتركوا لفرنسا سوى إقليم ميلانو في الشمال .

وجاءت وفاة البابا اسكندر السادس سنة ١٥٠٣ ، وتولى البابا جيل الثاني عرش البابوية من بعده ، لكي تمثل نقطة تحول في الحروب الإيطالية .

٢ - الخلاف بين فرنسا والبابا :

وكان البابا اسكندر السادس يساير فرنسا في سياستها التوسعية في إيطاليا حتى يضمن ، عن طريق ذلك الحصول على إحدى الإمارات لابنه ، سيزار بورجيا . أما البابا جيل الثاني فكان يرغب في التدخل في الحروب ، علاوة على تدخله في السياسة ؛ وكان من أصل جنوى ، ويرغب في توسيع ممتلكاته في إيطاليا ، رغم أنف البندقية ، التي كان سلفه قد تحالف معها . ولقد تدهورت العلاقة بسرعة بين هذا البابا وبين البندقية ، وأسهم مكيافيللي ، اسهاماً كبيراً ، في الوصول إلى هذا الحد . ووجد هذا الاتجاه ، من جانب البابا جيل الثاني ، تجاوباً من معظم الدول الأوروبية ؛ خاصة وأنه كانت أحقاد جيال البندقية أو أطماع فيها : فكان لوى الثاني عشر ينظر إلى البندقية على أنها ثمرة لها قيمتها ؛ ويمكنها أن تعوض عليه خسائره في نابولي ؛ أما مكسييليان الاول ، امبراطور الدولة الرومانية ، فقد رأى أن البندقية قد توسعت أكثر من اللازم ، وأنها احتلت بعض الاقاليم التي

كانت تابعة للإمبراطورية ؛ وحسب نابولي ، في محنتها ، رأت أن البندقية قد انتمزت فرصة ضعفها ، واحتلت بعض الموانئ الواقعة على شرق شبه الجزيرة ، والتي كانت تابعة لها ، وأما فلورنسا ، فكانت تنظر إلى أبناء البندقية على أنهم منافسون خطرين ضدها ، وفي كل مكان . وساعدت المصالح والأطماع على تجمع كل من فرنسا وإسبانيا . والدولة الرومانية المقدسة ، وفلورنسا ، حول البابا ؛ وفي التوقيع في سنة ١٥٠٨ على شروط « حلف كامبراي » ، التي نصت على الهجوم على أراضي جمهورية البندقية ، وإقسام أملاكها بين الدول الأعضاء في الحلف .

وسرعان ما أرسلت فرنسا قواتها للنزول إلى المعركة ، وأرسلت عشرين ألف مقاتل ، كانوا أول قوات تصل من حلف كامبراي ؛ وتمكن هذا الجيش من أن ينزل هزيمة بجيش البندقية في معركة أجناديل في شهر مايو سنة ١٥٠٩ . وكانت خسائر البندقية جسيمة ، وتقدمت قوات البابوية لإحتلال المناطق التي كانت تطمح فيها ، وتدعى ملكية البابا لها .

وسحبت البندقية قواتها من الموانئ الشرقية ، والتي كانت نابولي تطالب بها ؛ وكذلك من الأقاليم التي كانت البابوية ترغب في الحصول عليها . ورغم ذلك فإن دول الحلف لم توافق على عقد الصلح معها ؛ الأمر الذي دفعها إلى أن تقر ضرورة الإستمرار في المقاومة في بلادها ، والإستعانة بالأتراك العثمانيين إذا ما تطلب الأمر ذلك .

ووجد البابا أن الموقف يحتاج إلى تفكير ، وإلى إعادة تقييم ؛ خاصة وأنه كان قد حصل على مطالبه ؛ كما أن استمرار التشدد مع البندقية كان يهدد بزيادة نفوذ فرنسا ، أو الدولة الرومانية المقدسة ، أو نفوذ كليهما ، في شبه الجزيرة الإيطالية ، إن لم يكن يهدد بتدخل الدولة العثمانية في شؤون هذه المنطقة . ولذلك فإنه قرر الاكتفاء بما وصل إليه ، ومنع أية إمكانية لمضاعفات مقبلة . وكان وجود البندقية مهما بالنسبة لوقف أطماع كل من الإمبراطورية وفرنسا في إقليم ميلانو ، وفي

منع أى توغل للنغوذ العثماني كذلك في شبه الجزيرة الإيطالية ، فسحب البابا قرار الحرمان الذي كان قد أصدره ضد البندقية ، وعقد صلحاً منفرداً معها ، سنة ١٥١٠ .

ونظر كل من الإمبراطور ، وملك فرنسا ، إلى موقف البابا ، على أنه تراجع ؛ وصمما على استمرار الحرب ضد البندقية . ولكن البابا أعلن أنه سيخلص إيطاليا من قواتها المتبربرة ، وظهر بمظهر الزعيم أو القائد الإيطالي ، الذي يحاول تخليص إيطاليا من القوات الأجنبية . وإستند في هذه المرحلة إلى البندقية ، وإلى إسبانيا التي كان قد وضع مملكة نابولي تحت سيادتها . ثم عمد البابا ، بعد ذلك ، إلى إثارة العداء بين هنري الثامن ملك إنجلترا ، ولوى الثاني عشر ملك فرنسا ، من ناحية ؛ وإلى فصل إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة عن ملك فرنسا ، من جانب آخر .

ولقد أدى ذلك إلى نشأة خلاف حاد بين فرنسا وبين البابا ؛ وجمع ملك فرنسا كرادلة وأساقفة فرنسا في مجمع ديني عقده في تور ، واتهم البابا بارتكاب جرائم قبل أن يصل لكرسى البابوية ، وبأنه زج بإيطاليا في حروب أوربية ؛ وإتهمه بالخيانة ، وأجاز محاربته ؛ وأعلن بطلان القرارات التي يصدرها بالحرمان . وإستدعى لوى الثاني عشر الكرادلة الفرنسيين المقيمين في روما ، وبدأت ظواهر إنقسام كبير وخطير تهدد كيان الكنيسة الكاثوليكية . وسرعان ما قامت القوات الفرنسية في إيطاليا بمحاصرة مدينة بولونا سنة ١٥١١ ، والتي كان البابا فيها في ذلك الوقت ؛ وإستمرت المناوشات ، بعد فراره منها ، بين قواته والقوات الفرنسية .

وزاد الأمر خطورة أن طلب خمسة من الكرادلة إلى البابا الذهاب إلى بيزا ، لحضور مجمع كنسي يعقد هناك ، لإصلاح شئون الكنيسة . فخشى البابا من أن يفتن الكرادلة الموقف للوصول إلى كرسى البابوية ؛ كما كان يخشى من إنشقاق

فردا على الكنيسة الكاثوليكية؛ ومن إمكانية ميل الإمبراطور مكسيميليان إلى أن يرشح نفسه لكرسى البابوية . فعاد إلى روما بسرعة ، ودعا إلى عقد المجمع الكنسي في قصر اللاتران في روما ، يوم ١٩ أبريل سنة ١٥١٢ ، وهدد بعزل كل كardinال ، أو رئيس أساقفة ، أو أسقف ، تحدته نفسه بعدم الحضور . وكان هذا القرار يهدف مواجهة أمر عقد مجمع تور ، أو بينا ، وحتى يكون هذا المجمع تحت سيطرته .

وعمل البابا من ناحية أخرى ، على عزل فرنسا سياسياً ؛ فأذاع في شهر أكتوبر سنة ١٥١١ نبأ تكوين ما أسماه « بالحلف المقدس » ضد فرنسا ، وهو الحلف الذي كان يضم كل من فرديناند السكاثوليكي ملك إسبانيا ، وهنرى الثامن ملك إنجلترا ، وجمهورية البندقية ، والقوات السويسرية المرتزقة ؛ وترك الباب مفتوحاً أمام مكسيميليان الأول ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ليرضاهم إلى هذا الحلف . وكانت هذه نقطة تحول خطيرة في العلاقات بين الدول في ذلك الوقت ؛ إذ أنها ستكون بداية وضع إسبانيا في مواجهة فرنسا ، ومحاولة إغراء إنجلترا بالحصول على مكاسب على حساب فرنسا ، مع التهديد لإدخال الإمبراطورية في هذه المجموعة ضد فرنسا . وسيزيد الأمر خطورة حين يصبح ملك إسبانيا ، هو في نفس الوقت إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، فيما بعد ، في عصر شارل الخامس . وعلى أي حال فإن إعتقاد البابا على إسبانيا ، في ذلك الوقت ، كان قد بنى على وقائع لها قيمتها ، ومعطيات وإيجابيات واضحة ، خاصة وأن إسبانيا كانت قد سيطرت ، بالفعل ، على الخوض الغربي للبحر المتوسط .

٣ - سيطرة إسبانيا على الخوض الغربي للبحر المتوسط :

وكانت إسبانيا ، أو مملكة قشتالة وأراجون ، قد أفادت ، ومنذ إستيلائها على غرناطة ، آخر معاقل المسلمين في الأندلس ، سنة ١٤٩٢ ، من نمو قوتها ، لكي تطرد المغاربة والمسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وذلك كتمهيد لنمو

دولة حديثة ؛ تؤمن على نفسها ، وتزيد من مصالحها في الحوض الغربي للبحر المتوسط . وزادت قوتها بعد أن تمكنت بعثاتها من الوصول إلى العالم الجديد ؛ وأفادت من انقسام المغرب وضعفه لكي تحقق سيطرتها على الحوض الغربي للبحر المتوسط .

وكانت بلاد المغرب الاسلامي ، التي إتحدت مع بعضها في القرن الثالث عشر الميلادي ، قد أدى بها الوقت إلى الضعف والتقهقر ، خاصة وأن النظام كان فردياً ، وإستبدادياً ، وإحتكاريّاً ، رغم كونه إسلامي . فنشأت المنازعات والخصومات والمشاحنات ، بين القيادات الثاوية ، التي عملت على تقسيم البلاد فيما بينها ؛ وحاولت كل منها أن تفتش لنفسها إمارة أو سلطنة أو ملك ، وعلى حساب عباد الله الصالحين . وهكذا إتقسم مغرب الموحدين إلى ثلاث إمارات رئيسية ، حاولت كل منها أن تسيطر على إقليم ، وعلى المناطق المجاورة لها : فظهرت سلطنة بني مرين في المغرب الاقصى ؛ وإمارة بني حفص في تونس ، وإمارة بني عبد الواد في تلمسان ، في المغرب الأوسط . وإنتشرت الخلافات والخصومات والإطاع ، بين كل إقليم وجاره ، وفي شكل تناحر على الملك ، ومناطق النفوذ والمكاسب ؛ مما أدى إلى ضعف كل منها ، في الوقت الذي تطورت فيه الأوضاع في أوروبا ، وزادت فيه إمكانياتها على العمل ، وعلى النمو والقوة (١) .

وكان موقع إسبانيا والبرتغال ، قرب بلاد المغرب العربي ، سبباً في توجيه أنظارهم إليه ، في وقت نموهم ، ونزولهم إلى ميدان الكشف الجغرافية ، عند نهاية القرن الخامس عشر ، ومطلع القرن السادس عشر . وإذا كان البرتغاليون قد إحتلوا موانئ المغرب المطلة على المحيط الأطلسي ، أثناء قيامهم بحركة الكشف الجغرافية للوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فإن الإسبان ، مع

(١) أنظر : د . جلال يحيى . المغرب الكبير . الجزء الثالث . الاسكندرية ١٩٦٦ .

لإستيلائهم على غرناطة ، وقرب سواحلهم من سواحل المغرب العربي ، وقيامهم
ببترد أو محاولة هضم الموريسكيين في الأندلس ، واستخدام « محاكم التفتيش » في
هذه العملية ، وسيادة روح منسيحية صليبية لديهم لتغطية عملية توسعية وإستغلالية
ضد جيرانهم ، قد إندفعوا إلى القيام بعملية للإستيلاء على موانئ وثور المغرب
المطلّة على البحر المتوسط ، لقتل تجارة المغاربة ، وضمان عدم منافسة المغاربة لهم ،
ومحاصرتهم المغاربة ، وتجارهم ، داخل القارة الإفريقية .

ولقد قام الإسبانيون باحتلال المرسى الكبير ، غرب وهران ، سنة ١٥٠٥ ؛
ثم إحتلوا إحدى الجزر المواجهة للشاطئ ، وإتخذوها قاعدة حربية للهجوم منها
على ذلك الشاطئ ، واضربه منها بالقنابل ، وهي التي مستصبح فيما بعد نواة لنشأة
مدينة الجزائر . ثم واصل الإسبانيون هجماتهم ، بعد سنة ١٥٠٨ ، ونتيجة لتولى
الأميرال بيدرو ناغرو قيادة أساطيلهم ؛ فاستولوا على حبر باديس ، في هذه
السنة ، واستولوا على وهران وبجاية في العام التالي ؛ وقاموا في سنة ١٥١٠ بتدمير
ميناء طرابلس ؛ واضطرت موانئ دلس والجزائر إلى دفع الجزية لهم . وكانوا
قد أقاموا لنفسهم حصناً على جزيرة صغيرة مواجهة للساحل ، وهي التي سيودي
ربطها بالقرية الساحلية المواجهة إلى نشأة مدينة الجزائر فيما بعد .

وكانت صدمة أصابت المسكر الوطني ، الذي ظهر عجزه عن قيادة المعركة ،
نتيجة للانهزام والضعف المادي ؛ فظهرت الحاجة إلى قوى جديد لقيادة النضال
فيما بعد . ولكن القوة الإسبانية سيطرت على الموانئ والسواحل المغربية ، وبشكل
متصل ، من مضيق جبل طارق ، حتى طرابلس ، ومنذ سنة ١٥١٠ . ولذلك ،
فإن نزول القوات الإسبانية إلى شبه الجزيرة الإيطالية في ذلك الوقت ، وفي
نابولي ، كان امتداداً ، ونتيجة طبيعية ، لسيطرة إسبانيا على الخوض الغربي للبحر
المتوسط . كما أن اعتماد البابا بعيل الثاني على إسبانيا ، في شبه الجزيرة الإيطالية ،
كان مبنياً على معطيات وإيجابيات واضحة .

٤ - إستمرار الحرب حتى موقعة مارينيان سنة ١٥١٥ :

وكان البابا قد أعتمد على « الحلف المقدس » عامة ، وعلى القوات الاسبانية والسويسرية بشكل خاص ، لكي يتخلص من الوجود الفرنسي في شبه الجزيرة الإيطالية . وتقدمت القوات الاسبانية والبابوية ، في شهر ديسمبر سنة ١٥١١ ، صوب بولونا وفرارا ، وزحف السويسريون والبنادقة على سهل لومباردى . وامكن القوات الفرنسية أظهرت صلابتها ، واحتفظت بمدينة بولونا . ثم واصلت القوات الفرنسية تقدمها صوب راغينا ، حيث لاقت جيشاً إسبانياً ، وخاضت معركة ضده ، في ١١ أبريل سنة ١٥١٢ ، وهزمت هزيمة ساحقة ، وإن كان قائدها قد قتل في هذه المعركة . وكانت راغينا من أهم مواقع إقليم رومانا ، الذي كان من ممتلكات البابوية ؛ وسمح ذلك للفرنسيين بالسيطرة على كل الاقليم .

ووجد البابا نفسه مهدداً ، فعمل على توسيع « الحلف المقدس » ، ونجح في ضم الإمبراطور مكسيميليان اليه ، ضد فرنسا . في ١٧ مايو سنة ١٥١٢ ، وبشكل جعله يضم كل من البابا ، والإمبراطور وملك إنجلترا وملك إسبانيا ودوج البندقية ضد فرنسا وتزايد عدد قوات السويسريين في إيطاليا ، ونشبت الثورات ضد الفرنسيين في كل مكان ؛ الأمر الذي دفع القوات الفرنسية إلى الانسحاب ، وإلى عبور الألب عائدة إلى بلادها . ولقد أدعى البابا أنه ظهر إيطاليا من الفرنسيين ، ولكنه كان قد أدخل اليها قوات إسبانية ، وسويسرية وألمانية ، وجعلها تسيطر عليها . وعلى أي حال فإن البابا قد وسع حدود مملكاته ، واستولى على بارما وريجيو ومودينا ، كما إستولى كل من الإمبراطور ، وملك إسبانيا ، على مناطق كان يطمح فيها .

وحين توفي البابا جيل الثاني سنة ١٥١٣ ، وتولى الكرسي الباقوى البابا ليو العاشر ، كان العداء على أشده . بين كل من فرنسا وإسبانيا ، على إيطاليا . وكانت أقدام إسبانيا ثابتة في نابلي ؛ في جنوب إيطاليا ، وكانت تقسم مع السويسريين

أمر السيطرة على ميلانو في الشمال . أما فرنسا ، فإن أنظارها كانت لا تزال تنجس إلى سهل لومباردي ، وإلى دوقية ميلانو ، التي كانت ترغب في إستعادتها . وبدأت فرنسا باتخاذ موقف ، في شهر مارس سنة ١٥١٣ ، يتمثل في عقد « حلف بلوا » ، مع البندقية ، وبشكل يسمح لفرنسا بإسترداد سهل لومباردي ، ويسمح للبندقية باستعادة ممتلكاتها السابقة . ورد البابا على ذلك ، وفي نفس السنة ، بعقد حلف مضاد ، هو « حلف مالين » ، الذي ضم الممتلكات البابوية ، مع مكسيميليان الأول ، امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وفرديناند الكاثوليكي ملك اسبانيا ، وهنري الثامن ملك إنجلترا . وكان هذا الحلف موجهاً ضد فرنسا . وسرعان ما اشتعلت الحرب بين قوات الحلفين .

ولقد زحف قوات فرنسا والبندقية على شمال إيطاليا ، ، متجهة إلى ميلانو واستولت القوات الفرنسية على جنوا ، واستمرت في انتصاراتها ، إلى أن جاءت القوات السويسرية لكي تحسم الموقف في صالح حلف مالين ؛ فهزمت القوات الفرنسية في شهر يونيو سنة ١٥١٣ في نوفارا على أيدي السويسرين ، الأمر الذي أجبر الجيش الفرنسي إلى الأسراع بعبور الألب عائداً إلى فرنسا ، بعد أن تكبد الكثير من الخسائر ؛ واضطر جيش البندقية كذلك إلى التقهقر ؛ وحسنت القوات الإسبانية والألمانية إلى البندقية ، وضربت بها بالمدافع .

وأصبحت فرنسا في موقف لا تحسد عليه ، بعد أن هاجم الإنجليز إقليم نورماندي ، واستولى الاسبانيون على إقليم ناغار قرب جبال البرانس ، وتمكن البرجنديون من حصار ديجون . فاضطر لوى الثاني عشر إلى التراجع ، وإلى مصالحة البابا ؛ ثم عقد مع فرديناند ملك إسبانيا هدنة تسحب على الحروب . الإيطالية ، كما عقد الصلح مع هنري الثامن ملك إنجلترا سنة ١٥١٤ .

ومعكذا فشلت فرنسا ، حتى ذلك الوقت ، في تنفيذ سياستها الخاتمة بالتوسع في إيطاليا ؛ أما إسبانيا فإنها حصلت على نابولي ، وافتتحت ميلانو مع السويسريين ،

واستولت على نافار . أما البابوية فإنها ضمنت الحصار على إقليم رومانا .
وحين توفي لوى الثانى عشر ، فى شهر يناير سنة ١٥١٥ ، تولى العرش فرنسوا
الاول (١٤٩٩ - ١٥٤٧) ؛ وكان من أسرة فالوا ، ويتميز بالهمة والافدام ،
وله من العمر عشرين عاماً . ولئن يتراجع عن المطالبة بحقوقه فى إقليم ميلانو ؛
وعمل على التحالف مع البندقية كذلك . ووجد فى مواجهته محالفات من الامبراطور
وملك اسبانيا والبابا ؛ ولكن الموت خلصه منهم ، الواحد بعد الآخر ، خاصة
وأَنهم كانوا مسنين .

ولقد حشد فرنسوا الاول جيشاً قوياً ، يبلغ أربعين ألف مقاتل ، مدعم
بسلاح مدفعية رهيب ، وعبر به جبال الالب بسرعة ، وأوقع هزيمة منكرة
بقوات الحلف فى موقعة مارينيان ، ، بالقرب من ميلانو ، فى ١٣ سبتمبر سنة
١٥١٥ . وكانت قوات كل من الامبراطور مكسيميليان ، والملك فرديناند ، لم
تصل بعد إلى أرض المعركة . وتمكنت القوات الفرنسية من الاستيلاء على ميلانو .
ولقد أردف فرنسوا الاول ذلك بعقد اتفاقيات بولونا (كونكوردات)
مع البابا ليو العاشر ، فى شهر أغسطس سنة ١٥١٦ ؛ ووافق على دفع أموال
الكنيسة للبابا ، بعد أن كانت فرنسا قد توقفت على دفعها له منذ سنة ١٤٣٨ ؛
وعادت هذه الاتفاقية بالنفع على الجانبين ، وظلت أساساً للعلاقات بين فرنسا
والبابوية حتى عهد الثورة الفرنسية .

كما أنه قام بعقد صلح فيريرج الدائم فى نوفمبر سنة ١٥١٦ مع السويسريين ،
ودفع لهم نفقات حربهم نظير تعهدهم بعدم محاربة ملك فرنسا فى بلاده أو فى ميلانو
أو أى إقليم آخر تابع له . وظلت هذه الاتفاقية أساساً للعلاقات بين فرنسا
وسويسرا حتى عهد الثورة الفرنسية كذلك .

وعقد اتفاقيات ، فى نفس السنة ، مع الامبراطور مكسيميليان الاول ، ومع
البندقية ، ضمنت له الاحتفاظ بميلانو وجنوا ، والسيطرة على إقليم لومباردى فى

شمال إيطاليا. كما عقد في نفس السنة إتفاقية فيون مع شارل ، أمير النمسا، ووارث
عرش إسبانيا ، بعد وفاة فرديناند الكاثوليكي .
وإذا كانت المنافسة سوف تشتد بين فرنسوا الأول ، وشارل ملك إسبانيا
حول عرش الامبراطورية ، فإن أطماع كل منهما ستظل قائمة من أجل السيطرة على
إيطاليا ، وإستمرار الحروب الإيطالية لفترة جديدة .
وفي أثناء ذلك اوقت ، ومع هذا الهدوء النسبي ، عهد العثمانيون إلى تغيير
الأوضاع الموجودة في الشرق الأدنى ، وبشكل يغير خريطة القوى في حوض
البحر المتوسط ، ويزيد من تعقيد الصراعات الموجودة فيه .

لفصل السابع عشر

التوسع العثماني في الشرق الأدنى في عهد سليم الأول

حتى سنة ١٥١٨

كانت سلطنة المماليك ، وهي المسيطرة على مصر والشام ، قد ضعفت ، اقتصادياً وعسكرياً ، نتيجة لوصول البرتغاليون إلى مياه العرب والهند ، ودخولها في صراع معهم ، أثر على قواتها الحاربة ، وبعد أن كانت التجارة العالمية قد انحصرت من منطقة الشرق الأدنى إلى طريق رأس الرجاء الصالح . وسمح ذلك للدولة العثمانية ، التي كانت علاقاتها قد سامت مع مصر ، بالزحف بجهودها ، والاستيلاء على الشام ومصر ، وبشكل غير خريطة الشرق الأدنى ، وقلب موازين القوى الموجودة فيها ، وسمح للدولة العثمانية بإمكانيات عمل جديدة في العالم . وتم كل ذلك في عدد بسيط من السنوات ، وفي وقت كانت فيه الدول الأوروبية ، وأهمها فرنسا وإسبانيا ، مشغولة في الحروب الإيطالية .

١ - الصراع المملوكي البرتغالي وضعف سلطنة المماليك :

كان وصول البرتغاليين ، بعد إتفاقيهم حول رأس الرجاء الصالح ، إلى المياه الهندية والعربية نقطة تحول كبيرة في تاريخ العالم بشكل عام ، وفي تاريخ المنطقة بشكل خاص .

وكانت التجارة العالمية ، بين الشرق والغرب ، سواء تلك التي تأخذ طريق الحرير ، الذي يمر من الصين إلى أوامبست آسيا ثم آسيا الصغرى والبلقان إلى أوروبا ؛ أو تلك التي تسير في طريق التوابل ، البحري الذي يصل من مياه الشرق الأقصى والهند إلى الخليج الفارسي والبحر الأحمر ، تصل في غالبيتها إلى موانئ

الشام ومصر ، والى كانت تابعة لسلطنة المماليك ؛ خاصة وأن إستيلاء العثمانيين على القسطنطينية ، فى سنة ١٤٥٣ ، جعل التجارة العالمية تبتعد عن المرور فيها ، وتنحرف بمسيرتها صوب الموانىء المملوكية فى الشام . وكانت دولة المماليك تعيش من الأرباح التى تجنيها من الرسوم والضرائب على هذه التجارة ؛ كما كان كثير من أهالى البلاد يعيشون منها وعليها ، ولذلك فإن وصول البرتغاليون إلى مياه الهند كان تهديداً واضحاً لدولة المماليك فى إيراداتها ومكاسب تجارتها وأبنائها ، من الناحية الاقتصادية .

كما أن البرتغاليين إستخدموا الشدة والقسوة فى الموانىء العربية ، على سواحل شرق إفريقيا ، فقاموا بإحراقها وضربها بالقنابل ؛ كما عملوا على إغراق سفن التجار والبحارة العرب فى كل مكان . ووصلت أساطيلهم إلى مدخل الخليج العربى ، تمهيداً لإقامه قاعدة لهم فى هرمز ؛ كما وصلت سفنهم إلى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، وحاولوا الاستيلاء على عدن . وكانوا يهددون أكثر من ذلك بالدخول فى البحر الأحمر ، وبتدمير جدة والسويس ، وأعلنوا ، تحت دعاية دينية ، أنهم سيحتلون الحجاز ، ويدمرون مكة والمدينة ، وأنهم سيتحالفون مع الحبشة لتحويل مجرى النيل ، وأمانة مصر عطشاً . وكان هذا تهديداً واضحاً لدولة المماليك ، من الناحية الاستراتيجية ، ومن الناحية السياسية .

ولذلك فقد كان من الطبيعى أن تدخل مصر فى صراع مع البرتغاليين ، ذلك الصراع الذى فرض عليها فى ذلك الوقت ؛ خاصة وأن بعض مندوبى مسلمى الاندلس ، وأمر شمال إفريقيا ، كانوا قد وصلوا إلى السلطان الغورى فى القاهرة ، يستجدون به أمام النكبات التى كان الكاثوليك فى أيسيريا يزلونها بهم ، وببلادهم ؛ وكان اليهود الذين فروا بعد سقوط غرناطة وجاؤا للإقامة بمصر ، يؤيدونهم فى الضغط على السلطان المملوكى .

وكانت الضربة الاقتصادية التى أصابت سلطنة المماليك ، قد أثرت كذلك

على جمهورية البندقية ، التي كانت تشتري السلع من الموانئ المملوكية . وكان كبير سفن البرتغاليين يسمح بوصول شحنات أكبر إلى لشبونة ؛ وكانت هذه السلع تباع في لشبونة بأسعار تقل عن أسعارها في موانئ مصر والشام ، وإذا كانت حكومة البندقية قد رفضت ، لعدة سنوات ، أن تتاجر مع لشبونة بدلا من إبحارها مع المماليك ، إلا أن عدداً متزايداً من تجار إنجلترا وغرب وشمال أوروبا بدأ في التعامل مع البرتغاليين ؛ الأمر الذي مهد الحياة الاقتصادية لجمهورية البندقية تهديداً واضحاً ، وجعلها تشكك بضرورة خفض المماليك للرسوم التي يفرضونها في موانئهم على سلع الشرق الأقصى ؛ وجعلها تساند دولة المماليك في صراعها ضد البرتغال ، ولكن في حدود مصلحة التجارة .

ولقد طلب الغوري من البندقية إمداده بالأسلحة ، وبالأخشاب ، اللازمة لبناء وتسليح أسطوله ؛ وهو الأسطول الذي أنزله إلى مياه السويس سنة ١٥٠٥ . ولكنه رفع في نفس الوقت الرسوم على التوابل ، الأمر الذي أغضب البنادقة ، إذ أنه كان يتعارض مع إتفاقياتهم ، ويزيد الصعوبات أمامهم في التعامل في التوابل بهذه الأسعار الجديدة . ولذلك فإن أنظار السلطان الغوري قد انجذبت صوب السلطان العثماني ، بايزيد الثاني ، لكي يمدّه بالسفن والأسلحة .

وأنزل السلطان الغوري أسطولاً حربياً في خليج السويس ، زوده بالأسلحة ، وعين عليه الأمير حسين الكردي ؛ وكان يتألف من خمسين سفينة ، اجتمعت في ميناء جدة ؛ ثم وصل إلى سورات في بلاد جورجيات سنة ١٥٠٧ ، وحيث انضمت إليه بعض السفن الهندية ؛ وفاجأ أسول المبدأ البرتغالي ، وأنزل به هزيمة قرب شول سنة ١٥٠٨ ، وقتل المبدأ الصغير ، القائد البرتغالي في هذه المعركة . ولكن فرانسيسكو المبدأ الكبير ، إنتهز فرصة إلتجاء الأسطول المملوكي إلى ديو ، وفاجأه ، وأنزل به الهزيمة بعد معركة ساخنة ، يوم ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ ، دمرت فيها السفن المملوكية .

ولقد عاد حسين بك الكردي إلى بجدة بعد ذلك ، وطلب السلطان الغوري الممدد من السلطان العثماني ، بايزيد الثاني ، الذي كان يخشى كذلك من توغل النفوذ البرتغالي داخل البحر الأحمر ، وصوب الحجاز . ولكن سفن فرسان رودس احاطت بالسفن المرسلة من السلطان العثماني ، في ١٠ أغسطس سنة ١٥١٠ ، وأغرقت معظمها ، وأسرت بعضها ، ولم يصل إلى الاسكندرية إلا ست سفن منها ، وكانت خاوية .

وكان على سلطنة المماليك أن تحافظ ، رغم هزائمها ، على مداخيل البحر الأحمر ، من الين ، الذي استولى عليه الأمير برسمباي الجركسي من بني ظاهر ؛ وأن تحافظ كذلك على البحر الأحمر نفسه ، وعلى سواحل الحجاز ، التي قام الأمير حسين الكردي بتحصينها . هذا من ناحية الجنوب . أما في الشمال ، فكانت سواحلها مفتوحة . أما هجمات فرسان رودس ، وحتى أمام إمكانية قدوم الإسبان ، وهكذا أدى الصراع المملوكي البرتغالي إلى تحطيم الموارد الاقتصادية لسلطنة المماليك ، وإلى إجبارها في نفس الوقت على القيام باستعدادات تكلفتها الكثير من الرجال والأموال . وسيجىء تطور العلاقات المملوكية العثمانية ، لكي يحسم الموقف في الشرق الأدنى ، ولعدة قرون .

٢ - حتمية الصدام العثماني المملوكي :

كانت منطقة الشرق الأدنى تشتمل في ذلك الوقت على ثلاث قوى رئيسية : الأولى هي قوة الأتراك العثمانيين في البلقان وآسيا الصغرى ، والثانية هي قوة الصفويين في فارس ، والثالثة هي قوة المماليك في مصر والشام والحجاز ، وكان التنافس واضحاً بين كل من هذه القوى ، وخاصة بين العثمانيين السنيين ، وبين الصفويين الشيعة ، وكانت كل من هاتين القوتين آخذة في النمو ، وتسير على سياسة التوسع الأفليمي على حساب جيرانها ، ولتجهت أنظارهما من مضاب فارس وآسيا الصغرى إلى منطقة السهول الجنوبية ، تلك الأرض المنبسطة التي كان يسكنها

العرب ؛ ولما كانت كل قوة من هاتين القوتين ، الفارسية والتركية ، غير عربية ، فإنها اتخذت الإسلام شعاراً لحركتها التوسعية .

ولقد قام الشيعة بدعاية كبيرة لمذهبهم ، إمتدت غرباً ، مع طرقهم الصوفية ، حتى وصلت إلى آسيا الصغرى ، وبشكل أفلى العثمانيين في السنوات الأولى من القرن السادس عشر . وقامت الأسرة الحاكمة في فارس ، وهي الأسرة الصفوية ، بالإستيلاء على العراق سنة ١٥٠٨ ، وذلك في عصر الشاه إسماعيل ، الذي أقام دولته على إنقاض الإمارات المغولية ، واتخذ المذهب الشيعي مذهباً رسمياً لدولته . ولاشك في أن هذا التذرع بالمنافسة المذهبية ، بين الشيعة والسنة ، كان يخفى وراءه عملية التوسع الإقليمي ، بالنزول من الهضاب المرتفعة ، للسيطرة على منطقة السهول ، في العراق والشام ، منطقة الإستقرار والزراعة ، والمنطقة التي كانت تمر منها التجارة العالمية ، والتي كانت توجد بها حواضر العالم العربي والإسلامي . ولذلك فإن الأتراك العثمانيين قد جاءوا بدورهم ، بقيادة السلطان سليم الأول ، زاحفين نحو الشرق ؛ وهزموا القوات الفارسية في موقعة جالديران سنة ١٥١٤ ، ودخلوا عاصمتهم تبريز . ولكن السلطان سليم إرتد عن هذه العاصمة ، وترك بذلك الفرصة للفرس للانتعاش من جديد ، فلم تكن موقعة جالديران حاسمة إلا في أنها وجهت أنظار العثمانيين صوب ضرورة السيطرة على بقية الأقاليم العربية الموجودة في منطقة الشرق الأدنى ، وبخاصة أقاليم الشام ومصر ، والتي كانت تسيطر عليها الدولة المملوكية ، حتى يمنعوا الفرس من إمكانية التوسع فيها .

ولقد كان الصراع المملوكي البرتغالي قد أظهر في ذلك الوقت ضعف دولة المماليك ، إقتصادياً وعسكرياً ، وتهديد البرتغاليين لها بشكل واضح . ولقد إعتبر العثمانيون أو واجبههم الأول بتلخص في الدفاع عن الأقاليم الإسلامية ضد الانحطاط والهجمات الخارجية ؛ وإعتقدوا أنهم أقدر من السلطان الغوري ومن دولة

المماليك على الدفاع عن المنطقة . فكانت معركة من أجل قيادة المنطقة ووحدها ، وتحاول في حقيقة الأمر توسيع الرقعة التي كانوا يحكمونها ، وزيادة امكانيات استغلالهم لها . فكانت هناك حتمية لوقوع صدام بين الدولة العثمانية الناشئة ، وبين دولة المماليك الهرمة ؛ واستندت هذه الإمكانيات إلى أسباب وذرائع مختلفة ، تؤدي بها إلى تحقيق أهدافها .

وكانت أهمية المنطقة الخاضعة لدولة المماليك من النواحي الاقتصادية ، سواء في الإنتاج الزراعي ، أو طرق التجارة العالمية ؛ وكذلك السياسية ، من حيث إشتغالها على عواصم العالم العربي والإسلامي ، مع شعور العثمانيين بقوتهم المتزايدة ، مع إزدياد ضعف دولة المماليك ، أسبابا واضحة تدفع العثمانيين إلى الاستمرار في توسعهم الاقليمي ، وهذه المرة ، على حساب سلطنة المماليك .

وجاءت الاحتكاكات التي حدثت في منطقة الحدود المشتركة بين الدولتين ، عند أعلى الشبام ؛ والتجاء الأمير جم إلى دولة المماليك ؛ وبجى بعض الأمراء العثمانيين فارين من سلطة سليم ، واجارة السلطان الغوري لهم ؛ وكذلك اصدار السلطان سليم أمره باغلاق اسواق الرقيق في وجه سلطنة المماليك ؛ وبعد ذلك منع السلطان الغوري لبعض الهدايا التي كانت مرسلة من الهند إلى السلطان سليم ؛ أسجاءاً لتوتر العلاقات بين الدولتين ، وقت قيام سليم الأول بالهجوم على الصفويين . وأخيراً فإن موقف الأمير علاء الدين ، صاحب امارة دولة ذو الغادر ، من القوات العثمانية ، ومنع تزويدها بما يلزمها أثناء تقدمها صوب فارس ، تسبب في هجوم العثمانيين عليها ، وضمها لهم ؛ وكانت تحت سيطرة المماليك وحين خرج السلطان الغوري ، في صيف سنة ١٥١٦ ، إلى الشام ، للدفاع عن حلب ، أولى معاقله الشمالية أمام العثمانيين ، كان وجود هذه القوات المرمكة هناك يدفع العثمانيين إلى الاصطدام بها ما حامت جبهتهم مع فارس كانت لا تزال مفتوحة .

٣ — الاهتداء على الشام وعلى مصر :

كان هناك اختلاف واضح بين قوة المماليك وقوة العثمانيين ، وذلك في القيادة ، وفي القوات المسلحة ، وقوة تدريبها ، وتسليحها ، ودرجة المرونة ، أو حرية الحركة لدى كل من الطرفين . فكان السلطان سليم شاباً في مقتبل العمر ، مربوع القامة واسع الصدر ، وكان السلطان الغوري يبلغ الثامنة والسبعين من عمره ، غليظ الجسد ، ذو كرش كبير ، وكان يلبس في أصابعه الخواتم ، وكان مترفاً في ملبسه ، ومترفاً في حياته ، يحب الأكل والشرب إلى درجة النهم . وفي الوقت الذي بلغت فيه قوات المماليك الزاحفة شمالاً ما يقرب من خمسة آلاف رجل ، كانت قوات العثمانيين يصعب تقدير عددها . وكان المماليك قد فقدوا الكثيرين في حملاتهم إلى الحجاز وإلى اليمن ، في صراعاتهم ضد البرتغاليين ؛ وسيكون رجالهم الذاهبون إلى شمال سوريا أقل كفاءة من غيرهم ، وذلك في الوقت الذي زاد فيه تمرن العثمانيين على الحرب بمنازلتهم لقوات الشاه اسماعيل الصفوي ، علاوة على تميزهم باستنادهم إلى سلاح مدفعية قوى . وكان الغوري ، في زحفه شمالاً ، يخشى على مصر نفسها من وقوع هجوم عثماني بحري على سواحلها ، ويخشى من إمكانية قيام البرتغاليين بهجوم من البحر الأحمر ؛ وذلك على العكس من العثمانيين الذين جمعوا قواتهم في شرق آسيا الصغرى : فاما أن يهاجموا بها قوات المماليك في شمال سوريا ، ويستخدمونها في توجيه ضربة جديدة ، ومن نفس الموقع ، ضد فارس . وكان الانضباط موجوداً بين صفوف العثمانيين بدرجة تفوق ، وبكثير ، وجوده لدى المماليك ؛ وكان نحو الخزانة المملوكية يهدد كل شيء ، ويقيد أيدي القيادة المملوكية . وأخيراً ، وليس آخراً ، فلقد خرج السلطان الغوري إلى الشام ، فيما يشبه المظاهرة العسكرية ، في الوقت الذي كان فيه الجيش العثماني يعتمد على كفاءة التدريب ، قبل أي شيء آخر (١) .

(١) أنظر . دكتور جلال يحيى . مصر الحديثة ، الإكندرية ، منشأة المعارف ،

وخرج السلطان الغورى من القاهرة ، على رأس قواته ، فى عرض عسكرى كبير ، إلى دمشق ، ثم إلى حمص وحماة وإلى حلب . وكان مشغولا بسوء الأحوال فى مصر وفى الحجاز ، مع اقتراب موسم الحج . واعتقد فى صدق نية العثمانيين لعقد الصلح معه ، وعلى أساس عدم تدخله فى النزاع العثمانى مع الصفويين ؛ ولكن سرعان ما وجد أنها خدعة ، وأن طلائع العثمانيين قد زحفوا ضده ووصلت إلى عيقتاب . فأصدر أمره إلى النواب والأمراء بالخروج ، وذكر لهم أنه سينخرج كذلك عن قريب إلى القتال « والذى يريد الله هو الذى سيكون » .

وتقابلت قوات المماليك مع قوات العثمانيين فى مرج دابق ، عند حلب . ومرت الجولة الأولى من المعركة بانتصار جزئى لقوات المماليك ، ولكن سرعان ما إنقلب الموقف ، وإنهزمت ميمنة المماليك ، ثم الميسرة التى كان فيها خير بك ، نائب الشام ؛ وبقي القلب ، ومعه السلطان الغورى ، الذى انتهى به الأمر إلى الإنهزام كذلك ؛ وقتل السلطان الغورى فى المعركة . وهكذا فقد المماليك جيشهم ، وفقدوا سلطاتهم فى هذه المعركة ، وإستولى العثمانيون على معسكرهم . مع كل ما كان فيه ، وأسروا الكثير من المماليك . وكانت هذه المعركة نقطة تحول خطيرة فى تاريخ المماليك ، وتاريخ الشرق الأدنى ؛ إذ أن الطريق أصبح مفتوحاً بعدها إلى دمشق ، وبيت المقدس ، وحتى إلى مصر . وفى الوقت الذى إزدادت فيه حلب لدخول العثمانيين إليها ، وإستعدت فيه دمشق لإستقبالهم ، وإمتلكات القاهرة بالصراخ والبكاء والعزاء . ولقد ظلت الأقاليم السورية منذ موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ ، عثمانية ، ولمدة أربعة قرون .

أما فى مصر ، فإن الفوضى قد إنتشرب بسرعة ، وأصبح على طومان باى ، نائب الغيبة ، أن يواجه الموقف ؛ سواء فى الداخل ، أو حتى بالنسبة لإمكانية إستمرار الزحف العثمانى صوب مصر . وكانت الصعوبات تواجهه من أجل تنظيم البقية الباقية من المماليك فى مصر ؛ ومن أجل تسليحهم ، بعد فقد المهمات العسكرية

والمندفعية في الشام. وكان ضعف بقية المماليك في مصر واضحاً، ووضحت كذلك قلة إمكانياتهم الاقتصادية ، وضعف روحهم المعنوية : فكانت معركة خاسرة بالنسبة للنظام المملوكي (١) .

وجاءت أنباء دخول العثمانيين غزة ، وما قاموا فيها من ضروب القسوة ، لكي يزيد الخوف في القاهرة ، رغم بذل طومان باي كل ما كان في وسعه من أجل ملاقاته العثمانيين . وجمع طومان باي قواته في صحراء الريدانية ، وعمل بعض التحصينات هناك ، للدفاع عن القاهرة .

ولكن طلائع العثمانيين وصلت إلى الجبل الأحمر ، وأقبلوا كالجراد المنتشر ، وفتلأق الجيشان في أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين وقعة مهولة ، يطول شرحها ، أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق ، كما يقول ابن إياس . وإنزعم المماليك ، ودخل العثمانيون القاهرة . وإنتهت بذلك سلطنة المماليك ، رغم استمرار طوبان باي في المقاومة لبعض الوقت . وسلبت القاهرة رسمياً ، وأصبحت منذ معركة الريدانية سنة ١٥١٧ ، أكبر ديرة تزين عمامة السلطان العثماني .

٤ - إمكانيات العثمانيين الجديدة :

كان إستيلاء العثمانيين على كل من الشام ومصر يمثل نمواً هاماً للدولة العثمانية ، بسطرتها على إقليمين لها مقوماتها الاقتصادية والاستراتيجية والمعنوية بالنسبة للعالم العربي والإسلامي ؛ وبالنسبة للشرق الأوسط ، والحوض الشرقي للبحر المتوسط . وإذا كانت الدولة العثمانية خير قادرة في ذلك الوقت على حكم هذه الأقاليم الجديدة بطريقة مباشرة ، واضطرت إلى وضع نظام حكم إستعمارات فيه بالبكرات المماليك في الإدارة الداخلية وجمع الضرائب ، إلا أن ذلك لا يقلل من أهمية مكاسبها ، وإزدياد قوتها بشكل واضح .

(١) أنظر . دكتور جلال يحيى . مصر الحديثة . الاسكندرية ، منشأة المعارف ،

وباستتباب الأمر للعثمانيين في مصر، أصبح عليهم كذلك أن يتولوا أمر الأقاليم التي كانت ملحقة بها، وبخاصة في شبه الجزيرة العربية؛ وهي أقاليم الحجاز واليمن. وكما كانت سوريا الجنوبية ضرورية من الناحية الاستراتيجية للدفاع عن مصر ضد أي هجمة تأتي لها من الشمال أو من الشرق، كان الحجاز واليمن مهمين كذلك لها من الناحية الاستراتيجية، كخط دفاع أول عن مصر، أمام أية هجمة قد تفاجئها من المحيط الهندي وخليج عدن؛ وبخاصة وقت وجود البرتغاليين هناك.

ولم يكن من الصعب أن ينضم أشراف الحجاز إلى الدولة وسيطرت على مقدرات مصر؛ ووافق الشريف بركات على قبول السيادة العثمانية، التي كانت تضمن تأييد دولة إسلامية كبرى، وقوية لبلاده؛ وأرسل ابنه إلى القاهرة، يحمل إلى السلطان سليم تمثنة بفتح الشام وفتح مصر، ويحم إليه كذلك مفاتيح الحرمين الشريفين، إقراراً باعتراغه بالسيادة العثمانية. وسيتخذ العثمانيون الحجاز قاعدة لهم أساسية بالنسبة للبحر الأحمر، واليمن، وبلاد الصومال، وبخاصة في المراحل التاريخية التالية، في عهد سليمان القانوني.

ولاشك في أن سيطرة العثمانيين على الشام وعلى مصر، وعلى الحوض الشرقي للبحر المتوسط، دفع بأمراء البحر المجاهدين في شمال إفريقيا، إلى مد يددهم إلى هذه الدولة، طالبين الاتحاد معها، لتكتيل القوى الإسلامية في البحر المتوسط ضد أخطار الغزو الإسباني، التي كانت تهدد أقاليمهم، من الغرب صوب الشرق. وكان ضعف القيادات المحلية في ذلك الوقت، وتناحرها فيما بينها، سبباً في وضوح الحاجة إلى قيادات جديدة، تعمل على توحيد القوى الوطنية، ويمكنها أن تنازل الأعداء، وتدافع عن السواحل. وأدى ذلك إلى نشوء قيادة بحرية، واصلت الجهاد البحري ضد القوى المعتدية. ولقد إشتهر من بين هؤلاء القادة بابا عروج، الذي عمل مع أخيه خير الدين على إنشاء أسطول حربي، وجمع

المتطوعين ، وأخذ يرد غارات الاسبانيين (١) . ولقد نجح في سنة ١٥١٦ في أن يصد هجوم إسباني على مدينة الجزائر ، بعد أن استدعاه الأهالي للدفاع عنهم . وإذا كانت إسبانيا قد أرسلت ضده حملة قوية . من وهران ، وقطعت عليه طريق عودته من تلمسان ، وقتلته ، سنة ١٥١٨ ، فأثمة يعتبر واضح سياسة الجهاد الاسلامي ضد الغزو المسيحي لبلاد المغرب الكبير ، وهي العملية التي ستمتع على كاهل أخيه ، خير الدين ، ورجاله من بعده .

ولقد تخرج موقف خير الدين ، بعد مقتل أخيه ، فأتصل بالدولة العثمانية ، التي كانت قواتها قد سيطرت في ذلك الوقت على الشام وعلى مصر ؛ وطلب منها معاونته في جهاده ضد الاسبانيين . فأرسل له السلطان سليم سنة ١٥١٨ ألفين من جنود الانكشارية ، وسمح له بتجنيد الأهالي في الأناضول نفسها . ويعتبر هذا التاريخ بداية انضمام إقليم المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية ، أو إتحاده معها . وإذا كان العثمانيون قد دخلوا الشام ومصر ، بالسيف ، فإن الوضع يختلف عن ذلك بالنسبة للمغرب الأوسط ، الذي انضم بنفسه إلى الدولة العثمانية ، وأصبح رجاله وامراء بحريته طليعة القوات العثمانية الموجودة في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

وهكذا امتدت امكانيات العثمانيين إلى كل ساحل المغرب الكبير . وفي الوقت الذي كانت فيه إسبانيا تسيطر فيه على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وتواصل الصراع فيه ، ضد فرنسا ، من أجل السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية؛ فأدى ذلك إلى تغيير موازين القوى في البحر المتوسط .

(١) أنظر . دكتور جلال يحيى : المغرب الكبير . لاسكندرية ، الدار القومية :

الفصل الثامن عشر

استمرار الصراع بين فرنسا وإسبانيا

حتى نهاية الحروب الإيطالية (سنة ١٥٥٩)

استمر الصراع بين فرنسا وإسبانيا من أجل التفوق في أوروبا ، متمثلاً في ذلك الصراع الساخن ، المسمى بالحروب الإيطالية ، بعد موقعة مازينيان سنة ١٥١٥ ، والاتفاقات التي تمت في العام التالي ؛ واستمر هذا الصراع لسنوات طويلة ، وحتى سنة ١٥٥٩ . وتمر هذا الصراع في مراحل متتالية ، بدأت بمنافسة بين فرنسوا الأول ملك فرنسا وشارل الأول ملك إسبانيا - على عرش الإمبراطورية ، وفوز شارل الأول به سنة ١٥١٩ ، الأمر الذي ساعد على تجديد الحرب ووقوع موقعه بافيا سنة ١٥٢٥ ، وإنهاء هذه المرحلة بصلح كامبراي سنة ١٥٢٩ . أما المرحلة الثالثة فقد امتدت حتى نهاية حكم فرنسوا الأول ، واشتملت على معركة سيريزوا ومعاهدة كريسي . وبعد تولى هنري الثاني عرش فرنسا ، وتنازل شارل الخامس عن عرش الإمبراطورية ، تجدد الصراع بين الدولتين ، في شكل مرحلة أخيرة ، بين هنري الثاني وفيليب الثاني ؛ واستمرت هذه المرحلة حتى عقد معاهدة كاتو كامبريسيس سنة ١٥٥٩ ، وهي المعاهدة التي أنهت الحروب الإيطالية . ولقد استمرت أدوار هذه الصراع في الوقت الذي استمر فيه نمو الدولة العثمانية ، حتى وصلت إلى أوج قوتها في عهد السلطان سليمان القانوني ؛ واستمرت في نفس الوقت الذي زادت فيه قوة حركة الإصلاح الديني في شمال أوروبا وغربها .

١ - معركة بافيا (١٥٢٥) وصلاح كاميراى (١٥٢٩) :

لم يستمر الهدوء بعد موقعة مارينيان سنة ١٥١٥ ، والاتفاقات التي تمت في العام التالى ، لفترة طويلة . وسرعان ما خلا منصب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وتقدم لترشيح نفسه له كل من شارل الأول ملك إسبانيا ، الذى كان قد تولى الحكم فيها منذ سنة ١٥١٦ ، وفرنسوا الأول ملك فرنسا ، وهنرى الثامن ملك إنجلترا . ثم إنفسه ب هذا الأخير ، فظلت المنافسة قائمة بين مائكى فرنسا وإسبانيا ، للوصول إلى كرسي الامبراطورية . وكان لكل من المتنافسين مزاياه فكان شارل هو حفيد مكسيميليان ، الامبراطور السابق ، وسيطر على إسبانيا ، والأراضى المنخفضة وملككة نابولى ؛ وكانت إسبانيا قد أصبحت دولة قوية بعد الكشف الجغرافية ، وسيطرتها على أقاليم لها قيمتها فيما وراء البحار؛ كما كانت تعتمد على جيش قوى ، وأسطول ضخم يحوب المحيطات . أما فرنسوا الأول فكان يدعى أن في وسعه تنظيم حملة صليبية كبرى ، لمواجهة خطر العثمانيين المتزايد ضد المجر والنمسا في وسط أوروبا ، يقوم فيها بتكثيل الدول الأوروبية ، وتعقب العثمانيين حتى القسطنطينية ، ويقوم بطردهم منها . وكانت انتصاراته في موقعة مارينيان قد أظهرته على أنه صاحب أقوى جيش في أوروبا في ذلك الوقت . وهكذا قام كل منهما بالدعاية لنفسه ؛ ولكن عملية الانتخاب انتهت بفوز شارل الأول ملك إسبانيا ، في شهر يونيو سنة ١٥١٩ أمام الدايك الامبراطورى في فرانكفورت ، إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، بإسم الامبراطور شارل الخامس . وسيكون هذا بداية لصراع طويل بين أسرة هابسبورج الألمانية ، وأسرة فالوا الفرنسية ، لعدة سنوات .

وهكذا زادت أملاك شارل الخامس في أوروبا اتساعاً ، وأصبحت أقاليم الامبراطورية الرومانية تحيط بفرنسا كذلك من الغرب ، بعد أن كانت إسبانيا تطوقها من الشمال والجنوب فقط ، فيما مضى . وكان هناك تنافس بين فرنسا

ولسبانيا على برجنديا ، ورأى شارل الخامس ضرورة بقاء ميلانو وجنوا داخل نطاق الامبراطورية ، حتى لا تقوم فرنسا بالسيطرة على سهل لومباردى من جنوا وميلانو إلى البندقية ، وبشكل يعرقل المواصلات البحرية بين إسبانيا وألمانيا . ولذلك فإن أمر الصدام بينهما كان حتمياً ، خاصة وأن فرنسوا الأول كان يشمر بحصار أملاك شارل الخامس لفرنسا من كل إتجاه ، وكان يستند إلى حقوقه الموجودة في شمال إيطاليا ، حتى يتخذها ذريعة لتحطيم هذا الحصار المفروض عليه . ولقد عمل كل من شارل الخامس ، وفرنسوا الأول ، على استمالة هنرى الثامن إليه ، وضمه إلى صفوفه . ووعده شارل الخامس ، هنرى الثامن ، بترك نورمانديا ، وإقليم بيكردى في شمال فرنسا له في حالة إنضمامه إليه ؛ أما ملك فرنسا فإنه فشل في الحصول على وعد من ملك إنجلترا ، بعد أن كان هذا الأخير قد ربط مصالحه بمصالح شارل الخامس . وجاء بعد ذلك أمر وصول أدريان السادس إلى كرسي البابوية ، كان من الأراضي المنخفضة ، وعلى عملة وثيقة بامبراطور منذ صباه ؛ فجاء ذلك تدعيماً لجانب شارل الخامس .

ولقد بدأت المناوشات بين القوات الفرنسية والقوات الامبراطورية على الحدود الفرنسية الألمانية ، ثم امتدت بعد ذلك إلى قوات الدولتين الموجودة في شبه الجزيرة الإيطالية . وفي ٢٧ أبريل سنة ١٥٢٢ هجمت القوات الاسبانية على القوات الفرنسية الموجودة في بيكوك قرب ميلانو ، وهرمتها هزيمة ساحقة . ثم أعلنت إنجلترا ، في الشهر التالى ، انضمامها إلى جانب الامبراطور ضد فرنسا . وأصبح على فرنسا أن تواجه قوات متزايدة ، وتحيط بها من كل جانب ، بعد أن أصيبت بهزيمة قوية في شمال إيطاليا . وحين بدأت فرنسا في إعادة تجميع قواتها ، واجهتها مسألة خيانة دوق بربون لملك فرنسا ، الأمر الذى هدد فرنسا بعملية تفكك داخلى ، وقت حربها مع الخارج .

وقامت إنجلترا بالزحف بقواتها من كاليه صوب باريس ، في الوقت الذى

زحف فيه جيش إسباني من الجنوب عبر جبال البرانس ، وزحف فيه جيش ألماني على فرنسا من حدودها الشرقية. وقعت المعارك بين القوات الفرنسية والإسبانية قرب ميلانو ، كما حاول حلفاء إسبانيا الإستيلاء على ثغر مرسيليا في الجنوب . ولكن القوات الانجليزية تباطأت في زحفها صوب باريس ، كما أن الجيش الإسباني الزاحف من الجنوب أوقف عند نافار ، وإستمرت القوات الفرنسية في شمال إيطاليا في القيام بعملياتها ، كما أن أمالي مرسيليا صدوا الهجوم الموجه ضد مدينتهم سنة ١٥٢٤ . وفي شكل حركة مقاومة بإسالة شارك فيها الأهالي ، وحتى النساء ، في المعركة ، وبشكل رفع الروح المعنوية لدى الفرنسيين .

وفي أثناء ذلك الوقت ، كان العثمانيون قد إستولوا على جزيرة رودس من جماعة الفرسان . الاستتارية ؛ وتوفي البابا أدريان السادس ، وجاء إلى الكرسي البابوي كليمنت السابع ، الذي تميز بالتردد والضعف .

وقرر فرنسوا الأول أن يستمر في عملياته الهجومية في شمال إيطاليا ، حتى يفصل إسبانيا عن الأقاليم الألمانية ؛ فزحف على رأس جيش قوى على ميلانو ، وإستولى عليها بسهولة ، وحاصر مدينة بافيا ؛ التي كانت بها قوات إسبانية . ولكن سرعان ما قدمت قوات ألمانية ، تابعة للإمبراطورية ، وقرر فرنسوا الأول ضرورة الإسراع بالإشتباك معها . وقعت الموقعة قرب بافيا ، في ٢٤ فبراير سنة ١٥٢٥ ؛ وبعد إنتصار مبدئي للفرنسيين ، دارت الدائرة عليهم ؛ وهزموا هزيمة نكراء ، بعد أن جرح فرنسوا الأول ، وأخذ أسيراً .

وتعتبر معركة بافيا من أهم المعارك في تاريخ أوروبا في القرن السادس عشر ؛ وكانت كارثة لفرنسا ، نتيجة لفقدائها جيشها القوي . ووقع ملكها أسيراً في أيدي قوات الإمبراطور شارل الخامس . وأصبحت لويزا ، دوقة سافرا ، والدة فرنسوا الأول ، وصية على العرش . وعملت على إعادة بناء القوات المسلحة ، حتى لا تتعرض فرنسا لعملية غزو أجنبي ؛ وساعدها الفرنسيون وقدموا لها ما كان

الموقف يتطلبه من توضيحات ،

أما فرنسوا فقد عاش أسيراً ثم نقل إلى السجن في نابولي ، ومنها إلى السجن في مدريد . عمل شارل الخامس على أن يفرض شروطه على فرنسوا ، الذي قاوم ، ثم اضططر بعد ذلك إلى التوقيع في ١٤ يناير سنة ١٥٢٦ على معاهدة مدريد ، والتي نصت على ضرورة التعاون ضد حركة الإصلاح الديني ، وتنازل فرنسوا عن إدياماته في برجنديا ، وفي ميلانو وجنوا ونابولي ، وكذلك في الفلاندر وآرتوا ؛ وتقديم ولديه رهينة لشارل الخامس ، ضمناً لتنفيذ المعاهدة ، وأدى ذلك إلى إطلاق سراح فرنسوا الأول ، في الشهر التالي ؛ بعد أن عاش ذل الهزيمة والأسر والسجن ، وأجبر على التنازل عن الوجود الفرنسي في إيطاليا .

ولكن فرنسوا الأول أعلن ، بعد عودته إلى باريس ، أنه لن ينفذ معاهدة مدريد ، التي فرضت عليه وهو أسير ؛ صمم على الإستمرار في الحرب ؛ وعمل بذلك على تغيير الموقف .

وكانت فرنسا لا تزال تحتفظ بقراها ، في بلدها ؛ وتمكنت والده الملك ، في غيابيه ، من إعادة تكوين قوات المملكة ، ورفع الروح المعنوية فيها . ومن جانب آخر نجد أن حلفاء الإمبراطور ، وبخاصة الأمراء الألمان ، كانوا قد شعروا بخطورة إزدياد سيطرة الإمبراطور على إمتيازاتهم الشخصية والاسرورية ، وزيادة الأعباء على كواهلهم ، فبدأوا في إظهار التمليل من سيطرته . أما إنجلترا ، فإنها لم تفقت مع فرنسا على التحالف ، نظير تقديم فرنسا عدداً من الضمانات . ومبلغاً مالياً كبيراً . وظهرت في إيطاليا حركة ضد الوجود الإسباني ، خاصة وأن الأوضاع تدهورت فيها ، وسادها الإضطراب والازمات . وتصدر البابا كل من البندقية وميلانو وفورنسا ، وعقد « حلف كونياك » معها ، سنة ١٥٢٦ ، موجهاً ضد الإسبان ، ووضع هذا الحلف تحت حماية فرنسوا الأول . وكان شارل الخامس يواجه تفاقم حركة الإصلاح الديني في ألمانيا ، وعجز عن السيطرة عليها . وكان

الموقف قد تدهور في وسط أوروبا ، نتيجة لهجوم العثمانيين على المجر ، وهزيمتهم لجيش المجر في معركة موهاكر ، التي أخذت شكل مذبحية . قضى فيها على جيش المجر وملكها ، ثم استمرار زحفهم على بودا ، وسيطرتهم على معظم أقاليم المجر . وأظهر كل ذلك الامبراطور شارل الخامس في موقف ضعف ، رغم إنتصار قواته على القوات الفرنسية قبل ذلك في معركة بافيا ولقد قامت القوات الألمانية الموجودة في إيطاليا بالهجوم على روما ، وخربت المدينة ونهبها ، ثم حاصرت البابا ، وأخذته أسيراً ، وأجبرته على دفع فدية كبيرة ، وبشكل زاد من سيطرة شارل الخامس على إيطاليا .

ولكن سرعان ماتم تكوين حلف جديد موجهاً ضد شارل الخامس ، ضم كل من فرنسا وإنجلترا والبندقية . واستعد فرنسا الأول عسكرياً ، وبدأت حملة سنة ١٥٢٨ ، موجة ضد سيطرة إسبانيا على إيطاليا ، ولتخليص البابوية من السيطرة الامبراطورية . وتناك إنتصارات القوات الفرنسية . حتى وصلت إلى مشارف أملاك نابولي . ولكن سرعان ما قام الأميرال أندريا دوريا ، الذي كان يحاصر سواحل نابولي ، بالخروج على ملك فرنسا ، وانضم إلى شارل الخامس ، وبشكل فتح الاتصال مع نابولي ، من ناحية البحر ، مع إسبانيا ، من جديد . وانتشرت الأمراض بين الجنود الفرنسيين المحاصرين لنابولي من البر ؛ كما هزم جيش فرنسي في شمال إيطاليا ، وإضطر إلى التسليم .

وكان ملك فرنسا يخشى من الدخول مع الألمان في معركة حاسمة ؛ وكان يخشى على ولديه ، الموجودين في إسبانيا كرهينة في أيدي شارل الخامس ؛ وكان هناك هجوم العثمانيين الجديد ، مع ما يقرب من ربع مليون مقاتل ، بقيادة السلطان سليمان القانوني ، على فيينا ، ومحاصرتهم لها . ومهد كل ذلك إلى عقد الصلح ، بعد مفاوضات تمت في كمبراي ، في ٣ أغسطس سنة ١٥٢٩ بين الملكة الوالدة لويزا وبين مارجریت النمساوية ، عمة الامبراطور شارل الخامس ، وحاكمة الاراضي المنخفضة .

وكان صلح كمبراي ، صلحاً دائماً ، تخلى فيه الإمبراطور عن مطالبه في
برجنديا ؛ كما تخلى فرانسوا عن مطالبه في إيطاليا والفلاندر ؛ وتم إطلاق سراح
الأميرين الفرنسيين الموجودين كرهينة في إسبانيا ؛ ووافق فرانسوا على الزواج
من اليا نور ، أرملة ملك البرتغال ، وشقيقة الإمبراطور .

وكان صلح كمبراي كسباً كبيراً لشارل الخامس ، الذي حقق أهدافه في
غرب الراين ، وجنوب الألب ، وسيطر على إيطاليا . وقام كايمنت السابع
بتوزيع شارل الخامس في بولونا ، في حفل كبير ، في شهر فبراير سنة ١٥٣٠ . وبدأت
الحروب الإيطالية على أنها قد إنتهت ؛ ولكنها إنتهت مرحلة من مراحلها ، لكي
تبدأ بعدها مرحلة أخرى .

٢ - استقرار الصراع حتى نهاية حكم فرنسوا الاول :

إنتهز شارل الخامس فرصة الهدوء مع فرنسا ، الناتج عن صلح كمبراي ،
لكي يتفرغ لمواجهة المشكلات العويصة التي أطلت برأسها ، وهددته ، في أكثر
من مكان : فكانت حركة الإصلاح الديني قد زاد خطرها في ألمانيا ، وكان
هناك خوف من أن يقوم فرنسوا الاول ، رغم كونه كاثوليكياً ، بدعمها ، لإضعاف
الإمبراطور ؛ وكان هناك خطر زحف الأتراك العثمانيين ، ووصولهم إلى قرب
فيينا ؛ كما أن رجال البحر من شمال إفريقيا كانوا يوجهون هجماتهم ضد سفن إسبانيا
وموانئها ، وموانئ نابولي . وفي الوقت الذي خشى فيه شارل الخامس من إزدياد
نفوذ أمراء البحر المسلمين في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، ووجه حملة بحرية
ضد تونس سنة ١٥٣٥ ؛ قام فرنسوا الاول بالتحالف مع السلطان العثماني سليمان
القانوني ، وأنهى مشاكله مع ملك إنجلترا وملك إسكتلندا . وكان فرنسوا الاول
لا يزال يأمل في الحصول على نفوذ في شمال إيطاليا ، عن طريق زواج ابنه الثاني ،
هنري بكاترين دي مديتشى سنة ١٥٣٣ ؛ وحين توفي ابنه الكبير ، أصبح
هنري الثاني ، زوج كاترين ، هو ولي العهد . وحين توفي دوق سافوي ،

طالب فرنسوا الاول بدوقية ميلانو ، لزوجته ابنة كاترين دي ميدتشى ، فتأزم الامر مع شارل الخامس ، الذى كان مصمماً على إبعاد النفوذ الفرنسى عن شبه الجزيرة الإيطالية .

وبدأت العمليات الحربية بهجوم الجيوش الإسبانية على فرنسا ، من الجنوب الشرقى ، ووقعت معارك عنيفة ؛ ولكن سرعان ما تقدمت الملكة إليزابيث ، زوجة فرنسوا الاول ، وأخت شارل الخامس ، لعقد هدنة بينهما ؛ وتم ذلك فى نيس فى ١٨ يوليو سنة ١٥٣٨ ؛ ونصت هذه الهدنة على أن يحتفظ كل طرف بما يسيطر عليه من أراضى ، ولمدة عشر سنوات .

ولكن سرعان ما انقلب الموقف ، حين قرر شارل الخامس ، فى سنة ١٥٤٠ ، إعطاء دوقية ميلانو لابنه فيليب ؛ فاشتعلت الحرب من جديد .

ولقد تمكنت القوات الفرنسية من الحصول على انتصار واضح على قوات الامبراطور فى موقعة سيريزول فى شمال إيطاليا سنة ١٥٤٤ ، وجددت بذلك ذكرى انتصار مارييفيان ، وأصبح الطريق أمامها مفتوحاً للسيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية . ولكن القوات الإسبانية قامت بهجوم خاطف على فرنسا ، كما قامت القوات الانجليزية الموجودة فى كاليه بالهجوم صوب باريس فى نفس الوقت ؛ فاضطر فرنسوا الاول إلى عقد الصلح ، والتوقيع على معاهدة كريسي ، فى نفس السنة ؛ وهى المعاهدة التى نصت على ترك فرنسا لبيد مونت وسافوا ، وعلى تنازل شارل الخامس عن مطالبة فى برجنديا ؛ وتزويج ابن فرنسوا الاول ، وهودوق أورليان بابنة الامبراطور أو ابنة أخته ، حتى يحصل على دوقية ميلان ، فى الحالة الأولى ، أو على الاراضى المنخفضة ، فى الحالة الثانية ، كبائنة لروسه ، ودون أن يحصل عليها أخوه الأكبر ، هنرى ، ولى العهد ، كبائنة لزوجته من كاترين دي ميدتشى . ولكن سرعان ماتوفى دوق أورليان ، الأمر الذى ألغى هذا الشرط ؛ وفتح الباب لمرحلة جديدة من مراحل النضال .

وكان فرنسوا الأول قد إعتلت صحته ، وزادت همومه . بعد فقد ابنه الأكبر ، وبعد الأحداث الجسام التي عاشها ، من إنتصار ، وهزيمة ، وأسر وسجن ؛ وعجز عن الحصول على مكسب دائم في إيطاليا ، وتعرضت بلاده لخطر الغزو أكثر من مرة . وكان يحارب في ذلك الوقت صهره ، شارل الخامس ، أخو الملك إليانور ؛ وبشكل جعل بعض المؤرخين يسمون الحروب الإيطالية بالحروب العالمية . وتوفي في نهاية شهر مارس سنة ١٥٤٧ وترك الملك لابنه هنري الثاني .

٣ - هنري الثاني وتنازل شارل الخامس عن العرش :-

واجه هنري الثاني ، عند وصوله إلى عرش فرنسا ، تغيرات في ميزان القوى ، نتيجة لإزدياد سيطرة شارل الخامس على كل من ألمانيا وإيطاليا . وذلك أن شارل الخامس كان قد سجل إنتصاراً عسكرياً ضخماً في معركة ميلبرج في ٢٤ أبريل سنة ١٥٤٧ على أمراء الألمان البروتستانت ، وأسر عدداً كبيراً منهم ، وبشكل زاد من سيطرته على ألمانيا ، وأظهر خطورة إمكانية توحيدهم ، التي يمكنها أن تصبح وحدة سياسية قوية تقف في وجه فرنسا . أما في إيطاليا فإن سيطرة شارل الخامس قد تدعمت في المنطقة الواقعة حول ميلانو ، وبشكل يهدد توازن القوى هناك . ولم يكن في وسع هنري الثاني أن يعمل ضد شارل الخامس ، في ألمانيا أو في إيطاليا ، مادمات إنجلترا تهدده ، خاصة وأنها كانت قد اجتمعت مينام بولوني ، في شمال بلاده ، وأخذتها قاعدة جديدة لها ، علاوة على كاليه . ولذلك فإن هنري الثاني قرر أن يبدأ بتسوية مشاكله مع إنجلترا ، حتى يؤمن ظهره ، قبل أن يعمل ضد الإمبراطور في ألمانيا أو في إيطاليا .

وكان خروج إنجلترا على الكنيسة الكاثوليكية يفصل بينها وبين فرنسا ؛ وزادت الأمور تعقيداً حين عارضت إسكتلندا أمر زواج يربط بين أمراء الاسرتين الانجليزية والاسكتلندية ، خاصة وأن اسكتلندا كانت قد حافظت على المذهب الكاثوليكي . وقام أحد جيوش إنجلترا بهزيمة الاسكتلنديين في سنة ١٥٤٧ ،

فعملت الملكة اوالدة فى إسكتلندا على تزويج إبنتها بولى عهد فرنسا سنة ١٥٤٨ ، فقامت الحرب بين انجلترا وفرنسا ، نتيجة لخريف انجلترا من إمكانية الاتحاد بين هاتين الدولتين فى المستقبل . وبشكل يجعلها محاصرة بفكيها من الجنوب ومن الشمال فى نفس الوقت . ولقد فشل الجيش الفرنسى فى تخليص نجر بولوى من الإنجليز ؛ ولكن إتهصار الأسطول الفرنسى على الأسطول الانجليزى ساعد على عقد الصلح بين الدولتين ، سنة ١٥٥٠ ؛ وتمكنت فرنسا من أن تستعيد نجر بولوى نظير دفعها فدية بلغت ٤٠٠,٠٠٠ جنيه . وهكذا أمن هنرى الثانى على بلاده من هذه الناحية ، كتمهيد يسمح له بالعمل وباستمرار الصراع ضد الامبراطور شارل الخامس .

وكان هنرى الثانى يعرف خطورة إخضاع شارل الخامس تماما لألمانيا ، وبشكل قد يؤدى إلى توحيدها ؛ وكان يعرف أن أمراء الألمان كانوا غيورين على إمتيازاتهم ، وأصبحوا يعتزون بتميزهم بالمذهب البروتستانتى ، كعامل يفصل بينهم وبين سيطرة الامبراطور شارل الخامس الكاثولى عليهم ؛ فعمل هنرى الثانى على استمالتهم اليه . رغم كونه كاثوليكيا أيضا ، حتى يناوئ بهم الامبراطور ، وينقل بذلك صراعه معه من الأراضى الايطالية إلى الأراضى الألمانية . وكان هذا الأمر سيكلفه نفقات دعم الألمان ، ولكنه كان يسمح له فى نفس الوقت بتوسيع فرنسا ضروب الشرق ، ونحو الوصول إلى حدودها الطبيعية .

ولقد دفع هنرى الثانى أن يتعاون مع الامبراطور فى مجمع ترنت الكهنسى ، لتسوية الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت ؛ ثم عمل على تشجيع الأمراء الألمان على معارضة الامبراطور . ولقد طلب الأمراء الألمان من هنرى الثانى معونات مالية للتمكن من الاستمرار فى المعارضة ، وتحويلها إلى مقاومة ؛ كانوا مستعدين لمنحه لقب « حامي الامبراطورية الرومانية » المقدسة ، وبتسليمه مدن تول ووتر وفردان ، على أن يقوم بالهجوم عليها ، ويقوم بتقديم الدعم المالى

والعسكري لهم . وهكذا وجد هنرى الثانى حلفاء له يساعدونه عسكريا وإقليميا ، فى الوقت الذى يقتصر فيه مجهوده على الناحية المالية ، وبعض القطاعات العسكرية . وتم صياغة كل ذلك فى معاهدة شامبور سنة ١٥٥٢ ، التى تعتبر معاهدة هامة فى تاريخ فرنسا ، وأصلت حدودها إلى الحدود الطبيعية ، وباتفاق مع الألمان أنفسهم ، وعلى أساس أن سكان الأقاليم المحيطة بهذه المدن لا يتكلمون الألمانية . وهذه المنطقة هى التى تشتمل على مقاطعى الألزاس واللورين الشهيرتين فى شرق فرنسا .

ولاستند هنرى الثانى إلى هذه الاتفاقية ، وأعلن الحرب على شارل الخامس ، ودخلت قواته فردان وتول وميتز . وفى نفس الوقت قام منتخب سكسونيا بالهجوم على قوات الإمبراطور فى التيرول ، الذى اضطر إلى الانسحاب ، وخشى من الوقوع فى الأسر ، وحمله رجاله عبر ممر برنر إلى إيطاليا .

ولقد حاول شارل الخامس الاعتماد على بعض الأمراء الألمان المخلصين له ، والذين يخشون من تفوق النفوذ الفرنسى إلى الشرق ، والذين كان أخاه فرديناند قد جمعهم مع الإمبراطورية . ثم جهز شارل جيشا هجم به على مدينة ميتز ، ولكنه فشل فى ذلك ، أمام قوات الدوق دى جيز ، سنة ١٥٥٢ ، وهو الذى تمكن من الاحتفاظ بهذه الأقاليم لفرنسا .

ثم قام هنرى الثانى بتوجيه الحملات فى عامى ١٥٥٣ و ١٥٥٤ للاستيلاء على بلجيكا ، ولكنه لم ينجح فى ذلك . وتطور أمر تبادل الأسرى عند كامبراي ، إلى التوقيع على « هدنة فوسيل » ، بين فرنسا ، وشارل الخامس ، فى ٥ فبراير سنة ١٥٥٦ ، وهى هدنة لمدة خمس سنوات ، سمحت لهنرى الثانى بالاحتفاظ بالأقاليم الخاضعة لاحتلال قواته ، ومن ميتز إلى أقصى الجنوب .

وأما شارل الخامس ، فإن صحته كانت قد ضعفت ، وزاد زهده فى الحياة ؛ فتنازل عن الإمبراطورية لأخيه فرديناند ؛ وتنازل عن حكم إسبانيا وإيطاليا

والأراضي المنخفضة لابنه فيليب ، وكان نصيبه يضم كذلك الامبراطوريات
الإستعمارية الإسبانية الواقعة فيما وراء المحيط . وقضى شارل الخامس الأيام الباقية
من حياته في أحد الأديرة ، إلى أن توفي سنة ١٥٥٨ . ودخل بذلك الصراع بين
فرنسا وإسبانيا طوراً جديداً ، مع فيليب الثاني ؛ وكان هو الطور الأخير .

٤- فيليب الثاني ومعاهدة كاتو كامبريسيس ونهاية الحروب الإيطالية:

تولى فيليب الثاني العرش سنة ١٥٥٦ ، وكان والده قد زوجه ، منذ سنة ١٥٥٣
بماري تيودور ملكة إنجلترا ، أملا في إنضمام الدولتين سوياً ، مع ميلاد وريث
لها . ولقد شغلت الظروف شارل الثاني في صراعه مع فرنسا ، في الحروب الإيطالية .
ولقد نجح البابا بول الرابع ، الذي إنتخب سنة ١٥٥٥ ، في إقناع هنري
الثاني ، ملك فرنسا ، بمساعدته ضد الوجود الإسباني في نابول . وكانت هدية
فوسيل (١٥٥٦) لانزال قائمة ، فكانت إستجابة ملك فرنسا لسياسة البابا
تعتبر نقضاً لهذه الهدنة من جانبها . وتحرك الجيش الفرنسي بقيادة الدوق دي
جيز ، في شهر سبتمبر سنة ١٥٥٦ ، ولكنه فشل أمام أسوار نابول ، واضطر إلى
العودة إلى فرنسا . أما البابا فقد اضطر إلى التخلي عن تحالفه مع فرنسا ، وعلى
الاعتراف بحماية إسبانيا لإيطاليا .

ولما كانت فرنسا هي البادئة بإعلان الحرب على إسبانيا ، فإن فيليب الثاني
جعل زوجته ، ماري تيودور ، ملكة إنجلترا تعلن الحرب عليها ؛ وتوغلت
القوات الإسبانية والإيطالية والانجليزية في فرنسا ، وذهبت من شمال فرنسا ،
بقيادة دوق سافوا ، وأزلت هزيمة ساحقة بالقوات الفرنسية قرب سان كاتان
في شهر أغسطس سنة ١٥٥٧ . ولكن إستمرار مقاومة هذه المدينة للقوات
الغازية لأيام عديدة تسبب في إزهاقها ، وقلل من إمكانية إستمرارها في الرفض
صوب باريس . كما تمكن الفرنسيون من القيام بهجوم على ثغر كاليه ، وتمكن

دوق دى جيز من تحريره ، بعد أن ظل فى أيدي الانجليز مدة قرنين ، وذلك فى ٨ يناير سنة ١٥٥٨ .

ومع استمرار المعارك ، وخسائرها المادية والبشرية ، وحوف كل من الطرفين للتعرض لهزيمة ساحقة ، ومع وفاة مارى تيودور سنة ١٥٥٨ ؛ وجلس الملكة اليزابيث الأولى على عرش إنجلترا ، ساعد الموقف على بدء المفاوضات ، حتى تم التوقيع على معاهدة كاتو كامبريسيس فى ٣ أبريل سنة ١٥٥٩ ، هى التى أنهت الحروب الإيطالية ، وتعتبر نقطة تحول واضحة فى تاريخ أوروبا .

ولقد نصت هذه المعاهدة على تنازل فرنسا عن مطالبتها فى إيطاليا ، وبشكل جعل إسبانيا تستمر فى سيطرتها على إقليم ميلانو فى الشمال وإقليم نابولى فى الجنوب ، واحتفظ لها بنفوذ واضح فى كل شبه الجزيرة الإيطالية . وتنازلت فرنسا عن سافوا وبينيموت ، كصداق للأميرة مرجريت ، أخت هنرى الثانى ، فى زواجها مع دوق سافوا ؛ الأمر الذى أدى إلى إنشاء « دولة تخوم » تفصل بين فرنسا وإيطاليا ، وعلى حساب فرنسا ، وفى مصاهرة مع دوقها ، القائد الأسباني . وكان كل ذلك نصراً لإسبانيا على فرنسا فى شبه الجزيرة الإيطالية .

ونصت المعاهدة على إبقاء فرنسا لشغل كاليه ، كما أنها لم تذكر ضم فرنسا لمدينة تول وميتز وفردان ، التى حصلت عليهم من الأمراء الألمان ، وأُعترفت إذن بالأمر الواقع ، خاصة وأن فيليب الثانى ، ملك إسبانيا ، كان منفصلاً عن شؤون الإمبراطورية ، التى أصبحت من مسئولية عمه . وكان هذا مكسباً لفرنسا ، فى أقاليم متاخمة لها ، ويوصل حدودها إلى الحدود الطبيعية . وأخيراً فإن المعاهدة نصت على زواج فيليب الثانى ، من اليزابيث ، ابنة هنرى الثانى ملك فرنسا ، وكاترين دى ميديسيس ؛ لتدعيم الروابط بين باريس ومدريد .

ولكن هنرى الثانى جرح فى نزال وقع أثناء الإحتفالات بالزيجات الملكية ،

و توفي ؛ كما اختطف الموت الاميرة اليزابيث ، زوجة فيليب الثاني الذي أصبح
أرملا من جديد .

وعلى أي حال فإن معاهدة كاتو كامبريسيس قد أنهت في سنة ١٥٥٩ الحروب
الايطالية ؛ وإن كانت أوروبا تعيش حروبا أخرى في ذلك الوقت ، نتيجة
لإستمرار زحف العثمانيين عليها من الشرق ، أو الجنوب الشرقى ؛ ونتيجة للحروب
الدينية التي كانت مستمرة ، وفي أقاليم كثيرة .

الفصل التاسع عشر

أوج القوة العثمانية في عهد سليمان القانوني

ونعظمها على أوروبا

في الوقت الذي انشغلت فيه القوى الأوروبية في عملية توسعها فيما وراء البحار، أو في عملها على السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية، في شكل الحروب الإيطالية، استمرت الدولة العثمانية في نموها وتوسعها إقليمياً في المناطق المجاورة لها. وكانت القوات البحرية البرتغالية قد وصلت إلى الهند، وسيطرت إسبانيا على الحوض الغربي المتوسط؛ أما على القارة فإن كل من فرنسا وإسبانيا قد انشغلت، ومعها البندقية وجنوا والممتلكات البابوية، في الحروب الإيطالية. وأفادت الدولة العثمانية، مع قيادتها الجديدة المتهذبة في شخص السلطان سليمان القانوني، من الأوضاع والمتغيرات، من أجل استمرار التوسع، واستمرار تدعيم القوة العثمانية؛ وإبعاد الأعداء عن مناطقها. وقامت بمجهودات واضحة في ميادين عديدة: قرب سواحلها، مع جزيرة رودس؛ وضد البرتغاليين، عند الخليج العربي والبحر الأحمر؛ ومع فرنسا؛ وفي البلقان ووسط أوروبا؛ وكذلك في الحوض الغربي للبحر المتوسط. لقد أصبحت الدولة العثمانية في أوج عظمتها، وأصبحت خطراً يهدد أوروبا كما في ذلك الوقت.

١ - جزيرة رودس :

تولى السلطان سليمان عرش السلطنة سنة ١٥٢٠، وخلف بذلك والده سليم الأول؛ وكان له من العمر ٢٦ سنة، وكان قد بقي في إستانبول، وتمرس على شئون الحكم، وقت غياب والده في الحملات الخارجية. ولقد اشتهر بطيب الخلق، والرغبة في التنظيم، وبأشرف العدالة، وبغزوفه عن الحروب

والغزوات ، ولكن الظروف هي التي اضطرت له للحرب . ولقد اشتهر باسم القانوني ، وحكم لفترة ٤٦ سنة أو - ل بها الدولة إلى أوج قوتها وعظمتها . ولقد بدأ سليمان القانوني عهده بتسديم حكمه في الشام ومصر . وكان جان بردي الغزالي قد حاول الانفصال بحكم الشام ، ولكن السلطان سليمان استعان عليه سنة ١٥٢١ بخاير بك ، المسؤول عن حكومة مصر ، وزحف أحد الجيوش العثمانية على الشام ، وانتهت هذه الحركة بقتل جان بردي الغزالي ، بعد أن سحق العثمانيون قواته قرب دمشق . وحين توفي خاير بك سنة ١٥٢٢ ، اضطربت أحوال مصر ، وقام الماليك بتلقيب أحد الماليك ، وهو قانصوه الدوادار ، بلقبه السلطنة ، وقطعوا الطرق ، وسيطروا على المواصلات ، واتفقوا مع مشايخ العرب ، ووعدوا الأهالي باعفائهم من دفع الميري لمدة عام . فأسرع السلطان سليمان القانوني بإرسال صهره الصدر الأعظم ، مصطفى باشا ، إلى مصر ، على رأس حملة قوية تبلغ ٢٥٠٠ جندي ، وتمكن مصطفى باشا من القضاء على الثورة . وبقي مصطفى باشا في مصر لمدة ثلاثة أشهر ، أتم خلالها دراسته لأحوال العامة لنظام الحكم ، والماليك ، والأحوال المالية . وستكون هذه الدراسة أساساً للتنظيم المسمى « قانوننامه » الذي أصدره السلطان بشأن نظام حكم مصر (١) .

وفي أثناء ذلك الوقت أخذت فكرة سيطرة الدولة العثمانية على جزيرة رودس تراود السلطان . وكانت هذه الفكرة قد راودت السلاطين من قبله . وكانت رودس في أيدي فرسان القديس يوحنا ؛ وكان وجودهم قرب آسيا الصغرى ، وفي بحر إيجه ، يمثل خطراً على البحرية العثمانية ، وعلى التجارة ؛ خاصة وأن هذه الجزيرة أصبحت ملجأ للقراصنة المسيحيين من كل جنسية ، وكانوا يخرجون منها لشن الحملات عن السفن العثمانية في كل مكان . وكانت رودس

(١) أنظر . د. جلال يحيى . معر الحديثة (١٥١٧ - ١٨٠٥) . الاسكندرية ،

منشأة المعارف ، ١٩٦٩ . ص ١٢٣ - ١٣٠ .

المسيحية تمثل عقبة أمام إنتقال الحجاج إلى الاراضى المقدسة ، وأصبحت ، بعد فتح العثمانيين لمصر ، تمثل عقبة أمام مواصلات الدولة مع هذا الاقليم الهام . وكان السلطان سليم قد إهتم بالأسطول ، وببنى له قطعاً جديدة ، وزودها بالمدافع وبالرجال المدربين ؛ ووصل سليمان هذا المجهود من بعده . وأصبحت الظروف العامة موالية للعثمانيين ، بعد أن جددت الدولة العثمانية صلحها مع جمهورية البندقية ، وإذ شغلت كل من إسبانيا وفرنسا فى الحروب الإيطالية ، وبشكل يمنع تدخل أوربا فى مشكلة رودس . وأقبح أسطول عثماني ، من ٣٠ سفينة ، تحمل عشرة آلاف مقاتل ، بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا ، صوب الجزيرة ، فى الوقت الذى سار فيه السلطان على رأس جيش قوى ، بلغ مائة ألف مقاتل ، على الساحل المواجه للجزيرة . وكان ذلك فى شهر يونيو سنة ١٥٢٢ ، وكان الجيش العثماني ، وكذلك الأسطول ، يعتمدان على مدغعية قوية . وبدأت عملياته نزول العثمانيين على السواحل ، وانزالهم لمدفيعتهم ونصب بطارياتها والإستعداد للمعركة ، التى بدأت فى أول أغسطس ، بعملية حصار ، ثم هجمات متتالية على الأسوار ، إستمرت حتى ١٨ ديسمبر . ولقد أدى ذلك إلى خسائر جسيمة من الطرفين ، وإلى تحطيم أجزاء من الأسوار ، وإلى نقص البارود عند المحاصرين . وفى ٢١ ديسمبر ، طلب رئيس جماعة فرسان القديس يوحنا التمسليم ، ووافق السلطان سليمان على ذلك ، وتعهد باحترام الكنائس وعقائد الأهالى ، وبتقديم السفن لنقل جماعة فرسان القديس يوحنا من الجزيرة ، خلال إثنين عشر يوماً . وتمت العملية ، وخرج الفرسان من الجزيرة ، وإتجهوا إلى جزيرة مالطة ، التى منحها لهم شارل الخامس ، للإقامة فيها . وهكذا أمن السلطان سليمان القانونى على سواحل شبة جزيرة البلقان ، وعلى الملاحة فى بحر ايجه ، وانزع ذلك الموقع الحصين الذى كان يهدد المواصلات العثمانية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

٢ — البلقان ووسط أوروبا :

وكانت أحوال شمال البلقان مضطربة في ذلك الوقت ، نتيجة لإزدياد قوة الدولة العثمانية من ناحية الجنوب ، وعملها على التوسع صوب الشمال والشمال الغربي من ناحية ، ونتيجة لمحاولة الأمراء المحليين الاستناد إلى قوة الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وملوك وأمراء أوروبا ، ضد السيطرة العثمانية ، من ناحية أخرى .

ففي سنة ١٥٣١ قام الملك لوى ، ملك المجر ، بقتل المندوب العثماني الذي جاء إليه يطلب الجزية المتفق عليها . وكانت المجر قد ضعفت ماليا وعسكرياً ، وسادتها الخصومات والانقسامات الداخلية . فقام الأتراك بغزو المناطق الواقعة بين الساف والدانوب وبين بلجراد ، والتي كانت تابعة لحكم المجر ، واستولوا على بلجراد ، بعد مقاومة عنيفة في ٢٩ أغسطس سنة ١٥٢١ . وأفاد العثمانيون من الموقف خلال السنوات التالية ، من سنة ١٥٢٢ إلى سنة ١٥٣٥ ، وغزوا إقليم الأفلاق ، واعترفوا بأحد الأمراء المحليين أميراً عليها ، كما استمروا في القيام بهجماتهم في كرواتيا ودلماشيا .

وبدأ الهجوم العثماني الرئيسي على المجر ، في سنة ١٥٢٦ ، بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا ، والسلطان سليمان القانوني نفسه . ولم يكن في وسع قوات الملك لوى ، الضعيفة ، أن تواجه الزحف العثماني الضخم والقوى في نفس الوقت . وبعد أن جمع ملك المجر قوات من بولندا وبوهيميا والممتلكات البابوية ، واجه الزحف العثماني في ٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٦ ، في سهل موهاكز ، حيث وقعت موقعة ، تقهر بعدها المجريون ، وتبهم العثمانيون ، حيث دارت مجزرة في المستنقعات ، قتل فيها ملك المجر ، وقضى فيها على جيشه .

وانتهت موقعة موهاكز لاستقلال المجر ، لمدة قرن ونصف قرن من الزمان . وتمكن العثمانيون من إستهراء التقدم ، ودخل السلطان سليمان مدينة بواد في

١١ سبتمبر . ووقع إنقسام في صفوف المجرين ، على حكم المناطق الباقية ؛
فإختار أحد المجالس الأمير زابوليا ، أمير ترانسفانيا ، بينما إختار مجلس آخر
فرديناند صاحب النمسا ، أنشو شارل الخامس ، ملكاً على المجر . وسادت الخضومة
بينها . وطلب زابوليا معونة العثمانيين ، وعقد تحالفاً معهم سنة ١٥٢٨ ، موجهاً
ضد فرديناند . وفي ١٠ مايو سنة ١٥٢٩ ترك السلطان سليمان إستانبول ، ومعه
جيشه ، بقيادة مصطفى باشا ، الصدر الأعظم . وقابله زابوليا ، وهاجوا بست ،
وتم ترسيم زابوليا ، ملكاً على المجر . ثم واصل سليمان زحفه على فينا نفسها ،
واستمر في محاصرتها حتى منتصف شهر أكتوبر ، حين اضطر إلى رفع الحصار ،
والعودة إلى الجنوب .

ولقد استمرت المنافسة بين زابوليا وفرديناند على عرش المجر حتى سنة
١٥٣٨ ، حين تم الاتفاق بينهما ، وبين شارل الخامس ، الامبراطور ، على
الاعتراف بالعرش لزابوليا ، على أن يعود بعد وفاته لفرديناند . وعند وفاة
زابوليا سنة ١٥٤٠ ، اعترف السلطان العثماني باين زابوليا الصغير ملكاً على المجر ،
نظير دفع جزية سنوية تبلغ ٥٠.٠٠٠ فلورنسي ؛ ورفض سليمان القانوني الاعتراف
بأي حقوق لفرديناند في المجر ، التي كان السلطان العثماني قد « فتحها بسيفه » .
وبين مبعثت قوات لفرديناند على بودا ، صدت عنها ؛ وإقترب جيش عثماني
من ميدان العمليات ، وكان على رأسه السلطان سليمان ، الذي وصل أمام بست
في ٢٩ أغسطس سنة ١٥٤١ ، وثبت ابن زابوليا في الحكم ، وترك حامية عثمانية
قوية في بودا ، ومعها أحد الباشوات ، كحاكم عام للمنطقة . وحاول فرديناند ؛
بمساعدة أمراء وملوك أوروبا ، التخلص من الاحتلال العثماني الدائم لبودا ؛ وجمع
جيشاً كبيراً ، ومحاصر بست ؛ ولكنه اضطر بعد عدة أسابيع إلى الانسحاب .
ولقد قام السلطان سليمان القانوني بحملة جديدة على المجر سنة ١٥٤٣ ، وبحملة
أخرى سنة ١٥٤٤ ، واحتلت فيها القوات العثمانية مواقع عديدة ، وانتهت في

سنة ١٥٤٥ ، ثم في سنة ١٥٤٦ بعقد صلح لمدة خمس سنوات ، سمح لفرديناند بالاستغناء عن ملكاته في المجر ، على أن يدفع للسلطان العثماني ، جزية سنوية تبلغ ٣٠٠٠٠ دوق .

ولم تستقر الأمور في هذه القطاع ، ولمعطرت الدولة العثمانية إلى إرسال حملة جديدة إلى المجر سنة ١٥٥٢ . وكان السلطان العثماني في حرب شبة مستمرة مع الفرس ، فأخذت شئون المجر صيغة المفاوضات الطويلة الأمد بين الطرفين ، العثمانيين والنمساويين ، حتى تم عقد الصلح بين فرديناند وسليمان القانوني في سنة ١٥٦٤ ؛ وأكد فيه فرديناند تعهده بدفع ٣٠٠٠٠ دوق سنوياً للسلطان العثماني . ولكن فرديناند توفي بعد عقد هذا الصلح بثلاثة أشهر ، ورفض ابنه مكسيميليان دفع الجزية . فزحف القوات العثمانية على المجر من جديد ؛ وانتصرت ؛ وإن كان سليمان القانوني قد توفي يوم ٦ سبتمبر ١٥٦٦ ، وقبل ثلاثة أيام من انتصار العثمانيين على قوات مكسيميليان وكان له من العمر ٧٢ سنة ، وحكم لمدة ٤٦ سنة . وسيتم عقد الاتفاق التالي بين مكسيميليان والعثمانيين ، في القسطنطينية سنة ١٥٦٨ ، ولمدة ثمان سنوات ، وعلى أساس دفع الجزية السنوية للسلطان العثماني .

وكانت هناك مجالات أخرى عمل فيها سليمان القانوني ضد البرتغاليين في البحر الأحمر وخليج عدن ، ومع فرنسا ، وفي الخوض الغربي للبحر المتوسط .

٣ — البحر الأحمر وخليج عدن :

كان استيلاء العثمانيين على مصر سنة ١٥١٧ ، واستيلائهم على العراق سنة ١٥٣٤ ، قد أوصلهم إلى مياه الهند عن طريق البحر الأحمر وخليج عدن من ناحية ، وعن طريق الخليج الفارسي من ناحية أخرى ، الأمر الذي جعلهم يقومون بدور إيجابي في هذه المناطق ضد سيطرة البرتغاليين ، ومحاولتهم الإرتكاز إلى قواعد بحرية في البلاد العربية المطلة على مياه الهند .

وكان البرتغاليون قد إحتلوا جزيرة سقطورة سنة ١٥٠٧ ، ولكن عدن

قاومت هجمتهم العنيفة عليها سنة ١٥١٣ . ورغم ذلك فإن البرتغاليين قد توغلوا في البحر الأحمر ، ووصلوا حتى السويس سنة ١٥٤١ ، كما ساعدوا الحبشة المسيحية التي كانت مشتبكة في حرب في ذلك الوقت مع مسلمي عدل وهرر والصومال . ووصلوا بسفنهم من خليج عمان إلى مياه الخليج الفارسي ، ووصلوا إلى هرمز ، التي تركوا فيها حامية منذ سنة ١٥١٥ ، وإلى البحرين ، مستعدين في ذلك إلى قواعدهم الموجودة في مسقط . ولقد أدى ذلك الهجوم البرتغالي إلى عرقلة وصول سلع الشرق الأقصى إلى بلاد الشرق الأدنى .

وبعد فتح العثمانيين لمصر ، وقمع عليهم عبء الاستثمار في الكفاح ضد البرتغاليين ، والذي كان السلطان الغوري قد قام بمجهودات ضخمة فيه . وفي أثناء وجود الصدر الأعظم مصطفى باشا في مصر سنة ١٥٢٥ عمل على إعادة تنظيم الإدارة البحرية في السويس ، وأرسل أسطولاً صغيراً إلى اليمن . وحين قام البرتغاليون في سنة ١٥٣٥ ببناء قلعة في ديو ، في مملكة جوجيرات الإسلامية ، وزاد التوتر بين المسلمين والبرتغاليين هناك ، تحركت الدولة العثمانية ، وأرسلت تعليماتها إلى سليمان باشا ، وإلى مصر ، لبناء أسطول جديد في السويس ، وأرسلت إليه الأخشاب ومواد البناء من الدولة العثمانية ، وكانت تصل إلى الإسكندرية ، ثم تنقل منها إلى السويس . وأقنع سليمان باشا سنة ١٥٣٨ إلى ديو . وحاصرها ، ولكنه فشل في الاستيلاء عليها ، وإن كان قد تمكن من الاستيلاء على عدن .

وفي أثناء ذلك الوقت كان هناك خطر لاستناد البرتغاليين في البحر الأحمر ، إلى قوة الحبشة المسيحية ، واتحادهم سوياً . وكان الإمام أحمد بن إبراهيم ، الملقب بالأشول ، أحد أحمد جرين « يقود نضال المسلمين في شرق أفريقية ، ومن هرر وبلاد العدل ، ضد الحبشة . ولقد قتلت انتصاراته ابتداء من سنة ١٥٢٩ في جميع أنحاء الحبشة ، وأصبح ملكها يفر من مكان لآخر ، وأرسل في طلب العون

من ملك البرتغال (١). ولقد وصلات الامدادات البرتغالية للحديدة في سنة ١٥٤١ إلى ميناء مصوع ، وكانت تتكون من ٥٠ من المحاربين المسلحين بالأسلحة والمدفعية الحديثة (٢). وانضم إليها الأحباش ؛ وكان تسليحها الحديث سبباً في هزيمة قوات الإمام أحمد جرين ، وإستشهاده في ميدان المعركة سنة ١٥٤٣ . ولقد قام العثمانيون ، ابتداء من ١٥٥٥ ، بمد إدارتهم إلى سواحل البحر الأحمر ، وقاموا بتنظيم ولاية جديدة هناك تسمى « ولاية الحبش » في سواكن ومصوع ، لتدعيم الكيان والسلطة الإسلامية ، أمام هذا التحالف الحبشى - البرتغالي .

وواجهت الدولة العثمانية كذلك صراعاً مع البرتغاليين في الخليج الفارسي وخليج عمان . وكانت بغداد قد سقطت في أيدي السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٣٤ ؛ ثم امتدت الإدارة العثمانية إلى البصرة سنة ١٥٤٦ ، وكذلك إلى مناطق الأحساء ، المواجهة للبحرين . وقام بيرى ريس على رأس أسطول كبير من السويس في سنة ١٥٥١ ، وهاجم البرتغاليين في مسقط وهرمز ، ثم إتحه إلى البصرة . وقام أمير بحر آخر ، وهو مراد بك في العام التالي بمحاولة لفك حصار البرتغاليين للخليج الفارسي . وقام على ريس ، الذي تمرن على الحرب في البحر المتوسط ، بعمليات عديدة ضد البرتغاليين سنة ١٥٥٤ ؛ وحين حطمت إحدى العواصف أسطوله أمام سواحل مقران ، اضطر إلى الالتجاء إلى سورات. كما أرسل العثمانيون كذلك حملة من إقليم الأحساء ضد البحرين في ١٥٥٩ . ثم قام على ريس بعد ذلك بهجمات من اليمن ضد البرتغاليين في مسقط . ثم ضدهم كذلك في ماليندي وعمبة ، التي كانوا يحتلوها على سواحل أفريقية الشرقية .

(١) أنظر : شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان الجيزاني الشهير بحرب فقيه ، تحفة الزمان ، أو فذوق العيشة . القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .
(٢) فتحي هيثم ، الإسلام والحيدة عبر التاريخ ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ص

ولقد أصبح واضحاً قبل وفاة السلطان سليمان القانوني في سنة ١٥٦٦ ، أن البرتغاليين قد فشلوا في إحتكار كل تجارة الشرق الأقصى مع أوروبا عن طريق الرأس . فكان عدد البرتغاليين صغيراً ، وإمكانياتهم أضعف من أن تحقق كل آمالهم ، في القضاء على التجار المسلمين المقيمين في المناطق الغربية من الهند ، وإبعاد المسلمين عن هذه البحار . ولا يمكننا تجاهل المجهودات التي بذلتها الدولة العثمانية ضدهم ، إذ أنها جمعت عقبات جديدة تضاف إلى قلة إمكانيات عمل البرتغاليين . وشهدت السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان القانوني عودة تجارة مزدهرة من الشرق الأقصى إلى الاسكندرية ، كما أصبحت حلب رأس الطريق التجاري القادم من الفرس ومن العراق . وظهر نوح من التوازن بين هذه الطرق القديمة ، والطريق الجديد حول الرأس ؛ وظل الأمر كذلك حتى ظهور قوة الانجليز والهولنديين ، وبشكل جعل التوازن يتغير بشكل واضح ، وفي طريق الرأس .

٤ — فرنسا :

تطورت العلاقات بين الدولة العثمانية ، في عهد السلطان سليمان القانون ، وفرنسا في عهد فرنسوا الأول ، وبشكل يعتبر تحولاً في العلاقات الدولية ، والعرف الموجود ، وبخاصة مع اختلاف الدين .

وكان فرنسوا قد أعلن في بداية حكمه ، وفي الوقت الذي كان يأمل فيه في الوصول إلى عرش الإمبراطورية المقدسة ، عن نيته في الزحف على القسطنطينية ، واستخلاصها من أيدي العثمانيين . ولكن صراعه مع إسبانيا ، التي فاز ملكها شارل الأول بعرش الإمبراطورية ، وأصبح شارل الخامس ، غير الموازين الموجودة . ولقد هزم فرنسوا الأول في معركة بافيا ، ووقع أسيراً في أيدي الإسبانيين ، وأصبح تحت رحمة ملكهم إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وفي ذلك الوقت اتصلت والدته فرنسوا الأول بالسلطان سليمان القانوني ، وطلبت إليه القيام بمهاجمة الممتلكات النمساوية ، وممتلكات الإمبراطورية الرومانية المقدسة

في وسط أوروبا ، من البلقان . وكانت هذه الامبراطورية هي التي تهاجم رجال البحار المغاربة ، في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وهي الموجودة في النمسا أمام الممتلكات العثمانية في البلقان . ولقد تحرك السلطان سليمان القانوني صوب وسط أوروبا ؛ وإن كان لم يحارب النمسا ، إلا أنه حارب المجر ، ووصل بعد ذلك إلى أسوار فيينا .

ولقد استمرت المفاوضات بعد ذلك بين فرنسوا الأول ، وبين سليمان القانوني ؛ وكان عدوها مشتركا ، يتمثل في الإمبراطور شارل الخامس ، بما له من ثقل ضد العثمانيين في الحوض الغربي للبحر المتوسط وفي النمسا ، وبما له من ثقل على فرنسا في الحروب الإيطالية . وفي سنة ١٥٣٥ تم التوقيع على أولى المعاهدات بين فرنسا والدولة العثمانية ؛ في شكل معاهدة تجارة ، وفي شكل تحالف دفاعي هجومي بين الدولتين ؛ الأمر الذي أعطى كل منهما ميزات كبيرة ، إقتصادية وعسكرية ، وظهرت نتائجها في العمليات البحرية التي وقعت في ذلك الوقت . وكان أمير البحر خير الدين باشا قد شارك في التمهيد للوصول إلى هذه النتيجة ، وأرسل في سنة ١٥٣٣ أحد مندوبيه ومعه بعض الأسرى الذين أطلق سراحهم ، إلى فرنسوا الأول ؛ ثم أرسل فرنسوا الأول مندوباً عنه إلى خير الدين باشا في الجزائر ، قبل أن يذهب لمقابلة الصدر الأعظم في حلب ، الأمر الذي أدى إلى التوقيع على المعاهدة . ولقد ظهرت النتائج الفعلية للتحالف الفرنسي العثماني منذ سنة ١٥٣٥ حين هاجم رجال البحر الجزائريين سواحل مملكة نابولي ، التي كانت من ممتلكات شارل الخامس ؛ وفي سنة ١٥٤٣ حضر خير الدين باشا إلى ميناء مرسيليا ، وانضم إلى الأسطول الفرنسي ؛ وقام الأسطولان ، سوياً ، بهزيمة نيس ، التي كانت من ممتلكات دوق ساغوا ، حليف شارل الخامس ؛ ثم عادا إلى طولان حيث أمضيا فصل الشتاء . وفي عهد هنري الثاني ، تعاون الأسطول العثماني أكثر من مرة مع الأسطول الفرنسي ، ضد سواحل إيطاليا

الجنوبية ، ومنذ كورسيكا التي كانت تابعة لجنوا ، وقام رجالها باحتلال باستيا .
ولاشك في أن عمليات سليمان القانوني في البحر ، وضد النمسا ، كانت تفسر ،
إلى حد بعيد ، روح التحالف مع فرنسا ، وضد شارل الخامس ، وضد أخيه ،
الأمبراطور فرديناند من بعده .

أما معاهدة التجارة فتسمى معاهدة الـ Capitulation نسبة إلى أنها قد صيغت
في شكل فقرات ومواد ، ثم عرفت بعد ذلك بأنها معاهدة الإمتيازات الأجنبية ؛
وظلت آثارها لفترة طويلة ، كما ظلت ، حتى مطلع القرن العشرين ، أساساً لاي
إتفاق بين الدولة العثمانية ، وأى من الدول الأوروبية التي حاولت أن تحصل على
ما حصلت عليه فرنسا من ميزات ، ومنذ عهد سليمان القانوني وفرنسوا الأول . ولقد
اختلفت هذه المعاهدة عن المعاهدات المأقودة بين الدول الأوروبية وبعضها في
أنها نصت على عدم خضوع الأجانب للقضاء العثماني ، ومحاكمتهم أمام قضاة
خاصين بهم . وكانت تنص على معاملة المثل ، فيما يتعلق بالضرائب .

وكما كانت إتفاقيات فرنسا مع الدولة العثمانية تدعمها في صراعها ضد
الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وفي الحروب الإيطالية ، فإنها كانت تدعم
قوات كل منها في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، ضد السيطرة الإسبانية .

٦ - غرب البحر المتوسط :

كان ثقل عبء الجهاد قد وقع على كامل خير الدين ، المعروف باسم
برباروسا ، أمير البحر الجزائري ، في كل الحوض الغربي للبحر المتوسط ، بعد
وفاة أخيه عروج ، وإتحاد مع الدولة العثمانية ؛ كما وقع على رجال البحر من
أعوانه ، الذين عملوا على صد هجمات وغارات شارل الخامس على السواحل
الإسلامية ، وعملوا على الهجوم على الموانئ والسواحل الخاضعة لشارل الخامس ؛
ثم عملوا بعد ذلك على التخلص من القيادات القديمة التي كانت موجودة في بعض
المناطق الإسلامية ، والتي لم توافق على عملية الانضمام إلى الدولة العثمانية ، أو

بمعنى أصح ، على عملية الاستمرار في الجهاد ضد القوى المسيحية المعتدية .

ولقد عمل خير الدين باشا على تزويد أسطوله بوحدات بحرية خفيفة وسريعة الحركة ؛ وأصبح له أسطول موهوب الجائب في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

ولقد قام شارل الخامس بقيادة حملة بحرية وبرية ضخمة على تونس في سنة ١٥٣٥ ، تضم ٤٠٠٠ سفينة و ٢٨٠٠٠ جندي ، وتعتمد على تجارب الأمرام الحفصيين معه ، وإستولى على تونس ، وكانت صدمة للمجاهدين . ولكن خير الدين شن هجوماً على جزر البليار ، وإستولى منها على ستة آلاف أسير ، وعاد بهم إلى مدينه الجزائر . وإذا كان شارل الخامس قد حكم مدينة تونس في ذلك الوقت ، فإن مدينة جديدة ظهرت إلى الوجود ، وهى مدينة الجزائر ، التى كان خير الدين ، منذ سنة ١٥٢٩ ، قد قام بوصول الجزيرة الصغيرة القريبة من الساحل ، بالساحل نفسه ، وإتخذها عاصمة له .

ومنح السلطان العثمانى خير الدين لقب بيكلى بك إفريقية ، أى بك بكوات المغرب ، ثم منحه لقب قبودان باشا ، وأعطاه القيادة العامة للأساطيل العثمانية . ولقد قام خير الدين بعملية توحيد أقطار شمال إفريقية ، وتمكن من إحتلال تونس ، وطرد منها المولى الحسن حليف الإسبانيين . وحين كان خير الدين مشغولا بعملياته البحرية ، ترك قيادة الجزائر لابنه حسن باشا . ولقد إنتهز الامبراطور شارل الخامس هذه الفرصة في سنة ١٥٤١ ، وجمع أسطولا قويا وشحنه بستة وثلاثين ألف مقاتل ، مع أشهر قواده ، مثل أندريا دوريا ، وكورتيز ، وهجم بهم على الجزائر . وتمكنت الحملة من النزول بسهولة إلى الساحل ، ولكن سرعان ما هبت عاصفة هوجاء ، إستمرت أياماً عديدة ؛ فأفسدت الإمداد البارود ، وإقتلعت الرياح الخيام ، وهديت السفن ، وحطمت الكثير منها . وفشل

المهجوم الإسباني ، وإضطر الإسبانون إلى الإبتسحاب (١) .
وكان خير الدين قد أصبح في ذلك الوقت أكبر من مجرد أمير للبحر ؛ فلقد أصبح رئيساً لدولة ، وإن كانت غير تامة السيادة ، دولة متحدة مع الإمبراطورية العثمانية ؛ وأصبح الحارس الأمامي لهذه الإمبراطورية في غرب البحر المتوسط ، وكانت تسنده بجميع قوات هذه الإمبراطورية .

ولقد عمل بعد ذلك مراد أغا على تخليص طرابلس من أيدي الإسبانين سنة ١٥٥١ ؛ واتخذها دارغوت قاعدة لعملياته ضد الإسبانين في تونس سنة ١٥٥٦ ، والى توغل منها صوب القيروان ، بعد عامين . وكانت مالطة ، مع فرسان القديس يوحنا ، متحالفة مع إسبانيا ضد أمراء البحر المغاربة ، فهاجمها دارغوت . ولكنه قتل أثناء عملية حصارها .

ولقد إشتهر من بين أمراء البحر ، في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، أسماء صالح ريس ، وحسن باشا ابن خير الدين ، والعلج على . ولقد قام هذا الأخير بالهجوم على الإسبانين في تونس سنة ١٥٦٩ ، وإستمرت عمليات الجهاد البحري ، بين الجبهتين ، الإسلامية والمسيحية ، حتى موقعة ليبانتو البحرية ، سنة ١٥٧١ ، والى تعتبر من المعارك الفاصلة في التاريخ ؛ ولانتصر فيها المسيحيون . فتوقف إمتداد السلطة الإسلامية ، وعجز المسلمون بعدها عن تحرير الجيوب والقواعد التي كانت إسبانيا قد إحتلتها على سواحل المغرب ؛ وظلت وهران في أيديهم حتى قرب نهاية القرن الثامن عشر .

ولقد شجع هذا الإنتصار لإسبانيا على أن تقوم بمحاولة ، بعد عامين ، لإحتلال تونس من جديد ، ولكن العلج على تمكن في العام التالي من إخراج الإسبانين وحلفائهم نهائياً من تونس . وكانت إسبانيا قد تبججت بذكر أنها قد قطعت

(١) أنظر : د. جلال يحيى ؛ المغرب الكبير ، ج ٣ الإسكندرية ، ١٩٦٦ ، ص ٢٥ - ٢٧ .

لحياة الدولة العثمانية في ليبيا ، ولكن العليج على تمكن من قطع يد الأجانب في تونس . وإن الحياة لتتنامو ، أما اليد المقطوعة فتظل دائماً بترء ، كما قال الصدر الأعظم ، معلقاً عن هذا الموقف ، لسفير البندقية في الأستانة ، في ذلك الوقت .

وكان السلطان سليمان القانوني قد توفي ، منذ سنة ١٥٦٦ ، وبلغت الدولة العثمانية أوج قوتها في عصره ؛ وكانت تمثل خطراً كبيراً على أوروبا نفسها ، بطريقة بنائها وحكمها ، وبتأثيرها في أوروبا من ناحية البلقان ، والحوض الغربي للبحر المتوسط ؛ علاوة على تحالفها مع فرنسا ، ووصول قواتها البحرية إلى مياه الهند ؛ أمام البرتغاليين .

البَابُ السَّابِعُ
الاصلاح الدينى

لفصل البشر

ظهور المذاهب البروتستانتية

يعتبر الإصلاح الديني في أوروبا، وما نتج عنه من ظهور المذاهب البروتستانتية، ثم إنتشارها في شمال وغرب القارة؛ وما تبع ذلك من ردود فعل، وظهور الإصلاح الديني الكاثوليكي، من أهم الحركات التي كانت لها جذور منذ فجر التاريخ الحديث، ثم إستمرت في تفاعلها وتطورها. وظل الإصلاح الديني من أهم الموضوعات التي تؤثر في تفكير وحياة الأوروبيين خلال القرنين: السادس عشر، والسابع عشر؛ وأدى ذلك إلى تأثيرات سياسية، وتسبب في حروب طاحنة، نشبت على القارة الأوروبية. وهناك من ينظر إلى الإصلاح الديني نظرة مجردة، ويفصلها عن أصولها وأسبابها المتباينة، وعلى أساس أنها حركة دينية بحتة، ولكن ذلك لا يطقس بقية العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية، التي كانت موجودة، وشاركت كلها، وفي نسب مختلفة، في إستمرار هذه الحركة، ونموها، وانتشارها، وفي تفاعلها مع القوى المضادة لها.

١ - ضرورة الإصلاح:

كانت الكنيسة الرومانية، أو الكاثوليكية، قد سيطرت على حياة الناس وعلى عقائدهم طوال العصور الوسطى. ولقد أصاب هذه الكنيسة الضعف، نتيجة لصراعها مع الإمبراطورية، وخلال الأسر البابلي، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وجاءت البوادر الأولى للنهضة الأوروبية، لكي تسمى شخصية الفرد، وتحرره وتحرر فكره؛ والكنيسة تحاول في نفس الوقت المحافظة على تقاليدها وسيطرتها المعنوية. ونشطت حركة إحياء الدراسات القديمة، والرجوع بالتالي إلى الفكر اليوناني القديم؛ وفي نفس الوقت عملت الكنيسة على المحافظة الفكر

الدينى الذى ساد طوال العصور الوسطى ، ولم تقبل إدخال أى تفسير جديد .
 وكان من نتيجة إزدياد التعامل بالنقود ، وإزدياد أهمية التجارة ، وقوع
 تغيرات أدت إلى زيادة تبلور المصالح المادية ، وتأثيرها بدرجة أعمق على العلاقات
 بين الأفراد والمجتمعات ؛ وفى نفس الوقت ظلت العلاقات يسودها طابع العصور
 الوسطى داخل الممتلكات البابوية .

حقيقة أن عدداً من البابوات أظهر روحاً متحررة ، وشارك فى حركة إحياء
 الدراسات القديمة ، ولسكن ذلك ساعد على التطور صوب فكر جديد ، داخل
 الممتلكات البابوية ، وأعطى مثلاً مشجعاً على البحث والتحرر ، خارج حدود
 هذه الممتلكات .

وفى نفس الوقت ظهرت الدول القومية الحديثة فى أوروبا ، وبشكل ربط بين
 الرعايا ، أو المواطنين ، وبين الأرض التى يستوطنونها ، والسلطة الملكية التى
 تحكمهم ؛ ولم يترك ذلك للكنيسة سوى رعاية الشؤون الدينية . ولسكن البابوية
 نزلت إلى نفس الميدان ، وأصبح للبابا بلاطاً لا يقل عن بلاط أى من ملوك أوروبا
 روعة وفخامة ؛ وعمل البابوات على زيادة نفوذهم من ممتلكاتهم البابوية ، وعلى
 التوسع فى الأقاليم المجاورة لهم ، كدولة تحكم زمنياً ؛ ودخلوا بذلك فى صراعات ،
 فى نطاق سياسى وحربى ، مع الدول الأوروبية ، وكان من الصعب عليهم الكسب
 فى هذا الميدان ؛ وأظهرهم ذلك ، بأنهم لا يتفرغون لرسالتهم الأصلية . وهى رعاية
 النفوس والمحافظة على العقيدة .

وكانت أراضى الكنيسة ، فى جميع أنحاء أوروبا ، معفاة من دفع الضرائب ،
 وكانت إيراداتها ترسل إلى البابوية ؛ ومع وقوع صراعات بين الملوك والأمراء
 الأوروبيين ، ودخول البابوية طرفاً فيها ، إلى هذا الجانب أو ذلك ، عمل الملوك
 والأمراء ، خاصة من دخلت البابوية فى تحالفات سياسية ضدهم ، إلى محاولة
 السيطرة على هذه الأراضى ، والسيطرة على إيراداتها ؛ وخاصة وأن اتساع هذه

الممتلكات العقارية العابدة للبابوية ، وجودتها ، وراثتها ، كان يسيل لعاب الملوك والأمراء الأوربيين .

وكانت حياة البابوات قد تحولت إلى حياة أمراء ، وأصبح للبعض منهم أبناء غير شرعيين ، وأصبح لآخرين محظيات ، وبشكل يضعف من هيبة الكرسي البابوي . وكانت العقيدة قد أصابها الكثير من الجهود ، ولم يحاول البابوات تنقيتها من الشوائب ، ورفع المستوى الفكري والديني لرجال الكنيسة . واحتاج البابوات إلى مزيد من الثروات ، للمحافظة على بلاطهم ، وفخامته ، وكذلك لبناء الكنائس الجديدة ، ومنها كنيسة القديس بولس في روما ، فأخذوا في إصدار صكوك الغفران . وكان توزيع هذه الصكوك عن طريق المصارف في جميع أنحاء أوروبا أمراً مثيراً للنقد ؛ كما كان توزيعها على الأهلالي باسم غفران الذنوب ، وكل الذنوب ، وحتى أكبر الكبائر ، يثير النفوس المؤمنة ، ويحتم ضرورة الإصلاح .

ونشأت في أوروبا حركتان للإصلاح : إصلاح داخلي ، داخل نطاق الكنيسة ، لتنقية العقيدة مما شابها ، وهذه الحركة لم يكتب لها النجاح ؛ وإصلاح خارجي وجد أن المجال الوحيد للبقاء على العقيدة المسيحية هو الخروج التام عن سيطرة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ؛ وعمل في هذا الاتجاه كل من مارتن لوثر في ألمانيا ، وزونجلي في سويسرا ، وكلفن في جنيف ، في القرن السادس عشر .

٢ - مارتن لوثر في ألمانيا :

ولد مارتن لوثر سنة ١٤٨٣ في إحدى قرى إمارة سكسونيا ، في ألمانيا ، من أبوين فقيرين . ولكنه أتم تعليمه الجامعي ، ثم دخل ديراً تابلاً لطائفة القديس أوغسطين سنة ١٥٠٥ . وأتيحت له في سنة ١٥١١ فرصة زيارة روما ، ولكنه صدم لما رآه فيها من حياة التبذل وانهميار القيم الأخلاقية ، وإبتعاد حياة

رجال الدين عن تعاليم المسيحية . وشغل بعد عودته لبلاده منصب أستاذ اللاهوت في جامعة وتبرج سنة ١٥١٢ ، ونجح في التدريس والوعظ .

ولقد صدم مارتن لوثر سنة ١٥١٧ حين جاء أحد الرهبان إلى مدينته ، لبيع صكوك الغفران ؛ وكان جاهلا ، وإدعى أنها كافية لتخليص من يشتريها من كل ما ارتكب من آثام وخطايا ، وحتى أكبر الكبائر . وكان من المعروف أن الغفران لا يتم إلا بناء عن توبة ، وإعتراف وتكفير بالصلاة والصوم والزكاة . وكان البابوات ، أثناء الحروب الصليبية ، قد عوضوا ^{الملك} التكفير بالاشتراك في الحروب الصليبية ، والحج إلى روما وزيارة قبور القديسين . ثم نسى بعض رجال الكنيسة التوبة ، والاعتراف ، وأصبح ^{التكفير} التكفير يعني شراء صكوك الغفران ، التي كان البابا يستخدمها لجمع الأموال اللازمة له ؛ وأصبح يعهد إلى بعض المصارف أمر بيعها ، ويستخدم صغار رجال الدين في هذه العملية . وكان الغفران منحة إلهية ، ونسى البابوات ذلك ، وأصبحوا يضمنونه لمن يشتري الصكوك .

ومارتن نفس مارتن لوثر ، وتحرك . ولانتهاز فرصة لإجتاع أهالي وتبرج بمناسبة عيد الشهداء ، وبمناسبة تدسين الكنيسة ، وعلق على بابها احتجاجاً على بيع صكوك الغفران ، يشتمل على خمسة وتسعين فقرة ، هاجم فيه الكنيسة الكاثوليكية ، ونظرتها إلى الغفران ، وهاجم فيه سلطات الكنيسة ، وتعاليمها ، وأصر على ضرورة اتخاذ الكتاب المقدس وحده دستوراً لتفسير أى موضوع يختلف عليه في العقيدة .

سُثم قام بعد ذلك ، في سنة ١٥١٩ ، ومع تزايد أعداد المعجبين به ، وبطريقة تفكيره ، بتوجيه دعوة إلى أمراء الولايات الألمانية للانضمام إلى حركة الإصلاح الدينية ، وإصلاح الكنيسة من خارجها ، مادامت عاجزة عن إصلاح نفسها من الداخل . وكان الكثير من الأمراء مستعدين لإجابة دعوته ، إذا أنها كانت مستعظمهم مكاسب مادية ومعنوية كبيرة . وحدد مارتن لوثر مبادئ حركة

الإصلاح في ضرورة إخضاع رجال الدين للسلطة السياسية في الدول ، وإنهاء احتكار البابا لتفسير الكتاب المقدس ، وإباحة زواج القس ، وإباحة الطلاق للمسيحيين ، وإلغاء الحج إلى روما ، وتصفية الأديرة .

وقام البابا من جانبه بإصدار قرار حرمان ضد مارتن لوثر . فرد عليه بكتابة رسالة عن « الأسر البابلي » ، أظهر فيها ضعف الكنيسة ومفاسد نظمها ، وأحرق قرار الحرمان . كما كتب إلى البابا رسالة عن « الحرية المسيحية » ، أظهر فيها مفاسد رجال الدين ، وخدمهم المسيحيين ، وضرورة مقاومتهم . فتمت القطيعة بين مارتن لوثر ، والكنيسة الرومانية ، وبلازمة .

ولقد طلب البابا إلى شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أن ينفذ قرار الحرمان الصادر ضد مارتن لوثر فدعا الإمبراطور مارتن لوثر للمشول أمام محكم ورمز سنة ١٥٢١ . ولكن مارتن لوثر أصر على آرائه ، وبشكل جعل أتباعه وأعدائه يتزايدون ، رغم صدور قرار الحرمان ضده . ذلك أن فردريك منتخب ، أو أمير سكونيا ، عمل على حمايته وتشجيعه ، وأعطاه قلعة وارنبرج للإقامة فيها . واستغل مارتن لوثر إقامته هناك لترجمة الإنجيل إلى اللغة الألمانية ، مما عمل على إثراء هذه اللغة والمساعدة على نمو الأدب الألماني ، وسهل أمر إطلاع عامة الأهل على الكتاب المقدس ، وبلغتهم . كما أن فيليب مانتون وضع كتاباً في اللاهوت معتمداً في ذلك على الإنجيل وحده ، مما سهل أمر انتشار الاتجاه والفكر اللوثرى . وأخيراً فإن جامعة وتبرج منحت مارتن لوثر منبراً يشرح فيه فكره وعقيدته ، وبشكل ساعد على انتشار هذا الاتجاه الجديد .

ولقد ارتبط بحركة مارتن لوثر ظهور ثلاث حركات أخرى ، مرتبطة بالفكر والعقيدة ، ومرتبطة بالسلطة ، وبالمصلحة ، حتى المادية . وكانت أولى هذه الحركات هي حركة « المطالبون بإعادة التعميد » ، وعلى أساس أن تعميد الأطفال ليس له قيمة ، والقيمة للتعميد هي بعد البلوغ ، وبعد إقناع الفرد وإيمانه بأنه سيكون

مسيحي ، ولقد عمل كل من مارتن لوثر ، وفيليب ملانكتون ، على تهدئة هذه الحركة المتطرفة دينياً . أما الحركة الثانية فكانت «حركة الفرسان» ، وكان للفرسان قد فقدوا الكثير من إمتيازاتهم ؛ فوجدوا في الحركة التي قام بها مارتن لوثر فرصة لاسترداد نفوذهم ، وتوسيع ممتلكاتهم ؛ فهاجموا الكنائس وحطموا ما فيها من تماثيل ، وقاموا في نفس الوقت بالإستيلاء على أملاكها وأرضها . ولكن الأمراء قاموا بضربهم ، والقضاء على حركتهم ، حتى يبقوا هذه الممتلكات في أيدي الكنيسة ، إن كان الأمراء من الكاثوليك ، أو للاستيلاء هم بأنفسهم ولا أنفسهم عليها ، إن كانوا من أنصار لوثر ، وأدى ذلك إلى ضعف الفرسان ، وتزايد قوة الأمراء . وأما الحركة الثالثة فكانت هي «ثورة الفلاحين» ، وكانت أعنف الحركات ، وانتشرت هذه الثورة في جميع أنحاء ألمانيا ، وبسرعة . ولم تكن أول ثورة يقوم بها الفلاحون في أوروبا ، ولقد ربط الفلاحون بين الاتجاه الفكري والعقائدي لحركة مارتن لوثر ، وبين ظروفهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ومع حركة إعادة التعميد ، قاموا بثورات مواجهة ضد السلطة ، للتحرر، وللمعيشة في إخماء يقوم على أساس المساواة ، التي واصلت في بعض الجهات إلى المساواة في الملكية ، أو الملكية في الشيوع . وكان الفلاحون يعيشون في ضنك ، وكان النبلاء والأمراء يحافظون على إمتيازاتهم ، ويستغلون الفلاحين . وأصدر الفلاحون بياناً سنة ١٥٢٥ لإلغاء رقيق الأرض، وتحديد إيجار الأراضي، وتحديد الاعباء التي يؤدونها للسيد الاقطاعي ، وحق كل جماعة في إختيار وتعيين القسس في الكنائس ، والإشراف على التعليم ؛ وكل ذلك على أساس ما جاء في الكتاب المقدس .

ولقد وقف مارتن لوثر ضد هذه الحركات الثلاث ، ووصف الفلاحون بأنهم خربون ، وسافكي الدماء ، وطلب إلى الأمراء ضرب حركتهم بكل عنف . وكان مارتن لوثر يرغب بذلك في أن تكون حركة الإصلاح دينية مجردة ، دون أي

إرتباط ، أو تعرض ، للظروف الإجتماعية والإقتصادية . ولكنه أسلم زمام الأمر ، بهذه الطريقة في ألمانيا ، للأمراء ، وبشكل يدعم سلطتهم في إماراتهم ، ويزيد مكاسبهم على حساب السلطة والممتلكات العقارية للكنيسة : فظلت قاعدة الأهلالي العريضة ، التي أعتقت مذهبه ، دون حل لمشاكلها الاجتماعية والإقتصادية ؛ وظلت ألمانيا منقسمة على نفسها إلى دول وإمارات ، بعضها مع البابا ، وبخاصة في الجنوب ، وبعضها مع المذهب الجديد ، مذهب لوثر ، وخاصة في الشمال .

وكان الإمبراطور شارل الخامس مشغولا في ذلك الوقت بحروبه ضد فرنسا في إيطاليا ، ومشغولا بعملية زحف العثمانيين من الشرق على المجر ، ووصولهم إلى فيينا ؛ فاضطر إلى البقاء دون إتخاذ موقف صريح ضد حركة لوثر في ألمانيا ؛ الأمر الذي ساعدها على النمو والانتشار . وكان الدايت الإمبراطوري الذي عقد في سبير سنة ١٥٢٦ قد سمح لكل أمير بأن يملك بالنسبة لقرار ورمز ، مايرضى الله ، وماسيكون مسئولا عنه أمام الإمبراطور ؛ أي يختار المذهب الديني الذي يفضلها ، ولكن قرارات دايت سبير الثاني سنة ١٥٢٩ ألغت ذلك فاعترض اللوثيريون على قرارات دايت سبير الثاني ، وإحتجوا ضده ، فأصبحوا منذ ذلك الوقت يسمون بالمحتجين Protestants ، ولم يكن في وسع شارل الخامس أن يفصل في هذه المسألة بالقوة ، في ذلك الوقت . فدعا إلى عقد مجمع أوجزبرج ، سنة ١٥٣٠ للمناقشة بين الكاثوليك والبروتستانت . وإذ كان لوثر لم يحضر هذا المجمع ، فإن ملانكتون قد حضره ، وقدم « إعراف أوجزبرج » ، الذي أوضح أسس المذهب البروتستنتي . وأمام تشدد الإمبراطور ، الكاثوليكي ، كون البروتستانت حلف شمال السكند سنة ١٥٣١ للدفاع عن مصالحهم . وأصبح الأمر أكثر خطورة حين إتحدت القوى الكاثوليكية في ألمانيا ، وكونت حلف نورنبرج سنة ١٥٢٩ ، لكي يقف في وجه حلف شمال السكند . وأصبحت ألمانيا منقسمة على نفسها ، وستظل كذلك حتى وفاة مارتن لوثر سنة ١٥٤٦ ، وحتى تدخل قوات شارل الخامس ، عسكريا ، في هذه المشكلة .

٣ - زونجلى فى سويسرا .

وظهرت فى سويسرا حركة عدم رضا من الأوضاع الموجودة فى الكنيسة ، كذلك الأوضاع الاجتماعية ، خاصة وأن الكثيرين من أبناء سويسرا كانوا يضطرون للعمل كجنود مرتزقة فى قوات فرنسا ، أو قوات الإمبراطورية ، أو البابوية ، وكانوا يدفعون من حياتهم ثمناً لبحشهم عن العيش .

وظهرت فى ذلك الوقت ألريك زونجلى (١٤٨٤ - ١٥٢١) فى زيوريخ ، وهاجم فى سنة ١٥١٩ عملية بيع صكوك الغفران ، كما هاجم كذلك المطالبون بإعادة التعميد . وكان يسير فى ذلك على خطى مارتن لوثر . ولكن موقف مارتن لوثر من ثورة الفلاحين وإعتباره ، أن أمير البلاد هو رئيس الكنيسة والمسئول عنها ، الأمر الذى أسلم الحركة اللوثرية فى ألمانيا لعدد من الأمراء ، أظهر أن هناك إختلافاً واضحاً ، إجتماعى ، وإقتصادى وسياسى ، وبين الاتجاه اللوثرى الإصلاحى فى الدين ، وبشجره ، وبين إتجاه زونجلى .

وكان زونجلى إنسانياً ، وأخلاقياً ، ووطنياً ، وجمهورياً فى نفس الوقت . وهاجم تحريم الزواج على رجال الدين ، وعمود الرهبنة ، وإستعمال اللاتينية فى الصلوات فى الكنيسة ، وغيرها من مسائل العقيدة . ولكنه كان أكثر تطرفاً من لوثر ، وأكثر منه تنوراً ، وأقل منه تأثراً بأراء العصور الوسطى . فلقد إعتبر الكنيسة مؤسسة لكل المسيحيين ، يشتركون فى إدارتها ، وتعين رجالها ، حتى تتمكن من القيام بواجباتها . وعمل بذلك على الانفصال التام عن روما .

وإنتشر الإصلاح الزونجلى حتى بلغ سنة ١٥٢٩ بعض المدن فى جنوب ألمانيا ، علاوة على إنتشاره فى ست مقاطعات سويسرية . ولقد حاول فيليب ، منتخب إقليم هيس ، أن يجمع بين لوثر وزونجلى ، وبشكل يوحد بين حركة الإصلاح فى ألمانيا ، وحركة الإصلاح فى سويسرا . ولكن الاتفاق لم يتم بين الزعيمين ، وأثر ذلك على الحركة اللوثرية ، التى لم تنشر فى سويسرا .

ونشبت الحرب ، بعد التكتل ، داخل سويسرا ، بين الكاثوليك من جانب ، وأتباع زونجلي من جانب آخر . وقتل زونجلي في معركة كابل التي وقعت في شهر أكتوبر سنة ١٥٣١ بين المعسكرين . ولكن الصلح عقد بينها في نفس السنة ، على أساس تعهد المقاطعات البروتستانتية بترك المقاطعات الكاثوليكية تعيش في سلام ، وحق المقاطعات البروتستانتية في الاحتفاظ بمذهبها الجديد . وكان البنيان الاتحادي لسويسرا يسمح لهم بذلك .

٤ - كلفن في جنيف :

بعد مصرع زونجلي ، إنتقل دور زيورينخ القيادي في حركة الإصلاح في سويسرا ، مع وليام فاريل ، الفرنسي ، الذي ، أقام في برن ، وعمل بها ؛ فأدى ذلك إلى إبقاء نور هذه الحركة مشعاً . ولكن فاريل إنتقل بعد ذلك إلى جنيف سنة ١٥٣٣ ، حيث وجد تجاوباً كبيراً من الأهالي الذين عملوا على تحطيم التماثيل والصور الموجودة في الكنائس ، وقضوا على الكثير من مظاهر الخلاعة والتبذل التي سادت هذه المدينة المتاجرة . وفي سنة ١٥٣٦ أصبح المذهب البروتستانتي هو المذهب الرسمي في جنيف ؛ وشهد نفس العام مجيء جون كلفن إليها .

وكان جون كلفن قد ولد في نيون سنة ١٥٠٩ ، ودرس اللاهوت في جامعة باريس ، ثم القانون في أورليان ، وظهر من مقالاته الأولى أنه قد إعتنق مذهب الإصلاح ؛ وإضطر إلى ترك فرنسا إلى جنيف ، خاصة وأن ملوك فرنسا كانوا يضطهدون انصار الإصلاح الديني داخل بلادهم ، في الوقت الذي كانوا يتعاونون ويتحالفون معهم ، ضد الامبراطورية والبابوية ؛ في الخارج . وعمل كلفن على أن يجعل جنيف جمهورية إنجيلية ، يقود منها حزب الإصلاح — الهيجوروت — داخل فرنسا نفسها .

ولقد إتفق مذهب كلفن مع اللوثرين في ضرورة الاعتماد على الكتاب المقدس وحده ؛ ولكنه إختلف مع اللوثرين في ضرورة إجبار الآخرين على

إعتناق مذهبه . كما أن كلفن إختلف مع زونجلي في مسألة إتحاد الدولة والكنيسة ، ورأى أن الكنيسة محتاجة إلى إدارة خاصة بها ، تختلف عن الإدارة العلانية للدولة ، ولها ميدان روحي ، ولا يجوز لأحد الطرفين أن يتدخل في ميدان الآخر .

وكان كلفن يفضل الحكومة الأرستقراطية ، ويرى ضرورة طاعة المسيحيين لها ، مادامت تحافظ على تعاليم الله . وهكذا رأى كلفن ضرورة الفصل ، مع الموازنة والتكامل ، بين السلطتين . وفي حالة عدم المحافظة على تعاليم الله ، فمن واجب المسيحي مقاومتها ، كما حدث أثناء الحروب الدينية في فرنسا ، وكما حدث في الأراضي المنخفضة سيطرة الحكومة الزمنية .

ولقد نجح كلفن في أن يجعل من جنيف مركزاً لمذهب الإصلاح ؛ وزاد إشعاع جنيف بإنشاء جامعتها سنة ١٥٥٩ ؛ وأصبحت هذه المدينة مركز تعليم وتكوين الرعاة البروتستانت ، أو الهجوتوت ، مما أثرفى تاريخ الإصلاح الديني ، وتاريخ أوروبا في العصر الحديث .

الفصل الحادى والعشرون

إنتشار المذاهب البروتستانتية

لقد أدى ظهور المذاهب البروتستانتية ، سواء فى ألمانيا مع ماوتن لوتر ، أو فى سويسرا ، مع زونجلي ، وجون كلفن ، إلى حدوث قلقلة كبيرة فى فكر الأوربيين ، وفى نظرتهم إلى عقائدهم ، وذلك فى ظل مجتمعات متطورة . وبسرعة ، من عمود إقطاع إلى عصور حديثة ، يتغير فيها المجتمع من نشاطه الزراعى إلى الإهتمام بالتجارة وتفوقها ، وفى إستنادها إلى الصناعة النامية ، ومن حيائه المقللة إلى حياة حرة ومتحررة ، وبخاصة فى المدن . وكانت هناك مصالح إقتصادية وسياسية ، نتجت عن إنتشار مذاهب الإصلاح ، ستساعد مع غيرها على وقوع تغيرات مادية ومعنوية . فى كثير من أنحاء أوربا ، وبخاصة فى غرب القارة وشمالها .

١ - خروج إنجلترا على كنيسة روما :

بدأ هنرى الثامن حكمه لانجلترا سنة ١٥٠٩ ، وكان له من العمر ثمانية عشر سنة . وتزوج كاترين الارجونية ، ابنة فرديناند وإيزابلا ، وعمل على بناء أسطول قوى ، فبنى أحواض السفن ومدرسة لتخريج رجال البحر . ووضع أسس القوة البحرية لانجلترا . وكان مسيحيا كاثوليكيا ، أعطاه البابا سنة ١٥٢١ لقب حامى العقيدة ، نتيجة لكتابته بحثاً رد به على لوتر . وحتى فى حروبه كان مع معسكر البابا ضد أعدائه . ولم تكن الأمور الدينية التى شغلت سكان القارة ، تلقى فى إنجلترا صدى إلا لدى نخبة صغيرة من المتعلمين . وكان الانجليزى العادى لا يحب كثيرا رجال الدين ، وكان بعضهم يحقد على ما يتمتع به رجال الدين من أملاك وإمتيازات . وكان الانجليزى محافظاً بطبعه ، فكان لا يشعر بتلك المراقبة

الاجتماعية التي أشعلت ثورة الفلاحين في ألمانيا ، ولكنه كان لا يوافق على تحميل أعباء ضرائبية باهظة ، وغير راض عن الحرب مع الأراضي المنخفضة ، التي كانت تهدد بالقضاء على تجارة الصوف . ورغم التطور الاقتصادي الكبير الذي مرت فيه إنجلترا في ذلك الوقت ، من اعتبار الأرض الزراعية سلعة ، ومن تقدم تجارة الأنسجة التي كانت أهم صناعات إنجلترا ، ومن اعتبار تربية الأغنام أكثر ربحا من الحبوب ، وتحويل كثير من الأراضي إلى مراعى بدلا من زراعتها قحما ، ونشوب أزمة إقتصادية إجتماعية بدأت في الريف ، نتيجة لضياع أراضي صغار الفلاحين ، وإستمررت في هجرة الكثيرين منهم إلى المدن - رغم كل ذلك ، فإن أوضاع إنجلترا لم تكن تسمح بقيام قلاقل فيها ، تأخذ شكل الثورات العامة ؛ وكان كبار الملاك بعيدين عن الشعب ، وكان الجميع يحترمون الملك ؛ ويرضون ببقاء أسرة تيودور تحكمهم .

وترك هنري الثامن الحكم الفعلي في البلاد مدة أربعة عشر عاما (١٥١٥ - ١٥٢٩) في يد توماس ولزى ، الكاردينال الكاثوليكي ، الذي كان مخلصا للبابوية ، وكان يطمع حتى في الوصول إليها ؛ وعمل على ألا تخضع ملك فرنسا . ولا حتى للإمبراطور شارل الخامس . ومع ذلك فقد علم الملك هنري الثامن كيف يكون سيديا في بلاده ، وألا يخضع للتشريعات التي تصدرها البابوية . وتمسك من حل بعض الأديرة الصغيرة ، واستغل أملاكها في إنشاء بعض السكليات . وكان موقفه ضعيفا ، إذ أن تجار الصوف كانوا لا يسمحون له بتحدى الإمبراطور ، المسيطر على الأراضي المنخفضة ؛ ولذلك فإنه سقط حين انتصر شارل الخامس في إيطاليا . وأصبح على هنري الثامن أن يواجه الموقف ، ويركز مجهوده داخل إنجلترا نفسها .

وكانت كاترين الأراجونية قد أنجبت الأميرة ماري تيودور لهنري الثامن ، ولم تنجب له ولدا ، ولذلك فإنه كان يرغب ، منذ سنة ١٥٢٧ ، في الزواج من

آن بولين ، التي كان قد أغرم بها . وكان البابا ضعيفا ، وتسيطر عليه إسبانيا ، رغم أن وليم قد شرح له أن مسألة ولاء إنجلترا له قد أصبحت كلها في الميزان . وبعد أن وافق على أن تقوم محكمة خاصة في لندن بنظر طلب هنري الثامن ، نضع للضيغط الإسباني ، وطلب إحالة قضية الطلاق لروما .

وهنا بدأ هنري الثامن في العمل ، ودعا البرلمان في سنة ١٥٢٩ إلى مساندته في نضاله ضد الكرسي البابوي ، واستبقى دورة انعقادهم سبع سنوات ، وجعلهم يصدرون القوانين الخاصة باستقلال الكنيسة الإنجليزية عن روما ، وانخضاعها للتاج . ووجد أعضاء البرلمان ، وهم في غالبيتهم من كبار ملاك الأراضي ومندوبي المدن في ذلك فرصة لفصل الروابط المالية التي كانت تربطهم بسلطة روحية أجنبية . وتم الإصلاح البروتستانتي في إنجلترا ، على مراحل ، مبتدئا من الوضعية العامة ، وبشكل عملي وواقعي .

ثم استند هنري الثامن إلى توماس كرمويل لكي يجرّد رجال الدين من ممتلكاتهم ، وينزع جذور الرهبنة من البلاد . وهدفت هذه الحركة إلى كسب طوائف الملاك الذين ستوزع عليهم أراضي الكنيسة إلى جانب الملك ، والقضاء في نفس الوقت على تلك المجموعات من رجال الدين التي كانت تأتمر ، مع وجودها في إنجلترا ، بأوامر البابوية . وبعد أن استولت الدولة على ممتلكات الأديرة ، قامت بتوزيعها على الملاك والنبلاء ، الذين أصبحوا أكثر الطبقات استفادة من الإصلاح البروتستانتي في إنجلترا . وتمت هذه الإصلاحات بسرعة كبيرة ، حتى عجز الجميع عن إبداء المعارضة .

وفي سنة ١٥٣٤ صدر قانون السيادة ، وهو الذي جعل الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة . وظلت مسألة العقيدة والطقوس الدينية في حاجة إلى حل . وليكن هنري الثامن وضع بنفسه في سنة ١٥٣٦ أول مجموعة للطقوس الدينية

لكنييسة انجلترا . وكان يرغب في أن يكون الفقه الدينى للكنيسة انجليزياً ، لا ألمانيا ؛ ورفض التعاون مع البروتستانت في ألمانيا . أما في سنة ١٥٤٥ فإنه أمر بمراجعة عامة لكتب الصلوات ، وأقر تراثيل الصلوات العامة . ووضع « الانجيل العظيم » ، وهو الانجيل المعتمد إلى حد كبير على الترجمة التي قام بها ولیم تاندل ، وجعله في متناول الجميع . وظل هنرى الثامن حتى آخر أيامه يتبع طريق الوسط ، طريق إنجلترا ؛ فكان يحرق الوثريين لهرطقةهم ، ويشنق الكاثوليك لخيانتهم . ولقد وقف توماس كرانمر ، إلى جانب هنرى الثامن في كل ذلك ؛ وكان هو الذى ساعده في طلاقه من كاترين الاراجونية ؛ كما كان هو مؤلف كتاب الصلوات الانجليكاني ، بما يشتمل عليه من تراثيل وصلوات يومية .

وبعد وفاة هنرى الثامن ، سار الإصلاح إلى مده . ولكن ماري تيودور وصلت إلى الملك سنة ١٥٥٣ ، وكانت شديدة الاخلاص للذهب الكاثوليكي ؛ فألغت الطقوس الانجليزية ، وفصلت الأساقفة البروتستانت ، وأعادت العلاقات مع روما . وكانت ماري زوجة لفيليب الثانى ، ملك إسبانيا ؛ وأمرت بقتل كل من كرانمر ، وردلى وغيرهم ؛ ولذلك فإن هذه الأعمال جعلت الانجليز ينظرون إليها على أنها بداية لانفصالهم عن كنيسة روما ، بعد أن نسوا ذكريات طلاق هنرى الثامن . وتطلعت الأنظار إلى اليزابيث ، ابنة هنرى الثامن وآن بولين ، وهى التى كان زواج والدها من والدها قد تسبب في فصح الرابطة بين إنجلترا وروما .

ورغم أن إنجلترا قد انفصلت عن روما ، إلا أنها واجهت موقفاً صعباً لعدة سنوات ؛ ذلك أن كل من أيرلندا ، وفرنسا ، وإسبانيا كانت كاثوليكية ، كما أن إسكتلندا كانت ، رغم هزيمتها أمام إنجلترا في موقعة بينكى ، كاثوليكية كذلك . وفي سنة ١٥٤٨ نجحت فرنسا في تزويج الأميرة ماري الاسكتلندية الصغيرة ، من

فرنسوا ، ولى عهد فرنسا . ولذلك فإن إنجلترا ، فى أول عهد الملكة اليزابيث ، قررت ضرورة العمل على نشر أفكار الإصلاح الدينى فى إسكتلندا .

٢ - شارل الخامس وألمانيا :

ظلت ألمانيا منقسمة على نفسها بين البروتستانت والكاثوليك ، وبخاصة بعد تكوين الأمراء البروتستانت حلف شمالكالد فى سنة ١٥٢١ ، وتكتل الأمراء الكاثوليك فى حلف نورنبرج ضد سنة ١٥٣٩ . وفشل المجلس الذى إنعقد فى راتزبون سنة ١٥٤١ فى إنهاء هذا الخلاف . ولقد دعا البابا بولس الثالث إلى عقد مجمع دينى لمبحث هذا الانقسام ، ولكن البروتستانت رفضوا الاشتراك فيه ، إذ أنه كان تحت سيطرة الكاثوليك . وعندئذ قرر الإمبراطور شارل الخامس أن يستخدم القوة لإنهاء هذا الانقسام الدينى الذى كان يهدد أملاكه .

وكانت الإمارات التى إنتشر فيها المذهب البروتستانى ، وهى سكسونيا ، وهس وبرنزيك ، وبراندنبرج ، وبروسيا ، وبعض المدن الألمانية فى الشمال والجنوب ، قوية ؛ ولكن لم يكن فى وسعها أن تقف فى ذلك الوقت فى مواجهة قوات الكاثوليك ، الذين كانوا يسيطرون على إسبانيا وفرنسا وإيطاليا والأراضى المنخفضة وإسكتلندا ؛ بل لم يكن فى وسعها أن تقف حتى فى مواجهة الألمان الكاثوليك وحدهم . ولكن علينا أن نذكر أن الإمارات الألمانية الكاثوليكية لم تكن مستعدة للتعاون مع الإمبراطور ، شارل الخامس ، المتعصب للكاثوليكية ، ضد إخوانهم الألمان البروتستانت ، إذا كان مثل هذا التعاون سيؤدى إلى تدخل الإمبراطور فى الشؤون الداخلية لإماراتهم ؛ ولذلك فأنهم كانوا يحذرون المجمع ، لكنهم يقرروا بوجود إنقسام فى ألمانيا بين البروتستانت والكاثوليك ، ولكن دون أن يأخذوا أى مبادرة لإنهاء مثل هذا الانقسام ، إذ أن ذلك قد يؤدى إلى تغيير وضعيتهم ، أو إنقاص سلطاتهم وإمتيازاتهم . وكان الكاثوليك فى ألمانيا يحشون

من حركة « إعادة التعميد » ، ومن « ثورات الفلاحين » ، أكثر من خوفهم من حركة مارتن لوثر ؛ وكان مارتن لوثر قد وقف ضدهما .

وأخيراً قرر شارل الخامس ، بعد أن عقد الصلح مع فرنسا سنة ١٥٤٤ أن يستخدم القوة ضد اللوثرين ، الذين إنتشر أتباعهم في البلايتات وفي كولونيا . وكان شارل يعتمد على بعض الخارجين على الكنيسة في ألمانيا ، ولذلك فإنه لم يعط لجلته شكل الحرب الدينية الموجهة ضد الهرطقة ، بل أعطاها شكل حملة تأديبية ضد كل من الأمير فردريك حاكم سكسونيا ، والأمير فيليب حاكم هيس ؛ وكنا من أقوى مؤيدي البروتستانت في ألمانيا .

وبدأت الحرب ، وانتصرت قوات الإمبراطور في ميلبرج . على نهر الالب ، في ٢٤ أبريل سنة ١٥٤٧ ، وبشكل حاسم . ولكن المشكلة الدينية ظلت موجودة ، وبدون حل حتى بعد أسر الأمير فردريك ، وتسليم الأمير فيليب نفسه . وكان الأمراء الألمان يرفضون تغيير الأوضاع الموجودة لديهم ، من إنقسام بين بروتستانت وكاثوليك ، وإنقسام سياسى ؛ حتى لا تنقل إمتيازاتهم : فرفضوا مقترحات الإمبراطور شارل بإنشاء جامعة يرأسها قواد دائمون ، وتكون لها موارد دائمة ، وجيش نظامى ؛ كما أن الأمراء المنتخبون رفضوا فكرة جعل الإمبراطورية وراثية فى أسرة هابسبورج .

ولم توجه بعض الأمراء الألمان البروتستانت صوب هنرى الثانى ، ملك فرنسا ، وتنازلوا له عن تول و Metz وفردان وكامبراي ، نظير معاونتهم ضد الإمبراطور . ووجد هنرى الثانى فى ذلك فرصة رائعة لنقل حربه مع شارل الخامس من إيطاليا إلى منطقة الراين ، والوصول بالحدود الفرنسية إلى الحدود الطبيعية ؛ فقبل الاتفاق معهم . وبينما كان الفرنسيون يستولون على مدن الألزاس والورين ، زحف جيش موريس ، صاحب سكسونيا ، على إنزبروك ، واضطر الإمبراطور شارل

الخامس إلى الحرب ، محمولا على محفة ؛ عبر ممر برنو .

وتمت المصالحة الدينية في ألمانيا ، بين الكاثوليك والبروتستانت ، على أيدي الامبراطور الجديد ، فرديناند ، الذي كان من أشد ملوك أسرة الهابسبورج حكمة . وتمت المصالحة على أساس التوفيق ، والاعتراف بأن الانقسام موجود بالفعل . وكان المبدأ الأساسي الذي قام عليه صلح أوجزبرج ، في ١٥ سبتمبر سنة ١٥٥٥ هو حق كل إمارة في إختيار عقيدتها ؛ وأصبح لكل أمير الحق في أن يحدد في إمارته شكل الكنيسة ونوعها ، دون تدخل من جانب الإمبراطور أو الداي . وتقرر كذلك حرمان كبار الأساقفة والقسس الذين إعتنقوا المذهب البروتستانتي من مناصبهم وممتلكاتهم ، على ألا يقوم أي مسئول ديني بفرض العقيدة الكاثوليكية قسراً على رعاياه . وفعل هذا الصلح في مسألة ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية ، وأبقى ما كان قد إنتزع منها قبل سنة ١٥٥٢ في أيدي من حصاوا أو إستولوا عليه ، أما ما أخذ بعد هذه السنة فكان من الضروري رده للكنيسة .

ولاشك في أن صلح أوجزبرج كان من صنع الأمراء ، وفي صالحهم ، ودعم إستقلالهم تجاه الامبراطور من الناحية العملية ، وأعطاهم حق تقرير الأتباع المذهبي ، وأجبر رعاياهم على ضرورة الخضوع لهم في هذا المجال . وكان هذا الصلح خاصاً باللوثرين وحدهم ، ولم يذكر أي مذاهب إصلاحية أخرى . ولكن هذا الصلح ظل على كل حال هو الأساس للحياة السياسية والدينية في ألمانيا لمدة تزيد على خمسين سنة . ولم تظهر نقط ضعف إلا في مطلع القرن السابع عشر ؛ الأمر الذي أدى إلى نشوب حرب الثلاثين عاما .

٣ - انتشار البروتستانتية :

وهكذا إستقر مذهب مارتن لوثر في شمال ألمانيا بشكل خاص ، كما إستقر في بعض المدن الألمانية ، هنا وهناك .

ولقد انتشر مذهب مارتن لوثر البروتستانتي كذلك ، ووصل إلى إنجلترا ، حيث تدعمت أسس الإصلاح الديني هناك على هذا المذهب ، وفي نظام انجليزى . وانتشرت البروتستانتية على مذهب لوثر فى المسالك الشمالية . أو الاسكندنافية ، وهى الدانمرك والسويد ، والنرويج . ولم يخرج فى هذه البلاد مصلح دينى ، كما حدث فى ألمانيا وسويسرا . وكانت هذه الدول الثلاث داخلة ، سنة ١٣٩٧ ، فى حلف كرمار ؛ وحين استقلت السويد منه نهائيا فى سنة ١٥٢٤ برئاسة جوستاف فازا ، إعتنق هذا الرئيس المذهب البروتستانتي اللوثرى ، حتى يستولى على أموال وأملاك الكنيسة الكاثوليكية ، ويدعم بها دولته . ومن ناحية أخرى ، قام فردريك ملك الدانمرك والنرويج (١٥٢٤ - ١٥٣٣) بإعتناق مذهب الإصلاح الديني كذلك ، تبعاً لمارتن لوثر .

ولكن علينا ألا ننسى أن هناك بعض الأسباب عاقت سرعة انتشار المذهب اللوثرى البروتستانتي ، منها صعوبة فهم هذا المذهب فى بعض المسائل المتعلقة بالتبرير ، وبالإيمان ؛ ومنها اعتماد لوثر على تأييد الأمراء والملوك لهذا المذهب ، دون إعطاء أهمية كبيرة للجماهير المؤمنين ؛ ومنها احجام لوثر نفسه عن نشر هذه العقيدة خارج حدود ألمانيا . وعلينا ألا ننسى بعد ذلك امتناع لوثر عن الاستجاء إلى القوة والعنف فى نشر مذهبه . وستظهر نتائج ذلك حين تأخذ الكنيسة الكاثوليكية فى اصلاح نفسها ، تمهيداً للحرب من أجل الابقاء على المذهب الكاثوليكي .

وعلى أى حال ، فإن مذهب مارتن لوثر لم يكن هو المذهب البروتستانتي الوحيد ، بل ظهر إلى جواره مذهب زونجلى ، ومذهب جون كلفن ، الذى إنتشر كذلك . وكان مذهب جون كلفن هو أكثر المذاهب البروتستانتية إنتشاراً ، وأعظمها تأثيراً . فلقد خلق الكنيسة البروتستانتية فى فرنسا ، وشارك فى إنشاء جمهورية هولندا المستقلة ، وأصبح الدين الرسمي فى اسكتلند . وانتشر هذا المذهب ، قبل

وفاته كلفن ، في سويسرا الشرقية ، كما انتشر بعد ذلك في المجر ، وبوهيميا وفي المناطق التي خرجت على روما . وأثر المذهب الكلفني حتى في انجلترا نفسها . وكان مذهب جون كلفن صريحا في تعاليمه ، وينادي بالكفاح ضد مخالفيه . ووضع كلفن نظاما دقيقا لكنيسة . مما عمل على تدعيمها وتقويتها ، وتمكنها من أن تصمد في نضال طويل ضد الكاثوليكية ، وبخاصة بعد الإصلاح الكاثوليكي .

الفصل الثاني والعشرون

الاصلاح الدينى الكاثوليكي

كان لانتشار مذاهب الاصلاح البروتستانتية ، من ألمانيا ، وسويسرا ، مع جهودات لوثر ، وزونجلي ، وكلفن ، إلى الدول الإسكندنافية ، والأراضي المنخفضة وإنجلترا وفرنسا، وفي داخل النمسا وبوهيميا، أثره على العالم الكاثوليكي، وشعور بعض البابوات ، وبعض الكاثوليكين المخلصين أنفسهم ، بضرورة القيام بمجهود إيجابي ، من أجل إجراء إصلاحات ، داخل الكنيسة الكاثوليكية ، تسمح لها باستمرار الحياة ، ومواجهة التحديات المستمرة ، التي أخذت شكل لإنشغافات كبيرة، لها آثارها على وحدة الكنيسة، ونفوذها وسيطرتها ، وكذلك على أملاكها المبعثرة في جميع أنحاء أوروبا ، وسيسير الاصلاح الدينى الكاثوليكي تحت رعاية عدد من البابوات ، وسيتخذ لنفسه وسائل مختلفة للوصول إلى أهدافه ، تتمثل في عقد المجاميع الدينية ، وفي إنشاء جماعة اليسوعيين ، وفي فرض الرقابة على النشر والتداول والقراءة ؛ وفي استخدام محاكم التفتيش .

١ - مجمع ترنت :

يعد بابوات النهضة الذين عاشوا معيشة البذخ والرفاهية ، إضطر البابوات إلى أن يحسبوا حساباً لانتشار المذاهب البروتستانتية في كل مكان . فاستقر الرأي على ضرورة تطهير الكنيسة مما لحقها ، سواء في نظمها أو في سلوك رجالها ؛ ولكن هذا الاتجاه كان حريصاً على ألا يؤدي إلى إضعاف سلطة الكنيسة ، أو المساس بشخص البابا ، فهو نائب المسيح ، وخليفة القديس بطرس الرسول . وهكذا ستكون هذه الحركة حركة إصلاحية، وفي الشكل والسلوك والترتيب ، دون المساس بما هو هام ، ودون التعرض للجوهر .

ونتيجة لذلك استقر رأى البابا بول الثالث على توجيه الدعوة لعقد مجمع ديفي في ترنت ، في ألمانيا ، للنظر في سبيل الإصلاح الكاثوليكي . ولقد انعقد هذا المجلس في شهر نوفمبر سنة ١٥٤٣ ؛ ولكن كثيراً من الكرادلة الإيطاليين لم يتمكنوا من حضوره ، نتيجة للحرب التي كانت قائمة في ذلك الوقت بين فرنسا الأولى ملك فرنسا ، وبين الإمبراطور شارل الخامس ؛ فأجله البابا ؛ ثم عاد ودعاه إلى الانعقاد من جديد في شهر مارس سنة ١٥٤٤ . وسيظل هذا المجمع في دورة انعقاد مستمرة ، وعلى عهود البابوات جيمل الثالث وبول الرابع وبيو الرابع ، حتى بلغت جلساته خمسة وعشرين ، كان آخرها في شهر ديسمبر سنة ١٥٦٣ .

ولقد أصدر مجمع ترنت قرارات خاصة بنظام الكنيسة ، وهي ضرورة استخدام اللغة اللاتينية في الصلاة ، وتحريم زواج القساوسة ، ومنع تجميع أكثر من أسقفية تحت سلطة أسقف واحد . وتحديد سن الأسقف بما لا يقل عن ثلاثين سنة ، وسن القساوسة بما لا يقل عن ٢٥ ؛ وكذلك إنشاء المدارس اللازمة لتعليم رجال الدين . أما عن البابا ، فقد قرر المجمع أنه خليفة السيد المسيح والرسول ، وله السلطة العليا على الكنيسة .

كما أصدر المجمع قرارات أخرى تتعلق بالعقيدة الكاثوليكية ؛ فرفض عقيدة التبرير بالإيمان الوثنية ، وفكرة القدسية عند كلفن . كما رفض ما دعا إليه أنصار لوثر وكلفن من ضرورة الإعتماد على الكتاب المقدس ، وحده ، وقرر أن عقائد الكنيسة تستند إلى الكتاب المقدس وكذلك إلى التقاليد القديمة . وأصر على أن نسخة الكتاب المقدس اللاتينية هي وحدها المعتمدة .

وهكذا حدد مجمع ترنت التعاليم الكاثوليكية ومصادرها ، كما وضع نظاما للكنيسة يقلل من أخطائها . ولكنه لم ينقص اختصاصات البابا وسلطاته ؛ ولم يحسم النزاع القائم بين البروتستانت والكاثوليك ، وقضى على كل محاولة للتقريب أو المصالحة بين هذين المذاهبين .

وكان يجمع ثرنت أول خطرة على طريق ما يسمى بالإصلاح الديني الكاثوليكي، وكان في حقيقة الأمر محاولة لإصلاح بعض مفاسد الكنيسة . أما الوسيلة الثانية فكانت هي إنشاء جماعة اليسوعيين .

٢ - اليسوعيون :

يعتبر إنيجو لوبيز دي ريكالدي ، المعروف بإسم إجنات ليولا ، هو مؤسس جماعة اليسوعيين الذي سيكون لها دور كبير في المحافظة على الكاثوليكية، وتدعيمها، حتى تتمكن من مواجهة « الحياة المتطورة » . وكان من أصل إسباني ، ومن النبلاء، وعاش في بلاط فرديناند وإيزابلا، ثم التحق بجيش شارل الخامس ، وحارب ضد قوات فرنسوا الأول وأصابه جرح لازمه طوال حياته ، وأجبره على أن يترك حياة الجندية ، فأتجه إلى الدين . ولقد درس حياة القديسين ، كما درس في مدارس برشلونة ، ثم في باريس حيث قضى سبع سنوات في دراسة اللاهوت، حتى حصل على درجة الدكتوراه فيها سنة ١٥٣٤ . وكان يفيض بالحماس الديني ، وجمع حوله عدداً من الزملاء ، وقرروا جميعاً أن « يحاربوا من أجل المسيح » . وكونوا رابطة بينهم ، وعزموا على السفر والمعيشة في بيت المقدس ، والعمل على نشر الدين المسيحي في بلاد الشرق الاسلامي ، وكانوا قد تعاهدوا على خدمة الكنيسة الكاثوليكية ، وإطاعة البابا طاعة عمياء . ولكن الحرب بين الدولة العثمانية والبندقية منعتهم من مواصلة السفر ، وبعد وصولهم إلى البندقية ، عادوا إلى روما . وعرضوا على البابا إنشاء جماعة تناضل من أجل المذهب الكاثوليكي ، ووافق البابا على ذلك ، وسمح لهم بالوعظ في روما . ثم أصدر البابا بول الثالث مرسوماً في سنة ١٥٤٠ بإنشاء الفرق الكفيسية المناضلة ؛ التي عرفت فيما بعد بإسم اليسوعيين ، أو الجزويت ، وبعد أن كان عددها محدداً بستين عضواً، رفع هذا القيد نتيجة لنجاحها .

وكان اليسوعيون يتميزون بالطاعة التامة للبابا ، وبتركيز حياتهم لخدمة الكنيسة ، وفي أى موقع يطلب منهم أن يعملوا فيه . وكان نظامهم عسكرياً صارماً وانتخب اجنات لبرولا في سنة ١٥٤١ رئيساً للجماعة ، وظل رئيساً لها حتى وفاته سنة ١٥٥٦ .

ورأى اليسوعيون أن البروتستانت قد كسبوا على حساب الكاثوليكية نتيجة الجهل عدد كبير من القسس الكاثوليك . ولذلك فإنهم عملوا على نشر التعليم السليم بين اليسوعيين أولاً ، حتى يتمكنوا من الحصول على عدد من الأعضاء ، لهم مستوى رفيع ، يمكنهم أن يقوموا بنشر التعليم بين الأهالي في كل مكان ، بعد ذلك . واقتد إشتهرت مدارس اليسوعيين بدقتها وحزم إدارتها وسيرها على نظم تعليمية سليمة ، الأمر الذى أدى إلى زيادة الاقبال عليها . وما أن إنتهى القرن السادس عشر حتى كان اليسوعيون يسيطرون على التعليم الكاثوليكي ، في جميع أنحاء أوروبا ؛ ومن المدارس الصغيرة حتى الجامعات .

ويرجع الفضل إلى اليسوعيين في إصابة المذاهب البروتستانتية بشكسة في فرنسا وألمانيا ، وفي هز مركز البروتستانت لفترة من الزمن في إنجلترا وإسكتلندا ، وكذلك في إستئصال البروتستانتية من إيطاليا ومن إسبانيا . أما بولندا ؛ فانهم نجحوا فيها نجاحاً فائقاً ، وعلى حساب المذهب الارثوذكسى ، ودعموا هناك المذهب الكاثوليكي ، حتى أصبحت بولندا إقليماً كاثوليكياً بين ألمانيا البروتستانتية في الغرب ، وروسيا الارثوذكسية في الشرق .

٣ - الرقابة :

وضع مجمع ترنت في قراراته سنة ١٥٦٣ أن يترك للبابا أمر إختيار الكتب التى ترغب الكنيسة في تحريم قراءتها على الكاثوليك . وكانت هذه سلطة قوية في أيدي البابا ، تطورت إلى رقابة كاملة على القراءة ،

والتداول ، الطبع والنشر . وكان البابوات ، منذ أواخر القرن الخامس عشر ، يفرضون العقوبات على المؤلفين ، ودور النشر والطباعة ، وعلى القراء الذين يتداولون كتب المهرطقة ، أى التى تضم أى كفر ؛ وكان يدخل تحت هذا العنوان كل الكتب التى قد تتعارض مع المذهب الكاثوليكي أو ترمى الى تغيير قوايين الكنيسة ، أو حتى الى التشكيك فيها . ومنذ سنة ١٥١٥ فرضت رقابة كاملة على جميع المطبوعات المتداولة فى روما والولايات البابوية ؛ ثم تكلفت محاكم التفتيش بهذه الرقابة منذ سنة ١٥٤٣ . وكانت رقابة صارمة ؛ وكان وجود اسم الكتاب فى الفهرس أو الكاوج الخاص بذلك يعنى ضرورة أعدامه حرقاً . ولقد وضع البابا بول الرابع ، فى سنة ١٥٥٩ ، أول فهرس للكتب المحرمة ، وكان يشتمل على كتب ورسائل زعماء الإصلاح ، مثل لوثر وزونجلى وكلفن . ولكن هذا الفهرس كان قاصراً ؛ فتم وضع فهرس جديد سنة ١٥٦٤ ، وتكررت مراجعته بعد ذلك حتى سنة ١٥٩٦ ، وهو الفهرس الذى ظل معمولاً به حتى منتصف القرن الثامن عشر .

ولقد أثر نشر الفهارس بشكل خاص على الدول الواقعة فى جنوب أوروبا ؛ وكان حجراً على الفكر وعلى القراءة وظهرت آثاره فى إيطاليا وإسبانيا والبرتغال ، التى حرمت من كل ما كتبه البروتستانت . وكان الفهرس من بين الوسائل التى اعتمدت عليها محاكم التفتيش ، فى تعقب الخارجين على الكاثوليكية ، والتمكيل بهم .

٤ - محاكم التفتيش :

اعتمدت الكنيسة الكاثوليكية على محاكم التفتيش ، كوسيلة فعالة ، ونحواتها سلطات واسعة ، وذلك من أجل تعقب الخارجين على المذهب الكاثوليكي ، والتمكيل بهم ، وتعريضهم لكل أنواع التعذيب الممكنة ، ارهاباً لهم ولغيرهم ، ولإجبار الجميع ، بالخوف ، على البقاء داخل حظيرة الكاثوليكية .

وكان هذا النوع من المحاكم الدينية موجوداً منذ العصور الوسطى، واستخدمتها الكنيسة ضد حركات الهرطقة، وأى فكر حر قد يظهر. ولكنها ظهرت فى شكل جديد، وبسلطات واسعة، حين طلبت إسبانيا إلى البابا فى سنة ١٤٧٧ إنشاءها فى بلادها لمحكمة المسلمين واليهود هناك. وفى سنة ١٤٩٧ خرجت محكمة التفتيش الإسبانية من سيطرة روما المباشرة، وأصبحت تحت سيطرة ملوك إسبانيا الكاثوليك. ولقد نالت هذه المحكمة سلطة وسمعة، وأثبتت فعاليتها فى الإرهاب، حتى أن كنيسة روما فكرت فى إنشاء محكمة مماثلة فى مدينة روما، وتكون داخل نطاق هذه الكنيسة. وهكذا أصدر البابا بول الثالث مرسوماً فى سنة ١٥٤٢ بإنشاء محكمة مقدسة للكنيسة العالمية، من ستة كرادلة؛ وكانت لها سلطات واسعة، وبصفة أعضائها من المفتشين فى كل أنحاء العالم الكاثوليكي. ثم زيد عدد أعضائها إلى اثني عشر، وأشرفت على إرسال المفتشين الكاثوليك إلى كل مكان.

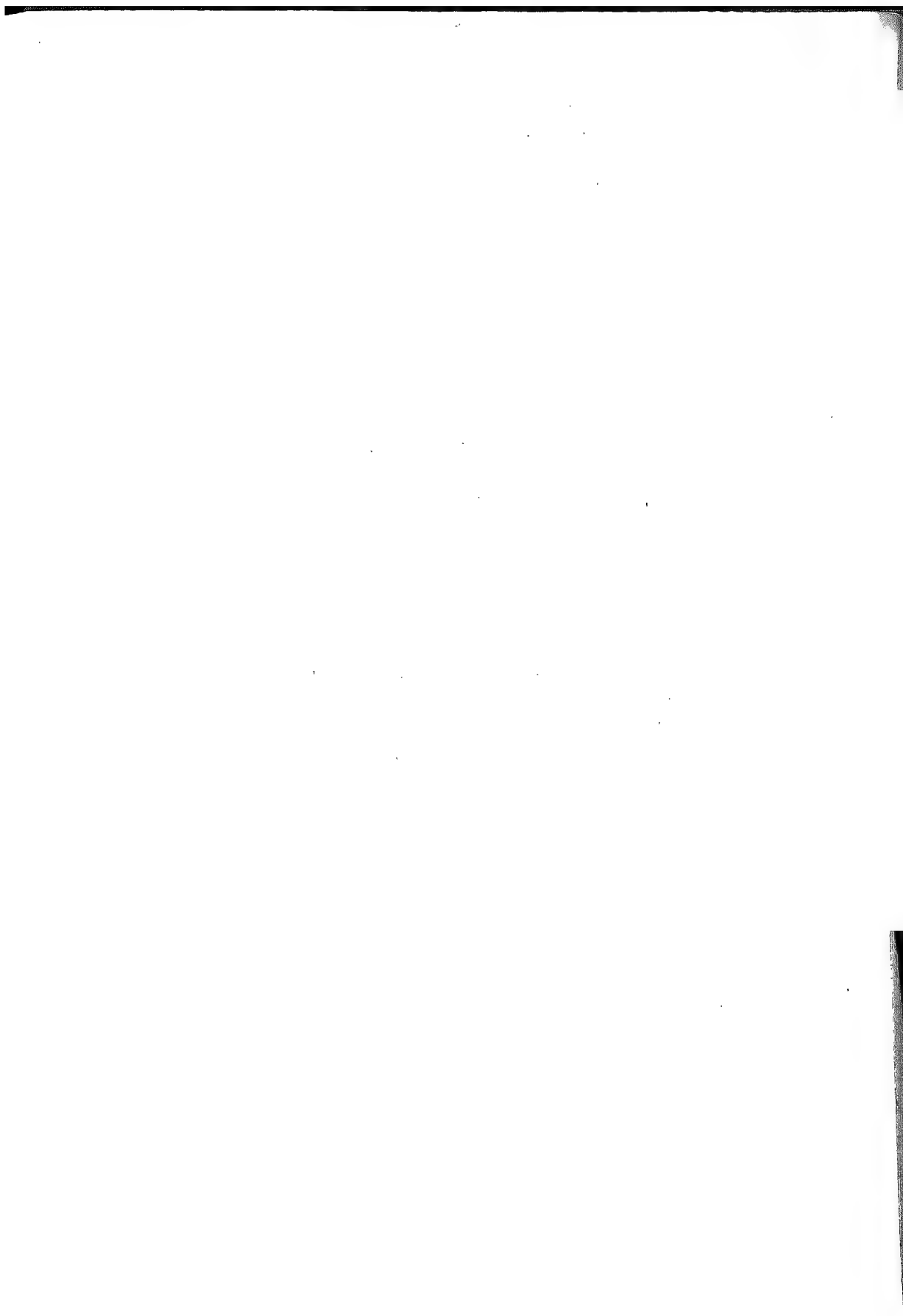
وكانت محاكم التفتيش تستخدم وسائل التعذيب، لإجبار المتهمين على الاعتراف؛ ولم تكن تواجه المتهم بشهود الإثبات ضده؛ وكانت لا تخضع للحكومات التى تعمل فى أقاليمها. وبعد أن يلقى المتهم ألواناً من التعذيب، وغالباً ما ينهار، ويعترف بالجريمة خلاصاً لنفسه من العذاب، تصدر محكمة التفتيش حكماً بأدائه، دون أن تحكم عليه بالإعدام. ويسلم المتهم إلى السلطات الحكومية، ومعه حكم بإثبات تهمة الهرطقة عليه، فتقوم السلطات الحكومية بحرقه حياً. وكان من الطبيعى أن تتم بعد ذلك عملية مصادرة أموال وأملك المتهم، لصالح الكنيسة وكانت محاكم التفتيش تفتحص كذلك بمراقبة المطبوعات، ومراجعة الكتب التى يسمح بتداولها؛ وكان من الضروري الحصول على إذن مسبق منها قبل طبع أى كتاب؛ أما ما عدا ذلك فكان يحرق.

ونجحت محاكم التفتيش فى القضاء على المذاهب البروتستانتية فى كل من إيطاليا

واسبانيا ، ولكنها ساعدت على زيادة روح التعصب الدينى ، واستخدمت
العنف والتعسف للمحافظة على المسيحيين داخل نطاق الكنيسة الكاثوليكية .
ولم تكن الحركة البروتستانتية قد انتشرت في إيطاليا ولا في إسبانيا ، ولذلك فإن
نجاح محاكم التفتيش هناك كان نسبياً . أما في شمال وغرب أوروبا ، فإن عمليات
محاكم التفتيش ووسائلها قد دفعت بالبروتستانت إلى زيادة التمسك بموقفهم .
ولذلك فإن هذه المحاكم قد فشلت في هذه المناطق ؛ ولم ينجح في المحافظة على
الكاثوليكية هناك سوى تطبيق قرارات مجمع ترنت ، وجمود اليسوعيين .

الباب الثامن

التغيرات في غرب أوروبا
ووقف النمو الإسباني



الفصل الثالث والعشرون

الحروب الدينية في فرنسا

كانت سيطرة إسبانيا واضحة على القارة الأوروبية . في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وبعد نهاية الحروب الإيطالية ورغم أن شارل الخامس قد ترك الإمبراطورية لاختيه ، إلا أن نصيب إبنه فيليب الثاني كان كبيراً : فكانت له السيطرة على إسبانيا والأراضي المنخفضة وناپولي في جنوب إيطاليا ، علاوة على الإمبراطورية الاستعمارية فيما وراء البحار . وحين آل إليه عرش البرتغال سنة ١٥٨٠ ، أصبح فيليب الثاني يسيطر عليها ، وعلى إمبراطوريتها الاستعمارية المترامية الأطراف في الشرق الأقصى ، وكذلك في البرازيل . وكان فيليب الثاني متعصباً في كاثوليكية ، ويعتمد على اليسوعيين ومحكم التفتيش ، ولذلك فانه وضع نفسه ، وفي الأقاليم التي يحكمها ، في مواجهة واضحة مع مذاهب الإصلاح الديني . وكان نظام الإمبراطورية الإسبانية نظاماً إحتكارياً ، وفي عصر نمو الرأسمالية وظهور الشركات المتاجرة ، ولذلك فانه وجد أعداء كثيرين لنظامه الجامد . ومع تجده ، حاول أن يدعم سلطته على الأراضي المنخفضة ، ويتدخل في إنجلترا ، وكانت أنظاره تتجه صوب فرنسا التي كان يرغب في إخضاعها لنفوذه ، ولسيطرته الكاثوليكية . وستكون هذه هي الميادين الثلاث التي ستوقف فيها عملية نمو السيطرة الإسبانية ، وفي أشكال متباعدة : فرنسا ، وهولندا ، وإنجلترا ، وبشكل يمهّد إسبانيا نفسها .

١ - الانقسام الديني في فرنسا :

ما أن انتهت الحروب الإيطالية في سنة ١٥٥٩ ، حتى دخلت فرنسا في عملية صراعات داخلية ، بين الكاثوليك والهييجونوت ، أي أنصار الإصلاح الديني

داخل فرنسا . واستمرت هذه الحروب الدينية طوال النصف الثاني من القرن السادس عشر تقريبا ؛ وهي وإن كانت قد وقعت على فترات ، إلا أنها استنزفت ، بعد الحروب الإيطالية ، موارد فرنسا في الرجال والأموال . ولاشك في أن استمرار الحروب ، في الخارج والداخل ، قد أوقف التنمية ، وخرّب كثير من المدن والمناطق ، وصرف فرنسا عن الاستمرار في عملية الكشف الجغرافية ؛ وهدد الوحدة الفرنسية ذاتها ، بعد أن كانت قد بذلت الكثير من أجل الوصول إليها .

ولقد إنتشر مذهب الإصلاح الديني في فرنسا ، بعد نهاية الحروب الإيطالية ، و وفاة هنري الثاني سنة ١٥٥٩ بشكل واضح . وعمل الهيجونوت ، الذين تعلموا في جنيف . بكل همة ونشاط ، وأخذوا في توزيع الأناجيل وكتب المزامير سرا ، وفي إجتماعات منزلية ، خاصة وأن عقوبة الهرطقة في فرنسا كانت هي الموت حرقا . وهكذا تمكن الهيجونوت من أن يضموا إلى صفوفهم أنصارا في الجيش وفي برلمان باريس وكانت الكوارث التي تنزل بأنصار الإصلاح الديني في الأراضي المنخفضة ، أو في إنجلترا على أيدي الملكة ماري ، تعطيهم شعورا بالتضامن مع هؤلاء المضطهدين من أجل عقيدتهم ، وتزيد من حماسهم ، وتدفعهم إلى ضرورة الاصرار على موقفهم .

وفي مواجهة ذلك ؛ كانت الدولة نفسها كاثوليكية ، وكان يدعمها في ذلك قوة إسبانيا ، المتفوقة بحرا ، وذات الكلمة العليا في كل من الأراضي المنخفضة وإيطاليا ، وكانت سلطة العرش قد ضعفت في فرنسا بعد هنري الثاني . وتوالى على العرش ملوك ضعاف ثلاث هم : فرنسوا الثاني ، ابن هنري الثاني وكاترين دي مديس ، وكان مريضا ؛ ثم شارل التاسع ، وكان ضعيف الأعصاب ؛ ثم هنري الثالث ، وكان منحلا ، ولذلك فإن السلطة الحقيقية ظلت في أيدي والدهم . كاترين دي مديس ؛ وكانت امرأة ، كما كانت أجنبية . وكانت

خطه هذه الملكة الوالدة هي التوصل إلى سلام ديني بين الكاثوليك والهييجونوت ، يقوم على التوفيق بين أنصار المذهبين ، حتى تضمن استمرار الحكم لأبنائها .
أما الاستقراطية العليا ، فكانت منقسمة على نفسها إلى ثلاثة مجموعات . وكانت المجموعة الأولى هي مجموعة دوق دي جيز ، الذي كان قد أصبح معبود فرنسا ، بعد أن دافع عن مينز ، واستولى على كاليه من الانجليز . وكان معه أخوه رجل الدين ، صاحب اللورين ، وكردينال ريمز ، والذي كان أشد دعاة النظرية البابوية في مجمع ترنت الديني . وكانت هذه المجموعة تضم جندي فرنسا الأول ، وواحد من أكبر كراداتها . وكانت أخت دوق دي جيز قد تزوجت ملك إسبانيا ، وكانت الملكة الوالدة كاترين دي مديس ابنة عمه ؛ وكان يسيطر على خمسة عشر أسقفية . ومرتبط بالأسر الحاكمة في اسكتلندا وإسبانيا ؛ ولذلك فإنه كان أكبر سند للكاثوليكية في فرنسا ، وتدعمه في هذا الاتجاه كل من روما وإسبانيا .

أما المجموعة الثانية فكانت هي مجموعة الهييجونوت ؛ وكان على رأسها كل من أنطوان ملك نافار ، وأخوه لوى دوق كورنديه ، وحاكم بيكاردى ؛ وكان قد حصل من قبل على لقب حامي كنيسة فرنسا . وكان نفوذهما عظيما في غرب فرنسا وجنوبها الغربي ، وانضم إليهما الكثير من نبلاء وأعيان هذه المناطق .
وأما المجموعة الثالثة فكانت في وسط فرنسا ، وكانت بقيادة دوق مي مورنسى . وكانت مخصصة للكاثوليكية ، ولكنها كانت لاتحب الملكة ، ولا دوق دي جيز . وحدث انشقاق في هذه المجموعة ، وأصبح جاسباى دى كوليني ، أميرال فرنسا ، وابن عم دوق مي مورنسى ، من أكبر قادة البروتستانت في فرنسا .
ومع هذا الانقسام ، سيكون من السهل وقوع أحداث ، بين هذه المجموعات وبفضلها ، بناء على الانقسام المذهبي ، وعلى المنافسة السياسية : أى طبقة للسلطة ، والمصلحة ، وتحت ستار ديني .

١ - الحروب :

ونتيجة لاعداد أحد المحامين من مذهب كالفن في باريس ، وضع البروتستانت خطة لخطف الملك ودوق دى جيز في أمبواز ، ولكن المؤامرة كشفت ؛ وقام دوق دى جيز بالقبض على دوق كونديه ، وحكم عليه باعدام . وفى أثناء ذلك الوقت توفى الملك ، وأصبحت كاترين دى مديس ؛ وصية على ابنها الثانى ، شارل التاسع ؛ ففقد دوق دى جيز حظوته فى البلاط ، خاصة وأن كاترين ترغب فى إنتهاج سياسة العفو والتوفيق ؛ سراح كونديه ، وأصدرت عفواً عن الكلفنيين ، وعينت ملك نافار ياورا للملك . ثم صدر مرسوم فى شهر يناير سنة ١٥٦٢ لإعتراف الهيجونوت بممارسة شعائرهم الدينية ، بشروط خاصة .

ولكن النفوس كانت مضطربة ، فهاجم الهيجونوت بعض الكنائس ، وخرّبوا الصور ، وهدموا التماثيل الموجودة فيها ، وهاجوا رجال الدين ؛ فقامت قوات دوق دى جيز بقتل عدد من الهيجونوت ، أثناء تعبدهم ؛ ففشبت الحرب بين الفريقين ، وفى طول فرنسا وعرضها .

وكانت هذه الحروب مبعثرة ، هنا وهناك ؛ وكانت منقطعة ، نتيجة لاحتياج المتحاربين إلى الأموال والأسلحة ؛ كما أنها سمحت باشتراك عناصر غير فرنسية فيها ، ولقد ألتجأ الكاثوليك إلى إسبانيا ؛ فى الوقت الذى إتجه فيه الهيجونوت إلى إنجلترا ، ووصل بهم الحد إلى وضع الهافر فى أيدي الانجليز ، ووعدهم بشجر كاليه . أما بالنسبة للوثرين الألمان ، فانهم كانوا على اختلاف مع الكلفنيين ، أى الهيجونوت ؛ وإذا كان هناك لوثريون شاركوا فى الحروب الدينية فى فرنسا ، فانهم شاركوا إلى جانب الكاثوليك . ضد الهيجونوت .

وكان كل شىء يشير إلى انتصار الكاثوليك فى الحرب الأولى ، خاصة وأنهم قد استندوا إلى باريس ، وسيطروا على الملك والمملكة ، واستعانوا بمجموعة من المرتزقة من ألمانيا وإسبانيا ؛ الأمر الذى سمح لهم بالاستيلاء على روان ،

والانتصار على قوات كوندية وكوليني في نورمانديا . ولكن دوق دى جين قتل أمام أسوار أورليان ؛ وتحول الأمر إلى مسألة دثار ، بين المجموعتين .
وهذأت الحروب لعدة سنوات ولم يعرف البروتستانت كيف يفيدون منها .
وفى سنة ١٥٦٥ ، تمت مقابلة بين كاترين دى مدسيس ، وإختها ليزبلا ، ملكة اسبانيا ، فى بايون ، والتي كان يصحبها دوق ألفا . وكان من المعروف أن كاترين كانت ترغب فى تزويج إبنتها مارجريت بدون كارلوس ، ابن فيليب الثانى ، ملك اسبانيا . ولكن هذه المقابلة تم فيها وضع خطوط التعاون الفرنسى الاسباني ضد الثورة المعلنه فى الأراضى المنخفضة ؛ وسرعان ما زحف جيش أسباني بقيادة دوق ألفا على طول حدود فرنسا الشرقية إلى هولندا . وكانت تصحبه فرقة إستطلاع فرنسية . فثارت مخاوف كوليني ؛ أنشط محركى الهيجونوت ، وصمم على العمل ، وعلى تخليص البلاط الفرنسى من المؤامرات الاسبانية ؛ فعادت الحرب من جديد .

وقد انتهت الحرب الثانية ، ولم يفصلها عن الحرب الثالثة سوى صلح لونجيمو القصير الأمد سنة ١٥٦٨ . وفى هاتين الحربين ظهرت أهمية لاروشيل لأول مرة على أنها حصن بحرى بروتستانى له قيمته ، يمكنه أن يصمد للحصار ؛ كما ظهرت قيمة هنرى نافار ، ابن أنطوان ملك نافار ، وهو الذى سيصبح هنرى الرابع فيما بعد ، باعتباره قائداً بروتستانياً . ورغم سلسلة متلاحقة من الانتصارات الكاثوليكية ، وأسر كوندية ، ومذبحة جرناك ، وتغطية ساحه مونكتون بجثث سنة آلاف من الهيجونوت ، إلا أن النصر النهاى فى هذه الفترة كان فى جانب كوليني . ولقد قام هذا القائد بالإسحاب من اللوار صوب الجنوب ، وكون جيشاً جديداً زحف به على باريس ، حيث وجد البلاط منزوع السلطة ، وشارل التاسع مستعد للتفاهم ؛ فانتزع لنفسه السيطرة على سياسة فرنسا ، ووقع معه على صلح سان جرمان .

٤ - صلح سان جرمان .

إعترف صلح سان جرمان ، الموقود في شهر أغسطس سنة ١٥٧٠ ، بأهمية مجموعة الهيجونوت كهيئة ذات مصالح خاصة لها كيأنا في فرنسا . ونسمح للنبله منهم بأن يقيموا الصلوات ، طبقاً لمذهبهم ، في قلاعهم ، ولكل من يرغب في حصولها ؛ ونص على بقاء شعائر العبادة البروتستانتية في كل المدن التي تمارس فيها ؛ وفي مدينتين من مدن كل مقاطعة . ووضعت في أيديهم ، ولمدة سنتين ، أربع مدن ، هي لاروشيل ، ومنتوبان وكونياك ولاشاريتيه .

وهكذا تمكن الهيجونوت من إستعادة نفوذهم؛ وعمل كوليني على أن يضمن حماية البروتستانت في فرنسا ، عن طريق إشعال الحرب ضد اسبانيا في الأراضي المنخفضة . فحاول إقامة حلف من فرنسا وانجلترا وهولندا وتوسكانيا والبنديقية ، لإقرار السلام في البلاد ، ومحاولة ضم الفلاندر وآرتوا إلى أملاك فرنسا . ووقع كوليني على معاهدة بلوا الدفاعية مع انجلترا ، من أجل ذلك ، في ١٩ أبريل سنة ١٥٧٢ . وقام الهيجونوت ، في نفس الوقت ، بترتيب أمر زواج الأميرة مرجريت فالوا ، أخت الملك ، هنري نافار .

وأثار كل ذلك الملكة الوالدة ، كاترين دي ميديسيس ، وكانت تعلم أن غالبية البلاد لاتزال كاثوليكية ، رغم أن ثلثي النبلاء كانوا قد تحولوا إلى البروتستانتية . وكان من الصعب أن توافق انجلترا ، لفترة طويلة ، على ضم الفلاندر لفرنسا . وقررت الملكة الوالدة ضرورة التدخل ، عن طريق إغتيال كوليني ؛ ولكن هذه العملية فشلت ، فقررت ضرورة اغتيال أكبر عدد من زعماء ورؤساء الهيجونوت . وتم ذلك في يوم ٢٤ أغسطس ، يوم القديس بارتليو ، في سنة ١٥٧٢ ؛ وكانت مذبحه في باريس ، قتل فيها مايتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف من الهيجونوت . وأرسلت رأس كوليني إلى البابا ، الذي فرح بها ، وأرسل وردة ذهبية إلى

الملك ، وأمر بنقش ميدالية ذهبية لهذه المناسبة . أما فيليب الثاني ، ملك إسبانيا ، فإنه رأس صلاة شكر لهذا النصر الكاثوليكي العظيم .

ولكن تزايد أهمية أسيرة جين ، كان يمثل خطراً تجاه الملك ، خاصة وأنه كان قد سايروهم لفترة من الوقت ؛ فربما يتدخلوا ، مستندين إلى أهالي باريس ، لعزله وإنزعج الملك منه . ولقد حدثت محاولة لذلك سنة ١٥٧٤ . وهكذا كانت مذبحه سان بارتليميو سبباً في حرب جديدة بين الكاثوليك والبروتستانت في فرنسا . وتحدى الهيجونوت القوات الملكية ، واتخذوا لاروشيل في الغرب مركزاً لهم ، واتصلوا بالهولنديين ، وتعاون معهم لفترة من الوقت الأخ الأصغر للملك .

ومن ناحية أخرى ، كان الملك والملكة الوالدة مستمران في عرض السلام والهدنة على الهيجونوت ، في كل مناسبة ؛ ولكنهما قاما ، في سنة ١٥٧٦ ، بالتبندد في موقفهما ؛ وتكون إتحاد كاثوليكي ، يسمى « العصبة » تحت رعاية البابا ، ملك إسبانيا ، من أجل تدعيم ركائز العقيدة الكاثوليكية في فرنسا .

ولكن الأخ الأصغر للملك ، والإبن الأصغر لكاترين دي ميديسيس ، توفي في سنة ١٥٨٤ ؛ ولم يكن للملك إبناً ، الأمر الذي جعل هنري نافار هو الوارث للعرش ؛ وكان بروتستانقياً . وأعطى ذلك قوة لرجال دوق دي جين ، ولليسوعيين ، الذين سيطروا على شؤون الدولة ، حتى لا تقع السلطة في أيدي البروتستانت ؛ ووصل بهم الحد إلى تحدى سلطة الملك نفسه ، حتى في عاصمته باريس . فاضطر الملك إلى استخدام سلاح المؤامرات ضدهم ، ورتب أمر إغتيال كل من دوق دي جين ، وأخيه كاردينال اللورين في نهاية سنة ١٥٨٨ . ثم قامت « العصبة » بعد ذلك بعزل الملك هنري الثالث ؛ في الوقت الذي كانت لا ترضى فيه بتولي هنري أمير نافار ، وهو بروتستانتي الحكم . ثم إغتيال هنري الثالث في أول أغسطس سنة ١٥٨٩ ، فدخلت الحروب الدينية في دور صراع بين العصبة ، وبين هنري نافار .

٤ - هنري الرابع :

شكلت العصبة لجنة من ستة عشر عضواً لحكم باريس برئاسة دوق ماين ، الأخ الأصغر لدوق دي جيز ، وأجبرت باريس على ان تعيش في ظل جو من الإرهاب . وكان النبلاء لا يقبلون أن تحكم فرنسا أميرة إسبانية ، ولا حكم نيل فرنسي يفتخه مجلس طبقات الأمة ، ولذلك فإنهم التفتوا حول هنري نافار . وكان إصرار اللجنة التي تحكم باريس على أن يظل مذهب الملك كاثوليكياً يجبر هنري نافار على أن يعلن رجوعه إلى الكاثوليكية ، حفاظاً على المملكة ، أكثر من كونه جرياً وراء العرش . ولذلك فإنه أعلن تخليه عن البروتستانتية ، وأجبره تعصب الأهالي بعد ذلك على أن يبقى ثمانية شهور خارج باريس ، قبل أن يدخلها . وسير سم باسم هنري الرابع ، وكان أول أسرة البوربون ، بعد أن إنتهى حكم أسرة فالوا .

وأظهر هنري الرابع أنه يهتم بسعادة ورخاء شعبه ، وإستخدم وزيراً بروتستانتياً ، وهو سوللي ، وعمل على قمع الفوضى وتحسين الزراعة ، وترويج التجارة ، وإعادة السلام والإطمئنان إلى بلد لم يعرف السلم منذ قرن من الزمان . ومنذ أول حكمه ، واجهت هنري الرابع مشكلتان عويصتان : الأولى هي الوجود الاسباني ، والثانية هي مشكلة الهيجونوت . ولقد تمكن من أن يطارده بمساعدة الملكة اليزابيث ، جيشاً إسبانياً من إميان ؛ وأجبر إسبانيا ، بمعاودة فرغان سنة ١٥٩٨ عن التخلي عن كاليه وبلافيه في بريتانى ، واللتين كانت إسبانيا قد إستولت عليهما بصفتها حليفة للعصبة الكاثوليكية .

أما مع الهيجونوت ، فإن الضرورة كانت تقحم الانفاق ؛ وكانوا قد تحدوا المملكة لمدة ثلاثين عاماً ، ولهم جيوش بلغت قوتها ٢٥,٠٠٠ مقاتل . وتمكن هنري الرابع أن يحل هذه المشكلة بمرسوم نانت ، الذي جاء إعلاناً عن التسامح . ومنحت هذه التسوية الهيجونوت حرية العبادة في نلاع النبلاء ، وفي أماكن

انصت عليها ، ومنحهم المساواة في الحقوق المدنية والحماية القانونية ؛ ومنحهم حق وضع حاميات في أكثر من مائة مدينة محصنة ، بما في ذلك لاروشيل وسوهر ومونبالييه . والواقع أن هذه التسوية سمحت بوجود دولة ميجرونوتية صغيرة ، يجيشها وقلاعها وحكومتها ، تعيش داخل فرنسا ؛ وجاءت شاهدا على التسامح الديني ، في الحياة الدستورية لفرنسا ، قبل أن يتم الاعتراف بنفس الوضعية في إنجلترا ، أو ألمانيا ، وبوقت طويل .

ولقد دخلت فرنسا ، في عهد هنري الرابع ، فترة ازدهار واضح في تاريخها ، سواء أكان ذلك في الزراعة ، أو التجارة ، أو الصناعة . ولكن هنري الرابع أخطأ في أنه لم يستند في حكمه إلى مجلس طبقات الأمة ؛ كما أنه أخطأ من جديد بموافقته على عودة اليسوعيين ، الذين كانوا قد طردوا من فرنسا سنة ١٥٩٤ . ونتج عن تساءله في إعادة اليسوعيين أن زاد نفوذهم في البلاط ، وتأثيرهم على التعليم ، وكانوا متعصبين ؛ الأمر الذي أدى إلى طرد الميجرونوت ، ونقض مرسوم نانت ، الذي كان أعظم عمل قام به هنري الرابع في فرنسا .

الفصل الرابع والعشرون

نشأة جمهورية هولندا

كانت هولندا ، مع بقية الأراضي المنخفضة ، خاصة لحكم إسبانيا ، التي تميزت بقوتها طوال القرن السادس عشر . ومع ظهور مذاهب الإصلاح الديني ، وانتشارها في الأراضي المنخفضة ، زادت إسبانيا من وسائل تحكمها هناك ، واستخدمت محاكم التفتيش ، كما استخدمت سياسة القمع العسكري ، بحملات منظمة وقوية . وكانت هناك عوامل أخرى ، سياسية وإقتصادية ، أدت إلى أن تقوم الثورة في الأراضي المنخفضة ، وتقف في وجه التحكم الإسباني ، وإلى أن تصل في نهاية الأمر إلى الاستقلال ، وإنشاء جمهورية هولندا . وكانت هذه ضربة قوية أصابت إسبانيا ، وعملت على وقف نموها .

١ - إسبانيا وقوتها :

كانت إسبانيا ، وقت الإصلاح الديني البروتستانتي ، هي أكبر نصير للكاتوليكية في أوروبا . وكانت سلطة الكنيسة والرهبان ومحكم التفتيش مهيمنة عليها . وكان فيليب الثاني كاثوليكيًا متعصبًا ، وتجمد تفكيره داخل نطاق الكاثوليكية ، ومحاربه لمذاهب الإصلاح الديني ، وبشكل جعله يقف ضد تيار فكري وعقائدي قوى زاهر ، ساير التحرر ، وساير التطور المادي والاجتماعي الذي أصاب المجتمع . ولقد اعتمد فيليب الثاني على جيش قوى ، هو أقوى جيوش أوروبا في ذلك الوقت ؛ وكان هذا الجيش قد تمرن على العمليات في الحروب الإيطالية ، وأصبح يضم أشهر وأكفأ قادة أوروبا العسكريين في ذلك الوقت . كما اعتمد على أسطول قوى كان يعمل في كل من البحر المتوسط والمحيط الأطلسي .

وكان الأسطول الإسباني ، في البحر المتوسط قد أثبت جدارته أمام رؤساء البحر المغاربة ، وفي هجماته على مدن شمال إفريقية ، ووجه ضربة قوية للأسطول العثماني في موقعة ليبانتو سنة ١٥٧١ ؛ وكان هذا الأسطول يعتمد على وحدات واطئة ، تعمل بالمجاديف ، وتعتمد على الالتحام مع سفن وبجارة العدو ، بالأيدى والخناجر والسواطير . أما أسطول المحيط الأطلسي ، فكان يضم « الغلايين » ، وهى سفن كبيرة ومزتفعة ؛ وسيكون من الصعب عليها منازلة القطع الصغيرة الواطئة ؛ وكذلك مواجهة السفن المائلة التى تفوقها فى تسليح جوانبها بالمدفعية .

ورغم إتساع ممتلكات إسبانيا ، فإن ميزانيتها كانت ضعيفة : فكانت الحروب تكلفها الكثير ؛ وكانت أملاك الكنيسة لا تدفع الضرائب ؛ أما الثروات التى كانت تجمع فى بيرو والمكسيك ، فكان الكثير منها ينهب ، ولا يصل إلا القليل منها لخزانة الملك . وكان النظام الإسباني الاستعماري مليئاً بالمتناقضات : ذلك أن إسبانيا حرمت ممتلكاتها ، فى ظل نظام إحتكاري — التعامل مع غير الإسبانين ، فى الوقت الذى عجزت فيه إسبانيا عن مد المستعمرات بما يلزمها ، فأدى ذلك إلى إنتشار التهريب من ناحية ؛ وإنتهاج الدولة لسياسة الإستمرار فى فرض ضرائب جديدة ، وهى مكرهة ، من ناحية أخرى ولذلك فإن إسبانيا اعتمدت على ممتلكاتها فى أوروبا ، لتزويدها بالإيرادات . وكانت أملاك إسبانيا فى جنوب إيطاليا ، فى نابولى ، فقيرة ، فوقع العبء بأكمله على الأراضى المنخفضة .

وكانت أنتورب من أغنى المدن المتاجرة فى العالم فى ذلك الوقت ، وأصبحت من أهم مراكز المعاملات الدولية . وتفوقت على بروج وجاند ، كما تفوقت على الفلاندر فى العمليات المصرفية . وكانت أمستردام ، وهى من مدن الجامعة الهنسية ، قد تقدمت وعاشت فى رخاء . ولذلك فإن الأراضى المنخفضة كانت هى المركز المالى للإمبراطورية الإسبانية ، خاصة وأنها كانت توزع السلع

التي تأتي من المستعمرات الإسبانية في العالم الجديد على كل أنحاء أوربا الشمالية .

وكانت الملكة ماري ، ملكة إنجلترا ، زوجة لفيليب الثاني ، ملك إسبانيا . وكان فيليب يقدر أهمية التعامل التجاري بين إنجلترا وملكاته في الأراضي المنخفضة ، ويقدر أهمية إنجلترا بالنسبة لإسبانيا . كدولة حليفة ؛ وكان يعلم خطورة معاداة إنجلترا لإسبانيا ، إذ كان في وسعها عرقلة مواصلاته البحرية مع الأراضي المنخفضة . وستزيد هذه الخطورة وضوحاً حين تتولى الملكة اليزابيث عرش إنجلترا ، خاصة وأنها إختارت المذهب البروتستانتي ، في الوقت الذي كان فيه فيليب الثاني كاثوليكياً متعصباً ، وعلى أي حال فإن فيليب الثاني كان يوافق على أن تتحول إنجلترا في عهد اليزابيث إلى المذهب البروتستانتي ، وتنتشر هذا المذهب في اسكتلندا ، على أن يتمكن ملوك اسكتلندا وفرنسا ، وأمراء الأراضي المنخفضة من التكتل جميعهم ، وهم كاثوليك ، ضد إسبانيا الكاثوليكية .

٢ - التحكم الإسباني في الأراضي المنخفضة :

وكانت إسبانيا تتحكم في الأراضي المنخفضة ، وكانت دوقه بارما ، وهي ابنة غير شرعية لشارل الخامس ، هي نائبة فيليب الثاني في حكم الأقاليم السبعة عشر هناك . وكان تدخل إسبانيا المستمر ، بتعليمات سرية ، للعمل ضد الهرطقة في الأراضي المنخفضة ، يعمل على إثارة المشاكل أمام الحكم الإسباني هناك ، ويظهره أمام الأهالي في شكل كراهية . وكانت المقاطعات قد حصلت على بعض الحقوق والامتيازات ، وأصبح أهلها يمتقنون وجود قوات إسبانية لديهم ، ويخشون من فظائع الاضطهاد الديني الكاثوليكي . وجاء مشروع إنشاء أربعة عشر أبروشية هناك لكي يزيد خوفهم من إمكانية إدخال محاكم التفتيش كذلك .

ووقع صراع بين الكردينال جرنفل ، رئيس مستشاري نائبة الملك ، وبين

عدد من النبلاء ؛ وبخاصة اجمونت ، الذي كان قد انتصر في سان كاتنان ، ووليم ناساو ، أمير أورانج ؛ وانتهى بفوزهما عليه ، ولكن فيليب الثاني قرر أن يكون مسجبه لجرنفل من هناك سنة ١٥٦٣ ، مرتبطاً بالقضاء على « حركة الهرطقة » . واصدر إلى سكان الاراضي المنخفضة ، في ١٨ أغسطس سنة ١٥٦٤ ، أمراً بضرورة الالتزام بقرارات مجمع ترنت ؛ هذا بالإضافة إلى الرعب الذي أشاعته محاكم التفتيش ، والتطبيق الصارم للقرارات الصادرة ضد الهرطقة . وأمام ذلك ، أصدر مجلس نائبة الملك ، وبتوجيه من الأمير أورانج ، احتجاجاً رسمياً على هذه المظالم وغيرها ، وحمله اجمونت بنفسه إلى فيليب الثاني ، في شهر يناير سنة ١٥٦٥ . ولم تؤد بعثة اجمونت إلى نتيجة إيجابية ، فتجتم الصدام .

٣ - الفورة والحرب :

وئارت النفوس نتيجة لإصرار حكومة إسبانيا على استخدام الشدة ، وتصميمها على عدم التراجع ، ولا حتى مقابلة أبناء الاراضي المنخفضة في منتصف الطريق . وتعاهد كثير من النبلاء الشبان ، من كلفنيون وحتى كاثوليك ، على ضرورة مقاومة محاكم التفتيش ؛ وكانوا قد وضعوا « حلا وسطاً » ، وصمموا على عدم التراجع عنه . أما فيليب الثاني فإنه أخذ يدبر الأمر في كل برود ، من إسبانيا .

ولكن فيليب الثاني أخطأ ؛ إذ أن كل من اجمونت وأورانج كان قد ساعده على توطيد الأمن في هذه الأقاليم وقت الاضطرابات الأخيرة ؛ ولكنه استند إلى تقارير نائبته التي وشت بهم ، وأن الجماهير تهتف لهم ، وقرر أن يتخلص منهم . وبدلاً من أن يحاول إيجاد حل طبيعي للمشكلة القائمة ، أرسل دوق ألفا ، أشهر وأحسن وأعنف قواده ، على رأس جيش من المرتزقة الاسبان والإيطاليين ، لسمحق الهرطقة في الاراضي المنخفضة ، وللتخلص من هؤلاء القادة . وإذا كان

أورانج قد تمكن من الانسحاب إلى ألمانيا ، إلا أن اجونت وهورن وقعا في أيدي الاسبان ، وقطعت رأسها في ميدان عام في بروكسل ، في شهر يونيو سنة ١٥٦٨ . فرغمهم فيليب الثاني إلى مستوى الشهداء .

ولقد استمر دوق ألفا ، لمدة ست سنوات ، يعمل جاهداً على كبت الثورة . وأعلن أن الأمير أورانج خارج على القانون ، ولكن ذلك دفع بالأمير إلى مواصلة عملياته ضد الإسبانين ، وإذا لم يتمكن في منازلهم في معركة مصفقة ، فإنه كبدهم خسائر جسيمة . ولقد اضطّر دوق ألفا ، لكي يواجه النفقات العسكرية ، إلى فرض ضرائب باهظة على الأهالي ؛ الأمر الذي ساعد على زيادة التذمر في ذلك المجتمع الذي يتكون من تجار ، ودقق الكاثوليك إلى ترك جانب الإسبانين حين فرضت عليهم ضريبة جديدة تبلغ ١٠٪ ؛ الأمر الذي أدى إلى اتحاد أبناء الأراضي المنخفضة جميعاً ضد المحتلين الأجانب . وكان الكثير من أبناء الأراضي المنخفضة يعملون في البحر ، فاتخذوا البحر ميداناً أكثر نجاحاً لهم من البر في عملياتهم ضد الإسبانين . وكانوا يعلمون أنهم فقراء ، وسموا أنفسهم بالشحاذين ؛ وكانوا قراصنة ؛ وتمكنوا بتشجيع من الانجليز ، البروتستانت مثلهم ، وتشجيع من جانب الملكة اليزابيث ، من مهاجمة السفن الإسبانية في كل مكان . ثم تمكنوا بعد ذلك من الاستيلاء على مدينة برييل سنة ١٥٧٢ ، ثم على بعض المدن الأخرى ، ودعوا وليم أورانج لكي يقود ثورتهم . وكانوا يدافعون عن مدنهم ببسالة أمام هجمات قوات دوق ألفا .

وزادت الأحوال التي إرتكبها رجال دوق ألفا . فاستدعته إسبانيا . ثم توفي القائد الثاني بعده ، مما أفسح المجال أمام الأمير أورانج ، ولكن خزانته كانت خارية ، وكانت دولته الكفنية الصغيرة ، ضعيفة ، وصدته الملكة اليزابيث بعد أن عرض عليها السيادة على مقاطعاته الشمالية . ولكن سرعان ما تطور الموقف

في صالحه ؛ ذلك أن القوات الاسبانية الموجودة في مقاطعات الجنوب أعلنت عصيانها ، نتيجة لتأخر دفع رواتبها ، ثم تحولت إلى عصابات أخذت في السلب والنهب حتى مشارف بروكسل . فاستولى الفرع على الأهالي وإنتهر أمير أورانج هذه الفرصة ، ودخل في مفاوضات مع ولايات الفلاندر وبرابانت ، باسم هولندا وزيلندا ، ومن أجل إخراج الأجانب ، وتسوية المسألة الدينية . ثم قام الإسبان بما يسمى « بالانتقام الاسباني » حين أعمالوا السلب والنهب في مدينة أنتويرب . فزال تردد أهل الجنوب ، وتم وضع تسوية جاند سنة ١٥٧٦ . وتكاثفت المقاطعات الشمالية البروتستانتية ، والمقاطعات الجنوبية الكاثوليكية ، في اتحاد سياسي لمواجهة الخطر المشترك . وحين وصل الحاكم الاسباني الجديد ، دون جوان النموسى ، وكان من المتصرين في معركة ليبانتو ، وجد أن البلاد مجمعة على ضرورة خروج القوات الأجنبية ؛ واحتفاظ المقاطعات بالمواثيق والحريات التي حصلت عليها ، فاضطر دون جوان إلى أن يوافق على ذلك .

وفي مواجهتهم لخطر الوجود الاسباني ، كان الأهالي ، في الشمال والجنوب ، قد نسوا مشكلة أساسية تفرق بينهم ، وهي مشكلة المذهب الديني ، وسرعان طرحت المسألة : فثار الكالفينيون في جاند على حكومتهم ، وسجنوا أحد الأدواق الذي كان من قادة الكاثوليك في الجنوب ، فثارت الحرب المذهبية . وفي ذلك الوقت نزلت قوات دوق بارما ؛ وكانت تتكون من عشرين ألف مقاتل ، إلى الأراضي المنخفضة ؛ وتمكنت من هزيمة الثوار في موقعة جيمبلو سنة ١٥٧٨ ، وضمنت بذلك عودة المقاطعات الجنوبية ، الكاثوليكية ، إلى إسبانيا .

وهكذا تم الفصل بين هولندا وبلجيكا ؛ وبعد أن كان دوق ألفا قد سحق برتستانت الجنوب ، عمل دوق بارما على عدم عودتهم إلى هناك ، وأقام الكاثوليك في الجنوب ، إتحاد آراس ، فقام أورانج في سنة ١٥٧٩ بعمل إتحاد أوترخت بين البروتستانت في الشمال .

ولقد أعلنت الامبراطورية أن أمير أورانج خارج على القانون ؛ ولكنه تمكن في ٢٦ يوليو سنة ١٦٨١ من أن يجمع ممثلوا برابانت والفلاندر وأوترخت وجلد رلانده وهولندا وزيلندا في لاهاي ، ووقعوا وثيقة أقسموا فيها على خلع ولائهم للتاج الاسباني . وأغتيل الأمير أورانج سنة ١٥٨٤ وهو في سن الحادية والخمسين من العمر ؛ ولكنه كان قد أتم صنع دولة ، سةتفوق على البحار ، وتنشئ امبراطورية غنية في الشرق ، وتقف في وجه أساطيل انجلترا ، وجيوش فرنسا .

٤ - الجمهورية :

وكانت هذه الدولة الجديدة عبارة عن اتحاد من سبع جمهوريات صغيرة ذات سيادة ، لكل منها برلمانها المحلي ، وحاكمها التنفيذي المنتخب ، وحقها في المشاركة في الاشراف على مالية الاتحاد وسياسته الخارجية . وكان للاتحاد مجلس نواب ، ينظر الشؤون التي تهم الاتحاد كله ، ويعين القائد العام للجيش ، والقائد العام للأسطول .

وفي الوقت الذي إغتيل فيه الأمير وليام أورانج ، كان دوق بارما في أوج انتصاره ، فسقطت مدن الفلاندر وبرابانت في يديه ، واحتل بروكسل وأنتورب ، وهدد بتحطيم معاقل البروتستانتية في الشمال ، في هولندا وزيلندا . ولكن جيشاً إنجليزياً صغيراً أرسلته الملكة اليزابيث إلى هناك ، بقيادة ليستر ، بث الحماس بين الأهالي . وأخطأ دوق بارما ، وأخذ في جمع جيش لغزو انجلترا ، ولكن تحطيم الأرمادا بدد آماله . ثم أخطأ من جديد ، حين ذهب إلى فرنسا لتأييد الكاثوليك ضد الهيجونوت ، ولينقذ باريس ، وكان عليه أن يسيطر على أمستردام . وبدلاً من احتلال هولندا ، احتل روان . وتوفي سنة ١٥٩٢ دون أن يحقق شيئاً .

ولقد قام كل من موريس ناساو ، بن وليام أورانج ، وابن عمه وليام ناساو ،

بإنشاء جيش يمكنه أن يهزم الإنسان في معركة مكشوفة ؛ وتمكن موريس في أربع معارك رائعة حتى سنة ١٥٩٧ من أن يحرر أرض المقاطعات المتحدة . كما تمكنت البحرية الهولندية من أن تثبت تفوقها على الأسطول الإسباني ، بانتصارها عليه في جبل طارق سنة ١٦٠٧ ، مما أجبر الأسبانيين على التفكير في طلب الصلح . وكانت هناك عقبات في سبيل ذلك ، وهي الاستقلال ، والدين ، والتجارة ؛ فظهر استحالة عقد الصلح بين الطرفين ، إلا أنه عقدت بينهما هدنة في أنتويرب في ٩ أبريل سنة ١٦٠٩ ؛ ولمدة اثنا عشر عاماً . وإذا كان موضوع الدين لم يذكر ، إلا أن الهولنديين حصوا من الأسبانيين على اعتراف باستقلالهم ، وبحقوقهم في المتاجرة في المياه الإسبانية .

وهكذا اعترفت إسبانيا بعجزها عن قهر الهولنديين ، وأوقف النمو الإسباني ، ولأول مرة . وكانت إسبانيا قد وجهت مجهودها ضد الملكة اليزابيث ملكة إنجلترا ، وضد هنري الرابع ، ملك فرنسا .

الفصل الخامس والعشرون

الحرب بين إنجلترا وإسبانيا

كان الاختلاف في التكوين والاختلاف في الأهداف ، بين إنجلترا وإسبانيا ، سبباً في وقوفها الواحدة في مواجهة الأخرى. وبعد أن تدعم المذهب البروتستانتي في إنجلترا في عهد إليزابيث ، ازدادت المنافسة بين الدولتين وتراكت المشكلات المادية والمعنوية ، لكي تصل إلى مرحلة الحرب بينها ، وفي صالح إنجلترا ، وضد مصلحة إسبانيا ، التي تحطم أسطولها الكبير ، الأرمادا ، على أيدي بحارة إنجلترا. وكانت ضربة قوية لإسبانيا، أكدت وقف سيطرتها، ومهدت لإنهاء هذه السيطرة ، وهزيمة إسبانيا نفسها قبيل منتصف القرن السابع عشر ، مع صلح وستفاليا ، عند نهاية حرب الثلاثين عاماً .

١ - الملكة إليزابيث وتدمير البروتستانتية :

كان فيليب الثاني ، ملك إسبانيا ، قد ارتبط بإنجلترا ، مع زواجه من الملكة ماري . وحين دخل في صراع من أجل فرض حكمه ، وفرض المذهب الكاثوليكي على الأراضي المنخفضة ، كان يعرف جيداً قيمة إنجلترا بالنسبة له ، كحليف وصديق. وذكرنا أنه كان يعرف قيمة التجارة الإنجليزية بالنسبة لرعاياه للفلبينك ، والنتائج السيئة التي قد تترتب على وقف هذه التجارة . وكان يعلم كذلك أنه إذا ما ناصبته إنجلترا العداء ، ففي وسعها أن تعرقل مواصلاته البحرية مع الأراضي المنخفضة ؛ وعلى العكس من ذلك يمكنها أن تحمي هذه المواصلات إذا ما كانت بينها علاقات ودية . ومع ذلك فإن النزعة التي سيطرت على فيليب الثاني كانت هي تعصبه للمذهب الكاثوليكي ، وسيكون لذلك تأثير كبير عليه ، حين تعتدق إنجلترا المذهب البروتستانتي .

وحين وصلت اليزابيث إلى عرش إنجلترا ، كانت البلاد قد عانت الكثير على أيدي
أختها ، ماري الكاثوليكية ، حين عملت على إعادة البلاد إلى حظيرة الكنيسة
الرومانية. ووجدت اليزابيث أن جزءاً كبيراً من شمال إنجلترا لا يزال كاثوليكياً ،
وكان هناك جيشاً فرنسياً كاثوليكياً يعسكر في جنوب إسكتلندا ، وكانت إيرلندا
كاثوليكية . ورغم ذلك فإن اليزابيث صممت على أن تكون هي ، وإنجلترا ،
بروتستانتية .

ولقد أظهرت حكومة إنجلترا تعقلاً سياسياً واضحاً في السنوات الأولى من
حكم اليزابيث . بحيث أنها تمكنت من إجراء التغييرات اللازمة ، دون أن تتورط
في حرب أوروبية . وهكذا أقيمت كنيسة إنجلترا على أساس قومي ، دون أن
يؤدي ذلك إلى اضطرابات داخلية . وأرسلت جيشاً إلى اسكتلندا ، هزم الجيش
الفرنسي الكاثوليكي الذي كان موجوداً هناك ، ومهد السبيل لحجء دعاة الديانة
البروتستانتية ، وكان أول جيش إنجليزي يدخل إسكتلندا ؛ وأعلنت معاهدة
أدنبرة نتائج هامة في تاريخ الجزر البريطانية، بوضعها أسس الاتحاد بين الإقليمين ،
وفي نطاق الإصلاح البروتستانتي في جنوب إسكتلندا . وتم ذلك في وقت كانت
فيه فرنسا مشغولة بالحروب الدينية فيها، وقامت إنجلترا علاوة على ذلك بمحاولة
لتقديم العون للثوار في فرنسا ، لكي تنمو على عملياتها الجريئة ضد إسكتلندا .

وكانت الملكة اليزابيث تعلم إنصراف جزء من الأهلالي عن حب إختها ، نتيجة
لزوجها من أجنبي ، هو فيليب الثاني ملك إسبانيا ، ولذلك فإنها صممت
على أن تكون إنجليزية قبل أي شيء آخر ؛ وضحت بمشروعات زواجها من أي
أمير أو ملك أجنبي ، حتى تكرر نفسها لخدمة إنجلترا . وحتى إذا كانت بعض
الإشاعات قد حاولت النيل من سمعتها ، إلا أن ذلك لا ينفي كونها ملكة
عظيمة لإنجلترا .

وعملت البرايث على تدعيم الكنيسة الانجليزية الجديدة بمنتهى البراعة. وسلباً، فلم يحرق أحد من خصومها، وعاملوا الاساقفة الذين جردوا من ممتلكاتهم بكل إحترام. ورغم أن البرلمان أقر قانون اوحدة الدينية، إلا أن هذا القانون لم يطبق بشكل يجعل إعتناق المذاهب الدينية المخالفة أمراً خطيراً. وأدخلت بعض التعديلات الطفيفة على كتب الطقوس الكنسية، التي وضعت على نماذج كاثوليكية، وإن كانت حكومة الكنيسة أسقفية، ونصوص عقيدتها كلفنية إلى حد بعيد. وكان هذا «التوفيق» يلقي قبولا من جماهير الانجليز. وحين قام لوردات الشمال بحركة عصيان كاثوليكية سنة ١٥٦٩، وبعد إحدى عشر عاما من جلوس البرايث على العرش، كانت البروتستانتية قد إنتشرت في جنوب إسكتلندا. وحتى في سنة ١٥٧٠، وحين أعلن البابا جرمان البرايث وأعلن عزلها، كان الكاثوليك الانجليز لا يعرفون غيرها يعطونه ولاتهم.

وحق فيليب الثاني الكاثوليكي المتعصب، فاقه نظر إلى إنجلترا وقت وصول البرايث إلى العرش، وإعتناقه المذهب البروتستانتي، على أنها بلد يمكن كسبه ومصالحته. ولم يكن فيليب يفكر في مهاجمة إنجلترا البروتستانتية، ورحب بتحطيمها للجيش الفرنسي الموجود في جنوب إسكتلندا، وفضل ذلك على إمكانية إتحاد إنجلترا واسكتلندا وفرنسا تحت حكم ماري، ملكة الاسكتلنديين، التي ستكون منافسة خطيرة له بهذا الشكل. وهكذا ثبت أن المصلحة، وفكرة التوازن الدولي، كانت أقوى من التعصب المذهبي في هذا العصر. ولم يقف فيليب الثاني في مواجهة أخت زوجته، البرايث الهريطقة، حين سيطرت بمذهبها الديني على إسكتلندا. هذا علاوة على مواجهة فيليب الثاني لصعوبات نشأت ضد حكمه في ذلك الوقت للأراضي المنخفضة، كما سبق شرحه.

٢ - المنافسة التجارية بين إنجلترا وإسبانيا :

ولم يكن الاختلاف المذهبي بين إنجلترا وإسبانيا هو سبب الخلاف الذي

وقع بينهما ، فإن سبباً آخر ، اقتصادياً ، كانت له فعالية كبيرة . وكان ذلك هو حب المال والمغامرة والتجارة ، الذي دفع الانجليز ، الذين إعتادوا ركوب البحر ، إلى تحدى ومحاولة تحطيم النظام الاحتكارى الذى حاولت إسبانيا أن تحتفظ به فى العالم الجديد وجزر الهند الغربية . حقيقة أن هذا العامل المذهى قد عمل على تقوية « تلوين » هذه المنافسة فى أول أمرها بلون العداء الدينى ، ولكنه كان تنافس إقتصادى واضح . وسيؤدى ذلك الاتجاه إلى أن يعمل بحارة إنجليز بدافع من أنفسهم ، وتعطف عليهم المملكة ، وتغض الطرف عن نشاطهم من أجل المشاركة فى تجارة العالم الجديد .

وإذا كانت حكومة إنجلترا قد حافظت على حذرهما ، فإن رجال البحر الانجليز قد إستمروا فى مغامراتهم وجرأتهم ، ولفترة سنوات طويلة . وكانت حكومة إنجلترا قد قررت تجنب الدخول فى حروب خارجية ، حتى يتم تأكدها من ولاء كل رعاياها ؛ لمحاولت التنصل من كل ما من شأنه أن يؤدى إلى وقوع صدام مع الدول الأجنبية .

وكانت العناصر البيوريتانية المتطرفة فى إنجلترا تعارض هذه السياسة ، وترى ضرورة محاربة العدو فى كل مكان ، وتدعم الاتجاه البروتستانقى فى الأراضي المنخفضة وفى فرنسا ، وفى أعالي البحار . وكانوا يعرفون قوة إنجلترا البحرية التى نمت وقويت فى هذا الوقت . وقوة تسليح سفنها ، وقدرتها على الحركة ، رغم كبر حجم السفن الاسبانية . وكانوا يرون أن فى وسع سفن القراصنة والاسطول التجارى أن تنضم إلى هذه القوة البحرية ، وتأخذ مكانتها اللاتقة بهما فى العالم . وأخذوا على الحكومة ، وعلى المملكة اليزابيث ، هدومها ، ووصل بهم الأمر إلى إتهامها بأن سياستها خالية من البطولة التى تنشدها الأمة . ولكن حكومة اليزابيث لم تلتفت إليهم ، أو لم تتأثر بهم ، وإن كانت قد تركت لهم حرية العدل ، بعيداً

عن مسؤوليتها ، كحكومة وكدولة ، لكي ينفذوا ما يرغبون فيه ، وإذا كانت السفن الإسبانية أكثر عدداً ، وأكبر حجماً من سفن الإنجليز ، إلا أن سفن الإنجليز كانت أسرع حركة ، وأكثر تسليحاً بالمدافع على الجوانب ، وكانت لها حرية الحركة ، وعطف الحكومة ، فتعود إنتصاراتها بالفائدة على الحكومة الإنجليزية ، ودون أن تكلفها النفقات ، أو تحملها النتائج المترتبة على ما تقوم به من عمليات .

وكان البحارة الإنجليز يحقدون على الإسبان وعلى البرتغال حصولهم على الهند الغربية والهند الشرقية ، ويحقدون على البابا ، الذي وزع العالم بينها . ونظروا إلى أعالي البحار على أنها مناطق لا تخضع لسيادة أحد Res Nullius ، يمكن لأي أحد أن يعمل فيها . وكانت أنباء الكشوف الجغرافية ، والتوطن والحصول على ثروات العالم تصل إلى آذانهم ، ويرونها ، وهم في البحر ، كفقراء ، وشحاذين ، ولكن قادرين ، ودون أن يكون لهم حق شرعى فيها . وشعروا بأنهم أقدر من غيرهم ، ولكن البابا كان قد قسم العالم بين الإسبانيين والبرتغاليين ، فصمموا على ألا يصبحوا كاثوليك ، وصمموا على إنتزاع مدعهم بقدرتهم على العمل ، في هذا العالم المتطور سريعاً ، عالم النهب والإستغلال ، حتى وإن كانت حكوماتهم لا تقدر على إعلان موافقتها على عملياتهم .

ولقد عمل كل من وولبي وتشانسلور في سنة ١٥٥٣ على أن يصل إلى بلاد التوابل بالسفر عن طريق الشمال الشرقى ، ففتحا بذلك طريق التجارة مع موسكو ، أما فروبشر وجيلبرت فإنهما حاولا الوصول إليها عن طريق الملاحة بطريق الشمال الغربى . فإكتشفوا مضيق همدسون ، ولكن هذه الملاحة كانت تحاول الحصول على « خط جديد » ، وداخل نطاق تقسيم العالم ، الذى كان البابا قد أقره . وكان هناك إتجاه آخر يرسم ضرورة تغيير هذه الوضعية ، إذ أن العالم لا يقسم بحرة

قلم على الكرة الأرضية ، حتى إذا كان من قام برسمها هو البابا نفسه ؛ وكان هذا الإنجاز هو الذى ساد ، وعلى أساس المنافسة ، والصراع . وسكنت حكومة اليرايث عن ذلك ؛ وكانت تعطف عليه .

ولقد رأى مجموعة من رجال البحر الانجليز ، ومنهم جون هوكنز ، الذى كان قد شارك فى عملية نقل الزوج من غرب إفريقيا إلى جزر الهند الغربية ، ضرورة استخدام القوة ؛ فسلحوا سفنهم ، واستعدوا المنازلة الاسبانيين ، وذلك من أجل تحطيم النظام الاستعماري الاحتكاري الاسباني ، وتقرير موضوع هام ، هو تجارته العالم .

وفى سنة ١٥٦٧ وقعت معركة فى ميناء سان جوان دى أولوا بين الاسبانيين والانجليز ، وكان جون هوكنز ، وأبن عمه فرنسيس دريك قد التجأ إلى هذا الميناء لمحبوب عاصفة ، بعد أن قاما بتجارة وأعمال قرصنة فى أعالي البحار ، التى كانت تابعة ، قانوناً ، لإسبانيا . وحضر أسطول إسباني يحمل الحاكم العام للمكسيك ولجأة ، وفى اوقت الذى كان فيه بحارة الدولتين يتحدثان ودياً على الشاطئ ، فتبخت السفن الاسبانية النار على سفن التجار ، أو القراصنة الانجليز . وكان للاسبان ثلاثة عشر سفينة ، وللانجليز خمسة ، تحطمت ثلاثة منها ولم ينج هوكنز ودريك إلا بعد قتال عنيف ، إنه الغدر من جانب الاسبان ، والشجاعة من جانب الانجليز ؛ وهناك ضرورة للثأر ، حتى وإن كانت المملكة اليرايث لا توافق على ذلك .

وقام دريك ، لمدة ثمان وعشرين سنة بالسيطرة على البحار ؛ وكان قرصاناً ، لا تعترف دولته به رسمياً وقام بأعمال السطو على الموانئ والاساطيل الاسبانية فى كل مكان . فكان يهاجم الموانئ الاسبانية . ويهاجم السفن الاسبانية التى تحمل كل كنوز بيرو ، عند بوزخ بنما ، وعلى شاطئ المحيط الهادى ، وعند جزر التوابل .

وهاجم السفن الاسبانية في ميناء قادس ، وأحرقها ؛ وإضطرت اليزابيث الملكة ، بعد أن حصلت على نصيبها من الغنائم ، إلى أن تحضر لمقابلته في ميناء تفورد ، وتنصبه فارساً ؛ وإن كانت الاشاعات قد إنتشرت ، على أنه عشيق الملكة ، أن هذه المنافسة ، مع غض عيون الدولة عنها ، تعنى حرباً غير معلنة بطريق رسمي ؛ ولكنها سياسة الانجليز ، سياسة الامر الواقع ، وهي السياسة الواقعية . وستتسبب مشاكل أقل من ذلك -خطورة في نشوب الحرب بين إنجلترا وإسبانيا .

٣ - ماري ستيوارت ، ملكة إسكتلندا :

وإذا كانت كل من اليزابيث ، وفيليب الثاني ، يرغب في تجنب الصدام ، إلا أن هناك عواملاً ساعدت على الوصول إليه . ورأى فيليب الثاني أن هناك حزباً كاثوليكياً يمكنه أن يستند إليه ، وبخاصة في شمال إنجلترا ؛ وكان هذا الحزب يأمل في حصوله على دعم خارجي ، فقام بالثورة في سنة ١٥٦٩ ، ولكنه لم يحصل عليها ، وسحقت حركته .

وتجتمع المتآمرون ، حول ماري ، ملكة إسكتلندا . وكانت ابنة ماري دى جيز ، من جيمس الخامس ، ومات زوجها ، فرنسوا ، ولي عهد فرنسا ، في باريس ، ثم ماتت أمها ماري دى جيز ، التي كانت مع جيش الكاثوليك في جنوب إسكتلندا . وحكمت إسكتلندا ، وتزوجت دارنلي ، الذي كان يطمع في عرش إنجلترا عن طريق أمه . وأعطى هذا الزواج ولداً أصبح جيمس السادس ، ملك إسكتلندا ، ثم أصبح جيمس الأول ملك إنجلترا . وقتل أحد النبلاء زوجها ، وتزوج منها . وتقرز النبلاء الاسكتلنديون من ذلك ، وسجنوا ملكتهم ، التي هربت من السجن ، والتجأت إلى اليزابيث ملكة إنجلترا .

وكان في وسع اليزابيث أن تعيد الملكة ماري لكي تحاكم في بلادها ، ولكنها احتفظت بها سبيئة ، وحاولت أن تحصل منها على تصريح بالتنازل عن عرشها

لإبناها جيمس السادس ، على أن يتلقى تعليمه في إنجلترا . ولكن الملكة ماري رفضت ذلك ، وسأيرت مشروع آخر ، للتزوج من فيليب الثاني ، ملك إسبانيا ، الأمر الذي كان يقلب الأوضاع رأساً على عقب .

وبعد تسعة عشر عاماً من السجن ، (١٥٦٨ - ١٥٨٧) ، أصبحت ماري ، ملكة إسكتلندا مركزاً للتآمر . وساعدها على ذلك موقف فيليب الثاني ، وموقف البابا ، وأدى ذلك إلى مؤامرات ، فطلب أعضاء مجلس العموم والوردات أعدامها . ووافقت إليزابيث على ذلك ، بعد أن كانت الملكة ماري قد تركت شعبها ، ولم تعد أكثر من أسطورة لمؤامرات الكاثوليك ضد البروتستانت ؛ أكثر من كونها عروس تزف إلى عريسها . ووقع ذلك القرار موقع الصدمة على إسبانيا ، وعلى ملكها .

٤ - الحرب وتحطيم الأرمادا :

ولقد نظرت إسبانيا إلى هذا القرار نظرة التحدي ، خاصة وأن الظروف العامة كانت قد أوصلت أنباء موت الملك سبستيان ، ملك البرتغال في حربه ضد المغرب دون أن يترك وريثاً سنة ١٥٨٠ ، الأمر الذي أدى إلى ضم ملك البرتغال ، وإمبراطوريتها الاستعمارية فيما وراء البحار ، إلى الإمبراطورية الإسبانية . وإنتمت البرازيل وجزر آזור ، وإمبراطورية البرتغال في الشرق الأقصى إلى ملك إسبانيا . وكان فيليب الثاني لا يزال متردداً في محاربة إنجلترا ، وكان مشغولاً بالحرب في الأراضي المنخفضة . وكانت إنجلترا تؤيد أعداء البرتغاليين ، وثورة الهولنديين ، وكانت فرنسا مشغولة بحروبها الدينية . ولكن ماري إيسكوارت كانت قد اعترفت بفيليب خليفة لها على عرش إنجلترا ، فسار في هذا الطريق ، وإلى النتيجة المحتومة .

ولقد بذلت إسبانيا مجهوداً كبيراً في إعداد أسطولها العظيم ، الأرمادا ،

وأُقلعت سفنه في ٣٠ مايو سنة ١٥٨٨ بقيادة دوق دى ميدينا سيدونيا ، للتقدم في بحر المانش إلى دنكرنك ونيوبورت ، ولتقل جيش بارما إلى إنجلترا ، ولكي يقوم بعزل اليزابيث ، وتعيين ابنه فيليب الثاني مكانها ، ملكة على إنجلترا . وكان فيليب الثاني قد استند إلى خياله ، وخیال المنفيين ، وعجز عن قياس قوة إنجلترا ، وقوة الرأي العام فيها ، وإتخاذهم المذهب البروتستانتي طريقاً لهم ، وغيرتهم على مصالحهم . مصلحة إنجلترا ، والانجليز ، قبل أي إعتبار آخر . وحتى في حالة تمكن جيش بارما من النزول إلى إنجلترا ، فإنه كان سيلقي مقلومة عنيفة ، ومن كل الانجليز .

وإنهزات الحطة الاسبانية ، وعجزت سفنها الكبيرة عن مواجهة السفن الأصغر منها ، والأسرع منها حركة ، والاکثر منها قدرة على الحركة والأقوى منها في كمية نيران المدفعية فهزمت الأرمادا الشهيرة في معركة بحرية في جرافيلينز ، وجاءت العواصف من بحر الشمال والمحيط الأطلسي لكي تقضي على بقية الأرمادا ، الأسطول الاسباني الكبير . وبينما كان أسطول هولندي يراقب دنكرنك ، وأجبر دوق بارما على البقاء على الساحل ، قام دريك وهوكنز وفروشر بتحطيم الغلايين الاسبانية .

وكانت معركة ، ولكنهم رفضوا الاعتراف بها على أنها فاصلة ، ونقطة تحول في التاريخ ، فاستمرت الحرب البحرية حتى سنة ١٦٠٤ ، وتمكن الانجليز من نهب قادس سنة ١٥٩٧ ، وإتصلوا بالموريسكيين في بلنسية ، وبأعوان دون أنطونيو ، المطالب بعرش البرتغال . وفي نفس الوقت ، إعتدت إسبانيا على اليسوعيين الانجليز ، وكاثوليك أيرلندا ، وأنزلت بعض قواتها هناك .

وعلى أي حال فإن هزيمة الأرمادا الاسبانية أثبتت أن قوات فيليب الثاني ، وإسبانيا ، يمكن هزيمتها . ورغم أن الاسبان قد واصلوا عملياتهم في فرنسا ،

والأراضي المنخفضة ، وفي أعالي البحار ، إلا أنهم كانوا قد هزموا بالفعل . وتحطمت آمال إسبانيا الكاثوليكية في فرنسا في عهد هنري الرابع ثم في أيرلندا ، وإعترفت في سنة ١٦٩٩ باستقلال الهولنديين . وفي هذا الوقت ثبت أن المصلحة هي أناس العلاقات ، فتحلى الفرنسيون عن الانجليز ، وتحلى الانجليز عن البولنديين . وخين عقد الصلح بين إنجلترا وإسبانيا ، سنة ١٦٠٤ ، في عهد جيمس الأول ، نص هذا الصلح على حق الاسبانين في منع الانجليز من الدخول إلى جزر الهند الغربية ، وعلى محاکمتهم أمام حاكم التفيتش . ولكن الأمر كان يتوقف على تمكن الاسبان من القاء القبض على الانجليز ، وكان هذا شيئاً هاماً . كما أن هذا الصراع ، مع حرب الأرمادا ، أتم عملية تحويل إنجلترا إلى بلاد بروتستانتية .

ولقد قام الاسبانيون ، بعد ذلك ، بالاستمرار في عملية كراهية المغاربة والمسلمين الموجودين لديهم ، وقاموا بطردهم ، رغم كونهم من العناصر النشطة في الميادين المنتجة ، الزراعية والحرفية ، فأدى ذلك إلى زيادة فقر إسبانيا ، التي أففلت على نفسها الباب في تعصبها ، وفي احتكارها ، وانغلاقها .

أما الانجليز ، فإنهم عملوا على إثراء بلادهم ، بما يحصلون عليه من غنائم من الاسبانين والبرتغاليين على البحار ، وبعملياتهم للنزول إلى ميدان الاستعمار .

وكانت عملية نمو إسبانيا وسيطرتها على أوروبا ، وعلى العالم ، قد أوقفت ، في هولندا ، التي استقلت عنها ، وفي فرنسا ، التي وصل هنري الرابع إلى عرشها ، ومع إنجلترا ، التي هزمت الأرمادا .

* * *

وساد عصر جديد ، بعد نمو الرأسمالية ، وظهور عصر النهضة ، والكشوف

الجغرافية، والحروب الإيطالية ، ووصول الدولة العثمانية الى أوج عظمتها وقوتها
في عصر سليمان القانوني ، والتي تمكنت الدولة الاسبانية ، بعد وصول العثمانيين
الى أسوار فيينا ، من هزيمة أسطولهم في معركة ليبانتو . وهذا العصر الجديد هو
التاريخ الحديث ، بما فيه من توازن القوى الأوروبية ، وإذا كان التفوق الاسباني
قد أصابته ضربة أوقفت نموه ، فإن ذلك سيؤدي بنا من فجر التاريخ الحديث ،
الى الدخول التاريخ الحديث نفسه ، ومنذ بداية القرن السابع عشر .

محتويات الكتاب

٥	مقدمة
٧	تمهيد : مميزات العصور الوسطى

الباب الأول

٤٣	تفكك عالم العصور الوسطى في المغرب
٤٥	الفصل الاول : ضعف النظام الاقطاعى وازدياد قوة الملكية :
٤٦	١ - النظام الاقطاعى
٥٢	٢ - التركيب الاجتماعى والتنظيم السياسى
٥٧	٣ - تطور النظام الاقطاعى
٦٢	٤ - ضعف الاقطاع فى فرنسا
٦٧	٥ - ازدياد قوة الملكية
٧١	الفصل الثانى : الصراع بين البابوية والامبراطورية :
٧١	١ - الخلاف بين بونيفاس الثامن وفيليب الجميل
٧٨	٢ - هزيمة البابوية والتفكك الدينى والسياسى
٨٥	٣ - ضعف البابوية والامبراطورية
٩٢	٤ - الاستعداد للهجوم على الكنيسة
٩٩	الفصل الثالث : حرب المائة عام :
١٠٠	١ - تطور الاوضاع فى كل من فرنسا وانجلترا
١٠٧	٢ - الهزائم الفرنسية ونتائجها
١١٣	٣ - الفوضى فى فرنسا ووصول لانكستر إلى الحكم فى انجلترا
١١٨	٤ - الغزو الانجليزى ورد الفعل الفرنسى

الباب الثاني

١٢٧

التغيرات العميقة

١٢٩ الفصل الرابع : التغيرات الاقتصادية والاجتماعية :

- ١ - الأوضاع الاقتصادية ١٢٩
- ٢ - حالة المجتمع ١٣٣
- ٣ - المنافسة بين مراكز الإنتاج الصناعي ١٣٨
- ٤ - الحركات الاجتماعية في المدن ١٤٢
- ٥ - تفكك إطارات حياة الريف وثورات الفلاحين ١٤٩

١٥٤ الفصل الخامس : التجارة والمراكز البحرية :

- ١ - الوسائل الجديدة ١٥٤
- ٢ - أهالي جنوا ١٥٨
- ٣ - البندقية وامبراطوريتها ١٦٣
- ٤ - الجامعة الهندسية ١٦٧
- ٥ - البحارة الايطاليون ١٧٢

١٧٧ الفصل السادس : الاتجاهات الاقتصادية الجديدة :

- ١ - نمو الرأسمالية ١٧٨
- ٢ - الظروف الجديدة للعمل في الصناعات ١٨٢
- ٣ - المراكز التجارية الجديدة ١٨٦
- ٤ - أولى مراكز الأطلسي والتطلع إلى طرق بحرية جديدة ١٩١

الباب الثالث

١٩٩ زحف العثمانيين وانتصاراتهم

٢٠١ الفصل السابع : امبراطورية المغول :

٢٠١ ١- الامبراطورية

٢٠٣ ٢- التفكك

٢٠٨ ٣- آسيا المغولية

٢١١ ٤- بداية حكم تيمور

٢١٤ ٥- الفوضى عند المسيحيين في الشرق

٢١٩ الفصل الثامن : قيام الدولة العثمانية :

٢١٩ ١- نشأة العثمانيين

٢١٣ ٢- توسع العثمانيين في عهد بايزيد (١٣٨٩ - ١٤٠٣)

٢٢٦ ٣- غزوات تيمور لذك في آسيا الغربية

٢٣١ ٤- أزمة الدولة العثمانية بعد موقعة أنقرة

٢٣٦ الفصل التاسع : محمد الثاني وفتح القسطنطينية :

٢٣٦ ١- الاستعداد

٢٣٩ ٢- الحصار

٢٤١ ٣- الهجوم وفتح المدينة

٢٤٥ ٤- بقية أعمال محمد الفاتح

٢٥٠ ٥- بايزيد الثاني

الباب الرابع

النهضة الأوروبية

٢٥٧

الفصل العاشر : ظهور النهضة في إيطاليا : ٢٥٩

- ١ - خصائص النهضة ومظاهرها ٢٥٩
- ٢ - أسباب ظهور النهضة في إيطاليا ٢٦٦
- ٣ - إحياء الدراسات القديمة ٢٧٠
- ٤ - ظهور اللغات الحديثة ٢٧٦
- ٥ - الفنون الجميلة ٢٧٨

الفصل الحادى عشر : بعض كبار شخصيات النهضة في إيطاليا : ٢٨٥

- ١ - الآداب : دانتي البجيميرى ٢٨٥
- ٢ - الأمراء : لورنزو العظيم ٢٨٩
- ٣ - الراهب الشاعر : مافونا رولا ٢٩٣
- ٤ - السياسة : مكيافيللى ٢٩٨

الفصل الثانى عشر : النهضة في بقية أنحاء أوروبا : ٣٠٦

- ٢ - روح النهضة الإيطالية ٣٠٦
- ٢ - النهضة في فرنسا ٣١٠
- ٣ - النهضة في ألمانيا ٣١٢
- ٤ - النهضة في إنجلترا ٣١٣
- ٥ - النهضة في إسبانيا والبرتغال ٣١٤

الباب الخامس

- ٣١٧ **الكشوف الجغرافية وبداية الاستعمار**
- ٣١٩ **الفصل الثالث عشر : كولومب والعالم الجديد :**
- ٣١٩ ١ - كريستوف كولومب
- ٣٢٤ ٢ - الامبراطوريات السابقة لكولومب
- ٣٢٩ ٣ - غزو الهند الغربية
- ٣٣٥ ٤ - إدارة الهند الغربية
- ٣٣٩ **الفصل الرابع عشر : الاسبانيون :**
- ٣٣٩ ١ - بين الانسانية والوحشية
- ٣٤٥ ٢ - تجارة العبيد والتخليط
- ٣٤٩ ٣ - إستغلال أمريكا اللاتينية
- ٣٥٢ ٤ - أوروبا الاسبانية
- ٣٦٠ **الفصل الخامس عشر : البرتغاليون ومنافسوهم :**
- ٣٦٠ ١ - البرتغاليون في الهند الشرقية
- ٣٦٥ ٢ - حدود الشرق الأقصى مع أقصى الغرب
- ٣٦٩ ٣ - المنافسة الانجليزية
- ٣٧٢ ٤ - المنافسة الفرنسية

الباب السادس

- ٣٨١ **الصراع في حوض البحر المتوسط**
- ٣٨٣ **الفصل السادس عشر : المرحلة الاولى من الحروب الايطالية**
- ٣٨٤ (حتى سنة ١٥١٥) :
- ٣٨٤ ١ - التدخل الفرنسي في إيطاليا

- ٢ - الخلاف بين فرنسا والبايا ٣٨٧
- ٣ - سيطرة إسبانيا على الخوض الغربي للبحر المتوسط . . . ٣٩٠
- ٤ - إستمارة الحرب حتى موقعة مارينيان سنة ١٥١٥ . . . ٣٩٣

الفصل السابع عشر : التوسع العثماني في الشرق الأدنى في عهد

- سليم الأول (حتى سنة ١٥١٨) ٣٩٧
- ١ - الصراع المملوكي البرتغالي وضعف سلطنة المماليك . . . ٣٩٧
- ٢ - حتمية الصدام العثماني المملوكي ٤٠٠
- ٣ - الاستيلاء على الشام وعلى مصر ٤٠٣
- ٤ - إمكانيات العثمانيين الجديدة ٤٠٥

الفصل الثامن عشر : إستمارة الصراع بين فرنسا وإسبانيا حتى

- نهاية الحروب الايطالية : ٤٠٨
- ١ - معركة بافيا (١٥٢٥) وصلاح كامبراي (١٥٢٩) . . . ٤٠٩
- ٢ - إستمارة الصراع حتى نهاية حكم فرنسوا الأول . . . ٤١٤
- ٣ - هنري الثاني وتنازل شارل الخامس عن العرش . . . ٤١٦
- ٤ - فيليب الثاني ومعامدة كاتو كامبريسيس ونهاية الحروب
الايطالية ٤١٩

الفصل التاسع عشر : أوج القوة العثمانية في عهد سليمان

- القانوني وخطرها على أوروبا : ٤٢٢
- ١ - جزيرة رودس ٤٢٢
- ٢ - البلقان ووسط أوروبا ٤٢٥
- ٣ - البحر الأحمر وخليج عدن ٤٢٧
- ٤ - فرنسا ٤٣٠
- ٥ - غرب البحر المتوسط ٤٣٢

الباب السابع

٤٢٧ الإصلاح الدينى

٤٣٩ الفصل العشرون : ظهور المذاهب البروتستانتية :

٤٣٩ ١ - ضرورة الإصلاح

٤٤١ ٢ - مارتن لوتر فى ألمانيا

٤٤٦ ٣ - زونجلى فى سويسرا

٤٤٧ ٤ - كلفن فى جنيف

٤٤٩ الفصل الحادى والعشرون : إنتشار المذاهب البروتستانتية :

٤٤٩ ١ - خروج إنجلترا على كنيسة روما

٤٥٣ ٢ - شارل الخامس وألمانيا

٤٥٥ ٣ - إنتشار البروتستانتية

٤٥٨ الفصل الثانى والعشرون : الإصلاح الدينى الكاثولىكى :

٤٥٨ ١ - مجمع ترنت

٤٦٠ ٢ - اليسوعيون

٤٦١ ٣ - الرقابة

٤٦٢ ٤ - محاكم التفتيش

الباب الثامن

٤٦٥ التغيرات فى غرب أوروبا ووقف النمو الاسبانى

٤٦٧ الفصل الثالث والعشرون : الحروب الدينية فى فرنسا :

٤٦٧ ١ - الانقسام الدينى فى فرنسا

٤٧٠ ٢ - الحروب

٤٧٢ ٣ - صلح سان جرمان

٤٧٤ ٤ - هنرى الرابع

الفصل الرابع والعشرون : نشأة جمهورية هولندا : . . ٤٧٦

- ١ - إسبانيا وقوتها ٤٧٦
٢ - التحكم الاسباني في الاراضى المنخفضة ٤٧٨
٣ - الثورة والحرب ٤٧٩
٤ - الجمهورية ٤٨٢

الفصل الخامس والعشرون : الحرب بين إنجلترا وإسبانيا : ٤٨٤

- ١ - الملكة اليزابيث وتدعيم البروتستانتية . . . ٤٨٤
٢ - المنافسة التجارية بين إنجلترا وإسبانيا . . . ٤٨٦
٣ - ماري ستيوارت ، ملكة إسكتلندا . . . ٤٩٠
٤ - الحرب وتحطيم الامداد . . . ٤٩٦
- محتويات الكتاب : ٤٩٥

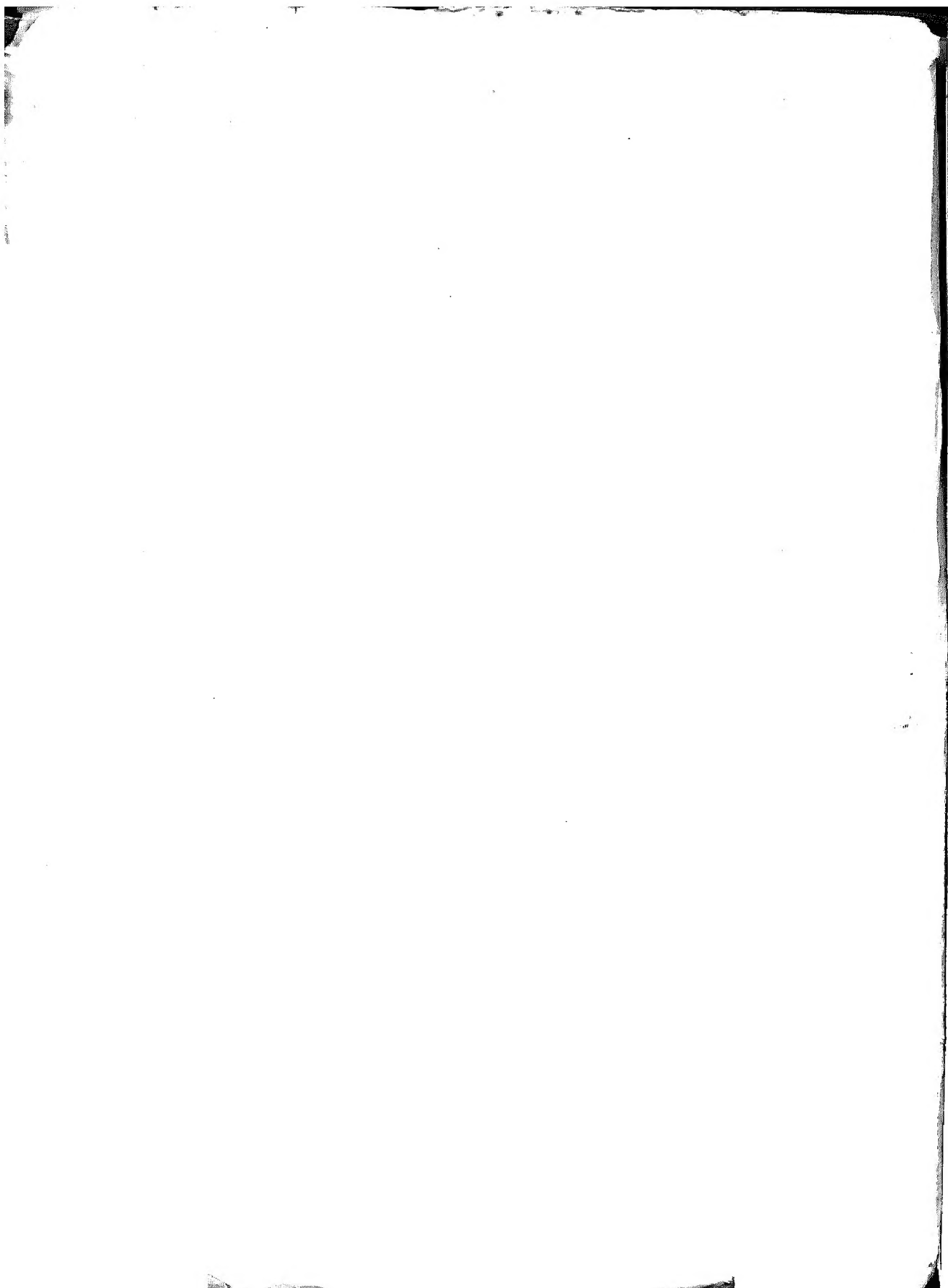
رقم الإيداع ٤٧٧١ / ٨٠
الترقيم الدولي ٣ - ٩٣٥ - ٢٠١ - ٩٧٧



المطبعة الخيرية

٥ شارع كافور الحضرة القبلية - اسكندرية


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية





Bibliotheca Alexandrina



0338624